

الْحَقُّ لِلْخَيْرِ

بَحْثٌ فِي السِّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ عَلَى صَاحِبِهَا أَفْضَلِ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ

تَأَلَّفَ

فَضِيلَةُ الشَّيْخِ

صَفِيِّ الرَّحْمَنِ الْمُبَارَكِ الْفُؤَادِيِّ

الطَّبَعَةُ الشَّرْعِيَّةُ

مُنْقَحَةٌ مَعَ إِضَافَاتٍ جَدِيدَةٍ

دَارُ الْوَفَاءِ



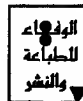
الْحَقُّ قَبْلَ الْمَخْتِومِ

حقوق الطبع محفوظة للناسر

الطبعة الحادية والعشرون: ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

طبعة منقحة مع إضافات جديدة

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - جمهورية مصر العربية
الإدارة: المنصورة - ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب
ص.ب ٢٣٠ ت: ٢٠٥٠٢٢٥٦٢٢٠٠ فاكس: ٢٠٥٠٢٢٦٠٩٧٤
e.mail:darelwafa@hotmail.com
www.darelwafaa.com



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الناشر

ستظل سيرة الرسول ﷺ هي الرصيد التاريخي الأول الذى تستمد منه الأجيال المتلاحقة من ورثة النبوة وحملة مشاعل العقيدة زاد مسيرها ، وعناصر بقائها ، وأصول امتدادها .

ومن دَرَسَ تاريخه ﷺ وأعطاه حقه من النظر والفكر والتحقيق رأى نَسَقًا من التاريخ العجيب ، استعلى به الرسول ﷺ والفئة المؤمنة معه على عناصر المادة وعوامل الجذب الأرضى ، وارتقوا بالإنسانية إلى درجات لم تشهدها على امتداد عصورها وأزمانها .

ومن يُعمِّق النظر فى سيرته ﷺ ، محاولا أن يتتبع السر الذى وقع فى التاريخ القفر المُجْدِبَ فأخصب به ، وأنبت الدنيا أزهاره الإنسانية الجميلة ، فأنشأ ﷺ رجالا ، إن عبتهم بشيء لم تعبهم إلا أنهم دون الملائكة ، يجدها تقول له : إن هاهنا دنيا الصحراء ، التى تربي فى أحضانها الرجال الذين دخلوا بالإسلام على ما دخل عليه الليل .

ولو تأملت فى أفعاله ﷺ وجدتها تقول لك : إني أصنع أمة لها تاريخ الأرض من بعد .

ولم يكن مثله ﷺ فى الصبر على البلاء والثبات على الحق واستقرار النفس واطمئنانها على زلازل الدنيا ، ولا فى الرحمة ورقة القلب والسمو فوق معانى البقاء الأرضى ، فهو قد خلق كذلك ليغلب الحوادث ويتسلط على المادة .

وبذلك كان ﷺ منبع تاريخ فى الإنسانية كلها دائما ، وللدنيا رأسَ نظام أفكارها الصحيحة .

ولقد طبع الله سبحانه وتعالى على قلب الرسول ﷺ ، فباعده بينه وبين زيغ الهوى وسرف الطبيعة ؛ ولذلك يجب على من يقرأ سيرته ﷺ ويتعرف على شمائله وحديثه أن يبحث دائما عن طابع الله فى كل شيء فيها ، وسيظهر له من تفسيرها أن الدنيا لم تستطع أن تحقق غايتها الأخلاقية العليا إلا فيها ، وأنه ﷺ كان إنسانًا ، وكان أيضًا حركة فى تقدم الإنسانية ، وأن من معجزاته ﷺ أنه أضاف فى تاريخه ما عجزت عنه البشرية فى تاريخها ، وأن كل أموره ﷺ موضوعة وضعا إلهيا كأنها صفات كَوْنُها الله وعلَّقها فى التاريخ لمعانى الحياة تعليق الشمس فى السماء لمواد الحياة .

ولو تأملت بيانه ﷺ ، تجده يتنقل إلى مثل الحالة التى تتأمل فيها روضة تنفس على القلب ، أو منظرًا يهز خياله النفس ، أو عاطفة تزيد بها الحياة فى الدم ، على هدوء وروح وإحساس ولذة ، ثم يزيد على ذلك أنه يصلح من الجهات الإنسانية فى نفسك ، ثم يرزق الله منه من رُزْقِ النور ، فإذا أنت فى ذوق البيان كأنما ترى المتكلم ﷺ وراء كلامه .

هكذا يكون النظر فى كلامه ﷺ ، فهو كلام كلما ردتته فكراً زادك معنى ، وتفسيره قريب . . قريب كالروح فى جسمها البشرى ، ولكنه بعيد كالروح فى سرها الإلهى ، فهو معك على قَدَر ما أنت معه ، إن وقفتَ على حَدِّ وَقْفٍ ، وإن مددتَ مَدَّ ، وما أدبت به تأدى ، وليس فيه شىء من كل ما تراه لكل بُلْغَاء الدنيا ، من صناعة عبث القول ، والرغبة فى تكثير سواد المعانى ، وترك اللسان يطيش طيشة اللغوى يتعلق بكل ما عرض له ، إنما هو كلام قيل لتصير به المعانى إلى حقائقها ، فهو من لسان وراءه فكر ، وراءه قلب ، وراءه إيمان ، وراءه الله جل جلاله ، وهو كلام فى مجموعته كأنه أدنيا أصدرها ﷺ عن نفسه العظيمة ، لا تبرح ماضية فى طريقها السوى على دين الفطرة ، فلا تتسع لخلاف ولا يقع بها التنافر .

من هنا تبرز الأهمية القصوى فى أن تكون سيرة الرسول ﷺ وأقواله عاملة فى النفس المؤمنة عمل القلب من الجسد ، ورقية عليها رقابة الضمير على العقل ، حتى يكون الارتقاء والسمو والعلو والارتفاع بالأجسام فوق جواذب المادة وقيود الأرض .

ولن تستطيع النفس أن تحقق هذه المقومات وبها بقايا من رواسب المادة أو جواذب الأرض ، ولن تستطيع النفس أن ترفرف وتُحَلِّقَ إلا إذا أدركت غاية وجودها من خلال رصيدها التاريخى الطويل ، الذى لم تظفر به أمة من الأمم كما ظفرت أمة الإسلام ، «إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة » . عبارات تفيض إيماناً وتَشَعُّ ضياءً ، خرجت من نفس تربت على يد القائد والمعلم الأول ﷺ ، فأدركت غاية وجودها فعملت على تحقيقها . . وهكذا يجب أن يكون كل من أراد أن يشارك الكتاب فى سيرها فى الطريق الطويل .

وللأهمية التى تحتلها سيرة الرسول ﷺ فى حياة المسلمين على امتداد التاريخ وفى حياتهم الحاضرة ؛ فقد وُضِعَتْ كتبٌ كثيرة اختلفت نظراتها للسيرة ومانهجها فى تناولها ، ولكن كانت هناك بعض الكتب فى هذا المجال امتازت بشمولها وكمالها ودقة منهجها ، بما يعين القارئ على أن يتناول مسيرة الرسول ﷺ فى يسر يُعِينه على فهمها فهماً شاملاً كاملاً ، واستيعابها دون ما نَقْصٍ أو خلل .

وكان هذا الكتاب « الرحيق المختوم » للأستاذ صفى الرحمن المباركفورى - من الجامعة السلفية بالهند - من الكتب المتفردة فى السرد التاريخى ، والذى امتاز بمنهج الواضح وشموليته الجامعة فى عرض السيرة العطرة عرضاً عميقاً يسيراً ، خالياً من الشوائب أو الأباطيل التى ألحقت ببعض كتب السيرة .

ويمتاز هذا الكتاب أيضاً فى كونه مُعِيناً لكل قارئ أو باحث فى السيرة أن يجد بُغْيَتَهُ فيه .

وقد فاز هذا الكتاب بالجائزة الأولى لمسابقة السيرة النبوية التى نظمتها رابطة العالم الإسلامى .

وَنُودُ أَنْ نُنَوِّهَ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الطَّبْعَةُ الْمُنْقَحَةُ الَّتِي نَقُومُ بِنَشْرِهَا وَتَقْدِيمِهَا إِلَى الْقَارِئِ الْكَرِيمِ ،
وَالَّتِي تَشْتَمِلُ عَلَى التَّعْدِيلَاتِ وَالْإِضَافَاتِ الْجَدِيدَةِ لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ صَفِيِّ الرَّحْمَنِ الْمُبَارَكْفُورِيِّ -
حَفَظَهُ اللَّهُ - هِيَ الطَّبْعَةُ الشَّرْعِيَّةُ الْوَحِيدَةُ ، كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ الْمُؤَلِّفُ ، وَكَمَا يَتَضَحُّ عِنْدَ مَقَارِنَتِهَا
بِالطَّبْعَاتِ السَّابِقَةِ .

وَنَحْنُ إِذْ نَقْدُمُ هَذِهِ الطَّبْعَةَ الْمُنْقَحَةَ وَالْمَزِيدَةَ ، نَحْمَدُ اللَّهَ عَلَى مَا مَنَّ عَلَيْنَا بِتَوْفِيقِهِ ، كَمَا
نَتَقَدَّمُ بِالشُّكْرِ الْجَزِيلِ إِلَى فَضِيلَةِ الشَّيْخِ صَفِيِّ الرَّحْمَنِ الْمُبَارَكْفُورِيِّ عَلَى تَفَضُّلِهِ بِالسَّمَاكِحِ لَنَا
بِخِدْمَةِ هَذَا الْكِتَابِ ، سَائِلِينَ اللَّهَ أَنْ نَكُونَ عِنْدَ حَسَنِ ظَنِّهِ بِنَا ، وَأَنْ يَنْفَعَنَا بِهِ ، إِنَّهُ وَكَيْ ذَلِكَ
وَالْقَادِرُ عَلَيْهِ .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

الناشر

بَيْنَ يَدَيِ الْكِتَابِ

بين يدي الكتاب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد أفضل الرسل وخاتم النبيين ، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين .

وبعد :

فهذا الكتاب هو الذى أسهمت به فى مسابقة السيرة النبوية العالمية التى نظمتها رابطة العالم الإسلامى ، وأعلنت عنها عقب أول مؤتمر للسيرة النبوية الذى عقدته دولة باكستان فى شهر ربيع الأول عام ١٣٩٦ هـ .

وقد قدر الله لهذا الكتاب من القبول ما لم أكن أرجوه وقت الكتابة ، فقد نال المركز الأول فى المسابقة ، وأقبل عليه الخاصة والعامة إقبالا يغتبط عليه .

وكان من حديث هذا الكتاب أنى لم أطلع على إعلان الرابطة عن المسابقة فى وقته ، ولما أخبرت به بعد حين لم أمل إلى الإسهام فيها ، بل رفضت هذا الاقتراح رفضاً كلياً إلا أن القدر ساقنى إلى ذلك . وكان آخر موعد لتلقى بحوث المسابقة واستقبالها عند الرابطة أول شهر محرم من العام القادم ١٣٩٧ هـ ، أى نحو تسعة أشهر من وقت الإعلان ، وقد ضاعت منى من ذلك عدة أشهر ، والمدة الباقية لم تكن تكفى لإعداد مثل هذا الكتاب ، ولكن لما عزم على ذلك استعنت الله سبحانه وتعالى ، وشمرت عن ساق الجد ، حتى تم إنجاز وإرساله فى الموعد .

وكننت أعانى - مع ضيق الوقت والاشتغال بأعمال أخرى - قلة المصادر ، وعدم القدرة على مراجعة كل ما هو موجود ، وكانت الدقة المطلوبة عندى بصفة خاصة مع تجنب الحشو والزوائد ، والإحاطة بالموضوع بقدر الإمكان ، وقد مررت بأماكن شعرت فيها بشيء من الفجوة والفراغ ، وبحاجة إلى إضافات لم تكن فى مستطاعى فى ذلك الحين . فكل ما كان بالإمكان هو التسويد السريع لما هو موجود ، ثم نسخه أو استنساخه بغير مراجعة أو تنقيح .

وقد بقيت فى النفس رغبة إلى ملء تلك الفجوة والفراغ وإضافة بعض الزيادات فيما بعد ، ولكن مضت الأيام والأعوام ولم يقدر لى ذلك ، حتى تقادم العهد وانفلت الزمام ، وكننت أحياناً أثبت فى الكتاب أشياء ، وربما أقدم أو أؤخر ، أو أضيف أو أعدل أشياء ، وهى وإن لم تكن عين ما كانت تتحدث به النفس عند التأليف ، لكنها مهمة ومفيدة فى السيرة إن شاء الله ، وكذلك اطلعت على مصادر قديمة أغتنى إلى حد كبير عما كنت أحلت إليه من المراجع الحديثة ، فأدخلت كل ذلك فى هذه الطبعة بتوفيق الله .

وقد كنت أرجو ظهور بعض الملاحظات العلمية القيمة ، أستفيد بها فى صلب بعض

الموضوعات، لكن الذى وصلنى منها لا يمس الجواهر، وإنما يمس بعض الأمور الجانبية التى لا تقدم ولا تؤخر، يضاف إلى ذلك أن معظمها خطأ واضح، بل تَخْبُطُ غريب لم يكن يُرَجَى مثله من عامة الدارسين، فضلاً عن أصحاب التخصص.

وهذه الطبعة التى تتضمن هذه الإضافات والتغييرات تكون أفضل وأكثر فائدة من الطبعات السابقة إن شاء الله، وهى الطبعة الشرعية الوحيدة مع تلك الإضافات والتعديلات. وقد طبع الكتاب قبل ذلك من جهة الرابطة عدة طبعات، كما طبعه بعض الإخوان بإذن من المؤلف، ولكن هناك عشرات الطبعات كلها غير شرعية قام بها الناشرون بغير إذن من المؤلف ولا إشعار له، مستغلين سمعة الكتاب. وقد بلغت الجراة ببعضهم إلى أنه احتفظ بجميع حقوق الكتاب لنفسه، فهداهم الله للحق، ولإيصال الحقوق إلى أهلها قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال.

وصلى الله على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه وبارك وسلم.

صفى الرحمن المباركفورى
الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة

١٨ ربيع الأول ١٤١٥ هـ
٢٦ أغسطس ١٩٩٤ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة

معالي الدكتور عبد الله عمر نصيف

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وصفيه وخليله ، أدى الرسالة وبلغ الأمانة ونصح الأمة وتركها على المحجة البيضاء ليلها كنهارها ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ، ورضى الله عن كل من تبع سنته وعمل بها إلى يوم الدين ، وعنا معهم بعفوك ورضاك يا أرحم الراحمين .
أما بعد :

فإن السنة النبوية المطهرة - وهى العطاء المتجدد والزاد الباقي إلى يوم الدين ، والتى يتسابق المتسابقون ، ويتنافس المتنافسون إلى الحديث عنها وكتابة الكتب والأسفار فى مواضيعها منذ بعث ﷺ حتى تقوم الساعة - تضع للمسلمين النموذج العملى والبرنامج الواقعى لما ينبغى أن يكون عليه سلوكهم وأفعالهم وأقوالهم وعلاقاتهم بربهم ، ثم بأهلهم وعشيرتهم وإخوانهم وأمتهم والناس أجمعين .

وقد قال الله عز وجل : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الاحزاب] .

وقالت السيدة عائشة - رضوان الله عليها - عندما سئلت عن خلق رسول الله ﷺ :
« كان خلقه القرآن » .

فلا ريب إذن أنه لابد لمن أراد النجاة من هذه الدنيا باتباع المنهج الربانى فى جميع شئون آخرته ودنياه وأن يتأسى بالرسول الأعظم ﷺ ، ويأخذ بالسيرة النبوية تفكيراً وتدبراً على أنها هذا المنهج الربانى القويم عاشه سيدنا رسول الله ﷺ واقعاً عملياً فى جميع شئون الحياة ، ففيها الهدى والرشاد للقادة والمقودين والحكام والمحكومين والمرشدين والموجهين والمجاهدين ، وفيها الأسوة الحسنة فى جميع المجالات : فى السياسة والحكم والاقتصاد والمال والاجتماع والعلاقات الإنسانية والأخلاق الفاضلة والعلاقات الدولية ، فما أحرى المسلمين اليوم - وقد انحدروا فى مهاوى الجهالة والتخلف لابتعادهم عن هذا المنهج - أن يعودوا إلى صوابهم وأن يقدموا السيرة النبوية فى مناهجهم الدراسية ومنتدياتهم المختلفة على أنها ليست للمتعة الفكرية وحسب ، بل فيها طريق العودة إلى الله ، وفيها إصلاح الناس وفلاحهم ، فهى الأسلوب العلمى لترجمة كتاب الله عز وجل سلوكاً وأخلاقاً ، حتى يصبح المؤمن محتكماً إلى شريعة الله سبحانه وتعالى ومحكماً لها فى جميع شئون الناس .

وهذا الكتاب (الرحيق المختوم) جهد رائع وعمل مشكور لمؤلفه فضيلة الشيخ صفي الرحمن المباركفوري الذي استجاب لدعوة رابطة العالم الإسلامي في مسابقة السيرة النبوية التي نظمتها عام ١٣٩٦هـ، ففاز بالجائزة الأولى كما هو مذكور في مقدمة الطبعة الأولى لفضيلة الشيخ محمد علي الحركان - رحمه الله - الأمين العام السابق لرابطة العالم الإسلامي تغمده الله برحمته وجزاه عنا خير الجزاء .

وقد كان إقبال الناس عظيماً وثناؤهم عطرًا على هذا الكتاب ، وقد نفذت نسخ الطبعة الأولى بالكامل ، وطلب مني التقديم للطبعة الثالثة فاستجبت له بهذه المقدمة الوجيزة ، سائلاً المولى عز وجل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به المسلمين نفعاً يؤدي إلى تغيير واقعهم إلى الأفضل ، وأن يعيد للأمة الإسلامية مجدها المفقود ومكانتها في قيادة الأمم عملاً بقوله عز وجل : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] .

وصلى الله على المبعوث رحمة للعالمين ، رسول الهدى ومرشد الإنسانية إلى طريق النجاة والفلاح ، وعلى آله وصحبه وسلم .
والحمد لله رب العالمين .

د . عبد الله عمر نصيف

الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي (سابقاً)

نائب الرئيس لمجلس الشورى

المملكة العربية السعودية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة

معالي الشيخ محمد بن علي الحركان رحمه الله

الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي

الحمد لله رب العالمين ، خالق السموات والأرض ، وجاعل الظلمات والنور، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والرسل أجمعين ، بشرً وأنذر، ووعد وأوعد، أنقذ الله به البشر من الضلالة ، وهدى الناس إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور .

وبعد :

فلما أعطى الله سبحانه وتعالى لرسوله الشفاعة والدرجة الرفيعة ، وهدى المسلمين إلى محبته ، وجعل اتباعه من محبته تعالى فقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٣١] ، فكان هذا من الأسباب التي صيرت القلوب تهفو إلى محبته ﷺ ، وتلمس الأسباب التي توثق الصلة فيما بينها وبينه ﷺ . فمنذ فجر الإسلام والمسلمون يتسابقون إلى إبراز محاسنه ، ونشر سيرته العطرة ﷺ ، وسيرته هي أقواله وأفعاله وأخلاقه الكريمة ، فقد قالت السيدة عائشة زوج النبي ﷺ : « كان خلقه القرآن » ، والقرآن كتاب الله وكلماته التامة، ومن كان كذلك كان أحسن الناس وأكملهم وأحقهم بمحبة خلق الله جميعاً .

ولم يزل المسلمون متمسكين بهذه المحبة الغالية التي انبثق عنها المؤتمر الإسلامي الأول للسيرة النبوية الشريفة الذي عقد بباكستان سنة ١٣٩٦هـ، حيث أعلنت الرابطة في هذا المؤتمر عن جوائز مالية مقدارها مائة وخمسون ألف ريال سعودي توزع على أحسن خمسة بحوث في السيرة النبوية بالشروط الآتية :

- ١ - أن يكون البحث متكاملًا مع ترتيب الحوادث التاريخية حسب وقوعها .
- ٢ - أن يكون جيدًا ولم يسبق نشره من قبل .
- ٣ - أن يذكر الباحث جميع المخطوطات والمصادر العلمية التي اعتمد عليها في كتابة البحث .
- ٤ - أن يكتب الباحث ترجمة كاملة ومفصلة عن حياته مع ذكر مؤهلاته العلمية ومؤلفاته إن وجدت .
- ٥ - أن يكتب البحث بخط واضح ، ويستحسن نسخه على الآلة الكاتبة .

- ٦ - تقبل البحوث باللغة العربية واللغات الحية الأخرى .
 - ٧ - يبدأ قبول البحوث من غرة ربيع الثاني ١٣٩٦هـ ، وينتهي موعد القبول بغرة محرم ١٣٩٧هـ .
 - ٨ - تسلم البحوث إلى الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة في ظرف مختوم ، وتضع الأمانة عليه رقماً تسلسلياً خاصاً .
 - ٩ - تقوم بفحص البحوث لجنة عليا من كبار العلماء في هذا الشأن .
- فكان هذا الإعلان حافزاً لتسابق العلماء الذين وهبهم الله حب رسوله ﷺ ، واستعدت رابطة العالم الإسلامي لاستقبال هذه البحوث باللغات العربية والإنجليزية والأردية وأية لغة أخرى .
- وبدأ الإخوان الكرام في إرسال بحوثهم بهذه اللغات ، وقد بلغ عددها واحداً وسبعين ومائة بحث منها :
- ٨٤ بحثاً باللغة العربية ، ٦٤ بحثاً باللغة الأردية ، ٢١ بحثاً باللغة الإنجليزية ، وبحث واحد فقط باللغة الفرنسية ، وبحث واحد فقط باللغة الهوساوية .
 - وقد كونت الرابطة لجنة من كبار العلماء لدراسة هذه البحوث وترتيبها حسب استحقاق الفائز للجائزة ، وقد كان الفائزون بالجوائز حسب الترتيب الآتي :
 - ١ - الفائز بالجائزة الأولى الشيخ صفى الرحمن المباركفوري من الجامعة السلفية بالهند ، ومقدار جائزته خمسون ألف ريال سعودي .
 - ٢ - الفائز بالجائزة الثانية الدكتور ماجد على خان من الجامعة المالية الإسلامية نيودلهي ، الهند ، ومقدار جائزته أربعون ألف ريال سعودي .
 - ٣ - الفائز بالجائزة الثالثة الدكتور نصير أحمد ناصر رئيس الجامعة الإسلامية بباكستان ، ومقدار جائزته ثلاثون ألف ريال سعودي .
 - ٤ - الفائز بالجائزة الرابعة الأستاذ حامد محمود منصور ليمود من جمهورية مصر العربية ، ومقدار جائزته عشرون ألف ريال سعودي .
 - ٥ - الفائز بالجائزة الخامسة الأستاذ عبد السلام هاشم حافظ من المدينة المنورة ، المملكة العربية السعودية ، ومقدار جائزته عشرة آلاف ريال سعودي .
- وقد أعلنت الرابطة أسماء الفائزين في المؤتمر الإسلامي الآسيوي الأول الذي عقد في كراتشي في شهر شعبان سنة ١٣٩٨هـ . كما أعلن عن ذلك في جميع الصحف .
- وبهذه المناسبة أقامت الأمانة العامة للرابطة بمقرها بمكة المكرمة حفلاً كبيراً تحت إشراف صاحب السمو الملكي الأمير سعود بن عبد المحسن بن عبد العزيز وكيل إمارة منطقة مكة المكرمة، نيابة عن صاحب السمو الملكي الأمير فواز بن عبد العزيز أمير منطقة مكة المكرمة ،

حيث تفضل سموه بتوزيع الجوائز على أصحابها ، وذلك صباح يوم السبت الموافق ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٩٩ هـ . وفى هذا الحفل أعلنت الأمانة العامة أنها ستقوم بطبع البحوث الفائزة ونشرها بعدة لغات ، وتنفيذاً لذلك ها هى ذى تضع بين يدى القارئ الكريم باكورة طبعات تلك البحوث ، وهو بحث الشيخ/ صفى الرحمن المباركفورى، من الجامعة السلفية بالهند ؛ لأنه الفائز بالجائزة الأولى ، وستوالى طبع بقية البحوث الفائزة حسب ترتيبها ، سائلين الله سبحانه وتعالى أن يتقبل منا جميعاً أعمالنا خالصة لوجهه الكريم ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

محمد بن على الحركان

الأمين العام

لرابطة العالم الإسلامى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة المؤلف

الحمد لله الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، فجعله شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، وجعل فيه أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً . اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وفجر لهم ينابيع الرحمة والرضوان تفجيراً .

وبعد :

فإن من دواعى الغبطة والسرور أن رابطة العالم الإسلامى أعلنت عقب مؤتمر السيرة النبوية الذى عقد فى باكستان فى شهر ربيع الأول من سنة ١٣٩٦هـ عن تنظيم مسابقة علمية عالمية ؛ لتقديم أحسن بحث فى موضوع السيرة النبوية - على صاحبها ألف ألف صلاة وسلام وتحية - وذلك تنشيطاً للكاتبين ، وتنسيقاً لجهودهم الفكرية . وإنى أرى أن هذا العمل له قيمة كبيرة ربما لا يحيط بوصفه البيان . فإن السيرة النبوية والأسرة المحمدية - على صاحبها ما يستحق من الصلاة والسلام - إذا لاحظناها بعين الدقة والاعتبار هى المنبع الوحيد الذى تنفجر منه ينابيع حياة العالم الإسلامى وسعادة المجتمع البشرى .

وإن من سعادتى وحسن حظى أن أقدم بحثاً أسهم به فى تلك المسابقة المباركة ، ولكن أين أنا حتى ألقى ضوءاً على حياة سيد الأولين والآخرين ﷺ . وإنما أنا رجل يرى لنفسه كل السعادة والفلاح أن يقتبس من نوره ، حتى لا يتهالك فى دياجير الظلمات ، بل يحيا وهو من أمته ، ويموت وهو من أمته ، ويغفر الله له ذنوبه بشفاعته .

ومن منهجى فى هذا الكتاب - عدا ما جاء فى إعلان الرابطة - أنى قررت سلوك سبيل الاعتدال ، متجنباً التطويل الممل والإيجاز المخل ، وقد وجدت المصادر تختلف فيما بينها حول كثير مما يتعلق بالأحداث اختلافاً لا يحتمل الجمع والتوفيق ، فاخترت سبيل الترجيح ، وأثبت فى الكتاب ما ترجح لدىّ بند التدقيق فى الدراسة والنقد ، إلا أنى طويت ذكر الدلائل والوجوه ؛ لأن ذلك يفضى إلى طول غير مطلوب .

أما بالنسبة لقبول الروايات وردها فقد استفدت فى ذلك مما كتبه الأئمة المتقنون ، واعتمدت عليهم فيما حكموا به من الصحة والحسن والضعف ؛ إذ لم أجد وقتاً يكفى للخوض فى هذا المجال . وقد أشرت فى بعض المواضع إلى بعض الدلائل ووجوه الترجيح ، وذلك حينما خفت الاستغراب ممن يقرأ الكتاب ، أو رأيت شبه الاتفاق فيما بين الأولين والآخرين على خلاف ما هو الصواب . والله ولى التوفيق .

اللهم قدر لى الخير فى الدنيا والآخرة ، إنك أنت الغفور الودود ، ذو العرش المجيد .

صفى الرحمن المباركفورى

بنارس ، الهند

العرب

* الأرض والشعب

* الحكم والاقتصاد

* الديانة والاجتماع

موقع العرب وأقوامها

إن السيرة النبوية - على صاحبها الصلاة والسلام - هي في الحقيقة عبارة عن الرسالة التي حملها رسول الله ﷺ إلى المجتمع البشرى قولاً وفعلاً ، وتوجيهاً وسلوكاً ، وقلب بها موازين الحياة ، فبدل مكان السيئة الحسنة ، وأخرج بها الناس من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله ، حتى عدل خط التاريخ وَغَيَّرَ مجرى الحياة في العالم الإنساني ، ولا يتم إحضار هذه الصورة الرائعة إلا بعد المقارنة بين البيئة التي سبقت هذه الرسالة وبين ما آلت إليه بعدها .

وهذا يقتضى تقديم فصول موجزة عن أقوام العرب وتطوراتها قبل الإسلام ، وعن تاريخ الحكومات والإمارات والنظم القبلية التي كانت سائدة في ذلك الزمان ، مع صور من الديانات والملل والنحل والعادات والتقاليد ، والأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية . وقد خصصنا لكل من ذلك هذا الباب ، وإليك تلك الفصول :

موقع العرب :

كلمة العرب تنبئ عن الصحارى والقفار ، والأرض المُجْدِبَةُ التي لا ماء فيها ولا نبات . وقد أطلق هذا اللفظ منذ أقدم العصور على جزيرة العرب ، كما أطلق على قوم قَطَنُوا تلك الأرض واتخذوها موطناً لهم .

وجزيرة العرب يحدها غرباً البحر الأحمر وشبه جزيرة سيناء ، وشرقاً الخليج العربى وجزء من بلاد العراق الجنوبية ، وجنوباً بحر العرب الذى هو امتداد لبحر الهند ، وشمالاً بلاد الشام وجزء من بلاد العراق ، على اختلاف فى بعض هذه الحدود ، وتقدر مساحتها ما بين مليون ميل مربع إلى مليون وثلاثمائة ألف ميل مربع .

ولجزيرة العرب أهمية بالغة من حيث موقعها الطبيعى والجغرافى ؛ فإنها فى وضعها الداخلى محاطة بالصحارى والرمال من كل جانب ؛ ولأجل هذا الوضع صارت الجزيرة حصناً منيعاً لم يستطع الأجانب أن يحتلوها ويسيطروا عليها سيطرتهم ونفوذهم . ولذلك نرى سكان الجزيرة أحراراً فى جميع الشئون منذ أقدم العصور ، مع أنهم كانوا مجاورين لإمبراطوريتين عظيمتين لم يكونوا يستطيعون دفع هجمتهما لولا هذا السد المنيع .

وأما بالنسبة إلى الخارج فإنها تقع بين القارات المعروفة فى العالم القديم ، وتلتقى به براً وبحراً ، فإن ناحيتها الشمالية الغربية باب للدخول فى قارة إفريقية ، وناحيتها الشمالية الشرقية مفتاح لقارة أوروبا ، والناحية الشرقية تفتح أبواب العمجم ؛ ومن ثم آسيا الوسطى وجنوبها والشرق البعيد ، وكذلك تلتقى كل قارة بالجزيرة بحرأ ، وترسى سفنها وبواخرها على ميناء الجزيرة رأساً .

ولاجل هذا الوضع الجغرافى كان شمال الجزيرة وجنوبها موثلاً للأمم ، ومركزاً لتبادل التجارة ، والثقافة ، والديانة ، والفنون .

أقوام العرب :

وأما أقوام العرب فقد قسمها المؤرخون إلى ثلاثة أقسام؛ بحسب السلالات التى ينحدرون منها :

- ١ - العرب البائدة وهم العرب القدامى الذين انقرضوا تماماً ولم يمكن الحصول على تفاصيل كافية عن تاريخهم ، مثل : عاد ، وثمود ، وطَّسَم ، وجَدِيس ، وعَمَلَق ، وأُمَيْم ، وجُرْهُم ، وحَضُور ، ووَيْكَار ، وعَيْيل ، وجاسم ، وحَضْرَمَوْت ، وغيرها .
- ٢ - العرب العاربة وهم العرب المنحدرة من صلب يَشْجَب بن يَعْرُب بن قَحْطَان ، وتسمى بالعرب القحطانية .

- ٣ - العرب المستعربة : وهى العرب المنحدرة من صلب إسماعيل عليه السلام ، وتسمى بالعرب العدنانية .

* أما العرب العاربة - وهى شعب قحطان - فمَهْدُهَا بلاد اليمن ، وقد تشعبت قبائلها وبطونها من ولد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان . فاشتهرت منها قبيلتان : حمير بن سبأ ، وكَهْلَان بن سبأ ، وأما بقية بنى سبأ - وهم أحد عشر أو أربعة عشر بطناً - فيقال لهم : السبئيون ، وليست لهم قبائل دون سبأ .

أ - فإما حمير فأشهر بطونها :

- ١ - قُضَاعَة : ومنها بَهْرَاء وِبَلَى والقَيْن وكَلْب وعُدْرَة ووَيْرَة .
- ٢ - السَّكَّاسِك : وهم بنو زيد بن وائلة بن حمير ، ولقب زيد : السكاسك ، وهى غير سَكَّاسِك كِنْدَة الآتية فى بنى كَهْلَان .
- ٣ - زيد الجمهور : ومنها حمير الأصغر ، وسبأ الأصغر ، وحضور ، وذو أصبح .

ب - وأما كَهْلَان فأشهر بطونها :

هَمْدَان ، وَالْهَنَان ، وَالْأَشْعَر ، وَطَيْئ ، وَمَذْحِج (ومن مَذْحِج : عَنَس والنَّخَع) ، وَلَخْم (ومن لخم : كِنْدَة ، ومن كِنْدَة : بنو معاوية والسَّكُون والسكاسك) ، وَجُدَام ، وعاملة ، وَخَوْلَان ، وَمَعَاْفَر ، وَأَنْمَار (ومن أَنْمَار : خَثْعَم وَبَجِيلَة ، ومن بجيلة : أَحْمَس) ، وَالْأَزْد (ومن الأزْد : الْأَوْس ، والخزرج ، وَخَزَاعَة ، وأولاد جَفْنَة ملوك الشام المعروفون بآل غسان) .

وهاجرت بنو كهلان عن اليمن ، وانتشرت فى أنحاء الجزيرة ، يقال : كانت هجرة معظمهم قبيل سَيْل العَرَم حين فشلت تجارتهم لضغط الرومان وسيطرتهم على طريق التجارة البحرية ، وإفسادهم طريق البر بعد احتلالهم بلاد مصر والشام .

ويقال: بل إنهم هاجروا بعد السيل حين هلك الحرث والنسل بعد أن كانت التجارة قد فشلت، وكانوا قد فقدوا كل وسائل العيش ، ويؤيده سياق القرآن [سورة سبأ: ١٥ - ١٩] .
ولا غرو إن كانت هناك - عدا ما تقدم - منافسة بين بطون كهلان وبطون حمير أدت إلى جلاء كهلان ، فقد يشير إلى هذا بقاء حمير مع جلاء كهلان .
ويمكن تقسيم المهاجرين من بطون كهلان إلى أربعة أقسام :

١ - الأزد :

وكانت هجرتهم على رأى سيدهم وكبيرهم عمران بن عمرو مزيقياء ، فساروا يتنقلون فى بلاد اليمن ويرسلون الرواد ، ثم ساروا بعد ذلك إلى الشمال والشرق . وهاك تفصيل الأماكن التى سكنوا فيها بعد الرحلة نهائياً :

- * نزل عمران بن عمرو فى عُمَان ، واستوطنها هو وبنوه ، وهم أزد عُمَان .
- * واستوطنت بنو نصر بن الأزد تُهامة ، وهم أزد شُنوءة .
- * وعَطَفَ ^(١) ثَعْلَبَةُ بن عمرو مزيقياء نحو الحجاز ، فأقام بين الثعلبية وذى قار ، ولما كبر ولده وقوى ركنه سار نحو المدينة ، فأقام بها واستوطنها، ومن أبناء ثعلبة هذا: الأوس والخزرج ، ابنا حارثة بن ثعلبة .
- * وتنقل منهم حارثة بن عمرو - وهو خزاعة - وبنوه فى ربوع الحجاز ، حتى نزلوا بمر الظهران ، ثم افتتحوا الحرم فقتلوا مكة وأجلوا سكانها الجراهمة .
- * وسار جُفْنَةُ بن عمرو إلى الشام فأقام بها هو وبنوه، وهو أبو الملوك الغساسنة؛ نسبة إلى ماء فى الحجاز يعرف بغسان ، كانوا قد نزلوا بها أولاً قبل انتقالهم إلى الشام .
- * وانضمت البطون الصغيرة إلى هذه القبائل فى الهجرة إلى الحجاز والشام ، مثل كعب بن عمرو ، والحارث بن عمرو ، وعوف بن عمرو .

٢ - لَخْمٌ وجُدَام :

انتقلوا إلى الشرق والشمال ، وكان فى اللخمين نصر بن ربيعة أبو الملوك المناذرة بالحيرة .

٣ - بنو طَيْئ :

ساروا بعد مسير الأزد نحو الشمال حتى نزلوا بالجليلين أجاً وسلمى ، وأقاموا هناك، حتى عرف الجبلان بجليل طيئ .

٤ - كُنْدَةُ :

نزلوا بالبحرين ، ثم اضطروا إلى مغادرتها فنزلوا بـ (حضر موت) ، ولاقوا هناك ما لاقوا بالبحرين ، ثم نزلوا نَجْدًا ، وكونوا هناك دولة كبيرة الشأن ، ولكنها سرعان ما فُتيت .

وذهبت آثارها.

وهناك قبيلة من حمير مع اختلاف فى نسبتها إليه - وهى قضاعة - هجرت اليمن واستوطنت بادية السماوة من مشارف العراق ، واستوطن بعض بطونها مشارف الشام وشمالى الحجاز (١).

* وأما العرب المستعربة فأصل جدهم الأعلى - وهو سيدنا إبراهيم عليه السلام - من بلاد العراق ، من مدينة يقال لها : « أر » على الشاطئ الغربى من نهر الفرات ، بالقرب من الكوفة ، وقد جاءت الحفريات والتنقيبات بتفاصيل واسعة عن هذه المدينة ، وعن أسرة إبراهيم عليه السلام ، وعن الأحوال الدينية والاجتماعية فى تلك البلاد .

ومعلوم أن إبراهيم عليه السلام هاجر منها إلى حاران أو حرَّان ، ومنها إلى فلسطين ، فاتخذها قاعدة لدعوته، وكانت له جولات فى أرجائها وأرجاء غيرها من البلاد ، وفى إحدى هذه الجولات أتى إبراهيم عليه السلام على جبار من الجبابرة ، ومعه زوجته سارة ، وكانت من أحسن النساء ، فأراد ذلك الجبار أن يكيد بها ، ولكن سارة دعت الله تعالى عليه فرد الله كيده فى نحره ، وعرف الظالم أن سارة امرأة صالحة ذات مرتبة عالية عند الله ، فأخدها هاجر (٢) اعترافاً بفضلها ، أو خوفاً من عذاب الله ، وهبتها سارة لإبراهيم عليه السلام (٣).

ورجع إبراهيم عليه السلام إلى قاعدته فى فلسطين ، ثم رزقه الله تعالى من هاجر ابنه إسماعيل ، وصار سبباً لغيره سارة حتى ألحقت إبراهيم إلى نفى هاجر مع ولدها الرضيع - إسماعيل - فقدم بهما إبراهيم عليه السلام إلى الحجاز ، وأسكنهما بواد غير ذى زرع عند بيت الله المحرم الذى لم يكن إذ ذاك إلا مرتفعاً من الأرض كالرابية ، تأتية السيول فتأخذ عن يمينه وشماله، فوضعهما عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء، فوضع عندهما جراباً فيه تمر ، وسقاء فيه ماء ، ورجع إلى فلسطين، ولم تمض أيام

(١) انظر لتفصيل هذه القبائل وهجراتها : نسب معد واليمن الكبير ، جمهرة النسب ، العقد الفريد ، قلائد الجمان ، نهاية الأرب ، تاريخ ابن خلدون ، سبائك الذهب ، وكتب الانساب الأخرى ، وما كتب عن تاريخ العرب قبل الإسلام ، واختلفت المصادر اختلافاً كبيراً فى تعيين زمن هذه الهجرات ، ولا سبيل إلى البت فى هذا الموضوع ، وقد أثبتنا ما ترجع عندنا بعد إدارة النظر فى القرائن والملايسات ، والله أعلم بالصواب .

(٢) المعروف أن ذلك الجبار كان فرعون من فراعنة مصر ، وإن هاجر كانت أمة مملوكة له ، ولكن رجح الكاتب الكبير العلامة القاضى محمد سليمان المنصورفورى - رحمه الله - أنها كانت حرة ، وكانت ابنة فرعون ، واستند لذلك إلى ما كتبه للمحققون من أهل الكتاب فى شروح صحائفهم . (ينظر لذلك رحمة للعالمين ٢ / ٣٤ ، ٣٦ ، ٣٧) وقال ابن خلدون ، وهو يحكى حواراً دار بين عمرو بن العاص رضي الله عنه وبين أهل مصر أنهم قالوا له : إن هاجر كانت امرأة لملك من ملوكنا ، ووقعت بيننا وبين أهل عين شمس حروب كانت لهم فى بعضها دولة ، فقتلوا الملك ، وسبوا ، ومن هناك تسيرت إلى أبيهم إبراهيم . (تاريخ ابن خلدون ٢ / ٧٧) .

(٣) انظر فى تفصيل أصل القصة : صحيح البخارى ح (٢٢١٧ ، ٢٦٣٥ ، ٣٣٥٨ ، ٣٣٥٨ ، ٥٠٨٤ ، ٦٩٥٠) .

حتى نفد الزاد والماء ، وهناك تفجرت بثر زمزم بفضل الله ، فصارت لهما قوتا وبلاغاً إلى حين . والقصة معروفة بطولها ^(١) .

وجاءت قبيلة يمانية - وهى جرهم الثانية - فقطنت مكة بإذن من أم إسماعيل . يقال : إنهم كانوا قبل ذلك فى الأودية التى بأطراف مكة ، وقد صرحت رواية البخارى أنهم نزلوا مكة بعد إسماعيل ، وقبل أن يشب ، وأنهم كانوا يمشون بهذا الوادى قبل ذلك ^(٢) .

وكان إبراهيم عليه السلام يرحل إلى مكة ليطالع تركته بها ، ولا يعلم بالضبط عدد هذه الرحلات ، إلا أن المصادر المعتمدة حفظت لنا أربعة منها :

١ - فقد ذكر الله تعالى فى القرآن الكريم أنه أرى إبراهيم فى المنام أنه يذبح إسماعيل ، فقام بامتنال هذا الأمر : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّ لِلْجَيْنِ (١٠٣) وَنَادَيْتَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمَ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينِ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) ﴾ [الصفافات]

وقد ذكر فى سفر التكوين أن إسماعيل كان أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة ، وسياق القصة يدل على أنها وقعت قبل ميلاد إسحاق ؛ لأن البشارة بإسحاق ذكرت بعد سرد القصة بتمامها .

وهذه القصة تتضمن رحلة واحدة - على الأقل - قبل أن يشب إسماعيل ، أما الرحلات الثلاث الأخرى فقد رواها البخارى بطولها عن ابن عباس مرفوعاً ، وملخصها :

٢ - أن إسماعيل عليه السلام لما شب وتعلم العربية من جرهم ، وأنفسهم وأعجبهم زوجوه امرأة منهم ، وماتت أمه ، وبدا لإبراهيم أن يطالع تركته ، فجاء بعد هذا الزواج ، فلم يجد إسماعيل ، فسأل امرأته عنه وعن أحوالهما ، فشكت إليه ضيق العيش فأوصاها أن تقول لإسماعيل أن يغير عتبة بابه ، وفهم إسماعيل ما أراد أبوه ، فطلق امرأته تلك وتزوج امرأة أخرى (وهى ابنة مضاخ بن عمرو ، كبير جرهم وسيدهم على قول الأكثر) .

٣ - وجاء إبراهيم عليه السلام مرة أخرى بعد أن تزوج إسماعيل هذه الزوجة الثانية ، فلم يجده فرجع إلى فلسطين بعد أن سأل زوجته عنه وعن أحوالهما ، فأثنت على الله بخير ، فأوصى إلى إسماعيل أن يثبت عتبة بابه .

٤ - ثم جاء إبراهيم عليه السلام بعد ذلك فلقى إسماعيل ، وهو يبرى نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم ، فلما رآه قام إليه فصنع كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ، وكان لقاؤهما بعد فترة طويلة من الزمن ، فلما يصبر فيها الأب الكبير الأواه العطوف عن ولده ، والوالد البار الصالح الرشيد عن أبيه ، وفى هذه المرة بنيا الكعبة ، ورفعا قواعدهما ، وأذن إبراهيم فى الناس بالحج كما أمره الله ^(٣) .

(١) انظر : صحيح البخارى : كتاب الانبياء ح (٣٣٦٤ ، ٣٣٦٥) .

(٢) المصدر نفسه ح (٣٣٦٤) .

(٣) انظر : صحيح البخارى : كتاب الانبياء ح (٣٣٦٤ ، ٣٣٦٥) .

وقد رزق الله إسماعيل من ابنة مُضَاضِ اثني عشر ولداً ذكراً ، وهم : نابت أو نيايوط ، وقِيدَار ، وأدبائيل ، ومِشَام ، ومِشَماع ، ودوما ، ومِشَا ، وحدد ، وتيما ، ويَطُور ، ونَفِيس ، وقِيدُمان .

وتشعبت من هؤلاء اثنتا عشرة قبيلة ، سكنت كلها في مكة مدة من الزمان ، وكانت جل معيشتهم إذ ذاك التجارة من بلاد اليمن إلى بلاد الشام ومصر ، ثم انتشرت هذه القبائل في أرجاء الجزيرة بل وإلى خارجها ، ثم أدرجت أحوالهم في غياهب الزمان ، إلا أولاد نابت وقيدار .

وقد ازدهرت حضارة الأنباط - أبناء نابت - في شمال الحجاز ، وكونوا دولة قوية عاصمتها البتراء - المدينة الأثرية القديمة المعروفة في جنوب الأردن ، وقد دان لهذه الدولة النبطية من بأطرافها ، ولم يستطع أحد أن يناوئها حتى جاء الرومان وقضوا عليها .

وقد جنحت طائفة من المحققين من أهل العلم بالأنساب إلى أن ملوك آل غسان وكذا الأنصار من الأوس والخزرج إنما كانوا من آل نابت بن إسماعيل ، وبقاياهم في تلك الديار .

وإليه مال الإمام البخارى - رحمه الله - في صحيحه ، فقد عقد باباً عنوانه : «نسبة اليمن إلى إسماعيل عليه السلام» ، واستدل عليه ببعض الأحاديث ، ورجع الحافظ ابن حجر في شرحه أن قحطان من آل نابت بن إسماعيل عليه السلام (١) .

وأما قيدار بن إسماعيل فلم يزل أبناؤه بمكة ، يتناسلون هناك حتى كان منه عدنان وولده مَعَدَّة ، ومنه حفظت العرب العدنانية أنسابها . وعدنان هو الجد الحادى والعشرون في سلسلة النسب النبوى ، وقد ورد أنه كان إذا انتسب فبلغ عدنان يمك ويقل : «كذب النسابون» ، فلا يتجاوز (٢) ، وذهب جمع من العلماء إلى جوار رفع النسب فوق عدنان ؛ مضعفين للحديث المشار إليه ، ولكنهم اختلفوا في هذا الجزء من النسب اختلافا لا يمكن الجمع بين أقوالهم ، وقد مال المحقق الكبير العلامة القاضى محمد سليمان المنصورفورى - رحمه الله - إلى ترجيح ما ذكره ابن سعد - والذي ذكره الطبرى والمسعودى وغيرهما في جملة الأقوال - وهو أن بين عدنان وبين إبراهيم عليه السلام أربعين أبا بالتحقيق الدقيق (٣) . وسيأتى .

وقد تفرقت بطون مَعَدَّة من ولده نَزَار - قيل : لم يكن لمعد ولد غيره - فكان لنزار أربعة أولاد ، تشعبت منهم أربعة قبائل عظيمة : إياد وأثمار وربيعة ومُضَر ، وهذان الأخيران هما اللذان كثرت بطونهما واتسعت أفخاذهما ، فكان من ربيعة : ضَبِيعَة وأسد ، ومن أسد : عَنَزَة

(١) صحيح البخارى : كتاب المناقب ، باب نسبة اليمن إلى إسماعيل ، ح (٣٥٠٧) ، فتح البارى ٦ /

٦٢١ - ٦٢٣ ، وانظر : نسب معد واليمن الكبير للكلبى ١ / ١٣١ ، وتاريخ ابن خلدون ٢ / ١ /

٤٦ ، ٢ / ١ / ٢٤١ ، ٢٤٢ .

(٢) انظر : تاريخ الطبرى ٢ / ٢٧٢ - ٢٧٦ .

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ١ / ٥٦ ، وتاريخ الطبرى ٢ / ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ومروج الذهب للمسعودى ٢ /

٢٧٣ ، ٢٧٤ ، وتاريخ ابن خلدون ٢ / ٢ / ٢٩٨ ، وفتح البارى ٦ / ٦٢٢ ، ورحمة للعالمين ٢ / ٧ / ٨ ،

وَجَدَيْلَة ، ومن جديلة : القبائل الكثيرة المشهورة مثل: عبد القيس ، والنَّمِر ، وبنو وائل الذين منهم بكر وتَغْلِب ، ومن بنى بكر : بنو قيس وبنو شيبان وبنو حنيفة وغيرها . أما عنزة فمنها آل سعود ملوك المملكة العربية السعودية في هذا الزمان .

وتشعبت قبائل مضر إلى شعبتين عظيمتين : قَيْس عَيْلان بن مضر ، وبطون إلياس بن مضر ، فمن قيس عيلان : بنو سليم ، وبنو هوازن ، وبنو ثقيف ، وبنو صَعَصَعَة ، وبنو غَطَفَان . ومن غطفان : عَبْس ، وَذُبْيَان ، وَأَشْجَع ، وَأَعْصَر .

ومن إلياس بن مُضَرّ : تميم بن مرة ، وهذيل بن مُدرِكة ، وبنو أسد بن خزيمه ، سبطون
كنانة بن خزيمه ، ومن كنانة قريش ، وهم أولاد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة .

وانقسمت قريش إلى قبائل شتى ، من أشهرها : جُمَح وسَهْم وعَدِي ومخزوم وتَيْم وزُهْرَة ، وبطون قُصَي بن كلاب ، وهي : عبد الدار بن قصي ، وأسد بن عبد العزى بن قصي ، وعبد مناف بن قصي .

وكان من عبد مناف أربع فصائل : عبد شمس ، ونوفل ، والمطلب ، وهاشم ، وبيت هاشم هو الذى اصطفى الله منه سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم عليه السلام .

قال ﷺ : « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفاني من بنى هاشم » (١) .

وعن العباس بن عبد المطلب قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله خلق الخلق فجعلني من خير فرقهم وخير الفريقين ، ثم تخير القبائل ، فجعلني من خير القبيلة ، ثم تخير البيوت ، فجعلني من خير بيوتهم ، فأنما خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً ». وفي لفظ عنه : « إن الله خلق الخلق فجعلني في خيرهم فرقة ، ثم جعلهم فرقتين فجعلني في خيرهم فرقة ، ثم جعلهم قبائل فجعلني في خيرهم قبيلة ، ثم جعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً وخيرهم نفساً » (٢) .

ولما تكاثر أولاد عدنان تفرقوا في أنحاء شتى من بلاد العرب متبعين مواقع القطر
ومنازل العشب .

فهاجرت عبد القيس ، وبطون من بكر بن وائل ، وبطون من تميم إلى البحرين فأقاموا بها .

وخرجت بنو حنيفة بن علي بن بكر إلى اليمامة فزلوا بحُجْر ، قَصَبَ اليمامة ، وأقامت
سائر بكر بن وائل في طول الأرض من اليمامة إلى البحرين إلى سيف كاظمة إلى البحر ،
فأطراف سواد العراق فالأبْلَةُ فَهَيْت .

(١) مسلم : كتاب الفضائل ، باب فضل نسب النبي ﷺ ٤ / ١٧٨٢ ح (١) ، والترمذي : كتاب المناقب ، باب: فضل النبي ﷺ ٥ / ٥٤٤ ح (٣٦٠٥) وبمعناه (٣٦٠٦) .

(٢) المصدر الأخير نفسه ٥ / ٥٤٥ ح (٣٦٠٧ ، ٣٦٠٨)

وأقامت تغلب بالجزيرة الفراتية ، ومنها بطون كانت تسكن بكراً . وسكنت بنو تميم ببادية البصرة .

وأقامت بنو سليم بالقرب من المدينة ، من وادي القرى إلى خيبر إلى شرقي المدينة إلى حد الجبلين ، إلى ما ينتهي إلى الحرة .

وسكنت بنو أسد شرقي تيماء وغربي الكوفة ، بينهم وبين تيماء ديار بُحترٍ من طيء ، وبينهم وبين الكوفة خمس ليال .

وسكنت ذبيان بالقرب من تيماء إلى حوران ، وبقي بتهامة بطون كنانة ، وأقام بمكة وضواحيها بطون قريش ، وكانوا متفرقين لا تجمعهم جامعة حتى نبغ فيهم قصي بن كلاب ، فجمعهم ، وكون لهم وحدة شرفتهم ورفعت من أقدارهم (١) .

(١) يراجع لمزيد التفصيل: جمهرة النسب ، نسب معد واليمن الكبير ، أنساب القرشيين ، نهاية الأرب ، قلائد الجمان ، سبائك الذهب وغيرها .

الحكم والإمارة في العرب

كان حكام جزيرة العرب عند ظهور دعوة النبي ﷺ على قسمين :

- ١ - ملوك مُتَوَجُّون - إلا أنهم في الحقيقة كانوا غير مستقلين .
 - ٢ - رؤساء القبائل والعشائر - وكان لهم من الحكم والامتياز ما كان للملوك المتوجين، ومعظم هؤلاء كانوا على تمام الاستقلال، وربما كانت لبعضهم تبعية الملك متوج .
- والملوك المتوجون هم: ملوك اليمن ، وملوك مشارف الشام (وهم آل غسان) وملوك الحيرة ، وما عدا هؤلاء من حكام الجزيرة لم تكن لهم تيجان . وفيما يلي موجز عن هؤلاء الملوك والرؤساء .
- الملك باليمن :

من أقدم الشعوب التي عرفت باليمن من العرب العاربة قوم سبأ ، وقد عثر على ذكرهم في حفريات « أور » بخمس وعشرين قرناً قبل الميلاد ، ويبدأ ازدهار حضارتهم ونفوذ سلطانهم ويسط سيطرتهم بأحد عشر قرناً قبل الميلاد .

ويمكن تقسيم أدوارهم حسب التقدير الآتي :

- ١ - ما بين ١٣٠٠ إلى ٦٢٠ ق . م :

عرفت دولتهم في هذه الفترة بالدولة المعينية ، ظهرت في الجوف ؛ أي السهل الواقع بين نجران وحضرموت ، ثم أخذت تنمو وتوسع وتسيطر وتزدهر حتى بلغ نفوذها السياسي إلى العلأ ومَعَان من شمالي الحجاز .

ويقال: إن مستعمراتها وصلت إلى خارج بلاد العرب ، وكانت التجارة هي صلب معيشتهم ، ثم إنهم بنوا سد مأرب الذي له شأن كبير في تاريخ اليمن، والذي وفر لهم معظم خيرات الأرض ، ﴿ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴾ (١٨) [الفرقان] .

وكان ملوكهم في هذه الفترة يلقبون بـ «مكرب سبأ» وكانت عاصمتهم مدينة «صِرْوَا ح» التي توجد أنقاضها على بعد ٥٠ كيلو متراً إلى الشمال الغربي من مدينة «مأرب» ، وعلى بعد ١٤٢ كيلو متراً شرقي صنعاء ، وتعرف باسم « خُرَيْبَة » . ويقدر عدد هؤلاء الملوك ما بين ٢٢ و ٢٦ ملكاً (١) .

- ٢ - ما بين ٦٢٠ ق . م إلى سنة ١١٥ ق . م :

وعرفت دولتهم في هذه الفترة بدولة سبأ ، وقد تركوا لقب « مكرب » وعرفوا بـ «ملوك سبأ» ، واتخذوا « مأرب » عاصمة لهم بدل « صرواح » وتوجد أنقاض مأرب على بعد ١٩٢ كيلو متراً شرقي صنعاء (٢) .

(١ ، ٢) اليمن عبر التاريخ ص ٧٧ ، ٨٣ ، ١٢٤ ، ١٣٠ ، وتاريخ العرب قبل الإسلام ص ١٠١ - ١١٣ .

٣ - منذ سنة ١١٥ ق.م إلى سنة ٣٠٠ م :

وعرفت الدولة فى هذه الفترة بالدولة الحميرية الأولى ؛ لأن قبيلة حمير غلبت واستقلت بمملكة سبأ ، وقد عرف ملوكها بـ «ملوك سبأ وذى ريدان» ، وهؤلاء الملوك اتخذوا مدينة « ريدان » عاصمة لهم بدل مدينة « مأرب » ، وتعرف « ريدان » باسم ظفار ، وتوجد أنقاضها على جبل مدور بالقرب من « يريم » . وفى هذا العهد بدأ فيهم السقوط والانحطاط ، فقد فشلت تجارتهم إلى حد كبير لبسط الأنباط سيطرتهم على شمال الحجاز أولاً ، ثم لغلبة الرومان على طريق التجارة البحرية بعد نفوذ سلطانهم على مصر وسوريا وشمالى الحجاز ثانياً ، ولتنافس القبائل فيما بينها ثالثاً . وهذه العناصر هى التى سببت فى تفرق آل قحطان وهجرتهم إلى البلاد الشاسعة .

٤ - منذ سنة ٣٠٠م إلى أن دخل الإسلام فى اليمن :

عرفت الدولة فى هذه الفترة بالدولة الحميرية الثانية ، وعرف ملوكها بـ «ملوك سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمنت» ، وقد توالى على هذه الدولة الاضطرابات والحوادث ، وتتابعت الانقلابات والحروب الأهلية التى جعلتها عرضة للأجانب حتى قضى على استقلالها . ففى هذا العهد دخل الرومان فى عدن ، وبمعاونتهم احتلت الأحباش اليمن لأول مرة سنة ٣٤٠ م ؛ مستغلين التنافس بين قبيلتى همدان وحمير ، واستمر احتلالهم إلى سنة ٣٧٨ م . ثم نالت اليمن استقلالها ، ولكن بدأت تقع الثلمات فى سد مأرب ، حتى وقع السيل العظيم الذى ذكره القرآن بسيل العرم فى سنة ٤٥٠م ، أو ٤٥١ م . وكانت حادثة كبرى أدت إلى خراب العمران وتشتت الشعوب .

وفى سنة ٥٢٣م قاد ذو نؤاس اليهودى حملة منكرة على المسيحيين من أهل نجران ، وحاول صرفهم عن المسيحية قسراً ، ولما أبوا خذ لهم الأخدود وألقاهم فى النيران ، وهذا الذى أشار إليه القرآن فى سورة البروج بقوله : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾ [البروج] . وكان هذا الحادث هو السبب فى نقمة النصرانية الناشطة إلى الفتح والتوسع تحت قيادة أباطرة الرومان من بلاد العرب ، فقد حرضوا الأحباش ، وهياؤا لهم الأسطول البحرى ، فنزل سبعون ألف جندي من الحبشة ، واحتلوا اليمن مرة ثانية ، بقيادة أرياط سنة ٥٢٥ م ، وظل أرياط حاكماً من قبل ملك الحبشة حتى اغتاله أبرهة بن الصباح الأشرم - أحد قواد جيشه - سنة ٥٤٩م ، ونصب نفسه حاكماً على اليمن بعد أن استرضى ملك الحبشة وأرضاه ، وأبرهة هذا هو الذى جند الجنود لهدم الكعبة ، وعرف هو وجنوده بأصحاب الفيل . وقد أهلكه الله بعد عودته إلى صنعاء عقب وقعة الفيل ، فخلفه على اليمن ابنه يكسوم ، ثم الابن الثانى مسروق ، وكانا - فيما يقال - شرا من أبيهما ، وأخبت سيرة منه فى اضطهاد أهل اليمن وقهرهم وإذلالهم .

أما أهل اليمن فإنهم بعد وقعة الفيل استنجدوا بالفرس ، وقاموا بمقاومة الحبشة حتى أجلوهم عن البلاد ، ونالوا الاستقلال فى سنة ٥٧٥ م بقيادة معديكرب سيف بن ذى يزن

الحميري ، واتخذوه ملكاً لهم ، وكان معديكرب أبقى معه جمعاً من الحبشة يخدمونه ويمشون في ركابه ، فاغتالوه ذات يوم ، وبموته انقطع الملك عن بيت ذى يزن ، وصارت اليمن مستعمرة فارسية تتعاقب عليها ولاية من الفرس ، وكان أولهم وهرز ، ثم المرزبان بن وهرز ، ثم ابنه التينجان ، ثم خسرو بن التينجان ، ثم باذان ، وكان آخر ولاية الفرس ، فإنه اعتنق الإسلام سنة ٦٢٨ م ، وبإسلامه انتهى نفوذ فارس على بلاد اليمن (١) .

الملك بالحيرة :

كانت الفرس تحكم بلاد العراق وما جاورها منذ أن جمع شملهم قوروش الكبير (٥٥٧ - ٥٢٩ ق.م) ولم يكن أحد يناوئهم ، حتى قام الإسكندر المقدوني سنة ٣٢٦ ق.م فهزم ملكهم دارا وبددهم وخضد شوكتهم ، حتى تجزأت بلادهم ، وتولاهم ملوك عرفوا بملوك الطوائف ، وقد ظل هؤلاء الملوك يحكمون البلاد مجزأة إلى سنة ٢٣٠ م . وفي عهد هؤلاء الملوك هاجر القحطانيون ، واحتلوا جزءاً من ريف العراق ، ثم لحقهم من هاجر من العدنانيين فزاحموهم حتى سكنوا جزءاً من الجزيرة الفراتية .

وأول من ملك من هؤلاء المهاجرين هو مالك بن فهم التنوخي من آل قحطان ، وكان منزله الأنبار ، أو مما يلي الأنبار ، وخلفه أخوه عمرو بن فهم في رواية (٢) . وجذيمة بن مالك بن فهم - الملقب بالأبرش والوضاح - في رواية أخرى (٣) .

وعادت القوة مرة ثانية إلى الفرس في عهد أردشير بن بابك - مؤسس الدولة الساسانية سنة ٢٢٦ م - فإنه جمع شمل الفرس ، واستولى على العرب المقيمين على تخوم ملكه ، وكان هذا سبباً في رحيل قضاعة إلى الشام ، ولكن دان له أهل الحيرة والأنبار .

وفي عهد أردشير كانت ولاية جذيمة الوضاح على الحيرة وسائر من ببادية العراق والجزيرة من ربيعة ومضر ، وكان أردشير رأى أنه يستحيل عليه أن يحكم العرب مباشرة ، ويمنعهم من الإغارة على تخوم ملكه ، إلا أن يملك عليهم رجلاً منهم له عصبية تؤيده وتمنعه ، ومن جهة أخرى يمكنه الاستعانة بهم على ملوك الرومان الذين كان يتخوفهم ، وليكون عرب العراق أمام عرب الشام الذين اضطنعتهم ملوك الرومان ، وكان يبقى عند ملك الحيرة كتيبة من جنود الفرس ؛ ليستعين بها على الخارجين على سلطانه من عرب البادية ، وكان موت جذيمة حوالى سنة ٢٦٨ م .

وبعد موت جذيمة ولى الحيرة والأنبار عمرو بن عدى بن نصر اللخمي (٢٦٨ - ٢٨٨ م)

(١) انظر في تفصيل ذلك : اليمن عبر التاريخ ص ٧٧ - ٨٣ ، ١٢٤ - ١٣٠ ، ١٥٧ - ١٦١ وغيرها ، وتاريخ أرض القرآن ١ / ١٣٣ إلى نهاية الكتاب ، وتاريخ العرب قبل الإسلام ص ١٠١ - ١٥١ ، وفي تعيين السنين وتفصيل بعض الحوادث اختلاف كبير بين المصادر التاريخية ، وقد قال بعض الكتاب عن هذه التفاصيل : « إن هذا إلا أساطير الأولين » .

(٢) تاريخ الطبري ٢ / ٥٤٠ ، واختاره ابن خلدون في تاريخه ٢ / ٢ / ٢٣٨ وأن جذيمة ولى بعد عمرو بن فهم ، وكان ابن أخيه مالك بن فهم .

(٣) اليعقوبي ١ / ١٦٩ ، والمسعودي ٢ / ٩٠ .

وهو أول ملوك اللخمين ، وأول من اتخذ الحيرة مقراً له ، وكان في عهد كسرى سابور بن أردشير، ثم لم يزل الملوك من اللخمين من بعده يتولون الحيرة حتى ولى الفرس قباد بن فيروز (٤٤٨ - ٥٣١ م) وفى عهده ظهر مزدك، وقام بالدعوة إلى الإباحية، فتبعة قباد كما تبعة كثير من رعيته، ثم أرسل قباد إلى ملك الحيرة - وهو المنذر بن ماء السماء (٥١٢ - ٥٥٤ م) - يدعوهُ إلى اختيار هذا المذهب الخبيث، فأبى عليه ذلك حمية وأنفة ، فعزله قباد ، وولى بدله الحارث بن عمرو بن حجر الكندى بعد أن أجاب دعوته إلى المذهب المزدكى .

وخلف قباد كسرى أنوشروان (٥٣١ - ٥٧٨ م) وكان يكره هذا المذهب جداً ، فقتل المزدك وكثيراً من دان بمذهبه ، وأعاد المنذر إلى ولاية الحيرة ، وطلب الحارث بن عمرو ، لكنه أفلت إلى دار كلب ، فلم يزل فيهم حتى مات .

واستمر الملك بعد المنذر بن ماء السماء فى عقبه حتى كان النعمان بن المنذر (٥٨٣ - ٦٠٥ م) فإنه غضب عليه كسرى بسبب وشاية دبرها زيد بن عدى العبادى ، فأرسل كسرى إلى النعمان يطلبه ، فخرج النعمان حتى نزل سرا على هانئ بن مسعود سيد آل شيان ، وأودعه أهله وماله ، ثم توجه إلى كسرى ، فحسبه كسرى حتى مات . وولى على الحيرة بدله إياس بن قبيصة الطائى ، وأمره أن يرسل إلى هانئ بن مسعود يطلب منه تسليم ما عنده ، فأبى ذلك هانئ حمية ، وأذن الملك بالحرب ، ولم يلبث أن جاءته مرازمة كسرى وكتائبه فى موكب إياس ، ودارت بين الفريقين معركة هائلة عند ذى قار ، انتصر فيها بنو شيان وانهمزت الفرس هزيمة نكراء . وهذا أول يوم انتصرت فيه العرب على العجم ^(١) ، وهو بعد ميلاد الرسول ﷺ .

واختلف المؤرخون فى تحديد زمن هذه المعركة ، فقليل : هو بعد ميلاد الرسول ﷺ بقليل ، وأنه ﷺ ولد لثمانية أشهر من ولاية إياس بن قبيصة على الحيرة . وقيل : قبل النبوة بقليل - وهو الأقرب . وقيل : بعد النبوة بقليل . وقيل : بعد الهجرة . وقيل : بعد بدر . وقيل غير ذلك .

وولى كسرى على الحيرة بعد إياس حاكماً فارسياً اسمه آزادبه بن ماهبيان بن مهرباندا، وظل يحكم ١٧ عاماً (٦١٤ - ٦٣١ م) ثم عاد الملك إلى آل لحم سنة ٦٣٢م، فتولى منهم المنذر بن النعمان الملقب بالمرور ، ولكن لم تزد ولايته على ثمانية أشهر حتى قدم عليه خالد بن الوليد بعساكر المسلمين ^(٢) .

الملك بالشام :

فى العهد الذى ماجت فيه العرب بهجرات القبائل سارت بطون من قضاة إلى مشارف الشام وسكنت بها ، وكانوا من بنى سليح بن حلوان الذين منهم بنو ضجعم بن سليح المعروفون باسم الضجاعمة ، فاصطنعهم الرومان ؛ ليمنعوا عرب البرية من العبث ، وليكونوا

(١) روى ذلك مرفوعاً عن رسول الله ﷺ خليفة بن خياط فى مسنده ص ٢٤ ، وابن سعد ٧ / ٧٧ .

(٢) التفصيل عند الطبرى والمسعودى وابن قتيبة وابن خلدون والبلاذرى وابن الأثير وغيرهم .

عدة ضد الفرس، وولوا منهم ملكاً، ثم تعاقب الملك فيهم سنين، ومن أشهر ملوكهم زياد بن الهبولة ، ويقدر زمنهم من أوائل القرن الثاني الميلادي إلى نهايته تقريباً ، وانتهت ولايتهم بعد قدوم آل غسان الذين غلبوا الضجاعة على ما بيدهم وانتصروا عليهم ، فولتهم الروم ملوكاً على عرب الشام ، وكانت قاعدتهم مدينة بصرى ، ولم تزل تتوالى الغساسنة على الشام بصفتهم عمالاً للملوك الروم حتى كانت وقعة اليرموك سنة ١٣ هـ ، وانقاد للإسلام آخر ملوكهم جبلة بن الأيهم في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه (١) .

الإمارة بالحجاز :

ولى إسماعيل عليه السلام زعامة مكة وولاية البيت طول حياته ، وتوفى وله ١٣٧ سنة (٢) ، ثم ولى واحد ، وقيل : اثنان من أبنائه : نابت ثم قي دار ، ويقال العكس ، ثم ولى أمر مكة بعدهما جد هما مضاض بن عمرو الجرهمي ، فانتقلت زعامة مكة إلى جرهم ، وظلت في أيديهم ، وكان لأولاد إسماعيل مركز محترم؛ لما لأبيهم من بناء البيت ، ولم يكن لهم من الحكم شيء (٣) .

ومضت الدهور والأيام ولم يزل أمر أولاد إسماعيل عليهم السلام ضئيلاً لا يذكر ، حتى ضعف أمر جرهم قبيل ظهور بختنصر ، وأخذ نجم عدنان السياسي يتألق في أفق سماء مكة منذ ذلك العصر ، بدليل ما جاء بمناسبة غزو بختنصر للعرب في ذات عرق ، فإن قائد العرب في الموقعة لم يكن جرهمياً ، بل كان عدنان نفسه (٤) .

وتفرقت بنو عدنان إلى اليمن عند غزوة بختنصر الثانية (سنة ٥٨٧ ق . م) وذهب برخيا - صاحب يرمياه النبي الإسرائيلي بمعد - إلى حران من الشام ، فلما انكشف ضغط بختنصر رجع معد إلى مكة فلم يجد من جرهم إلا جوشم بن جلهمة ، فتزوج بابنته معانة فولدت له نزاراً (٥) .

وساء أمر جرهم بمكة بعد ذلك ، وضافت أحوالهم ، فظلموا الوافدين إليها ، واستحلوا مال الكعبة (٦) ، الأمر الذي كان يغيظ العدنانيين ويثير حفيظتهم ، ولما نزلت خزاعة بمر الظهران ، ورأت نفور العدنانيين من الجراهمة استغلت ذلك ، فقامت بمعونة من بطون عدنان - وهم بنو بكر بن عبد مناف بن كنانة - بمحاربة جرهم ، حتى أجلتهم عن مكة ، واستولت على حكمها في أواسط القرن الثاني للميلاد .

ولما لجأت جرهم إلى الجلاء سدوا بئر زمزم، ودرسوا موضعها، ودفنوا فيها عدة أشياء ،

(١) التفصيل عند الطبري والمسعودي وابن قتيبة وابن خلدون والبلاذري وابن الأثير وغيرهم .

(٢) سفر التكوين ٢٥ : ١٧ ، وتاريخ الطبري ١ / ٣١٤ ، وفي قول عنده وعند يعقوبى ١ / ٢٢٢ وغيرهما : إنه توفى وله مائة وثلاثون سنة .

(٣) سيرة ابن هشام ١ / ١١١ - ١١٣ ، وقد ذكر ابن هشام ولاية نابت فقط من أولاد إسماعيل عليهم السلام .

(٤) تاريخ الطبري ١ / ٥٥٩ .

(٥) تاريخ الطبري ١ / ٥٥٩ ، ٥٦٠ ، ٢ / ٢٧١ ، وفتح الباري ٦ / ٦٢٢ .

(٦) تاريخ الطبري ٢ / ٢٨٤ .

قال ابن إسحاق : فخرج عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمي (١) بغزالي الكعبة (٢) ،
وينحجر الركن الأسود فدفنهما في بئر زمزم ، وانطلق هو ومن معه من جرهم إلى اليمن ،
فحزنوا على ما فارقوا من أمر مكة وملكها حزناً شديداً ، وفي ذلك قال عمرو :

كأن لم يكن بين الحَجُّون إلى الصَّفَا أنيس ولم يَسْمُرْ بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صُرُوف الليالي والجُدود العَوائر (٣)

ويقدر زمن إسماعيل عليه السلام بعشرين قرناً قبل الميلاد ، فتكون إقامة جرهم في مكة واحداً
وعشرين قرناً تقريباً ، وحكمهم على مكة زهاء عشرين قرناً .

واستبدت خزاعة بأمر مكة دون بني بكر ، إلا أنه كان إلى قبائل مضر ثلاث خلال :

الأولى : الدفع بالناس من عرفة إلى المزدلفة ، والإجازة بهم يوم النفر من منى ، وكان
يلى ذلك بنو العَوث بن مرة من بطون إلياس بن مضر ، وكانوا يسمون صُوفَةً ، ومعنى هذه
الإجازة أن الناس كانوا لا يرمون يوم النفر حتى يرمى رجل من صوفة ، ثم إذا فرغ الناس من
الرمي وأرادوا النفر من منى أخذت صوفة بجانبى العقبة ، فلم يجز أحد حتى يمروا ، ثم
يخلون سبيل الناس ، فلما انقرضت صوفة ورثهم بنو سعد بن زيد مناة من تميم .

الثانية : الإفاضة من جمع غداة النحر إلى منى ، وكان ذلك في بني عدوان .

الثالثة : إنساء الأشهر الحرم ، وكان ذلك إلى بني فُقيْم بن عدى من بني كنانة (٤) .

واستمرت (ولاية) خزاعة على مكة ثلاثمائة سنة (٥) . وفي وقت حكمهم انتشر
العدنانيون في نجد وأطراف العراق والبحرين ، وبقي بأطراف مكة بطون من قريش وهم حُلُول
وصِرْم (٦) متقطعون ، وبيوتات متفرقون في قومهم من بني كنانة ، وليس لهم من أمر مكة
ولا البيت الحرام شيء حتى جاء قصي بن كلاب (٧) .

ويذكر من أمر قصي: أن أباه مات وهو في حضن أمه ، ونكح أمه رجل من بني عُدرة
- وهو ربيعة بن حرام - فاحتملها إلى بلاده بأطراف الشام ، فلما شب قصي رجع إلى مكة ،

(١) هذا غير مضاض الجرهمي الأكبر الذي مضى ذكره في قصة إسماعيل عليه السلام .

(٢) قال المسعودي : وكانت الفرس تهدي إلى الكعبة أموالاً في صدر الزمان وجواهر ، وقد كان ساسان بن
بابك أهدى غزالين من الذهب وجواهر وسيفاً وذهباً كثيراً فقفذه (عمرو) في بئر زمزم ، وقد ذهب قوم
من مصنفى الكتب في التواريخ وغيرها من السير أن ذلك كان لجرهم حين كانت بمكة ، وجرهم لم تكن
ذات مال فيضاف ذلك إليها ، ويحتمل أن يكون لغيرها ، والله أعلم . مروج الذهب ١ / ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

(٣) ابن هشام ١ / ١١٤ ، ١١٥ ، وتاريخ الطبري ٢ / ٢٨٥ ، والجدود : جمع الجدُّ ، وهو الحظ .

(٤) ابن هشام ١ / ٤٤ ، ١١٩ ، ١٢٢ .

(٥) ياقوت: مادة « مكة » ، وفتح الباري ٦ / ٦٣٣ ، ومروج الذهب للمسعودي ٢ / ٥٨ .

(٦) الحُلُول - بضم الحاء - جمع حال بتشديد اللام بمعنى النازل: أى المقيم ، والصِرْم بكسر الصاد وسكون
الراء: هو الطائفة من القوم ينزلون بإبلهم ناحية من الماء ، والجمع: أصرام .

(٧) سيرة ابن هشام ١ / ١١٧ .

وكان واليها إذ ذاك حُلَيْلُ بن حِشْبَةَ من خزاعة ، فخطب قصى إلى حليل ابنته حَبِي ، فرغب فيه حليل وزوجه إياها^(١) ، فلما مات حليل قامت حرب بين خزاعة وقريش ، أدت أخيراً إلى تغلب قصى على أمر مكة والبيت .

وهناك ثلاث روايات في بيان سبب هذه الحرب :

الأولى : أن قصياً لما انتشر ولده وكثر ماله وعظم شرفه وهلك حليل رأى أنه أولى بالكعبة وبأمر مكة من خزاعة وبنى بكر ، وإن قريشاً رءوس آل إسماعيل وصريحهم ، فكلم رجالاً من قريش وبنى كنانة في إخراج خزاعة وبنى بكر عن مكة فاجابوه^(٢) .

الثانية : أن حليلاً - فيما تزعم خزاعة - أوصى قصياً بالقيام على الكعبة وبأمر مكة ، ولكن أبت خزاعة أن تمضى ذلك لقصى فهاجت الحرب بينهما^(٣) .

الثالثة : أن حليلاً أعطى ابنته حبي ولاية البيت ، واتخذ أبا غُبْشان^(٤) الخزاعي وكيلاً لها ، فقام أبو غُبْشان بسدانة الكعبة نيابة عن حبي ، وكان في عقله شيء ، فلما مات حليل خدعه قصى ، واشترى منه ولاية البيت بأذواد من الإبل أو بزق من الخمر ، ولم ترض خزاعة بهذا البيع ، وحاولوا منع قصى عن البيت ، فجمع قصى رجالاً من قريش وبنى كنانة لإخراج خزاعة من مكة ، فاجابوه^(٥) .

وأياً ما كان ، فلما مات حليل وفعلت صوفة ما كانت تفعل أتاها قصى بمن معه من قريش وكنانة عند العقبة ، فقال : نحن أولى بهذا منكم ، فقاتلوه فغلبهم قصى على ما كان بأيديهم ، وانحازت عند ذلك خزاعة وبنى بكر عن قصى ، فبادأهم قصى وأجمع لحربهم ، فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً حتى كثرت القتلى في الفريقين جميعاً ، ثم تداعوا إلى الصلح فحكموا يعمر بن عوف أحد بنى بكر ، فقصى بأن قصياً أولى بالكعبة وبأمر مكة من خزاعة ، وكل دم أصابه قصى منهم موضوع يشدخه تحت قدميه ، وما أصابت خزاعة وبنى بكر ففيه الدية ، وأن يخلي بين قصى وبين الكعبة ، فسمى يعمر يومئذ : الشداخ^(٦) .

وكانت فترة تولى خزاعة أمر البيت ثلاثمائة سنة ، واستولى قصى على أمر مكة والبيت في أواسط القرن الخامس للميلاد سنة ٤٤٠ م^(٧) ، وبذلك صارت لقصى ثم لقريش السيادة التامة والأمر النافذ في مكة ، وصار قصى هو الرئيس الدينى لهذا البيت الذى كانت تغد إليه

(١) ابن هشام ١ / ١١٧ ، ١١٨ وحُلَيْلُ بضم الحاء مصغراً ، وحِشْبَةُ بفتح فسكون ، وهو ابن سلول (بفتح فضم) بن عمرو بن لحي بن حارثة بن عمرو بن عامر بن ماء السماء . وحبي بضم المهملة وتشديد الموحدة مع الإمالة ، قاله الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٦ / ٦٣٣ .

وقال آخرون : حِشْبَةُ بضم الحاء وسكون الباء وكسر الشين وتشديد الياء .

(٢) سيرة ابن هشام ١ / ١١٧ ، ١١٨ ، والطبرى ٢ / ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

(٣) سيرة ابن هشام ١ / ١١٨ ، والروض الأنف ١ / ١٤٢ .

(٤) بضم الغين المعجمة وسكون الموحدة ، واسمه المحرش أو سليم بن عمرو . فتح الباري ٦ / ٦٣٣ ، والروض الأنف ١ / ١٤٢ .

(٥) تاريخ يعقوبى ١ / ٢٣٩ ، وفتح الباري ٦ / ٦٣٤ ، والمسعودى ٢ / ٥٨ .

(٦) انظر التفصيل فى : سيرة ابن هشام ١ / ١٢٣ ، ١٢٤ ، وتاريخ الطبرى ٢ / ٢٥٥ - ٢٥٨ .

(٧) فتح الباري ٦ / ٦٣٣ ، والمسعودى ٢ / ٥٨ ، وقلب جزيرة العرب ص ٢٣٢ .

العرب من جميع أنحاء الجزيرة .

ومما فعله قصى بمكة أنه جمع قومه من منازلهم إلى مكة، وقطعها رباعاً بين قومه، وأنزل كل قوم من قريش منازلهم التي أصبحوا عليها، وأقر النساء وأكل صفوان وعدوان ومرة ابن عوف على ما كانوا عليه من المناصب؛ لأنه كان يراه ديناً في نفسه لا ينبغي تغييره^(١).

ومن مآثر قصى: أنه أسس دار الندوة بالجانب الشمالي من مسجد الكعبة، وجعل بابها إلى المسجد، وكانت مجمع قريش، وفيها تفصيل مهام أمورها، ولهذه الدار فضل على قريش؛ لأنها ضمنت اجتماع الكلمة وفض المشاكل بالحسنى^(٢).

وكان لقصى من مظاهر الرياسة والتشريف:

١ - رئاسة دار الندوة: ففيها كانوا يتشاورون فيما نزل بهم من جسام الأمور، وفيها كانوا يزوجون بناتهم.

٢ - اللواء: فكانت لا تعقد راية ولا لواء لحرب قوم من غيرهم إلا بيده أو بيد أحد أولاده، وفي هذه الدار.

٣ - القيادة: وهى إمارة الركب، فكانت لا تخرج ركب لأهل مكة فى تجارة أو غيرها إلا تحت إمارته أو إمارة أولاده.

٤ - الحجابة: وهى حجابة الكعبة، لا يفتح بابها إلا هو، وهو الذى يلى أمر خدمتها وسداتها.

٥ - سقاية الحاج: وهى أنهم كانوا يملأون للحجاج حياضاً من الماء، يحلون بها شئ من التمر والزبيب، فيشرب الناس منها إذا وردوا مكة.

٦ - رفاة الحاج: وهى طعام كان يصنع للحجاج على طريقة الضيافة، وكان قصى فرض على قريش خراجاً تخرجه فى الموسم من أموالها إلى قصى، فيصنع به طعاماً للحجاج، يأكله من لم يكن له سعة ولا زاد^(٣).

كان كل ذلك لقصى، وكان ابنه عبد مناف قد شرف وساد فى حياته، وكان عبد الدار بكره. فقال له قصى فيما يقال: لألحقنك بالقوم وإن شرفوا عليك، فأوصى له بما كان يليه من مصالح قريش، فأعطاه دار الندوة واللواء والقيادة والحجابة والسقاية والرفاة، وكان قصى لا يخالف ولا يرد عليه شئ صنع، وكان أمره فى حياته وبعد موته كالدين المتبع، فلما هلك أقام بنوه أمره لا نزاع بينهم، ولكن لما هلك عبد مناف نafs أبنائه بنى عمهم عبد الدار فى هذه المناصب، وافترقت قريش فرقتين، وكاد يكون بينهم قتال، إلا أنهم تداعوا إلى الصلح، واقتسموا هذه المناصب، فصارت السقاية والرفاة والقيادة إلى بنى عبد مناف، وبقيت دار الندوة واللواء والحجابة بيد بنى عبد الدار. وقيل: كانت دار الندوة بالاشتراك بين الفريقين، ثم حكم بنو عبد مناف القرعة فيما أصابهم، فصارت السقاية

(١) ابن هشام ١ / ١٢٤، ١٢٥.

(٢) ابن هشام ١ / ١٢٥، وإخبار الكرام بأخبار المسجد الحرام ص ١٥٢.

(٣) ابن هشام ١ / ١٣٠، وتاريخ يعقوبى ١ / ٢٤٠، ٢٤١.

والرفادة لهاشم والقيادة لعبد شمس ، فكان هاشم بن عبد مناف هو الذى يلى السقاية والرفادة طول حياته ، فلما مات خلفه أخوه المطلب بن عبد مناف ، وولى بعده عبد المطلب ابن هاشم بن عبد مناف جد رسول الله ﷺ ، وبعده أبنائوه حتى جاء الإسلام والولاية إلى العباس . ويقال : إن قصياً هو الذى قسم المناصب على أولاده ، ثم توارثها أبنائهم حسب التفصيل المذكور ، والله أعلم (١) .

وكانت لقریش مناصب أخرى سوى ما ذكرنا وزعوها فيما بينهم ، وكونوا بها دويلة - بل بتعبير أصح : شبه دويلة ديمقراطية - وكانت لهم من الدوائر والتشكيلات الحكومية ما يشبه فى عصرنا هذا دوائر البرلمان ومجالسها ، وهاك لوحة من تلك المناصب :

- ١ - الإيسار : أى تولية قداح الأصنام للاستقسام ، وكان ذلك فى بنى جُمَح .
- ٢ - تحجير الأموال: أى تنظيم القربات والنذور التى كانت تهدى إلى الأصنام ، وكذلك فصل الخصومات والمرافعات . وكان ذلك فى بنى سهم .
- ٣ - الشورى : وكانت فى بنى أسد .
- ٤ - الأشناق : أى تنظيم الديات والغرامات ، وكان ذلك فى بنى تيم .
- ٥ - العقاب : أى حمل اللواء القومى ، وكان ذلك فى بنى أمية .
- ٦ - القبة : أى تنظيم المعسكر ، وكذلك قيادة الخيل ، وكان فى بنى مخزوم .
- ٧ - السفارة : وكانت فى بنى عدى (٢) .

الحكم فى سائر العرب :

قد تقدم ذكر هجرات القبائل القحطانية والعدنانية ، وأنها اقتسمت البلاد العربية فيما بينها ، فما كان من هذه القبائل بالقرب من الحيرة كانت تبعاً لملك العرب بالحيرة ، وما كان منها فى بادية الشام كانت تبعاً للغساسنة ، إلا أن هذه التبعية كانت اسمية لا فعلية ، وأما ما كان منها فى البوادرى فى داخل الجزيرة فكانت حرة مطلقة .

والحقيقة أن هذه القبائل كانت تختار لأنفسها رؤساء يسودونها ، وأن القبيلة كانت حكومة مصغرة ، أساس كيانها السياسى الوحدة العصبية ، والمنافع المتبادلة فى حماية الأرض ودفع العدوان عنها .

وكانت درجة رؤساء القبائل فى قومهم كدرجة الملوك ، فكانت القبيلة تبعاً لرأى سيدها فى السلم والحرب ، لا تتأخر عنه بحال ، وكان له من الحكم والاستبداد بالرأى ما يكون لدكتاتور قوى ؛ حتى كان بعضهم إذا غضب غضب له ألوف من السيوف لا تسأله: فيم غضب ، إلا أن المنافسة فى السيادة بين أبناء العم كانت تدعوهم إلى المصانعة بالناس من بذل

(١) ابن هشام ١ / ١٢٩ - ١٣٢ ، ١٣٧ ، ١٤٢ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، وانظر : البعقوبى ١ / ٢٤١ .

(٢) تاريخ أرض القرآن ٢ / ١٠٤ - ١٠٦ ، والمعروف أن حمل اللواء كان من حق بنى عبد الدار كما تقدم ، وإنما كانت القيادة العامة من حق بنى أمية .

الندى وإكرام الضيف والكرم والحلم ، وإظهار الشجاعة والدفاع عن الغيرة، حتى يكسبوا المحامد فى أعين الناس ، ولاسيما الشعراء الذين كانوا لسان القبيلة فى ذلك الزمان ، وحتى تسمو درجتهم عن مستوى المنافسين .

وكان للسادة والرؤساء حقوق خاصة ، فكانوا يأخذون من الغنيمة المِرباع والصفى والنشيطه والفضول ، يقول الشاعر :

لك المِرباع فينا والصفيا وحكمك والنشيطه والفضول

والمرباع : ربع الغنيمة ، والصفى : ما كان يصطفيه الرئيس، أى يختاره لنفسه قبل القسمة، والنشيطه: ما أصاب الرئيس فى الطريق قبل أن يصل إلى بيضة القوم . والفضول : ما فضل من القسمة مما لا تصح قسمته على عدد الغزاة ، كالبعير والفرس ونحوهما .
الحالة السياسية :

بعد أن ذكرنا حكام العرب يجمل بنا أن نذكر جملة من أحوالهم السياسية حتى يتضح الوضع ، فالأقطار الثلاثة التى كانت مجاورة للأجانب كانت حالتها السياسية فى تضعضع وانحطاط لا مزيد عليه . فقد كان الناس بين سادة وعبيد ، أو حكام ومحكومين ، فالسادة - ولاسيما الأجانب - كان لهم كل الغنم ، والعبيد عليهم كل الغرم ، وبعبارة أوضح: إن الرعايا كانت بمثابة مزرعة تورد المحصولات إلى الحكومات، والحكومات كانت تستخدمها فى ملذاتها وشهواتها، ورغائبها، وجورها ، وعدوانها . أما الناس فكانوا فى عمايتهم يتخطون، والظلم ينحط عليهم من كل جانب، وما فى استطاعتهم التذمر والشكوى، بل كانوا يسامون الخسف والجور والعذاب ألواناً ساكتين، فقد كان الحكم استبدادياً، والحقوق ضائعة مهدورة .
وأما القبائل المجاورة لهذه الأقطار فكانوا مذبحين تتقاذفهم الأهواء والأغراض ، مرة يدخلون فى أهل العراق ، ومرة يدخلون فى أهل الشام .

وكانت أحوال القبائل داخل الجزيرة مفككة الأوصال ، تغلب عليها المنازعات القبلية والاختلافات العنصرية والدينية، حتى قال ناطقهم :

وما أنا إلا من غزيرة إن غوت غويت ، وإن ترشد غزية أرشد

ولم يكن لهم ملك يدعم استقلالهم ، أو مرجع يرجعون إليه ، ويعتمدون عليه وقت الشدائد .

وأما حكومة الحجاز فقد كانت تنظر إليها العرب نظرة تقدير واحترام ، ويرونها قادة وسدنة المركز الدينى ، وكانت تلك الحكومة فى الحقيقة خليطاً من الصدارة الدنيوية والحكومية والزعامة الدينية ، حكمت بين العرب باسم الزعامة الدينية ، وحكمت فى الحرم وما والا به بصفتها حكومة تشرف على مصالح الوافدين إلى البيت ، وتنفذ حكم شريعة إبراهيم ، وكانت لها من الدوائر والتشكيلات ما يشابه دوائر البرلمان - كما أسلفنا - ولكن هذه الحكومة كانت ضعيفة لا تقدر على حمل العبء كما وضع يوم غزو الأحباش .

ديانات العرب

كان معظم العرب يدينون بدين إبراهيم عليه السلام منذ أن نشأت ذريته في مكة وانتشرت في جزيرة العرب، فكانوا يعبدون الله ويوحدونه ويلتزمون بشعائر دينه الحنيف، حتى طال عليهم الأمد ونسوا حظاً مما ذكروا به، إلا أنهم بقى فيهم التوحيد وعدة شعائر من هذا الدين، حتى جاء عمرو بن لُحَيّ رئيس خزاعة، وكان قد نشأ على أمر عظيم من المعروف والصدقة والحرص على أمور الدين، فأحبه الناس ودانوا له، ظناً منهم أنه من أكابر العلماء وأفاضل الأولياء .

ثم إنه سافر إلى الشام، فرأهم يعبدون الأوثان، فاستحسن ذلك وظنه حقاً ؛ لأن الشام محل الرسل والكتب، فقدم معه بهيئاً وجعله في جوف الكعبة ، ودعا أهل مكة إلى الشرك بالله فأجابوه، ثم لم يلبث أهل الحجاز أن تبعوا أهل مكة ؛ لأنهم ولاه البيت وأهل الحرم .

وكان هبل من العقيق الأحمر على صورة إنسان ، مكسور اليد اليمنى ، أدرسته قرش كذلك ، فجعلوا له يداً من ذهب، وكان أول صنم للمشركين وأعظمه وأقدسهم عندهم (١) .

ومن أقدم أصنامهم مناة ، كانت لهذيل وخزاعة ، وكانت بالمشلل على ساحل البحر الأحمر حذو قُذَيْد، والمشلل: ثنية جبل يهبط منها إلى قديد(٢) . ثم اتخذوا اللات في الطائف، وكانت ثقيف، وكانت في موضع منارة مسجد الطائف اليسرى(٣) ، ثم اتخذوا العزى بوادي نخلة الشامية فوق ذات عرق ، وكانت لقريش وبني كنانة مع كثير من القبائل الأخرى(٤) .

وكانت هذه الأصنام الثلاثة أكبر أوثان العرب ، ثم كثر فيهم الشرك ، وكثرت الأوثان في كل بقعة .

ويذكر أن عمرو بن لحي كان له رثى من الجن، فأخبره أن أصنام قوم نوح - وداً وسوعاً ويعوث ويعوق ونسراً - مدفونة بجدة ، فأثاها فاستثارها ، ثم أوردتها إلى تهامة ، فلما جاء الحج دفعها إلى القبائل ، فذهبت بها إلى أوطانها .

فأما ود: فكانت لكلب ، بجرش بدومة الجندل من أرض الشام مما يلي العراق، وأما سواع: فكانت لهذيل بن مدركة بمكان يقال له : رُهاط من أرض الحجاز، من جهة الساحل بقرب مكة، وأما يعوث: فكانت لبني غُطَيْف من بني مراد، بالجرم عند سبأ، وأما يعوق : فكانت لهمدان في قرية خيوان من أرض اليمن ، وحيوان: بطن من همدان، وأما نسر: فكانت لحمير لآل ذى الكلاع في أرض حمير(٥) .

(١) كتاب الأصنام لابن الكلبي ص ٢٨ .

(٢) صحيح البخارى ج (١٦٤٣ ، ١٧٩٠ ، ٤٤٩٥ ، ٤٨٦١) ، فتح البارى ٣ / ٤٩٩ ، ٨ / ٦١٣ .

(٣) كتاب الأصنام لابن الكلبي ص ١٦ .

(٤) المصدر نفسه ص ١٨ ، ١٩ ، وفتح البارى ٨ / ٦١٢ ، وتفسير القرطبي ١٧ / ٩٩ .

(٥) صحيح البخارى ج (٤٩٢٠) ، فتح البارى ٦ / ٥٤٩ ، ٨ / ٦٦٨ ، والتمق لمحمد بن حبيب ص ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، وكتاب الأصنام لابن الكلبي ص ٩ - ١١ ، ٥٦ . ٥٨ .

وقد اتخذوا لهذه الطواغيت بيوتاً كانوا يعظمونها كتعظيم الكعبة ، وكانت لها سدة وحجاب ، وكانت تهدى لها كما يهدى للكعبة ، مع اعترافهم بفضل الكعبة عليها (١) .

وقد سارت قبائل أخرى على نفس الطريق ، فاتخذت لها أصناماً آلهة وبنّت لها بيوتاً مثلها ، فكان منها ذو الخَلَصَةِ لدَوَسَ وَخَثَعَمَ وَبُجَيْلَةَ ، ببلادهم من أرض اليمن ، بنبالة بين مكة واليمن ، وكانت فُلَسَ لبنى طيئٍ ومن يليها بين جبلى طيئٍ : سلمى وأجأ . وكان منها ريام ، بيت بصنعاء لأهل اليمن وحمير ، وكانت منها رضاء ، بيت لبنى ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد ، مناة بن تميم ، وكان منها الكَعْبَاتُ لبكر وتغلب ابني وائل ، ولإياد بَسَنْدَادَ (٢) .

وكان لدَوَسَ صنم أيضاً يقال له : ذو الكفين ، ولبنى بكر ومالك وملكان أبناء كنانة صنم يقال له : سعد ، وكان لقوم من عذرة صنم يقال له : شمس (٣) ، وكان لخلولان صنم يقال له : عُمَيَّانِسَ (٤) .

وهكذا انتشرت الأصنام ودور الأصنام فى جزيرة العرب ، حتى صار لكل قبيلة ثم فى كل بيت منها صنم ، أما المسجد الحرام فكانوا قد ملأوه بالأصنام ، ولما فتح رسول الله ﷺ مكة وجد حول البيت ثلاثمائة وستين صنماً ، فجعل يقطعنها بعود فى يده حتى تساقطت ، ثم أمر بها فأخرجت من المسجد وحرقت ، وكان فى جوف الكعبة أيضاً أصنام وصور ، منها صنم على صورة إبراهيم ، وصنم على صورة إسماعيل - عليهما الصلاة والسلام - ويدهما الأزلام ، وقد أزيلت هذه الأصنام ومحيت هذه الصور أيضاً يوم الفتح (٥) .

وقد تهادى الناس فى غيهم هذا حتى يقول أبو رجاء العطاردى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : كنا نعبد الحجر ، فإذا وجدنا حجراً هو خير منه ألقيناه وأخذنا الآخر ، فإذا لم نجد حجراً جمعنا جُثُوَّةً من تراب ، ثم جئنا بالشاة فحلبناه عليه ، ثم طفنا به (٦) .

وجملة القول : إن الشرك وعبادة الأصنام كانا أكبر مظهر من مظاهر دين أهل الجاهلية الذين كانوا يزعمون أنهم على دين إبراهيم عليه السلام .

أما فكرة الشرك وعبادة الأصنام فقد نشأت فىهم على أساس أنهم لما رأوا الملائكة والرسل والنبين وعباد الله الصالحين من الأولياء والأتقياء والقائمين بأعمال الخير - لما رأوهم أنهم أقرب خلق الله إليه ، وأكرمهم درجة وأعظمهم منزلة عنده ، وأنهم قد ظهرت على أيديهم بعض الخوارق والكرامات ، ظنوا أن الله أعطاهم شيئاً من القدرة والتصرف فى بعض الأمور التى تختص بالله سبحانه وتعالى ، وأنهم لأجل تصرفهم هذا ولأجل جاههم ومنزلتهم عند الله يستحقون أن يكونوا وسطاء بين الله سبحانه وتعالى وبين عامة عباده ، فلا ينبغى لأحد أن

(١) ابن هشام ١ / ٨٣ .

(٢) ابن هشام ١ / ٧٨ ، ٨٩ ، وتفسير ابن كثير : سورة نوح .

(٣) تاريخ اليعقوبى ١ / ٢٥٥ . (٤) ابن هشام ١ / ٨٠ .

(٥) صحيح البخارى ج (١٦١٠ ، ٢٤٧٨ ، ٣٣٥١ ، ٣٣٥٢ ، ٤٢٨٧ ، ٤٢٨٨ ، ٤٧٢٠) .

(٦) المصدر نفسه ج (٤٣٧٦) .

يعرض حاجته على الله إلا بواسطة هؤلاء؛ لأنهم يشفعون له عند الله ، وأن الله لا يرد شفاعتهم لأجل جاههم ، كذلك لا ينبغي القيام بعبادة الله إلا بواسطة هؤلاء؛ لأنهم بفضل مرتبتهم سوف يقربونه إلى الله زلفى .

ولما تمكن منهم هذا الظن ورسخ فيهم هذا الاعتقاد اتخذوهم أولياء ، وجعلوهم وسيلة فيما بينهم وبين الله سبحانه وتعالى، وحاولوا التقرب إليهم بكل ما رأوه من أسباب التقرب؛ ففتحوا لمعظمهم صوراً وتماثيل ، إما حقيقية تطابق صورهم التى كانوا عليها ، وإما خيالية تطابق ما تخيلوا لهم من الصور فى أذهانهم - وهذه الصور والتماثيل هى التى تسمى بالأصنام .

وربما لم ينحتوا لهم صوراً ولا تماثيل ، بل جعلوا قبورهم وأضرحتهم وبعض مقراتهم ومواقع نزولهم واستراحتهم أماكن مقدسة ، وقدموا إليها النذور والقربان ، وأتوا لها بأعمال الخضوع والطاعات ، وهذه الأضرحة والمقرات والمواقع هى التى تسمى بالأوثان .

أما عبادتهم لهذه الأصنام والأوثان فكانت لهم فيها تقاليد وأعمال ابتدع أكثرها عمرو بن لحي ، وكانوا يظنون أن ما أحدثه عمرو بن لحي فهو بدعة حسنة ، وليس بتغيير لدين إبراهيم عليه السلام ، فكان من جملة عبادتهم للأصنام والأوثان أنهم :

١ - كانوا يعكفون عليها ويلتجئون إليها .. ويهتفون بها ، ويستغيثونها فى الشدائد ، ويدعونها لحاجاتهم ، معتقدين أنها تشفع عند الله ، وتحقق لهم ما يريدون .

٢ - وكانوا يحجون إليها ويطوفون حولها ، ويتذللون عندها ، ويسجدون لها .

٣ - وكانوا يتقربون إليها بأنواع من القربان ، فكانوا يذبحون وينحرون لها على أنصابها، كما كانوا يذبحون بأسمائها فى أى مكان .

وهذان النوعان من الذبح ذكرهما الله تعالى فى قوله : ﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ﴾ [المائدة: ٣] ، وفى قوله : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ [الأنعام: ١٢١] .

٤ - وكان من أنواع التقرب إلى هذه الأصنام والأوثان أنهم كانوا يخصون لها شيئاً من مأكليهم ومشاربهم حسبما يبدو لهم ، وكذلك كانوا يخصون لها نصيباً من حرثهم وأنعامهم، ومن الطرائف : أنهم كانوا يخصون من ذلك جزءاً لله أيضاً . وكانت عندهم عدة أسباب ينتلون لأجلها إلى الأصنام ما كان لله ، ولكن لم يكونوا ينقلون إلى الله ما كان لأصنامهم بحال، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (١٣٦) [الأنعام] .

٥ - وكان من أنواع التقرب إليها النذر فى الحرث والأنعام قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حَجَرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مِنْ نَشَاءِ بَزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حَرَمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ ﴾ [الأنعام : ١٣٨] .

٦ - وكانت منها البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى .

قال سعيد بن المسيب : البحيرة : التى يمنع درها للطواغيت ، فلا يحلبها أحد من الناس . والسائبة : كانوا يسيبونها لألهتهم ، فلا يحمل عليها شئ . والوصيلة : الناقة البكر تبكر فى أول نتاج الإبل بأنثى ، ثم تشنى بعد بأنثى ، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداهما بالأخرى ، ليس بينهما ذكر . والحامى : فحل الإبل يضرب الضراب المعداد [العشر من الإبل] فإذا قضى ضرابه ودعوه للطواغيت ، وأغفوه من الحمل ، فلم يحمل عليه شئ وسموه الحامى (١) .

وقال ابن إسحاق : البحيرة بنت السائبة ، هى الناقة إذا تابعت بين عشر إناث ليس بينهم ذكر ، سبيت فلم يركب ظهرها ، ولم يجز وبرها ، ولم يشرب لبنها إلا ضيف ، فما نتجت بعد ذلك من أنثى شقت أذننها ، ثم خلى سبيلها مع أمها فلم يركب ظهرها ، ولم يجز وبرها ، ولم يشرب لبنها إلا ضيف ، كما فعل بأمها ، فهى البحيرة بنت السائبة . والوصيلة : الشاة إذا أتامت عشر إناث متابعات فى خمسة أبطن ليس بينهم ذكر جعلت وصيلة . قالوا : قد وصلت ، فكان ما ولد بعد ذلك للذكور منهم دون إناثهم إلا أن يموت شئ فيشترك فى أكله ذكورهم وإناثهم . والحامى : الفحل إذا نتج له عشر إناث متابعات ليس بينهم ذكر حمى ظهره ، فلم يركب ، ولم يجز وبره ، وخلى فى إبله يضرب فيها ، لا ينتفع منه بغير ذلك ، وفى ذلك أنزل الله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [المائدة : ١٠٣] ، وأنزل : ﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مِثَّةٌ فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ﴾ [الأنعام : ١٣٩] ، وقيل فى تفسير هذه الأنعام غير ذلك (٢) .

وقد مر عن سعيد بن المسيب أن هذه الأنعام كانت لطواغيتهم . وفى الصحيحين أن النبى ﷺ قال : « رأيت عمرو بن عامر بن لحي الخزاعى يعجر قَصَبَهُ (أى أمعاءه) فى النار » (٣) ، لأنه أول من غير دين إبراهيم ، فنصب الأوثان وسيب السائبة ، وبحر البحيرة ، ووصل الوصيلة ، وحمى الحامى (٤) .

كانت العرب تفعل كل ذلك بأصنامهم معتقدين أنها تقربهم إلى الله وتوصلهم إليه ، وتشفع لديه ، كما فى القرآن : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر : ٣] « ويعبدون

(١) صحيح البخارى ح (٤٦٢٣) ، فتح البارى ٨ / ١٢٣ ، والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٨ / ٥٣ ، وما بين المعقوفين من صحيح ابن حبان .

(٢) ابن هشام ١ / ٨٩ ، ٩٠ ، وانظر : المنق لابن حبيب ص ٣٢٨ ، ٣٢٩ .

(٣) صحيح البخارى ح (١٢١٢) فتح البارى ٣ / ٩٨ ، وح (٣٥٢١) فتح البارى ٦ / ٦٣٣ ، وح (٤٦٢٣) فتح البارى ٨ / ١٣٢ .

(٤) نقله الحافظ فى الفتح ٦ / ٦٣٤ عن ابن إسحاق ، ومثله عند ابن الكلبى فى الأصنام ص ٨ ، وعند ابن حبيب فى المنق ص ٣٢٨ ، وبعض منها موجود فى صحيح البخارى مرفوعا ، وبعض آخر عزاه الحافظ إلى صحيح مسلم من رواية أبى صالح عن أبى هريرة ، انظر : فتح البارى ٨ / ٢٨٥ .

مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴿ [يونس: ١٨] .

وكانت العرب تستقسم بالأزلام ، والزَّكَم : القدح الذى لا ريش له ، وكانت الأزلام ثلاثة أنواع :

- ١ - نوع فيه ثلاثة أسهم ، أحدها : « نعم » ، وثانيها : « لا » ، وثالثها : « غُفْل » ، كانوا يستقسمون بها فيما يريدون من العمل ؛ من نحو السفر والنكاح وأمثالهما . فإن خرج « نعم » عملوا به ، وإن خرج « لا » أخروه عامه ذلك حتى يأتوه مرة أخرى ، وإن طلع « غفْل » أعادوا الضرب حتى يخرج واحد من الأولين .
- ٢ - ونوع فيه المياه والعقول والديات .

- ٣ - ونوع فيه « منكم » أو « من غيركم » أو « ملصق » ، فكانوا إذا شكوا فى نسب أحدهم ذهبوا به إلى هبل ، وبمائة درهم وجزور ، فأعطوها صاحب القداح ، فإن خرج « منكم » كان منهم وسيطاً ، وإن خرج عليه « من غيركم » كان حليفاً ، وإن خرج عليه « ملصق » كان على منزلته فيهم ، لا نَسَب ولا حِلْف (١) .

ويقرب من هذا الميسر والقداح ، وهو ضرب من القمار ، كانوا يقتسمون به لحم الجزور التى كانوا يتقامرون عليها ؛ وذلك أنهم كانوا يشترون الجزور نسيئة فينحرونها ويقسمونها ثمانية وعشرين قسماً ، أو عشرة أقسام ، ثم يضربون عليها بالقداح ، وفيها «الرايح» و«الغفل» ، فمن خرج له قدح «الرايح» فاز ، وأخذ نصيبه من الجزور ، ومن خرج له «الغفل» خاب وغرم ثمنها (٢) .

وكانوا يؤمنون بأخبار الكهنة والعرافين والمنجمين ، والكاهن : هو من يتعاطى الأخبار عن الكوائن فى المستقبل ، ويدعى معرفة الأسرار ومن الكهنة من يزعم أن له تابعاً من الجن ، ومنهم من يدعى إدراك الغيب بفهم أعطيه ، ومنهم من يدعى معرفة الأمور بمقدمات وأسباب يستدل بها على مواقفها من كلام من يسأله أو فعله أو حاله ، وهذا القسم يسمى عرافاً ، كمن يدعى معرفة المسروق ومكان السرقة والضالة ونحوهما . والمنجم : من ينظر فى النجوم أى الكواكب ، ويحسب سيرها ومواقبتها ، ليعلم بها أحوال العالم وحوادثه التى تقع فى المستقبل (٣) .

والتصديق بأخبار المنجمين هو فى الحقيقة إيمان بالنجوم ، وكان من إيمانهم بالنجوم الإيمان بالأنواء ، فكانوا يقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا (٤) .

وكانت فيهم الطيرة (بكسر ففتح) وهى التشاؤم بالشئ ، وأصله أنهم كانوا يأتون الطير أو الظبي فيفرونه ، فإن أخذ ذات اليمين مضوا إلى ما قصدوا وعدوه حسناً ، وإن أخذ

(١) انظر : فتح البارى ٨ / ٢٧٧ ، وابن هشام ١ / ١٥٢ ، ١٥٣ .

(٢) بسطه اليعقوبى فى تاريخه ١ / ٢٥٩ ، ٢٦١ مع اختلاف فى بعض الجزئيات .

(٣) اللسان وكتب اللغة .

(٤) انظر : صحيح البخارى ح (٨٤٦ ، ١٠٣٨ ، ٤١٤٧ ، ٧٥٠٣) ، وصحيح مسلم ٨٣ / ١ ح (٧١) .

ذات الشمال انتهوا عن ذلك وتشاءموا ، وكانوا يتشاءمون كذلك إن عرض الطير أو الحيوان في طريقهم .

ويقرب من هذا تعليقهم كعب الأرنب ، والتشاؤم ببعض الأيام والشهور والحيوانات والدور والنساء ، والاعتقاد بالعدوى والهامة ، فكانوا يعتقدون أن المقتول لا يسكن جأشه ما لم يؤخذ بثأره ، وتصير روحه هامة أى بومة تطير فى الفلوات ، وتقول: صدى صدى أو اسقونى اسقونى ، فإذا أخذ بثأره سكن واستراح (١) .

كان أهل الجاهلية على ذلك وفيهم بقايا من دين إبراهيم ، لم يكونوا قد تركوه كله - مثل تعظيم البيت ، والطواف به ، والحج ، والعمرة ، والوقوف بعرفة والمزدلفة، وإهداء البدن - وإنما كانوا قد ابتدعوا فى ذلك بدءاً :

منها : أن قريشاً كانوا يقولون : نحن بنو إبراهيم وأهل الحرم ، وولاية البيت وقاطنو مكة ، وليس لأحد من العرب مثل حقنا ومنزلتنا - وكانوا يسمون أنفسهم الخمس - فلا ينبغي لنا أن نخرج من الحرم إلى الحل ، فكانوا لا يقفون بعرفة ، ولا يفيضون منها ، وإنما كانوا يفيضون من المزدلفة وفيهم أنزل الله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾ [البقرة : ١٩٩] (٢) .

ومنها: أنهم قالوا : لا ينبغي للحمس أن يَأْقُطُوا الأَقْطَ ولا يَسْلَوا السمن وهم حرم ، ولا يدخلوا بيتاً من شعر ، ولا يستظلوا إن استظلوا إلا فى بيوت الأدم ما داموا حراماً (٣) .

ومنها: أنهم قالوا: لا ينبغي لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به من الحل إلى الحرم ، إذا جاءوا حجاً أو عمارة (٤) .

ومنها: أنهم أمروا أهل الحل ألا يطوفوا بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا فى ثياب الخمس ، وكانت الخمس يحتسبون على الناس ، يعطى الرجل الرجل الثياب يطوف فيها ، وتعطى المرأة المرأة الثياب ، تطوف فيها ، فإن لم يجدوا شيئاً فكان الرجال يطوفون عراة ، وكانت المرأة تضع ثيابها كلها إلا درعاً مفرجاً ثم تطوف فيه ، وتقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله

وأُنزل الله فى ذلك : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الاعراف : ٣١] فإن تكرم أحد من الرجل والمرأة فطاف فى ثيابه التى جاء بها من الحل ألقاها بعد الطواف ولا يتنفع بها هو ولا أحد غيره (٥) .

(١) انظر : صحيح البخارى ح (٥٧٥٧ ، ٥٧٧٠) مع حاشيته الهندية .

(٢) ابن هشام ١ / ١٩٩ ، وصحيح البخارى ح (١٦٦٥ ، ٥٤٢٠) . وَسُمُّوا حُمْسًا ؛ لِحُمْسِهِمْ لِدِينِهِمْ .

(٣) المصدر الأول نفسه ١ / ٢٠٢ وَأَقْطَ الْأَقْطَ : أى صنعه ، والأقْط : شئ يتخذ من اللبن المخيض ، يطبخ ثم يترك حتى يَمْلَأ أى يتقاطر ماؤه ويذهب ، وسلا السمن : أخرجه من اللبن .

(٤) ابن هشام ١ / ٢٠٢ .

(٥) ابن هشام ١ / ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، وصحيح البخارى ح (١٦٦٥) .

ومنها : أنهم كانوا لا يأتون بيوتهم من أبوابها في حال الإحرام ، بل كانوا ينقبون في ظهور البيوت نقباً يدخلون ويخرجون منه ، وكانوا يحسبون ذلك الجفاء برأ ، وقد نهى عنه القرآن ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١٨٩) ﴿ (١) البقرة [.

كانت هذه الديانة - ديانة الشرك وعبادة الأوثان ، والاعتقاد بالأوهام والخرافات - هي الديانة السائدة في جزيرة العرب ، وقد وجدت اليهودية والنصرانية والمجوسية والصابئية سبلاً للدخول في ربوعها .

✽ ولليهود دوران - على الأقل - مثلوهما في جزيرة العرب :

الأول : هجرتهم في عهد الفتوح البابلية والآشورية في فلسطين ، فقد نشأ عن الضغط على اليهود ، وعن تخريب بلادهم وتدمير هيكلهم على يد الملك بُخْتَنَصْر سنة ٥٨٧ ق م ، وسبى أكثرهم إلى بابل أن قسماً منهم هجر البلاد الفلسطينية إلى الحجاز ، وتوطن في ربوعها الشمالية (٢) .

الدور الثاني : يبدأ من احتلال الرومان لفلسطين بقيادة تيطس الروماني سنة ٧٠م ، فقد نشأ عن ضغط الرومان على اليهود وعن تخريب الهيكل وتدميره أن قبائل عديدة من اليهود رحلت إلى الحجاز ، واستقرت في يثرب وخيبر وتيماء ، وأنشأت فيها القرى والأطام والقلاع ، وانتشرت الديانة اليهودية بين قسم من العرب عن طريق هؤلاء المهاجرين ، وأصبح لها شأن يذكر في الحوادث السياسية التي سبقت ظهور الإسلام ، والتي حدثت في صدره . وحينما جاء الإسلام كانت القبائل اليهودية المشهورة هي : خيبر والنضير والمُصَلَّق وقریظة وقينقاع ، وذكر السهمودي أن عدد القبائل اليهودية التي نزلت بيثرب بين حين وآخر : يزيد على عشرين (٣) .

ودخلت اليهودية في اليمن من قبل تَبَّان أسعد أبي كَرَب ، فإنه ذهب مقاتلاً إلى يثرب واعتنق هناك اليهودية وجاء بحبرين من بنى قريظة إلى اليمن ، فأخذت اليهودية إلى التوسع والانتشار فيها ، ولما ولي اليمن بعده ابنه يوسف ذو نُوَاس هجم على النصارى من أهل نجران ودعاهم إلى اعتناق اليهودية ، فلما أبوا خدّ لهم الأخدود وأحرقهم بالنار ، ولم يفرق بين الرجل والمرأة والأطفال الصغار والشيوخ الكبار ، ويقال : إن عدد القتولين ما بين عشرين ألفاً إلى أربعين ألفاً (٤) . وقع ذلك في شهر أكتوبر سنة ٥٢٣ م (٥) . وقد ذكرهم الله تعالى في القرآن الكريم في سورة البروج ؛ إذ يقول : ﴿ قَتَلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) ﴾ [البروج] .

(١) صحيح البخارى ح (١٨٠٣ ، ٤٥١٢) ، وتفسير ابن جرير : تفسير الآية ، وفتح البارى ٣ / ٦٢١ ، ٦٢٢ .

(٢) قلب جزيرة العرب ص ٢٥١ .

(٣) وفاء الوفا ١ / ١٦٥ مع المصدر السابق .

(٤) انظر للتفصيل : ابن هشام ١ / ٢٠ - ٢٢ ، ٢٧ ، ٣١ ، ٣٥ ، وتفسير سورة البروج من كتب التفسير .

(٥) اليمن عبر التاريخ ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

* أما الديانة النصرانية، فقد جاءت إلى بلاد العرب عن طريق احتلال الحبشة وبعض البعثات الرومانية، وكان أول احتلال الأحباش لليمن سنة ٣٤٠ م، ولكن لم يطل أمد هذا الاحتلال، فقد طردوا منها ما بين عامي ٣٧٠ - ٣٧٨ م^(١)، إلا أنهم شجعوا على نشر النصرانية وتشجعوا لها، وقد وصل أثناء هذا الاحتلال رجل زاهد مستجاب الدعوات وصاحب كرامات - اسمه فيميون - إلى نجران، ودعاهم إلى دين النصرانية فلبوا دعوته واعتنقوا النصرانية؛ لما رأوا من آيات صدقه وصدق دينه^(٢).

ولما احتلت الأحباش اليمن مرة أخرى عام ٥٢٥ م - كرد فعل على ما أثاره ذو نواس من تحريق نصارى نجران في الأخدود، وتمكن أبرهة الأشرم من حكومة اليمن - أخذ ينشر الديانة النصرانية بأوفر نشاط وأوسع نطاق، حتى بلغ من نشاطه أنه بنى كعبة باليمن، وأراد أن يصرف حج العرب إليها ويهدم بيت الله الذي بمكة، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى.

وقد اعتنق النصرانية العرب الغساسنة وقبائل تغلب وطيئ وغيرهما لمجاورة الرومان، بل قد اعتنقها بعض ملوك الحيرة أيضاً.

* أما المجوسية، فكان ما كان منها في العرب المجاورين للفرس، فكانت في عراق العرب وفي البحرين - الأحسا - وهجر وما جاورها من منطقة سواحل الخليج العربي، ودان لها رجال من اليمن في زمن الاحتلال الفارسي.

* أما الصابئية - وهي ديانة تمتاز بعبادة الكواكب وبالاعتقاد في أنواء المنازل وتأثير النجوم وأنها هي المدبرة للكون - فقد دلت الحفريات والتنقيبات في بلاد العراق وغيرها أنها كانت ديانة قوم إبراهيم الكلدانيين، وقد دان بها كثير من أهل الشام وأهل اليمن في غابر الزمان، وبعد تتابع الديانات الجديدة من اليهودية والنصرانية، تضعف ببيان الصابئية وخمد نشاطها، ولكن لم يزل في الناس بقايا من أهل هذه الديانة مختلطين مع المجوس أو مجاورين لهم في عراق العرب وعلى شواطئ الخليج العربي^(٣). وقد وجد شيء من الزندقة في بعض العرب، وكانت وصلت إليهم عن طريق الحيرة، كما وجدت في بعض قريش لاحتكاكهم بالفرس عن طريق التجارة.

الحالة الدينية :

كانت هذه الديانات هي ديانات العرب حين جاء الإسلام، وقد أصاب هذه الديانات الانحلال والبقار، فالمشركون الذين كانوا يدعون أنهم على دين إبراهيم كانوا بعيدين عن أوامر ونواهي شريعة إبراهيم، مهملين ما أتت به من مكارم الأخلاق. وكثرت فيهم المعاصي، ونشأ فيهم على توالي الزمان ما ينشأ في الوثنيين من عادات وتقاليدهم تجري مجرى الخرافات الدينية، وأثرت في الحياة الاجتماعية والسياسية والدينية تأثيراً بالغاً جداً.

(١) اليمن عبر التاريخ ص ١٥٨، ١٥٩، وتاريخ العرب قبل الإسلام ص ١٢٢، ٤٣٢.

(٢) انظر في ذلك مفصلاً: ابن هشام ١ / ٣١ - ٣٤.

(٣) تاريخ أرض القرآن ٢ / ١٩٣ - ٢٠٨.

* أما اليهودية، فقد انقلبت رياء وتحكماً، وصار رؤساؤها أرباباً من دون الله، يتحكمون فى الناس ويحاسبونهم حتى على خطرات النفس وهمسات الشفاه، وجعلوا همهم الخطوة بالمال والرياسة وإن ضاع الدين وانتشر الإلحاد والكفر، والتهاون بالتعاليم التى حض الله عليها وأمر كل فرد بتقديسها .

* وأما النصرانية، فقد عادت وثنية عسرة الفهم، وأوجدت خلطاً عجيباً بين الله والإنسان، ولم يكن لها فى نفوس العرب المتدينين بهذا الدين تأثير حقيقى؛ لبعد تعاليمها عن طراز المعيشة التى ألفوها، ولم يكونوا يستطيعون الابتعاد عنها .

وأما سائر أديان العرب : فكانت أحوال أهلها كأحوال المشركين، فقد تشابهت قلوبهم، وتواردت عقائدهم، وتوافقت تقاليدهم وعوائدهم .

صور من المجتمع العربي الجاهلي

بعد البحث عن سياسة الجزيرة وأديانها يجمل بنا أن نلقى شيئاً من الضوء على أحوالها الاجتماعية والاقتصادية والخلقية ، وفيما يلي بيانها بإيجاز :

الحالة الاجتماعية :

كانت في العرب أوساط متنوعة تختلف أحوال بعضها عن بعض ، فكانت علاقة الرجل مع أهله في الأشراف على درجة كبيرة من الرقي والتقدم ، وكان لها من حرية الإرادة ونفاذ القول القسط الأوفر ، وكانت محترمة مصونة تسَلِّ دونها السيوف ، وتراق الدماء ، وكان الرجل إذا أراد أن يمتدح بما له في نظر العرب المقام السامي من الكرم والشجاعة لم يكن يخاطب في معظم أوقاته إلا المرأة ، وربما كانت المرأة إذا شاءت جمعت القبائل للسلام ، وإن شاءت أشعلت بينهم نار الحرب والقتال ، ومع هذا كله فقد كان الرجل يعتبر بلا نزاع رئيس الأسرة وصاحب الكلمة فيها ، وكان ارتباط الرجل بالمرأة بعقد الزواج تحت إشراف أوليائها ، ولم يكن من حقها أن تفتت عليهم .

بينما هذه حال الأشراف ، كان هناك في الأوساط الأخرى أنواع من الاختلاط بين الرجل والمرأة ، لا نستطيع أن نعبّر عنه إلا بالدعارة والمجون والسفاح والفاحشة . روى البخاري وغيره عن عائشة رضي الله عنها :

إن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء : فنكاح منها نكاح الناس اليوم ؛ يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها ، ونكاح آخر : كسان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمئنها : أرسلني إلى فلان فاستبضعي منه ، ويعتزلها زوجها ولا يمسه أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه ، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب ، وإثماً يفعل ذلك رغبة في نكابة الولد ، فكان هذا النكاح [يسمى] نكاح الاستبضاع ، ونكاح آخر : يجتمع الرهط دون العشرة ، فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها ، فإذا حملت ، ووضعت ومروا [ت] ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم ، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها ، [ف] تقول لهم : قد عرفتم الذي كان من أمركم ، وقد ولدت ، فهو ابنك يا فلان ، [ف] تسمى من أحبت [منهم] باسمه ، فيلحق به ولدها . لا يستطيع أن يمتنع منه الرجل ، ونكاح رابع : يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها ، وهن البغايا ، كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً ، فمن أرادهن دخل عليهن ، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها ، ودعوا لهم القافة ، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون ، فالتاطته به ، ودعى ابنه ، لا يمتنع من ذلك ، فلما بعث [الله] محمداً ﷺ بالحق هدم نكاح [أهل] الجاهلية كله إلا نكاح الإسلام اليوم (١) .

(١) صحيح البخاري ح (٥١٢٧) ، وسنن أبي داود : كتاب النكاح ، باب وجوه النكاح التي كان يتناكح بها أهل الجاهلية . وما بين المعقوفين من سنن أبي داود .

وكانت عندهم اجتماعات بين الرجل والمرأة تعقدها شفار السيوف ، وأسنة الرماح ، فكان المتغلب فى حروب القبائل يسبى نساء المهزوم فيستحلها ، ولكن الأولاد الذين تكون هذه أمهم يلحقهم العار مدة حياتهم .

وكان من المعروف فى أهل الجاهلية أنهم كانوا يعددون بين الزوجات من غير حد معروف ينتهى إليه ، حتى حددها القرآن فى أربع . وكانوا يجمعون بين الأختين ، وكانوا يتزوجون بزوجة آبائهم إذا طلقوها أو ماتوا عنها حتى نهى عنهما القرآن [سورة النساء : ٢٢ ، ٢٣] . وكان الطلاق والرجعة بيد الرجال ، ولم يكن لهما حد معين حتى حددهما الإسلام (١) .

وكانت فاحشة الزنا سائدة فى جميع الأوساط ، لا نستطيع أن نخص منها وسطاً دون وسط ، أو صنفاً دون صنف إلا أفراداً من الرجال والنساء ممن كان تعاظم نفوسهم يأبى الوقوع فى هذه الرذيلة ، وكانت الحرائر أحسن حالاً من الإماماء ، والطامة الكبرى هى الإماماء ، ويبدو أن الأغلبية الساحقة من أهل الجاهلية لم تكن تحس بعار فى الانتساب إلى هذه الفاحشة ، روى أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قام رجل فقال : يا رسول الله ، إن فلاناً ابنى ، عاهرت بأمة فى الجاهلية ، فقال رسول الله ﷺ : « لا دعوة فى الإسلام ، ذهب أمر الجاهلية ، الولد للفراش وللعاهر الحجر » (٢) ، وقصة اختصام سعد ابن أبى وقاص وعبد بن زمعة فى ابن أمة زمعة - وهو عبد الرحمن بن زمعة - معروفة (٣) .

وكانت علاقة الرجل مع أولاده على أنواع شتى ، فمنهم من يقول :

إِنَّمَا أَوْلَادُنَا بَيْنُنَا أَكْبَادُنَا تَمْشَى عَلَى الْأَرْضِ

ومنهم من كان يند البنات خشية العار والإنفاق ، ويقتل الأولاد خشية الفقر والإملاق : [الأنعام : ١٥١ ، النحل : ٥٨ ، ٥٩ ، الإسراء : ٣١ ، التكوين : ٨] ولكن لا يمكن لنا أن نعد هذا من الأخلاق المنتشرة السائدة ، فقد كانوا أشد الناس احتياجاً إلى البنين ليتقوا بهم العدو .

أما معاملة الرجل مع أخيه وأبناء عمه وعشيرته فقد كانت موطدة قوية ، فقد كانوا يحيون للعصية القبلية ويموتون لها ، وكانت روح الاجتماع سائدة بين القبيلة الواحدة تزيدها العصية ، وكان أساس النظام الاجتماعى هو العصية الجنسية والرحم ، وكانوا يسرون على المثل السائر : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » على المعنى الحقيقى من غير التعديل الذى جاء به الإسلام ؛ من أن نصر الظالم كفه عن ظلمه ، إلا أن التنافس فى الشرف والسؤدد كثيراً ما كان يفضى إلى الحروب بين القبائل التى كان يجمعها أب واحد ، كما نرى ذلك بين الأوس والخزرج ، وعُيس وذبيان ، وبكر وتغلب وغيرها .

(١) سنن أبى داود : باب نسخ المراجعة بعد التطليقات الثلاث . وهذا الذى ذكره المفسرون فى سبب نزول قوله تعالى : ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ﴾ [البقرة : ٢٢٩] .

(٢) أبو داود : باب الولد للفراش ، ومسنند أحمد ٢ / ٢٠٧ .

(٣) وانظر لهذه القصة : صحيح البخارى ح (٢٠٥٣ ، ٢٢١٨ ، ٢٤٢١ ، ٢٥٣٣ ، ٢٧٤٥ ، ٤٣٠٣ ، ٦٧٤٩ ، ٦٧٦٥ ، ٦٨١٧ ، ٧١٨٢) فتح البارى ٤ / ٣٤٢ .

أما العلاقة بين القبائل المختلفة فقد كانت مفككة الأوصال تماماً ، وكانت قواهم متفانية في الحروب ، إلا أن الرهبة والوجل من بعض التقاليد والعادات المشتركة بين الدين والخرافة ربما كان يخفف من حدتها وصرامتها . وأحياناً كانت الموالة والحلف والتبعية تفضى إلى اجتماع القبائل المتغايرة . وكانت الأشهر الحرم رحمة وعوناً لهم على حياتهم وحصول معاشهم . فقد كانوا يأمنون فيها تمام الأمن ؛ لشدة التزامهم بحرمتها ، يقول أبو رجاء العطاردي : إذا دخل شهر رجب قلنا : مُنْصَلُّ الأَسَنَّة ؛ فلا ندع رمحاً فيه حديدة ولا سهماً فيه حديدة إلا نزعناه ، وألقيناه شهر رجب (١) . وكذلك في بقية الأشهر الحرم (٢) .

وقصارى الكلام أن الحالة الاجتماعية كانت في الخضيض من الضعف والعماية ، فالجهل ضارب أطنابه ، والخرافات لها جولة وصول ، والناس يعيشون كالأنعام ، والمرأة تباع وتشترى وتعامل كالجملادات أحياناً ، والعلاقة بين الأمة واهية مبتوتة ، وما كان من الحكومات فجّل همتها ملء الخزائن من رعيّتها أو جر الحروب على مناوئتها .

الحالة الاقتصادية :

أما الحالة الاقتصادية ، فتبعت الحالة الاجتماعية ، ويتضح ذلك إذا نظرنا في طرق معاش العرب . فالتجارة كانت أكبر وسيلة للحصول على حوائج الحياة ، والجولة التجارية لا تيسر إلا إذا ساد الأمن والسلام ، وكان ذلك مفقوداً في جزيرة العرب إلا في الأشهر الحرم ، وهذه هي الشهور التي كانت تعقد فيها أسواق العرب الشهيرة من عكاظ وذى المجاز ومَجَنَّة وغيرها .

وأما الصناعات فكانوا أبعد الأمم عنها ، ومعظم الصناعات التي كانت توجد في العرب من الحياكة والدباغة وغيرها كانت في أهل اليمن والحيرة ومشارف الشام ، نعم ، كان في داخل الجزيرة شيء من الزراعة والحرث واقتناء الأنعام ، وكانت نساء العرب كافة يشتغلن بالغزل ، لكن كانت الأمتعة عرضة للحروب ، وكان الفقر والجوع والعري عاماً في المجتمع .

الأخلاق :

لا شك أن أهل الجاهلية كانت فيهم دنايا ورذائل وأمور ينكرها العقل السليم ويأبأها الوجدان ، ولكن كانت فيهم من الأخلاق الفاضلة المحمودة ما يروع الإنسان ويفضى به إلى الدهشة والعجب ، فمن تلك الأخلاق :

١ - الكرم : وكانوا يتبارون في ذلك ويفتخرون به ، وقد استفدوا فيه نصف أشعارهم بين ممتدح به ومُثْنٍ على غيره ، كان الرجل يأتيه الضيف في شدة البرد والجوع وليس عنده من المال إلا ناقته التي هي حياته وحياة أسرته ، فتأخذ هزة الكرم فيقوم إليها ، فيذبحها لضيفه . ومن آثار كرمهم أنهم كانوا يتحملون الديات الهائلة والحملات المدهشة ، يكفون بذلك سفك الدماء ، وضياع الإنسان ، ويمتدحون بها مفتخرين على غيرهم من الرؤساء والسادات .

وكان من نتائج كرمهم أنهم كانوا يتمدحون بشرب الخمر ، لا لأنها مفخرة في ذاتها ؛ بل لأنها سبيل من سبل الكرم ، وما يسهل السرف على النفس ، ولأجل ذلك كانوا يسمون شَجَرَ العنب بالكَرْم ، وخَمْرَهُ بِنَتِ الكرم . وإذا نظرت إلى دواوين أشعار الجاهلية تجد ذلك باباً من أبواب المديح والفخر ، يقول عترة بن شداد العبسي في معلقته :

ولقد شَرِبْتُ من المَدَامَةِ بَعْدَ مَا رَكَدَ الْهَوَاجِرُ بِالْمَشُوفِ الْمَعْلَمِ (١)
بِزُجَاجَةٍ صَفراءَ ذاتِ أُسْرَةٍ قُرْنَتْ بِأَرْهَرٍ بِالشَّمَالِ مُفَدِّمِ (٢)
فإذا شَرِبْتُ فَإِننسى مُسْتَهْلِكِ مَالِي وَعَرَضِي وَإِفْرٌ لَمْ يَكْلَمْ (٣)
وإذا صَحَوْتُ فَمَا أَقْصِرُ عَنْ نَدَى وَكَمَا عَلِمْتَ شَمَائِلِي وَتَكْرُمِي

ومن نتائج كرمهم اشتغالهم بالميسر ، فإنهم كانوا يرون أنه سبيل من سبل الكرم ؛ لأنهم كانوا يطعمون المساكين ما ربحوه أو ما كان يفضل عن سهام الرابحين ؛ ولذلك ترى القرآن لا ينكر نفع الخمر والميسر وإنما يقول : ﴿ وَإِنَّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾ [البقرة: ٢١٩] .

٢ - الوفاء بالعهد : فقد كان العهد عندهم ديناً يتمسكون به ، ويستهنون في سبيله قتل أولادهم ، وتخریب ديارهم ، وتكفى في معرفة ذلك قصة هاني بن مسعود الشيباني ، والسَّمُوال بن عاديا ، وحاجب بن زرارة التميمي (٤) .

٣ - عزة النفس والإباء عن قبول الخسف والضييم : وكان من نتائج هذا فرط الشجاعة وشدة الغيرة ، وسرعة الانفعال ، فكانوا لا يسمعون كلمة يشمون منها رائحة الذل والهوان إلا قاموا إلى السيف والسنان ، وأثأروا الحروب العوان ، وكانوا لا يبالون بتضحية أنفسهم في هذا السبيل .

٤ - المضي في العزائم : فإذا عزموا على شيء يرون فيه المجد والافتخار ، لا يصرفهم عنه صارف ، بل كانوا يخاطرون بأنفسهم في سبيله .

٥ - الحلم ، والأناة ، والتؤدة : كانوا يتمدحون بها إلا أنها كانت فيهم عزيزة الوجود ؛

(١) المدامة : الخمر . الهواجر ، جمع هاجرة : نصف النهار . المشوف : المجلو الصافي . المعلم : الذي وضعت عليه علامة .

(٢) أسرة ، جمع سرار : خطوط الوجه وأمثاله ، والمراد هنا خطوط في الكأس . أرهر : صفة إناء الخمر . مفدم : الذي وضع عليه القدم ، وهو ما يوضع في فم الإبريق ليصفى به ما فيه .

(٣) لم يكلم : لم يجرح .

(٤) مضت قصة هاني تحت عنوان : الملك بالحيرة . وأما قصة سمؤال فيقال : إن امرأ القيس أودع عنده دروعاً ، وأراد الحارث بن أبي شمر الغساني أن يأخذها منه فأبى ، وتحصن بقصره في تيماء ، وكان أحد أبناء سمؤال خارج القصر ، فأخذه الحارث وهدده بقتله إن لم يسلم الدروع ، فأبى حتى قتل الحارث ابنه أمام عينيه .

وأما قصة حاجب فهي أنه استأذن كسرى في إنزال قومه على حدود كسرى لجذب أصابهم ، فخاف كسرى منهم الغارة والفساد ، فأبى إلا بالضمام ، فضمن حاجب ورهته قومه ، فوفى بوعده حتى توفي ، وانتهى الجذب فرجع قومه إلى بلادهم ، وذهب ابنه عطارد بن حاجب رضي الله عنه إلى كسرى يسترد قوس أبيه فردها عليه لوفاء أبيه .

لفرط شجاعتهم وسرعة إقدامهم على القتال .

٦ - السذاجة البدوية ، وعدم التلوث بلوثات الحضارة ومكائدها : وكان من نتائجها الصدق والأمانة ، والنفور عن الخداع والغدر .

نرى أن هذه الأخلاق الثمينة - مع ما كان لجزيرة العرب من الموقع الجغرافى بالنسبة إلى العالم - كانت سبباً فى اختيار الله عز وجل إياهم لحمل عبء الرسالة العامة، وقيادة الأمة الإنسانية ، وإصلاح المجتمع البشرى ؛ لأن هذه الأخلاق وإن كان بعضها يفضى إلى الشر ، ويجلب الحوادث المؤلمة إلا أنها كانت فى نفسها أخلاقاً ثمينة، تدر بالمنافع العامة للمجتمع البشرى بعد شئ من الإصلاح ، وهذا الذى فعله الإسلام .

ولعل أعلى ما عندهم من هذه الأخلاق وأعظمها نفعاً - بعد الوفاء بالعهد - هو عزة النفس والمضى فى العزائم؛ إذ لا يمكن قمع الشر والفساد وإقامة نظام العدل والخير إلا بهذه القوة القاهرة وبهذا العزم الصميم . ولهم أخلاق فاضلة أخرى دون هذه التى ذكرناها ، وليس قصدنا استقصاءها .

**النسب
والمولد
والنشأة**

نسب النبي ﷺ وأسرته

نسب النبي ﷺ :

نسب نبينا محمد ﷺ ينقسم إلى ثلاثة أجزاء : جزء اتفق عليه كافة أهل السير والأنساب ، وهو الجزء الذى يبدأ منه ﷺ وينتهى إلى عدنان .

وجزاء آخر كثر فيه الاختلاف ، حتى جاوز حد الجمع والاتلاف ، وهو الجزء الذى يبدأ بعد عدنان وينتهى إلى إبراهيم عليه السلام فقد توقف فيه قوم ، وقالوا : لا يجوز سرده ، بينما جوزه آخرون وساقوه . ثم اختلف هؤلاء المجوزون فى عدد الآباء وأسمائهم ، فاشتد اختلافهم وكثرت أقوالهم حتى جاوزت ثلاثين قولاً ، إلا أن الجميع متفقون على أن عدنان من صريح ولد إسماعيل عليه السلام .

أما الجزء الثالث فهو يبدأ من بعد إبراهيم عليه السلام وينتهى إلى آدم عليه السلام ، وجل الاعتماد فيه على نقل أهل الكتاب ، وعندهم فيه من بعض تفاصيل الأعمار وغيرها ما لا نشك فى بطلانه ، بينما نتوقف فى البقية الباقية .

وفيما يلى الأجزاء الثلاثة من نسبه الزكى ﷺ بالترتيب :

الجزء الأول : محمد بن عبد الله بن عبد المطلب - واسمه شَيْبَة - بن هاشم - واسمه عمرو - بن عبد مناف - واسمه المغيرة - بن قُصَيٍّ - واسمه زيد - بن كلاب بن مُرَّة بن كعب ابن لؤى بن غالب بن فهر - وهو الملقب بقریش وإليه تنتسب القبيلة - بن مالك بن النضر - واسمه قيس - بن كنانة بن خزيمة بن مدركة - واسمه عامر - بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان (١) .

الجزء الثانى : ما فوق عدنان ، وعدنان هو ابن أدد بن الهَمِسَع بن سلامان بن عَوْص ابن بوز بن قموال بن أبى بن عوام بن ناشد بن حزا بن بلداس بن يدلاف بن طابخ بن جاحم ابن ناحش بن ماخى بن عيضر بن عبقز بن عبيد بن الدعا بن حمدان بن سنبر بن يثربى بن يحزن بن يلحن بن أرعوى بن عيضر بن ديشان بن عيصر بن أفناد بن أيهام بن مقصر بن ناحث بن زارج بن سمى بن مزى بن عوضه بن عرام بن قيدار بن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام (٢) .

الجزء الثالث : ما فوق إبراهيم عليه السلام ، وهو ابن تارح - واسمه آزر - بن ناحور بن ساروغ - أو ساروغ - بن راعو بن فالخ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام

(١) ابن هشام ١ / ١ ، ٢ ، وتاريخ الطبرى ٢ / ٢٣٩ - ٢٧١ .

(٢) ذكره ابن سعد فى الطبقات ١ / ٥٦ ، ٥٧ برواية ابن الكلبي ، ومن طريقه الطبرى فى تاريخه ٢ /

٢٧٢ ، وللإطلاع على بعض الاختلاف فى هذا الجزء . انظر : تاريخ الطبرى ٢ / ٢٧١ - ٢٧٦ ، وفتح

البارى ٦ / ٦٢١ - ٦٢٣ .

ابن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ - يقال : هو إدريس النبی ﷺ - بن يرد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم - عليهما السلام (١) .

الأسرة النبوية :

تعرف أسرته ﷺ بالأسرة الهاشمية - نسبة إلى جده هاشم بن عبد مناف - وإذن فلنذكر شيئاً من أحوال هاشم ومن بعده :

١ - هاشم :

قد أسلفنا أن هاشماً هو الذي تولى السقاية والرفادة من بني عبد مناف حين تصالح بنو عبد مناف وبنو عبد الدار على اقتسام المناصب فيما بينهما ، وكان هاشم موسراً ذا شرف كبير ، وهو أول من أطعم الثريد للحجاج بمكة ، وكان اسمه عمرو فما سمي هاشماً إلا لهشمه الخبز ، وهو أول من سن الرحلتين لقريش ، رحلة الشتاء والصيف ، وفيه يقول الشاعر :

عمرو الذي هشمَ الثريدَ لقومه قَوْمٌ بِمَكَّةَ مُسْتَتِينَ عِجَافٍ
سُنَّتْ إِلَيْهِ الرِّحْلَتَانِ كِلَاهِمَا سَفَرُ الشَّاءِ وَرَحْلَةُ الْأَصْيَافِ (٢)

ومن حديثه أنه خرج إلى الشام تاجراً ، فلما قدم المدينة تزوج سلمى بنت عمرو أحد بنى عدى بن النجار وأقام عندها ، ثم خرج إلى الشام - وهي عند أهلها قد حملت بعبد المطلب - فمات هاشم بغزة من أرض فلسطين، وولدت امرأته سلمى عبد المطلب سنة ٤٩٧م، وسمته شيبه؛ لشبيهة كانت في رأسه (٣)، وجعلت تربيته في بيت أبيها في يثرب ، ولم يشعر به أحد من أسرته بمكة ، وكان لهاشم أربعة بنين وهم: أسد وأبو صيفى ونضلة وعبد المطلب . وخمس بنات وهن: الشفاء ، وخالدة ، وضعيفة ، ورقية ، وجنة (٤) .

٢ - عبد المطلب :

قد علمنا مما سبق أن السقاية والرفادة بعد هاشم صارت إلى أخيه المطلب بن عبد مناف (وكان شريفاً مطاعاً ذا فضل في قومه ، كانت قريش تسميه الفياض لسخائه) ولما صار شيبه - عبد المطلب - وصيفاً أو فوق ذلك ابن سبع سنين أو ثمانى سنين سمع به المطلب . فرحل في طلبه ، فلما رآه فاضت عيناه ، وضمه ، وأردفه على راحلته فامتنع حتى تأذن له أمه ، فسألها المطلب أن ترسله معه ، فامتنعت ، فقال : إنما يمضى إلى ملك أبيه وإلى حرم الله فأذنت له ، فقدم به مكة مردفه على بعيره ، فقال الناس: هذا عبد المطلب ، فقال: ويحكم، إنما هو ابن أخى هاشم ، فأقام عنده حتى ترعرع، ثم إن المطلب هلك بـ «ردمان» من أرض اليمن، فولى بعده عبد المطلب ، فأقام لقومه ما كان آباؤه يقيمون لقومهم ، وشرف

(١) ابن هشام ١ / ٢ - ٤ ، وتاريخ الطبرى ٢ / ٢٧٦ واختلفت المصادر فى تلفظ بعض هذه الأسماء وفى إثبات البعض وإسقاطه .

(٢) ابن هشام ١ / ١٥٧ مع الروض الأثف، وفيه: الإيلاف، بدل: الأصياف . ومستتين: أصابهم قحط .

(٣) ابن هشام ١ / ١٣٧ . (٤) المصدر نفسه ١ / ١٠٧ .

فى قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه ، وأحبه قومه وعظم خطره فيهم (١) .

ولما مات المطلب وثب نوفل على أركاح (٢) عبد المطلب فغصبه إياها ، فسأل رجالاً من قريش النصرة على عمه ، فقالوا: لا ندخل بينك وبين عمك ، فكتب إلى أخواله من بنى النجار أحياناً يستنجدهم ، فسار خاله أبو سعد بن عدى فى ثمانين راكباً ، حتى نزل بالأبطح من مكة ، فتلقيه عبد المطلب ، فقال : المنزل يا خال ، فقال : لا والله حتى ألقى نوفلاً ، ثم أقبل فوقف على نوفل ، وهو جالس فى الحجر مع مشايخ قريش ، فسل أبو سعد سيفه وقال : ورب البيت ، لئن لم ترد على ابن أختى أركاحه لأمكن منك هذا السيف ، فقال : رددتها عليه ، فأشهد عليه مشايخ قريش ، ثم نزل على عبد المطلب ، فأقام عنده ثلاثاً ، ثم اعتمر ورجع إلى المدينة . فلما جرى ذلك حالف نوفل بنى عبد شمس بن عبد مناف على بنى هاشم . ولما رأت خزاعة نصر بنى النجار لعبد المطلب قالوا : نحن ولدناه كما ولدقوه ، فنحن أحق بنصره - وذلك أن أم عبد مناف منهم - فدخلوا دار الندوة وحالفوا بنى هاشم على بنى عبد شمس ونوفل ، وهذا الحلف هو الذى صار سبباً لفتح مكة كما سيأتى (٣) .

ومن أهم ما وقع لعبد المطلب من أمور البيت شيان :

حفر بئر زمزم ووقعة الفيل :

وخلاصة الأول: أنه أمر فى المنام بحفر زمزم ووصف له موضعها ، فقام يحفر ، فوجد فيه الأشياء التى دفنها الجراهمة حين لجأوا إلى الجلاء ، أى السيوف والدروع والغزاليين من الذهب ، فضرب الأسياف باباً للكعبة ، وضرب فى الباب الغزاليين صفائح من ذهب ، وأقام سقاية زمزم للحجاج .

ولما بدت بئر زمزم نازعت قريش عبد المطلب ، وقالوا له : أشركنا . قال: ما أنا بفاعل ، هذا أمر خصصت به ، فلم يتركوه حتى خرجوا به للمحاكمة إلى كاهنة بنى سعد هُذَيْم ، وكانت بأشراف الشام ، فلما كانوا فى الطريق ، ونفذ الماء سقى الله عبد المطلب مطراً ، ولم ينزل عليهم قطرة ، فعرفوا تخصيص عبد المطلب بزمزم ورجعوا ، وحينئذ نذر عبد المطلب لئن آتاه الله عشرة أبناء ، وبلغوا أن يمنعوه لينحرن أحدهم عند الكعبة (٤) .

وخلاصة الثانى: أن أبرهة بن الصباح الحبشى ، النائب العام عن النجاشى على اليمن ، لما رأى العرب يحجون الكعبة بنى كنيسة كبيرة بصنعاء ، وأراد أن يصرف حج العرب إليها ، وسمع بذلك رجل من بنى كنانة ، فدخلها ليلاً فلطخ قبلتها بالعدرة . ولما علم أبرهة بذلك ثار غيظه ، وسار بجيش عرمرم - عدده ستون ألف جندى - إلى الكعبة ليهدمها ، واختار لنفسه فيلاً من أكبر الفيلة ، وكان فى الجيش ٩ فيلة أو ١٣ فيلاً ، وواصل سيره حتى بلغ

(١) ابن هشام ١ / ١٣٧ ، ١٣٨ ، وتعيين السن فى تاريخ الطبرى ٢ / ٢٤٧ .

(٢) ممتلكاته من بيت وأساس وخلافه .

(٣) فصله الطبرى فى تاريخه ٢ / ٢٤٨ - ٢٥١ وآخرون فى كتبهم .

(٤) ابن هشام ١ / ١٤٢ - ١٤٧ .

المُغَمَّس ، وهناك عباً جيشه وهياً فيله ، وتهاياً لدخول مكة ، فلما كان فى وادى مُحَسَّر بين المزدلفة ومنى برك الفيل ، ولم يقم ليقدم إلى الكعبة ، وكانوا كلما وجهوه إلى الجنوب أو الشمال أو الشرق يقوم يهرول ، وإذا صرفوه إلى الكعبة برك ، فيبيناهم كذلك إذ أرسل الله عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول . وكانت الطير أمثال الخطاطيف والبلسان ، مع كل طائر ثلاثة أحجار ؛ حجر فى منقاره ، وحجران فى رجله أمثال الحمص ، لا تصيب منهم أحداً إلا صارت تنقطع أعضاؤه وهلك ، وليس كلهم أصابت ، وخرجوا هارين يوج بعضهم فى بعض ، فتساقطوا بكل طريق وهلكوا على كل منهل ، وأما أبرهة فبعث الله عليه داء تساقطت بسببه أنامله ، ولم يصل إلى صنعاء إلا وهو مثل الفرخ ، وانصدع صدره عن قلبه ثم هلك .

وأما قريش فكانوا قد تفرقوا فى الشعاب ، وتحزروا فى رءوس الجبال خوفاً على أنفسهم من معرة الجيش ، فلما نزل بالجيش ما نزل رجعوا إلى بيوتهم آمنين (١) .

وكانت هذه الواقعة فى شهر المحرم قبل مولد النبى ﷺ بخمسين يوماً أو بخمسة وخمسين يوماً - عند الأكثر - وهو يطابق أواخر فبراير أو أوائل مارس سنة ٥٧١ م ، وكانت تقدمة قدمها الله لنبيه وبيته ؛ لأننا حين ننظر إلى بيت المقدس نرى أن المشركين من أعداء الله استولوا على هذه القبلة مرتين بينما كان أهلها مسلمين ، كما وقع لُبُخْتَنَصْر سنة ٥٨٧ ق.م ، والرومان سنة ٧٠ م ، ولكن لم يتم استيلاء نصارى الحبشة على الكعبة وهم المسلمون إذ ذاك ، وأهل الكعبة كانوا مشركين .

وقد وقعت هذه الواقعة فى الظروف التى يبلغ نبؤها إلى معظم المعمورة المتحضرة إذ ذاك . فالحبشة كانت لها صلة قوية بالرومان ، والفرس لا يزالون لهم بالمرصاد ، يترقبون ما نزل بالرومان وحلفائهم ؛ ولذلك سرعان ما جاءت الفرس إلى اليمن بعد هذه الواقعة ، وهاتان الدولتان كانتا تمثلان العالم المتحضر فى ذلك الوقت . فهذه الواقعة لفتت أنظار العالم ودلته على شرف بيت الله ، وأنه هو الذى اصطفاه الله للتقديس ، فإذا لو قام أحد من أهله بدعوى النبوة كان ذلك هو عين ما تقتضيه هذه الواقعة ، وكان تفسيراً للحكمة الخفية التى كانت فى نصرة الله للمشركين ضد أهل الإيمان بطريق يفوق عالم الأسباب .

وكان لعبد المطلب عشرة بنين ، وهم : الحارث ، والزبير ، وأبو طالب ، وعبد الله ، وحمزة ، وأبو لهب ، والغيداق ، والمقوم ، وضَرَار ، والعباس . وقيل : كانوا أحد عشر ، فزادوا ولداً اسمه : قُثَم ، وقيل : كانوا ثلاثة عشر ، فزادوا : عبد الكعبة وحَجَلًا ، وقيل : إن عبد الكعبة هو المقوم ، وحجلاً هو الغيداق ، ولم يكن من أولاده رجل اسمه قثم ، وأما البنات فست وهن : أم الحكيم - وهى البيضاء - وبرّة ، وعاتكة ، وصفية ، وأروى ، وأميمة (٢) .

٣ - عبد الله والد رسول الله ﷺ :

أمه فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يَقَظَةَ بن مرة ، وكان عبد الله

(١) ابن هشام ١ / ٤٣ - ٥٦ ، وتفسير سورة الفيل من كتب التفسير .

(٢) سيرة ابن هشام ١ / ١٠٨ ، ١٠٩ ، وتلقيح فهوم أهل الأثر ص ٨ ، ٩ .

أحسن أولاد عبد المطلب وأعفهم وأحبهم إليه ، وهو الذبيح ؛ وذلك أن عبد المطلب لما تم أبناؤه عشرة ، وعرف أنهم يمنعونه أخبرهم بنذره فأطاعوه ، فقيل : إنه أفرع بينهم أيهم ينحدر ؟ فطارت القرعة على عبد الله ، وكان أحب الناس إليه . فقال : اللهم هو أو مائة من الإبل . ثم أفرع بينه وبين الإبل فطارت القرعة على المائة من الإبل (١) ، وقيل : إنه كتب أسماءهم في القداح ، وأعطاهم قيم هبل ، فضرب القداح فخرج القدح على عبد الله ، فأخذه عبد المطلب ، وأخذ الشفرة ، ثم أقبل به إلى الكعبة ليذبحه ، فمنعته قريش ، ولا سيما أخواله من بنى مخزوم وأخوه أبو طالب . فقال عبد المطلب : فكيف أصنع بنذري ؟ فاشاروا عليه أن يأتي عرافة فيستأمرها ، فأتاها ، فأمرت أن يضرب القداح على عبد الله وعلى عشر من الإبل ، فإن خرجت على عبد الله يزيد عشراً من الإبل حتى يرضى ربه ، فإن خرجت على الإبل نحرها ، فرجع وأفرع بين عبد الله وبين عشر من الإبل ، فوقعت القرعة على عبد الله ، فلم يزل يزيد من الإبل عشراً عشراً ولا تقع القرعة إلا عليه إلى أن بلغت الإبل مائة فوقعت القرعة عليها ، فنحرت ثم تركت ، لا يرد عنها إنسان ولا سبع ، وكانت الدية في قريش وفي العرب عشراً من الإبل ، فجرت بعد هذه الوقعة مائة من الإبل ، وأقرها الإسلام ، وروى عن النبي ﷺ أنه قال : « أنا ابن الذبيحين » يعني إسماعيل ، وأباه عبد الله (٢) .

واختار عبد المطلب لولده عبد الله آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، وهي يومئذ تعد أفضل امرأة في قريش نسباً وموضعاً ، وأبوها سيد بنى زهرة نسباً وشرفاً ، فزوجه بها ، فبنى بها عبد الله في مكة ، وبعد قليل أرسله عبد المطلب إلى المدينة يمتار لهم تمراً ، فمات بها ، وقيل : بل خرج تاجراً إلى الشام ، فأقبل في غير قريش ، فنزل بالمدينة وهو مريض فتوفى بها ، ودفن في دار النابغة الجعدي ، وله إذ ذاك خمس وعشرون سنة ، وكانت وفاته قبل أن يولد رسول الله ﷺ ، وبه يقول أكثر المؤرخين ، وقيل : بل توفى بعد مولده بشهرين أو أكثر (٣) . ولما بلغ نعيه إلى مكة رثته آمنة بأروع المراثي ، قالت :

عَفَا جَانِبَ الْبَطْحَاءِ مِنْ ابْنِ هَاشِمٍ وَجَاوَرَ لَحْدًا خَارِجًا فِي الْغَمَاغِمِ
دَعَتْهُ الْمَنَايَا دَعْوَةً فَأَجَابَهَا وَمَا تَرَكْتُ فِي النَّاسِ مِثْلَ ابْنِ هَاشِمٍ
عَشِيَّةَ رَاحُوا يَحْمِلُونَ سَرِيرَهُ تَعَاوَرَهُ أَصْحَابُهُ فِي التَّرَاحِمِ
فَإِنْ تَكَ غَالَتِ الْمَنَايَا وَرِييَهَا فَقَدْ كَانَ مَعْطَاءً كَثِيرَ التَّرَاحِمِ (٤)

وجميع ما خلفه عبد الله خمسة أجمال ، وقطعة غنم ، وجارية حبشية اسمها بركة وكنيتها أم أيمن ، وهي حاضنة رسول الله ﷺ (٥) .

(١) تاريخ الطبرى ٢ / ٢٣٩ .

(٢) ابن هشام ١ / ١٥١ - ١٥٥ ، وتاريخ الطبرى ٢ / ٢٤٠ - ٢٤٣ .

(٣) ابن هشام ١ / ١٥٦ ، ١٥٨ ، وتاريخ الطبرى ٢ / ٢٤٦ ، والروض الأنف ١ / ١٨٤ .

(٤) طبقات ابن سعد ١ / ١٠٠ . والغمام : الأغطية ، وتعاوره : تداوله .

(٥) صحيح مسلم ٣ / ١٣٩٢ ح (١٧٧١) ، وتلقيح فهوم أهل الأثر ص ٤ .

المولد وأربعون عاماً قبل النبوة

المولد :

ولد سيد المرسلين ﷺ بشعب بنى هاشم بمكة فى صبيحة يوم الاثنين التاسع من شهر ربيع الأول ، لأول عام من حادثة الفيل (١) ، ولأربعين سنة خلت من ملك كسرى أنوشروان ، ويوافق ذلك عشرين أو اثنين وعشرين من شهر أبريل سنة ٥٧١ م حسبما حققه العالم الكبير محمد سليمان - المنصورفورى - رحمه الله (٢) .

وروى ابن سعد أن أم رسول الله ﷺ قالت : لما ولدته خرج من فرجى نور أضاءت له قصور الشام . وروى أحمد والدارمى وغيرهما قريباً من ذلك (٣) .

وقد روى أن إرهافات بالبعثة وقعت عند الميلاد ، فسقطت أربع عشرة شرفة من إيوان كسرى ، وخمدت النار التى يعدها المجوس ، وانهدمت الكنائس حول بحيرة ساوة بعد أن غاضت ، روى ذلك الطبرى والبيهقى وغيرهما (٤) . وليس له إسناد ثابت ، ولم يشهد له تاريخ تلك الأمم مع قوة دواعى التسجيل .

ولما ولدته أمه أرسلت إلى جده عبد المطلب تبشره بحفيده ، فجاء مستبشراً ودخل به الكعبة ، ودعا الله وشكر له (٥) . واختار له اسم محمد - وهذا الاسم لم يكن معروفاً فى العرب - وختته يوم سابعه كما كان العرب يفعلون (٦) .

وأول من أرضعته من المراضع - وذلك بعد أمه ﷺ بأسبوع (٧) - ثؤيبة مولاة أبى لهب بلبن ابن لها يقال له : مَسْرُوح ، وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب ، وأرضعت بعده أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومى (٨) .

(١) انظر : نتائج الأفهام فى تقويم العرب قبل الإسلام ص ٢٨ - ٣٥ لمحمود باشا الفلكى ، ط بيروت .
(٢) ٢٠ أبريل حسب التقويم الميلادى القديم و ٢٢ أبريل حسب التقويم الميلادى الجديد ، وللتفصيل انظر : رحمة للعالمين ١ / ٣٨ ، ٣٩ ، ٢ / ٣٦٠ ، ٣٦١ .

(٣) مسند أحمد ٤ / ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٨٥ ، ٥ / ٢٦٢ ، وسنن الدارمى ١ / ٩ ، وابن سعد ١ / ١٠٢ .
(٤) انظر : دلائل النبوة للبيهقى ١ / ١٢٦ ، ١٢٧ ، وتاريخ الطبرى ٢ / ١٦٦ ، ١٦٧ ، والبداية والنهاية ٢ / ٢٦٨ ، ٢٦٩ .

(٥) ابن هشام ١ / ١٥٩ ، ١٦٠ ، وتاريخ الطبرى ٢ / ١٥٦ ، ١٥٧ ، وابن سعد ١ / ١٠٣ .
(٦) يقال : إنه ولد مختوناً ، (تلقيح فهو أهل الأثر ص ٤) ، وقال ابن القيم : ليس فيه حديث ثابت . انظر : زاد المعاد ١ / ١٨ .

(٧) إتخاف الورى ١ / ٥٧ .

(٨) صحيح البخارى ح (٢٦٤٥) ، ٥١٠٠ ، ٥١٠١ ، ٥١٠٦ ، ٥١٠٧ ، (٥٣٧٢) ، وتاريخ الطبرى ٢ / ١٥٨ وفى سنده مقال ، ودلائل النبوة لأبى نعيم ١ / ١٥٧ .

فى بنى سعد :

وكانت العادة عند الحاضرين من العرب أن يلتمسوا المراضع لأولادهم ابتعاداً لهم عن أمراض الحواضر ؛ ولتقوى أجسامهم ، وتشتد أعصابهم ، ويتقنوا اللسان العربى فى مهدهم ، فالتمس عبد المطلب لرسول الله ﷺ المراضع ، واسترضع له امرأة من بنى سعد ابن بكر ، وهى حليلة بنت أبى ذؤيب عبد الله بن الحارث ، وزوجها الحارث بن عبد العزى المكنى بأبى كبشة من نفس القبيلة .

وإخوته ﷺ هناك من الرضاعة : عبد الله بن الحارث ، وأنيسة بنت الحارث ، وحذافة أو جذامة بنت الحارث (وهى الشيماء ؛ لقب غلب على اسمها) وكانت تحضن رسول الله ﷺ ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ﷺ .

وكان عمه حمزة بن عبد المطلب مسترضعاً فى بنى سعد بن بكر ، فأرضعت أمه رسول الله ﷺ يوماً وهو عند أمه حليلة ، فكان حمزة رضيع رسول الله ﷺ من جهتين ، من جهة ثوية ومن جهة السعدية (١) .

ورأت حليلة من بركته ﷺ ما قضت منه العجب ، ولتركها تروى ذلك مفصلاً :

قال ابن إسحاق : كانت حليلة تحدث : أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه فى نسوة من بنى سعد بن بكر ، تلتمس الرضعاء . قالت : وذلك فى سنة شهباء (٢) لم تبق لنا شيئاً ، قالت : فخرجت على أتان لى قمراء (٣) ، ومعنا شارف (٤) لنا ، والله ما تبص (٥) بقطرة ، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذى معنا ، من بكائه من الجوع ، ما فى ثديى ما يغنيه ، وما فى شarfنا ما يغذيه ، ولكن كنا نرجو الغيث والفرج ، فخرجت على أتانى تلك ، فلقد أذمت (٦) بالركب حتى شق ذلك عليهم ، ضعفاً وعجفاً ، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء ، فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه ، إذا قيل لها : إنه يتيم ، وذلك أنا كنا نرجو المعروف من أبى الصبى ، فكنا نقول : يتيم ! وما عسى أن تصنع أمه وجده ، فكنا نكرهه لذلك ، فما بقيت امرأة قدمت معى إلا أخذت رضيعاً غيرى ، فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبى : والله ، إنى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ولم آخذ رضيعاً ، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلاأخذه . قال : لا عليك أن تفعلى ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة . قالت : فذهبت إليه وأخذته ، وما حملنى على أخذه إلا أنى لم أجد غيره ، قالت : فلما أخذته رجعت به إلى رحلى ، فلما وضعتها فى حجرى أقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن ، فشرب حتى روى ، وشرب معه أخوه حتى روى ، ثم ناما ، وما كنا ننام معه قبل ذلك ، وقام زوجى إلى شarfنا تلك ، فإذا هى

(١) زاد المعاد ١ / ١٩ .

(٢) بيضاء .

(٣) مجدبة لا خضرة فيها ولا مطر .

(٤) الشارف : الناقة المسنة .

(٥) بظ الماء : قطر وسال قليلاً قليلاً .

(٦) أبطأت وحبست .

حافل (١) ، فحلب منها ما شرب وشربت معه حتى انتهينا ربا وشبعا ، فبتنا بخير ليلة ، قالت : يقول صاحبي حين أصبحنا : تعلمي والله يا حليلة ، لقد أخذت نسمة مباركة ، قالت : فقلت : والله إنني لأرجو ذلك . قالت : ثم خرجنا وركبت أنا أتاني ، وحملته عليها معي ، فوالله لقطعت بالركب ما لا يقدر عليه شيء من حمهم ، حتى إن صواحي ليقطن لي : يا ابنة أبي ذؤيب ، ويحك ! أربعي علينا (٢) ، أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها؟ فأقول لهن : بلى والله ، إنها لهي هي ، فيقلن : والله إن لها شأنًا ، قالت : ثم قمنا منازلنا من بلاد بني سعد ، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجذب منها ، فكانت غنمي تروح عليّ حين قدمنا به معنا شباعاً لبناً (٣) ، فنحلب ونشرب ، وما يحلب إنسان قطرة لبن ، ولا يجدها في ضرع ، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم : ويلكم ، اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب ، فتروح أغنامهم جيعاً ما تبض بقطرة لبن ، وتروح غنمي شباعاً لبناً . فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنته وفصلته ، وكان يشب شباباً لا يشبه الغلمان ، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جفراً (٤) . قالت : فقدمنا به على أمه ونحن أحرص على مكثه فينا ، لما كنا نرى من بركنه ، فكلمنا أمه ، وقلت لها : لو تركت ابني عندي حتى يغلظ ، فإني أخشى عليه وباء مكة ، قالت : فلم نزل بها حتى رده معنا (٥) .

شق الصدر :

وهكذا رجع رسول الله ﷺ إلى بني سعد ، حتى إذا كان بعده بأشهر على قول ابن إسحاق (٦) ، وفي السنة الرابعة من مولده على قول المحققين (٧) وقع حادث شق صدره ، روى مسلم عن أنس : أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل ، وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه فصرعه ، فشق عن قلبه ، فاستخرج القلب ، فاستخرج منه علقه ، فقال : هذا حظ الشيطان منك ، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه - أي جمعه وضم بعضه إلى بعض - ثم أعاده في مكانه ، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - يعني ظئره (٨) - فقالوا : إن محمداً قد قتل ، فاستقبلوه وهو منتقع اللون - أي متغير اللون - قال أنس : وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره (٩) .

-
- (١) أي ممتلئة لبنًا .
 (٢) أربعي : أربعى علينا : ارفقي بنا .
 (٣) لبنًا ، بضم فتشديد : ممتلئة الضرع باللبن .
 (٤) قوياً شديداً .
 (٥) ابن هشام ١ / ١٦٢ - ١٦٤ ، وتاريخ الطبري ٢ / ١٥٨ ، ١٥٩ ، وابن حبان (الإحسان) ٨ / ٨٢ - ٨٤ ، وابن سعد ١ / ١١١ كلهم من طريق ابن إسحاق مع اختلاف يسير في الألفاظ .
 (٦) سيرة ابن هشام ١ / ١٦٤ ، ١٦٥ ، وتاريخ الطبري ٢ / ١٦٠ .
 (٧) انظر : ابن سعد ١ / ١١٢ ، ومروج الذهب للمسعودي ٢ / ٢٨١ ، ودلائل النبوة لأبي نعيم ١ / ١٦١ ، ١٦٢ ، وعنده على قول ابن عباس : كان في السنة الخامسة ١ / ١٦٢ ، وقول ابن إسحاق شبه متناقض ؛ لأن رعى الغنم لا يتصور من صبي لم يكمل من عمره إلا سنتين . ولا يزال في بداية الثالثة .
 (٨) الظئر : هي المرضعة ، وربما يطلق على زوجها أيضاً .
 (٩) صحيح مسلم : كتاب الإيمان ، باب الإسرائء ١ / ١٤٧ ح (٢٦١) .

إلى أمه الحنون :

وخشيت عليه حليمة بعد هذه الواقعة حتى ردت إلى أمه ، فكان عند أمه إلى أن بلغ ست سنين .

ورأت أمته - وفاء للذكرى زوجها الراحل - أن تزور قبره بيثرب ، فخرجت من مكة قاطعة رحلة تبلغ نحو خمسمائة كيلو متر ومعها ولدها اليتيم - محمد ﷺ - وخادمتها أم أيمن ، وقيمها عبد المطلب ، فمكثت شهراً ثم قفلت ، وبينما هي زاجعة إذ لحقها المرض في أوائل الطريق ، ثم اشتد حتى ماتت بالأبواء بين مكة والمدينة (١) .

إلى جده العطوف :

وعاد به عبد المطلب إلى مكة ، وكانت مشاعر الحنو في فؤاده تربو نحو حفيده اليتيم الذي أصيب بمصاب جديد نكاً الجروح القديمة ، فَرَّقَ عليه رقة لم يرقها على أحد من أولاده ، فكان لا يدعه لوحده المفروضة ، بل يؤثره على أولاده ، قال ابن هشام : كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة ، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه ، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له ، فكان رسول الله ﷺ يأتي وهو غلام جفر حتى يجلس عليه ، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه ، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم : دعوا ابني هذا ، فوالله إن له لشأناً ، ثم يجلس معه على فراشه ، ويمسح ظهره بيده ، ويسره ما يراه يصنع (٢) .

ولثمانى سنوات وشهرين وعشرة أيام من عمره ﷺ توفي جده عبد المطلب بمكة ، ورأى قبل وفاته أن يعهد بكفالة حفيده إلى عمه أبي طالب شقيق أبيه (٣) .

إلى عمه الشفيق :

ونهض أبو طالب بحق ابن أخيه على أكمل وجه ، وضمه إلى ولده وقدمه عليهم واختصه بفضل احترام وتقدير ، وظل فوق أربعين سنة يعز جانبه ، ويسيطر عليه حمايته ، ويصادق ويخاصم من أجله ، وستأتى نبذ من ذلك في مواضعها .

يستسقى الغمام بوجهه :

أخرج ابن عساكر عن جَلْهَمَةَ بن عُرْفُطَةَ قال : قدمت مكة وهم في قحط ، فقالت قريش : يا أبا طالب ، أقحط الوادى ، وأجذب العيال ، فهلّم فاستسق ، فخرج أبو طالب ومعه غلام ، كأنه شمس دُجَّة (٤) ، تجلت عنه سحابة قُتْمَاء (٥) ، حوله أُعْلِمَةُ ، فأخذه أبو طالب ، فالصق ظهره بالكعبة ، ولاذ بأضبعه الغلام ، وما فى السماء قَرْعَةٌ (٦) ، فأقبل السحاب من هاهنا وهاهنا وأغدق وأغدوق ، وانفجر الوادى ، وأخصب النادى والبادى ، وإلى هذا أشار أبو طالب حين قال :

(١) انظر : ابن هشام ١ / ١٦٨ ، وتلفيح الفهوم ص ٧ .

(٢) ابن هشام ١ / ١٦٩ ، وتلفيح الفهوم ص ٧ .

(٣) ابن هشام ١ / ١٦٨ .

(٤) سحابة .

(٥) غبراء .

(٦) الدجّة : الظّلة .

وأبيضُ يُستسقى العَمَامَ بوجهه ثَمَالُ اليتامى عِصْمَةً للأرامل (١)

بَحِيرَى الرَّاهِب :

ولما بلغ رسول الله ﷺ اثنتى عشرة سنة - قيل : وشهرين وعشرة أيام (٢) - ارتحل به أبو طالب تاجراً إلى الشام ، حتى وصل إلى بُصْرَى - وهى معدودة من الشام ، وقَصَبَةَ الحُورَان ، وكانت فى ذلك الوقت قصبة للبلاد العربية التى كانت تحت حكم الرومان . وكان فى هذا البلد راهب عرف بِبَحِيرَى ، واسمه - فيما يقال : جرجيس ، فلما نزل الركب خرج إليهم ، وكان لا يخرج إليهم قبل ذلك ، فجعل يتخلَّلهم حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ ، وقال : هذا سيد العالمين ، هذا رسول رب العالمين ، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين . فقال له [أبو طالب و] أشياخ قريش : [و] ما علمك [بذلك] ؟ فقال : إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق حجر ولا شجر إلا خر ساجداً ، ولا يسجدان إلا لنبى ، وإنى أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة ، [وأنا نجده فى كتبنا] ، ثم أكرمهم بالضيافة ، وسأل أبا طالب أن يرده ، ولا يقدم به إلى الشام ؛ خوفاً عليه من الروم واليهود ، فبعثه عمه مع بعض غلمانة إلى مكة (٣) .

حرب الفَجَار :

وفى السنة العشرين من عمره ﷺ وقعت فى سوق عكاظ حرب بين قريش - ومعهم كنانة - وبين قَيْسِ عَيْلَانَ ، تعرف بحرب الفَجَار (٤) وسببها : أن أحد بنى كنانة ، واسمه البرَّاض ، اغتال ثلاثة رجال من قيس عيلان ، ووصل الخبر إلى عكاظ فثار الطرفان ، وكان قائد قريش وكنانة كلها حرب بن أمية ؛ لمكانته فيهم سناً وشرفاً ، وكان الظفر فى أول النهار لقيس على كنانة ، حتى إذا كان فى وسط النهار كادت الدائرة تدور على قيس . ثم تداعى بعض قريش إلى الصلح على أن يحصوا قتلى الفريقين ، فمن وجد قتله أكثر أخذ دية الزائد . فاصطلحوا على ذلك ، ووضعوا الحرب ، وهدموا ما كان بينهم من العداوة والشر .

(١) مختصر السيرة للشيخ عبد الله ص ١٥ ، ١٦ ، وأورد الهيثمى فى مجمع الزوائد عن الطبرانى مثل هذه القصة فى كتاب علامات النبوة ٨ / ٢٢٢ . وثمال اليتامى : يقوم بأمرهم .

(٢) قاله ابن الجوزى فى تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٧ .

(٣) انظر : جامع الترمذى ٥ / ٥٥٠ ، ٥٥١ ح (٣٦٢٠) ، وتاريخ الطبرى ٢ / ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، والمصنف لابن أبى شيبة ١١ / ٤٨٩ ح (١١٧٨٢) ، ودلائل النبوة للبيهقى ٢ / ٢٤ ، ٢٥ ، ولأبى نعيم ١ / ١٧٠ وإسناده ثابت قوى ، ووقع فى آخره : أن أبا بكر بعث معه ﷺ بلالاً ، « وهو من الغلط الواضح ، فإن بلالاً إذ ذاك لعله لم يكن موجوداً ، وإن كان موجوداً فلم يكن مع عمه ولا مع أبى بكر » . قاله ابن القيم فى زاد المعاد ١ / ١٧ ، وقد روى فى القصة تفاصيل أخرى ، رواها ابن سعد فى الطبقات ١ / ١٢٠ بأسانيد واهية ، وذكرها ابن إسحاق بدون إسناد ، حكاه عنها ابن هشام ١ / ١٨٠ - ١٨٣ ، والطبرى ٢ / ٢٧٧ ، والبيهقى وأبو نعيم .

(٤) والفجارات (بكسر الفاء) بين هذين الفريقين أربعة : الثلاثة الأول منها كان فيها خصام واشتجار طفيف ثم اصطلحوا بدون قتال ، فالأول : سببه ماطلة دين كان لقيس على كنانى ، والثانى : سببه تفاخر كنانى فى سوق عكاظ ، والثالث : سببه تعرض فتیان مكة لامرأة جميلة من قيس ، أما الرابع : فهو فجار البراض الذى ذكرناه فى الكتاب ، ولينظر للتفصيل : المنق فى أخبار قريش ص ١٦٠ - ١٦٤ ، والكامل لابن الأثير ١ / ٤٦٧ وهو جعل الثلاثة الأول واحداً .

وسميت بحرب الفجار؛ لانتهاك حرمة الشهر الحرام فيها، وقد حضر هذه الحرب رسول الله ﷺ، وكان ينبل على عمومته؛ أى يجهز لهم النبل للرمى (١).

حلف الفضول:

وعلى أثر هذه الحرب وقع حلف الفضول فى ذى القعدة فى شهر حرام تداعت إليه قبائل من قريش: بنو هاشم، وبنو المطلب، وأسد بن عبد العزى، وزهرة بن كلاب، وتيم ابن مرة، فاجتمعوا فى دار عبد الله بن جدعان التيمي؛ لسنه وشرفه، فتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بكمة مظلوماً من أهلها وغيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته، وشهد هذا الحلف رسول الله ﷺ. وقال بعد أن أكرمه الله بالرسالة: «لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لى به حمر النعم، ولو ادعى به فى الإسلام لأجبت» (٢).

وهذا الحلف روحه تنافى الحماية الجاهلية التى كانت العصبية تثيرها، ويقال فى سبب هذا الحلف: إن رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة، واشتراها منه العاص بن وائل السهمى، وحبس عنه حقه، فاستعدى عليه الأحلاف عبد الدار ومخزوماً، وجمحاً وسهماً وعدياً فلم يكثرثوا له، فعلا جبل أبى قبيس، ونادى بأشعار يصف فيها ظلامته رافعاً صوته، فمشى فى ذلك الزبير بن عبد المطلب، وقال: ما لهذا مترك؟ حتى اجتمع الذين مضى ذكرهم فى حلف الفضول، فعقدوا الحلف ثم قاموا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه حق الزبيدي (٣).

حياة الكدح:

ولم يكن له ﷺ عمل معين فى أول شبابه، إلا أن الروايات تواتت أنه كان يرعى غنماً، رعاها فى بنى سعد (٤)، وفى مكة لأهلها على قراريط (٥)، ويبدو أنه انتقل إلى عمل التجارة حين شب، فقد ورد أنه كان يتجر مع السائب بن أبى السائب المخزومى فكان خير شريك له، لا يدارى ولا يمارى، وجاءه يوم الفتح فرحب به، وقال: مرحباً بأخى وشريكى (٦).

وفى الخامسة والعشرين من سنه خرج تاجراً إلى الشام فى مال خديجة رضيها، قال ابن إسحاق: كانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال فى مالها، وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم، وكانت قريش قوماً تجاراً، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه، وعظم أمانته وكرم أخلاقه بعثت إليه، فعرضت عليه أن يخرج فى مال لها إلى الشام تاجراً، وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار، مع غلام لها

(١) ابن هشام ١ / ١٨٤ - ١٨٧، والمنمق فى أخبار قريش ص ١٦٤ - ١٨٥، والكامل لابن الأثير ١ / ٤٦٨ - ٤٧٢، قالوا: كانت فى شوال، ولا يصح؛ لأن شهر شوال ليس بالشهر الحرام، وعكاظ خارج عن الحرم، فما هى الحرمة التى انتهكت؟ على أن سوق عكاظ كان يقام من بداية ذى القعدة.

(٢) ابن هشام ١ / ١٥٤، ١٥٥.

(٣) طبقات ابن سعد ١ / ١٢٦ - ١٢٨، ونسب قريش للزبيرى ص ٢٩١.

(٤) ابن هشام ١ / ١٦٦.

(٥) صحيح البخارى: كتاب الإجازات، باب رعى الغنم على قراريط ح (٢٢٦٢).

(٦) سنن أبى داود ٢ / ٦١١، وابن ماجه ٢ / ٧٦٨ ح (٢٢٨٧)، ومسند أحمد ٣ / ٤٢٥.

يقال له: ميسرة ، فقبله رسول الله ﷺ منها ، وخرج فى مالها ذلك ، وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام (١) .

زواجه بخديجة :

ولما رجع إلى مكة ، ورأت خديجة فى مالها من الأمانة والبركة ما لم تر قبل هذا ، وأخبرها غلامها ميسرة بما رأى فيه ﷺ من خلال عذبة ، وشمائل كريمة ، وفكر راجح ، ومنطق صادق ، ونهج أمين ، وجدت ضالتها المنشودة - وكان السادات والرؤساء يحرصون على زواجها فتأبى عليهم ذلك - فتحدثت بما فى نفسها إلى صديقتها نفيسة بنت منبه ، وهذه ذهبت إليه ﷺ فتأخذه أن يتزوج خديجة ، فرضى بذلك ، وكلم أعمامه ، فذهبوا إلى عم خديجة وخطبوا إليه ، وعلى إثر ذلك تم الزواج ، وحضر العقد بنو هاشم ورؤساء مضر ، وذلك بعد رجوعه من الشام بشهرين (٢) ، وأصدقها عشرين بكرة . وكانت سنها إذ ذاك أربعين سنة ، وكانت يومئذ أفضل نساء قومها نسباً وثروة وعقلاً ، وهى أول امرأة تزوجها رسول الله ﷺ ، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت .

وكل أولاده ﷺ منها سوى إبراهيم، ولدت له: أولاً القاسم - وبه كان يكنى - ثم زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، وعبد الله. وكان عبد الله يلقب بالطيب والطاهر، ومات بنوه كلهم فى صغرهم ، أما البنات فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن، إلا أنهن أدركتهن الوفاة فى حياته ﷺ سوى فاطمة رضيها ، فقد تأخرت بعده ستة أشهر ثم لحقت به (٣) .

بناء الكعبة وقضية التحكيم :

ولخمس وثلاثين سنة من مولده ﷺ قامت قريش ببناء الكعبة ؛ وذلك لأن الكعبة كانت رَضْمًا (٤) فوق القامة ، ارتفاعها تسعة أذرع من عهد إسماعيل عليه السلام ، ولم يكن لها سقف ، فسرق نفر من اللصوص كنزها الذى كان فى جوفها ، وكانت مع ذلك قد تعرضت - باعتبارها أثراً قديماً - للعواذى التى أدهت بنيانها ، وصدعت جدرانها ، وقبل بعثته ﷺ بخمس سنين جرف مكة سيل عرم انحدر إلى البيت الحرام ، فأوشكت الكعبة منه على الانهيار ، فاضطرت قريش إلى تجديد بنائها حرصاً على مكانتها ، واتفقوا على ألا يدخلوا فى بنائها إلا طيباً ، فلا يدخلون فيها مهر بغى ولا بيع رباً ولا مظلمة أحد من الناس ، وكانوا يهابون هدمها ، فابتدأ بها الوليد بن المغيرة المخزومى ، فأخذ المعول وقال : اللهم لا نريد إلا الخير ، ثم هدم ناحية الركنين ، ولما لم يصبه شئ تبعه الناس فى الهدم فى اليوم الثانى ، ولم يزلوا فى الهدم حتى وصلوا إلى قواعد إبراهيم ، ثم أرادوا الأخذ فى البناء فجزأوا الكعبة ، وخصصوا لكل قبيلة جزءاً منها . فجمعت كل قبيلة حجارة على حدة ، وأخذوا

(١) ابن هشام ١ / ١٨٧ ، ١٨٨ .

(٢) وقد حدد المسعودى خروجه ﷺ إلى الشام بأربع سنين وتسعة أشهر وستة أيام بعد الفجار ، وزواجه بخديجة بشهرين وأربعة وعشرين يوماً بعد الخروج إلى الشام . انظر : مروج الذهب ٢ / ٢٧٨ .

(٣) ابن هشام ١ / ١٨٩ - ١٩١ ، وفتح البارى ٧ / ١٠٥ ، وتلقيح فهم أهل الأثر ص ٧ .

(٤) صخوراً عظماً .

بينونها ، وتولى البناء بناء رومى اسمه : باقوم . ولما بلغ البنيان موضع الحجر الأسود اختلفوا فيمن يمتاز بشرف وضعه فى مكانه ، واستمر النزاع أربع ليال أو خمساً ، واشتد حتى كاد يتحول إلى حرب ضروس فى أرض الحرم ، إلا أن أبا أمية بن المغيرة المخزومى عرض عليهم أن يحكموا فيما شجر بينهم أول داخل عليهم من باب المسجد فارتضوه ، وشاء الله أن يكون ذلك رسول الله ﷺ ، فلما رأوه هتفوا : هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد ، فلما انتهى إليهم ، وأخبروه الخبر طلب رداء فوضع الحجر وسطه وطلب من رؤساء القبائل المتنازعين أن يمسكوا جميعاً بأطراف الرداء ، وأمرهم أن يرفعوه ، حتى إذا أوصلوه إلى موضعه أخذه بيده فوضعه فى مكانه ، وهذا حل حصيف رضى به القوم .

وقصرت بقريش النفقة الطيبة فأخرجوا من الجهة الشمالية نحواً من ستة أذرع ، وهى التى تسمى بالحجر والحطيم ، ورفعوا بابها من الأرض ؛ لئلا يدخلها إلا من أرادوا ، ولما بلغ البناء خمسة عشر ذراعاً سقفوه على ستة أعمدة .

وصارت الكعبة بعد انتهائها ذات شكل مربع تقريباً ، يبلغ ارتفاعه ١٥ متراً ، وطول ضلعه الذى فيه الحجر الأسود والمقابل له ١٠ أمتار ، والحجر موضوع على ارتفاع ١,٥٠ متر من أرضية المطاف . والضلع الذى فيه الباب والمقابل له ١٢ متراً ، وبابها على ارتفاع مترين من الأرض ، ويحيط بها من الخارج قصبة من البناء أسفلها ، متوسط ارتفاعها ٢٥,٠ متراً ومتوسط عرضها ٣٠,٠ متراً وتسمى بالشاذروان ، وهى من أصل البيت لكن قريشاً تركتها (١) .

السيرة الإجمالية قبل النبوة :

كان النبى ﷺ قد جمع فى نشأته خير ما فى طبقات الناس من ميزات ، وكان طرازاً رفيعاً من الفكر الصائب ، والنظر السديد ، ونال حظاً وافراً من حسن الفطنة وأصالة الفكرة وسداد الوسيلة والهدف ، وكان يستعين بصمته الطويل على طول التأمل وإدمان الفكرة واستكناه الحق ، وطالع بعقله الخصب وفطرته الصافية صحائف الحياة وشئون الناس وأحوال الجماعات ، فعاف ما سواها من خرافة ، ونأى عنها ، ثم عاشر الناس على بصيرة من أمره وأمرهم ، فما وجد حسناً شارك فيه (٢) وإلا عاد إلى عزلته العتيدة ، فكان لا يشرب الخمر ، ولا يأكل مما ذبح على النصب ، ولا يحضر للأوثان عيداً ولا احتفالاً ، بل كان من أول نشأته نافراً من هذه المعبودات الباطلة ، حتى لم يكن شئ أبغض إليه منها ، وحتى كان لا يصبر على سماع الحلف باللات والعزى (٣) .

ولا شك أن القدر حاطه بالحفظ ، فعندما تتحرك نوازع النفس لاستطلاع بعض متع

(١) انظر فى تفصيل بناء الكعبة : ابن هشام ٢ / ١٩٢ - ١٩٧ ، وتاريخ الطبرى ٢ / ٢٨٩ وما بعدها ، وصحيح البخارى : باب فضل مكة وبنيانها ١ / ٢١٥ ، وخبر التحكيم أيضاً فى مسند أبى داود الطيالسى ، وانظر أيضاً : محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ١ / ٦٤ ، ٦٥ .

(٢) فمثلاً : كانت قريش تصوم عاشوراء فى الجاهلية ، وكان رسول الله ﷺ أيضاً يصومه فى الجاهلية .

انظر : صحيح البخارى ح (٢٠٠٢) ، مع فتح البارى ٤ / ٢٨٧ .

(٣) انظر لذلك : ابن هشام ١ / ١٢٨ ، وتاريخ الطبرى ٢ / ١٦١ ، وتهذيب تاريخ دمشق ١ / ٣٧٣ ، ٣٧٦ .

الدنيا ، وعندما يرضى باتباع بعض التقاليد غير المحمودة - تتدخل العناية الربانية للحيلولة بينه وبينها ، قال رسول الله ﷺ : « ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون غير مرتين ، كل ذلك يحول الله بيني وبينه ، ثم ما هممت به حتى أكرمنى برسالته ، قلت ليلة للغلام الذى يرعى معى الغنم بأعلى مكة : لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة وأسمر بها كما يسمر الشباب ، فقال : أفعل ، فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفاً ، فقلت : ما هذا ؟ فقالوا : عرس فلان بفلاته ، فجلست أسمع ، فضرب الله على أذنى فنمت ، فما أيقظنى إلا حر الشمس . فعدت إلى صاحبى فسألنى ، فأخبرته ، ثم قلت ليلة أخرى مثل ذلك ، ودخلت بمكة فأصابنى مثل أول ليلة... ثم ما هممت بسوء » (١) .

وروى البخارى عن جابر بن عبد الله قال : لما بنيت الكعبة ذهب النبى ﷺ وعباس ينقلان الحجارة ، فقال عباس للنبى ﷺ : اجعل إزارك على رقبتك يقيك من الحجارة ، فخر إلى الأرض وطمحت عيناه إلى السماء ثم أفاق ، فقال : « إزارى ، إزارى » ، فشد عليه إزاره . وفى رواية : فما رؤيت له عورة بعد ذلك (٢) .

وكان النبى ﷺ يمتاز فى قومه بخلال عذبة وأخلاق فاضلة ، وشماثل كريمة ، فكان أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقاً ، وأعزهم جواراً ، وأعظمهم حلماً ، وأصدقهم حديثاً ، وألينهم عريكة ، وأعفهم نفساً وأكرمهم خيراً ، وأبرهم عملاً ، وأوفاهم عهداً ، وأمنهم أمانة حتى سماه قومه : « الأمين » لما جمع فيه من الأحوال الصالحة والخصال المرضية ، وكان كما قالت أم المؤمنين خديجة ؓ : يحمل الكل ، ويكسب المعدوم ، ويقرى الضيف ، ويعين على نوائب الحق (٣) .

(١) الحديث رواه الطبرى ٢ / ٢٧٩ وغيره ، وصححه الحاكم وتبعه الذهبى وضعفه ابن كثير : البداية والنهاية ٢ / ٢٨٧ .

(٢) صحيح البخارى ح (١٥٨٢) ، وفتح البارى ٣ / ٥١٣ ، وح (٣٨٢٩) ، ٧ / ١٨٠ ، وانظر أيضاً : فتح البارى ٣ / ٥١٧ ، ومسند أحمد ٣ / ٢٩٥ ، ٣١٠ ، ٣٣٣ ، ٣٨٠ .

(٣) صحيح البخارى ح (٣) .

حياة النبوة والرسالة
والدعوة

العهد المكي

النبوة والدعوة العهد المكي

تنقسم حياة رسول الله ﷺ بعد أن شرفه الله بالنبوة والرسالة إلى عهدين يمتاز أحدهما عن الآخر تمام الامتياز ، وهما :

١ - العهد المكي ، ثلاث عشرة سنة تقريباً .

٢ - العهد المدني ، عشر سنوات كاملة .

ثم يشتمل كل من العهدين على عدة مراحل ، لكل مرحلة منها خصائص تمتاز بها عن غيرها ، يظهر ذلك جلياً بعد النظر الدقيق في الظروف التي مرت بها الدعوة خلال العهدين .

ويمكن تقسيم العهد المكي إلى ثلاث مراحل :

١ - مرحلة الدعوة السرية ، ثلاث سنوات .

٢ - مرحلة إعلان الدعوة في أهل مكة ، من بداية السنة الرابعة من النبوة إلى هجرته ﷺ إلى المدينة .

٣ - مرحلة الدعوة خارج مكة وفشوها فيهم ، من أواخر السنة العاشرة من النبوة . وقد شملت العهد المدني وامتدت إلى آخر حياته ﷺ .

أما مراحل العهد المدني فسيجيء تفصيلها في موضعه .

في ظلال النبوة والرسالة

في غار حراء :

لما تقاربت سنة ﷺ الأربعين ، وكانت تأملاته الماضية قد وسعت الشقة العقلية بينه وبين قومه ، حُبب إليه الخلاء ، فكان يأخذ السَّويق والماء ، ويذهب إلى غار حراء في جبل النور على مبعدة نحو ميلين من مكة - وهو غار لطيف طوله أربعة أذرع ، وعرضه ذراع وثلاثة أرباع ذراع من ذراع الحديد - فيقيم فيه شهر رمضان ، ويقضى وقته في العبادة والتفكير فيما حوله من مشاهد الكون وفيما وراءها من قدرة مبدعة ، وهو غير مطمئن لما عليه قومه من عقائد الشرك المهلهلة وتصوراتها الواهية ، ولكن ليس بين يديه طريق واضح ، ولا منهج محدد ، ولا طريق قاصد يطمئن إليه ويرضاه .

وكان اختياره ﷺ لهذه العزلة طرفاً من تدبير الله له ، وليكون انقطاعه عن شواغل الأرض وضجة الحياة وهموم الناس الصغيرة التي تشغل الحياة نقطة تحول لاستعداداته لما ينتظره من الأمر العظيم ، فيستعد لحمل الأمانة الكبرى وتغيير وجه الأرض ، وتعديل خط التاريخ ... دبر الله له هذه العزلة قبل تكليفه بالرسالة بثلاث سنوات ، ينطلق في هذه العزلة شهراً من الزمان ، مع روح الوجود الطليقة، ويتدبر ما وراء الوجود من غيب مكنون ، حتى يحين موعد التعامل مع هذا الغيب عندما يأذن الله^(١) .

جبريل ينزل بالوحي :

ولما تكامل له أربعون سنة - وهي رأس الكمال ، وقيل : ولها تبعث الرسل - بدأت طلائع النبوة تلوح وتلمع ، فمن ذلك أن حجراً بمكة كان يسلم عليه ، ومنها أنه كان يرى الرؤيا الصادقة ؛ فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، حتى مضت على ذلك ستة أشهر - ومدة النبوة ثلاث وعشرون سنة ، فهذه الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة - فلما كان رمضان من السنة الثالثة من عزلته ﷺ بحراء شاء الله أن يفيض من رحمته على أهل الأرض ، فأكرمه بالنبوة ، وأنزل إليه جبريل بآيات من القرآن^(٢) .

وبعد النظر والتأمل في القرائن والدلائل يمكن لنا أن نحدد ذلك اليوم بأنه كان يوم الاثنين لإحدى وعشرين مضت من شهر رمضان ليلاً ، وقد وافق ١٠ أغسطس سنة ٦١٠ م ، وكان عمره ﷺ إذ ذاك بالضبط أربعين سنة قمرية ، وستة أشهر ، و١٢ يوماً ، وذلك نحو

(١) انظر لأصل القصة: صحيح البخاري ح (٣) ، وابن هشام ١ / ٢٣٥ ، ٢٣٦ وغيرهما من كتب التفسير والسنة والسيرة. ويقال : إن عبد المطلب أول من تحت بحراء ، فكان إذا دخل شهر رمضان صعد وأطعم المساكين جميع الشهر . الكامل لابن الأثير ١ / ٥٥٣ .

(٢) قال ابن حجر : وحكى البيهقي أن مدة الرؤيا كانت ستة أشهر ، وعلى هذا فابتداء النبوة بالرؤيا وقع في شهر مولده وهو ربيع الأول ، بعد إكماله أربعين سنة ، وابتداء وحى اليقظة في رمضان . فتح الباري ٢٧/١ .

٣٩ سنة شمسية وثلاثة أشهر وعشرين يوماً^(١).

ولنستمع إلى عائشة الصديقة رضي الله عنها تروى لنا قصة هذه الواقعة التى كانت نقطة بداية النبوة ، وأخذت تفتح دياجير ظلمات الكفر والضلال حتى غيرت مجرى الحياة ، وعدلت خط التاريخ ، قالت عائشة رضي الله عنها :

أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبَّ إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء ، فيتحنَّث فيه - وهو التعبّد - الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ : قال : « ما أنا بقارئ » ، قال : « فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذنى فغطنى الثالثة ، ثم أرسلنى فقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) ﴾ [العلق] (٢) » ، فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال : « زملونى زملونى » ، فزملوه حتى ذهب عنه الروح ، فقال لخديجة : « ما لى ؟ » فأخبرها الخبر ، « لقد خشيت على نفسى » ، فقالت خديجة : كلا ، والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق^(٣) ، فانطلقت به

(١) اختلف أهل السير اختلافاً كبيراً فى أول شهر أكرمه الله فيه بالنبوة ، وإنزال الوحي ، فذهب طائفة كبيرة إلى أنه شهر ربيع الأول ، وذهب طائفة أخرى إلى أنه رمضان ، وقيل : هو شهر رجب ، وإنما رجحنا أنه شهر رمضان لقوله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ [البقرة : ١٨٥] ، ولقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) ﴾ [القدر] ، ومعلوم أن ليلة القدر فى رمضان ، وهى المرادة بقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (٢) ﴾ [الدخان] ؛ ولأن جواره ﷺ بحراء كان فى رمضان ، وكانت وقعة نزول جبريل فيها كما هو معروف .

ثم اختلفت الروايات واختلف القائلون ببدء نزول الوحي فى رمضان فى تحديد ذلك اليوم ، فقيل : هو اليوم السابع ، وقيل : السابع عشر ، وقيل : الثامن عشر ، وذهب ابن إسحاق وغيره إلى أنه اليوم السابع عشر . وإنما رجحنا أنه اليوم الحادى والعشرون لأن أهل السير كلهم أو أكثرهم متفقون على أن مبعثه ﷺ كان يوم الاثنين ، ويؤيدهم ما رواه أئمة الحديث عن أبى قتادة رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ سئل عن صوم يوم الاثنين ، فقال : « فيه ولدت وفيه أنزل على » ، وفى لفظ : « ذلك يوم ولدت فيه ويوم بعثت أو أنزل على فيه » (صحيح مسلم ١ / ٣٦٨ ، وأحمد ٥ / ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، والبيهقى ٤ / ٢٨٦ ، ٣٠٠ ، والحاكم ٢ / ٦٢٠) ويوم الاثنين فى رمضان من تلك السنة لا يوافق إلا اليوم السابع ، والرابع عشر ، والحادى والعشرين ، والثامن والعشرين ، وقد دلت الروايات الصحيحة أن ليلة القدر لا تقع إلا فى وتر من ليالى العشر الأواخر من رمضان ، وأنها تنتقل فيما بين هذه الليالى ، فإذا قارنا بين قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) ﴾ [القدر] وبين رواية أبى قتادة أن مبعثه ﷺ كان يوم الاثنين وبين حساب التقويم العلمى فى وقوع أيام الاثنين فى رمضان من تلك السنة ، تعين لنا أن مبعثه ﷺ كان فى اليوم الحادى والعشرين من رمضان ليلاً .

(٢) نزلت الآيات إلى قوله تعالى : ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾ [العلق] .

(٣) الكل : الثقل ، ويدخل فى حمل الكل الإنفاق على الضعيف واليتيم والعيال وغير ذلك ، وكسب المعدوم هو إعطاء الفقير تبرعاً ، والنوائب : الحوادث .

خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل ابن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة - وكان امرأ تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمى - فقالت له خديجة : يابن عم ، اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة : يابن أخى ، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة : هذا الناموس الذى نزله الله على موسى ، يا ليتنى فيها جذعاً ، ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله ﷺ : «أو مخرجى هم ؟» قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرأ مؤزراً، ثم لم ينشأ ورقة أن توفى ، وفتر الوحي (١).

فترة الوحي :

أما مدة فترة الوحي فاختلّفوا فيها على عدة أقوال . والصحيح أنها كانت أياماً ، وقد رأى ابن سعد عن ابن عباس ما يفيد ذلك (٢) . وأما ما اشتهر من أنها دامت ثلاث سنوات أو سنتين ونصفاً فليس بصحيح .

وقد ظهر لى شىء غريب بعد إدارة النظر فى الروايات وفى أقوال أهل العلم . ولم أر من تعرض له منهم ، وهو أن هذه الأقوال والروايات تفيد أن رسول الله ﷺ كان يجاور بحراء شهراً واحداً، وهو شهر رمضان من كل سنة، وذلك من ثلاث سنوات قبل النبوة، وأن سنة النبوة كانت هى آخر تلك السنوات الثلاث ، وأنه كان يتم جواره بتمام شهر رمضان، فكان ينزل بعده من حراء صباحاً - أى لأول يوم من شهر شوال - ويعود إلى البيت .

وقد ورد التنصيص فى رواية الصحيحين على أن الوحي الذى نزل عليه ﷺ بعد الفترة إنما نزل وهو ﷺ راجع إلى بيته بعد إتمام جواره بتمام الشهر .

أقول : فهذا يفيد أن الوحي الذى نزل عليه ﷺ بعد الفترة إنما نزل فى أول يوم من شهر شوال بعد نهاية شهر رمضان الذى تشرف فيه بالنبوة والوحى ؛ لأنه كان آخر مجاورة له بحراء، وإذا ثبت أن أول نزول الوحي كان فى ليلة الاثنين الحادية والعشرين من شهر رمضان فإن هذا يعنى أن فترة الوحي كانت لعشرة أيام فقط . وأن الوحي نزل بعدها صبيحة يوم الخميس لأول شوال من السنة الأولى من النبوة . ولعل هذا هو السر فى تخصيص العشر الأواخر من رمضان بالمجاورة والاعتكاف ، وفى تخصيص أول شهر شوال بالعيد السعيد ، والله أعلم .

وقد بقى رسول الله ﷺ فى أيام الفترة كثيراً محزوناً تعتريه الحيرة والدهشة ، فقد روى البخارى فى كتاب التعبير ما نصه :

وفتر الوحي فترة حزن النبى ﷺ فيما بلغنا حزناً عدا (٣) منه مراراً كى يتردى من رءوس

(١) صحيح البخارى ح (٣) وقد أخرجه البخارى مع اختلاف يسير فى اللفظ فى كتابى التفسير وتعبير الروايات ح (٣٣٩٢ ، ٤٩٥٣ ، ٤٩٥٥ - ٤٩٥٧ ، ٦٩٨٢) ، وأخرجه مسلم فى كتاب الإيمان ح (٢٥٢) .

(٢) طبقات ابن سعد ١ / ١٩٦ .

(٣) بالعين المهملة من العدو ، وهو الذهاب بسرعة ، وفى بعض النسخ : « غدا » بالغين المعجمة .

شواهد الجبال ، فكلما أوفى بذروة جبل لكى يلقى نفسه منه تبدى له جبريل فقال : يا محمد، إنك رسول الله حقاً ، فيسكن لذلك جأشه ، وتقرّ نفسه، فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة الجبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك (١) .

جبريل ينزل بالوحي مرة ثانية :

قال ابن حجر : وكان ذلك (أى انقطاع الوحي أياماً) ؛ ليذهب ما كان ﷺ وجده من الروع ، وليحصل له التشوف إلى العود (٢) ، فلما حصل له ذلك وأخذ يرتقب مجيء الوحي أكرمه الله بالوحي مرة ثانية . قال ﷺ :

« جاورت بحراء شهراً فلما قضيت جوارى هبطت [فلما استبطنت الوادى] فنوديت ، فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً ، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً ، ونظرت أمامي فلم أر شيئاً ، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً ، فرفعت رأسي فرأيت شيئاً ، [فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض ، فجئْتُ منه رعباً حتى هويت إلى الأرض] فأتيت خديجة فقلت : [زملونى ، زملونى] ، دثروني ، وصبوا علي ماء بارداً » ، قال : « دثروني وصبوا علي ماء بارداً ، فنزلت : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) ﴾ [المدثر] وذلك قبل أن تفرض الصلاة ، ثم حمى الوحي بعد وتتابع (٣) .

وهذه الآيات هى مبدأ رسالته ﷺ ، وهى متأخرة عن النبوة بمقدار فترة الوحي . وتشتمل على نوعين من التكليف مع بيان ما يترتب عليه :

النوع الأول: تكليفه ﷺ بالبلاغ والتحذير ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ فإن معناه : حذر الناس من عذاب الله إن لم يرجعوا عما هم فيه من الغي والضلال وعبادة غير الله المتعال ، والإشراك به فى الذات والصفات والحقوق والأفعال .

النوع الثانى: تكليفه ﷺ بتطبيق أوامر الله سبحانه وتعالى على ذاته ، والالتزام بها فى نفسه ؛ ليحرز بذلك مرضاة الله ، ويصير أسوة حسنة لمن آمن بالله وذلك فى بقية الآيات . فقولته : ﴿ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴾ معناه : خصه بالتعظيم، ولا تشرك به فى ذلك أحداً . وقوله : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ المقصود الظاهر منه : تطهير الثياب والجسد ، إذ ليس لمن يكبر الله ويقف بين يديه أن يكون نجساً مستقذراً . وإذا كان هذا التطهر مطلوباً فإن التطهير من أدران الشرك وأرجاس الأعمال والأخلاق أولى بالطلب ، وقوله : ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ معناه : ابتعد عن أسباب سخط الله وعذابه ، وذلك بالالتزام طاعته وترك معصيته . وقوله : ﴿ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْبِرُ ﴾ أى : لا تحسن إحساناً تريد أجره من الناس أو تريد له جزاء أفضل فى هذه الدنيا .

أما الآية الأخيرة ففيها تنبيه على ما يلحقه من أذى قومه حين يفارقهم فى الدين ويقوم

(١) صحيح البخارى ح (٦٩٨٢) . (٢) فتح البارى ١ / ٢٧ .

(٣) صحيح البخارى : تفسير سورة المدثر ، باب (١) وما بعده ٨ / ٤٤٥ - ٤٤٧ ، ونحوه فى صحيح مسلم : كتاب الإيمان ١ / ١٤٤ ح (٢٥٧) . و « جئْتُ » أى دُعِرْتُ وَخِفْتُ .

بدعوتهم إلى الله وحده وبتحذيرهم من عذابه وبطشه ، فقال : ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ ، ثم إن مطلع الآيات تضمنت النداء العلوى - فى صوت الكبير المتعال - بانتداب النبى ﷺ لهذا الأمر الجلل ، وانتزاعه من النوم والتدثر والدفع إلى الجهاد والكفاح والمشقة : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ ، كأنه قيل : إن الذى يعيش لنفسه قد يعيش مستريحاً ، أما أنت الذى تحمل هذا العبء الكبير فما لك والنوم ؟ وما لك والراحة ؟ وما لك والفراش الدافئ ؟ والعيش الهادئ ؟ والمتاع المريح اقم للأمر العظيم الذى ينتظرك ، والعبء الثقيل المهيأ لك ، قم للجهاد والنصب ، والكد والتعب ، قم فقد مضى وقت النوم والراحة ، وما عاد منذ اليوم إلا السهر المتواصل ، والجهاد الطويل الشاق ، قم فتهياً لهذا الأمر واستعد .

إنها كلمة عظيمة رهيبة تنزعه ﷺ من دفء الفراش فى البيت الهادئ والحضن الدافئ ، لتدفع به فى الخضم ، بين الزعازع والأنواء ، وبين الشد والجذب فى ضمائر الناس وفى واقع الحياة سواء .

وقام رسول الله ﷺ ، فظل قائماً بعدها أكثر من عشرين عاماً لم يسترح ولم يسكن ، ولم يعيش لنفسه ولا لأهله . قام وظل قائماً على دعوة الله ، يحمل على عاتقه العبء الثقيل الباهظ ولا ينوء به ، عبء الأمانة الكبرى فى هذه الأرض ، عبء البشرية كلها ، عبء العقيدة كلها ، وعبء الكفاح والجهاد فى ميادين شتى ، عاش فى المعركة الدائبة المستمرة أكثر من عشرين عاماً ؛ لا يلهيه شأن عن شأن فى خلال هذا الأمد منذ أن سمع النداء العلوى الجليل ، وتلقى منه التكليف الرهيب . . . جزاه الله عنا وعن البشرية كلها خير الجزاء .

وليست الأوراق الآتية إلا صورة مصغرة بسيطة من هذا الجهاد الطويل الشاق الذى قام به رسول الله ﷺ خلال هذا الأمد .

أقسام الوحي :

وقبل الدخول فى موضوع هذا الجهاد أرى من الأحسن أن أستطرد إلى بيان أقسام الوحي ومراتبه . قال ابن القيم ، وهو يذكر تلك المراتب :

إحداها : الرؤيا الصادقة ، وكانت مبدأ وحيه ﷺ .

الثانية : ما كان يلقيه الملك فى روعه وقلبه من غير أن يراه ، كما قال النبى ﷺ : « إن روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب ، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله ، فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته » .

الثالثة : إنه ﷺ كان يتمثل له الملك رجلاً فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له ، وفى هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحياناً .

الرابعة : أنه كان يأتيه فى مثل صلصلة الجرس ، وكان أشده عليه ، فيلتبس به الملك ، حتى أن جبينه ليتفصد عرقاً فى اليوم الشديد البرد ، وحتى أن راحلته لتبرك به إلى الأرض إذا كان راكبها ، ولقد جاء الوحي مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت ، فثقلت عليه حتى

كادت ترضها .

الخامسة : إنه يرى الملك فى صورته التى خلق عليها، فىوحى إليه ما شاء الله أن يوحىه ، وهذا وقع له مرتين كما ذكر الله ذلك فى سورة النجم .

السادسة : ما أوحاه الله إليه ، وهو فوق السموات ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها .

السابعة : كلام الله له منه إليه بلا واسطة ملك كما كلم الله موسى بن عمران ، وهذه المرتبة هى ثابتة لموسى قطعاً بنص القرآن . وثبوتها لنبينا ﷺ هو فى حديث الإسراء .

وقد زاد بعضهم مرتبة ثامنة ؛ وهى تكليم الله له كفاحاً من غير حجاب ، وهى مسألة خلاف بين السلف والخلف . انتهى مع تلخيص يسير فى بيان المرتبة الأولى والثامنة^(١) .

(١) انظر : زاد المعاد ١ / ١٨ .

المرحلة الأولى من جهاد الدعوة إلى الله

ثلاث سنوات من الدعوة السرية :

قام رسول الله ﷺ بعد نزول ما تقدم من آيات سورة المدثر ، بالدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ؛ وحيث إن قومه كانوا جفاة لا دين لهم إلا عبادة الأصنام والأوثان ، ولا حجة لهم إلا أنهم ألفوا آباءهم على ذلك ، ولا أخلاق لهم إلا الأخذ بالعزة والأنفة ، ولا سبيل لهم في حل المشاكل إلا السيف ، وكانوا مع ذلك متصدين للزعامة الدينية في جزيرة العرب ، ومحتلين مركزها الرئيس ، ضامين حفظ كيانها ، فقد كان من الحكمة تلقاء ذلك أن تكون الدعوة في بدء أمرها سرية ؛ لئلا يفاجئ أهل مكة بما يهيجهم .

الرعيل الأول :

وكان من الطبيعي أن يعرض الرسول ﷺ الإسلام أولاً على الصق الناس به من أهل بيته ، وأصدقائه ، فدعاهم إلى الإسلام ، ودعا إليه كل من توسم فيه الخير ممن يعرفهم ويعرفونه ، يعرفهم بحب الحق والخير ، ويعرفونه بتحرى الصدق والصلاح ، فأجابه من هؤلاء - الذين لم تخالجهم ريبة قط في عظمة الرسول ﷺ وجلالة نفسه وصدق خبره - جمع عُرُفوا في التاريخ الإسلامي بالسابقين الأولين ، وفي مقدمتهم زوجة النبي ﷺ أم المؤمنين خديجة بنت خويلد ، ومولاه زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي ^(١) وابن عمه على ابن أبي طالب - وكان صبيّاً يعيش في كفالة الرسول ﷺ - وصديقه الحميم أبو بكر الصديق . أسلم هؤلاء في أول يوم الدعوة .

ثم نشط أبو بكر في الدعوة إلى الإسلام ، وكان رجلاً مألُفاً محبباً سهلاً ذا خلق ومعروف ، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه ؛ لعلمه وتجارته وحسن مجالسته ، فجعل يدعو من يثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه ، فأسلم بدعوته عثمان بن عفان الأموي ، والزبير بن العوام الأسدي ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص الزهري ، وطلحة بن عبيد الله التيمي . فكان هؤلاء نفر الثمانية الذين سبقوا الناس هم الرعيل الأول وطلبة الإسلام .

ثم تلا هؤلاء أمين هذه الأمة ^(٢) أبو عبيدة عامر بن الجراح من بني الحارث بن فهر ،

(١) كان قد أُسر ورُقّي ، فملكته خديجة ، ووهبته لرسول الله ﷺ ، وجاءه أبوه وعمه ليذهبا به إلى قومه وعشيرته ، فاختار عليهما رسول الله ﷺ ، فتنهنا حسب قواعد العرب ، وكان لذلك يقال : زيد ابن محمد ، حتى جاء الإسلام فأبطل التبنّي . قتل شهيداً يوم مؤتة في جمادى الأولى سنة ٨ هـ وهو أمير جيش المسلمين .

(٢) انظر لتسميته بهذا اللقب : صحيح البخارى : مناقب أبي عبيدة بن الجراح ١ / ٥٣٠ .

وأبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي ، وامراته أم سلمة ، والأرقم بن أبي الأرقم المخزومي ، وعثمان بن مظعون الجُمَحِيّ وأخواه قدامة وعبد الله ، وعبيدة بن الحارث ابن المطلب بن عبد مناف، وسعيد بن زيد العدوي، وامراته فاطمة بنت الخطاب العدوية أخت عمر بن الخطاب ، وخباب بن الأرت التميمي، وجعفر بن أبي طالب ، وامراته أسماء بنت عميس، وخالد بن سعيد بن العاص الأموي، وامراته أمينة بنت خلف، ثم أخوه عمرو بن سعيد بن العاص ، وحاطب بن الحارث الجمحي، وامراته فاطمة بنت المُجَلَّل وأخوه الخطاب بن الحارث، وامراته فُكَيْهَة بنت يسار، وأخوه معمر بن الحارث ، والمطلب بن أزهري ، وامراته رملة بنت أبي عوف، ونعيم بن عبد الله بن النحام العدوي ، وهؤلاء كلهم قرشيون من بطون وأفخاذ شتى من قريش .

ومن السابقين الأولين إلى الإسلام من غير قريش: عبد الله بن مسعود الهذلي ، ومسعود بن ربيعة القاري ، وعبد الله بن جحش الأسدي وأخوه أبو أحمد بن جحش، وبلال ابن رباح الحبشي، صُهَيْب بن سنان الرومي ،وعمار بن ياسر العنسي ، وأبوه ياسر ، وأمه سمية ، وعامر بن فُهَيْرَة .

ومن سبق إلى الإسلام من النساء غير من تقدم ذكرهن : أم أيمن بركة الحبشية ، وأم الفضل لبابة الكبرى بنت الحارث الهلالية زوج العباس بن عبد المطلب ، وأسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه (١) .

هؤلاء معروفون بالسابقين الأولين، ويظهر بعد التتبع والاستقراء أن عدد الموصوفين بالسبق إلى الإسلام وصل إلى مائة وثلاثين رجلاً وامراً، ولكن لا يعرف بالضبط أنهم كلهم أسلموا قبل الجهر بالدعوة أو تأخر إسلام بعضهم إلى الجهر بها .

الصلاة :

ومن أوائل ما نزل من الأحكام الأمر بالصلاة ، قال ابن حجر : كان ﷺ قبل الإسراء يصلي قطعاً وكذلك أصحابه ، ولكن اختلف هل فرض شيء قبل الصلوات الخمس من الصلوات أم لا ؟ فقيل : إن الفرض كانت صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها . انتهى . وروى الحارث بن أبي أسامة من طريق ابن لهيعة موصولاً عن زيد ابن حارثة : أن رسول الله ﷺ في أول ما أوحى إليه أتاه جبريل ، فعلمه الوضوء ، فلما فرغ من الوضوء أخذ غرفة من ماء فنضح بها فرجه ، وقد رواه ابن ماجه بمعناه ، وروى نحوه عن البراء بن عازب وابن عباس، وفي حديث ابن عباس : وكان ذلك من أول الفريضة (٢) .

وقد ذكر ابن هشام أن النبي ﷺ وأصحابه كانوا إذا حضرت الصلاة ذهبوا في الشعاب فاستخفوا بصلاتهم من قومهم ، وقد رأى أبو طالب النبي ﷺ وعلياً يصليان مرة ، فكلهما في ذلك ، ولما عرف جليلة الأمر أمرهما بالثبات (٣) .

(١) انظر للتفصيل: سيرة ابن هشام ١ / ٢٤٥ - ٢٦٢، وفي تسمية بعض من سمي فيه نظر .

(٢) مختصر السيرة للشيخ عبد الله النجدي ص ٨٨ .

(٣) ابن هشام ١ / ٢٤٧، والخبر أيضاً في مسند أبي داود الطيالسي ص ٢٦ .

تلك هى العبادة التى أمر بها المؤمنون ، ولا تعرف لهم عبادات وأوامر ونواه أخرى غير ما يتعلق بالصلاة ، وإنما كان الوحي يبين لهم جوانب شتى من التوحيد ، ويرغبهم فى تزكية النفوس ، ويحثهم على مكارم الأخلاق ، ويصف لهم الجنة والنار كأنهما رأى عين ، ويعظهم بمواعظ بليغة تشرح الصدور وتغذى الأرواح ، وتحذو بهم إلى جو آخر غير الذى كان فيه المجتمع البشرى آنذاك .

وهكذا مرت ثلاثة أعوام ، والدعوة لم تنل مقصورة على الأفراد ، ولم يجهر بها النبى ﷺ فى المساجد والكنائس ، إلا أنها عرفت لدى قريش ، وفشا ذكر الإسلام بمكة ، وتحدث به الناس ، وقد تنكر له بعضهم أحياناً ، واعتدوا على بعض المؤمنين ، إلا أنهم لم يهتموا به كثيراً حيث لم يتعرض رسول الله ﷺ لدينهم ، ولم يتكلم فى آلهتهم .

المرحلة الثانية الدعوة جهاراً

أول أمر بإظهار الدعوة :

لما تكونت جماعة من المؤمنين تقوم على الأخوة والتعاون ، وتحمل عبء تبليغ الرسالة وتمكينها من مقامها نزل الوحي يكلف رسول الله ﷺ بمعالجة الدعوة ، ومجابهة الباطل بالحسنى .

وأول ما نزل بهذا الصدد قوله تعالى : ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء] ، وقد ورد في سياق ذكرت فيه أولاً قصة موسى ﷺ ، من بداية نبوته إلى هجرته مع بنى إسرائيل ، وقصة نجاتهم من فرعون وقومه ، وإغراق آل فرعون معه ، وقد اشتملت هذه القصة على جميع المراحل التي مر بها موسى ﷺ ، خلال دعوة فرعون وقومه إلى الله . وكان هذا التفصيل جىء به مع أمر الرسول ﷺ بجهر الدعوة إلى الله ؛ ليكون أمامه وأمام أصحابه مثال لما سيلقونه من التكذيب والاضطهاد حينما يجهرون بالدعوة ، وليكونوا على بصيرة من أمرهم منذ البداية .

ومن ناحية أخرى تشتمل هذه السورة على ذكر مآل المكذبين للرسول ، من قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم إبراهيم ، وقوم لوط ، وأصحاب الأيكة - عدا ما ذكر من أمر فرعون وقومه - ليعلم الذين سيقومون بالتكذيب عاقبة أمرهم وما سيلقونه من مؤاخذه الله إن استمروا عليه ، وليعرف المؤمنون أن حسن العاقبة لهم وليس للمكذبين .

الدعوة فى الأقربين :

ودعا رسول الله ﷺ عشيرته بنى هاشم بعد نزول هذه الآية ، فجاءوا ومعهم نفر من بنى المطلب بن عبد مناف ، فكانوا نحو خمسة وأربعين رجلاً . فلما أراد أن يتكلم رسول الله ﷺ بأمره أبو لهب وقال : هؤلاء عمومتك وبنو عمك فتكلم ، ودع الصباة ، واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة ، وأنا أحق من أخذك ، فحسبك بنو أبيك ، وإن أقمت على ما أنت عليه فهو أسير عليهم من أن يثب بك بطون قريش ، وتغدهم العرب ، فما رأيت أحداً جاء على بنى أبيه بشر مما جئت به ، فسكت رسول الله ﷺ ، ولم يتكلم فى ذلك المجلس .

ثم دعاهم ثانية وقال : « الحمد لله ، أحمده وأستعينه ، وأومن به ، وأتوكل عليه . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له » . ثم قال : « إن الرائد لا يكذب أهله ، والله الذى لا إله إلا هو ، إني رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، وإنها الجنة أبداً أو النار أبداً » .

فقال أبو طالب : ما أحب إلينا معاونتك ، وأقبلنا لنصيحتك ، وأشد تصديقاً لحديثك .

وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون ، وإنما أنا أحدهم ، غير أنني أسرعهم إلى ما تحب ، فامض لما أمرت به . فوالله ، لا أزال أحوطك وأمنعك ، غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبد المطلب .

فقال أبو لهب : هذه والله السوأة ، خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم ، فقال أبو طالب : والله لنمنعه ما بقينا (١) .

على جبل الصفا :

وبعد تأكد النبي ﷺ من تعهد أبي طالب بحمايته وهو يبلغ عن ربه ، صعد النبي ﷺ ذات يوم على الصفا ، فعلا أعلاها حجراً ، ثم هتف : « يا صباحاه » . وكانت كلمة إنذار تخبر عن هجوم جيش أو وقوع أمر عظيم .

ثم جعل ينادى بطون قريش ، ويدعوهم قبائل قبائل : « يا بني فهر ، يا بني عدي ، يا بني فلان ، يا بني فلان ، يا بني عبد مناف ، يا بني عبد المطلب » .

فلما سمعوا قالوا : من هذا الذي يهتف ؟ قالوا : محمد . فأسرع الناس إليه ، حتى إن الرجل إذا لم يستطع أن يخرج إليه أرسل رسولا لينظر ما هو ، فجاء أبو لهب وقريش .

فلما اجتمعوا قال : « رأيتم لو أخبرتم أن خيلاً بالوادي بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مُصدّقين ؟ » .

قالوا : نعم ، ما جربنا عليك كذباً ، ما جربنا عليك إلا صدقاً .

قال : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، وإنما مثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العدو فانطلق يربأ أهله » (أي يتطلع وينظر لهم من مكان مرتفع لئلا يدهمهم العدو) « فخشي أن يسبقوه فجعل ينادى : يا صباحاه » .

ثم دعاهم إلى الحق ، وأنذرهم من عذاب الله ، فخص وعم فقال :

« يا معشر قريش ، اشتروا أنفسكم من الله ، أنقذوا أنفسكم من النار ، فإني لا أملك لكم من الله ضرراً ولا نفعاً ، ولا أغني عنكم من الله شيئاً .

يا بني كعب بن لؤي ، أنقذوا أنفسكم من النار ، فإني لا أملك لكم ضرراً ولا نفعاً .

يا بني مرة بن كعب ، أنقذوا أنفسكم من النار .

يا معشر بني قصي ، أنقذوا أنفسكم من النار ، فإني لا أملك لكم ضرراً ولا نفعاً .

يا معشر بني عبد مناف ، أنقذوا أنفسكم من النار ، فإني لا أملك لكم من الله ضرراً ولا نفعاً ، ولا أغني عنكم من الله شيئاً .

يا بني عبد شمس ، أنقذوا أنفسكم من النار .

يا بني هاشم ، أنقذوا أنفسكم من النار .

يا معشر بنى عبد المطلب ، أنقذوا أنفسكم من النار ، فإنى لا أملك لكم ضرراً ولا نفعاً ،
ولا أغنى عنكم من الله شيئاً ، سلونى من مالى ما شئتم ، لا أملك لكم من الله شيئاً .
يا عباس بن عبد المطلب ، لا أغنى عنك من الله شيئاً .

يا صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ، لا أغنى عنك من الله شيئاً .
يا فاطمة بنت محمد رسول الله ، سلينى ما شئت من مالى ، أنقذى نفسك من النار ،
فإنى لا أملك لك ضرراً ولا نفعاً ، ولا أغنى عنك من الله شيئاً .

غير أن لكم رحماً سألُّها بِلآلِها» أى سألُّها حسب حقها .
ولما تم هذا الإنذار انفض الناس وتفرقوا ، ولا يذكر عنهم أى ردة فعل ، سوى أن أباً
لهب واجه النبى ﷺ بالسوء ، وقال : تبا لك سائر اليوم ، ألهذا جمعتنا ؟ فنزلت : ﴿ تَبَّتْ
يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [سورة المسد] (١) .

كانت هذه الصيحة العالية هى غاية البلاغ ، فقد أوضح الرسول ﷺ لأقرب الناس إليه
أن التصديق بهذه الرسالة هو حياة الصلوات بينه وبينهم ، وأن عصبة القراية التى يقوم عليها
العرب ذابت فى حرارة هذا الإنذار الآتى من عند الله .

ولم يزل هذا الصوت يرتج دويه فى أرجاء مكة حتى نزل قوله تعالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا
تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر] ، فقام رسول الله ﷺ يجهر بالدعوة إلى الإسلام
فى مجامع المشركين ونواديهم ، يتلو عليهم كتاب الله ، ويقول لهم ما قالته الرسل لأقوامهم :
﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : ٥٩] ، وبدء يعبد الله تعالى أمام أعينهم ،
فكان يصلى بفناء الكعبة نهاراً جهاراً وعلى رءوس الأشهاد .

وقد نالت دعوته مزيداً من القبول ، ودخل الناس فى دين الله واحداً بعد واحد .
وحصل بينهم وبين من لم يسلم من أهل بيته تباغض وتباعد وعناد واشمأزت قريش من كل
ذلك ، وساءهم ما كانوا يبصرون .

المجلس الاستشارى لكف الحجاج عن استماع الدعوة :

وخلال هذه الأيام أهم قريشاً أمر آخر ، وذلك أن الجهر بالدعوة لم يمض عليه إلا أيام أو
أشهر معدودة حتى قرب موسم الحج ، وعرفت قريش أن وفود العرب ستقدم عليهم ، فأت
أنه لا بد من كلمة يقولونها للعرب ، فى شأن محمد ﷺ حتى لا يكون لدعوته أثر فى نفوس
العرب ، فاجتمعوا إلى الوليد بن المغيرة يتداولون فى تلك الكلمة ، فقال لهم الوليد : أجمعوا
فيه رأياً واحداً ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ، ويرد قولكم بعضه بعضاً ، قالوا :
فأنت فقل ، وأقم لنا رأياً نقول به . قال : بل أنتم فقولوا أسمع . قالوا : نقول : كاهن .
قال : لا والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان فما هو بزَمَزَمَةَ الكاهن ولا سجع . قالوا :

(١) صحيح البخارى ج (٢٧٥٣ ، ٣٥٢٧ - ٤٧٧١) (الفتح ٥ / ٤٤٩ ، ٦ / ٦٣٧ ، ٨ /
٣٦٠) صحيح مسلم ١ / ١١٤ ، وجامع الترمذى : تفسير سورة الشعراء ٣١٦/٥ ، ٣١٧ ح (٣١٨٤ -
٣١٨٦) وغيرهم ، وقد جمعت حروفهم وألفتها تأليفاً سلسلاً .

فَنَقُولُ : مَجْنُونٌ ، قَالَ : مَا هُوَ بِمَجْنُونٍ ، لَقَدْ رَأَيْنَا الْجَنُونَ وَعَرَفْنَاهُ ، مَا هُوَ بِخَنَّاهُ وَلَا تَخَالُجَهُ وَلَا وَسْوَستَهُ . قَالُوا : فَنَقُولُ : شَاعِرٌ . قَالَ : مَا هُوَ بِشَاعِرٍ ، لَقَدْ عَرَفْنَا الشَّعْرَ كُلَّهُ رَجَزَهُ وَهَزَجَهُ وَقَرِيضَهُ وَمَقْبُوضَهُ وَمَبْسُوطَهُ ، فَمَا هُوَ بِالشَّعْرِ ، قَالُوا : فَنَقُولُ : سَاحِرٌ . قَالَ : مَا هُوَ بِسَاحِرٍ ، لَقَدْ رَأَيْنَا السَّحَارَ وَسَحَرَهُمْ ، فَمَا هُوَ بِتَفْنِهِمْ وَلَا عَقْدِهِمْ . قَالُوا : فَمَا نَقُولُ ؟ قَالَ : وَاللَّهِ إِنْ لَقَوْلُهُ لِحَلَاوَةٍ ، [وَإِنْ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةٌ] وَإِنْ أَصْلُهُ لَعَذَقٌ ، وَإِنْ فَرَعُهُ لَجَنَّةٌ ، وَمَا أَنْتُمْ بِقَائِلِينَ مِنْ هَذَا شَيْئاً إِلَّا عَرَفَ أَنَّهُ بَاطِلٌ ، وَإِنْ أَقْرَبَ الْقَوْلُ فِيهِ لِأَنْ تَقُولُوا : سَاحِرٌ . جَاءَ بِقَوْلِهِ هُوَ سَاحِرٌ ، يَفْرُقُ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَأَبِيهِ ، وَبَيْنَ الْمَرْءِ وَأَخِيهِ ، وَبَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجَتِهِ ، وَبَيْنَ الْمَرْءِ وَعَشِيرَتِهِ ، فَتَفَرَّقُوا عَنْهُ بِذَلِكَ (١) .

وتفيد بعض الروايات أن الوليد لما رد عليهم كل ما عرضوا له ، قالوا : أَرَأَيْتَ أَرَأَيْتَ الَّذِي لَا غَضَاضَةَ فِيهِ ، فَقَالَ لَهُمْ : أَهْمَلُونِي حَتَّى أَفَكِّرَ فِي ذَلِكَ ، فَظَلَّ الْوَلِيدُ يَفْكِرُ وَيَفْكِرُ حَتَّى أَبْدَى لَهُمْ رَأْيَهُ الَّذِي ذَكَرْنَا .

وفى الوليد أنزل الله تعالى ست عشرة آية من سورة المدثر (من ١١ إلى ٢٦) وفى خلالها صور كيفية تفكيره ، فقال : ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) ﴾ [المدثر] .

وبعد أن اتفق المجلس على هذا القرار أخذوا فى تنفيذه ، فجلسوا بسبل الناس حين قدموا للموسم ، لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا لهم أمره (٢) .

أما رسول الله ﷺ فخرج يتبع الناس فى منازلهم وفى عكاظ ومَجَنَّةَ وذى المجاز ، يدعوهم إلى الله ، وأبو لهب وراءه يقول : لَا تَطِيعُوهُ فَإِنَّهُ صَابِيئُ كَذَابٍ (٣) .

وأدى ذلك إلى أن صدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله ﷺ وانتشر ذكره فى بلاد العرب كلها .

أساليب شتى لمجابهة الدعوة :

ولما فرغت قريش من الحج فكرت فى أساليب تقضى بها على هذه الدعوة فى مهدها . وتتلخص هذه الأساليب فيما يلى :

١ - السخرية والتحقير ، والاستهزاء والتكذيب والتضحيك :

قصودوا بها تخذيل المسلمين ، وتوهين قواهم المعنوية ، فرموا النبي ﷺ بتهم هازلة ، وشتائم سفیهة ، فكانوا ينادونه بالمجنون ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) ﴾ [الحجر] ، ويصمونهم بالسحر والكذب ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ

(١) ابن هشام ١ / ٢٧١ ، وأخرجه أيضاً البيهقي وأبو نعيم فى الدلائل وغيرهما .

(٢) ابن هشام ١ / ٢٧١ .

(٣) روى فعله هذا الإمام أحمد فى مسنده ٣ / ٤٩٢ ، ٤ / ٣٤١ ، وانظر أيضاً : البداية والنهاية ٥ /

٧٥ ، وكنز العمال ١٢ / ٤٤٩ ، ٤٥٠ .

كَذَّابٌ ﴿٤﴾ [ص] ، وكانوا يشيعونه ويستقبلونه بنظرات ملتزمة ناقمة ، وعواطف منفعة هائجة ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ ﴿٥﴾ [القلم] ، وكان إذا جلس وحوله المستضعفون من أصحابه استهزأوا بهم وقالوا: هؤلاء جلساؤه ﴿ مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ [الانعام : ٥٣] ، قال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ ﴿٥٣﴾ [الانعام] ، وكانوا كما قص الله علينا ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴾ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ [المطففين] .

وقد أكثروا من السخرية والاستهزاء وزادوا من الطعن والتضحيك شيئاً فشيئاً حتى أثر ذلك في نفس رسول الله ﷺ ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ ﴿٩٧﴾ [الحجر] ، ثم ثبتته الله وأمره بما يذهب بهذا الضيق فقال : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ [الحجر] ، وقد أخبره من قبل أنه يكفيه هؤلاء المستهزئين حيث قال : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ [الحجر] ، وأخبره أن فعلهم هذا سوف ينقلب وبالاً عليهم فقال : ﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَى بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ ﴿١٠﴾ [الانعام] .

٢- إثارة الشبهات وتكثيف الدعايات الكاذبة :

وقد أكثروا من ذلك وتفتنوا فيه بحيث لا يبقى لعامة الناس مجال للتدبر في دعوته والتفكير فيها ، فكانوا يقولون عن القرآن : ﴿ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ﴾ [الانبياء : ٥] يراها محمد بالليل وتبيلوها بالنهار ، ويقولون : ﴿ بَلْ افْتَرَاهُ ﴾ من عند نفسه ويقولون : ﴿ إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ ﴾ وقالوا : ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا فُلْكَ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ﴾ [الفرقان : ٤] أى اشترك هو وزملاؤه في اختلاقه . ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ ﴿٥﴾ [الفرقان] .

وأحياناً قالوا: إن له جنأً أو شيطناً يتنزل عليه كما ينزل الجن والشياطين على الكهان . قال تعالى ردأ عليهم : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَا تَنْزُلُ الشَّيَاطِينُ ﴾ ﴿٢٢١﴾ تَنْزُلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيمٌ ﴿٢٢٢﴾ [الشعراء] ، أى إنها تنزل على الكذاب الفاجر المتلطف بالذنوب ، وما جربتم على كذباً ، وما وجدتم فى فسقاً ، فكيف تجمعلون القرآن من تنزيل الشيطان؟

وأحياناً قالوا عن النبي ﷺ : إنه مصاب بنوع من الجنون ، فهو يتخيل المعانى ، ثم يصوغها فى كلمات بديعة رائعة كما يصوغ الشعراء ، فهو شاعر وكلامه شعر . قال تعالى ردأ عليهم : ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ [الشعراء] فهذه ثلاث خصائص يتصف بها الشعراء ليست واحدة منها فى النبي ﷺ ، فالذين اتبعوه هداة مهتدون ، متقون صالحون فى دينهم وخلقهم وأعمالهم وتصرفاتهم ، وليست عليهم مسحة من الغواية فى أى شأن من شئونهم ، ثم النبي ﷺ لا يهيم فى كل واد كما يهيم الشعراء ، بل هو يدعو إلى رب واحد ، ودين واحد ، وصراط واحد ، وهو لا يقول إلا ما يفعل ، ولا يفعل إلا ما يقول ، فأين هو من الشعر والشعراء ؟ وأين الشعر والشعراء منه .

هكذا كان يرد عليهم بجواب مقنع حول كل شبهة كانوا يثيرونها ضد النبي ﷺ والقرآن والإسلام .

ومعظم شبهاتهم كانت تدور حول التوحيد ، ثم رسالة محمد ﷺ ، ثم بعث الأموات ونشرهم وحشرهم يوم القيامة ، وقد رد القرآن على كل شبهة من شبهاتهم حول التوحيد ، بل زاد عليها زيادات أوضح بها هذه القضية من كل ناحية ، وبين عجز آلهتهم عجزاً لا مزيد عليه ، ولعل هذا كان مثار غضبهم واستنكارهم الذي أدى إلى ما أدى إليه .

أما شبهاتهم في رسالة النبي ﷺ فإنهم مع اعترافهم بصدق النبي ﷺ وأمانته وغاية صلاحه وتقواه ، كانوا يعتقدون أن منصب النبوة والرسالة أجل وأعظم من أن يعطى لبشر ، فالبشر لا يكون رسولاً ، والرسول لا يكون بشراً حسب عقيدتهم . فلما أعلن رسول الله ﷺ عن نبوته ، ودعا إلى الإيمان به تحيروا وقالوا : ﴿ مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان : ٧] ، وقالوا : إن محمداً ﷺ بشر ، و ﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ بَشَرًا مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : ٩١] ، فقال تعالى رداً عليهم : ﴿ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ ﴾ ، وكانوا يعرفون ويعترفون بأن موسى بشر . ورد عليهم أيضاً بأن كل قوم قالوا لرسولهم إنكاراً على رسالتهم : ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ [إبراهيم : ١٠] ، ف ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [إبراهيم : ١١] . فالأنبياء والرسول لا يكونون إلا بشراً ، ولا منافاة بين البشرية والرسالة .

وحيث إنهم كانوا يعترفون بأن إبراهيم وإسماعيل وموسى - عليهم السلام - كانوا رسلاً وكانوا بشراً ، فإنهم لم يجدوا مجالاً للإصرار على شبهتهم هذه ، فقالوا : ألم يجد الله لحمل رسالته إلا هذا اليتيم المسكين ، ما كان الله ليترك كبار أهل مكة والطائف ويتخذ هذا المسكين رسلاً ؟ ﴿ لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : ٢١] ، قال تعالى رداً عليهم : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ [الزخرف : ٢٢] ، يعنى أن الوحي والرسالة رحمة من الله و﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] .

وانتقلوا بعد ذلك إلى شبهة أخرى ، قالوا : إن رسل ملوك الدنيا يمشون في موكب من الخدم والحشم ، ويتمتعون بالأبهة والجلال ، ويوفر لهم كل أسباب الحياة ، فما بال محمد يدفع في الأسواق للقمعة عيش وهو يدعى أنه رسول الله ؟ ﴿ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ (٧) أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تبوءوا إلا رجلاً مسحوراً (٨) ﴿ [الفرقان :] ورد على شبهتهم هذه بأن محمداً رسول ، يعنى أن مهمته هو إبلاغ رسالة الله إلى كل صغير وكبير ، وضعيف وقوى ، وشريف ووضيع ، وحر وعبد ، فلو لبث في الأبهة والجلال والخدم والحشم والحرس والمواكيب مثل رسل الملوك ، لم يكن يصل إليه ضعفاء الناس وصغارهم حتى يستفيدوا به ، وهم جمهور البشر ، وإذن فانت مصلحة الرسالة ، ولم تعد لها فائدة تذكر .

أما إنكارهم البعث بعد الموت فلم يكن عندهم في ذلك إلا التعجب والاستغراب والاستبعاد العقلي ، فكانوا يقولون : ﴿ أَئِنَّا مَتَاءٌ وَكُنَّا تَرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ (٩) أو أَبَاؤُنَا

الأولون (١٧) ﴿ [الصفات] ، وكانوا يقولون : ﴿ ذَلِكَ رَجَعٌ بَعِيدٌ ﴾ [ق] ، وكانوا يقولون على سبيل الاستغراب : ﴿ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُرِّقْتُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (٧) أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ [سبأ] .

وقال قائلهم :

أَمُوتْ ثُمَّ بَعَثْ ثُمَّ حَشَرْ حَدِيثُ خُرَافَةٍ يَا أَمَّ عَمْرُو

وقد رد عليهم بتبصيرهم ما يجرى فى الدنيا، فالظالم يموت دون أن يلقى جزاء ظلمه ، والمظلوم يموت دون أن يأخذ حقه من ظالمه ، والمحسن الصالح يموت قبل أن يلقى جزاء إحسانه وصلاحه ، والفاجر المسىء يموت قبل أن يعاقب على سوء عمله ، فإن لم يكن بعث ولا حياة ولا جزاء بعد الموت لاستوى الفريقان ، بل لكان الظالم والفاجر أسعد من المظلوم والصالح ، وهذا غير معقول إطلاقاً . ولا يتصور من الله أن يبنى نظام خلقه على مثل هذا الفساد. قال تعالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ (٣٦) [القلم] ، وقال : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ (٢٨) [ص] ، وقال : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمُ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (٢١) [الجاثية] .

وأما الاستبعاد العقلي فقال تعالى رداً عليه : ﴿ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ ﴾ [النازعات] : ٢٧ ، وقال : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢٣) [الاحقاف] ، وقال : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٦٢) [الواقعة] ، وبين ما هو معروف عقلاً وعرفاً ، وهو أن الإعادة ﴿ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : ٢٧] ، وقال : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴾ [الانبياء : ١٠٤] ، وقال : ﴿ أَفَعَيَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ﴾ [ق : ١٥] .

وهكذا رد على كل ما أثاروا من الشبهات رداً مفحماً يقنع كل ذى عقل ولب ، ولكنهم كانوا مشاغبين مستكبرين يريدون علواً فى الأرض وفرض رأيهم على الخلق، فبقوا فى طغيانهم يعمهون .

٣ - الحيلولة بين الناس وبين سماعهم القرآن ، ومعارضته بأساطير الأولين :

كان المشركون بجنب إثارة هذه الشبهات يحولون بين الناس وبين سماعهم القرآن ودعوة الإسلام بكل طريق يمكن، فكانوا يطرّدون الناس ويشيرون الشعب والضوضاء ويتغنون ويلعبون، إذا رأوا أن النبي ﷺ يتهياً للدعوة ، أو إذا رأوه يصلى ويتلو القرآن. قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢٦) [فصلت] حتى إن النبي ﷺ لم يتمكن من تلاوة القرآن عليهم فى مجامعهم ونواديهم إلا فى أواخر السنة الخامسة من النبوة ، وذلك أيضاً عن طريق المفاجأة ، دون أن يشعروا بقصدته قبل بداية التلاوة .

وكان النضر بن الحارث ، أحد شياطين قريش قد قدم الحيرة ، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس، وأحاديث رستم واسفنديار، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلساً للتذكير بالله

والتحذير من نقمته خلفه النضر ويقول: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار ، ثم يقول : بماذا محمد أحسن حديثاً مني (١) .

وفى رواية عن ابن عباس أن النضر كان قد اشترى قَيْنَةً ، فكان لا يسمع بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قبيته ، فيقول: أطعميه واسقيه وغنيه ، هذا خير مما يدعوك إليه محمد ، وفيه نزل قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [لقمان : ٦] (٢) .

الاضطهادات :

أعمل المشركون الأساليب التي ذكرناها شيئاً فشيئاً لإحباط الدعوة بعد ظهورها في بداية السنة الرابعة من النبوة ، ومضت على ذلك أسابيع وشهور وهم مقتصرون على هذه الأساليب لا يتجاوزونها إلى طريق الاضطهاد والتعذيب ، ولكنهم لما رأوا أن هذه الأساليب لم تجد نفعاً في إحباط الدعوة الإسلامية استشاروا فيما بينهم ، فقرروا القيام بتعذيب المسلمين وفتنتهم عن دينهم ، فأخذ كل رئيس يعذب من دان من قبيلته بالإسلام ، وانقض كل سيد على من اختار من عبيده طريق الإيمان .

وكان من الطبيعي أن يهرول الأذناب والأوباش خلف ساداتهم وكبرائهم ، ويتحركوا حسب مرضاتهم وأهوائهم ، فجروا على المسلمين - ولاسيما الضعفاء منهم - ويلات تقشعر منها الجلود ، وأخذوهم بنقمات تنفطر لسماعها القلوب .

كان أبو جهل إذا سمع برجل قد أسلم له شرف ومنعة أنه وأخزاه ، وأوعده بإبلاغ الخسارة الفادحة في المال ، والجاه ، وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به (٣) .

وكان عم عثمان بن عفان يلفه في حصير من ورق النخيل ثم يدخنه من تحته (٤) .

ولما علمت أم مصعب بن عمير بإسلامه منعه الطعام والشراب ، وأخرجته من بيته ، وكان من أنعم الناس عيشاً ، فَتَخَشَّفَ جلده تخشف الحية (٥) .

وكان صهيب بن سنان الرومي يُعَذَّب حتى يفقد وعيه ولا يدرى ما يقول (٦) .

وكان بلال مولى أمية بن خلف الجمحي ، فكان أمية يضع في عنقه حبلاً ، ثم يسلمه إلى الصبيان ، يطوفون به في جبال مكة ، ويجرونه حتى كان الحبل يؤثر في عنقه ، وهو يقول: أَحَدٌ أَحَدٌ ، وكان أمية يشده شداً ثم يضربه بالعصا ، و يلجئه إلى الجلوس في حر الشمس ، كما كان يكرهه على الجوع . وأشد من ذلك كله أنه كان يخرجهم إذا حميت الظهيرة، فيطرحه على ظهره في الرمضاء في بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع

(١) ملخصاً من ابن هشام ١ / ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٥٨ .

(٢) الدر المنثور : تفسير سورة لقمان (٥ / ٣٠٧) .

(٣) ابن هشام ١ / ٣٢٠ . (٤) رحمة للعالمين ١ / ٥٧ .

(٥) أسد الغابة ٤ / ٤٠٦ ، وتلقيح فهوم أهل الأثر ص ٦٠ .

(٦) الإصابة ٣ ، ٤ / ٢٥٥ ، وابن سعد ٣ / ٢٤٨ .

على صدره ، ثم يقول : لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللات والعزى ، فيقول وهو فى ذلك : أحد، أحد، ويقول : لو أعلم كلمة هى أغيب لكم منها لقلتها . ومر به أبو بكر يوماً وهم يصنعون ذلك به فاشتره بـ غلام أسود ، وقيل : بسبع أواق أو بخمس من الفضة ، وأعتقه (١) .

وكان عمار بن ياسر رضي الله عنه مولى لبنى مخزوم ، أسلم هو وأبوه وأمه ، فكان المشركون - وعلى رأسهم أبو جهل - يخرجونهم إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء فيعذبونهم بحرهما . ومر بهم النبي صلى الله عليه وسلم وهم يعذبون فقال : «صبراً آل ياسر ، فإن موعدكم الجنة» ، فمات ياسر فى العذاب ، وطعن أبو جهل سمية - أم عمار - فى قلبها بحربة فماتت ، وهى أول شهيدة فى الإسلام ، وهى سمية بنت خياط مولاة أبى حذيفة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وكانت عجوزاً كبيرة ضعيفة . وشددوا العذاب على عمار بالحر تارة ، وبوضع الصخر الأحمر على صدره أخرى ، وبغظه فى الماء حتى كان يفقد وعيه . وقالوا له : لا تترك حتى تسب محمداً ، أو تقول فى اللات والعزى خيراً ، فوافقهم على ذلك مكرهاً ، وجاء باكباً معتذراً إلى النبي صلى الله عليه وسلم . فأنزل الله : ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ الآية [النحل : ١٠٦] (٢) .

وكان أبو فُكَيْهَةَ - واسمة أفلح - مولى لبنى عبد الدار ، وكان من الأزد . فكانوا يخرجونه فى نصف النهار فى حر شديد ، وفى رجله قيد من حديد ، فيجردونه من الثياب ، ويبطحونه فى الرمضاء ، ثم يضعون على ظهره صخرة حتى لا يتحرك ، فكان يبقى كذلك حتى لا يعقل ، فلم يزل يعذب كذلك حتى هاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية ، وكانوا مرة قد ربطوا رجله بحبل ، ثم جروه وألقوه فى الرمضاء وخنقوه حتى ظنوا أنه قد مات ، فمر به أبو بكر فاشتره وأعتقه لله (٣) .

وكان خباب بن الارت مولى لأم أثمار بنت سباع الخزاعية ، وكان حداداً ، فلما أسلم عذبه مولاته بالنار ، كانت تأتى بالحديدة المحماة فتجعلها على ظهره أو رأسه ، ليكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن يزيده ذلك إلا إيماناً وتسليماً ، وكان المشركون أيضاً يعذبونه فيلوون عنقه ، ويجذبون شعره ، وقد ألقوه على النار ، ثم سحبوه عليها ، فما أطفأها إلا ودك ظهره (٤) .

وكانت زَيْنَةُ أُمِّ رومية قد أسلمت فعذبت فى الله ، وأصيبت فى بصرها حتى عميت ، فقليل لها : أصابك اللات والعزى ، فقالت : لا والله ما أصابتنى ، وهذا من الله ، وإن شاء كشفه ، فأصبحت من الغد وقد رد الله بصرها ، فقالت قريش : هذا بعض سحر محمد (٥) .

(١) ابن هشام ١ / ٣١٧ ، ٣١٨ ، وتلقيح فهوم أهل الاثر ص ٦١ ، وتفسير ابن كثير : سورة النحل الآية : ١٠٦ (٢ / ٦٤٨) .

(٢) ابن هشام ١ / ١٣٩ ، ٣٢٠ ، وطبقات ابن سعد ٣ / ٢٤٨ ، ٢٤٩ ... ورى الجزء الأخير العوفى عن ابن عباس ، تفسير ابن كثير (المذكور) . ولينظر الدر المنثور تفسير الآية : ١٠٦ ، سورة النحل .

(٣) أسد الغابة ٥ / ٢٤٨ ، والإصابة ٧ ، ٨ / ١٥٢ وغيرهما .

(٤) أسد الغابة ١ / ٥٩١ ، ٥٩٢ ، وتلقيح الفهوم ص ٦٠ وغيرهما .

(٥) طبقات ابن سعد ٨ / ٢٥٦ ، وابن هشام ١ / ٣١٨ .

واسلمت أم عبيس ، جارية لبنى زهرة ، فكان يعذبها المشركون ، وبخاصة مولاها الأسود بن عبد يغوث ، وكان من أشد أعداء رسول الله ﷺ ، ومن المستهزئين به (١) .

واسلمت جارية عمر بن مؤمل من بنى عدى ، فكان عمر بن الخطاب يعذبها - وهو يومئذ على الشرك - فكان يضربها حتى يفتّر، ثم يدعها ويقول : والله ما أدعك إلا سامة ، فتقول : كذلك يفعل بك ربك (٢) .

ومن أسلمن وعذبن من الجوارى : النهديّة وابنتها ، وكانتا لامرأة من بنى عبد الدار (٣) .

ومن عذب من العبيد : عامر بن فهيرة ، كان يعذب حتى يفقد وعيه ولا يدرى ما يقول (٤) .

واشترى أبو بكر ﷺ هؤلاء الإماء والعبيد ﷺ وعنه أجمعين ، فأعتقهم جميعاً . وقد عاتبه فى ذلك أبوه أبو قحافة وقال : أراك تعتق رقاباً ضعافاً ، فلو أعتقت رجالاً جلدأً لمنعوك . قال : إني أريد وجه الله . فأنزل الله قرآناً مدح فيه أبا بكر، وذم أعداءه . قال تعالى : ﴿ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (٤٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (٤٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٤٦) ﴾ [الليل] وهو أمية بن خلف ، ومن كان على شاكلته ﴿ وَسَيَجْزِيهَا الْأُنْفَى (٤٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (٤٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (٤٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٥٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى (٥١) ﴾ [الليل] وهو أبو بكر الصديق ﷺ . (٥)

وأودى أبو بكر الصديق ﷺ أيضاً . فقد أخذه نوفل بن خويلد العدوى ، وأخذ معه طلحة بن عبيد الله فشدهما فى حبل واحد ، ليمنعهما عن الصلاة وعن الدين فلم يجيباه ، فلم يروعا إلا وهما مطلقان يصليان ؛ ولذلك سميا بالقرنين ، وقيل : إنما فعل ذلك عثمان ابن عبيد الله أخو طلحة بن عبيد الله ﷺ (٦) .

والحاصل أنهم لم يعلموا بأحد دخل فى الإسلام إلا وتصدوا له بالأذى والنكال ، وكان ذلك سهلاً ميسوراً بالنسبة لضعفاء المسلمين ، ولا سيما العبيد والإماء منهم ، فلم يكن من يغضب لهم ويحميهم ، بل كانت السادة والرؤساء هم أنفسهم يقومون بالتعذيب ويفرون الأوباش ، ولكن بالنسبة لمن أسلم من الكبار والأشراف كان ذلك صعباً جداً ؛ إذ كانوا فى عز ومنعة من قومهم ، ولذلك قلما كان يجترئ عليهم إلا أشراف قومهم ، مع شئ كبير من الخيطة والحذر .

موقف المشركين من رسول الله ﷺ :

وأما بالنسبة لرسول الله ﷺ فإنه ﷺ كان رجلاً شهماً وقوراً ذا شخصية فذة ، تتعاطفه نفوس الأعداء والأصدقاء بحيث لا يقابل مثله إلا بالإجلال والتشريف ، ولا يجترئ على

(١) الإصابة ٧ ، ٨ / ٢٥٨ .

(٢) ابن هشام ١ / ٣١٩ ، وطبقات ابن سعد ٨ / ٢٥٦ .

(٣) ابن هشام ١ / ٣١٨ ، ٣١٩ . (٤) ابن سعد ٣ / ٢٤٨ .

(٥) ابن هشام ١ / ٣١٨ ، ٣١٩ ، وطبقات ابن سعد ٨ / ٢٥٦ ، وكتب التفسير : الآية المذكورة .

(٦) أسد الغابة ٢ / ٤٦٨ .

اقتراف الدنيا والرزائل ضده إلا أراذل الناس وسفهاؤهم، ومع ذلك كان فى منعة أبى طالب ، وأبو طالب من رجال مكة المعدودين، كان معظماً فى أصله ، معظماً بين الناس ، فكان من الصعب أن يجسر أحد على إخفار ذمته واستباحة بيضته، إن هذا الوضع أقلق قريشاً وأقامهم وأقعدهم ، ودعاهم إلى تفكير سليم يخرجهم من المأزق دون أن يقعوا فى محذور لا يحمد عقباه ، وقد هداهم ذلك إلى أن يختاروا سبيل المفاوضات مع المسئول الأكبر : أبى طالب، ولكن مع شيء كبير من الحكمة والجدية ، ومع نوع من أسلوب التحدى والتهديد الخفى حتى يذعن لما يقولون .

وفد قريش إلى أبى طالب :

قال ابن إسحاق : مشى رجال من أشراف قريش إلى أبى طالب ، فقالوا : يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفّه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا ، وإما أن تخلى بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه ، فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً وردهم رداً جميلاً ، فانصرفوا عنه ، ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه ، يظهر دين الله ويدعو إليه (١) . ولكن لم تصبر قريش طويلاً حين رآته ﷺ ماضياً فى عمله ودعوته إلى الله ، بل أكثرت ذكره وتذامرت فيه، حتى قررت مراجعة أبى طالب بأسلوب أغلظ وأقسى من السابق .

قريش يهددون أبا طالب :

وجاءت سادات قريش إلى أبى طالب فقالوا له : يا أبا طالب، إن لك سنأ وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك فى ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين .

عَظُم على أبى طالب هذا الوعيد والتهديد الشديد ، فبعث إلى رسول الله ﷺ وقال له : يا ابن أخى ، إن قومك قد جاءونى فقالوا لى كذا وكذا ، فأبق على وعلى نفسك ، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق ، فظن رسول الله ﷺ أن عمه خاذله ، وأنه ضعف عن نصرته ، فقال : « يا عم ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر - حتى يظهره الله أو أهلك فيه - ما تركته » ، ثم استعبر وبكى ، وقام ، فلما ولى ناداه أبو طالب ، فلما أقبل قال له : اذهب يا بن أخى، فقل ما أحبيت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً (٢) وأنشد :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم
حتى أوسد فى التراب دفيناً
فاصدع بأمرك ما عليك غصاصة
وابشّر وقرّ بذاك منك عيوناً (٣)

وذلك فى أبيات .

(٢) ابن هشام ١ / ١٦٥ ، ١٦٦ .

(١) ابن هشام ١ / ٢٦٥ .

(٣) دلائل النبوة للبيهقى ٢ / ١٨٨ .

قريش بين يدي أبي طالب مرة أخرى :

ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ ماض في عمله عرفت أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله ﷺ ، وأنه مجمع لفراقهم وعداوتهم في ذلك ، فذهبوا إليه بعمارة ابن الوليد ابن المغيرة وقالوا له : يا أبا طالب، إن هذا الفتى أنهد فتى في قريش وأجمله، فخذ فلك عقله ونصره ، واتخذ جماعة قومك ، وسفه أحلامهم ، فنقتله ، فإنما هو رجل برجل ، فقال : والله أبائك، وفرق جماعة قومك ، وأعطيني ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم ابني تقتلونهم ؟ هذا والله ما لا يكون أبداً . فقال المطعم بن عدى بن نوفل ابن عبد مناف : والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك ، وجهدوا على التخلص مما تكره ، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً ، فقال : والله ما أنصفتموني ، ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم عليّ ، فاصنع ما بدا لك (١) .

ولما فشلت قريش في هذه المفاوضات ، ولم توفق في إقناع أبي طالب بمنع رسول الله ﷺ وكفه عن الدعوة إلى الله ، قررت أن يختار سبيلاً قد حاولت تجنبه والابتعاد منه مخافة مغبته وما يؤول إليه ، وهو سبيل الاعتداء على ذات الرسول ﷺ .
اعتداءات على رسول الله ﷺ :

واخترقت قريش ما كانت تتعاضمه وتحترمه منذ ظهرت الدعوة على الساحة ، فقد صعب على غطرستها وكبرائها أن تصبر طويلاً ، فمدت يد الاعتداء إلى رسول الله ﷺ ، مع ما كانت تأتيه من السخرية والاستهزاء والتشوية والتلبيس والتشويش وغير ذلك . وكان من الطبيعي أن يكون أبو لهب في مقدمتهم وعلى رأسهم ، فإنه كان أحد رؤوس بني هاشم ، فلم يكن يخشى ما يخشاه الآخرون ، وكان عدواً لدوداً للإسلام وأهله ، وقد وقف موقف العداء من رسول الله ﷺ منذ اليوم الأول ، واعتدى عليه قبل أن تفكر فيه قريش ، وقد أسلفنا ما فعل بالنبي ﷺ في مجلس بني هاشم ، وما فعل على الصفا .

وكان أبو لهب قد زوج ولديه عتبة وعتيبة ببتى رسول الله ﷺ رقية وأم كلثوم قبل البعثة ، فلما كانت البعثة أمرهما بتطليقهما بعنف وشدة حتى طلقاهما (٢) .

ولما مات عبد الله - الابن الثاني لرسول الله ﷺ - استبشر أبو لهب وذهب إلى المشركين يبشّره بأن محمداً صار أبتر (٣) .

وقد أسلفنا أن أبا لهب كان يجول خلف النبي ﷺ في موسم الحج والأسواق لتكذيبه ، وقد روى طارق بن عبد الله المحاربي ما يفيد أنه كان لا يقتصر على التكذيب بل كان يضربه بالحجر حتى يدمى عقباه (٤) .

(١) ابن هشام ١ / ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

(٢) روى ذلك الطبراني عن قتادة ، وتفيد رواية ابن إسحاق أن رجال قريش أيضاً سعوا في ذلك . لينظر : ابن هشام ١ / ٦٥٢ .

(٣) روى ذلك عن عطاء . تفسير ابن كثير : سورة الكوثر (٤ / ٥٩٥) .

(٤) كنز العمال ١٢ / ٤٤٩ .

وكانت امرأة أبى لهب - أم جميل أروى بنت حرب بن أمية ، أخت أبى سفيان - لا تقل عن زوجها فى عداوة النبى ﷺ ، فقد كانت تحمل الشوك ، وتضعه فى طريق النبى ﷺ وعلى بابه ليلاً ، وكانت امرأة سليطة تبسط فيه لسانها ، وتطيل عليه الافتراء والدس ، وتؤجج نار الفتنة ، وتشير حرباً شعواء على النبى ﷺ ؛ ولذلك وصفها القرآن بحمالة الحطب .

ولما سمعت ما نزل فيها وفى زوجها من القرآن أتت رسول الله ﷺ وهو جالس فى المسجد عند الكعبة ، ومعه أبو بكر الصديق وفى يدها فهرٌ (أى بمقدار ملء الكف) من حجارة ، فلما وقفت عليهما أخذ الله يبصرها عن رسول الله ﷺ ، فلا ترى إلا أبا بكر ، فقالت : يا أبا بكر ، أين صاحبك ؟ قد بلغنى أنه يهجونى ، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه ، أما والله إنى لشاعرة . ثم قالت :

مُذَمَّمَا عصينا * وأمره أبينا * ودينه قلينا

ثم انصرفت ، فقال أبو بكر : يا رسول الله ، أما تراها رأتك ؟ فقال : « ما رأتنى ، لقد أخذ الله يبصرها عنى » (١) .

وروى أبو بكر البزار هذه القصة ، وفيها : أنها لما وقفت على أبى بكر قالت : أبا بكر ، هجانا صاحبك ، فقال أبو بكر : لا ورب هذه البنية ، ما ينطق بالشعر ولا يتفوه به ، فقالت : إنك لمُصدِّقٌ (٢) .

كان أبو لهب يفعل كل ذلك وهو عم رسول الله ﷺ وجاره ، كان بيته ملصقاً ببيته ، كما كان غيره من جيران رسول الله ﷺ يؤذونه وهو فى بيته .

قال ابن إسحاق : كان نفر الذين يؤذون رسول الله ﷺ فى بيته أبا لهب ، والحكم ابن أبى العاص بن أمية ، وعقبة بن أبى معيط ، وعدى بن حمراء الثقفى ، وابن الأصداء الهذلى - وكانوا جيرانه - لم يسلم منهم أحد إلا الحكم بن أبى العاص (٣) ، فكان أحدهم يطرح عليه ﷺ رحم الشاة وهو يصلى ، وكان أحدهم يطرحها فى برمته إذا نصبت له ، حتى اتخذ رسول الله ﷺ حجراً ليستتر به منهم إذا صلى فكان رسول الله ﷺ إذا طرحوا عليه ذلك الأذى يخرج به على العود ، فيقف به على بابه ، ثم يقول : « يا بنى عبد مناف ، أى جوار هذا؟ » ثم يلقى فى الطريق (٤) .

وازداد عقبة بن أبى معيط فى شقاوته وخبيثه ، فقد روى البخارى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : أن النبى ﷺ كان يصلى عند البيت ، وأبو جهل وأصحاب له جلوس ؛ إذ

(١) انظر : سيرة ابن هشام ١ / ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، وكانت قریش يسمونه ﷺ مذمماً ، حقداً وغيظاً ، وصرف الله بهذا شتمهم عنه ، التاريخ للبخارى ١ / ١١ ، وصحيح البخارى مع الفتح ٧ / ١٦٢ ، ومسند أحمد ٢ / ٢٤٤ ، ٣٤٠ ، ٣٦٩ .

(٢) وروى هذه القصة الحاكم فى المستدرک ٢ / ٣٦١ ، وابن أبى شيبه فى المصنف ١١ / ٤٩٨ ح (١١٨١٧) ، وأبو يعلى فى المسند ٤ / ٢٤٦ ح (٢٣٥٨) ، وأبو نعيم الأصبهاني فى دلائل النبوة ص ٧١ ح (٥٤) ، والطبراني وابن أبى حاتم وغيرهم . وفى السياق شئ خفيف من الاختلاف .

(٣) والد مروان الخليفة الأموى . (٤) ابن هشام ١ / ٤١٦ .

قال بعضهم لبعض : أيكم يجيء سلاً جزور بنى فلان فيضعه على ظهر محمد إذا سجد ، فانبعث أشقى القوم (وهو عقبة بن أبي معيط) (١) فجاء به فنظر ، حتى إذا سجد النبي وضع على ظهره بين كتفيه ، وأنا أنظر ، لا أغنى شيئاً ، لو كانت لى منعة ، قال : فجعلوا يضحكون ، ويحيل بعضهم على بعضهم (أى يتمايل بعضهم على بعض مرحاً وبطراً) ورسول الله ﷺ ساجد ، لا يرفع رأسه ، حتى جاءت فاطمة ، فطرحته عن ظهره ، ورفع رأسه ، ثم قال : « اللهم عليك بقريش » ثلاث مرات ، فشق ذلك عليهم إذ دعا عليهم ، قال : وكانوا يرون أن الدعوة فى ذلك البلد مستجابة ، ثم سمي : « اللهم عليك بأبى جهل ، وعليك بعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وأممية بن خلف ، وعقبة بن أبى معيط » - وعد السابع فلم نحفظه - فوالذى نفسى بيده لقد رأيت الذين عدّ رسول الله ﷺ صرعى فى القليب ، قليب بدر (٢) .

وكان أمية بن خلف إذا رأى رسول الله ﷺ همزه ولمزه . وفيه نزل : ﴿ وَلَيْلَ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ [سورة الهمة] قال ابن هشام : الهمزة : الذى يشتم الرجل علانية ، ويكسر عينيه ، ويغمز به . واللمزة : الذى يعيب الناس سراً ، ويؤذيهم (٣) .

أما أخوه أبى بن خلف فكان هو وعقبة بن أبى معيط متصافيين . وجلس عقبة مرة إلى النبي ﷺ وسمع منه ، فلما بلغ ذلك أياً أنه وعاتبه ، وطلب منه أن يتفل فى وجه رسول الله ﷺ ففعل ، وأبى بن خلف نفسه فت عظماً رميماً ثم نفخه فى الريح نحو رسول الله ﷺ (٤) .

وكان الأخنس بن شريق الثقفى ممن ينال من رسول الله ﷺ وقد وصفه القرآن بتسع صفات تدل على ما كان عليه ، وهى فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَطْعُ كُلِّ حَلَّافٍ مِّهْنٍ ﴾ (١٠) هَمَازٌ مُشَاءٌ بِنِيمٍ (١١) مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٌ أَثِيمٌ (١٢) عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ (١٣) [القلم] .

وكان أبو جهل يجيء أحياناً إلى رسول الله ﷺ يسمع منه القرآن ، ثم يذهب عنه فلا يؤمن ولا يطيع ، ولا يتأدب ولا يخشى ، ويؤذى رسول الله ﷺ بالقول ، ويصد عن سبيل الله ، ثم يذهب مختالاً بما فعل ، فخوراً بما ارتكب من الشر ، كان ما فعل شيئاً يذكر ، وفيه نزل : ﴿ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى ﴾ (٣١) ... [القيامة] ، وكان يمنع النبي ﷺ عن الصلاة منذ أول يوم رآه يصلى فى الحرم ، ومرة مر به وهو يصلى عند المقام فقال : يا محمد ، ألم أنهك عن هذا ، وتوعده ، فأغلظ له رسول الله ﷺ وانتهره ، فقال : يا محمد ، بأي شيء تهددنى ؟ أما والله إنى لأكثر هذا الوادى نادياً . فأنزل الله ﴿ فليدع ناديه ﴾ (١٧) سندع الزبانية (١٨) [الملق] (٥) . وفى رواية أن النبي ﷺ أخذ بخناقه وهزه ، وهو يقول له :

(١) صرح بذلك فى صحيح البخارى نفسه ٥٤٣ / ١ .

(٢) صحيح البخارى ، كتاب الوضوء ، باب إذا ألقى على المصلى قدر أو جيفة ٣٧ / ١ ح (٢٤٠) ، ٥٢ ، ٢٩٣٤ ، ٣١٨٥ ، ٣٨٥٤ ، ٣٩٦٠ . والسابع هو : عمارة بن الوليد ، صرح به فى ح (٥٢٠) .

(٣) ابن هشام ٣٥٧ ، ٣٥٦ / ١ . (٤) ابن هشام ٣٦١ / ١ ، ٣٦٢ .

(٥) رواه ابن جرير فى التفسير ، وروى نحوه الترمذى : التفسير ، من سورة اقرأ ٤١٤ / ٥ ح (٣٣٤٩) وغيره .

﴿ أُولَئِكَ فَأُولَئِكَ ثُمَّ أُولَئِكَ فَأُولَئِكَ ﴾ [القيامة] فقال عدو الله: أتوعدني يا محمد؟ والله لا تستطيع أنت ولا ربك شيئاً، وإنى لأعز من مشى بين جبليها (١).

ولم يكن أبو جهل ليفيق من غباوته بعد هذا الانتهاز، بل ازداد شقاوة فيما بعد. أخرج مسلم عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل: يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى، لئن رأيته لأطأن على رقبته، ولأعفرن وجهه، فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلى، زعم ليطأ رقبته، فما فجأهم إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقى بيديه، فقالوا: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: إن بينى وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة، فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضواً عضواً» (٢).

هذه صورة مصغرة جداً لما كان يتلقاه رسول الله ﷺ والمسلمون من الظلم والخسف والجور على أيدي طغاة المشركين، الذين كانوا يزعمون أنهم أهل الله وسكان حرمه.

وكان من مقتضيات هذه الظروف المتأزمة أن يختار رسول الله ﷺ موقفاً حازماً ينقذ به المسلمين عما دهمهم من البلاء، ويخفف وطأته بقدر المستطاع، وقد اتخذ رسول الله ﷺ خطوتين حكيمتين كان لهما أثرهما في تسيير الدعوة وتحقيق الهدف، وهما:

١ - اختيار دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي مركزاً للدعوة ومقراً للتربية.

٢ - أمر المسلمين بالهجرة إلى الحبشة.

دار الأرقم:

كانت هذه الدار في أصل الصفا، بعيدة عن أعين الطغاة ومجالسهم، فاخترها رسول الله ﷺ ليجتمع فيها بالمسلمين سراً، فيتلو عليهم آيات الله ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة؛ وليؤدى المسلمون عبادتهم وأعمالهم، ويتلقوا ما أنزل الله على رسوله وهم في أمن وسلام، وليدخل من يدخل في الإسلام ولا يعلم به الطغاة من أصحاب السطوة والنقمة.

وما لم يكن يشك فيه أن رسول الله ﷺ لو اجتمع بالمسلمين علناً لحاول المشركون بكل ما عندهم من القسوة والغلظة أن يحولوا بينه وبين ما يريد من تزكية نفوسهم ومن تعليمهم الكتاب والحكمة، وربما أفضى ذلك إلى مصادمة الفريقين، بل قد وقع ذلك فعلاً. فقد ذكر ابن إسحاق أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يجتمعون في الشعاب، فيصلون فيها سراً، فرأهم نفر من كفار قريش، فسبوهم وقتلوه، فضرب سعد بن أبي وقاص رجلاً فسال دمه، وكان أول دم هريق في الإسلام (٣).

ومعلوم أن المصادمة لو تعددت وطالت لأفضت إلى تدمير المسلمين وإبادتهم، فكان من الحكمة السرية والاختفاء، فكان عامة الصحابة يُخفون إسلامهم وعبادتهم واجتماعهم، أما رسول الله ﷺ فكان يجهر بالدعوة والعبادة بين ظهرائي المشركين، لا يصرفه عن ذلك

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٤ / ٤٧٧، والدر المنثور ٦ / ٤٧٨ وغيرهما.

(٢) صحيح مسلم: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم (٤ / ٢١٥٤) ح (٣٨).

(٣) ابن هشام ١ / ٢٦٣.

شئ ، ولكن كان يجتمع مع المسلمين سرّاً ؛ نظراً لصالحهم وصالح الإسلام .
الهجرة الأولى إلى الحبشة :

كانت بداية الاعتداءات فى أواسط أو أواخر السنة الرابعة من النبوة ، بدأت ضعيفة ، ثم لم تزل تشتد يوماً فيوماً وشهراً فشهرًا ، حتى تفاقت فى أواسط السنة الخامسة ، وبنا بهم المقام فى مكة ، وأخذوا يفكرون فى حيلة تنجيهم من هذا العذاب الأليم ، وفى هذه الظروف نزلت سورة الزمر تشير إلى اتخاذ سبيل الهجرة ، وتعلن بأن أرض الله ليست بضيقة ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (١) [الزمر] .

وكان رسول الله ﷺ قد علم أن أصحمة النجاشى ملك الحبشة ملك عادل ، لا يظلم عنده أحد ، فأمر المسلمين أن يهاجروا إلى الحبشة فراراً بدينهم من الفتن (١) .

وفى رجب سنة خمس من النبوة هاجر أول فوج من الصحابة إلى الحبشة . كان مكوناً من اثني عشر رجلاً وأربع نسوة ، رئيسهم عثمان بن عفان ، ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ ، وقد قال النبى ﷺ فيهما : «إنهما أول بيت هاجر فى سبيل الله بعد إبراهيم ولوط عليهما السلام» (٢) .

كان رحيل هؤلاء تسلاً فى ظلمة الليل - حتى لا تفتن لهم قريش - خرجوا إلى البحر ويموا ميناء شعية ، وقبضت لهم الأقدار سفينتين تجاريتين أبحرتا بهم إلى الحبشة ، وفطنت لهم قريش ، فخرجت فى آثارهم ، لكن لما بلغت إلى الشاطئ كانوا قد انطلقوا آمين ، وأقام المسلمون فى الحبشة فى أحسن جوار (٣) .

سجود المشركين مع المسلمين وعودة المهاجرين :

وفى رمضان من نفس السنة خرج النبى ﷺ إلى الحرم ، وفيه جمع كبير من قريش ، فيهم ساداتهم وكبرائهم ، فقام فيهم ، وفاجأهم بتلاوة سورة النجم ، ولم يكن أولئك الكفار سمعوا كلام الله من قبل ؛ لأنهم كانوا مستمرين على ما تواصى به بعضهم بعضاً ، من قولهم : ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢٦) [فصلت] فلما باغتهم بتلاوة هذه السورة ، وقرع آذانهم كلام إلهى خلاب ، وكان أروع كلام سمعوه قط ، أخذ مشاعرهم ، ونسوا ما كانوا فيه فما من أحد إلا وهو مصغ إليه ، لا يخطر بباله شئ سواه ، حتى إذا تلا فى خواتيم هذه السورة قوارع تطير لها القلوب ، ثم قرأ : ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ (٦٢) [النجم] ثم سجد ، لم يتمالك أحد نفسه حتى خر ساجداً . وفى الحقيقة كانت روعة الحق قد صدعت العناد فى نفوس المستكبرين والمستهزئين ، فما تمالكوا أن يخروا لله ساجدين (٤) .

(١) انظر : السنن الكبرى للبيهقى ٩ / ٩ .

(٢ ، ٣) زاد المعاد ١ / ٢٤ .

(٤) روى البخارى قصة السجود مختصراً عن ابن مسعود وابن عباس ، انظر : باب سجدة النجم ، وباب سجود المسلمين والمشركين ١ / ١٤٦ ، وباب ما لقي النبى ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة ١ / ٥٤٣ .

وسَقَطَ في أيديهم لما أحسوا أن جلال كلام الله لَوَّى زمامهم ، فارتكبوا عين ما كانوا يبذلون قصارى جهدهم في محوه وإفثائه ، وقد توالى عليهم اللوم والعتاب من كل جانب ، ممن لم يحضر هذا المشهد من المشركين ، وعند ذلك كذبوا على رسول الله ﷺ وافترؤا عليه أنه عطف على أصنامهم بكلمة تقدير ، وأنه قال عنها ما كانوا يرددونه هم دائماً من قولهم : «تلك الغرائيق العلى، وإن شفاعتهم لترتجى»، جاءوا بهذا الإفك المبين ليعتذروا عن سجدتهم مع النبي ﷺ، وليس يستغرب هذا من قوم كانوا يالفون الكذب ، ويطلبون الدس والافتراء .

وبلغ هذا الخبر إلى مهاجرى الحبشة ، ولكن في صورة تختلف تماماً عن صورته الحقيقية ، بلغهم أن قريشاً أسلمت ، فرجعوا إلى مكة في شوال من نفس السنة ، فلما كانوا دون مكة ساعة من نهار وعرفوا جليلة الأمر رجع منهم من رجع إلى الحبشة ، ولم يدخل في مكة من سائرهم أحد إلا مستخفياً ، أو في جوار رجل من قريش (١) .

ثم اشتد عليهم وعلى المسلمين البلاء والعذاب من قريش ، وسطت بهم عشائهم ، فقد كان صعب على قريش ما بلغها عن النجاشي من حسن الجوار ، ولم ير رسول الله ﷺ بدا من أن يشير على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة مرة أخرى .

الهجرة الثانية إلى الحبشة :

واستعد المسلمون للهجرة مرة أخرى ، وعلى نطاق أوسع ، ولكن كانت هذه الهجرة الثانية أشق من سابقتها ، فقد تيقظت لها قريش وقررت إحباطها ، بيد أن المسلمين كانوا أسرع ، ويسر الله لهم السفر ، فانحازوا إلى نجاشي الحبشة قبل أن يدركوا .

وفى هذه المرة هاجر من الرجال ثلاثة وثمانون رجلاً إن كان فيهم عمار ، فإنه يشك فيه ، وثمانى عشرة أوتسع عشرة امرأة (٢) .

مكيدة قريش بمهاجرى الحبشة :

عز على المشركين أن يجد المهاجرون مأمناً لأنفسهم ودينهم ، فاخترأوا رجلين جلدلين لببيين ، وهما : عمرو بن العاص ، وعبد الله بن أبى ربيعة - قبل أن يسلموا - وأرسلوا معهما الهدايا المستطرفة للنجاشي ولبطارقتة ، وبعد أن ساق الرجلان تلك الهدايا إلى البطارقة ، وزوداهم بالحجج التى يطرد بها أولئك المسلمون ، وبعد أن اتفقت البطارقة أن يسيروا على النجاشي بإقضاءهم ، حضرا إلى النجاشي ، وقدا له الهدايا ثم كلماه فقالا له :

أيها الملك ، إنه قد ضَوَّى إلى بلدك غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه ، لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائهم ؛ لتردهم إليهم ، فهم أعلى بهم عيناً ، وأعلم بما عابوا عليهم ، وعاتبوهم فيه .

وقالت البطارقة: صدقا أيها الملك ، فأسلمهم إليهما ، فليردهم إلى قومهم وبلادهم .

(١) ابن هشام ١ / ٣٦٤ ، وزاد المعاد ١ / ٢٤ ، ٢ / ٤٤ .

(٢) انظر : زاد المعاد ١ / ٢٤ .

ولكن رأى النجاشى أنه لا بد من تمحيص القضية، وسماع أطرافها جميعاً . فأرسل إلى المسلمين ، ودعاهم ، فحضرُوا ، وكانوا قد أجمعوا على الصدق كائناً ما كان . فقال لهم النجاشى : ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا به فى دينى ولا دين أحد من هذه الملل ؟

قال جعفر بن أبى طالب - وكان هو المتكلم عن المسلمين : أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية ؛ نعبد الأصنام ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسئ الجوار ، ويأكل منا القوى الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآبائنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام - فعدد عليه أمور الإسلام - فصدقناه ، وآمنا به ، واتبعناه على ما جاءنا به من دين الله ، فعبدنا الله وحده ، فلم نشرك به شيئاً ، وحرماناً ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدنا علينا قومنا ، فعذبونا وفتنونا عن ديننا ؛ ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على من سواك ، ورجعنا ألاً نظلم عندك أيها الملك .

فقال له النجاشى : هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟ فقال له جعفر : نعم . فقال له النجاشى : فأقرأ على ، فقرأ عليه صدرأ من : ﴿ كَهِيقَصَ ﴾ فبكى والله النجاشى حتى اخضلت لحيته ، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم ، ثم قال لهم النجاشى : إن هذا الذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ، انطلقا ، فلا والله لا أسلمهم إليكما ، ولا يكادون - يخاطب عمرو بن العاص وصاحبه - فخرجا ، فلما خرجا قال عمرو بن العاص لعبد الله بن أبى ربيعة : والله لآتينه غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم . فقال له عبد الله بن أبى ربيعة : لا تفعل ، فإن لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا ، ولكن أصر عمرو على رأيه .

فلما كان الغد قال للنجاشى : أيها الملك ، إنهم يقولون فى عيسى ابن مريم قولاً عظيماً ، فأرسل إليهم النجاشى يسألهم عن قولهم فى المسيح ففزعوا ، ولكن أجمعوا على الصدق ، كائناً ما كان ، فلما دخلوا عليه وسألهم ، قال له جعفر : نقول فيه الذى جاءنا به نبينا ﷺ : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول .

فأخذ النجاشى عوداً من الأرض ثم قال : والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود ، فتناخرت بطارقه ، فقال : وإن نَخَرْتُمُ والله .

ثم قال للمسلمين : اذهبوا فأنتم شُومٌ بأرضى - والشيوم : الآمنون بلسان الحيشة - من سَبَّكُمْ غَرِمَ ، من سبكم غرم ، ما أحب أن لى دبراً من ذهب وأنى آذيت

رجلاً منكم - والدبر : الجبل بلسان الحبشة .

ثم قال لحاشيته : ردّوا عليهما هداياهما فلا حاجة لى بها ، فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين رد على ملكى ، فأخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس فى فأطيعهم فيه .

قالت أم سلمة التى تروى هذه القصة : فخرجنا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاء به ، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار (١) .

هذه رواية ابن إسحاق ، وذكر غيره أن وفادة عمرو بن العاص إلى النجاشى كانت بعد بدر ، وجمع بعضهم بأن الوفادة كانت مرتين . ولكن الأسئلة والأجوبة التى ذكروا أنها دارت بين النجاشى وبين جعفر بن أبى طالب فى الوفادة الثانية هى نفس الأسئلة والأجوبة التى ذكرها ابن إسحاق هنا ، ثم إن تلك الأسئلة تدل بفحواها أنها كانت فى أول مرافعة قدمت إلى النجاشى .

الشدة فى التعذيب ومحاولة القضاء على رسول الله ﷺ :

ولما أخفق المشركون فى مكيدتهم ، وفشلوا فى استرداد المهاجرين استشاطوا غضباً ، وكادوا يميزون غيظاً ، فاشتدت ضراوتهم وانقضوا على بقية المسلمين ، ومدوا أيديهم إلى رسول الله ﷺ بالسوء ، وظهرت منهم تصرفات تدل على أنهم أرادوا القضاء على رسول الله ﷺ ؛ ليستأصلوا جذور الفتنة التى أفضت مضاجعهم ، حسب زعمهم .

أما بالنسبة للمسلمين فإن الباقين منهم فى مكة كانوا قليلين جداً ، وكانوا إما ذوى شرف ومنعة ، أو محتمين بجوار أحد ، ومع ذلك كانوا يخفون إسلامهم ويتعدون عن أعين الطغاة بقدر الإمكان ، ولكنهم مع هذه الحيلة والحذر لم يسلموا كل السلامة من الأذى والخسف والجور .

وأما رسول الله ﷺ ، فقد كان يصلى ويعبد الله أمام أعين الطغاة ، ويدعو إلى الله سراً وجهرأ لا يمنعه عن ذلك مانع ، ولا يصرفه عنه شيء ؛ إذ كان ذلك من جملة تبليغ رسالة الله منذ أمره الله سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر] ، وبذلك كان يمكن للمشركين أن يتعرضوا له إذا أرادوا ، ولم يكن فى الظاهر ما يحول بينهم وبين ما يريدون إلا ما كان له ﷺ من الحشمة والوقار ، وما كان لأبى طالب من الزمة والاحترام ، وما كانوا يخافونه من مغبة سوء تصرفاتهم ، ومن اجتماع بنى هاشم عليهم ، إلا أن كل ذلك لم يعد له أثره المطلوب فى نفوسهم ؛ إذ بدءوا يستخفون به منذ شعروا بانهيار كيانهم الوثنى وزعامتهم الدينية أمام دعوته ﷺ .

وما روت لنا كتب السنة والسيرة من الأحداث التى تشهد القرائن بأنها وقعت فى هذه الفترة : أن عتية بن أبى لهب أتى يوماً رسول الله ﷺ فقال : أنا أكفر بـ ﴿ النجم إذا هوى ﴾ [النجم] وبالذى ﴿ دَنَا قَدْ كَلَى ﴾ [النجم] ثم تسلط عليه بالأذى ، وشق قميصه ، وتفل فى وجهه ﷺ ، إلا أن البراق لم يقع عليه ، وحينئذ دعا عليه النبى ﷺ وقال :

« اللهم سلط عليه كلباً من كلابك » ، وقد استجيب دعاؤه ﷺ ، فقد خرج عتية إثر ذلك في نفر من قريش ، فلما نزلوا بالزرقاء من الشام طاف بهم الأسد تلك الليلة ، فجعل عتية يقول : يا ويل أخى هو والله أكلى كما دعا محمد على ، قتلنى وهو بمكة ، وأنا بالشام ، ثم جعلوه بينهم ، وناموا من حوله ، ولكن جاء الأسد وتخطاهم إليه ، فضغم رأسه (١) .

ومنها : ما ذكر أن عقبة بن أبى معيط وطئ على رقبته الشريفة وهو ساجد حتى كادت عيناه تبرزان (٢) .

ومما يدل على أن طغاتهم كانوا يريدون قتله ﷺ ما رواه ابن إسحاق عن عبد الله ابن عمرو بن العاص قال : حضرتهم وقد اجتمعوا فى الحجر ، فذكروا رسول الله ﷺ ، فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل ، لقد صبرنا منه على أمر عظيم ، فبينما هم كذلك إذ طلع رسول الله ﷺ ، فأقبل يمشى حتى استلم الركن ، ثم مر بهم طائفاً بالبيت فغمزوه ببعض القول ، فعرفت ذلك فى وجه رسول الله ﷺ ، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلاً ، فعرفت ذلك فى وجهه ، ثم مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلاً . فوقف ثم قال : « أسمعون يا معشر قريش ، أما الذى نفسى بيده ، لقد جئتكم بالذبح » ، فأخذت القوم كلمته ، حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع ، حتى إن أشدهم فيه ليرفؤه بأحسن ما يجد ، ويقول : انصرف يا أبا القاسم ، فوالله ما كنت جهولاً .

فلما كان الغد اجتمعوا كذلك يذكرون أمره إذ طلع عليهم ، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد وأحاطوا به ، فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجمع رداءه ، وقام أبو بكر دونه ، وهو يبكى ويقول : أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله ؟ ثم انصرفوا عنه ، قال ابن عمرو : فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشاً نالوا منه قط (٣) . انتهى ملخصاً .

وفى رواية البخارى عن عروة بن الزبير قال : سألت ابن عمرو بن العاص : أخبرنى بأشد شيء صنعه المشركون بالنبي ﷺ ، قال : بينا النبي ﷺ يصلى فى حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبى معيط ، فوضع ثوبه فى عنقه ، فخنقه خنقاً شديداً ؛ فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبيه ، ودفعه عن النبي ﷺ ، وقال : أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله؟ (٤) .

وفى حديث أسماء : فأتى الصريخ إلى أبى بكر فقال : أدرك صاحبك ، فخرج من عندنا وعليه غدائر أربع ، فخرج وهو يقول : أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله؟ فلهوا عنه وأقبلوا على أبى بكر ، فرجع إلينا لا نمس شيئاً من غدائره إلا رجع معنا (٥) .

إسلام حمزة رضي الله عنه :

خلال هذا الجو الملبد بغيوم الظلم والعدوان ظهر برق أضواء الطريق ، وهو إسلام حمزة

(١) دلائل النبوة ٢/ ٥٨٥ ، ومختصر السيرة للشيخ عبد الله النجدى ص ١٣٥ .

(٢) مختصر السيرة ص ١١٣ .

(٣) ابن هشام ١ / ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

(٤) صحيح البخارى : باب ذكر ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة ١ / ٥٤٤ .

(٥) مختصر السيرة للشيخ عبد الله النجدى ص ١١٣ .

ابن عبد المطلب ﷺ ، أسلم في أواخر السنة السادسة من النبوة ، والأغلب أنه أسلم في شهر ذي الحجة .

وسبب إسلامه : أن أبا جهل مر برسول الله ﷺ يوماً عند الصفا فأذاه ونال منه ، ورسول الله ﷺ ساكت لا يكلمه ، ثم ضربه أبو جهل بحجر في رأسه فشجّه حتى نزع منه الدم ، ثم انصرف عنه إلى نادى قريش عند الكعبة ، فجلس معهم ، وكانت مولاة لعبد الله ابن جُدعان في مسكن لها على الصفا ترى ذلك ، وأقبل حمزة من القنص متوشحاً قوسه ، فأخبرته المولاة بما رأت من أبي جهل ، فغضب حمزة - وكان أعز فتى في قريش وأشدّه شكيمة - فخرج يسعى ، لم يقف لأحد ؛ معداً لأبى جهل إذا لقيه أن يوقع به ، فلما دخل المسجد قام على رأسه ، وقال له : يا مُصَفَّرَ اسْتَه ، تشتم ابن أخى وأنا على دينه؟ ثم ضربه بالقوس فشجه شجة منكّرة ، فثار رجال من بنى مخزوم - حى أبى جهل - وثار بنو هاشم - حى حمزة - فقال أبو جهل : دعوا أبا عمارة ، فإنى سببت ابن أخيه سباً قبيحاً (١) .

وكان إسلام حمزة أول الأمر أنفة رجل ، أبى أن يهان مولاه ، ثم شرح الله صدره فاستمسك بالعروة الوثقى ، واعتز به المسلمون أيما اعتزاز .

إسلام عمر بن الخطاب ﷺ :

وخلال هذا الجو الملبد بغيوم الظلم والعدوان أضاء برق آخر أشد بريقاً وإضاءة من الأول ، ألا وهو إسلام عمر بن الخطاب ، أسلم في ذي الحجة سنة ست من النبوة (٢) . بعد ثلاثة أيام من إسلام حمزة ﷺ . وكان النبي ﷺ قد دعا الله تعالى لإسلامه . فقد أخرج الترمذى عن ابن عمر ، وصححه ، وأخرج الطبرانى عن ابن مسعود وأنس أن النبي ﷺ قال : « اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك : بعمر بن الخطاب أو بأبى جهل بن هشام » فكان أحبهما إلى الله عمر ﷺ (٣) .

وبعد إدارة النظر في جميع الروايات التى رويت في إسلامه يبدو أن نزول الإسلام في قلبه كان تدريجياً ، ولكن قبل أن نسوق خلاصتها نرى أن نشير إلى ما كان يتمتع به ﷺ من العواطف والمشاعر .

كان ﷺ معروفاً بحدة الطبع وقوة الشكيمة ، وطالما لقي المسلمون منه ألوان الأذى ، والظاهر أنه كانت تصطرع في نفسه مشاعر متناقضة ؛ احترامه للتقاليد التى سنّها الآباء والأجداد وتحمسه لها ، ثم إعجابه بصلاية المسلمين ، وباحتمالهم البلاء في سبيل العقيدة ، ثم الشكوك التى كانت تساوره - كأي عاقل - في أن ما يدعو إليه الإسلام قد يكون أجل وأزكى من غيره ، ولهذا ما إن يثور حتى يخور .

وخلاصة الروايات - مع الجمع بينها - في إسلامه ﷺ : أنه التجأ ليلة إلى المبيت خارج بيته ، فجاء إلى الحرم ، ودخل في ستر الكعبة ، والنبي ﷺ قائم يصلي ، وقد

(١) ابن هشام ملخصاً ١ / ٢٩١ ، ٢٩٢ . ومصفر استه : أى ضراًط .

(٢) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص ١١ .

(٣) الترمذى ، أبواب المناقب ، مناقب عمر بن الخطاب ٥ / ٥٧٦ ح (٣٦٨١) .

استفتح سورة ﴿ الْحَاقَّةُ ﴾ ، فجعل عمر يستمع إلى القرآن ، ويعجب من تأليفه ، قال : فقلت - أى في نفسى : هذا والله شاعر ، كما قالت قريش ، قال : فقرأ ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمَنُونَ (٤١) ﴾ [الحاقة] قال : قلت : كاهن . قال : ﴿ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) ﴾ إلى آخر السورة [الحاقة] . قال : فوقع الإسلام فى قلبى (١) .

كان هذا أول وقوع نواة الإسلام فى قلبه ، لكن كانت قشرة النزعات الجاهلية ، وعصية التقليد ، التعاطف بدين الآباء هى غالبية على مخ الحقيقة التى كان يتهمس بها قلبه ، فبقى مجدداً فى عمله ضد الإسلام غير مكترث بالشعور الذى يكمن وراء هذه القشرة .

وكان من حدة طبعه وفرط عداوته لرسول الله ﷺ أنه خرج يوماً متوشحاً سيفه يريد القضاء على النبی ﷺ ، لقيه نعيم بن عبد الله النحام العدوى (٢) ، ورجل من بنى زهرة (٣) ، أو رجل من بنى مخزوم (٤) فقال : أين تعمد يا عمر ؟ قال : أريد أن أقتل محمداً . قال : كيف تأمن من بنى هاشم ومن بنى زهرة وقد قتلت محمداً ؟ فقال له عمر : ما أراك إلا قد صبرت ، وتركت دينك الذى كنت عليه ، قال : أفلا أدلك على العجب يا عمر ! إن أختك وختنك قد صبا ، وتركا دينك الذى أنت عليه ، فمشى عمر دامراً (٥) حتى أتاهما ، وعندهما خباب بن الأرت ، معه صحيفة فيها : ﴿ طه ﴾ يقرئهما إياها - وكان يختلف إليهما ويقرئهما القرآن - فلما سمع خباب حس عمر توارى فى البيت ، وستر فاطمة - أخت عمر - الصحيفة . وكان قد سمع عمر حين دنا من البيت قراءة خباب إليهما ، فلما دخل عليهما قال : ما هذه الهينة التى سمعتها عندكم ؟ فقالا : ما عدا حديثاً تحدثناه بيننا . قال : فلعلكما قد صبوتما . فقال له ختنه : يا عمر ، أرايت إن كان الحق فى غير دينك ؟ فوثب عمر على ختنه فوطئه وطأ شديداً . فجاءت أخته فرفعته عن زوجها ، فنفحها نفحة بيده ، فدمى وجهها - وفى رواية ابن إسحاق أنه ضربها فشجها - فقالت ، وهى غضبية : يا عمر ، إن كان الحق فى غير دينك ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله .

فلما يش عمر ، ورأى ما بأخته من الدم ندم واستحيا ، وقال : أعطونى هذا الكتاب الذى عندكم فأقرؤه ، فقالت أخته : إنك رجس ، ولا يمسه إلا المطهرون ، فقم فاغتسل ، فقام فاغتسل ، ثم أخذ الكتاب ، فقرأ : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ فقال : أسماء طيبة طاهرة . ثم قرأ ﴿ طه ﴾ [طه] حتى انتهى إلى قوله : ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤) ﴾ [طه] فقال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ؟ دلونى على محمد .

(١) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص ٦ ، ويقرب من هذا ما رواه ابن إسحاق عن عطاء ومجاهد، لكن فى آخره ما يخالف ذلك . انظر : ابن هشام ٣٤٦ / ١ - ٣٤٨ ، ويقرب من هذا أيضاً ما أورده ابن الجوزى عن جابر ، وفى آخره أيضاً ما يخالف هذه الرواية . انظر : تاريخ عمر بن الخطاب ص ٩ ، ١٠ .

(٢) وهذا على رواية ابن إسحاق . انظر : ابن هشام ٣٤٤ / ١ .

(٣) روى ذلك أنس بن مالك رضي الله عنه . انظر : تاريخ عمر بن الخطاب ص ١٠ .

(٤) روى ذلك ابن عباس . انظر : مختصر السيرة للشيخ عبد الله ص ١٠٢ .

(٥) أى فى وجهه الشر .

فلما سمع خباب قول عمر خرج من البيت ، فقال : أبشر يا عمر ، فإنى أرجو أن تكون دعوة الرسول ﷺ لك ليلة الخميس : « اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بأبى جهل بن هشام » ، ورسول الله ﷺ فى الدار التى فى أصل الصفا .

فأخذ عمر سيفه ، فتوشحه ، ثم انطلق حتى أتى الدار ، فضرب الباب ، فقام رجل ينظر من خلل الباب ، فرآه متوشحاً بالسيف ، فأخبر رسول الله ﷺ ، واستجمع القوم ، فقال لهم حمزة : ما لكم ؟ قالوا : عمر ؟ فقال : وعمر ؟ افتحوا له الباب ، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له ، وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه ، ورسول الله ﷺ داخل يوحى إليه ، فخرج إلى عمر حتى لقيه فى الحجرة ، فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل السيف ، ثم جبهه جبذة شديدة فقال : « أما أنت متبهاً يا عمر حتى ينزل الله بك من الخزى والنكال ما نزل بالوليد بن المغيرة ؟ اللهم ، هذا عمر بن الخطاب ، اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب » ، فقال عمر : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنت رسول الله . وأسلم ، فكبر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل المسجد (١) .

كان عمر رضِيَ عنه ذا شكيمة لا يرام ، وقد أثار إسلامه ضجة بين المشركين ، وشعورا لهم بالذلة والهوان ، وكسا المسلمين عزة وشرفاً وسروراً .

روى ابن إسحاق بسنده عن عمر قال : لما أسلمت تذكرت أى أهل مكة أشد لرسول الله ﷺ عداوة ، قال : قلت : أبو جهل ، فأتيت حتى ضربت عليه بابه ، فخرج إلى ، وقال : أهلاً وسهلاً ، ما جاء بك ؟ قال : جئت لأخبرك أنى قد آمنت بالله وبرسوله محمد ، وصدقت بما جاء به . قال : فضرب الباب فى وجهى ، وقال : قبحك الله ، وقبح ما جئت به (٢) .

وذكر ابن الجوزى أن عمر رضِيَ عنه قال : كان الرجل إذا أسلم تعلق به الرجال ، فيضربونه ويضربهم ، فجئت - أى حين أسلمت - إلى خالى - وهو العاصى بن هاشم - فأعلمته فدخل البيت ، قال : وذهبت إلى رجل من كبراء قريش - لعله أبو جهل - فأعلمته فدخل البيت (٣) .

وفى رواية لابن إسحاق ، عن نافع ، عن ابن عمر قال : لما أسلم عمر بن الخطاب لم تعلم قريش بإسلامه ، فقال : أى أهل مكة أنشأ للحديث ؟ فقالوا : جميل بن معمر الجمحي . فخرج إليه وأنا معه ، أعقل ما أرى وأسمع ، فاتاه ، فقال : يا جميل ، إني قد أسلمت ، قال : فوالله ما رد عليه كلمة حتى قام عامداً إلى المسجد فنادى [بأعلى صوته] أن : يا قريش ، إن ابن الخطاب قد صبا . فقال عمر - وهو خلفه : كذب ، ولكنى قد أسلمت [وآمنت بالله وصدقت رسوله] ، فثاروا إليه فما زال يقاتلهم ويقاتلونهم حتى قامت الشمس على رؤوسهم ، وطلّح - أى أعيان - عمر ، ففقد ، وقاموا على رأسه ، وهو يقول : افعلوا ما بدا لكم ، فأحلف بالله أن لو كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا (٤) .

(١) تاريخ عمر بن الخطاب ص ٧ ، ١٠ ، ١١ ، وابن هشام ١ / ٣٤٣ - ٣٤٦ .

(٢) ابن هشام ١ / ٣٤٩ ، ٣٥٠ . (٣) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص ٨ .

(٤) ابن حبان [الإحسان] ٩ / ١٦ ، وابن هشام ١ / ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، وتاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص ٨ ، ونحوه فى المعجم الأوسط للطبرانى ٢ / ١٧٢ ح (١٣١٥) .

وبعد ذلك زحف المشركون إلى بيته يريدون قتله. روى البخارى عن عبد الله بن عمر قال: بينما هو - أى عمر - فى الدار خائفاً إذ جاءه العاص بن وائل السهمى أبو عمرو، وعليه حلة حبرة وقميص مكفوف بحرير - وهو من بنى سهم، وهم حلفاؤنا فى الجاهلية - فقال له: ما لك؟ قال: زعم قومك أنهم سيقتلونى إن أسلمت، قال: لا سبيل إليك - بعد أن قالها أمنت - فخرج العاص، فلقى الناس قد سال بهم الوادى، فقال: أين تريدون؟ فقالوا: هذا ابن الخطاب الذى قد صبا، قال: لا سبيل إليه، ففكر الناس^(١). وفى لفظ فى رواية ابن إسحاق: والله، لكأنما كانوا ثوباً كُشطَ عنه^(٢).

هذا بالنسبة إلى المشركين، أما بالنسبة إلى المسلمين فروى مجاهد عن ابن عباس قال: سألت عمر بن الخطاب: لآى شيء سميت الفاروق؟ قال: أسلم حمزة قبلى بثلاثة أيام - ثم قص عليه قصة إسلامه. وقال فى آخره: قلت - أى حين أسلمت: يا رسول الله، ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا؟ قال: «بلى، والذى نفسى بيده، إنكم على الحق وإن متم وإن حييتم»، قال: قلت: فقيم الاختفاء؟ والذى بعثك بالحق لنخرجن، فأخرجناه فى صفين، حمزة فى أحدهما، وأنا فى الآخر، له كديد ككديد الطحين، حتى دخلنا المسجد، قال: فظفرت إلى قريش وإلى حمزة، فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها، فسمانى رسول الله ﷺ «الفاروق» يومئذ^(٣).

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: ما كنا نقدر أن نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر^(٤).

وعن صهيب بن سنان الرومى رضي الله عنه، قال: لما أسلم عمر ظهر الإسلام، ودعى إليه علانية، وجلسنا حول البيت حلقاً، وطفنا بالبيت، واتصفنا ممن غلظ علينا، ورددنا عليه بعض ما يأتى به^(٥).

وعن عبد الله بن مسعود قال: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر^(٦).

مثل قريش بين يدى الرسول ﷺ:

وبعد إسلام هذين البطلين الجليلين - حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما أخذت السحائب تنقشع، وأفاق المشركون عن سكرهم فى تنكيلهم بالمسلمين، وغيروا تفكيرهم فى معاملتهم مع النبى ﷺ والمؤمنين، واختاروا أسلوب المساومات وتقديم الرغائب والمغريات، ولم يدر هؤلاء المساكين أن كل ما تطلع عليه الشمس لا يساوى جناح بعوضة أمام دين الله والدعوة إليه، فخابوا وفشلوا فيما أرادوا.

قال ابن إسحاق: حدثنى يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظى قال: حدثت أن عتبة بن ربيعة، وكان سيداً، قال يوماً - وهو فى نادى قريش، ورسول الله ﷺ جالس فى المسجد وحده: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أسوراً لعله

(١) صحيح البخارى، باب إسلام عمر بن الخطاب ١ / ٥٤٥.

(٢) ابن هشام ١ / ٣٤٩.

(٣) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص ٦، ٧.

(٤) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ١٠٣.

(٥) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص ١٣.

(٦) صحيح البخارى: باب إسلام عمر بن الخطاب ١ / ٥٤٥.

يقبل بعضها ، فنعطيه أيها شاء وكيف عنا ؟ وذلك حين أسلم حمزة رضي الله عنه ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يكثررون ويزيدون ، فقالوا : بلى ، يا أبا الوليد ، قم إليه ، فكلمه ، فقام إليه عتبة ، حتى جلس إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يابن أخى ، إنك منا حيث قد علمت من السطة ^(١) فى العشيرة ، والمكان فى النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها . قال : فقال رسول الله ﷺ : « قل يا أبا الوليد أسمع » .

قال : يابن أخى ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه - أو كما قال له - حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال : « أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ » قال : نعم ، قال : « فاسمع منى » ، قال : أفعل ، فقال : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . حم ﴿١﴾ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ ﴿٥﴾ [فصلت] . ثم مضى رسول الله فيها ، يقرؤها عليه . فلما سمعها منه عتبة أنصت له ، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما ، يسمع منه ، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ثم قال : « قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك » .

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به . فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورائى أنى سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يا معشر قريش ، أطيعونى واجعلوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به ، قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، قال : هذا رأى فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم ^(٢) .

وفى روايات أخرى : أن عتبة استمع حتى إذا بلغ الرسول ﷺ قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾ [فصلت] قال : حسبك ، حسبك ، ووضع يده على فم رسول الله ﷺ ، وناشده بالرحم أن يكف ، وذلك مخافة أن يقع النذير ، ثم قام إلى القوم فقال ما قال ^(٣) .

(١) هى المنزل الرفيعة المهيبة .

(٢) ابن هشام ١ / ٢٩٣ ، ٢٩٤ . وجزء منه فى المعجم الصغير للطبرانى ١ / ٢٦٥ .

(٣) ابن كثير ٤ / ٩٥ ، ٩٦ ، تفسير الآية المذكورة .

رؤساء قريش يفاوضون رسول الله ﷺ :

وكان رجاء قريش لم ينقطع بما أجاب به النبي ﷺ عتبة على اقتراحاته؛ لأنه لم يكن صريحاً في الرفض أو القبول، بل تلا عليه النبي ﷺ آيات لم يفهمها عتبة، ورجع من حيث جاء ، فتشاور رؤساء قريش فيما بينهم وفكروا في كل جوانب القضية ، ودرسوا كل المواقف بروية وتريث، ثم اجتمعوا يوماً عند ظهر الكعبة بعد غروب الشمس، وأرسلوا إلى النبي ﷺ يدعونه، فجاء مسرعاً يرجو خيراً، فلما جلس إليهم قالوا له مثل ما قال عتبة ، وعرضوا عليه نفس المطالب التي عرضها عتبة. وكانهم ظنوا أنه لم يثق بجدية هذا العرض حين عرض عتبة وحده ، فإذا عرضوا هم أجمعون يثق ويقبل، ولكن قال لهم رسول الله ﷺ : « ما بي ما تقولون ، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً ، وأنزل علي كتاباً ، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالات ربي ، ونصحت لكم ، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوا علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم » . أو كما قال .

فانتقلوا إلى نقطة أخرى ، وطلبوا منه أن يسأل ربه أن يسير عنهم الجبال ، ويبسط لهم البلاد ، ويفجر فيها الأنهار ، ويحيى لهم الموتى - ولا سيما قصى بن كلاب - فإن صدقوه يؤمنون به . فأجاب بنفس ما سبق من الجواب .

فانتقلوا إلى نقطة ثالثة، وطلبوا منه أن يسأل ربه أن يبعث له ملكاً يصدقه ، ويراجعونه فيه ، وأن يجعل له جنات وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة ، فأجابهم بنفس الجواب .

فانتقلوا إلى نقطة رابعة ، وطلبوا منه العذاب: أن يسقط عليهم السماء كسفاً ، كما يقول ويتوعد، فقال: « ذلك إلى الله ، إن شاء فعل » . فقالوا: أما علم ربك أنا سنجلس معك ، ونسالك ونطلب منك ، حتى يعلمك ما تراجعنا به ، وما هو صانع بنا إذا لم نقبل .

وأخيراً هددوه أشد التهديد ، وقالوا: أما والله لا نتركك وما فعلت بنا حتى نهلكك أو تهلكنا ، فقام رسول الله ﷺ عنهم ، وانصرف إلى أهله حزينا أسفا لما فاتته ما طمع من قومه (١) .

عزم أبي جهل على قتل رسول الله ﷺ :

ولما انصرف رسول الله ﷺ عنهم خاطبهم أبو جهل في كبريائه وقال : يا معشر قريش، إن محمداً قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا ، وشتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وشتم آلهتنا ، وإنني أعاهد الله لأجلسن له بحجر ما أطيق حمله ، فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه ، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني ، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم ، قالوا : والله لا نسلمك لشيء أبداً ، فامض لما تريد .

فلما أصبح أبو جهل ، أخذ حجراً كما وصف ، ثم جلس لرسول الله ﷺ ينتظره ،

(١) ملخص مما رواه ابن إسحاق (ابن هشام ١ / ٢٩٥ - ٢٩٨) ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم (الدر المنثور ٤ / ٣٦٥ ، ٣٦٦) .

وغدا رسول الله ﷺ كما كان يغدو ، فقام يصلى ، وقد غدت قريش فجلسوا فى أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل ، فلما سجد رسول الله ﷺ احتمل أبو جهل الحجر ، ثم أقبل نحوه ، حتى إذا دنا منه رجع منهزماً ممتعاً لونه ، مرعوباً قد ييست يداه على حجره ، حتى قذف الحجر من يده ، وقامت إليه رجال قريش فقالوا له : ما لك يا أبا الحكم ؟ قال : قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة ، فلما دنوت منه عرض لى دونه فحل من الإبل ، لا والله ما رأيت مثل هامته ، ولا مثل قصرتة ولا أنيابه لفحل قط ، فهم بى أن يأكلنى .

قال ابن إسحاق : فذكر لى أن رسول الله ﷺ قال : « ذلك جبريل عليه السلام لو دنا لأخذه » (١) .

مساومات وتنازلات :

ولما فشلت قريش فى مفاوضاتهم المبنية على الإغراء والترغيب ، والتهديد والترهيب ، وخاب أبو جهل فيما أبداه من الرعونة وقصد الفتك ، تيقظت فيهم رغبة الوصول إلى حل حصيل ينقذهم عما هم فيه ، ولم يكونوا يجزمون أن النبى ﷺ على باطل ، بل كانوا - كما قال الله تعالى ﴿ لَقِيَ شَكَّ مِنْهُ مَرِيبٌ (١٤) ﴾ [الشورى] . فأروا أن يساموه ﷺ فى أمور الدين ، ويلتقوا به فى منتصف الطريق ، فتركوا بعض ما هم عليه ، وبطالوا النبى ﷺ بترك بعض ما هو عليه ، وظنوا أنهم بهذا الطريق سيصييون الحق ، إن كان ما يدعوا إليه النبى ﷺ حقاً .

روى ابن إسحاق بسنده ، قال : اعترض رسول الله ﷺ - وهو يطوف بالكعبة - الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى والوليد بن المغيرة وأمىة بن خلف والعاص بن وائل السهمى - وكانوا ذوى أسنان فى قومهم - فقالوا : يا محمد ، هلم فلنعبد ما تعبد ، وتعبد ما نعبد ، فنشترك نحن وأنت فى الأمر ، فإن كان الذى تعبد خيراً مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه ، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه ، فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) ﴾ [السورة كلها] (٢) .

وأخرج عبد بن حميد وغيره عن ابن عباس أن قريشاً قالت : لو استلمت آلهتنا لعبدنا إلهك . فأنزل الله : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) ﴾ [السورة كلها] (٣) .

وأخرج ابن جرير وغيره عنه أن قريشاً قالوا لرسول الله ﷺ : تعبد آلهتنا سنة ، ونعبد إلهك سنة ، فأنزل الله : ﴿ قُلْ أَغْفِرُ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) ﴾ [الزمر] (٤) .

ولما حسم الله تعالى هذه المفاوضة المضحكة بهذه المفاصلة الجازمة لم تياس قريش كل اليأس ، بل أبدوا مزيداً من التنازل بشرط أن يجرى النبى ﷺ بعض التعديل فيما جاء به من التعليمات ، فقالوا : ﴿ أَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ ، فقطع الله هذا السيل أيضاً بإنزال

(٢) ابن هشام ١ / ٢٩٨ ، ٣٦٢ .

(١) ابن هشام ١ / ٢٩٨ ، ٢٩٩ .

(٣) الدر المنثور ٦ / ٦٩٢ .

(٤) تفسير ابن جرير الطبرى : سورة الكافرون .

ما يرد به النبي ﷺ عليهم فقال: ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبْدِلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٥) [يونس] ونبه علي عظم خطورة هذا العمل بقوله: ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ لَتَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَخْذُوكَ خَلِيلًا ﴾ (٧٢) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾ (٧٤) إِذَا لَأَذْنُكَ ضِعْفُ الْحَيَاةِ وَضِعْفُ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ (٧٥) [الإسراء].

حيرة قريش وتفكيرهم الجاد واتصالهم باليهود :

أظلمت أمام المشركين السبل بعد فشلهم في هذه المفاوضات والمساومات والتنازلات، واحتاروا فيما يفعلون، حتى قام أحد شياطينهم: النضر بن الحارث، فنصحهم قائلاً : يا معشر قريش ، والله لقد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد ، قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به ، قلتم : ساحر ، لا والله ما هو بساحر ، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم، وقلتم: كاهن، لا والله ما هو بكاهن ، قد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم، وقلتم: شاعر ، لا والله ما هو بشاعر ، قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها هزجه ورجزه ، وقلتم: مجنون ، لا والله ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون ، فما هو بخنقه ، ولا وسوسته ، ولا تخليطه، يا معشر قريش، فانظروا في شأنكم ، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم .

وكأنهم لما رأوا صموده ﷺ في وجه كل التحديات ، ورفضه كل المغريات ، وصلابته في كل مرحلة - مع ما كان يتمتع به من الصدق والعفاف ومكارم الأخلاق - قويت شبهتهم في كونه رسولاً حقاً ، فقرروا أن يتصلوا باليهود حتى يتأكدوا من أمره ﷺ ، فلما نصحهم النضر بن الحارث بما سبق كلّفوه مع آخر أو آخرين ليذهب إلى يهود المدينة ، فاتّاهم فقال أجبّارهم : سلوه عن ثلاث ، فإن أخبر فهو نبي مرسل ، وإلا فهو متقول ؛ سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ، ما كان أمرهم ؟ فإن لهم حديثاً عجباً ، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، ما كان نبؤه ؟ وسلوه عن الروح ، ما هي ؟

فلما قدم مكة قال : جنّاكم بفصل ما بينكم وبين محمد ، وأخبرهم بما قاله اليهود، فسألت قريش رسول ﷺ عن الأمور الثلاثة ، فنزلت بعد أيام سورة الكهف ، فيها قصة أولئك الفتية ، وهم أصحاب الكهف ، وقصة الرجل الطواف ، وهو ذو القرنين ، ونزل الجواب عن الروح في سورة الإسراء . وتبين لقريش أنه ﷺ على حق وصدق ، ولكن أبى الظالمون إلا كفوراً (١) .

هذه نبذة خفيفة مما واجه به المشركون دعوة رسول الله ﷺ ، وقد مارسوا كل ذلك جنباً إلى جنب ، متنقلين من طور إلى طور ، ومن دور إلى دور . فمن شدة إلى لين، ومن لين إلى شدة ، ومن جدال إلى مساومة ، ومن مساومة إلى جدال ، ومن تهديد إلى ترغيب ، ومن ترغيب إلى تهديد ، كانوا يثورون ثم يخورون ، ويجادلون ثم يجاملون ، وينازلون ثم

يتنازلون ، ويوعدون ثم يرغبون ، كأنهم كانوا يتقدمون ويتأخرون ، لا يقر لهم قرار ، ولا يعجبهم الفرار ، وكان الغرض من كل ذلك هو إحباط الدعوة الإسلامية ، وَلَمْ شَعَثَ الكفر ، ولكنهم بعد بذل كل الجهود واختبار كل الحيل عادوا خائبين ، ولم يبق أمامهم إلا السيف ، والسيف لا يزيد الفرقة إلا شدة ، ولا ينتج إلا عن تناحر يستأصل الشأفة ، فاحتاروا ماذا يفعلون .

موقف أبى طالب وعشيرته :

أما أبو طالب فإنه لما واجه مطالبة قريش بتسليم النبي ﷺ لهم ليقتلوه ، ثم رأى فى تحركاتهم وتصرفاتهم ما يؤكد أنهم يريدون قتله وإخفاره ذمته - مثل ما فعله عقبة بن أبى معيط ، وأبو جهل بن هشام وعمر بن الخطاب - جمع بنى هاشم وبنى المطلب ، ودعاهم إلى القيام بحفظ النبي ﷺ ، فأجابوه إلى ذلك كلهم - مسلمهم وكافرهم - حَمِيَّةً للجوار العربى، وتعاهدوا وتعاهدوا عليه عند الكعبة . إلا ما كان من أخيه أبى لهب ، فإنه فارقهم ، وكان مع قريش (١) .

المقاطعة العامة

ميثاق الظلم والعدوان :

زادت حيرة المشركين إذ نفدت بهم الحيل ، ووجدوا بنى هاشم وبنى المطلب مصممين على حفظ نبي الله ﷺ والقيام دونه ، كائناً ما كان ، فاجتمعوا فى خيف بنى كنانة من وادى الْمُحَصَّب فتحالفوا على بنى هاشم وبنى المطلب ألا يناكحوه ، ولا يبايعوهم ، ولا يجالسوهم ، ولا يخالطوهم ، ولا يدخلوا بيوتهم ، ولا يكلموهم ، حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ للقتل ، وكتبوا بذلك صحيفة فيها عهود ومواثيق « ألا يقبلوا من بنى هاشم صلحاً أبداً ، ولا تأخذهم بهم رافة حتى يسلموه للقتل » . قال ابن القيم : يقال : كتبها منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم ، ويقال : نصر بن الحارث ، والصحيح أنه بغض بن عامر بن هاشم ، فدعا عليه رسول الله ﷺ فَشَلَّتْ يده (١) .

تم هذا الميثاق وعلقت الصحيفة فى جوف الكعبة ، فانحاز بنو هاشم وبنو المطلب ، مؤمنهم وكافرهم - إلا أبا لهب - وحبسوا فى شعب أبى طالب ، وذلك فيما يقال : ليلة هلال المحرم سنة سبع من البعثة . وقد قيل غير ذلك .

ثلاثة أعوام فى شعب أبى طالب :

واشتد الحصار ، وقطعت عنهم الميرة والمادة ، فلم يكن المشركون يتركون طعاماً يدخل مكة ولا يبيعاً إلا بادروه فاشتروه ، حتى بلغهم الجهد ، والتجأوا إلى أكل الأوراق والجلود ، وحتى كان يسمع من وراء الشعب أصوات نساءهم وصبيانهم يتضاغون من الجوع ، وكان لا يصل إليهم شئ إلا سراً ، وكانوا لا يخرجون من الشعب لاشتراء الحوائج إلا فى الأشهر الحرم ، وكانوا يشترون من العبر التى ترد مكة من خارجها ، ولكن أهل مكة كانوا يزيدون عليهم فى السلعة قيمتها حتى لا يستطيعون شراءها .

وكان حكيم بن حزام ربما يحمل قمحاً إلى عمته خديجة ؓ ، وقد تعرض له مرة أبو جهل فتعلق به ليمنعه ، فتدخل بينهما أبو البختري ، ومكنه من حمل القمح إلى عمته .

وكان أبو طالب يخاف على رسول الله ﷺ ، فكان إذا أخذ الناس مضاجعهم يأمر رسول الله ﷺ أن يضطجع على فراشه ، حتى يرى ذلك من أراد اغتياله ، فإذا نام الناس أمر أحد بنيهِ أو إخوانه أو بنى عمه فاضطجع على فراش رسول الله ﷺ ، وأمره أن يأتى بعض فرشهم .

وكان رسول الله ﷺ والمسلمون يخرجون فى أيام الموسم ، فيلقون الناس ، ويدعونهم إلى الإسلام ، وقد أسلفنا ما كان يأتى به أبو لهب .

(١) انظر : صحيح البخارى ، الفتح ٣ / ٥٢٩ ح (١٥٨٩ ، ١٥٩٠ ، ٣٨٨٢ ، ٤٢٨٤ ، ٤٢٨٥ ،

٧٤٧٩) ، وزاد المعاد ٢ / ٤٦ .

نقض صحيفة الميثاق :

مر عامان أو ثلاثة أعوام والأمر على ذلك ، وفى المحرم (١) سنة عشر من النبوة نقضت الصحيفة وفك الحصار ؛ وذلك أن قريشاً كانوا بين راض بهذا الميثاق وكاره له ، فسعى فى نقض الصحيفة من كان كارهاً لها .

وكان القائم بذلك هشام بن عمرو من بنى عامر بن لؤى - وكان يصل بنى هاشم فى الشعب مستخفياً بالليل بالطعام - فإنه ذهب إلى زهير بن أبى أمية المخزومي - وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب - وقال : يا زهير ، أرضيت أن تأكل الطعام ، وتشرب الشراب ، وأخوالك بحيث تعلم ؟ فقال : ويحك ، فما أصنع وأنا رجل واحد ؟ أما والله لو كان معى رجل آخر لقمت فى نقضها ، قال : قد وجدت رجلاً . قال : فمن هو ؟ قال : أنا . قال له زهير : ابغنا رجلاً ثالثاً .

فذهب إلى المطعم بن عدى ، فذكره أرحام بنى هاشم وبنى المطلب ابنى عبد مناف ، ولامه على موافقته لقريش على هذا الظلم ، فقال المطعم : ويحك ، ماذا أصنع ؟ إنما أنا رجل واحد ، قال : قد وجدت ثانياً ، قال : من هو ؟ قال : أنا . قال : ابغنا ثالثاً . قال : قد فعلت . قال : من هو ؟ قال : زهير بن أبى أمية ، قال : ابغنا رابعاً .

فذهب إلى أبى البختري بن هشام ، فقال له نحواً مما قال للمطعم ، فقال : وهل من أحد يعين على هذا ؟ قال : نعم . قال : من هو ؟ قال زهير بن أبى أمية ، والمطعم بن عدى ، وأنا معك ، قال : ابغنا خامساً .

فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد ، فكلمه وذكر له قرابتهم وحققهم ، فقال له : وهل على هذا الأمر الذى تدعونى إليه من أحد ؟ قال : نعم ، ثم سئى له القوم ، فاجتمعوا عند الحَجُون ، وتعاهدوا على القيام بنقض الصحيفة ، وقال زهير : أنا أبدأكم فأكون أول من يتكلم .

فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم ، وغدا زهير عليه حلة ، فطاف بالبيت سبعاً ، ثم أقبل على الناس ، فقال : يا أهل مكة ، أأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى ، لا يباع ولا يبتاع منهم ؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة .

قال أبو جهل - وكان فى ناحية المسجد : كذبت ، والله لا تشق .

فقال زمعة بن الأسود : أنت والله أكذب ، مارضينا كتابتها حيث كتبت .

قال أبو البختري : صدق زمعة ، لا نرضى ما كتب فيها ، ولا نقر به .

قال المطعم بن عدى : صدقتما ، وكذب من قال غير ذلك ، نبرأ إلى الله منها وما كتب

فيها .

(١) الدليل على هذا أن أبا طالب مات بعد نقض الصحيفة بستة أشهر ، والصحيح فى موت أبى طالب أنه فى شهر رجب . ومن يقول : إنه مات فى رمضان ، فهو يقول : إنه مات بعد نقض الصحيفة بشمانية أشهر وأيام .

وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك .

فقال أبو جهل : هذا أمر قضى بليل ، وتُشَوَّر فيه بغير هذا المكان .

وأبو طالب جالس فى ناحية المسجد ، إنما جاءهم لأن الله كان قد أطلع رسوله ﷺ على أمر الصحيفة ، وأنه أرسل عليها الأرضة ، فأكلت جميع ما فيها من جور وقطيعة وظلم إلا ذكر الله عز وجل ، فأخبر بذلك عمه ، فخرج إلى قريش فأخبرهم أن ابن أخيه قد قال كذا وكذا ، فإن كان كاذباً خلدنا بينكم وبينه ، وإن كان صادقاً رجعتنا عن قطيعتنا وظلمنا ، قالوا : قد أنصفت .

وبعد أن دار الكلام بين القوم وبين أبى جهل ، قام المطعم إلى الصحيفة ليشقها ، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا « باسمك اللهم » ، وما كان فيها من اسم الله فإنها لم تأكله .

ثم نقض الصحيفة وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من الشعب ، وقد رأى المشركون آية عظيمة من آيات نبوته ، ولكنهم - كما أخبر الله عنهم ﴿ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعَرِّضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌ ﴾ [القمر] - أعرضوا عن هذه الآية وازدادوا كفراً إلى كفرهم (١) .

(١) جمعنا تفاصيل المقاطعة من صحيح البخارى : باب نزول النبى ﷺ بمكة ١ / ٢١٦ ، وباب تقاسم المشركين على النبى ﷺ ١ / ٥٤٨ ، وراد المعاد ٢ / ٤٦ ، وابن هشام ١ / ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٧٤ - ٣٧٧ ، وغيرها .

آخر وفد قريش إلى أبي طالب

خرج رسول الله ﷺ من الشعب ، وجعل يعمل على شاكلته ، وقريش وإن كانوا قد تركوا القطيعة ، لكنهم لم يزالوا عاملين على شاكلتهم من الضغط على المسلمين والصد عن سبيل الله ، وأما أبو طالب فهو لم يزل يحوط ابن أخيه ، لكنه كان قد جاوز الثمانين من سنه ، وكانت الآلام والحوادث الضخمة المتوالية منذ سنوات - لاسيما حصار الشعب - قد وهنت وضعفت مفاصله وكسرت صلبه ، فلم يمض على خروجه من الشعب إلا أشهر معدودات ، وإذا هو يلاحقه المرض ويلج به ، وحينئذ خاف المشركون سوء سمعتهم في العرب إن أتوا بعد وفاته بمنكر على ابن أخيه ، فحاولوا مرة أخرى أن يفاوضوا النبي ﷺ بين يديه ، ويعطوا بعض ما لم يرضوا إعطاءه قبل ذلك . فقاموا بوفادة هي آخر وفادتهم إلى أبي طالب .

قال ابن إسحاق وغيره : لما اشتكى أبو طالب ، وبلغ قريشاً ثقله ، قالت قريش بعضها لبعض : إن حمزة وعمر قد أسلما ، وقد فشا أمر محمد في قبائل قريش كلها ، فانطلقوا بنا إلى أبي طالب ، فليأخذ على ابن أخيه ، وليعطه منا ، والله ما نأمن أن يبتزونا ^(١) أمرنا ، وفي لفظ : فإننا نخاف أن يموت هذا الشيخ فيكون إليه شيء فتعيرنا به العرب ، يقولون : تركوه حتى إذا مات عمه تناولوه .

مشوا إلى أبي طالب فكلموه ، وهم أشراف قومه ؛ عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، وأبو سفيان بن حرب ، في رجال من أشrafهم - وهم خمسة وعشرون تقريباً - فقالوا : يا أبا طالب ، إنك منا حيث قد علمت ، وقد حضرك ما ترى ، وتخوفنا عليك ، وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك ، فادعه فخذ له منا ، وخذ لنا منه ؛ ليكف عنا ونكف عنه ، وليدعنا وديننا وندعه ودينه ، فبعث أبو طالب ، فجاء فقال : يابن أخى ، هؤلاء أشراف قومك ، قد اجتمعوا لك ليعطوك ، وليأخذوا منك ، ثم أخبره بالذي قالوا له وعرضوا عليه من عدم تعرض كل فريق للآخر . فقال لهم رسول الله ﷺ : « أرأيتم إن أعطيتكم كلمة تكلمتم بها ، ملكتم بها العرب ، ودانت لكم بها العجم » ، وفي لفظ أنه قال مخاطباً لأبي طالب : « إنى أريدكم على كلمة واحدة يقولونها تدين لهم بها العرب ، وتؤدى إليهم بها العجم الجزية » ، وفي لفظ آخر قال : « أى عم ، أفلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم ؟ » قال : وإلام تدعوهم ؟ قال : « أدعوهم إلى أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب ، ويملكون بها العجم » ، ولفظ رواية ابن إسحاق : « كلمة واحدة تعطونها تملكون بها العرب ، وتدين لكم بها العجم » ، فلما قال هذه المقالة توقفوا وتحيروا ولم يعرفوا كيف يرفضون هذه الكلمة الواحدة النافعة إلى هذه الغاية والحد . ثم قال أبو جهل : ما هي ؟ وأبيك

(١) ابتزّه أمره : سلبه إياه وغلبه عليه .

لنعطيكمها وعشر أمثالها ، قال : تقولون : « لا إله إلا الله ، وتخلعون ما تعبدون من دونه » .
فصفقوا بأيديهم ، ثم قالوا : أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ إن أمرك لعجب .

ثم قال بعضهم لبعض : إنه والله ما هذا الرجل بمعطيك شيئاً مما تريدون ، فانطلقوا
وامضوا على دين آبائكم ، حتى يحكم الله بينكم وبينه ، ثم تفرقوا .

وفى هؤلاء نزل قوله تعالى : ﴿ ص وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ ١ ﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ
٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَا تَرْسِلْ لَنَا بَشَرًا يَذْكُرُ آلِهَتَنَا ٣ وَعَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ
الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ٤ أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ ٥ وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ
أَنْ أَمْشُوا وَأَصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ٦ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا
اخْتِلَافٌ ٧ ﴿ [ص] (١) .

(١) ابن هشام ١ / ٤١٧ - ٤١٩ ، وينظر أيضاً : الترمذی ٣٤١/٥ ح (٣٢٣٢) ، ومسند أبي يعلى
٤٥٦/٤ ح (٢٥٨٣) ، وابن جرير في تفسيره .

عام الحزن

وفاة أبى طالب :

ألح المرض بأبى طالب ، فلم يلبث أن وافته المنية ، وكانت وفاته فى رجب سنة عشر من النبوة ، بعد الخروج من الشعب بستة أشهر^(١) . وقيل : توفى فى رمضان قبل وفاة خديجة رضي الله عنها بثلاثة أيام .

وفى الصحيح عن المسيب : أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبى ﷺ وعنده أبو جهل ، فقال : « أى عم ، قل : لا إله إلا الله ، كلمة أحاج لك بها عند الله » فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية : يا أبا طالب ، ترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزالا يكلماه حتى قال آخر شيء كلمهم به : على ملة عبد المطلب ، فقال النبى ﷺ : « لأستغفرن لك ما لم أنه عنه » ، فنزلت : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ [التوبة : ١١٣] ونزلت : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص : ٥٦]^(٢)

ولا حاجة إلى بيان ما كان عليه أبو طالب من الحيطة والمنع ، فقد كان الحصن الذى احتمت به الدعوة الإسلامية من هجمات الكبراء والسفهاء ، ولكنه بقى على ملة الأشياخ من أجداده ، فلم يفلح كل الفلاح .

ففى الصحيح عن العباس بن عبد المطلب ، قال للنبى ﷺ : ما أغنيت عن عمك ، فإنه كان يحوطك ويغضب لك ؟ قال : « هو فى ضحضاح من نار ، ولولا أنا لكان فى الدرك الأسفل من النار »^(٣) .

وعن أبى سعيد الخدرى أنه سمع النبى ﷺ - وذكر عنده عمه - فقال : « لعله تنفعه شفاعتى يوم القيامة ، فيجعل فى ضحضاح من النار تبلغ كعبه »^(٤) .
خديجة إلى رحمة الله :

وبعد وفاة أبى طالب بنحو شهرين أو بثلاثة أيام - على اختلاف القولين - توفيت أم المؤمنين خديجة الكبرى رضي الله عنها ، وكانت وفاتها فى شهر رمضان فى السنة العاشرة من النبوة ، ولها خمس وستون سنة على أشهر الأقوال ، ورسول الله ﷺ إذ ذاك فى الخمسين من عمره^(٥) .

إن خديجة كانت من نعم الله الجليلة على رسول الله ﷺ ، بقيت معه ربع قرن تحن عليه ساعة قلقه ، وتوازره فى أخرج أوقاته ، وتعينه على إبلاغ رسالته ، وتشاركه فى مغارم الجهاد المر ، وتواسيه بنفسها ومالها ، يقول رسول الله ﷺ : « أمنت بى حين كفر بى الناس ،

(١) مختصر السيرة للشيخ عبد الله ص ١١١ .

(٢) - ٢) صحيح البخارى ، باب قصة أبى طالب ١ / ٥٤٨ .

(٥) نص على موتها فى رمضان من تلك السنة ابن الجوزى فى التلخيص ص ٧ .

وصدقتني حين كذبنى الناس ، وأشركتني في مالها حين حرمنى الناس ، ورزقنى الله ولدها وحرّم ولد غيرها « (١) .

وفى الصحيح عن أبى هريرة قال : أتى جبريل النّبى ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، هذه خديجة قد أتت ، معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب ، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ، وبشرها ببیت فی الجنة من قَصَبٍ لا صَخَبَ فيه ولا نَصَبَ (٢) تراكم الأحزان :

وقعت هاتان الحادثتان المؤلمتان خلال أيام معدودة ، فاهتزت مشاعر الحزن والألم في قلب رسول الله ﷺ ثم لم تزل تتوالى عليه المصائب من قومه . فإنهم تجرأوا عليه وكاشفوه بالنكال والأذى بعد موت أبى طالب ، فازداد غماً على غم ، حتى يش منهم ، وخرج إلى الطائف رجاء أن يستجيبوا لدعوته ، أو يؤووه وينصروه على قومه ، فلم ير من يؤوى ولم ير ناصراً ، بل آذوه أشد الأذى ، ونالوا منه ما لم ينله قومه .

وكما اشتدت وطأة أهل مكة على النّبى ﷺ اشتدت على أصحابه حتى التجأ رفيقه أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى الهجرة عن مكة ، فخرج حتى بلغ برك الغماد ، يريد الحبشة ، فأرجعه ابن الدغنة في جواره (٣) .

قال ابن إسحاق : لما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تطمع به في حياة أبى طالب ، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه تراباً ، ودخل بيته والتراب على رأسه ، فقامت إليه إحدى بناته فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكى ، ورسول الله ﷺ يقول لها : « لا تبكى يابنية ، فإن الله مانع أباك » . قال : ويقول بين ذلك : « ما نالت منى قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب » (٤) .

ولأجل توالى مثل هذه الآلام في هذا العام سمي بعام الحزن ، وعرف به في السيرة والتاريخ .

الزواج بسودة رضي الله عنها :

وفى شوال من هذه السنة - سنة ١٠ من النبوة - تزوج رسول الله ﷺ بسودة بنت زمعة ، كانت ممن أسلم قديماً وهاجرت الهجرة الثانية إلى الحبشة ، وكان زوجها السكران بن عمرو ، وكان قد أسلم وهاجر معها ، فمات بأرض الحبشة ، أو بعد الرجوع إلى مكة ، فلما حلت خطبها رسول الله ﷺ وتزوجها ، وكانت أول امرأة تزوجها بعد وفاة خديجة ، وكانت قد وهبت نوبتها لعائشة رضي الله عنها أخيراً (٥) .

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده ١١٨ / ٦ .

(٢) صحيح البخارى : باب تزويج النّبى ﷺ وخديجة وفضلها ١ / ٥٣٩ .

(٣) القصة بطولها مروية في صحيح البخارى ١ / ٥٥٢ ، ٥٥٣ ، وابن هشام ١ / ٣٧٢ - ٣٧٤ .

(٤) ابن هشام ١ / ٤١٦ . (٥) تلقيح فهوم أهل الأثر ص ١٠ .

عوامل الصبر والثبات

وهنا يقف الحليم حيران ، ويتساءل عقلاء الرجال فيما بينهم: ما هي الأسباب والعوامل التي بلغت بالمسلمين إلى هذه الغاية القصوى ، والحد المعجز من الثبات ؟ كيف صبروا على هذه الاضطهادات التي تقشعر لسماعها الجلود ، وترجف لها الأفتدة ؟ ونظراً إلى هذا الذي يتخالج القلوب نرى أن نشير إلى بعض هذه العوامل والأسباب إشارة عابرة بسيطة :

١ - الإيمان بالله :

إن السبب الرئيسي في ذلك أولاً وبالذات هو الإيمان بالله وحده ومعرفته حق المعرفة ، فالإيمان الجازم إذا خالطت بشاشته القلوب يزن الجبال ولا يطيش ، وإن صاحب هذا الإيمان المحكم وهذا اليقين الجازم يرى متاعب الدنيا مهما كثرت وكبرت وتفاقمت واشتدت - يراها في جنب إيمانه - طحالب عائمة فوق سبيل جارف جاء ليكسر السدود المنيع والقلاع الحصينة ، فلا يبالي بشيء من تلك المتاعب أمام ما يجده من حلاوة إيمانه ، وطراوة إذعانه ، وبشاشة يقينه ﴿ فَأَمَّا الزُّبْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الرعد : ١٧] .

ويتفرع من هذا السبب الوحيد أسباب أخرى تقوى هذا الثبات والمصابرة وهي :

٢ - قيادة تهوى إليها الأفتدة :

فقد كان النبي ﷺ - وهو القائد الأعلى للأمة الإسلامية ، بل ولل البشرية جمعاء - يتمتع من جمال الخلق ، وكمال النفس ، ومكارم الأخلاق ، والشيم النبيلة ، والشمائل الكريمة ، بما تتجاذب إليه القلوب وتتفانى دونه النفوس ، وكانت أنصبت من الكمال الذي يحبب لم يرزق بمثلها بشر . وكان على أعلى قمة من الشرف والنبيل والخير والفضل . وكان من العفة والأمانة والصدق ، ومن جميع سبل الخير على ما لم يمار ولم يشك فيه أعداؤه فضلاً عن محبيه ورفقائه ، لا تصدر منه كلمة إلا ويستيقنون صدقها .

اجتمع ثلاثة نفر من قريش ، وكان قد استمع كل واحد منهم إلى القرآن سراً عن صاحبيه ، ثم انكشف سرهم ، فسأل أحدهم أبا جهل - وكان من أولئك الثلاثة: ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف؛ أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب ، وكنا ككَرْسَى رَهَان قالوا: لنا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً، ولا نصدقه (١) .

وكان أبو جهل يقول : يا محمد، إنا لا نكذبك ولكن نكذب بما جئت به ، فأنزل الله: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام] (٢)

وغمزه ﷺ الكفار يوماً ثلاث مرات فقال في الثالثة : « يا معشر قريش ، جئتكم

(١) ابن هشام ١ / ٣١٦ .

(٢) رواه الترمذی فی تفسیر سورة الأنعام ٥ / ٢٤٣ ح (٣٠٦٤) .

بالذبح » ، فأخذتهم تلك الكلمة حتى إن أشدهم عداوة يرفؤه بأحسن ما يجد عنده .
ولما ألقوا عليه سلاً جَزُورٌ وهو ساجد ، دعا عليهم ، فذهب عنهم الضحك ،
وساورهم الهم والقلق ، وأيقنوا أنهم هالكون .

ودعا على عتبة بن أبي لهب فلم يزل على يقين من لقاء ما دعا به عليه حتى إنه حين
رأى الأسد قال : قتلنى والله - محمد - وهو بمكة .

وكان أبى بن خلف يتوعده بالقتل . فقال : « بل أنا أقتلك إن شاء الله » ، فلما طعن
أبياً فى عنقه يوم أحد - وكان خدشاً غير كبير - كان أبى يقول : إنه قد كان قال لى بمكة : أنا
أقتلك ، فو الله لو بصق على لقتلنى (١) - وسيأتى .

وقال سعد بن معاذ - وهو بمكة - لأمية بن خلف : لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول :
« إنهم - أى المسلمين - قاتلوكم » ففرغ فزعاً شديداً ، وعهد ألا يخرج عن مكة ، ولما ألجأه أبو
جهل للخروج يوم بدر اشترى أجود بغير بمكة ليتمكن من الفرار ، وقالت له امرأته : يا أبا
صفوان ، وقد نسيت ما قال لك أخوك الثيربى؟ قال : لا والله ما أريد أن أجوز معهم إلا
قريباً (٢) .

هكذا كان حال أعدائه ﷺ ، أما أصحابه ورفقاؤه فقد حل منهم محل الروح والنفس ،
وشغل منهم مكان القلب والعين ، فكان الحب الصادق يندفع إليه اندفاع الماء إلى الحُذور ،
وكانت النفوس تنجذب إليه انجذاب الحديد إلى المغناطيس .

فصورته هوى كل جسم ومغناطيس أفئدة الرجال

وكان من أثر هذا الحب والتفانى أنهم كانوا ليرضون أن تندق أعناقهم ولا يחדش له ظفر
أو يشاك شوكة .

وطئ أبو بكر بن أبى قحافة يوماً بمكة ، وضرب ضرباً شديداً ، دنا منه عتبة بن ربيعة
فجعل يضربه بنعلين مخصوفين ويحرفهما لوجهه ، ونزا على بطن أبى بكر ، حتى ما
يعرف وجهه من أنفه ، وحملت بنو تيم أباً بكر فى ثوب حتى أدخلوه منزله ، ولا يشكون
فى موته ، فتكلم آخر النهار فقال : ما فعل رسول الله ﷺ ؟ فمسوا منه بالستهم وعذلوه ،
ثم قاموا وقالوا لأمه أم الخير : انظرى أن تطعميه شيئاً أو تسقيه إياه ، فلما خلت به أخت
عليه ، وجعل يقول : ما فعل رسول الله ﷺ ؟ فقالت : والله لا علم لى بصاحبك ،
فقال : اذهبى إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه ، فخرجت حتى جاءت أم جميل
فقالت : إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله ، قالت : ما أعرف أبا بكر ولا محمد
ابن عبد الله ، وإن كنت تحيين أن أذهب معك إلى ابنك ذهبت ، قالت : نعم ، فمضت
معها حتى وجدت أبا بكر صريعاً دنفاً ، فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح ، وقالت : وألله إن
قوماً نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر ، وإنى لأرجو أن ينتقم الله لك منهم ، قال : فما
فعل رسول الله ﷺ ؟ قالت : هذه أمك تسمع ، قال : فلا شيء عليك منها ، قالت :
سالم صالح ، فقال : أين هو ؟ قالت : فى دار ابن الأرقم ، قال : فإن لله على ألا أدوق
طعاماً ولا أشرب شراباً أو أتى رسول الله ﷺ ، فأمهلتنا حتى إذا هدأت الرُّجُل ، وسكن

الناس خرجتا به ، يتكئ عليهما ، حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ (١) .

وسننقل نواذر الحب والتفانى فى مواضع شتى من هذا الكتاب ، ولا سيما ما وقع فى يوم أحد ، وما وقع من خبيب وأمثاله .

٣- الشعور بالمسئولية :

فكان الصحابة يشعرون شعوراً تاماً ما على كواهل البشر من المسئولية الفخمة الضخمة ، وأن هذه المسئولية لا يمكن عنها الحياد والانحراف بحال ، فالعواقب التى تترتب على الفرار عن تحملها أشد وخامة وأكبر ضرراً عما هم فيه من الاضطهاد ، وأن الخسارة التى تلحقهم - وتلحق البشرية جمعاء - بعد هذا الفرار لا يقاس بحال على المتاعب التى كانوا يواجهونها نتيجة هذا التحمل .

٤- الإيمان بالآخرة :

وهو مما كان يقوى هذا الشعور - الشعور بالمسئولية - فقد كانوا على يقين جازم بأنهم يقومون لرب العالمين ، ويحاسبون على أعمالهم دقها وجلها ، صغيرها وكبيرها ، فإما إلى النعيم المقيم ، وإما إلى عذاب خالد فى سواء الجحيم ، فكانوا يقضون حياتهم بين الخوف والرجاء ، يرجون رحمة ربهم ويخافون عذابه ، وكانوا ﴿ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ رَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ (١٠) [المؤمنون] ، وكانوا يعرفون أن الدنيا بعذابها ونعيمها لا تساوى جناح بعوضة فى جنب الآخرة ، وكانت هذه المعرفة القوية تهون لهم متاعب الدنيا ومشاقها ومرارتها ؛ حتى لم يكونوا يكثرثون لها ويلقون إليها بالاً .

٥- القرآن :

وفى هذه الفترات العصيبة الرهيبة الحالكة كانت تنزل السور والآيات تقيم الحجج والبراهين على صدق مبادئ الإسلام - التى كانت الدعوة تدور حولها - بأساليب منيعة خلافة ، وترشد المسلمين إلى أسس قدر الله أن يتكون عليها أعظم وأروع مجتمع بشرى فى العالم - وهو المجتمع الإسلامى - وتثير مشاعر المسلمين ونوازعهم على الصبر والتجلد ، تضرب لذلك الأمثال ، وتبين لهم ما فيه من الحكم ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مِّثْلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهِمُ الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَزَلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (٢١٤) [البقرة] ﴿ أَلَمْ أَحْسِبِ النَّاسَ أَن يَتَرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ (٢) ولقد فتننا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴿ (٣) ﴾

[العنكبوت]

كما كانت تلك الآيات ترد على إيرادات الكفار والمعادين رداً مفهماً ، ولا تبقى لهم حيلة ، ثم تحذرهم سرة عن غواقب وخيمة - إن أصروا على غيهم وعنادهم - فى ابتلاء ووضوح ، مستدلة بأيام الله ، والشواهد التاريخية التى تدل على سنة الله فى أوليائه وأعدائه ، وتلطفهم مرة ، وتؤدى حق التفهيم والإرشاد والتوجيه حتى ينصرفوا عما هم فيه

من الضلال المبين .

وكان القرآن يسير بالمسلمين فى عالم آخر ، ويصبرهم من مشاهد الكون وجمال الربوبية ، وكمال الألوهية ، وآثار الرحمة والرأفة ، وتجليات الرضوان ما يحنون إليه حينئذ لا يقوم له أى عقبة .

وكانت فى طي هذه الآيات خطابات للمسلمين ، فيها ﴿ يَشْرَهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾ [التوبة ٢١] ، وتصور لهم صورة أعدائهم من الكفرة الطغاة الظالمين يحاكمون ويصادرون ، ثم ﴿ يَسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ [القمر ٤٨] .

٦ - البشارات بالنجاح:

ومع هذا كله كان المسلمون يعرفون منذ أول يوم لاقوا فيه الشدة والاضطهاد - بل ومن قبله - أن الدخول فى الإسلام ليس معناه جر المصائب والخوف ، بل إن الدعوة الإسلامية تهدف - منذ أول يومها - إلى القضاء على الجاهلية الجهلاء ونظامها الغاشم ، وأن من نتائجها فى الدنيا بسط النفوذ على الأرض ، والسيطرة على الموقف السياسى فى العالم لتقود الأمة الإنسانية والجمعية البشرية إلى مرضاة الله، وتخرجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله .

وكان القرآن ينزل بهذه البشارات - مرة بالصراحة وأخرى بالكناية - ففى تلك الفترات القاصمة التى ضيقت الأرض على المسلمين ، وكادت تخنقهم وتقضى على حياتهم كانت تنزل الآيات بما جرى بين الأنبياء السابقين وبين أقوامهم الذين قاموا بتكذيبهم والكفر بهم ، وكانت تشتمل هذه الآيات على ذكر الأحوال التى تطابق تماماً أحوال مسلمى مكة وكفارها ، ثم تذكر هذه الآيات بما تمخضت عنه تلك الأحوال من إهلاك الكفرة والظالمين ، وإيراث عباد الله الصالحين الأرض والديار . فكانت فى هذه القصص إشارات واضحة إلى فشل أهل مكة فى المستقبل ، ونجاح المسلمين مع نجاح الدعوة الإسلامية .

وفى هذه الفترات نزلت آيات تصرح ببشارة غلبة المؤمنين ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾ [١٧١] إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنْ جُنَدُنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصَرَهُمْ فُسُوفَ يُصْبِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَعِزُّنَا بِنِعْمَتِ الْجَوَالِغِ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ [الصفات] ، وقال : ﴿ سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدَّبِيرَ ﴾ [القمر] ، وقال : ﴿ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴾ [ص] . ونزلت فى الذين هاجروا إلى الحبشة : ﴿ الَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لِنُبُوَّتِهِمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلِأَجْرِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل ٤١] . وسألوه عن قصة يوسف فانزل الله فى طيها : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلنَّاسِ لَئِيْلَ أَنْ يَرْجِعُوا إِلَى اللَّهِ ﴾ [يوسف ٧] . أى فأهل مكة السائلون يلاقون ما لاقى إخوانه من الفشل ، ويستسلمون كاستسلامهم ، وقال وهو يذكر الرسل : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُولُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٢﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدَ ﴾ [إبراهيم ١٤] . وحينما كانت الحرب مشتعلة بين الفرس والرومان ، وكان الكفار يحبون غلبة الفرس لكونهم مشركين ، والمسلمون يحبون غلبة الرومان لكونهم مؤمنين بالله والرسل والوحى والكتب واليوم الآخر ، وكانت الفرس

يغلبون ويتقدمون ، أنزل الله بشارة بغلبة الروم فى بضع سنين ، ولكنه لم يقتصر على هذه البشارة الواحدة ، بل صرح ببشارة أخرى ، وهى نصر الله للمؤمنين حيث قال : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ ﴾ [الروم] .

وكان رسول الله ﷺ نفسه يقوم بمثل هذه البشارات بين أونة وأخرى ، فكان إذا وافى الموسم ، وقام بين الناس فى عكاظ ، ومَجَنَّة ، وذى المجاز لتبليغ الرسالة ، لم يكن يبشرهم بالجنة فحسب ، بل يقول لهم بكل صراحة : « يأيتها الناس ، قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا ، وتلكوا بها العرب ، وتدين لكم بها العجم ، فإذا متم كنتم ملوكاً فى الجنة » (١) .

وقد أسلفنا ما أجاب به النبى ﷺ عتبة بن ربيعة حين أراد مساومته على رغائب الدنيا ، وما فهمه ورجاه عتبة من ظهور أمره عليه الصلاة والسلام .

وكذلك ما أجاب به النبى ﷺ آخر وفد جاء إلى أبى طالب ، فقد صرح لهم أنه يطلب منهم كلمة واحدة يعطونها تدين لهم بها العرب ، ويملكون العجم .

وقال خباب بن الأرت : أتيت النبى ﷺ وهو متوسد برده وهو فى ظل الكعبة ، وقد لقينا من المشركين شدة ، فقلت : ألا تدعو الله ، فقعد ، وهو محمر وجهه ، فقال : « لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه ، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله - زاد بيان الراوى - والذئب على غنمه » (٢) وفى رواية : « ولكنكم تستعجلون » (٣) .

ولم تكن هذه البشارات مخفية مستورة ، بل كانت فاشية مكشوفة ، يعلمها الكفرة ، كما كان يعلمها المسلمون ، حتى كان الأسود بن المطلب وجلساؤه إذا رأوا أصحاب النبى ﷺ تغامزوا بهم ، وقالوا : قد جاءكم ملوك الأرض الذين يرثون كسرى وقيصر ، ثم يصفرون ويصفقون (٤) .

وأمام هذه البشارات بالمستقبل المجيد المستنير فى الدنيا ، مع ما فيه من الرجاء الصالح الكبير البالغ إلى النهاية فى الفوز بالجنة كان الصحابة يرون أن الاضطهادات التى تتوالى عليهم من كل جانب ، والمصائب التى تحيط بهم من كل الأرجاء ليست إلا : « سحابة صيف عن قليل تقشع » .

هذا ولم يزل الرسول ﷺ يغذى أرواحهم برغائب الإيمان ، ويزكى نفوسهم بتعليم الحكمة والقرآن ، ويربيهم تربية دقيقة عميقة ، يحدو بنفوسهم إلى منازل سمو الروح ، ونقاء القلب ، ونظافة الخلق ، والتحرر من سلطان الماديات ، والمقاومة للشهوات ، والنزوع إلى رب الأرض والسموات ، ويذكى جمرة قلوبهم ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويأخذهم بالصبر على الأذى ، والصفح الجميل ، وقهر النفس . فازدادوا رسوخاً فى الدين ، وعزواً عن الشهوات ، وتفاًناً فى سبيل المروءة ، وحنيناً إلى الجنة ، وحرصاً على العلم ، وفقهاً فى الدين ، ومحاسبة للنفس ، وقهراً للنزعات وغلبة على العواطف ، وتسيطراً على التأثيرات والهائجات ، وتقيداً بالصبر والهدوء والوقار .

(٢) صحيح البخارى ١ / ٥٤٣ .

(٤) السيرة الحلبية ١ / ٥١١ ، ٥١٢ .

(١) ابن سعد ١ / ٢١٦ .

(٣) المصدر نفسه ١ / ٥١٠ .

المرحلة الثالثة دعوة الإسلام خارج مكة

الرسول ﷺ في الطائف :

فى شوال سنة عشر من النبوة (فى أواخر مايو أو أوائل يونيو سنة ٦١٩ م) خرج النبى ﷺ إلى الطائف ، وهى تبعد عن مكة نحو ستين ميلاً ، سارها ماشياً على قدميه جبهة وذهوياً ، ومعه مولاة زيد بن حارثة ، وكان كلما مر على قبيلة فى الطريق دعاهم إلى الإسلام ، فلم تجب إليه واحدة منها .

فلما انتهى إلى الطائف عمد ثلاثة إخوة من رؤساء ثقيف ، وهم عبد ياليل ومسعود وحبيب أبناء عمرو بن عمير الثقفى ، فجلس إليهم ودعاهم إلى الله ، وإلى نصره الإسلام ، فقال أحدهم : هو يَمْرُطُ ثياب الكعبة (أى يمزقها) إن كان الله أرسلك . وقال الآخر : أما وَجَدَ الله أحداً غيرك ، وقال الثالث : والله لا أكلمك أبداً ، إن كنت رسولاً لانت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغى أن أكلمك . فقام عنهم رسول الله ﷺ وقال لهم : « إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني » .

وأقام رسول الله ﷺ بين أهل الطائف عشرة أيام ، لا يدع أحداً من أشrafهم إلا جاءه وكلمه ، فقالوا : اخرج من بلادنا . وأغروا به سفهاءهم ، فلما أراد الخروج تبعه سفهاؤهم وعبيدهم يسبونهم ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس ، فوقفوا له سِماطين (أى ضفين) وجعلوا يرمونه بالحجارة ، وبكلمات من السفه ، ورجموا عراقبيه ، حتى اختضب نعلاه بالدماء . وكان زيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى أصابه شجاج فى رأسه ، ولم يزل به السفهاء كذلك حتى ألبأوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة على ثلاثة أميال من الطائف ، فلما التجأ إليه رجعوا عنه ، وأتى رسول الله ﷺ إلى حُبلة من عنب فجلس تحت ظلها إلى جدار . فلما جلس إليه واطمأن ، دعا بالدعاء المشهور الذى يدل على امتلاء قلبه كآبة وحزناً مما لقى من الشدة ، وأسفاً على أنه لم يؤمن به أحد ، قال :

« اللهم إليك أشكو ضَعْف قُوَّتِي ، وقلة حيلتي ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته امرى ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل على سَخَطُك ، لك العُتْبَى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » .

فلما رآه ابنا ربيعة تحركت له رحمهما ، فدعوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له : عَدَّاس ، وقالوا له : خذ قطعاً من هذا العنب ، واذهب به إلى هذا الرجل . فلما وضعه بين يدي رسول الله ﷺ مد يده إليه قائلاً : « باسم الله » ثم أكل .

فقال عداس : إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد ، فقال له رسول الله ﷺ : « من أى البلاد أنت ؟ وما دينك ؟ » قال : أنا نصرانى من أهل « نينوى » . فقال رسول الله ﷺ : « من قرية الرجل الصالح يونس بن متى » . قال له : وما يدريك ما يونس ابن متى ؟ قال رسول الله ﷺ : « ذاك أخى ، كان نبياً وأنا نبى » ، فأكب عداس على رأس رسول الله ﷺ ويديه ورجليه يقبلها .

فقال ابنا ربيعة أحدهما للآخر : أما غلامك فقد أفسده عليك . فلما جاء عداس قال له : ويحك ما هذا ؟ قال : يا سيدى ، ما فى الأرض شئ خير من هذا الرجل ، لقد أخبرنى بأمر لا يعلمه إلا نبى ، قال له : ويحك يا عداس ، لا يصرفنك عن دينك ، فإن دينك خير من دينه (١) .

ورجع رسول الله ﷺ فى طريق مكة بعد خروجه من الحائط كثيراً محزوناً كبير القلب ، فلما بلغ قرن المنازل بعث الله إليه جبريل ومعه ملك الجبال ، يستأمره أن يطبق الأخشين على أهل مكة .

وقد روى البخارى تفصيل القصة - بسنده - عن عروة بن الزبير ، أن عائشة رضيها حدثته أنها قالت للنبي ﷺ : هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد ؟ قال : « لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجبنى إلى ما أردت ، فانطلقت - وأنا مهموم - على وجهى ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب - وهو المسمى بقرن المنازل - فرفعت رأسى فإذا أنا بنسحابة قد أظلمت ، فنظرت فإذا فيها جبريل ، فنادانى ، فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم . فنادانى ملك الجبال ، فسلم على ثم قال : يا محمد ، ذلك ، فما شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين » - أى لفعلت ، والأخشبان : هما جبلا مكة : أبو قبيس والذى يقابله ، وهو قُفَيْعَان - قال النبى ﷺ : « بل أرجو أن يخرج الله عز وجل من أصلاهم من يعبد الله عز وجل وحده لا يشرك به شيئاً » (٢)

وفى هذا الجواب الذى أدلى به الرسول ﷺ تتجلى شخصيته الفذة ، وما كان عليه من الخلق العظيم لا يدرك غوره .

وأفاق رسول الله ﷺ واطمأن قلبه لأجل هذا النصر الغيبي الذى أمده الله عليه من فوق سبع سموات ، ثم تقدم فى طريق مكة حتى بلغ وادى نخلة ، وأقام فيه أياماً . وفى وادى نخلة موضعان يصلحان للإقامة - السيل الكبير والزيمة - لما بهما من الماء والخصب ، ولم نقف على مصدر يعين موضع إقامته ﷺ فيه .

وخلال إقامته ﷺ هناك بعث الله إليه نفرأ من الجن (٣) ذكرهم الله فى موضعين من

(١) ملخصاً من : ابن هشام ١ / ٤١٩ - ٤٢١ .

(٢) صحيح البخارى : كتاب بدء الخلق ح (٣٢٣١ ، ٧٣٨٩) ، فتح البارى ٦ / ٣٦٠ ، ومسلم : باب ما لقى النبى ﷺ من أذى المشركين والمنافقين ٢ / ١٠٩ .

(٣) انظر : صحيح البخارى : كتاب الصلاة ، باب الجهر بقراءة صلاة الفجر ١ / ١٩٥ .

القرآن : في سورة الأحقاف : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمْعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصَبُوا لَنَا مِمَّا قُضِيَ وَلَوْ أَنَّا إِلَى قَوْمِهِمْ مُّندَرِينَ ﴾ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٣١) [الأحقاف] .

وفى سورة الجن : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴾ (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ (٢) إلى تمام الآية الخامسة عشر [الجن] .

ومن سياق هذه الآيات - وكذا من سياق الروايات التي وردت في تفسير هذا الحادث - يتبين أن النبي ﷺ لم يعلم حضور ذلك نفر من الجن حين حضروا وسمعوا ، وإنما علم بعد ذلك حين أطلعه الله عليه بهذه الآيات ، وأن حضورهم هذا كان لأول مرة ، ويتقضى سياق الروايات أنهم وفدوا بعد ذلك مراراً .

وحقاً كان هذا الحادث نصراً آخر أمدّه الله من كنوز غيبه المكنون بجنوده التي لا يعلمها إلا هو ، ثم إن الآيات التي نزلت بصدد هذا الحادث كانت في طيها بشارات بنجاح دعوة النبي ﷺ ، وأن أى قوة من قوات الكون لا تستطيع أن تحول بينها وبين نجاحها : ﴿ وَمَنْ لَا يَجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٣٢) [الأحقاف] ، ﴿ وَأَنَا ظَنَنَّا أَنَّ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا ﴾ (٣٣) [الجن] .

أمام هذه النصرة ، وأمام هذه البشارات ، أفضت سحابة الكآبة والحزن واليأس التي كانت مطبقة عليه منذ أن خرج من الطائف مطروداً مدحوراً ، حتى صمم على العود إلى مكة ، وعلى القيام باستئناف خطته الأولى في عرض الإسلام وإبلاغ رسالة الله الخالدة بنشاط جديد وبجد وحماس .

وحينئذ قال له زيد بن حارثة : كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك ؟ يعنى قريشاً ، فقال : « يا زيد ، إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً ، وإن الله ناصر دينه ، ومظهر نبيه » . وسار رسول الله ﷺ حتى إذا دنا من مكة مكث بجرأء ، وبعث رجلاً من خزاعة إلى الأخنس بن شريق ليجيره ، فقال : أنا حليف ، والحليف لا يجير ، فبعث إلى سهيل بن عمرو ، فقال سهيل : إن بنى عامر لا تحير على بنى كعب ، فبعث إلى المطعم بن عدى ، فقال المطعم : نعم ، ثم تسلح ودعا بنيه وقومه ، فقال : البسوا السلاح ، وكونوا عند أركان البيت ، فإني قد أجرت محمداً ، ثم بعث إلى رسول الله ﷺ : أن ادخل ، فدخل رسول الله ﷺ ومعه زيد بن حارثة حتى انتهى إلى المسجد الحرام ، فقام المطعم بن عدى على راحلته فنادى : يا معشر قريش ، إني قد أجرت محمداً فلا يهجه أحد منكم ، وانتهى رسول الله ﷺ إلى الركن فاستلمه ، وطاف بالبيت ، وصلى ركعتين ، وانصرف إلى بيته ، ومطعم بن عدى وولده محدقون به بالسلاح حتى دخل بيته .

وقيل : إن أبا جهل سأل مطعماً : أمجير أنت أم متابع - مسلم ؟ . قال : بل مجير .

قال : قد أجرنا من أجرت (١) .

وقد حفظ رسول الله ﷺ للمطعم هذا الصنيع ، فقال فى أسارى بدر: « لو كان المطعم ابن عدى حياً ثم كلمنى فى هؤلاء التنى لتركتهم له » (٢) .

(١) ابن هشام ١ / ٣٨١ مختصراً ، وزاد المعاد ٢ / ٤٦ ، ٤٧ .

(٢) صحيح البخارى ٢ / ٥٧٣ .

عرض الإسلام على القبائل والأفراد

فى ذى القعدة سنة عشر من النبوة - فى أواخر يونيو أو أوائل يوليو سنة ٦١٩ م - عاد رسول الله ﷺ إلى مكة ؛ ليستأنف عرض الإسلام على القبائل والأفراد ، ولاقترب الموسم كان الناس يأتون إلى مكة رجالا ، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق لأداء فريضة الحج ، وليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات ، فانتبهز رسول الله ﷺ هذه الفرصة ، فأتاهم قبيلة قبيلة يعرض عليهم الإسلام ويدعوهم إليه ، كما كان يدعوهم منذ السنة الرابعة من النبوة ، وقد بدأ يطلب منهم من هذه السنة - العاشرة - أن يؤووه وينصروه ويمنعوه حتى يبلغ ما بعثه الله به .

القبائل التى عرض عليها الإسلام :

قال الزهرى : وكان ممن يسمى لنا من القبائل الذين أتاهم رسول الله ﷺ ، ودعاهم وعرض نفسه عليهم : بنو عامر بن صعصعة ، ومُحَارِب بن خَصَفَة ، وفزارة ، وغسان ، ومرة ، وحنيفة ، وسليم ، وعَبَس ، وبنو نصر ، وبنو الْبَكَاء ، وكندة ، وكلب ، والحارث ابن كعب ، وعُدْرَة ، والحضارمة ، فلم يستجب منهم أحد (١) .

وهذه القبائل التى سماها الزهرى لم يكن عرض الإسلام عليها فى سنة واحدة ولا فى موسم واحد ، بل إنما كان ما بين السنة الرابعة من النبوة إلى آخر موسم قبل الهجرة . ولا يمكن تسمية سنة معينة لعرض الإسلام على قبيلة معينة ، ولكن الأكثر كان فى السنة العاشرة .

أما كيفية عرض الإسلام على هذه القبائل ، وكيف كانت ردودهم على هذا العرض فقد ذكرها ابن إسحاق ، ونلخصها فيما يلى :

١ - بنو كلب : أتى النبی ﷺ إلى بطن منهم يقال لهم : بنو عبد الله ، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه ، حتى إنه ليقول لهم : « يا بنى عبد الله ، إن الله قد أحسن اسم أبيكم » ، فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم .

٢ - بنو حنيفة : أتاهم فى منازلهم فدعاهم إلى الله ، وعرض عليهم نفسه ، فلم يكن أحد من العرب أقبح عليه رداً منهم .

٣ - وأتى إلى بنى عامر بن صعصعة : فدعاهم إلى الله ، وعرض عليهم نفسه ، فقال يَحْرَة بن فِرَاس (رجل منهم) : والله ، لو أتى أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب ، ثم قال : أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ، ثم أظهرك الله على من خالفك أكون لنا الأمر من بعدك ؟ قال : « الأمر إلى الله ، يضعه حيث يشاء » ، فقال له : أفتَهْدُ نحورنا للعرب دونك ، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ، لا حاجة لنا بأمرك ، فأبوا عليه .

ولما رجعت بنو عامر تحدثوا إلى شيخ لهم لم يواف الموسم لكبر سنه ، وقالوا له : جاءنا فتى من قريش من بنى عبد المطلب يزعم أنه نبي ، يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه ، ونخرج به إلى بلادنا ، فوضع الشيخ يديه على رأسه ثم قال : يا بنى عامر وهل لها من تلاف ؟ هل لذُنَابُهَا ^(١) من مَطْلَب ؟ والذى نفس فلان بيده ما تَقَوَّلَهَا إسماعيلي قط ، وإنها لحق ، فأين رأيكم كان عنكم؟ ^(٢) .

المؤمنون من غير أهل مكة :

وكما عرض رسول الله ﷺ الإسلام على القبائل والوفود ، عرض على الأفراد والأشخاص ، وحصل من بعضهم على ردود صالحة ، وآمن به عدة رجال بعد هذا الموسم بقليل ، وهاك نبذة منهم :

١ - سويد بن الصامت :

كان شاعراً ليبياً ، من سكان يثرب ، يسميه قومه « الكامل » لجلده وشعره وشرفه ونسبه ، جاء مكة حاجاً أو معتمراً ، فدعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام ، فقال : لعل الذى معك مثل الذى معي . فقال له رسول الله ﷺ : « وما الذى معك ؟ » قال : حكمة لقمان . قال : « اعرضها على » . فعرضها ، فقال له رسول الله ﷺ : « إن هذا لكلام حسن ، والذى معي أفضل من هذا ؛ قرآن أنزله الله تعالى على ، هو هدى ونور » ، فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن ، ودعاه إلى الإسلام ، فأسلم ، وقال : إن هذا لقول حسن . فلما قدم المدينة لم يلبث أن قتل في وقعة بين الأوس والخزرج قبل يوم بعث ^(٣) . والأغلب أنه أسلم في أوائل السنة الحادية عشرة من النبوة .

٢ - إياس بن معاذ :

كان غلاماً حدثاً من سكان يثرب ، قدم في وفد من الأوس ، جاءوا يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج ، وذلك قبيل حرب بعث في أوائل سنة ١١ من النبوة ؛ إذ كانت نيران العداوة متقدة في يثرب بين القبيلتين - وكان الأوس أقل عدداً من الخزرج - فلما علم رسول الله ﷺ بمقدمهم جاءهم ، فجلس إليهم ، وقال لهم : « هل لكم في خير مما جئتم له ؟ » فقالوا : وما ذاك ؟ قال : « أنا رسول الله ، يعثنى إلى العباد ، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً ، وأنزل على الكتاب » ، ثم ذكر لهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن . فقال إياس بن معاذ : أى قوم ، هذا والله خير مما جئتم له ، فأخذ أبو الحيسر أنس بن رافع - رجل من الوفد - حفنة من تراب البطحاء فرمى بها وجه إياس ، وقال : دعنا فلعمري لقد جئنا لغير هذا ، فصمت إياس ، وقام رسول الله ﷺ ، وانصرفوا إلى المدينة من غير أن ينجحوا في عقد حلف مع قريش .

(١) مثل يضرب لما فات ، وأصله من ذنابى الطائر إذا أفلت من حباله ، فطلبت الأخذ بذنابها .

(٢) ابن هشام ١ / ٤٢٤ ، ٤٢٥ .

(٣) ابن هشام ١ / ٤٢٥ - ٤٢٧ ، والاستيعاب ٢ / ٦٧٧ ، وأسد الغابة ٢ / ٣٣٧ .

وبعد رجوعهم إلى يثرب لم يلبث إياس أن هلك ، وكان يهمل ويكبر ويحمد ويسبح عند موته ، فلا يشكون أنه مات مسلماً (١) .

٣ - أبو ذر الغفاري :

وكان من سكان نواحي يثرب ، ولعله لما بلغ إلى يثرب خبر مبعث النبي ﷺ بسويد بن الصامت وإياس بن معاذ، وقع في أذن أبي ذر أيضاً ، وصار سبباً لإسلامه .

روى البخاري عن ابن عباس قال : قال أبو ذر : كنت رجلاً من غفار ، فبلغنا أن رجلاً قد خرج بمكة يزعم أنه نبي ، فقلت لأخي : انطلق إلى هذا الرجل وكلمه ، واتنني بخبره ، فانطلق فلقيه ، ثم رجع ، فقلت : ما عندك ؟ فقال : والله ، لقد رأيت رجلاً يأمر بالخير ، وينهى عن الشر ، فقلت له : لم تشفني من الخبر ، فأخذت جراباً وعصاً ، ثم أقبلت إلى مكة ، فجعلت لا أعرفه ، وأكره أن أسأل عنه ، وأشرب من ماء زمزم وأكون في المسجد . قال : فمر بي عليّ . فقال : كان الرجل غريب ؟ قال : قلت : نعم . فقال : فانطلق إلى المنزل ، فانطلقت معه لا يسألني عن شيء ولا أسأله ولا أخبره . فلما أصبحت غدوت إلى المسجد لأسأل عنه ، وليس أحد يخبرني عنه بشيء . قال : فمر بي عليّ فقال : أما نال (٢) للرجل يعرف منزله بعد ؟ قال : قلت : لا . قال : فانطلق معي ، قال : فقال : ما أمرك ؟ وما أقدمك هذه البلدة ؟ قال : قلت له : إن كنت عليّ أخبرتك ، قال : فإني أفعل ، قال : قلت له : بلغنا أنه قد خرج هاهنا رجل يزعم أنه نبي الله ، فأرسلت أخى يكلمه فرجع ولم يشفني من الخبر، فأردت أن ألقاه .

فقال له : أما إنك قد رشدت . هذا وجهي إليه ، ادخل حيث أدخل فلإني إن رأيت أحداً أخافه عليك قمت إلى الخائط كأني أصلح نعلی ، وامض أنت . فمضى ومضيت معه حتى دخل، ودخلت معه على النبي ﷺ، فقلت له : اعرض عليّ الإسلام . فعرضه ، فأسلمت مكانی ، فقال لی : « يا أبا ذر ، اكتم هذا الأمر ، وارجع إلى بلدك ، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل » . فقلت : والذي بعثك بالحق لأصرخن بها بين أظهرهم ، فجت إلى المسجد ، وقریش فيه ، فقلت : يا معشر قریش ، إني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فقالوا : قوموا إلى هذا الصابي . فقاموا ، فضربت لأموت ، فأدركني العباس فأكب عليّ ، ثم أقبل عليهم فقال : ويلكم تقتلون رجلاً من غفار ؟ ومتجرکم وممرکم على غفار ، فأقلعوا عني . فلما أن أصبحت الغد ، رجعت ، فقلت مثل ما قلت بالأمس . فقالوا : قوموا إلى هذا الصابي ، فصنع بي ما صنع بالأمس ، فأدركني العباس ، فأكب عليّ وقال مثل مقالته بالأمس (٣) .

٤ - طفيل بن عمرو الدوسي :

كان رجلاً شريفاً ، شاعراً ليبياً ، رئيس قبيلة دوس ، وكانت لقبيلته إمارة أو شبه إمارة في بعض نواحي اليمن ، قدم مكة في عام ١١ من النبوة ، فاستقبله أهلها قبل وصوله إليها ،

(٢) حان .

(١) ابن هشام ١ / ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ومسنند أحمد ٥ / ٤٢٧ .

(٣) صحيح البخاري : باب قصة زمزم ١ / ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، وباب إسلام أبي ذر ١ / ٥٤٤ ، ٥٤٥ .

وبذلوا له أجل تحية وأكرم تقدير ، وقالوا له : يا طفيل ، إنك قدمت بلادنا ، وهذا الرجل الذى بين أظهرنا قد أعضل بنا ، وقد فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وإنما قوله كالسحر ، يفرق بين الرجل وأبيه ، وبين الرجل وأخيه ، وبين الرجل وزوجه ، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا ، فلا تكلمه ولا تسمعن منه شيئاً .

يقول طفيل : فوالله ما زالوا بى حتى أجمعت ألا أسمع منه شيئاً ، ولا أكلمه ، حتى حشوت أذنى حين غدوت إلى المسجد كرسفاً ؛ فرقاً من أن يبلغنى شيء من قوله ، قال : فغدوت إلى المسجد فإذا هو قائم يصلى عند الكعبة ، فقممت قريباً منه ، فأبى الله إلا أن يسمعنى بعض قوله ، فسمعت كلاماً حسناً ، فقلت فى نفسى : وا تكل أمى ، والله إنى رجل لبيب شاعر ؛ ما يخفى على الحسن من القبيح ، فما يمتنعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ؟ فإن كان حسناً قبلته ، وإن كان قبيحاً تركته ، فمكثت حتى انصرف إلى بيته فاتبعته ، حتى إذا دخل بيته دخلت عليه ، فعرضت عليه قصة مقدمى ، وتخويف الناس إياى ، وسد الأذن بالكرسف ، ثم سماع بعض كلامه ، وقلت له : اعرض على أمرك ، فعرض على الإسلام ، وتلا على القرآن . فوالله ما سمعت قولاً قط أحسن منه ، ولا أمراً أعدل منه ، فأسلمت وشهدت شهادة الحق ، وقلت له : إنى مطاع فى قومى ، وراجع إليهم ، وداعبهم إلى الإسلام ، فادع الله أن يجعل لى آية ، فدعا .

وكانت آيته أنه لما دنا من قومه جعل الله نوراً فى وجهه مثل المصباح ، فقال : اللبهم فى غير وجهى . أخشى أن يقولوا : هذه مثلة ، فتحول النور إلى سوطه ، فدعا أباه وزوجته إلى الإسلام فأسلما ، وأبطأ عليه قومه فى الإسلام ، لكن لم يزل بهم حتى هاجر بعد الخندق (١) ، ومعه سبعون أو ثمانون بيتاً من قومه ، وقد أبلى فى الإسلام بلاء حسناً ، وقتل شهيداً يوم اليمامة (٢) .

٥ - ضماد الأزدي :

كان من أزد شؤنة من اليمن ، وكان يرقى من هذا الريح ، قدم مكة فسمع سفهاءها يقولون : إن محمداً مجنون ، فقال : لو أنى أتيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي ، فلقبه ، فقال : يا محمد ، إنى أرقى من هذا الريح ، فهل لك ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل الله فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . أما بعد » .

فقال : أعد على كلماتك هؤلاء ، فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات ، فقال : لقد سمعت قول الكهنة ، وقول السحرة ، وقول الشعراء ، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء ، ولقد بلغن قاموس (٣) البحر ، هات يدك أبايك على الإسلام ، فبايعه (٤) .

ست نسيمات طيبة من أهل يثرب :

وفى موسم الحج من سنة ١١ من النبوة - يوليو سنة ٦٢٠ م - وجدت الدعوة الإسلامية

(١) بل وبعد الحديبية ، فقد قدم المدينة ورسول الله ﷺ بخير . انظر : ابن هشام ١ / ٣٨٥ .

(٢) ابن هشام ١ / ٣٨٢ - ٣٨٥ . أبعد موضع فيه غورا .

(٤) رواه مسلم : كتاب الجمعة ، باب تخفيف الصلاة والخطبة ح ٤٦ (٨٦٨) .

بذوراً صالحة ، سرعان ما تحولت إلى شجرات باسقات ، اتقى المسلمون فى ظلالها الوارفة لفحات الظلم والعدوان حتى تغير مجرى الأحداث وتحول خط التاريخ .

وكان من حكمته ﷺ إزاء ما كان يلقى من أهل مكة من التكذيب والصد عن سبيل الله أنه كان يخرج إلى القبائل فى ظلام الليل ، حتى لا يحول بينه وبينهم أحد من أهل مكة المشركين .

فخرج ليلة ومعه أبو بكر وعلى ، فمر على منازل ذُهل وشيبان بن ثعلبة ، وكلمهم فى الإسلام . وقد دارت بين أبى بكر وبين رجل من ذهل أسئلة وردود طريفة ، وأجاب بنو شيبان بأرجى الأجوبة ، غير أنهم توقفوا فى قبول الإسلام (١) .

ثم مر رسول الله ﷺ بعقبة منى ، فسمع أصوات رجال يتكلمون فعمدهم حتى لحقهم ، وكانوا ستة نفر من شباب يثرب كلهم من الخزرج ، وهم :

١ - أسعد بن زُرارة (من بنى النجار) .

٢ - عوف بن الحارث بن رفاعه ابن عَفراء (، ، ، ،) .

٣ - رافع بن مالك بن العَجَلان (من بنى زُرَيْق) .

٤ - قُطَبة بن عامر بن حديدة (من بنى سلمة) .

٥ - عُقبَة بن عامر بن نابى (من بنى حَرَام بن كعب) .

٦ - جابر بن عبد الله بن رثاب (من بنى عبيد بن غنم) .

وكان من سعادة أهل يثرب أنهم كانوا يسمعون من حلفائهم من يهود المدينة ، إذا كان بينهم شىء ، أن نبأ من الأنبياء مبعوث فى هذا الزمان سيخرج ، فنتبعه ، ونقتلكم معه قتل عاد وإرم (٢) .

فلما لحقهم رسول الله ﷺ قال لهم : « من أنتم ؟ » قالوا : نفر من الخزرج ، قال : « من موالى اليهود ؟ » أى حلفائهم ، قالوا : نعم . قال : « أفلا تجلسون أكلمكم ؟ » قالوا : بلى ، فجلسوا معه ، فشرح لهم حقيقة الإسلام ودعوته ، ودعاهم إلى الله عز وجل ، وتلا عليهم القرآن . فقال بعضهم لبعض : تعلمون والله يا قوم ، إنه للنبي الذى توعدكم به يهود ، فلا تسبقنكم إليه ، فأسرعوا إلى إجابة دعوته ، وأسلموا .

وكانوا من عقلاء يثرب ، أنهكتهم الحرب الأهلية التى مضت قريباً ، والتى لا يزال لهيبتها مستعراً ، فأملوا أن تكون دعوته سبباً لوضع الحرب ، فقالوا : إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسندم عليهم ، فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبتك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك .

(١) انظر : مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ١٥٠ - ١٥٢ .

(٢) زاد المعاد ٢ / ٥٠ ، وابن هشام ١ / ٤٢٩ ، ٥٤١ .

ولما رجع هؤلاء إلى المدينة حملوا إليها رسالة الإسلام ، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيه ذكر رسول الله ﷺ (١) .

استطرد - زواج رسول الله ﷺ بعائشة :

وفى شوال من هذه السنة - سنة ١١ من النبوة - تزوج رسول الله ﷺ عائشة الصديقة رضي الله عنها ، وهى بنت ست سنين وبنى بها بالمدينة فى شوال فى السنة الأولى من الهجرة وهى بنت تسع سنين (٢) .

(١) ابن هشام ١ / ٤٢٨ - ٤٣٠ .

(٢) تلقيح فهوم أهل الأثر ص ١٠ ، وصحيح البخارى ١ / ٥٥١ .

الإسراء والمعراج

وبينما النبى ﷺ يمر بهذه المرحلة ، وأخذت الدعوة تشق طريقاً بين النجاح والاضطهاد ، وبدأت نجوم الأمل تتلمح فى آفاق بعيدة ، وقع حادث الإسراء والمعراج .
واختلف فى تعيين زمنه على أقوال شتى :

- ١ - فقيل : كان الإسراء فى السنة التى أكرمه الله فيها بالنبوة ، واختاره الطبرى .
 - ٢ - وقيل : كان بعد المبعث بخمس سنين ، رجح ذلك النووى والقرطبى .
 - ٣ - وقيل : كان ليلة السابع والعشرين من شهر رجب سنة ١٠ من النبوة .
 - ٤ - وقيل : قبل الهجرة بستة عشر شهراً ، أى فى رمضان سنة ١٢ من النبوة .
 - ٥ - وقيل : قبل الهجرة بسنة وشهرين ، أى فى المحرم سنة ١٣ من النبوة .
 - ٦ - وقيل : قبل الهجرة بسنة ، أى فى ربيع الأول سنة ١٣ من النبوة .
- وَرَدَّتْ الأقوالُ الثلاثةُ الأولُ بأن خديجة عليها السلام توفيت فى رمضان سنة عشر من النبوة ، وكانت وفاتها قبل أن تفرض الصلوات الخمس . ولا خلاف أن فرض الصلوات الخمس كان ليلة الإسراء . أما الأقوال الثلاثة الباقية فلم أجد ما أرجح به واحداً منها ، غير أن سياق سورة الإسراء يدل على أن الإسراء متأخر جداً .

وروى أئمة الحديث تفاصيل هذه الواقعة ، وفيما يلى نسردها بإيجاز :
قال ابن القيم : أسرى برسول الله ﷺ بجسده على الصحيح من المسجد الحرام إلى بيت المقدس ، راكباً على البراق ، صحبة جبريل عليهما الصلاة والسلام ، فنزل هناك ، وصلى بالأنبياء إماماً ، وربط البراق بحلقة باب المسجد .

ثم عرج به تلك الليلة من بيت المقدس إلى السماء الدنيا ، فاستفتح له جبريل ففتح له ، فرأى هنالك آدم أباً البشر ، فسلم عليه ، فرحب به ورد عليه السلام ، وأقر بنبوته ، وأراه الله أرواح السعداء عن يمينه ، وأرواح الأشقياء عن يساره .

ثم عرج به إلى السماء الثانية ، فاستفتح له ، فرأى فيها يحيى بن زكريا وعيسى ابن مريم ، فلقيهما وسلم عليهما ، فردا عليه ورحبا به ، وأقرأ بنبوته .
ثم عرج به إلى السماء الثالثة ، فرأى فيها يوسف ، فسلم عليه فرد عليه ورحب به ، وأقر بنبوته .

ثم عرج به إلى السماء الرابعة ، فرأى فيها إدريس ، فسلم عليه ، فرد عليه ، ورحب به ، وأقر بنبوته .

ثم عرج به إلى السماء الخامسة ، فرأى فيها هارون بن عمران ، فسلم عليه ، فرد عليه ورحب به ، وأقر بنبوته .

ثم عرج به إلى السماء السادسة، فلقى فيها موسى بن عمران، فسلم عليه، فرد عليه ورحب به، وأقر بنيوته.

فلما جاوزه بكى موسى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أبكى؛ لأن غلاماً بعث من بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتى.

ثم عرج به إلى السماء السابعة، فلقى فيها إبراهيم عليه السلام، فسلم عليه، فرد عليه، ورحب به، وأقر بنيوته.

ثم رفع إلى سدرة المنتهى، فإذا نبَّهًا مثل قلال هجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، ثم غشيها فراش من ذهب، ونور وألوان، فتغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن يصفها من حسنها. ثم رفع له البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون. ثم أدخل الجنة، فإذا فيها حبات اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك. وعرج به حتى ظهر لمستوى يسمع فيه صريف الأقلام.

ثم عرج به إلى الجبار جل جلاله، فدنا منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى، وفرض عليه خمسين صلاة، فرجع حتى مر على موسى فقال له: بم أمرك ربك؟ قال: «بخمسين صلاة». قال: إن أمتك لا تطيق ذلك، ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فالتفت إلى جبريل، كأنه يستشير به في ذلك، فأشار: أن نعم إن شئت، فعلا به جبريل حتى أتى به الجبار تبارك وتعالى، وهو في مكانه - هذا لفظ البخاري في بعض الطرق - فوضع عنه عشرًا، ثم أنزل حتى مر بموسى، فأخبره، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فلم يزل يتردد بين موسى وبين الله عز وجل، حتى جعلها خمسًا، فأمره موسى بالرجوع وسؤال التخفيف، فقال: «قد استحييت من ربي، ولكنى أرضى وأسلم»، فلما بعد نادى مناد: قد أمضيت فريضتى وخففت عن عبادى. انتهى (١).

ثم ذكر ابن القيم خلافاً في رؤيته عليه السلام تبارك وتعالى، ثم ذكر كلاماً لابن تيمية بهذا الصدد، وحاصل البحث أن الرؤية بالعين لم تثبت أصلاً، وهو قول لم يقله أحد من الصحابة. وما نقل عن ابن عباس من رؤيته مطلقاً ورؤيته بالفؤاد فالأول لا ينافى الثاني.

ثم قال: وأما قوله تعالى في سورة النجم: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ (٨) [النجم] فهو غير الدنو الذى فى قصة الإسراء، فإن الذى فى سورة النجم هو دنو جبريل وتدليه، كما قالت عائشة وابن مسعود، والسياق يدل عليه، وأما الدنو والتدلى فى حديث الإسراء فذلك صريح فى أنه دنو الرب تبارك وتعالى وتدليه، ولا تعرض فى سورة النجم لذلك، بل فيه أنه رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى. وهذا هو جبريل، رآه محمد ﷺ على صورته مرتين: مرة فى الأرض، ومرة عند سدرة المنتهى، والله أعلم. انتهى (٢).

وقد جاء فى بعض الطرق أن صدر ﷺ شق فى هذه المرة أيضاً، وقد رأى النبى ﷺ

(١) زاد المعاد ٢ / ٤٧، ٤٨، مع زيادات ثبتت فى الروايات الصحيحة.

(٢) زاد المعاد ٢ / ٤٧، ٤٨، وانظر: صحيح البخارى ١ / ٥٠، ٥٥، ٤٥٦، ٤٧٠، ٤٧١،

٤٨١، ٥٤٨، ٥٥٠، ٦٨٤ / ٢، وصحيح مسلم ١ / ٩١ - ٩٦.

فى هذه الرحلة أموراً عديدة :

* عرض عليه اللبن والخمر ، فاختار اللبن ، فقيل : هديت الفطرة أو أصبت الفطرة ، أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك .

* ورأى أربعة أنهار يخرج من أصل سدرة المنتهى : نهران ظاهران ونهران باطنان ، فالظاهران هما : النيل والفرات ، عنصرهما . والباطنان : نهران فى الجنة . ولعل رؤية النيل والفرات كانت إشارة إلى تمكن الإسلام من هذين القطرين ، والله أعلم .

* ورأى مالكا خازن النار ، وهو لا يضحك ، وليس على وجهه بشر ولا بشاشة ، وكذلك رأى الجنة والنار .

* ورأى أكلة أموال اليتامى ظلماً لهم مشافر كمشافر الإبل ، يقذفون فى أفواههم قطعاً من نار كالأنهار ، فتخرج من أدبارهم .

* ورأى أكلة الربا لهم بطون كبيرة لا يقدر أن يجلها أن يتحولوا عن أماكنهم ، ويمر بهم آل فرعون حين يعرضون على النار فيطأونهم .

* ورأى الزناة بين أيديهم لحم سمين طيب ، إلى جنبه لحم غث منتن ، يأكلون من الغث المنتن ، ويتركون الطيب السمين .

* ورأى النساء اللاتى يدخلن على الرجال من ليس من أولادهم ، رآهن معلقات بشديهن .

* ورأى عيراً من أهل مكة فى الإياب والذهاب ، وقد دلهم على بعير نذ لهم ، وشرب ماءهم من إناء مغطى وهم نائمون ، ثم ترك الإناء مغطى ، وقد صار ذلك دليلاً على صدق دعواه فى صباح ليلة الإسراء (١) .

قال ابن القيم : فلما أصبح رسول الله ﷺ فى قومه أخبرهم بما أراه الله عز وجل من آياته الكبرى ، فاشتد تكذيبهم له وأذاهم واستضرارهم عليه ، وسألوه أن يصف لهم بيت المقدس ، فجلاه الله له ، حتى عاينه ، فطفق يخبرهم عن آياته ، ولا يستطيعون أن يردوا عليه شيئاً ، وأخبرهم عن غيرهم فى مسراه ورجوعه ، وأخبرهم عن وقت قدومها ، وأخبرهم عن البعير الذى يقدمها ، وكان الأمر كما قال ، فلم يزداهم ذلك إلا نفوراً ، وأبى الظالمون إلا كفوراً (٢) .

يقال : سُمى أبو بكر رضي الله عنه صديقاً لتصديقه هذه الواقعة حين كذبها الناس (٣) .

وأوجز وأعظم ما ورد فى تعليل هذه الرحلة هو قوله تعالى : ﴿ لَنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ [الإسراء : ١] وهذه سنة الله فى الأنبياء ، قال : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ

(١) المصادر السابقة ، وابن هشام ١ / ٣٩٧ ، ٤٠٢ - ٤٠٦ .

(٢) زاد المعاد ١ / ٤٨ ، وانظر أيضاً : صحيح البخارى ٢ / ٦٨٤ ، وصحيح مسلم ١ / ٩٦ ، وابن

هشام ١ / ٤٠٢ ، ٤٠٣ .

(٣) ابن هشام ١ / ٣٩٩ .

مِنَ الْمُؤَقِّينَ (٧٥) [الانعام] ، وقال لموسى ﷺ : ﴿ لَنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (٢٢) ﴾ [طه] ، وقد بين مقصود هذه الإراءة بقوله : ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُؤَقِّينَ ﴾ فبعد استناد علوم الانبياء إلى رؤية الآيات يحصل لهم من عين اليقين ما لا يقادر قدره ، وليس الخبر كالمعاينة ، فيتحملون فى سبيل الله ما لا يتحمل غيرهم ، وتصير جميع قوات الدنيا عندهم كجناح بعوضة لا يعاؤون بها إذا ما تدول عليهم بالمحن والعذاب .

والحكم والأسرار التى تكمن وراء جزئيات هذه الرحلة إنما محل بحثها كتب أسرار الشريعة ، ولكن هنا حقائق بسيطة تنفجر من ينباع هذه الرحلة المباركة ، وتندفق إلى حقائق أزهار السيرة النبوية - على صاحبها الصلاة والسلام والتحية - أرى أن أسجل بعضاً منها بالإيجاز :

يرى القارئ فى سورة الإسراء أن الله ذكر قصة الإسراء فى آية واحدة فقط ، ثم أخذ فى ذكر فضائح اليهود وجرائمهم ، ثم نههم بأن هذا القرآن يهدى للتي هى أقوم ، فرما يظن القارئ أن الآيتين ليس بينهما ارتباط ، والأمر ليس كذلك ، فإن الله تعالى يشير بهذا الأسلوب إلى أن الإسراء إنما وقع إلى بيت المقدس ؛ لأن اليهود سيعزلون عن منصب قيادة الأمة الإنسانية ؛ لما ارتكبوا من الجرائم التى لا مجال بعدها لبقائهم على هذا المنصب ، وإن الله سينقل هذا المنصب فعلاً إلى رسوله ﷺ ويجمع له مركزى الدعوة الإبراهيمية كليهما ، فقد آن أوان انتقال القيادة الروحية من أمة إلى أمة ؛ من أمة ملأت تاريخها بالغدر والخيانة والإثم والعدوان ، إلى أمة تندفق بالبر والخيرات ، ولا يزال رسولها يتمتع بوحى القرآن الذى يهدى للتي هى أقوم .

ولكن كيف تنتقل هذه القيادة ، والرسول يطوف فى جبال مكة مطروداً بين الناس؟ هذا السؤال يكشف الغطاء عن حقيقة أخرى ، وهى أن عهداً من هذه الدعوة الإسلامية قد أوشك إلى النهاية والتمام ، وسيبدأ عهد آخر جديد يختلف عن الأول فى مجراه ، ولذلك نرى بعض الآيات تشتمل على إنذار سافر ووعد شديد بالنسبة إلى المشركين ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيراً (١٦) ﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (١٧) ﴾ [الإسراء] ويجنب هذه الآيات آيات أخرى تبين للمسلمين قواعد الحضارة وبنودها ومبادئها التى يبتنى عليها مجتمعهم الإسلامى ، كأنهم قد أووا إلى أرض امتلكوا فيها أمورهم من جميع النواحي ، وكونوا وحدة متماسكة تدور عليها رعى المجتمع ، ففيه إشارة إلى أن الرسول ﷺ سيجد ملجأ ومأناً يستقر فيه أمره ، ويصير مركزاً لبث دعوته فى أرجاء الدنيا . هذا سر من أسرار هذه الرحلة المباركة ، يتصل ببحثنا فأثرنا ذكره .

ولأجل هذه الحكمة وأمثالها نرى أن الإسراء إنما وقع إما قبيل بيعة العقبة الأولى أو بين العقبين ، والله أعلم .

بيعة العقبة الأولى

قد ذكرنا أن ستة نفر من أهل يثرب أسلموا في موسم الحج سنة ١١ من النبوة ، ووعدوا رسول الله ﷺ بإبلاغ رسالته في قومهم .

وكان من جراء ذلك أن جاء في الموسم التالي - موسم الحج سنة ١٢ من النبوة ، يوليو سنة ٦٢١م - اثنا عشر رجلاً ، فيهم خمسة من الستة الذين كانوا قد التقوا برسول الله ﷺ في العام السابق - والسادس الذي لم يحضر هو جابر بن عبد الله بن رثاب - وسبعة سواهم ، وهم :

- ١ - معاذ بن الحارث ، ابن عفراء من بنى النجار (من الخزرج) .
 - ٢ - ذُكْوَان بن عبد القيس من بنى زُرَيْق (، ، ،) .
 - ٣ - عبادة بن الصامت من بنى غَنَم - (، ، ،) .
 - ٤ - يزيد بن ثعلبة من حلفاء بنى غنم (، ، ،) .
 - ٥ - العباس بن عبادة بن نَضْلَةَ من بنى سالم (، ، ،) .
 - ٦ - أبو الهيثم بن التيهان من بنى عبد الأشهل (، ، الأوس) .
 - ٧ - عُيَيْن بن ساعدة من بنى عمرو بن عَوْف (، ، ،) .
- الأخيران من الأوس ، والبقية كلهم من الخزرج (١) .

التقى هؤلاء برسول الله ﷺ عند العقبة بمنى فبايعوه ببيعة النساء ، أى وفق بيعتهن التى نزلت بعد الحديبية .

روى البخارى عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال : « تعالوا بايعونى على ألا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا بيهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصونى فى معروف ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به فى الدنيا، فهو له كفارة ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله ، فأمره إلى الله ؛ إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه » . قال : فبايعته - وفى نسخة : فبايعناه - على ذلك (٢) .

سفير الإسلام فى المدينة :

وبعد أن تمت البيعة وانتهى الموسم بعث النبى ﷺ مع هؤلاء المبايعين أول سفير فى

(١) ابن هشام ١ / ٤٣١ - ٤٣٣ .

(٢) صحيح البخارى : باب علامة الإيمان حب الانصار ١ / ٧ ، باب وفود الانصار ١ / ٥٥٠ ، ٥٥١ ، واللفظ من هذا الباب ، وباب قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ ﴾ ٢ / ٧٢٧ ، باب الحدود كفارة ٢ / ١٠٠٣ .

يثرب ؛ ليعلم المسلمين فيها شرائع الإسلام ، ويفقههم فى الدين ، وليقوم بنشر الإسلام بين الذين لم يزالوا على الشرك ، واختار لهذه السفارة شاباً من شباب الإسلام من السابقين الأولين ، وهو مُصْعَب بن عُمَيْر العبدري رضي الله عنه .

النجاح المغتبط :

نزل مصعب بن عمير على أسعد بن زُرَّارة ، وأخذ يثان الإسلام فى أهل يثرب بجدة وحماس ، وكان مصعب يُعرَف بالمقرئ .

ومن أروع ما يروى من نجاحه فى الدعوة أن أسعد بن زرارَةَ خرج به يوماً يريد دار بنى عبد الأشهل ودار بنى ظَفَر ، فدخل فى حائط من حوائط بنى ظفر ، وجلسا على بئر يقال لها: بئر مَرَق ، واجتمع إليهما رجال من المسلمين - وسعد بن معاذ وأُسَيْد بن حُضَيْر سيدا قومهما من بنى عبد الأشهل يومئذ على الشرك - فلما سمعا بذلك قال سعد لأسيد : اذهب إلى هذين اللذين قد أتيا ليسفها ضعفاءنا فاجرهما ، وانهما عن أن يأتيا دارينا ، فإن أسعد بن زرارَةَ ابن خالتي ، ولولا ذلك لكفيتك هذا .

فأخذ أسيد حربته وأقبل إليهما ، فلما رآه أسعد قال لمصعب : هذا سيد قومك قد جاءك فاصدق الله فيه ، قال مصعب: إن يجلس أكلمه . وجاء أسيد فوقف عليهما متشتماً ، وقال : ما جاء بكما إلينا ؟ تسفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة ، فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع ، فإن رضيت أمرا قبلته ، وإن كرهته كف عنك ما تكره ، فقال : أنصفت ، ثم ركز حربته وجلس ، فكلمه مصعب بالإسلام ، وتلا عليه القرآن . قال : فوالله لعرفنا فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم ، فى إشراقه وتهلله ، ثم قال : ما أحسن هذا وأجمله ؟ كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين ؟

قالا له : نتغسل ، ونطهر ثوبك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلى ركعتين . فقام واغتسل ، وطهر ثوبه وتشهد وصلى ركعتين ، ثم قال : إن ورائي رجلاً إن تبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه ، وسأرشده إليكما الآن - سعد بن معاذ - ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد فى قومه ، وهم جلوس فى ناديتهم . فقال سعد : أحلف بالله لقد جاءكم بغير الوجه الذى ذهب به من عنديكم .

فلما وقف أسيد على النادى قال له سعد : ما فعلت ؟ فقال : كلمت الرجلين ، فوالله ما رأيت بهما بأساً ، وقد نهيتهما فقالا : نفعل ما أحببت .

وقد حدث أن بنى حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارَةَ ليقتلوه - وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتي - لِيُخَفِّرُوكَ . فقام سعد مغضباً للذى ذكر له ، فأخذ حربته، وخرج إليهما ، فلما رآهما مطمئنين عرف أن أسيداً إنما أراد منه أن يسمع منهما ، فوقف عليهما متشتماً ، ثم قال لأسعد بن زرارَةَ : والله يا أبا أمامة ، لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رُمّت هذا منى ، تغشانا فى دارنا بما نكره ؟

وقد كان أسعد قال لمصعب : جاءك والله سيد من ورائه قومه ، إن يتبعك لم يتخلف

عنك منهم أحد ، فقال مصعب لسعد بن معاذ : أو تقعد فتسمع ؟ فإن رضيت أمراً قبلته ، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره ، قال : قد أنصفت ، ثم ركز حربته فجلس . فعرض عليه الإسلام ، وقرأ عليه القرآن ، قال : فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم ، في إشرافه وتهلله ، ثم قال : كيف تصنعون إذا أسلمتم ؟ قالوا : تغتسل ، وتطهر ثوبك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلى ركعتين . ففعل ذلك .

ثم أخذ حربته فأقبل إلى نادى قومه ، فلما رآوه قالوا : نحلف بالله لقد رجع بغير الوجه الذى ذهب به .

فلما وقف عليهم قال : يا بنى عبد الأشهل ، كيف تعلمون أمرى فيكم ؟ قالوا : سيدنا وأفضلنا رأياً ، وأيمنا نقيية ، قال : فإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله . فما أمسى فيهم رجل ولا امرأة إلا مسلماً ومسلمة ، إلا رجل واحد - وهو الأصيرم - تأخر إسلامه إلى يوم أحد ، فأسلم ذلك اليوم وقاتل وقتل ، ولم يسجد لله سجدة ، فقال النبي ﷺ : « عمل قليلاً وأجر كثيراً » .

وأقام مصعب في بيت أسعد بن زرارة يدعو الناس إلى الإسلام ، حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون ، إلا ما كان من دار بنى أمية بن زيد وخطمة ووائل . كان فيهم قيس بن الأسلت الشاعر - وكانوا يطيعونه - فوقف بهم عن الإسلام حتى كان عام الحندق سنة خمس من الهجرة .

وقبل حلول موسم الحج التالى - أى حج السنة الثالثة عشرة - عاد مصعب بن عمير إلى مكة يحمل إلى رسول الله ﷺ بشائر الفوز ، ويقص عليه خبر قبائل يثرب ، وما فيها من مواهب الخير ، وما لها من قوة ومنعة (١) .

بيعة العقبة الثانية

فى موسم الحج فى السنة الثالثة عشرة من النبوة - يونيو سنة ٦٢٢ م - حضر لأداء مناسك الحج بضع وسبعون نفساً من المسلمين من أهل يثرب ، جاءوا ضمن حجاج قومهم من المشركين ، وقد تساءل هؤلاء المسلمون فيما بينهم - وهم لم يزالوا فى يثرب أو كانوا فى الطريق : حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطوف ويطرد فى جبال مكة ويخاف؟

فلما قدموا مكة جرت بينهم وبين النبی ﷺ اتصالات سرية أدت إلى اتفاق الفريقين على أن يجتمعوا فى أوسط أيام التشريق فى الشعب الذى عند العقبة حيث الجمرة الأولى من منى ، وأن يتم الاجتماع فى سرية تامة فى ظلام الليل .

ولترك أحد قادة الأنصار يصف لنا هذا الاجتماع التاريخى الذى حول مجرى الأيام فى صراع الوثنية والإسلام . يقول كعب بن مالك الأنصارى رضي الله عنه :

خرجنا إلى الحج ، وواعدنا رسول الله ﷺ بالعقبة من أوسط أيام التشريق ، فلما فرغنا من الحج ، وكانت الليلة التى واعدنا رسول الله ﷺ لها ، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرّام أبو جابر ، سيد من ساداتنا ، وشريف من أشرافنا ، أخذناه معنا - وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا - فكلمناه وقلنا له : يا أبا جابر ، إنك سيد من ساداتنا ، وشريف من أشرافنا ، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطباً للنار غداً . ثم دعونا إلى الإسلام ، وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة ، قال : فأسلم وشهد معنا العقبة وكان نقيباً .

قال كعب : فمنا تلك الليلة مع قومنا فى رحالنا حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ ، تسلل تسلل القطأ ، مستخفين ، حتى اجتمعنا فى الشعب عند العقبة ، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً ، وامرأتان من نسائنا ؛ نسيّة بنت كعب - أم عمارة - من بنى مازن بن النجار ، وأسماء بنت عمرو - أم منيع - من بنى سلمة .

فاجتمعنا فى الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ، ومعه عمه : العباس بن عبد المطلب - وهو يومئذ على دين قومه - إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ، ويتوثق له ، وكان أول متكلم (١) .

بداية المحادثة وتشريح العباس لخطورة المسئولية :

وبعد أن تكامل المجلس بدأت المحادثات لإبرام التحالف الدينى والعسكرى ، وكان أول المتكلمين هو العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ ، تكلم ليشرح لهم - بكل صراحة - خطورة المسئولية التى ستلقى على كواهلهم نتيجة هذا التحالف . قال :

يا معشر الخزرج - وكان العرب يسمون الانتصار خزرجاً ، خزرجها وأوسها كليهما - إن محمداً منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده . وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم والحق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك . وإن كنتم ترون أنكم مُسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه . فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده .

قال كعب : فقلنا له : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت (١) .

وهذا الجواب يدل على ما كانوا عليه من عزم صميم ، وشجاعة مؤمنة ، وإخلاص كامل في تحمل هذه المسؤولية العظيمة ، وتحمل عواقبها الخطيرة .
وألقي رسول الله ﷺ بعد ذلك بيانه ، ثم تمت البيعة .
بنود البيعة :

وقد روى ذلك الإمام أحمد عن جابر مفصلاً . قال جابر : قلنا : يا رسول الله ، علام نبايعك ؟ قال :

« على السمع والطاعة في النشاط والكسل .

وعلى النفقة في العسر والبسر .

وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وعلى أن تقوموا في الله ، لا تأخذكم في الله لومة لائم .

وعلى أن تنصروني إذا قدمت إليكم ، وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ، ولكم الجنة » (٢) .

وفي رواية كعب - التي رواها ابن إسحاق - البند الأخير فقط من هذه البنود ، ففيه : قال كعب : فتكلم رسول الله ﷺ ، فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغب في الإسلام ، ثم قال : « أبايحكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم » . فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : نعم ، والذي بعثك بالحق نبياً ، لنمنعك مما تمنع أزرتنا منه ، فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أبناء الحرب وأهل الحلقة ، ورثناها كابراً عن كابر .

قال : فاعترض القول - والبراء يكلم رسول الله ﷺ - أبو الهيثم بن التيهان ، فقال : يا رسول الله ، إن بيننا وبين الرجال حبلاً ، وإننا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عسيب إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله إن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟

(١) ابن هشام ١ / ٤٤١ ، ٤٤٢ .

(٢) رواه الإمام أحمد بإسناد حسن ٣ / ٣٢٢ ، والبيهقي في السنن الكبرى ٩ / ٩ ، وصححه الحاكم وابن حبان ، وروى ابن إسحاق ما يشبه هذا عن عبادة بن الصامت ، وفيه بند زائد ، وهو : « ألا تنازع الأمر أهله » . انظر : ابن هشام ١ / ٤٥٤ .

قال : فتبسم رسول الله ﷺ ، ثم قال : « بِلِ الدَّمِ الدَّمُ ، والِهَدْمُ الِهَدْمُ ، أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالتهم » (١) .
التأكيد من خطورة البيعة :

وبعد أن تمت المحادثة حول شروط البيعة ، وأجمعوا على الشروع فى عقدها قام رجلان من الرعيل الأول ممن أسلموا فى مواسم ستى ١١ و ١٢ من النبوة ، قام أحدهما تلو الآخر ؛ ليؤكددا للقوم خطورة المسئولية ، حتى لا يبايعوه إلا على جلية من الأمر ، وليعرفا مدى استعداد القوم للتضحية ، ويتأكدوا من ذلك .

قال ابن إسحاق : لما اجتمعوا للبيعة قال العباس بن عباد بن نضلة : هل تدورن علام تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم ، قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس . فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة ، وأشرافكم قتلا أسلمتموه ، فمن الآن ، فهو والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة . وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة .

قالوا : فإننا نأخذ على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك ؟ قال : « الجنة » . قالوا : أبسط يدك ، فبسط يده فبايعوه (٢) .

وفى رواية جابر (قال) : فقمنا نبايعه ، فأخذ بيده أسعد بن زرارة - وهو أصغر السبعين - فقال : رويدا يا أهل يثرب ، إنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ، وأن إخراجهم اليوم مفارقة العرب كافة ، وقتل خياركم ، وأن تعضكم السيوف ، فإما أنتم تصبرون على ذلك فخذوه ، وأجركم على الله ، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فهو أعذر لكم عند الله (٣) .

عقد البيعة :

وبعد إقرار بنود البيعة ، وبعد هذا التأكيد والتأكد بدأ عقد البيعة بالمصافحة ، قال جابر - بعد أن حكى قول أسعد بن زرارة - قال : فقالوا : يا أسعد ، امطّ عنا يدك . فوالله لا نذر هذه البيعة ، ولا نستقبلها (٤) .

وحينئذ عرف أسعد مدى استعداد القوم للتضحية فى هذا السبيل وتأكد منه - وكان هو الداعية الكبير مع مصعب بن عمير - فكان هو السابق إلى هذه البيعة . قال ابن إسحاق : فبنو النجار يزعمون أن أبا أمامة أسعد بن زرارة كان أول من ضرب على يده (٥) . وبعد ذلك

(١) ابن هشام ١ / ٤٤٢ . وأرنا : جمع إزار ، كناية عن المرأة وعن النفس .

(٢) ابن هشام ١ / ٤٤٦ .

(٣) (٤) رواه الإمام أحمد من حديث جابر ٣ / ٣٢٢ ، والبيهقى فى السنن الكبرى ٩ / ٩ .

(٥) قال ابن إسحاق : وبنو عبد الأشهل يقولون : بل أبو الهيثم بن التيهان ، وقال كعب بن مالك : بل البراء بن معرور (ابن هشام ١ / ٤٤٧) . قلت : لعلمهم حسبوا ما دار بينهما وبين الرسول ﷺ من الحوار بيعة ، وإلا فأحرى الناس بالتقديم إذ ذاك هو أسعد بن زرارة ، والله أعلم .

بدأت البيعة العامة ، قال جابر : فقمنا إليه رجلاً رجلاً فأخذ علينا البيعة ، يعطينا بذلك اللجنة (١) .

وأما بيعة المرأتين اللتين شهدتا الوقعة فكانت قولاً . ما صافح رسول الله ﷺ امرأة أجنبية قط (٢) .
اثنا عشر نقيباً :

وبعد أن تمت البيعة طلب رسول الله ﷺ أن يختاروا اثني عشر زعيماً يكونون نقباء على قومهم ، يكفلون المسؤولية عنهم في تنفيذ بنود هذه البيعة ، فقال للقوم : أخرجوا إلى منكم اثني عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم .

فتم اختيارهم في الحال، وكانوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس. وهاك أسماءهم :

نقباء الخزرج :

- ١- أسعد بن زُرارة بن عدس .
- ٢- سعد بن الربيع بن عمرو .
- ٣- عبد الله بن رواحة بن ثعلبة .
- ٤- رافع بن مالك بن العجلان .
- ٥- البراء بن معرور بن صخر .
- ٦- عبد الله بن عمرو بن حرام .
- ٧- عبادة بن الصامت بن قيس .
- ٨- سعد بن عبادة بن دليم .
- ٩- المنذر بن عمرو بن خنيس .

نقباء الأوس :

- ١- أسيد بن حضير بن سمالك .
- ٢- سعد بن خيثمة بن الحارث .
- ٣- رفاعه بن عبد المنذر بن زبير (٣) .

ولما تم اختيار هؤلاء النقباء أخذ عليهم النبي ﷺ ميثاقاً آخر بصفتهم رؤساء مسئولين . قال لهم : «أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ، ككفالة الحوارين لعيسى ابن مريم ، وأنا كفيل على قومي» - يعنى المسلمين - قالوا : نعم (٤) .

(١) مسند الإمام أحمد ٣ / ٣٢٢ .

(٢) انظر : صحيح مسلم : باب كيفية بيعة النساء ٢ / ١٣١ .

(٣) زبير بالباء الموحدة ، وقيل : بالنون . وقد قيل بدل رفاعه : أبو الهيثم بن التيهان .

(٤) ابن هشام ١ / ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٦ .

شيطان يكشف المعاهدة :

ولما تم إبرام المعاهدة ، وكان القوم على وشك الرفض ، اكتشفها أحد الشياطين ؛
وحيث إن هذا الاكتشاف جاء في اللحظة الأخيرة ، ولم يكن يمكن إبلاغ زعماء قريش هذا
الخبر سراً ، ليباغتوا المجتمعين وهم في الشعب ، قام ذلك الشيطان على مرتفع من الأرض ،
وصاح بأنفذ صوت سمع قط : يا أهل الجَبَاجِب - المنازل - هل لكم في مُدَمِّم والصباة معه ؟
قد اجتمعوا على حربكم .

فقال رسول الله ﷺ : « هذا أَرَبُ الْعَقَبَةِ ، أما والله يا عدو الله لأتفرغن لك » . ثم
أمرهم أن ينفضوا إلى رحالهم (١) .
استعداد الأنصار لضرب قريش :

وعند سماع صوت هذا الشيطان قال العباس بن عباد بن نضلة : والذي بعثك بالحق ،
إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيا فانا .

فقال رسول الله ﷺ : « لم تؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم » ، فرجعوا وناموا
حتى أصبحوا (٢) .

قريش تقدم الاحتجاج إلى رؤساء يثرب :

لما قرع هذا الخبر آذان قريش وقعت فيهم ضجة ، وساورتهم القلاقل والأحزان ؛ لأنهم
كانوا على معرفة تامة بعواقب مثل هذه البيعة ونتائجها بالنسبة إلى أنفسهم وأموالهم ، فما أن
أصبحوا حتى توجه وفد كبير من زعماء مكة وأكابر مجرميها إلى أهل يثرب ؛ ليقدم احتجاجه
الشديد على هذه المعاهدة ، قال الوفد :

« يا معشر الخزرج ، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين
أظهرنا ، وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا من أن تنشب
الحرب بيننا وبينهم منكم » (٣) .

ولما كان مشركو الخزرج لا يعرفون شيئاً عن هذه البيعة ؛ لأنها تمت في سرية تامة في
ظلام الليل ، انبعث هؤلاء المشركون يحلفون بالله : ما كان من شيء وما علمناه ، حتى أتوا
عبد الله بن أبي بن سلول ، فجعل يقول : هذا باطل ، وما كان هذا ، وما كان قومي ليفتاتوا
على بمثل هذا ، ولو كنت بيثرب ما صنع قومي هذا حتى يؤامروني .

أما المسلمون فنظر بعضهم إلى بعض ، ثم لاذوا بالصمت ، فلم يتحدث أحد منهم بنفى
أو إثبات .

ومال زعماء قريش إلى تصديق المشركين ، فرجعوا خائنين .

تأكد الخبر لدى قريش ومطاردة المبايعين :

عاد زعماء مكة وهم على شبه اليقين من كذب هذا الخبر ، لكنهم لم يزالوا يَتَنَطَّسُونَهُ -

يكثرّون البحث عنه ويدققون النظر فيه - حتى تأكد لديهم أن الخبر صحيح ، والبيعة قد تمت فعلاً . وذلك بعد ما نفر الحجيج إلى أوطانهم ، فسارع فرسانهم بمطاردة اليربيين ، ولكن بعد فوات الأوان ، إلا أنهم تمكنوا من رؤية سعد بن عبادة والمنذر ابن عمرو فطاردوهما ، فأما المنذر فأعجز القوم ، وأما سعد فألقوا القبض عليه ، فربطوا يديه إلى عنقه بنسج رَحْلِهِ ، وجعلوا يضربونه ويجرونه ويجرون شعره حتى أدخلوه مكة ، فجاء المطعم بن عدي والحارث بن حرب بن أمية فخلصاه من أيديهم ؛ إذ كان سعد يجير لهما قوافلهما المارة بالمدينة ، وتشاورت الأنصار حين فقدوه أن يكبروا إليه ، فإذا هو قد طلع عليهم ، فوصل القوم جميعاً إلى المدينة^(١) .

هذه هي بيعة العقبة الثانية - التي تعرف ببيعة العقبة الكبرى - وقد تمت في جو تعلوه عواطف الحب والولاء ، والتناصر بين أشقات المؤمنين ، والثقة والشجاعة والاستبسال في هذا السبيل . فمؤمن من أهل يثرب يحنو على أخيه المستضعف في مكة ، ويتعصب له ، ويغضب من ظالمه ، وتحيش في حناياه مشاعر الود لهذا الأخ الذي أحبه بالغيب في ذات الله .

ولم تكن هذه المشاعر والعواطف نتيجة نزعة عابرة تزول على مر الأيام ، بل كان مصدرها هو الإيمان بالله وبرسوله وبكتابه ، إيمان لا يزول أمام أى قوة من قوات الظلم والعدوان ، إيمان إذا هبت ريحه جاءت بالعجائب في العقيدة والعمل ، وبهذا الإيمان استطاع المسلمون أن يسجلوا على أوراق الدهر أعمالاً ، ويتركوا عليها آثاراً خلا عن نظائرها الغابر والحاضر ، وسوف يخلو المستقبل .

طلائع الهجرة

وبعد أن تمت بيعة العقبة الثانية ونجح الإسلام في تأسيس وطن له وسط صحراء تموج بالكفر والجهالة - وهو أخطر كسب حصل عليه الإسلام منذ بداية دعوته - أذن رسول الله ﷺ للمسلمين بالهجرة إلى هذا الوطن .

ولم يكن معنى الهجرة إلا إهدار المصالح ، والتضحية بالأموال ، والنجاة بالشخص فحسب ، مع الإشعار بأنه مستباح منهوب قد يهلك في أوائل الطريق أو نهايتها ، وبأنه يسير نحو مستقبل مبهم ، لا يدري ما يتمخض عنه من قلق وأحزان .

وبدا المسلمون يهاجرون وهم يعرفون كل ذلك ، وأخذ المشركون يحولون بينهم وبين خروجهم ؛ لما كانوا يحسون به من الخطر ، وهاك نماذج من ذلك :

١ - كان من أول المهاجرين أبو سلمة - هاجر قبل العقبة الكبرى بسنة على ما قاله ابن إسحاق - وزوجته وابنه ، فلما أجمع على الخروج قال له أصهاره : هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرايت صاحبتنا هذه ؟ علام نتركك تسير بها في البلاد ؟ فأخذوا منه زوجته ، وغضب آل أبي سلمة لرجلهم ، فقالوا : لا نترك ابنتنا معها إذ نزعتموها من صاحبنا ، وتجاذبوا الغلام بينهم فخلعوا يده ، وذهبوا به . وانطلق أبو سلمة وحده إلى المدينة .

وكانت أم سلمة رضي الله عنها بعد ذهاب زوجها وضياع ابنها تخرج كل غداة بالأبطح تبكي حتى تمسى ، ومضى على ذلك نحو سنة ، فرق لها أحد ذويها وقال : ألا تخرجون هذه المسكينة ؟ فرقتم بينها وبين زوجها وولدها ، فقالوا لها : الحقى بزوجك إن شئت ، فاسترجعت ابنها من عصبتها ، وخرجت تريد المدينة - رحلة تبلغ حوالى خمسمائة كيلو متر تمر بين شواحق الجبال ومهالك الأودية - وليس معها أحد من خلق الله . حتى إذا كانت بالتَّعِيم لقيها عثمان بن طلحة بن أبي طلحة ، وبعد أن عرف حالها شيعها حتى أقدمها إلى المدينة ، فلما نظر إلى قباء ، قال : زوجك في هذه القرية فادخلها على بركة الله ، ثم انصرف راجعاً إلى مكة ^(١) .

٢ - وهاجر صُهَيْب بن سنان الرومى بعد رسول الله ﷺ ، فلما أراد الهجرة قال له كفار قريش : أتيتنا صعلوكاً حقيراً ، فكثرت مالك عندنا ، وبلغت الذى بلغت ، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك ؟ والله لا يكون ذلك . فقال لهم صهيب : أرايتم إن جعلت لكم مالى أتخلون سبيلى ؟ قالوا : نعم ، قال : فإننى قد جعلت لكم مالى ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : « ربح صهيب ، ربح صهيب » ^(٢) .

٣ - وتواعد عمر بن الخطاب ، وعيَّاش بن أبى ربيعة ، وهشام بن العاص بن وائل

(١) ابن هشام ١/٤٦٨ - ٤٧٠ .

(٢) المصدر السابق ١/٤٧٧ .

موضِعاً اسمه التَّاضُب فوق سَرَفٍ يصبحون عنده ، ثم يهاجرون إلى المدينة ، فاجتمع عمر وعياش ، وحبس عنهما هشام .

ولما قدما المدينة ونزلا بقباء قدم أبو جهل وأخوه الحارث إلى عياش - وأم الثلاثة واحدة ، وهى أسماء بنت مُخَرَّبَةٍ - فقالا له : إن أمك قد نذرت ألا يمَسَ رأسها مشط ، ولا تستظل بشمس حتى تراك ، فَرَقَّ لها . فقال له عمر : يا عياش ، إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم ، فوالله لو أدى أمك القمل لامتشطت ، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت ، فأبى عياش إلا الخروج معهما ليبر قسم أمه ، فقال له عمر : أما إذ قد فعلت ما فعلت فخذ ناقتى هذه ، فإنها ناقة نجبية ذلول ، فالزم ظهرها ، فإن رابك من القوم ريب فانج عليها .

فخرج عليها معهما ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل : يا بن أمى ، والله لقد استغلظت بعيرى هذا ، أفلا تعقبنى على ناقتك هذه ؟ قال : بلى ، فأناخ وأناخا ليتحول عليها ، فلما استوتوا بالأرض عدوا عليه فأوثقاه وربطاه ، ثم دخلا به مكة نهاراً موثقاً ، وقالوا : يا أهل مكة ، هكذا فافعلوا بسفهاكم ، كما فعلنا بسفيهننا هذا ^(١) .

هذه ثلاثة نماذج لما كان المشركون يفعلونه بمن يريد الهجرة إذا علموا ذلك . ولكن على رغم ذلك خرج الناس أرسالاً يتبع بعضهم بعضاً . وبعد شهرين وبضعة أيام من بيعة العقبة الكبرى لم يبق بمكة من المسلمين إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعلى - أقاما بأمره لهما - وإلا من احتبسه المشركون كرهاً ، وقد أعد رسول الله ﷺ جهازه ينتظر متى يؤمر بالخروج ، وأعد أبو بكر جهازه ^(٢) .

روى البخارى عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ للمسلمين : « إني أريت دار هجرتكم، ذات نخل بين لابَتَيْنِ » - وهما الحرتان - فهاجر من هاجر قبل المدينة ، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة ، وتجهز أبو بكر قبل المدينة ، فقال له رسول الله ﷺ : « على رسلك ، فإني أرجو أن يؤذن لى » . فقال له أبو بكر : وهل ترجو ذلك بأبى أنت ؟ قال : « نَعَمْ » ، فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصبحه ، وعلف راحتيه كانتا عنده ورق السمَر - وهو الخَبَطُ - أربعة أشهر ^(٣) .

(١) بقى هشام وعياش فى قيد الكفار حتى إذا هاجر رسول الله ﷺ قال يوماً : « من لى بعياش وهشام ؟ » فقال الوليد بن الوليد : أنا لك يا رسول الله بهما ، فقدم الوليد مكة مستخفياً ، ولقى امرأة تحمل إليهما طعاماً فتبعها حتى عرف موضعهما ، وكانا محبوسين فى بيت لا سقف له ، فلما أمسى تسور الجدار ، وقطع قيديهما وحملهما على بعيره حتى قدم المدينة (انظر : ابن هشام ٤٧٤/١ - ٤٧٦) . وكان قدوم عمر المدينة فى عشرين من الصحابة (صحيح البخارى ٥٥٨/١) .

(٢) زاد المعاد ٥٢/٢ .

(٣) صحيح البخارى : باب هجرة النبى ﷺ وأصحابه ٥٥٣/١ .

في دار الندوة «برلمان قريش»

ولما رأى المشركون أن أصحاب رسول الله ﷺ قد تجهزوا وخرجوا ، وحملوا وساقوا الذراري والأطفال والأموال إلى الأوس والخزرج أصابتهم الكآبة والحزن ، وساورهم القلق والهم بشكل لم يسبق له مثيل ، فقد تجسد أمامهم خطر حقيقى عظيم ، أخذ يهدد كيانههم الوثنى والاقتصادى .

فقد كانوا يعلمون ما فى شخصية محمد ﷺ من غاية قوة التأثير مع كمال القيادة والإرشاد ، وما فى أصحابه من العزيمة والاستقامة والفداء فى سبيله ، ثم ما فى قبائل الأوس والخزرج من القوة والمنعة ، وما فى عقلاء هاتين القبيلتين من عواطف السلم والصلاح ، والتداعى إلى نبذ الأحقاد ، ولاسيما بعد أن ذاقوا مرارة الحروب الأهلية طيلة أعوام من الدهر .

كما كانوا يعرفون ما للمدينة من الموقع الاستراتيجى بالنسبة إلى المحجة التجارية التى تمر بساحل البحر الأحمر من اليمن إلى الشام . وقد كان أهل مكة يتاجرون إلى الشام بقدر ربع مليون دينار ذهب سنوياً ، سوى ما كان لأهل الطائف وغيرها . ومعلوم أن مدار هذه التجارة كان على استقرار الأمن فى تلك الطريق .

فلا يخفى ما كان لقريش من الخطر البالغ فى تمرکز الدعوة الإسلامية فى يثرب ، ومجابهة أهلها ضدهم .

شعر المشركون بتفاقم الخطر الذى كان يهدد كيانههم ، فصاروا يبحثون عن أنجح الوسائل لدفع هذا الخطر الذى مبعثه الوحيد هو حامل لواء دعوة الإسلام محمد ﷺ .

وفى يوم الخميس ٢٦ من شهر صفر سنة ١٤ من النبوة ، الموافق ١٢ من شهر سبتمبر سنة ٦٢٢م^(١) - أى بعد شهرين ونصف تقريباً من بيعة العقبة الكبرى - عقد برلمان مكة (دار الندوة) فى أوائل النهار^(٢) أخطر اجتماع له فى تاريخه ، وتوافد إلى هذا الاجتماع جميع نواب القبائل القرشية ؛ ليتدارسوا خطة حاسمة تكفل القضاء سريعاً على حامل لواء الدعوة الإسلامية ؛ وتقطع تيار نورها عن الوجود نهائياً . وكانت الوجوه البارزة فى هذا الاجتماع الخطير من نواب قبائل قريش :

١ - أبو جهل بن هشام ، عن قبيلة بنى مخزوم .

٢ ، ٣ ، ٤ - جبير بن مطعم ، وطُعَيْمَةُ بن عدى ، والحارث بن عامر ، عن بنى نُوْفَل ابن عبد مناف .

(١) أخذنا هذا التاريخ بعد مراجعة التحقيقات العلمية التى سجلها العلامة محمد سليمان المنصورفورى فى رحمة للعالمين ١/٩٥ ، ٩٧ ، ١٠٢ ، ٤٧١/٢ .

(٢) يدل على انعقاد هذا الاجتماع فى أوائل النهار ما رواه ابن إسحاق: أن جبريل أخبر النبى ﷺ بمؤامرة هذا الاجتماع وأذن فى الهجرة . ثم ما رواه البخارى من حديث عائشة: أن النبى ﷺ جاء أبا بكر فى نحر الظهر وقال له : « قد أذن لى فى الخروج » وسأتى .

٥ ، ٦ ، ٧- شية وعتبة ابنا ربيعة وأبو سفيان بن حرب ، عن بنى عبد شمس بن عبد مناف .

٨- النَّضْرُ بن الحارث ، عن بنى عبد الدار .

٩ ، ١٠ ، ١١- أبو البَخْتَرى بن هشام ، وزَمْعَةُ بن الأسود ، وَحَكِيم بن حِرَام ، عن بنى أسد بن عبد العزى .

١٢ ، ١٣- نُبَيْهٌ وَمُنْبَهٌ ابنا الحجاج ، عن بنى سهم .

١٤- أُمَيَّة بن خَلَف ، عن بنى جُمَح .

ولما جاءوا إلى دار الندوة حسب الميعاد ، اعترضهم إبليس فى هيئة شيخ جليل ، عليه بَتُّ^(١) له ، ووقف على الباب ، فقالوا : من الشيخ ؟ قال : شيخ من أهل نجد سمع بالذى اتعدتم له فحضر معكم لسمع ما تقولون ، وعسى ألا يعدمكم منه رأياً ونصحاً . قالوا : أجل ، فادخل ، فدخل معهم .

النقاش البرلماني والإجماع على قرار غاشم بقتل النبى ﷺ :

وبعد أن تكامل الاجتماع بدأ عرض الاقتراحات والحلول ، ودار النقاش طويلاً . قال أبو الأسود : نخرجه من بين أظهرنا ونفنيه من بلادنا ، ولا نبالى أين ذهب ، ولا حيث وقع ، فقد أصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت .

قال الشيخ النجدى : لا والله ما هذا لكم برأى ، ألم تروا حسن حديثه ، وحلاوة منطقه ، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به ؟ والله لو فعلتم ذلك ما أمتتم أن يحل على حى من العرب ، ثم يسير بهم إليكم - بعد أن يتابعوه - حتى يطاكم بهم فى بلادكم ، ثم يفعل بكم ما أراد ، دبروا فيه رأياً غير هذا .

قال أبو البختري : احبسوه فى الحديد وأغلقوا عليه باباً ، ثم تربصوا به ما أصاب أمثاله من الشعراء الذين كانوا قبله - زهيراً والنابعة - ومن مضى منهم ، من هذا الموت ، حتى يصيبه ما أصابهم .

قال الشيخ النجدى : لا والله ما هذا لكم برأى ، والله لئن حبستموه - كما تقولون - ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتهم دونه إلى أصحابه ، فلاوشكوا أن يشبوا عليكم ، فينزعوهم من أيديكم ، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم ، ما هذا لكم برأى ، فانظروا فى غيره .

وبعد أن رفض البرلمان هذين الاقتراحين ، قدم إليه اقتراح آثم وافق عليه جميع أعضائه ، تقدم به كبير مجرمى مكة أبو جهل بن هشام . قال أبو جهل : والله إن لى فيه رأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد . قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟ قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نَسِيّاً وَسِيْطاً فينا ، ثم نعطى كل فتى منهم سيفاً صارماً ، ثم يعمدوا إليه ، فيضربوه

(١) البَتُّ : الكساء الغليظ .

بها ضربة رجل واحد ، فيقتلوه ، فنستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً ، فرضوا منا بالعقل^(١) ، فعقلناه لهم .

قال الشيخ النجدي : القول ما قال الرجل ، هذا الرأي الذي لا رأى غيره^(٢) .
ووافق برلمان مكة على هذا الاقتراح الأثم بالإجماع ، ورجع النواب إلى بيوتهم وقد صمموا على تنفيذ هذا القرار فوراً .

(١) بالدِّية .

(٢) انظر : ابن هشام ١/ ٤٨٠ - ٤٨٢ .

هجرة النبي ﷺ

بين تدبير قريش وتدبير الله سبحانه وتعالى :

من طبيعة مثل هذا الاجتماع السرية للغاية ، وألا يبدو على السطح الظاهر أى حركة تخالف اليومية ، وتغاير العادات المستمرة ، حتى لا يشم أحد رائحة التآمر والخطر ، ولا يدور فى خلد أحد أن هناك غموضاً ينبئ عن الشر ، وكان هذا مكرراً من قريش ، ولكنهم ماكروا بذلك الله سبحانه وتعالى ، فخيهم من حيث لا يشعرون . فقد نزل جبريل ﷺ إلى النبي ﷺ بوحي من ربه تبارك وتعالى فأخبره بمؤامرة قريش ، وأن الله قد أذن له فى الخروج ، وحدد له وقت الهجرة ، وبين له خطة الرد على قريش فقال : لا تبت هذه الليلة على فراشك الذى كنت تبيت عليه (١) .

وذهب النبي ﷺ فى الهجرة - حين يستريح الناس فى بيوتهم - إلى أبى بكر رضيه الله عنه ليبرم معه مراحل الهجرة ، قالت عائشة رضيه الله عنها : بينما نحن جلوس فى بيت أبى بكر فى نحر الظهيرة ، قال قائل لأبى بكر : هذا رسول الله ﷺ متقنعاً ، فى ساعة لم يكن يأتينا فيها ، فقال أبو بكر : فداء له أبى وأمى ، والله ما جاء به فى هذه الساعة إلا أمر .

قالت : فجاء رسول الله ﷺ ، فاستأذن ، فأذن له فدخل ، فقال النبي ﷺ لأبى بكر : « أخرج من عندك » . فقال أبو بكر : إنما هم أهلك ، بأبى أنت يا رسول الله . قال : « فإنى قد أذن لى فى الخروج » ، فقال أبو بكر : الصحبة بأبى أنت يا رسول الله؟ قال رسول الله ﷺ : « نعم » (٢) .

ثم أبرم معه خطة الهجرة ، ورجع إلى بيته ينتظر مجيء الليل . وقد استمر فى أعماله اليومية حسب المعتاد حتى لم يشعر أحد بأنه يستعد للهجرة ، أو لآى أمر آخر اتقاء مما قررت قريش .

تطويق منزل الرسول ﷺ :

أما أكابر مجرمى قريش ففقضوا نهارهم فى الإعداد سرا لتنفيذ الخطة المرسومة التى أبرمها برلمان مكة « دار الندوة » صباحاً ، واختير لذلك أحد عشر رئيساً من هؤلاء الأكابر ، وهم :

١- أبو جهل بن هشام .

٢- الحکم بن أبى العاص .

٣- عُبَبة بن أبى مُعِط .

(١) ابن هشام ٤٨٢/١ ، وزاد المعاد ٥٢/٢ .

(٢) صحيح البخارى : باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه ٥٥٣/١ . وانظر للهجرة: ح (٤٧٦ ، ٢١٣٨ ، ٢٢٦٣ ، ٢٢٦٤ ، ٢٢٩٧ ، ٣٩٠٥ ، ٤٠٩٣ ، ٥٨٠٧ ، ٦٠٧٩) من صحيح البخارى .

٤- النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ .

٥- أُمِيَّةُ بْنُ خَلْفٍ .

٦- زَمْعَةُ بْنُ الْأَسْوَدِ .

٧- طُعَيْمَةُ بْنُ عَدِيٍّ .

٨- أَبُو لَهَبٍ .

٩- أُبَيُّ بْنُ خَلْفٍ .

١٠- نُبَيْهَةُ بْنُ الْحِجَّاجِ .

١١- أَخُوهُ مُنْبَهُ بْنُ الْحِجَّاجِ (١) .

وكان من عادة رسول الله ﷺ أن ينام في أوائل الليل بعد صلاة العشاء ، ويخرج بعد نصف الليل إلى المسجد الحرام ، يصلى فيه قيام الليل ، فأمر علياً رضي الله عنه تلك الليلة أن يضطجع على فراشه ، ويتسجى ببرده الحضرمي الأخضر ، وأخبره أنه لا يصيبه مكروه .

فلما كانت عتمة من الليل وساد الهدوء ، ونام عامة الناس جاء المذكورون إلى بيته ﷺ سرّاً ، واجتمعوا على بابه يرصدونه ، وهم يظنونونه نائماً حتى إذا قام وخرج وثبوا عليه ، ونفذوا ما قرروا فيه .

وكانوا على ثقة ويقين جازم من نجاح هذه المؤامرة الدنية ، حتى وقف أبو جهل وقفه الزهو والخيلاء ، وقال مخاطباً لأصحابه المطوقين في سخرية واستهزاء : إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم ، ثم بعثتم من بعد موتكم ، فجعلت لكم جنان كجنان الأردن ، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح ، ثم بعثتم من بعد موتكم ، ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها (٢) .

وقد كان ميعاد تنفيذ تلك المؤامرة بعد منتصف الليل في وقت خروجه ﷺ من البيت ، فباتوا متيقظين ينتظرون ساعة الصفر ، ولكن الله غالب على أمره ، بيده ملكوت السموات والأرض ، يفعل ما يشاء ، وهو يعجز ولا يجار عليه ، فقد فعل ما خاطب به الرسول ﷺ فيما بعد : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (٣٠) [الأنفال] .

الرسول ﷺ يغادر بيته :

وقد فشلت قريش في خطتهم فشلاً ذريعاً مع غاية التيقظ والتنبيه ؛ إذ خرج رسول الله ﷺ من البيت ، واخترق صفوفهم ، وأخذ حفنة من البطحاء فجعل يذرّه على رؤوسهم ، وقد أخذ الله أبصارهم عنه فلا يرونه ، وهو يتلو : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (٩) [يس] . فلم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه تراباً ، ومضى إلى بيت أبي بكر ، فخرجوا من خوخة في دار أبي بكر ليلاً حتى لحقوا بغار ثور

فى اتجاه اليمين (١) .

وبقى المحاصرون ينتظرون حلول ساعة الصفر ، وقبيل حلولها تجلت لهم الحية والفشل ، فقد جاءهم رجل بمن لم يكن معهم ، ورآهم يبابه فقال : ما تنتظرون ؟ قالوا : محمداً . قال : خبتم وخسرتم ، قد والله مر بكم ، وذر على رؤوسكم التراب ، وانطلق لحاجته ، قالوا : والله ما أبصرناه ، وقاموا ينفضون التراب عن رؤوسهم .

ولكنهم تطلّعوا من صير الباب فرأوا علياً ، فقالوا : والله إن هذا لمحمد نائماً ، عليه برده ، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا . وقام على عن الفراش ، فسقط فى أيديهم ، وسألوه عن رسول الله ﷺ ، فقال : لا علم لى به (٢) .

من الدار إلى الغار :

غادر رسول الله ﷺ بيته فى ليلة ٢٧ من شهر صفر سنة ١٤ من النبوة ، الموافق ١٣/١٢ سبتمبر سنة ٦٢٢م (٣) . وأتى إلى دار رفيقه - وأمن الناس عليه فى صحبته وماله - أبى بكر رضي الله عنه . ثم غادر منزل الأخير من باب خلفى ؛ ليخرجاً من مكة على عجل وقبل أن يطلع الفجر .

ولما كان النبى ﷺ يعلم أن قريشاً ستجدّ فى الطلب ، وأن الطريق الذى ستتجه إليه الأنظار لأول وهلة هو طريق المدينة الرئيسى المتجه شمالاً ، فسلك الطريق الذى يضاده تماماً ، وهو الطريق الواقع جنوب مكة ، والمتجه نحو اليمين ، سلك هذا الطريق نحو خمسة أميال حتى بلغ إلى جبل يعرف بجبل ثور وهو جبل شامخ ، وعَر الطريق ، صعب المرتقى ، ذو أحجار كثيرة ، فحفيت قدما رسول الله ﷺ ، وقيل : بل كان يمشى فى الطريق على أطراف قدميه كى يخفى أثره فحفيت قدماه ، وأيا ما كان فقد حمّله أبو بكر حين بلغ إلى الجبل ، وطفق يشتد به حتى انتهى به إلى غار فى قمة الجبل عرف فى التاريخ بغار ثور (٤) .

إذ هما فى الغار :

ولما انتهى إلى الغار قال أبو بكر : والله لا تدخله حتى أدخل قبلك ، فإن كان فيه شيء أصابنى دونك ، فدخل فكسحه ، ووجد فى جانبه ثقباً فشق إزاره وسدها به ، وبقي منها اثنان فألقمهما رجله ، ثم قال لرسول الله ﷺ : ادخل ، فدخل رسول الله ﷺ ، ووضع رأسه فى حجره ونام ، فلدغ أبو بكر فى رجله من الحجر ، ولم يتحرك مخافة أن ينتبه رسول الله ﷺ ، فسقطت دموعه على وجه رسول الله ﷺ ، فقال : «ما لك يا أبا بكر؟» قال : لدغت ، فذاك

(١) ، (٢) ابن هشام ٤٨٣/١ ، وزاد المعاد ٥٢/٢ .

(٣) رحمة للعالمين ٩٥/١ . ويكون شهر صفر هذا من السنة الرابعة عشرة من النبوة إذا فرضنا بداية السنين من شهر محرم ، وأما إذا بدأنا السنين من الشهر الذى أكرم الله فيه نبيه ﷺ بالنبوة ، فيكون شهر صفر هذا من السنة الثالثة عشرة قطعاً . وعامة من يكتب فى السيرة ربما يختار هذا ، وربما يختار ذاك ، فكثيراً ما يتخبط فى ترتيب الوقائع ، ويقع فى أغلاط ، ونظراً إلى ذلك اخترنا بداية السنين من شهر محرم .

(٤) مختصر السيرة للشيخ عبد الله ص ١٦٧ .

أبى وأمى ، فتفل رسول الله ﷺ ، فذهب ما يجده (١) .

وَكَمْنَا فِي الْغَارِ ثَلَاثَ لَيَالٍ ، لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ وَلَيْلَةَ السَّبْتِ وَلَيْلَةَ الْاِحْدِ (٢) . وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ يَبِيتُ عِنْدَهُمَا . قَالَتْ عَائِشَةُ : وَهُوَ غُلَامٌ شَابٌ ثَقَفَ لَقْنَ ، فَيُدْلِجُ مِنْ عِنْدَهُمَا بِسَحَرٍ ، فَيَصْبِحُ مَعَ قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ كِبَائَتْ ، فَلَا يَسْمَعُ أَمْرًا يَكْتَادَانِ بِهِ إِلَّا وَعَاهُ حَتَّى يَأْتِيَهُمَا بِخَبَرِ ذَلِكَ حِينَ يَخْتَلِطُ الظَّلَامُ ، وَ [كَانَ] يَرْعَى عَلَيْهِمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ مُنْحَةً مِنْ غَنَمٍ ، فَيُرِيحُهُمَا عَلَيْهِمَا حِينَ تَذْهَبُ سَاعَةٌ مِنَ الْعِشَاءِ ، فَيَبِيتَانِ فِي رَسْلٍ - وَهُوَ لَبَنٌ مُنْحَتُهُمَا وَرَضِيفُهُمَا - حَتَّى يَنْقُ بِهَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ بَعْلَسَ ، يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلَاثِ (٣) ، وَكَانَ عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ يَتَّبِعُ بَغْنَمَهُ أَثَرُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ بَعْدَ ذَهَابِهِ إِلَى مَكَّةَ لِيُعْفَى عَلَيْهِ (٤) .

أما قريش فقد جن جنونها حينما تأكد لديها إفلات رسول الله ﷺ صباح ليلة تنفيذ المؤامرة . فأول ما فعلوا بهذا الصدد أنهم ضربوا علياً ، وسحبوه إلى الكعبة ، وحبسوه ساعة ، عليهم يظفرون بخبرهما (٥) .

ولما لم يحصلوا من عليّ على جدوى جاءوا إلى بيت أبي بكر وقرعوا بابه ، فخرجت إليهم أسماء بنت أبي بكر ، فقالوا لها : أين أبوك ؟ قالت : لا أدري والله أين أبي ؟ فرفع أبو جهل يده - وكان فاحشاً خبيثاً - فلطم خدها لطمة طرح منها قرطها (٦) .

وقررت قريش في جلسة طارئة مستعجلة استخدام جميع الوسائل التي يمكن بها القبض على الرجلين ، فوضعت جميع الطرق النافذة من مكة (في جميع الجهات) تحت المراقبة المسلحة الشديدة ، كما قررت إعطاء مكافأة ضخمة قدرها مائة ناقة بدل كل واحد منهما لمن يعيدهما إلى قريش حين أو ميتين ، كائناً من كان (٧) .

وحينئذٍ جددت الفرسان والمشاة وقصاص الأثر في الطلب ، وانتشروا في الجبال والوديان ، والوهاد والهضاب ، لكن من دون جدوى وبغير عائدة .

وقد وصل المطاردون إلى باب الغار ، ولكن الله غالب على أمره ، روى البخاري عن أنس عن أبي بكر قال : كنت مع النبي ﷺ في الغار ، فرفعت رأسي فإذا أنا بأقدام القوم ، فقلت : يا نبي الله ، لو أن بعضهم طأطأ بصره رأنا . قال : « اسكت يا أبا بكر ، اثنان ، الله ثالثهما » ، وفي لفظ : « ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما » (٨) .

(١) رواه رزين عن عمر بن الخطاب ؓ ، وفيه ثم انتقض عليه (أى رجع أثر السم حين موته) وكان سبب موته . انظر : مشكاة المصابيح ، باب مناقب أبي بكر ٥٥٦/٢ .

(٢) انظر : فتح الباري ٣٣٦/٧ . صحيح البخاري ٥٥٣/١ ، ٥٥٤ .

(٣) ابن هشام ٤٨٦/١ . (٤) تاريخ الطبري ٣٧٤/٢ .

(٥) انظر : صحيح البخاري ٥٥٤/١ . (٦) ابن هشام ٤٨٧/١ .

(٨) صحيح البخاري ٥١٦/١ ، ٥٥٨ ، ونحوه عند أحمد ٤/١ ولفظه : قلت للنبي ﷺ وهو في الغار - وقال مرة ونحن في الغار : لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا ، فقال : « يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما » ولم يكن فزع أبي بكر مخافة على نفسه ، بل سببه الوحيد ما روى أن أبا بكر لما رأى القافة اشتد حزنه على رسول الله ﷺ وقال : « إن قتلت فإنا أنا رجل واحد ، وإن قتلت أنت هلكت الأمة ، فعندها قال له رسول الله ﷺ : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ . انظر : مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ١٦٨ .

وقد كانت معجزة أكرم الله بها نبيه ﷺ ، فقد رجع المطاردون حين لم يبق بينه وبينهم إلا خطوات معدودة .

فى الطريق إلى المدينة :

وحين خمدت نار الطلب ، وتوقفت أعمال دوريات التفتيش ، وهذأت ثائرات قريش بعد استمرار المطاردة الحثيئة ثلاثة أيام بدون جدوى ، تهيأ رسول الله ﷺ وصاحبه للخروج إلى المدينة .

وكانا قد استأجرا عبد الله بن أريقط الليثي ، وكان هادياً خريئاً - ماهراً بالطريق - وكان على دين كفار قريش ، وأمناه على ذلك ، وسلمنا إليه راحلتيهما ، وواعدها غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما ، فلما كانت ليلة الاثنين - غرة ربيع الأول سنة ١هـ / ١٦ سبتمبر سنة ٦٢٢م - جاءهما عبد الله بن أريقط بالراحلتين ، وكان قد قال أبو بكر للنبي ﷺ عند مشاورته فى البيت : بأبى أنت يا رسول الله ، خذ إحدى راحلتي هاتين ، وقرب إليه أفضلهما ، فقال رسول الله ﷺ بالثمن . وأتتهما أسماء بنت أبى بكر رضي الله عنها بسفرتهما ، ونسيت أن تجعل لها عصاماً ، فلما ارتحلا ذهبت لتعلق السفرة ، فإذا ليس لها عصام ، فشقت نطاقها باثنين ، فعلقت السفرة بواحد ، وانتظت بالآخر فسميت : ذات النطاقين (١) .

ثم ارتحل رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنهما وارتحل معهما عامر بن فهيرة ، وأخذ بهم الدليل - عبد الله بن أريقط - على طريق السواحل .

وأول ما سلك بهم بعد الخروج من الغار أنه أمعن فى اتجاه الجنوب نحو اليمن ، ثم اتجه غرباً نحو الساحل ، حتى إذا وصل إلى طريق لم يألوه الناس ، اتجه شمالاً على مقربة من شاطئ البحر الأحمر ، وسلك طريقاً لم يكن يسلكه أحد إلا نادراً .

وقد ذكر ابن إسحاق المواضع التى مر بها رسول الله ﷺ فى هذا الطريق ، قال : لما خرج بهما الدليل سلك بهما أسفل مكة ، ثم مضى بهما على الساحل حتى عارض الطريق أسفل من عسفان ، ثم سلك بهما على أسفل أمج ، ثم استجاز بهما حتى عارض بهما الطريق بعد أن أجاز قديداً ، ثم أجاز بهما من مكانه ذلك فسلك بهما الخرار ، ثم سلك بهما ثنية المرة ، ثم سلك بهما لقفاً ، ثم أجاز بهما مدلجة لقف ، ثم استبطن بهما مدلجة مجاج ، ثم سلك بهما مرجح مجاج ، ثم تبطن بهما مرجح من ذى الغضوين ، ثم بطن ذى كشر ، ثم أخذ بهما على الجداجد ، ثم على الأجرد ، ثم سلك بهما ذا سلم من بطن أعدا مدلجة تعهن ، ثم على العبايد ، ثم أجاز بهما الفاجة ، ثم هبط بهما العرج ، ثم سلك بهما ثنية العائر - عن يمين ركوبة - حتى هبط بهما بطن رثم ، ثم قدم بهما على قباء (٢) .

وهاك بعض ما وقع فى الطريق :

١- روى البخارى عن أبى بكر الصديق رضي الله عنه قال : أسرينا ليلتنا ومن الغد حتى قام

(١) صحيح البخارى ٥٥٣/١ ، ٥٥٥ ، وابن هشام ٤٨٦/١ .

(٢) ابن هشام ٤٩١/١ ، ٤٩٢ .

قائم الظهيرة وخلا الطريق ، لا يمر فيه أحد ، فرفعت لنا صخرة طويلة ، لها ظل لم تأت عليها الشمس ، فنزلنا عنده ، وسويت للنبي مكاناً بيدي ، ينام عليه ، وبسطت عليه فروة ، وقلت : نم يا رسول الله ، وأنا أنفض لك ما حولك ، فنام ، وخرجت أنفض ما حوله ، فإذا أنا براع مقبل بغنمه إلى الصخرة ، يريد منها مثل الذى أردنا ، فقلت له : لمن أنت يا غلام ؟ فقال : لرجل من أهل المدينة أو مكة (١) . قلت : أفى غنمك لبن ؟ قال : نعم . قلت : أفتحلب ؟ قال : نعم . فأخذ شاة ، فقلت : أنفض الضرع من التراب والشعر والقذى ، فحلب فى قعب كُتْبة من لبن ، ومعى إداوة حملتها للنبي ﷺ ، يرتوى منها ، يشرب ويتوضأ ، فأتيت النبي ﷺ فكرهت أن أوقظه ، فوافقته حين استيقظ ، فصبت من الماء على اللبن حتى برد أسفله ، فقلت : اشرب يا رسول الله ، فشرب حتى رضيت ، ثم قال : « ألم يأن للرحيل ؟ » قلت : بلى ، قال : فارتحلنا (٢) .

٢- وكان من دأب أبى بكر رضي الله عنه أنه كان ردفاً للنبي ﷺ ، وكان شيخاً يعرف ، ونبي الله ﷺ شاب لا يعرف ، فيلقى الرجل أبا بكر فيقول : من هذا الرجل الذى بين يديك ؟ فيقول : هذا الرجل يهدينى الطريق ، فيحسب الحاسب أنه يعنى به الطريق ، وإنما يعنى سبيل الخير (٣) .

٣- وفى اليوم الثانى أو الثالث مر بخيمتى أم معبد الخزاعية ، وكان موقعهما بالمُشَلَّل من ناحية قُذَيْد على بعد نحو ١٣٠ كيلو متراً من مكة ، وكانت أم معبد امرأة برزة جلدة تحتبى بفناء الخيمة ، ثم تطعم وتسقى من مر بها ، فسألاها : هل عندها شيء ؟ فقالت : والله لو كان عندنا شيء ما أعوزكم ، القِرَى والشاء عازب ، وكانت سنةً شهباء .

ف نظر رسول الله ﷺ إلى شاة فى كسر الخيمة ، فقال : « ما هذه الشاة يا أم معبد ؟ » قالت : شاة خلفها الجهد عن الغنم ، فقال : « هل بها من لبن ؟ » قالت : هى أجهد من ذلك . فقال : « أتأذنين لى أن أحلبها ؟ » قالت : نعم بأبى وأمى إن رأيت بها حلباً فاحلبها . فمسح رسول الله ﷺ بيده ضرعها ، وسمى الله ودعا ، فتعاجت عليه ودرت ، فدعا بإناء لها يربض (٤) الرهط ، فحلب فيه حتى علت الرغوة ، فسقاها ، فشربت حتى رويت ، وسقى أصحابه حتى رروا ، ثم شرب ، وحلب فيه ثانياً ، حتى ملأ الإناء ، ثم غادره عندها فارتحلوا .

فما لبثت أن جاء زوجها أبو معبد يسوق أعززا عجافا يتساوكن هزلاً ، فلما رأى اللبن عجب ، فقال : من أين لك هذا ؟ والشاة عازب ، ولا حلوبة فى البيت ؟ فقالت : لا والله إلا أنه مر بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت ، ومن حاله كذا وكذا ، قال : إني والله أراه صاحب قریش الذى تطلبه ، صفيه لى يا أم معبد ، فوصفته بصفاته الكريمة وصفاً بديعاً كأن السامع ينظر إليه وهو أمامه - وسنقله فى بيان صفاته ﷺ فى أواخر الكتاب - فقال أبو معبد : والله هذا صاحب قریش الذى ذكروا من أمره ما ذكروا ، لقد هممت أن أصحبه ، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً . وأصبح صوت بمكة عالياً يسمعون ولا يرون القائل :

(٢) صحيح البخارى ١/ ٥١٠ .

(٤) يسقى .

(١) وفى رواية : لرجل من قریش .

(٣) روى ذلك البخارى عن أنس ١/ ٥٥٦ .

جزى الله رب العرش خير جزائه رفيقين حلاًّ خيمتى أم مَعْبَدٍ
هما نزلاً بالبرِّ وارتحلاً به وأفلح من أمسى رفيق محمد
فيا لِقْصَى ما زَوَى الله عنكم به من فعال لا يُحَاذَى وسُودُّ
لِيَهْنِ بنى كعب مكان فتاتهم ومقعدُها للمؤمنين بمرْصَد
سلُّوا أختكم عن شاتها وإنائها فإنكم إن تسألوا الشاة تشهَد

قالت أسماء : ما درينا أين توجه رسول الله ﷺ إذ أقبل رجل من الجن من أسفل مكة فأنشد هذه الأبيات ، والناس يتبعونه ويسمعون صوته ولا يرونه حتى خرج من أعلاها .
قالت : فلما سمعنا قوله عرفنا حيث توجه رسول الله ﷺ ، وأن وجهه إلى المدينة (١) .

٤- وتبعهما في الطريق سُرّاقَة بن مالك . قال سراقَة : بينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بنى مُدَلِج ، أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس ، فقال : يا سراقَة ، إني رأيت أنفاً أسودَّ بالساحل ، أراها محمداً وأصحابه . قال سراقَة : فعرفت أنهم هم ، فقلت له : إنهم ليسوا بهم ، ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا ، ثم لبثت في المجلس ساعة ، ثم قمت فدخلت ، فأمرت جاريتي أن تخرج فرسى ، وهي من وراء أكمة ، فتحبسها علىّ ، وأخذت رمحى ، فخرجت به من ظهر البيت ، فخططت بزجّه (٢) الأرض ، وخفّضتُ عاليه ، حتى أتيت فرسى فركبتها ، فرفعتها تُقَرِّبُ بى حتى دنوت منهم ، فعثرت بى فرسى فخررت عنها ، فقامت ، فأهويت يدي إلى كنانتي ، فاستخرجت منها الأزام ، فاستقسمت بها ، أضرُّهم أم لا؟ فخرج الذى أكره ، فركبت فرسى - وعصيت الأزام - تُقَرِّبُ بى ، حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ - وهو لا يلتفت ، وأبو بكر يكثر الالتفات - سآخت يدا فرسى فى الأرض حتى بلغتا الركبتين ، فخررت عنها ، ثم زجرتها فنهضت ، فلم تكذُ تخرج يديها ، فلما استوت قائمة إذا لائثر يديها غبار ساطع فى السماء مثل الدخان ، فاستقسمت بالأزام ، فخرج الذى أكره ، فناديتهم بالأمان ، فوقفوا ، فركبت فرسى حتى جثتهم ، ووقع فى نفسى حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمرُ رسول الله ﷺ ، فقلت له : إن قومك قد جعلوا فيك الدية ، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم ، وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يَرَزَأْنِي ، ولم يسألانى إلا أن قال : « أخف عنا » ، فسألته أن يكتب لى كتاب أمنٍ ، فأمر عامر بن فهيرة ، فكتب لى فى رقعة من أدم ، ثم مضى رسول الله ﷺ (٣) .

وفى رواية عن أبى بكر قال : ارتحلنا والقوم يطلبوننا ، فلم يدركنا منهم أحد غير سراقَة ابن مالك بن جُعْشُم ، على فرس له ، فقلت : هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله ، فقال :

(١) زاد المعاد ٥٣/٢ ، ٥٤ ، وأخرجه الحاكم فى المستدرک ٩/٣ ، ١٠ ، وصححه ، ووافقه الذهبى ، ورواه البيهقى فى شرح السنة ٢٦٤/١٣ .

(٢) خططت : أمسكت بأعلاه وجعلت أسفله فى الأرض ، والزجُ : حديدة بأسفل الرمح .

(٣) صحيح البخارى ٥٥٤/١ - وكان مقر بنى مدلج بالقرب من رابغ ، وتبعهما سراقَة حينما كانا مصعدين من قديد - زاد المعاد ٥٣/٢ - فالأغلب أنه تبعهما فى اليوم الثالث من رحيلهما .

﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠] (١).

ورجع سراقه فوجد الناس في الطلب فجعل يقول : قد استبرأت لكم الخبر ، قد كفيتم ما ها هنا . وكان أول النهار جاهداً عليهما ، وآخره حارساً لهما (٢) .

٥ - وفي الطريق لقي النبي ﷺ بُرَيْدَةَ بن الحُصَيْب الأسلمي ومعه نحو ثمانين بيتاً ، فأسلم وأسلموا ، وصلى رسول الله ﷺ العشاء الآخرة فصلوا خلفه ، وأقام بريدة بأرض قومه حتى قدم على رسول الله ﷺ بعد أحد .

وعن عبد الله بن بريدة أن النبي ﷺ كان يتفائل ولا يتطير ، فركب بريدة في سبعين راكباً من أهل بيته من بنى سهم ، فلقي النبي ﷺ ، فقال له : « ممن أنت ؟ » قال : من أسلم ، فقال : لأبي بكر : سلماً ، ثم قال : « من بنى من ؟ » قال : من بنى سهم . قال : « خرج سهمك » (٣) .

٦ - ومر رسول الله ﷺ بأبي أوس تميم بن حَجَر أو بأبي تميم أوس بن حجر الأسلمي ، بقحداوات بين الجُحْفَةِ وَهَرَشَى - بالعرج - وكان قد أبطأ عليه بعض ظهره ، فكان هو وأبو بكر على جمل واحد ، فحملة أوس على فحل من إبله ، وبعث معهما غلاماً له اسمه مسعود ، وقال : اسلك بهما حيث تعلم من محارم الطريق ولا تفارقهما ، فسلك بهما الطريق حتى أدخلهما المدينة ، ثم رد رسول الله ﷺ مسعوداً إلى سيده ، وأمره أن يأمر أوساً أن يسم إبله في أعناقها قيد الفرس ، وهو حلقتان ، ومد بينهما مداً ، فهي سمتهم . ولما أتى المشركون يوم أحد أرسل أوس غلامه مسعود بن هُنَيْدَةَ من العَرَج على قدميه إلى رسول الله ﷺ يخبره بهم . ذكره ابن مَكُؤَلَا عن الطبري ، وقد أسلم بعد قدوم رسول الله ﷺ المدينة ، وكان يسكن العرج (٤) .

٧ - وفي الطريق - في بطن رثم - لقي رسول الله ﷺ الزبير ، وهو في ركب من المسلمين ، كانوا تجاراً قافلين من الشام ، فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياباً بياضاً (٥) .
النزول ببقاء :

وفي يوم الاثنين ٨ ربيع الأول سنة ١٤ من النبوة - وهي السنة الأولى من الهجرة - الموافق ٢٣ سبتمبر سنة ٦٢٢م نزل رسول الله ﷺ بقاء (٦) .

قال عروة بن الزبير : سمع المسلمون بالمدينة بمخرج رسول الله ﷺ من مكة ، فكانوا يغدون كل غداة إلى الحَرَّة ، فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة ، فانقلبوا يوماً بعد ما أطالوا

(٢) زاد المعاد ٥٣/٢ .

(١) صحيح البخارى ٥١٦/١ .

(٤) أسد الغابة ١٧٣/١ ، وابن هشام ٤٩١/١ .

(٣) أسد الغابة ٢٠٩/١ .

(٥) روى ذلك البخارى عن عروة بن الزبير ٥٥٤/١ .

(٦) رحمة للعالمين ١٠٢/١ . وفي هذا اليوم تم عمره ﷺ ثلاثة وخمسين عاماً كاملاً لا وكس ولا شطط ، وتم على نبوته ثلاثة عشر عاماً كاملاً عند من يقول : إنه أكرم بالنبوة في ٩ ربيع الأول سنة ٤١ من عام الفيل ، وأما من يقول : إنه أكرم بالنبوة في رمضان سنة ٤١ من عام الفيل فعنده يتم على نبوته - في ذلك اليوم - اثنا عشر عاماً وخمسة أشهر و١٨ يوماً أو ٢٢ يوماً .

انتظارهم ، فلما أوا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أطم من آطامهم لأمر ينظر إليه ، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مبّيضين يزول بهم السراب ، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته : يا معاشر العرب ، هذا جدكم الذى تنتظرون ، فثار المسلمون إلى السلاح (١) . وتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة .

قال ابن القيم : وسُمعت الوجبة (٢) والتكبير فى بنى عمرو بن عوف ، وكبر المسلمون فرحاً بقدمه ، وخرجوا للقاءه ، فتلقوه وحيوه بتحية النبوة ، فأحدقوا به مطيفين حوله ، والسكينة تغشاه ، والوحى ينزل عليه : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ (٣) [التحريم] .

قال عروة بن الزبير : فتلقوا رسول الله ﷺ ، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم فى بنى عمرو بن عوف ، وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول . فقام أبو بكر للناس ، وجلس رسول الله ﷺ صامتاً ، فطلق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله ﷺ يحيى - وفى نسخة : يجىء - أبا بكر ، حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه ، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك (٤) .

وكانت المدينة كلها قد زحفت للاستقبال ، وكان يوماً مشهوداً لم تشهد المدينة مثله فى تاريخها ، وقد رأى اليهود صدق بشارة حُبُّوق النبی : إن الله جاء من التيمان ، والقدوس من جبال فاران (٥) .

ونزل رسول الله ﷺ بقاء على كلثوم بن الهدم ، وقيل : بل على سعد بن خيثمة ، والأول أثبت .

ومكث على بن أبى طالب ﷺ بمكة ثلاثاً حتى أدى عن رسول الله ﷺ الودائع التى كانت عنده للناس ، ثم هاجر ماشياً على قدميه حتى لحقهما بقاء ، ونزل على كلثوم بن الهدم (٦) .

وأقام رسول الله ﷺ بقاء أربعة أيام : الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس (٧) . وأسس مسجد بقاء وصلى فيه ، وهو أول مسجد أسس على التقوى بعد النبوة ، فلما كان اليوم الخامس - يوم الجمعة - ركب بأمر الله له ، وأبو بكر ردفه ، وأرسل إلى بنى النجار -

(١) صحيح البخارى ٥٥٥/١ . والأطم : الحصن . و«مبيضين» : عليهم ثياب بيض .

(٢) صوت الشئ الساقط .

(٣) زاد المعاد ٥٤/٢ .

(٤) صحيح البخارى ٥٥٥/١ .

(٥) ابن هشام ٤٩٣/١ ، وزاد المعاد ٥٤/٢ .

(٦) صحيفة حبقوق (٣ : ٣) .

(٧) هذا ما رواه ابن إسحاق (ابن هشام ٤٩٤/١) ، وفى صحيح البخارى أنه أقام بقاء أربعاً وعشرين ليلة (٦١/١) ، وبضع عشرة ليلة (٥٥٥/١) ، وأربع عشرة ليلة (٥٦٠/١) وهذا الأخير هو الذى اختاره ابن القيم ، وقد صرح هو نفسه أن نزوله ﷺ بقاء كان يوم الاثنين وخروجه يوم الجمعة (زاد المعاد ٥٤/٢) ، ٥٥ ومعلوم أن فصل ما بينهما لا يزيد على عشرة أيام سوى يومى الدخول والخروج ، ومعهما لا يزيد على اثني عشر يوماً إذا كانا من أسبوعين .

أخواله - فجاءوا متقلدين سيوفهم ، فسار نحو المدينة وهم حوله^(١) ، وأدركته الجمعة فى بنى سالم بن عوف ، فجمع بهم فى المسجد الذى فى بطن الوادى ، وكانوا مائة رجل^(٢) .
الدخول فى المدينة :

ثم سار النبى ﷺ بعد الجمعة حتى دخل المدينة - ومن ذلك اليوم سميت بلدة يثرب بمدينة الرسول ﷺ ، ويعبر عنها بالمدينة مختصراً - وكان يوماً مشهوداً أغر ، فقد ارتجت البيوت والسكك بأصوات الحمد والتسبيح ، وتغنت بنات الأنصار بغاية الفرح والسرور^(٣) :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

والأنصار وإن لم يكونوا أصحاب ثروات طائلة إلا أن كل واحد منهم كان يتمنى أن ينزل الرسول ﷺ عليه ، فكان لا يمر بدار من دور الأنصار إلا أخذوا خطام راحلته : هلم إلى العدد والعدة والسلاح والمنعة ، فكان يقول لهم : « خلوا سبيلها فإنها مأمورة » ، فلم تزل سائرة به حتى وصلت إلى موضع المسجد النبوى اليوم فبركت ، ولم ينزل عنها حتى نهضت وسارت قليلاً ، ثم التفتت ورجعت فبركت فى موضعها الأول ، فنزل عنها ، وذلك فى بنى النجار - أخواله ﷺ - وكان من توفيق الله لها ، فإنه أحب أن ينزل على أخواله ، يكرمهم بذلك ، فجعل الناس يكلمون رسول الله ﷺ فى النزول عليهم ، وبادر أبو أيوب الأنصارى إلى رحله ، فأدخله بيته ، فجعل رسول الله ﷺ يقول : « المرء مع رحله » ، وجاء أسعد بن زرارة فأخذ بزمام راحلته ، فكانت عنده^(٤) .

وفى رواية أنس عند البخارى ، قال نبى الله ﷺ : « أى بيوت أهلنا أقرب ؟ » فقال أبو أيوب : أنا يا رسول الله ، هذه دارى ، وهذا بابى . قال : « فانطلق فهى لنا مقبلاً » ، قال :
قوما على بركة الله^(٥) .

وبعد أيام وصلت إليه زوجته سودة ، وبناته فاطمة وأم كلثوم ، وأسامة بن زيد ، وأم أيمن ، وخرج معهم عبد الله بن أبى بكر بعيال أبى بكر ، ومنهم عائشة ، وبقيت زينب عند أبى العاص ، لم يمكنها من الخروج حتى هاجرت بعد بدر^(٦) .

قالت عائشة : وقدما المدينة وهى أوبأ أرض الله ، فكان بَطْحَانٌ يجرى نَجْلاً ، أى ماءً آجِئًا .

(١) صحيح البخارى ٥٥٥/١ ، ٥٦٠ . (٢) ابن هشام ٤٩٤/١ ، وزاد المعاد ٥٥/٢ .

(٣) رجح ابن القيم أن هذه الأبيات أنشدت عند مرجعه ﷺ من تبوك ، ووهم من يقول : إنما كان ذلك عند مقدمه المدينة (زاد المعاد ١٠/٣) ، لكن ابن القيم لم يأت على هذا التوهيم بدليل يشفى ، وقد استنبط العلامة المنصورفورى من إشارات وتصريحات صحف أنبياء بنى إسرائيل أن هذا حصل عند مقدمه ﷺ المدينة ، وهو استنباط قوى ، ولا يستبعد أن تكون هذه الأبيات أنشدت فى الموقعين .

(٤) ابن هشام ٤٩٤/١ - ٤٩٦ ، وزاد المعاد ٥٥/٢ . (٥) صحيح البخارى ٥٥٦/١ .

(٦) زاد المعاد ٥٥/٢ .

وقالت : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وعك أبو بكر وبلال ، فدخلت عليهما فقلت : يا أبة كيف تجدك ؟ ويا بلال كيف تجدك ؟ قالت : فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول :

كل امرئ مُصَبِّحٌ في أهله والموت أدنى من شِرَاكٍ نَعْلِه

وكان بلال إذا أفلح عنه يرفع عقيرته ويقول :

ألا ليت شِعْرى هل أبيتَنَ ليلةً
بِوَادٍ وَحَوْلَى إِذْخِرُ وَجَلِيلُ
وهل أردنَ يوماً مياهٍ مِجَنَّةً
وهل يَبْدُونُ لى شامةٍ وَطَفِيلُ^(١)

قالت عائشة : فجنث رسول الله ﷺ ، فأخبرته ، فقال : « اللهم العن شيبة بن ربيعة ، وعتبة بن ربيعة ، وأمّية بن خلف ، كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء » . ثم قال رسول الله ﷺ : « اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد ، وصححها ، وبارك في صاعها ومدها ، وانقل حماها فاجعلها بالْجُحْفَةَ » (٢) .

وقد استجاب الله دعاءه ﷺ ، فأرى في المنام أن امرأة سوداء ثائرة الرأس خرجت من المدينة حتى نزلت بالْمُهَيْعَةِ ، وهى الجحفة . وكان ذلك عبارة عن نقل وباء المدينة إلى الجحفة ، وبذلك استراح المهاجرون عما كانوا يعانونه من شدة مناخ المدينة .

إلى هنا انتهى بيان قسم من حياته ﷺ بعد النبوة ، وهو العهد المكي . وفيما يلى نقدم بالإيجاز عهده المدني ﷺ . وبالله التوفيق .

(١) شامة وطفيل : جيلان .

(٢) صحيح البخارى مع الفتح ١١٩/٤ ح (١٨٨٩) ، وأيضاً ح (٣٩٢٦ ، ٥٦٥٤ ، ٥٦٧٧ ، ٦٣٧٢) .

العهد المدني

عهد الدعوة

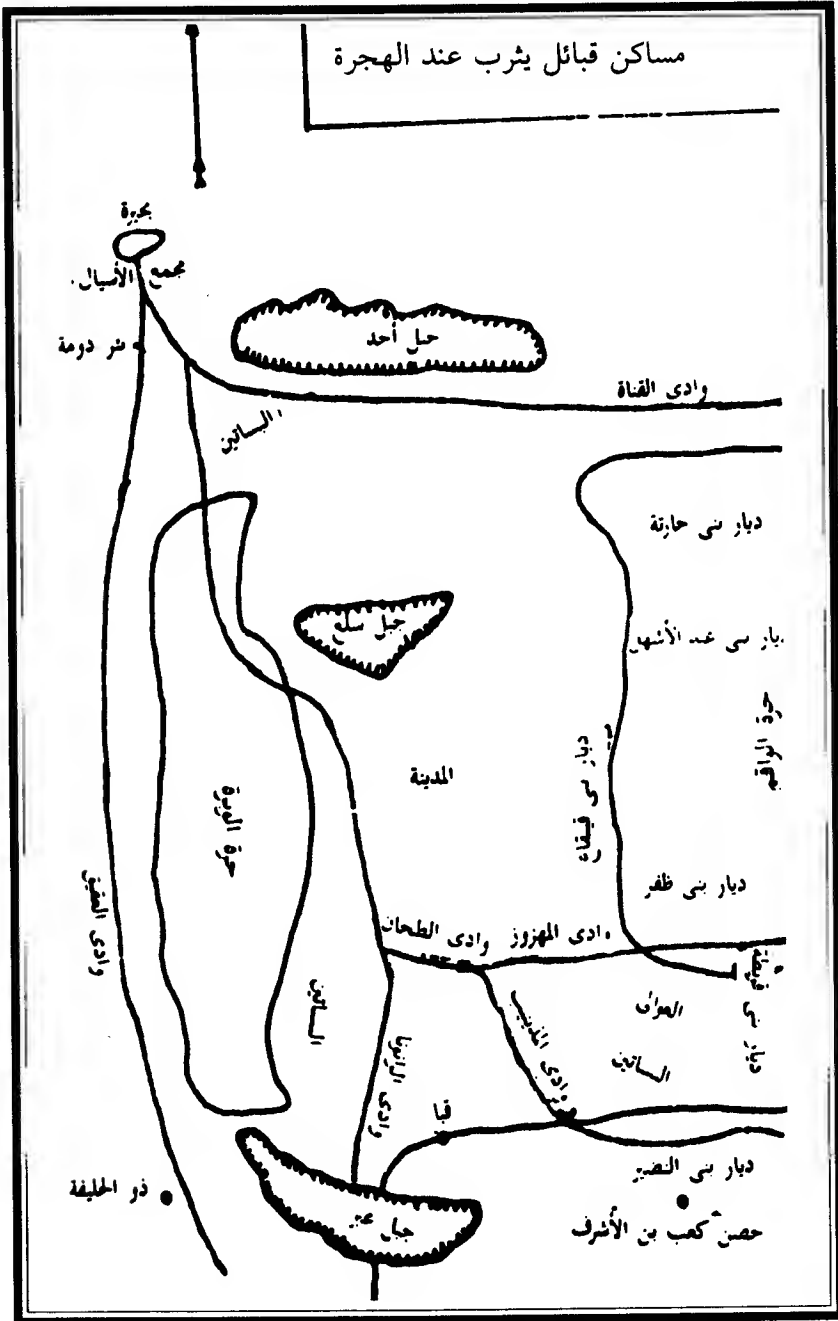
والجهاد

والنجاح

مراحل الدعوة والجهاد فى العهد المدنى

يمكن تقسيم العهد المدنى إلى ثلاث مراحل :

- ١ - مرحلة تأسيس المجتمع الإسلامى ، وتمكين الدعوة الإسلامية ، وقد أثبتت فى هذه المرحلة القلاقل والفتن من الداخل ، وزحف فيها الأعداء من الخارج ؛ ليستأصلوا شأفة المسلمين ، ويقلعوا الدعوة من جذورها . وقد انتهت هذه المرحلة بتغلب المسلمين وسيطرتهم على الموقف مع عقد صلح الحديبية فى ذى القعدة سنة ست من الهجرة .
- ٢ - مرحلة الصلح مع العدو الأكبر ، والفراغ لدعوة ملوك الأرض إلى الإسلام ، وللقضاء على أطراف المؤامرات . وقد انتهت هذه المرحلة بفتح مكة المكرمة فى رمضان سنة ثمان من الهجرة .
- ٣ - مرحلة استقبال الوفود ، ودخول الناس فى دين الله أفواجا . وقد امتدت هذه المرحلة إلى وفاة الرسول ﷺ فى ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة .



سكان المدينة وأحوالهم عند الهجرة

لم يكن معنى الهجرة التخلص والفرار من الفتنة فحسب، بل كانت الهجرة تعنى مع هذا تعاوناً على إقامة مجتمع جديد فى بلد آمن ، ولذلك أصبح فرضاً على كل مسلم يقدر على الهجرة أن يهاجر ويسهم فى بناء هذا الوطن الجديد ، وينذل جهده فى تحصينه ورفعته شأنه . ولاشك أن رسول الله ﷺ كان هو الإمام والقائد والهادى فى بناء هذا المجتمع ، وكانت إليه أزمة الأمور بلا نزاع .

والذين قابلهم رسول الله ﷺ فى المدينة كانوا على ثلاثة أصناف ، يختلف أحوال كل واحد منها بالنسبة إلى الآخر اختلافاً واضحاً ، وكان يواجهه بالنسبة إلى كل صنف منها مسائل عديدة غير المسائل التى كان يواجهها بالنسبة إلى الآخر . وهذه الأصناف الثلاثة هى :

- ١ - أصحابه الصفوة الكرام البررة رضي الله عنهم .
- ٢ - المشركون الذين لم يؤمنوا بعد ، وهم من صميم قبائل المدينة .
- ٣ - اليهود .

أ - والمسائل التى كان يواجهها بالنسبة إلى أصحابه هو أن ظروف المدينة بالنسبة إليهم كانت تختلف تماماً عن الظروف التى مروا بها فى مكة ، فهم فى مكة وإن كانت تجمعهم كلمة جامعة وكانوا يستهدفون هدفاً واحداً ، إلا أنهم كانوا متفرقين فى بيوتات شتى ، مقهورين أذلاء مطرودين ، لم يكن لهم من الأمر شيء ، وإنما كان الأمر بيد أعدائهم فى الدين ، فلم يكن هؤلاء المسلمون يستطيعون أن ينشئوا مجتمعاً إسلامياً جديداً بمواده التى لا يستغنى عنها أى مجتمع إنسانى فى العالم ؛ ولذلك نرى السور المكية تقتصر على تفصيل المبادئ الإسلامية ، وعلى التشريعات التى يمكن العمل بها لكل فرد وحده ، وعلى الترغيب فى البر والخير ومكارم الأخلاق والترهيب عن الرذائل والدنایا .

أما فى المدينة فكان أمر المسلمين بأيديهم منذ أول يوم ، ولم يكن يسيطر عليهم أحد من الناس ، وهذا يعنى أنهم قد آن لهم أن يواجهوا مسائل الحضارة والعمران ، والمعيشة والاقتصاد ، والسياسة والحكومة ، والسلم والحرب ، وأن تفصل لهم مسائل الحلال والحرام ، والعبادة والأخلاق ، وما إلى ذلك من شئون الحياة .

أى آن للمسلمين أن يكونوا مجتمعاً إسلامياً يختلف فى جميع مراحل الحياة عن المجتمع الجاهلى ، ويمتاز عن أى مجتمع يوجد فى العالم الإنسانى ، ويكون ممثلاً للدعوة الإسلامية التى عانى لها المسلمون ألواناً من النكال والعذاب طيلة عشر سنوات .

ولا يخفى أن تكوين أى مجتمع على هذا النمط لا يمكن أن يستتب فى يوم واحد ، أو

شهر واحد، أو سنة واحدة، بل لابد له من زمن طويل يتكامل فيه التشريع والتقنين والتربية والتثقيف والتدريب والتنفيذ شيئاً فشيئاً، وكان الله كفيلاً بهذا التشريع، وكان رسول الله ﷺ قائماً بتنفيذه والإرشاد إليه، وبترقية المسلمين وتزكيتهم وفق ذلك ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة : ٢] .

وكان الصحابة رضِيَ الله عنهم مقبلين عليه بقلوبهم، يتحلون بأحكامه، ويستبشرون بها ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال : ٢] . وليس تفصيل هذه المسائل كلها من مباحث موضوعنا، ففقتصر منها على قدر الحاجة .

وكان هذا أعظم ما واجهه رسول الله ﷺ بالنسبة للمسلمين، وهو الهدف الأسمى والمطلب النبيل المقصود من الدعوة الإسلامية والرسالة المحمدية، ومعلوم أنه ليس بقضية طارئة تطلب الاستعجال، بل هي قضية أصيلة تحتاج إلى آجال . نعم، كانت هناك قضايا طارئة تطلب الحل العاجل والحكيم، أهمها أن المسلمين كانوا على قسمين:

قسم كانوا في أرضهم وديارهم وأموالهم، لا يهمهم من ذلك إلا ما يهم الرجل وهو أمن في سربه، وهم الأنصار، وكان بينهم تنافر مستحكم وعداء مزمن منذ أمد بعيد .

وقسم آخر فاتهم كل ذلك، ونجوا بأنفسهم إلى المدينة، وهم المهاجرون، فلم يكن لهم ملجأ يأوون إليه، ولا عمل يكسبون به ما يسد حاجتهم، ولا مال يبلغون به قواماً من العيش، وكان عدد هؤلاء اللاجئين غير قليل، ثم كانوا يزدون يوماً فيوماً؛ إذ كان قد أودن بالهجرة لكل من آمن بالله ورسوله . ومعلوم أن المدينة لم تكن على ثروة طائلة فتزعزع ميزانها الاقتصادية، وفي هذه الساعة الحرجة قامت القوات المعادية للإسلام بشبه مقاطعة اقتصادية، قلّت لأجلها المستوردات وتفاقت الظروف .

ب - أما القوم الثاني - وهم المشركون من صميم قبائل المدينة - فلم تكن لهم سيطرة على المسلمين، وكان منهم من يتخالجه الشكوك ويتردد في ترك دين الآباء، ولكن لم يكن يطن العداوة والكيد ضد الإسلام والمسلمين، ولم تمض عليهم مدة طويلة حتى أسلموا وأخلصوا دينهم لله .

وكان فيهم من يطن شديد الإحن والعداوة ضد رسول الله ﷺ والمسلمين، ولكن لم يكن يستطيع أن يناوئهم، بل كان مضطراً إلى إظهار الود والصفاء نظراً إلى الظروف، وعلى رأس هؤلاء عبد الله بن أبيّ، فقد كانت الأوس والخزرج اجتمعوا على سيادته بعد حرب بُعَاث - ولم يكونوا اجتمعوا على سيادة أحد قبله - وكانوا قد نظموا له الحَرْزَ، لِيَتَوَجَّوهُ وَيُمْلِكُوهُ، وكان على وشك أن يصير ملكاً على أهل المدينة إذ بوغت بمجىء رسول الله ﷺ، وانصرف قومه عنه إليه، فكان يرى أنه استلبه الملك، فكان يطن شديد العداوة ضده، ولما رأى أن الظروف لا تساعد على شركه، وأنه سوف يحرم بقايا العز والشرف وما يترتب عليهما من منافع الحياة الدنيا أظهر الإسلام بعد بدر، ولكن بقي مستبطن الكفر، فكان لا يجد مجالاً يكيد فيه برسول الله ﷺ وبالمسلمين إلا ويأتيه، وكان أصحابه - من

الرؤساء الذين حرموا المناصب المرجوة في ملكه - يساهمون ويدعمونه في تنفيذ خططه ، وربما كانوا يتخذون بعض الشباب وسدجة المسلمين عميلاً لتنفيذ خطتهم من حيث لا يشعرون .

جـ - أما القوم الثالث - وهم اليهود - فإنهم كانوا قد انحازوا إلى الحجاز زمن الاضطهاد الآشوري والروماني كما أسلفنا ، وكانوا في الحقيقة عبرانيين ، ولكن بعد الانسحاب إلى الحجاز اضطبعوا بالصبغة العربية في الزي واللغة والحضارة ، حتى صارت أسماءهم وأسماء قبائلهم عربية ، وحتى قامت بينهم وبين العرب علاقة الزواج والصهر ، إلا أنهم احتفظوا بعصبيتهم الجنسية ، ولم يندمجوا في العرب قطعاً ، بل كانوا يفتخرون بجنسياتهم الإسرائيلية - اليهودية - وكانوا يحتقرون العرب احتقاراً بالغاً وكانوا يرون أن أموال العرب مباحة لهم ، يأكلونها كيف شاءوا ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ مِنْ إِفْكٍ ثَمَنِ يَقْنَطَارُ يُؤْذِيهِ إِيَّاكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنُ بِدِينَارٍ لَا يُؤْذِيهِ إِيَّاكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾ [آل عمران : ٧٥] . ولم يكونوا متحمسين في نشر دينهم ، وإنما جل بضاعتهم الدينية هي : الفأل والسحر والنفث والرقية وأمثالها ، وبذلك كانوا يرون أنفسهم أصحاب علم وفضل وقيادة روحانية .

وكانوا مهرة في فنون الكسب والمعيشة ، فكانت في أيديهم تجارة الحبوب والتمر والخمر والثياب ، كانوا يستوردون الثياب والحبوب والخمر ، ويصدرون التمر ، وكانت لهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون ، فكانوا يأخذون المنافع من عامة العرب أضعافاً مضاعفة ، ثم لم يكونوا يقتصرون على ذلك ، بل كانوا أكالين للربا ، يعطون القروض الطائلة لشيوخ العرب وساداتهم ؛ ليكسبوا بها مداخل الشعراء والسمعة الحسنة بين الناس بعد إنفاقها من غير جدوى ولا طائلة ، وكانوا يرتنون لها أرض هؤلاء الرؤساء وزروعهم وحوادثهم ، ثم لا يلبثون إلا أعواماً حتى يتملكونها .

وكانوا أصحاب دسائس ومؤامرات وعتو وفساد ؛ يلقون العداوة والشحناء بين القبائل العربية المجاورة ، ويغرون بعضها على بعض بكيد خفي لم تكن تشعره تلك القبائل ، فكانت تتطاحن في حروب ، ولم تكذب تنظفي نيرانها حتى تتحرك أنامل اليهود مرة أخرى لتؤججها من جديد . فإذا تم لهم ذلك جلسوا على حياد يرون نتائج هذا التحريض والإغراء ، ويستلذون بما يحل بهؤلاء المساكين - العرب - من التعاسة والبوار ، ويزودونهم بقروض ثقيلة ربوية حتى لا يحجموا عن الحرب لعسر النفقة . وبهذا التدبير كانوا يحصلون على فائدتين كبيرتين : هما الاحتفاظ على كيانهن اليهودي ، وإنفاق سوق الربا ؛ ليأكلوه أضعافاً مضاعفة ، ويكسبوا ثروات طائلة .

وكانت في يثرب منهم ثلاث قبائل مشهورة :

- ١- بنو قَيْنَقَاع : وكانوا حلفاء الخزرج ، وكانت ديارهم داخل المدينة .
- ٢- بنو النَضِير : وكانوا حلفاء الخزرج ، وكانت ديارهم بضواحي المدينة .
- ٣- بنو قُرَيْظَةَ : وكانوا حلفاء الأوس ، وكانت ديارهم بضواحي المدينة .

وهذه القبائل هي التي كانت تثير الحروب بين الأوس والخزرج منذ أمد بعيد ، وقد ساهمت بأنفسها في حرب بُعَاث ، كل مع حلفائها .

وطبعاً فإن اليهود لم يكن يرجى منهم أن ينظروا إلى الإسلام إلا بعين البغض والحقد ؛ فالرسول لم يكن من أبناء جنسهم حتى يُسَكَّنَ جَأشَ عصبيتهم الجنسية التي كانت مسيطرة على نفسياتهم وعقليتهم ، ودعوة الإسلام لم تكن إلا دعوة صالحة تؤلف بين أشتات القلوب ، وتطفئ نار العداوة والبغضاء ، وتدعو إلى التزام الأمانة في كل الشئون ، وإلى التقيد باكل الحلال من طيب الأموال ، ومعنى كل ذلك أن قبائل يثرب العربية ستآلف فيما بينها ، وحيث لا بد من أن تفلت من براثن اليهود ، فيفشل نشاطهم التجارى ، ويحرمون أموال الربا الذي كانت تدور عليه رضى ثروتهم ، بل يحتمل أن تتيقظ تلك القبائل ، فتدخل فى حسابها الأموال الربوية التي أخذتها اليهود ، وتقوم بإرجاع أرضها وحواططها التي أضاعتها إلى اليهود فى تأدية الربا .

كان اليهود يدخلون كل ذلك فى حسابهم منذ عرفوا أن دعوة الإسلام تحاول الاستقرار فى يثرب ؛ ولذلك كانوا يطنون أشد العداوة ضد الإسلام ، وضد رسول الله ﷺ منذ أن دخل يثرب ، وإن كانوا لم يتجاسروا على إظهارها إلا بعد حين .

ويظهر ذلك جلياً بما رواه ابن إسحاق عن أم المؤمنين صفية رضيها . قال ابن إسحاق : حدثت عن صفية بنت حى بن أخطب أنها قالت : كنت أحبّ ولد أبى إليه ، وإلى عمى أبى ياسر ، لم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذاني دونه . قالت : فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ونزل بقاء فى بنى عمرو بن عوف غدا عليه أبى ؛ حى بن أخطب ، وعمى أبو ياسر ابن أخطب مغلسين ، قالت : فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس ، قالت : فأتيا كآلين كسلانين ساقطين يمسيان الهوينى . قالت : فهششت إليهما كما كنت أصنع ، فوالله ما التفت إلى واحد منهما ، مع ما بهما من الغم . قالت : وسمعت عمى أبا ياسر ، وهو يقول لأبى حى بن أخطب : أهو هو ؟ قال : نعم والله ، قال : أتعرفه وتثبته ؟ قال : نعم ، قال : فما فى نفسك منه ؟ قال : عداوته والله ما بقيت (١) .

ويشهد بذلك أيضاً ما رواه البخارى فى إسلام عبد الله بن سلام رضيها ، فقد كان حبراً من فطاحل علماء اليهود ، ولما سمع بمقدم رسول الله ﷺ المدينة فى بنى النجار جاءه مستعجلاً ، وألقى إليه أسئلة لا يعلمها إلا نبي ، ولما سمع ردوده رضيها عليها آمن به ساعته ومكانه ، ثم قال له : إن اليهود قوم بهت ، إن علموا بإسلامى قبل أن تسألهم بهتوني عندك ، فأرسل رسول الله ﷺ فجاءت اليهود ، ودخل عبد الله بن سلام البيت . فقال رسول الله ﷺ : « أى رجل فيكم عبد الله بن سلام ؟ » قالوا : أعلمنا وابن أعلمنا ، وآخرنا وابن أخيرنا - وفى لفظ : سيدنا وابن سيدنا . وفى لفظ آخر : خيرنا وابن خيرنا ، وأفضلنا وابن أفضلنا - فقال رسول الله ﷺ : « أفرأيتم إن أسلم عبد الله ؟ » فقالوا : أعاده الله من

ذلك (مرتين أو ثلاثاً) ، فخرج إليهم عبد الله فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، قالوا : شرتنا وابن شرتنا ، ووقعوا فيه . وفى لفظ : فقال : يا معشر اليهود ، اتقوا الله ، فوالله الذى لا إله إلا هو ، إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، وأنه جاء بحق . فقالوا : كذبت (١) .

وهذه أول تجربة تلقاها رسول الله ﷺ من اليهود فى أول يوم دخل فيه المدينة .

وهذه هى الظروف والقضايا الداخلية التى واجهها الرسول ﷺ حين نزل بالمدينة .

أما من ناحية الخارج فكان يحيط بها من يدين بدين قريش ، وكانت قريش ألد عدو للإسلام والمسلمين ، جربت عليهم طوال عشرة أعوام - حينما كان المسلمون تحت أيديها - كل أساليب الإرهاب والتهديد والمضايقة والتعذيب ، والمقاطعة والتجويع ، وأذاقتهم التنكيلات والويلات ، وشنت عليهم حرباً نفسية مضنية مع دعاية واسعة منظمة ، ولما هاجر المسلمون إلى المدينة صادرت أرضهم وديارهم وأموالهم ، وحالت بينهم وبين أزواجهم وذرياتهم ، بل حبست وعذبت من قدرت عليه ، ولم تقتصر على هذا ، بل تأمرت على الفتك بصاحب الدعوة ﷺ ، والقضاء عليه وعلى دعوته ، ولم تألُ جهداً فى تنفيذ هذه المؤامرة . فكان من الطيبعى جداً ، حينما نجا المسلمون منها إلى أرض تبعد نحو خمسمائة كيلو متر ، أن تقوم بدورها السياسى والعسكرى ، لما لها من الصدارة الدنيوية والزعامة الدينية بين أوساط العرب بصفتها ساكنة الحرم ومجاورة بيت الله وسدنته ، وتغرى غيرها من مشركى الجزيرة ضد أهل المدينة ، وفعلاً قامت بذلك كله حتى صارت المدينة محفوفة بالآخطار ، وفى شبه مقاطعة شديدة قُلَّتْ لأجلها المستوردات ، فى حين كان عدد اللاجئين إليها يزيد يوماً بعد يوم ، وبذلك كانت « حالة الحرب » قائمة بين هؤلاء الطغاة من أهل مكة ومن دان دينهم ، وبين المسلمين فى وطنهم الجديد .

وكان من حق المسلمين أن يصادروا أموال هؤلاء الطغاة كما صودرت أموالهم ، وأن يدللوا عليهم من التنكيلات بمثل ما أدالوا بها ، وأن يقيموا فى سبيل حياتهم العراقيل كما أقاموها فى سبيل حياة المسلمين ، وأن يكيلوا لهؤلاء الطغاة صاعاً بصاع حتى لا يجدوا سبيلاً لإبادة المسلمين واستئصال خضرائهم .

وهذه هى القضايا والمشاكل الخارجية التى واجهها رسول الله ﷺ بعدما ورد المدينة ، وكان عليه أن يعالجها بحكمة بالغة حتى يخرج منها مكللاً بالنجاح .

وقد قام رسول الله ﷺ بمعالجة كل القضايا أحسن قيام ، بتوفيق من الله وتأييده ، فعامل كل قوم بما كانوا يستحقونه من الرأفة والرحمة أو الشدة والنكال ، وذلك بجانب قيامه بتزكية النفوس وتعليم الكتاب والحكمة ، ولا شك أن جانب التزكية والتعليم والرأفة والرحمة كان غالباً على جانب الشدة والعنت - حتى عاد الأمر إلى الإسلام وأهله فى بضع سنوات ، وسيجد القارئ كل ذلك جلياً فى الصفحات الآتية .

المرحلة الأولى بناء مجتمع جليل

قد أسلفنا أن نزول رسول الله ﷺ بالمدينة في بنى النجار كان يوم الجمعة (١٢ ربيع الأول سنة ١ هـ/ الموافق ٢٧ سبتمبر سنة ٦٢٢ م)، وأنه نزل في أرض أمام دار أبي أيوب ، وقال : « هاهنا المنزل إن شاء الله » ، ثم انتقل إلى بيت أبي أيوب رضي الله عنه .
بناء المسجد النبوي :

وأول خطوة خطاها رسول الله ﷺ بعد ذلك هو بناء المسجد النبوي ، واختار له المكان الذي بركت فيه ناقته رضي الله عنه ، فاشتره من غلامين يتيمين كانا يملكانه ، وأسهم في بنائه بنفسه ، فكان ينقل اللبن والحجارة ويقول :

«اللهم لا عيشَ إلا عيشُ الآخرة فاغفرُ للأَنْصارِ والمُهَاجِرَةِ»

وكان يقول :

«هذا الحِمَالُ لا حِمَالُ خَيْرَ هذا أَبَرُّ رَبَّنَا وَأَطْهَرَ»

وكان ذلك مما يزيد نشاط الصحابة في العمل ، حتى إن أحدهم ليقول :

لئن قَعَدْنَا والنَّبِيُّ يَعْمَلُ لَذَاكَ مِنَّا الْعَمَلُ الْمُضَلَّلُ

وكانت في ذلك المكان قبور للمشركين، وكان فيه خرب ونخل وشجرة من غَرْقَدَ، فأمر رسول الله ﷺ بقبور المشركين فنبشت ، وبالحَرْبِ فسويت ، وبالنخل والشجرة فقطعت ، وصفت في قبلة المسجد ، وكانت القبلة إلى بيت المقدس ، وجعلت عضادته من حجارة ، وأقيمت حيطانه من اللبن والطين ، وجعل سقفه من جريد النخل ، وعُمدَه الجذوع ، وفرشت أرضه بالرمال والحصباء ، وجعلت له ثلاثة أبواب ، وطوله مما يلي القبلة إلى مؤخره مائة ذراع ، والجانبان مثل ذلك أو دونه ، وكان أساسه قريباً من ثلاثة أذرع .

وبنى بجانبه بيوتاً بالحجر واللبن ، وسقفها بالجريد والجذوع ، وهى حجرات أزواجه رضي الله عنهن ، وبعد تكامل الحجرات انتقل إليها من بيت أبي أيوب ^(١) .

ولم يكن المسجد موضعاً لأداء الصلوات فحسب ، بل كان جامعة يتلقى فيها المسلمون تعاليم الإسلام وتوجيهاته ، وامتدى تلتقى وتتألف فيه العناصر القبلية المختلفة التى طالما نافرت بينها النزعات الجاهلية وحروبها ، وقاعدة لإدارة جميع الشؤون وبث الانطلاقات ، وبرلمان لعقد المجالس الاستشارية والتنفيذية .

وكان مع هذا كله داراً يسكن فيها عدد كبير من فقراء المهاجرين اللاجئين الذين لم يكن لهم هناك دار ولا مال ولا أهل ولا بنون .

(١) صحيح البخارى ٧١/١ ، ٥٥٥ ، ٥٦٠ ، وزاد المعاد ٥٦/٢ .

وفى أوائل الهجرة شرع الأذان ، تلك النعمة العلوية التى تدوى فى الآفاق ، وتهز أرجاء الوجود ، تعلن كل يوم خمس مرات بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتنفى كل كبرياء فى الكون وكل دين فى الوجود ، إلا كبرياء الله ، والدين الذى جاء به عبده محمد رسول الله . وقد تشرف برؤيته فى المنام أحد الصحابة الأخيار عبد الله بن زيد بن عبد ربه رضي الله عنه فأقره النبي ﷺ ، وقد وافقت رؤياه رؤيا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فأقره النبي ﷺ ، والقصة بكاملها مروية فى كتب السنة والسيرة (١) .

المؤاخاة بين المسلمين :

ثم إن النبي ﷺ بجانب قيامه ببناء المسجد : مركز التجمع والتألف ، قام بعمل آخر من أروع ما يأتى التاريخ ، وهو عمل المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، قال ابن القيم : ثم آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار فى دار أنس بن مالك ، وكانوا تسعين رجلاً ، نصفهم من المهاجرين ، ونصفهم من الأنصار ، آخى بينهم على المواساة ، ويتوارثون بعد الموت دون ذوى الأرحام إلى حين وقعة بدر ، فلما أنزل الله عز وجل : ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴾ [الأنفال : ٧٥] رد انتوارث إلى الرحم دون عقد الأخوة .

وقد قيل : إنه آخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض مؤاخاة ثانية . . . والثبت الأول ، والمهاجرون كانوا مستغنين بأخوة الإسلام وأخوة الدار وقربة النسب عن عقد مؤاخاة فيما بينهم ، بخلاف المهاجرين مع الأنصار . اهـ (٢) .

ومعنى هذا الإخاء أن تذوب عصبية الجاهلية ، وتسقط فوارق النسب واللون والوطن ، فلا يكون أساس الولاء والبراء إلا الإسلام .

وقد امتزجت عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة وإسداء الخير فى هذه الأخوة ، وملأت المجتمع الجديد بأروع الأمثال .

روى البخارى : أنهم لما قدموا المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن وسعد بن الربيع ، فقال لعبد الرحمن : إني أكثر الأنصار مالاً ، فاقسم مالى نصفين ، ولى امرأتان ، فانظر أعجبهما إليك فسمها لى ، أطلقها ، فإذا انقضت عدتها فتزوجها ، قال : بارك الله لك فى أهلك ومانك ، وأين سوقكم؟ فدلوه على سوق بنى قينقاع ، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقطٍ وسمنٍ ، ثم تابع الغدو ، ثم جاء يوماً وبه أثر صُفرة ، فقال النبي ﷺ : « مَهِيمٌ ؟ » قال : تزوجت . قال : « كم سقت إليها ؟ » قال : نواة من ذهب (٣) .

وروى عن أبى هريرة قال : قالت الأنصار للنبي ﷺ : اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل .

(١) رواها الترمذى : كتاب الصلاة ، باب بدء الأذان ٣٥٨/١ ، ٣٥٩ ح (١٨٩) ، وأبو داود وأحمد وغيرهم .

(٢) زاد المعاد ٥٦/٢ .

(٣) نواة الذهب كانت قيمتها يومئذ خمسة دراهم ، وقيل : كان قدرها ربع دينار . و « مهيم » : ما شأنك .

انظر : صحيح البخارى : باب إخاء النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار ٥٥٣/١ .

قال : « لا » ، فقالوا : فتكفونا المؤنة ونشرككم فى الثمرة . قالوا : سمعنا وأطعنا ^(١) .
وهذا يدلنا على ما كان عليه الأنصار من الحفاوة البالغة بإخوانهم المهاجرين ، ومن
التضحية والإيثار والود والصفاء ، وما كان عليه المهاجرون من تقدير هذا الكرم حق قدره ،
فلم يستغلوه ولم ينالوا منه إلا بقدر ما يقيم أودهم .
وحقاً فقد كانت هذه المؤاخاة حكمة فذة ، وسياسة حكيمة ، وحلاً رشيداً لكثير من
المشاكل التى كان يواجهها المسلمون ، والتى أشرنا إليها .
ميثاق التحالف الإسلامى ^(٢) :

وكما قام رسول الله ﷺ بعقد هذه المؤاخاة بين المؤمنين ، قام بعقد معاهدة أزاح بها ما
كان بينهم من حزازات فى الجاهلية ، وما كانوا عليه من نزعات قبلية جائرة ، واستطاع
بفضلها إيجاد وحدة إسلامية شاملة . وفيما يلى بنودها ملخصاً :
هذا كتاب من محمد النبى ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ، ومن تبعهم
فلحق بهم ، وجاهد معهم :

- ١- إنهم أمة واحدة من دون الناس .
- ٢- المهاجرون من قريش على ربعتهم ^(٣) يتعاقلون بينهم ، وهم يقدون عانيتهم ^(٤)
بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وكل قبيلة من الأنصار على ربعتهم يتعاقلون
معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تغدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .
- ٣- وإن المؤمنين لا يتركون مفرحاً ^(٥) بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل .
- ٤- وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم ، أو ابتغى دسيسة ^(٦) ظلم أو إثم أو عدوان
أو فساد بين المؤمنين .

(١) صحيح البخارى : باب إذا قال : اكفى مؤنة النخل... إلخ مع فتح البارى ٣٣٧/٤ ، ح ٢٠٤٩ ، وأيضاً
(٢٩٣ ، ٣٧٨١ ، ٣٩٣٧ ، ٥٠٧٢ ، ٥١٤٨ ، ٥١٥٣ ، ٥١٥٥ ، ٥١٦٧ ، ٦٠٨٢ ، ٦٣٨٦) ، وقصة
المؤاخاة مروية فى صحيح مسلم ح (٢٥٢٩) ، وسنن أبى داود ح (٢٩٢٦) ، والأدب المفرد ح (٥٦١) ،
ومسند أبى يعلى ٣٦٦/٤ وغيرها من الكتب .

(٢) هذا التحالف مرحلة انتقالية تمر بها الأمم أثناء التكون والبناء ، قبل التكامل والنضج ، وذلك ليتم نقلهم
تدريجياً من وحدتهم القبلية المتفككة - المتناحرة فيما بينها فى غالب الأحوال - إلى وحدة إسلامية
متماسكة ، ولإذابة عصبيتهم الجاهلية فى حرارة الأخوة الدينية . أما إذا اكتمل هذا التكوين والبناء - أى
تكوين الأمة وبناءها - وأرسيت قواعد الأخوة الدينية فيما بين أفرادها ، فإنها تورث فيما بينهم وحدة
وتوجب حقوقاً لا يبقى بعدها أى مجال لآى تشتت يحتاج إلى تحالف المسلمين فيما بينهم ، ولذلك قال
رسول الله ﷺ : « لا حلف فى الإسلام ، وأبما حلف كان فى الجاهلية لم يزد الإسلام إلا شدة »
[مسلم : فضائل الصحابة ، باب المؤاخاة] . أما قبل التكوين وفى مرحلة الانتقال فإن الحلف أمر
مطلوب . قيل لأنس بن مالك : أبلغك أن النبى ﷺ قال : « لا حلف فى الإسلام » ؟ فقال : قد حالف
النبى ﷺ بين قريش والأنصار فى دارى . [صحيح البخارى : الكفالة ح (٢٩٤) ، ٦٠٨٣ ، ٧٣٤٠ ،
ولينظر : صحيح مسلم ١٩٦٠/٤ ح (٢٥٢٩) ، وسنن أبى داود ح (٢٩٢٦) ، والأدب المفرد ح (٥٦١) ،
ومسند أبى يعلى ٣٦٦/٤] .

(٤) أسيرهم .

(٣) على حالهم قبل الإسلام .

(٦) عطية .

(٥) المثقل من الدين والعيال .

- ٥- وإن أيديهم عليه جميعاً ، ولو كان ولد أحدهم .
- ٦- ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر .
- ٧- ولا ينصر كافرًا على مؤمن .
- ٨- وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أديانهم .
- ٩- وإن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم .
- ١٠- وإن سلم المؤمنين واحدة ؛ لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم .
- ١١- وإن المؤمنين يبيء^(١) بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله .
- ١٢- وإنه لا يجير مشرك ملاً لقريش ولا نفساً ، ولا يحول دونه على مؤمن .
- ١٣- وإنه من اعتبط^(٢) مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول .
- ١٤- وإن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم إلا قيام عليه .
- ١٥- وإنه لا يحل لمؤمن أن ينصر محدثاً ولا يؤويه ، وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل .
- ١٦- وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء ، فإن مرده إلى الله - عز وجل - وإلى محمد ﷺ^(٣) .

أثر المعنويات في المجتمع :

بهذه الحكمة وبهذا التدبير أرسى رسول الله ﷺ قواعد مجتمع جديد ، كانت صورته الظاهرة بياناً وأثراً للمعاني التي كان يتمتع بها أولئك الأمجاد بفضل صحبة النبي ﷺ ، وكان النبي ﷺ يتعهدهم بالتعليم والتربية، وتركبة النفوس ، والحث على مكارم الأخلاق ، ويؤدبهم بأداب الود والإخاء والمجد والشرف والعبادة والطاعة .

سأله رجل : أى الإسلام خير ؟ قال : « تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف »^(٤) .

قال عبد الله بن سلام: لما قدم النبي ﷺ المدينة جئت ، فلما تبينت وجهه ، عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول ما قال: « يا أيها الناس، أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام »^(٥) .

وكان يقول : « لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه »^(٦) .

ويقول : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده »^(٧) .

(١) يمنع ويكف .

(٢) ابن هشام ٥٠٢/١ ، ٥٠٣ .

(٣) رواه الترمذى وابن ماجه والدارمى ، مشكاة المصابيح ١٦٨/١ .

(٤) صحيح البخارى ٦/١ ، ٩ .

(٥) رواه مسلم ، مشكاة المصابيح ٤٢٢/٢ .

(٦) صحيح البخارى ٦/١ .

ويقول : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » (١) .

ويقول : « المؤمنون كرجل واحد ، إن اشتكى عينه اشتكى كله ، وإن اشتكى رأسه اشتكى كله » (٢) .

ويقول : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » (٣) .

ويقول : « لا تباغضوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام » (٤) .

ويقول : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة » (٥) .

ويقول : « ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » (٦) .

ويقول : « ليس المؤمن بالذى يشيع وجاره جائع إلى جانبه » (٧) .

ويقول : « سباب المؤمن فسوق ، وقتاله كفر » (٨) .

وكان يجعل إمطة الأذى عن الطريق صدقة ، ويعدها شعبة من شعب الإيمان (٩) .

وكان يحثهم على الإنفاق ، ويذكر من فضائله ما يقع موقعه من القلوب ، فكان يقول : « الصدقة تطفى الخطايا كما يطفى الماء النار » (١٠) .

ويقول : « أيما مسلم كسا مسلماً ثوباً على عُرَى كساه الله من خضر الجنة ، وأيما مسلم أطعم مسلماً على جوع أطعمه الله من ثمار الجنة ، وأيما مسلم سقى مسلماً على ظمأ سقاه الله من الرحيق المختوم » (١١) .

ويقول : « اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فإن لم تجد فبكلمة طيبة » (١٢) .

وبجانب هذا كان يبحث حثاً شديداً على الاستعفاف عن المسألة ، ويذكر فضائل الصبر والقناعة ، فكان يعد المسألة كدوحاً أو خدوشاً أو خموشاً في وجه السائل (١٣) . اللهم إلا إذا

(١) صحيح البخارى ٦/١ .

(٢) رواه مسلم ، مشكاة المصابيح ٤٢٢/٢ .

(٣) متفق عليه ، مشكاة المصابيح ٤٢٢/٢ .

(٤) صحيح البخارى ٢ / ٨٩٦ .

(٥) متفق عليه ، مشكاة المصابيح ٤٢٢ / ٢ .

(٦) سنن أبى داود ٣٣٥/٢ ، وجامع الترمذى ١٤/٢ .

(٧) رواه البيهقى فى شعب الإيمان ، مشكاة المصابيح ٤٢٤ / ٢ .

(٨) صحيح البخارى ٢ / ٨٩٣ ، والترمذى : كتاب البر والصلة ، باب (٥٢) ٣١١/٤ ح (١٩٨٣) .

(٩) والحديث فى ذلك مروي فى الصحيحين ، انظر : مشكاة المصابيح ١٢/١ ، ١٦٧ .

(١٠) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه ، مشكاة المصابيح ١٤/١ .

(١١) سنن أبى داود ، مشكاة المصابيح ١٦٩/١ ، وجامع الترمذى ٤ / ٥٤٦ ح (٢٤٤٩) .

(١٢) صحيح البخارى ١ / ١٩٠ ، ٢ / ٨٩٠ .

(١٣) رواه أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه والدارمى ، مشكاة المصابيح ١٦٣/١ .

كان مضطراً .

كما كان يبين لهم ما فى العبادات من الفضائل والأجر والثواب عند الله، وكان يربطهم بالوحي النازل عليه من السماء ربطاً موثقاً، فكان يقرؤه عليهم ويقرؤونه ؛ لتكون هذه الدراسة إشعاراً بما عليهم من حقوق الدعوة وتبعات الرسالة ، فضلاً عن ضرورة الفهم والتدبر .

وهكذا هذب تفكيرهم ، ورفع معنوياتهم ، وأيقظ مواهبهم ، وزودهم بأعلى القيم والأقدار ، حتى وصلوا إلى أعلى قمة من الكمال عرفت فى تاريخ البشر بعد الأنبياء .

يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : من كان مُستَتاً فليستن بمن قد مات، فإن الحى لا تؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، كانوا أفضل هذه الأمة ؛ أبرها قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ، اختارهم الله لصحبة نبيه ، وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم على أثرهم ، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم (١) .

ثم إن هذا الرسول القائد الأعظم صلى الله عليه وسلم كان يتمتع من الصفات المعنوية والظاهرة، ومن الكمالات والمواهب ، والأمجاد والفضائل ، ومكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال بما جعلته تهوى إليه الأفتدة ، وتتفانى عليه النفوس ، فما يتكلم بكلمة إلا ويبادر صحابته رضي الله عنهم إلى امتثالها ، وما يصدر من إرشاد أو توجيه إلا ويتسابقون إلى العمل به .

بمثل هذا استطاع النبي صلى الله عليه وسلم أن يبنى فى المدينة مجتمعاً جديداً أروع وأشرف مجتمع عرفه التاريخ ، وأن يضع لمشاكل هذا المجتمع حلاً تنفست له الإنسانية الصعداء ، بعد أن كانت قد تعبت فى غياهب الزمان ودياجير الظلمات .

وبمثل هذه المعنويات الشامخة تكاملت عناصر المجتمع الجديد الذى واجه كل تيارات الزمان حتى صرف وجهتها ، وحول مجرى التاريخ والأيام .

معاهدة مع اليهود

بعد أن أرسى رسول الله ﷺ قواعد مجتمع جديد وأمة إسلامية جديدة ؛ بإقامة الوحدة العقدية والسياسية والنظامية بين المسلمين ، بدأ بتنظيم علاقاته بغير المسلمين ، وكان قصده بذلك توفير الأمن والسلام والسعادة والخير للبشرية جمعاء ، مع تنظيم المنطقة في وفاق واحد ، فسن في ذلك قوانين السماح والتجاوز التي لم تعهد في ذلك العالم المليء بالتعصب والأغراض الفردية والعرقية .

وأقرب من كان يجاور المدينة من غير المسلمين هم اليهود - كما أسلفنا - وهم وإن كانوا ييطنون العداوة للمسلمين ، لكن لم يكونوا أظهروا أية مقاومة أو خصومة بعد ، فعقد معهم رسول الله ﷺ معاهدة قرر لهم فيها النصح والخير ، وترك لهم فيها مطلق الحرية في الدين والمال ، ولم يتجه إلى سياسة الإبعاد أو المصادرة والخصام .

وفيما يلي أهم بنود هذه المعاهدة :

بنود المعاهدة :

- ١ - إن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم ، وكذلك لغير بنى عوف من اليهود .
- ٢ - وإن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم .
- ٣ - وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة .
- ٤ - وإن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الإثم .
- ٥ - وإنه لم يَأْثَمْ امرؤ بحليفه .
- ٦ - وإن النصر للمظلوم .
- ٧ - وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .
- ٨ - وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة .
- ٩ - وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل ، وإلى محمد رسول الله ﷺ .
- ١٠ - وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها .
- ١١ - وإن بينهم النصر على من دهم يثرب . . . على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم .
- ١٢ - وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم ^(١) .

(١) انظر: ابن هشام ١/٣٠٣ ، ٥٠٤ .

ويأبرام هذه المعاهدة صارت المدينة وضواحيها دولة وفاقية، عاصمتها المدينة ، ورئيسها -
إن صح هذا التعبير - رسول الله ﷺ ، والكلمة النافذة والسلطان الغالب فيها للمسلمين .
ولتوسيع منطقة الأمن والسلام عاهد النبي ﷺ قبائل أخرى فى المستقبل بمثل هذه
المعاهدة ، حسب ما اقتضته الظروف ، وسيأتى ذكر شىء منها .

الكفاح الدامي

استفزازات قريش واتصالهم بعبد الله بن أبي :

تقدم ما أدلى به كفار مكة من التنكيلات والويلات على المسلمين في مكة ، ثم ما أتوا به من الجرائم التي استحقوا لأجلها المصادرة والقتال ، عند الهجرة ، ثم إنهم لم يفيقوا من غيهم ولا امتنعوا عن عدوانهم بعدها ، بل زادهم غيظاً أن فاتهم المسلمون ووجدوا مأمنًا ومقرًا بالمدينة ، فكتبوا إلى عبد الله بن أبي بن سلول - وكان إذ ذاك مشركًا - بصفته رئيس الأنصار قبل الهجرة - فمعلوم أنهم كانوا قد اتفقوا عليه ، وكادوا يجعلونه ملكًا على أنفسهم لولا أن هاجر رسول الله ﷺ إليهم ، وآمنوا به - كتبوا إليه وإلى أصحابه المشركين ، يقولون لهم في كلمات باتة :

إنكم آوئتم صاحبنا ، وإننا نقسم بالله لثقاتلته أو لتخرجنه ، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم ، ونستبيح نساءكم (١) .

وبمجرد بلوغ هذا الكتاب قام عبد الله بن أبي ليمثل أوامر إخوانه المشركين من أهل مكة - وقد كان يحقد على النبي ﷺ ؛ لما يراه أنه استلبه ملكه - يقول عبد الرحمن بن كعب : فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبي ومن كان معه من عبدة الأوثان اجتمعوا لقتال رسول الله ﷺ ، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم ، فقال : « لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ ، ما كانت تكيدكم بأكثر ما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم ، تريدون أن تقتلوا أبناءكم وإخوانكم » ، فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا (٢) .

امتنع عبد الله بن أبي بن سلول عن القتال إذ ذاك ؛ لما رأى خورًا أو رشدًا في أصحابه ، ولكن يبدو من تصرفاته أنه كان متواطئًا مع قريش ، فكان لا يجد فرصة إلا ويتنزهها لإيقاع الشر بين المسلمين والمشركين ، وكان يضم معه اليهود ؛ ليعينه على ذلك ، ولكن تلك هي حكمة النبي ﷺ التي كانت تطفئ نار شرهم حينًا بعد حين (٣) .

إعلان عزيمة الصد عن المسجد الحرام :

ثم إن سعد بن معاذ انطلق إلى مكة معتمرًا ، فنزل على أمية بن خلف بمكة ، فقال لأمية : انظر لي ساعة خلوة لعلني أن أطوف بالبيت ، فخرج به قريبًا من نصف النهار ، فلقيهما أبو جهل ، فقال : يا أبا صفوان ، من هذا معك ؟ فقال : هذا سعد ، فقال له أبو جهل : ألا أراك تطوف بمكة آمنًا وقد آوئتم الصباة ، وزعتم أنكم تنصرونهم ، وتعينونهم ، أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالمًا ، فقال له سعد - ورفع صوته عليه : أما والله لئن منعتني هذا لأمنعك ما هو أشد عليك منه : طريقك على أهل المدينة (٤) .

(١) أبو داود : باب خبر النضير ١٥٤/٢ .

(٢) انظر في هذا الصد : صحيح البخاري ٦٥٥/٢ ، ٦٥٦ ، ٩١٦ ، ٩٢٤ .

(٤) صحيح البخاري : كتاب المغازي ٥٦٣/٢ .

قريش تهدد المهاجرين :

وكان قريشاً كانت تعتزم على شر أشد من هذا، وتفكر في القيام بنفسها للقضاء على المسلمين ، وخاصة على النبي ﷺ .

ولم يكن هذا مجرد وهم أو خيال ، فقد تأكد لدى رسول الله ﷺ من مكائد قريش وإرادتها على الشر ما كان لأجله لا بيت إلا ساهراً ، أو في حرس من الصحابة . روى الشيخان في صحيحيهما عن عائشة ؓ قالت : سهر رسول الله ﷺ مقدّمه المدينة ليلة فقال : « ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسنى الليلة » ، قالت : فبينما نحن كذلك سمعنا خشخشة سلاح ، فقال : « من هذا ؟ » قال : سعد بن أبي وقاص ، فقال له رسول الله ﷺ : « ما جاء بك ؟ » فقال : وقع في نفسى خوف على رسول الله ﷺ ، فجت أحرسه ، فدعا له رسول الله ﷺ ، ثم نام (١) .

ولم تكن هذه الحراسة مختصة ببعض الليالى ، بل كان ذلك أمراً مستمراً ، فقد روى عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يحرس ليلاً حتى نزل : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة : ٦٧] ، فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة ، فقال : « يا أيها الناس، انصرفوا عني فقد عصمني الله عز وجل » (٢) .

ولم يكن الخطر مقتصرًا على رسول الله ﷺ ، بل كان يحدق بالمسلمين كافة ، فقد روى أبى بن كعب ، قال : لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة ، وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة ، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ، ولا يصبحون إلا فيه .

الإذن بالقتال :

في هذه الظروف الخطيرة التي كانت تهدد كيان المسلمين بالمدينة ، وتنبئ عن قريش أنهم لا يفيقون عن غيهم ولا يتمتعون عن تمردهم بحال ، أنزل الله تعالى الإذن بالقتال للمسلمين ولم يفرضه عليهم ، قال تعالى : ﴿ أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [الحج : ٣٩] .

وأنزل معه آيات بين لهم فيها أن هذا الإذن إنما هو لإزاحة الباطل وإقامة شعائر الله ، قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [الحج : ٤١] .

وكان الإذن مقتصرًا على قتال قريش ، ثم تطور فيما بعد مع تغير الظروف حتى وصل إلى مرحلة الوجوب ، وجاوز قريشاً إلى غيرهم ، ولا بأس أن نذكر تلك المراحل بإيجاز قبل أن ندخل في ذكر الأحداث :

(١) صحيح البخاري : كتاب الجهاد ، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله ح (٢٨٨٥) فتح الباري ٩٥/٦ وح (٧٢٣١) فتح الباري ١٣/ ٢٣٢ ، وصحيح مسلم : كتاب فضائل الصحابة ، باب فضل سعد بن أبي وقاص ١٨٧٥/٤ ح (٤٠) . والخشخشة : حركة لها صوت كصوت السلاح .

(٢) جامع الترمذى : تفسير سورة المائدة ٢٣٤/٥ ح (٣٠٤٦) .

- ١ - اعتبار مشركى قريش محاربين ؛ لأنهم بدأوا بالعدوان ، فحق للمسلمين أن يقاتلوهم ويصادروا أموالهم دون غيرهم من بقية مشركى العرب .
 - ٢ - قتال كل من تمالاً من مشركى العرب مع قريش واتحد معهم ، وكذلك كل من تفرد بالاعتداء على المسلمين من غير قريش .
 - ٣ - قتال من خان أو تحيز للمشركين من اليهود الذين كان لهم عقد وميثاق مع رسول الله ﷺ ، ونبذ ميثاقهم إليهم على سواء .
 - ٤ - قتال من بادأ بعبادة المسلمين من أهل الكتاب ، كالنصارى ، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون .
 - ٥ - الكف عمن دخل في الإسلام ، مشركاً كان أو يهودياً أو نصرانياً أو غير ذلك ، فلا يتعرض لنفسه وماله إلا بحق الإسلام ، وحسابه على الله .
- ولما نزل الإذن بالقتال رأى رسول الله ﷺ أن ييسط سيطرته على الطريق الرئيس الذى تسلكه قريش من مكة إلى الشام فى تجارتهم ، واختار لذلك خطتين :
- الأولى : عقد معاهدات الحلف أو عدم الاعتداء مع القبائل التى كانت مجاورة لهذا الطريق ، أو كانت تقطن ما بين هذا الطريق وما بين المدينة ، وقد عقد ﷺ معاهدة مع جبهة قبل الأخذ فى النشاط العسكرى ، وكانت مساكنهم على ثلاث مراحل من المدينة ، كما عقد معاهدات أخرى أثناء دورياته العسكرية ، وسيأتى ذكرها .
- الثانية : إرسال البعوث واحدة تلو الأخرى إلى هذا الطريق .
- الغزوات والسرايا قبل بدر (١) :
- ولتنفيذ هاتين الخطتين بدأ بالتحركات العسكرية فعلا بعد نزول الإذن بالقتال ، وكانت أشبه بالدوريات الاستطلاعية ، وكان المطلوب منها كما أشرنا :
- * الاستكشاف والتعرف على الطرق المحيطة بالمدينة ، والمسالك المؤدية إلى مكة .
 - * عقد المعاهدات مع القبائل التى مساكنها على هذه الطرق .
 - * إشعار مشركى يثرب ويهودها وأعراب البادية الضاربين حولها بأن المسلمين أقوياء ، وأنهم تخلصوا من ضعفهم القديم .
 - * إنذار قريش عقيب طيئسها ، حتى تفيق عن غيها الذى لا يزال يتوغل فى أعماقها ، وعلها تشعر بتفاقم الخطر على اقتصادها وأسباب معاشها فتجئ إلى السلم ، وتمتنع عن إرادة قتال المسلمين فى عقر دارهم ، وعن الصد عن سبيل الله ، وعن تعذيب المستضعفين من المؤمنين فى مكة ، حتى يصير المسلمون أحرارا فى إبلاغ رسالة الله فى ربوع الجزيرة .
- وفيما يلى أحوال هذه السرايا بالإيجاز :

(١) سعى المؤرخون ما خرج فيه النبى ﷺ بنفسه غزوة ، حارب فيها أم لم يحارب ، وما خرج فيه أحد قادته سرية .

١ - سرية سيف البحر :

فى رمضان سنة ١ هـ ، الموافق مارس سنة ٦٢٣ م ، أمر رسول الله ﷺ على هذه السرية حمزة بن عبد المطلب ، وبعثه فى ثلاثين رجلاً من المهاجرين يعترضون عيراً لقريش جاءت من الشام ، وفيها أبو جهل بن هشام فى ثلاثمائة رجل ، فبلغوا سيف البحر من ناحية العيص (١) ، فالتقوا واصطفوا للقتال ، فمشى مجدى بن عمرو الجهنى - وكان حليفاً للفريقين جميعاً - بين هؤلاء وهؤلاء حتى حجز بينهم فلم يقتتلوا .

وكان لواء حمزة أول لواء عقده رسول الله ﷺ ، وكان أبيض ، وحمله أبو مرثد كنان ابن حصين الغنوى .

٢ - سرية رابع :

فى شوال سنة ١ من الهجرة ، الموافق أبريل سنة ٦٢٣ م ، بعث لها رسول الله ﷺ عبدة بن الحارث بن المطلب فى ستين رجلاً من المهاجرين ، فلقى أبا سفيان - وهو فى مائتين - على بطن رابع ، وقد ترامى الفريقان بالنبل ، ولم يقع قتال .

وفى هذه السرية انضم رجلا من جيش مكة إلى المسلمين ، وهما المقداد بن عمرو البهرانى ، وعتبة بن غزوأن المازنى ، وكانا مسلمين خرجا مع الكفار ليكون ذلك وسيلة للوصول إلى المسلمين ، وكان لواء عبدة أبيض ، وحامله مسطح بن أثانة بن المطلب بن عبد مناف .

٣ - سرية الخرار (٢) :

فى ذى القعدة سنة ١ هـ ، الموافق مايو سنة ٦٢٣ م ، بعث لها رسول الله ﷺ سعد بن أبى وقاص فى عشرين رجلاً يعترضون عيراً لقريش ، وعهد إليه ألا يجاوز الخرار ، فخرجوا مشاة يكمنون بالنهار ، ويسرون بالليل ، حتى بلغوا الخرار صبيحة خمس ، فوجدوا العير قد مرت بالأمس .

كان لواء سعد رضي الله عنه أبيض ، وحمله المقداد بن عمرو .

٤ - غزوة الأبواء أو ودان (٣) :

فى صفر سنة ٢ هـ ، الموافق أغسطس سنة ٦٢٣ م ، خرج رسول الله ﷺ فيها بنفسه فى سبعين رجلاً من المهاجرين خاصة يعترض عيراً لقريش ، حتى بلغ ودان ، فلم يلتق كيداً . واستخلف فيها على المدينة سعد بن عباد رضي الله عنه .

وفى هذه الغزوة عقد معاهدة حلف مع عمرو بن مخشى الضمرى ، وكان سيد بنى ضمرة فى زمانه ، وهذا نص المعاهدة :

(١) العيص - بالكسر : مكان بين ينبع والمروة ناحية البحر الأحمر .

(٢) الخرار - بالفتح فالتشديد : موضع بالقرب من الجحفة .

(٣) ودان - بالفتح فالتشديد : موضع بين مكة والمدينة ، بينه وبين رابع مما يلى المدينة ٢٩ ميلاً ، والأبواء : موضع بالقرب من ودان .

« هذا كتاب من محمد رسول الله لبنى ضمرة ، فإنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم ، وإن لهم النصر على من رامهم إلا أن يحاربوا دين الله ، ما بَلَّ بَحْرُ صُوفَةٍ ، وأن النبی إذا دعاهم لنصره أجابوه » (١) .

وهذه أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ ، وكانت غيبته خمس عشرة ليلة ، وكان اللواء أبيض وحامله حمزة بن عبد المطلب .

٥ - غزوة بُوَّاط :

فى شهر ربيع الأول سنة ٢هـ ، الموافق سبتمبر سنة ٦٢٣م ، خرج فيها رسول الله ﷺ فى مائتين من أصحابه ، يعترض عيراً لقريش فيها أمية بن خلف الجُمَحَى ومائة رجل من قريش ، وألفان وخمسمائة بعير ، فبلغ بواطاً من ناحية رَضَوَى (٢) ولم يلق كيدا .

واستخلف فى هذه الغزوة على المدينة سعد بن معاذ ، واللواء كان أبيض ، وحامله سعد بن أبى وقاص رَضَوَى .

٦ - غزوة سَقَوَان :

فى شهر ربيع الأول سنة ٢هـ ، الموافق سبتمبر سنة ٦٢٣م ، أغار كُرْز بن جابر الفهري فى قوات خفيفة من المشركين على مراعى المدينة ، ونهب بعض المواشى ، فخرج رسول الله ﷺ فى سبعين رجلاً من أصحابه لمطاردته ، حتى بلغ وادياً يقال له : سَقَوَان من ناحية بدر ، ولكنه لم يدرك كُرْزاً وأصحابه ، فرجع من دون حرب ، وهذه الغزوة تسمى بغزوة بدر الأولى .

واستخلف فى هذه الغزوة على المدينة زيد بن حارثة ، وكان اللواء أبيض ، وحامله على بن أبى طالب .

٧ - غزوة ذى العُشَيْرَةِ :

فى جمادى الأولى ، وجمادى الآخرة سنة ٢هـ ، الموافق نوفمبر وديسمبر سنة ٦٢٣م ، خرج فيها رسول الله ﷺ فى خمسين ومائة ويقال : فى مائتين ، من المهاجرين ، ولم يكره أحداً على الخروج ، وخرجوا على ثلاثين بعيراً يعتقبونها ، يعترضون عيراً لقريش ، ذاهبة إلى الشام ، وقد جاء الخبر بفصولها من مكة ، فيها أموال لقريش ، فبلغ ذا العُشَيْرَةِ (٣) ، فوجد العير قد فاتته بأيام ، وهذه هى العير التى خرج فى طلبها حين رجعت من الشام ، فصارت سبباً لغزوة بدر الكبرى .

وكان خروجه ﷺ فى أواخر جمادى الأولى ، ورجوعه فى أوائل جمادى الآخرة ، على ما قاله ابن إسحاق ، ولعل هذا هو سبب اختلاف أهل السير فى تعيين شهر هذه الغزوة .

وفى هذه الغزوة عقد رسول الله ﷺ معاهدة عدم اعتداء مع بنى مُدَلِج وحلفائهم من

(١) انظر : الموهب اللدنية ١/ ٧٥ وشرحه للزرقانى . وما بَلَّ بَحْرُ صُوفَةٍ : أى ما دام فى البحر ما يبل الصوفة .

(٢) بُوَّاط ورضوى : جبلان فرعان أصلهما واحد من جبال جهينة مما يلى طريق الشام ، بينه وبين المدينة نحو ٤٨ ميلاً .

(٣) العُشَيْرَةُ - مصغراً ، ويقال : العشيرة بالمد ، وقيل : العسيرة ، بالمهمله : موضع بناحية ينبع .

بنى ضمرة .

واستخلف على المدينة فى هذه الغزوة أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومى ، وكان اللواء أبيض ، وحامله حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه .

٨ - سرية نخلة :

فى رجب سنة ٢هـ ، الموافق يناير سنة ٦٢٤ م ، بعث رسول الله ﷺ فيها عبد الله ابن جحش الأسدى إلى نخلة فى اثنى عشر رجلاً من المهاجرين ، كل اثنين يعتقبان على بغير .

وكان رسول الله ﷺ كتب له كتاباً ، وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ، ثم ينظر فيه . فسار عبد الله ثم قرأ الكتاب بعد يومين ، فإذا فيه : «إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف ، فترصد بها عير قريش وتعلم لنا من أخبارهم» . فقال : سمعاً وطاعة ، وأخبر أصحابه بذلك ، وأنه لا يستكرههم ، فمن أحب الشهادة فلينهض ، ومن كره الموت فليرجع ، وأما أنا فناهض ، فنهضوا كلهم ، غير أنه لما كان فى أثناء الطريق أضل سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان بغيراً لهما كانا يعتقبانه ، فتخلفا فى طلبه .

وسار عبد الله بن جحش حتى نزل بنخلة ، فمرت عير لقريش تحمل زيباً وأدماً وتجارة ، وفيها عمرو بن الحضرمى ، وعثمان ونوفل ابنا عبد الله بن المغيرة ، والحكم ابن كيسان مولى بنى المغيرة . فتشاور المسلمون وقالوا : نحن فى آخر يوم من رجب ، الشهر الحرام ، فإن قاتلناهم انتهكنا الشهر الحرام ، وإن تركناهم الليلة دخلوا الحرم ، ثم اجتمعوا على اللقاء ، فرمى أحدهم عمرو بن الحضرمى فقتله ، وأسروا عثمان والحكم وأفلت نوفل ، ثم قدموا بالغير والأسيرين إلى المدينة ، وقد عزلوا من ذلك الخمس ، وهو أول خمس كان فى الإسلام ، وأول قتل فى الإسلام ، وأول أسيرين فى الإسلام .

وأنكر رسول الله ﷺ ما فعلوه ، وقال : « ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام » ، وتوقف عن التصرف فى العير والأسيرين .

ووجد المشركون فيما حدث فرصة لاتهام المسلمين بأنهم قد أحلوا ما حرم الله ، وكثر فى ذلك القيل والقال ، حتى نزل الوحي حاسماً هذه الأقاويل وأن ما عليه المشركون أكبر وأعظم مما ارتكبه المسلمون :

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ [البقرة : ٢١٧] .

فقد صرح هذا الوحي بأن الضجة التى افتعلها المشركون لإثارة الريبة فى سيرة المقاتلين المسلمين لا مساغ لها ، فإن الحرمات المقدسة قد انتهكت كلها فى محاربة الإسلام ، واضطهاد أهله ، ألم يكن المسلمون مقيمين بالبلد الحرام حين تقرر سلب أموالهم وقتل نبيهم ؟ فما الذى أعاد لهذه الحرمات قداستها فجأة ، فأصبح انتهاكها معرة وشناعة ؟ لا جرم أن الدعاية التى أخذ ينشرها المشركون دعاية تبثنى على وقاحة ودعارة .

وبعد ذلك أطلق رسول الله ﷺ سراح الأسيرين ، وأدى دية المقتول إلى أوليائه^(١).

* * *

تلكم السرايا والغزوات قبل بدر ، لم يجر في واحد منها سلب الأموال وقتل الرجال إلا بعد ما ارتكبه المشركون في قيادة كرز بن جابر الفهري ، فالبداية إنما هي من المشركين مع ما كانوا قد أتوه قبل ذلك من الأفاعيل .

وبعد وقوع ما وقع في سرية عبد الله بن جحش تحقق خوف المشركين وتجمد أمامهم الخطر الحقيقي ، ووقعوا فيما كانوا يخشون الوقوع فيه ، وعلموا أن المدينة في غاية من التيقظ والتربص ، تتربص كل حركة من حركاتهم التجارية ، وأن المسلمين يستطيعون أن يزحفوا إلى ثلاثمائة ميل تقريبا ، ثم يقتلوا ويأسروا رجالهم ، ويأخذوا أموالهم ، ويرجعوا سالمين غانمين ، وشعر هؤلاء المشركون بأن تجارتهم إلى الشام أمام خطر دائم ، لكنهم بدل أن يفيقوا عن غيهم ، ويأخذوا طريق الصلاح والموادة - كما فعلت جهينة وبنو ضمرة - ازدادوا حقداً وغيظاً ، وصمم صناديدهم وكبرأؤهم على ما كانوا يوعدون ويهددون به من قبل ؛ من إبادة المسلمين في عقر دارهم ، وهذا هو الطيش الذي جاء بهم إلى بدر .

أما المسلمون فقد فرض الله عليهم القتال بعد وقعة سرية عبد الله بن جحش في شهر شعبان سنة ٢هـ ، وأنزل في ذلك آيات بينات : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجَكُم وَالْفَتْةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) ﴾ [البقرة] .

ثم لم يلبث أن أنزل الله تعالى عليهم آيات من نوع آخر ، يعلمهم فيها طريقة القتال ، ويحثهم عليه ، ويبين لهم بعض أحكامه : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبُ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْنَتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدَ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَيَبْلُوَنَّ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنَصَرُوا لِلَّهِ يَنْصِرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) ﴾ [محمد] .

ثم ذم الله الذين طفتت أفئدتهم ترجف وتخفق حين سمعوا الأمر بالقتال : ﴿ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ الآية [محمد : ٢٠] .

وإيجاب القتال والحض عليه ، والأمر بالاستعداد له هو عين ما كانت تقتضيه الأحوال ،

(١) أخذنا تفاصيل هذه السرايا والغزوات من زاد المعاد ٨٣/٢ - ٨٥ ، وابن هشام ٥٩١/١ - ٦٠٥ ، وفي المصادر اختلاف في ترتيب هذه الغزوات والسرايا ، وفي تعيين عدد الخارجين فيها . واعتمدنا في ذلك على تحقيق العلامة ابن القيم .

ولو كان هناك قائد يسير أغوار الظروف لأمر جنده بالاستعداد لجميع الطوارئ، فكيف بالرب العليم المتعال، فالظروف كانت تقتضى عراقًا داميًا بين الحق والباطل، وكانت وقعة سرية عبد الله بن جحش ضربة قاسية على غيرة المشركين وحميتهم، ألثمهم وتركتهم يتقلبون على مثل الجمر.

وآيات الأمر بالقتال تدل بفحواها على قرب العراك الدامي، وأن النصر والغلبة فيه للمسلمين نهائياً، انظر كيف يأمر الله المسلمين بإخراج المشركين من حيث أخرجوهم، وكيف يعلمهم أحكام الجند المتغلب في الأسارى، والإثخان في الأرض حتى تضع الحرب أوزارها، هذه كلها إشارة إلى غلبة المسلمين نهائياً. ولكن ترك كل ذلك مستوراً حتى يأتى كل رجل بما فيه من التحمس في سبيل الله.

وفي هذه الأيام - في شعبان سنة ٢ هـ / فبراير ٦٢٤ م - أمر الله تعالى بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام، وأفاد ذلك أن الضعفاء والمنافقين من اليهود الذين كانوا قد دخلوا في صفوف المسلمين لإثارة البلبلة، انكشفوا عن المسلمين ورجعوا إلى ما كانوا عليه، وهكذا تطهرت صفوف المسلمين عن كثير من أهل الغدر والخيانة.

ولعل في تحويل القبلة إشارة لطيفة إلى بداية دور جديد لا ينتهى إلا بعد احتلال المسلمين هذه القبلة، أو ليس من العجب أن تكون قبلة قوم بيد أعدائهم، وإن كانت بأيديهم فعلاً فلا بد من تخليصها يوماً ما إن كانوا على الحق.

وبهذه الأوامر والإشارات، زاد نشاط المسلمين، واشتد شوقهم إلى الجهاد في سبيل الله، ولقاء العدو في معركة فاصلة تدور لإعلاء كلمة الله.



غزوة بدر الكبرى أول معركة من معارك الإسلام الفاصلة

سبب الغزوة :

سبق في ذكر غزوة العُصَيْرَةِ أن عِيرًا لقريش أفلتت من النبی ﷺ في ذهابها من مكة إلى الشام ، فلما قرب رجوعها من الشام إلى مكة بعث رسول الله ﷺ طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد إلى الشمال ليقوما باكتشاف خبرها ، فوصلا إلى الحوراء ومكثتا حتى مر بهما أبو سفيان بالعين ، فأسرعا إلى المدينة وأخبرا رسول الله ﷺ الخبر .

وكانت العير تحمل ثروات طائلة لكبار أهل مكة ورؤسائها : ألف بعير موقرة بأموال لا تقل عن خمسين ألف دينار ذهبي ، ولم يكن معها من الحرس إلا نحو أربعين رجلا .

إنها فرصة ذهبية للمسلمين ليصيبوا أهل مكة بضربة اقتصادية قاصمة ، تتألم لها قلوبهم على مر العصور ؛ لذلك أعلن رسول الله ﷺ في المسلمين قائلاً : « هذه عير قريش فيها أموالهم ، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها » .

ولم يعزم على أحد بالخروج ، بل ترك الأمر للرغبة المطلقة ، لما أنه لم يكن يتوقع عند هذا الانتداب أنه سيصطدم بجيش مكة - بدل العير - هذا الاصطدام العنيف في بدر؛ ولذلك تخلف كثير من الصحابة في المدينة ، وهم يحسبون أن مضى رسول الله ﷺ في هذا الوجه لن يعدو ما ألفوه في السرايا والغزوات الماضية ؛ ولذلك لم ينكر على أحد تخلفه في هذه الغزوة .

مبلغ قوة الجيش الإسلامي وتوزيع القيادات:

واستعد رسول الله ﷺ للخروج ومعه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً (٣١٣) ، أو ٣١٤ ، أو ٣١٧ رجلاً (٨٢ أو ٨٣ أو ٨٦ من المهاجرين و ٦١ من الأوس و ١٧٠ من الخزرج . ولم يحتفلوا لهذا الخروج احتفالاً بليغاً ، ولا اتخذوا أهبتهم كاملة ، فلم يكن معهم إلا فرس (١) أو فرسان: فرس للزبير بن العوام، وفرس للمقداد بن الأسود الكندي ، وكان معهم سبعون بعيراً يعتقب الرجلان والثلاثة على بعير واحد ، وكان رسول الله ﷺ وعلى ومرثد ابن أبي مرثد الغنوي يعتقبون بعيراً واحداً .

واستخلف على المدينة وعلى الصلاة ابن أم مكتوم ، فلما كان بالروحاء رد أبا لُبَابَةَ بن عبد المنذر ، واستعمله على المدينة .

ودفع لواء القيادة العامة إلى مصعب بن عمير القرشي العبدري ، وكان هذا اللواء أبيض .

(١) وهذا رواه أبو يعلى في مسنده ٢٤٢/١ ح (٢٨٠) و ٢٦٠/١ ح (٣٠٥) وروى ذلك أيضاً الإمام أحمد في مسنده ١٢٥/١ ، ١٣٨ .

وقسم جيشه إلى كتيبتين :

١ - كتيبة المهاجرين : وأعطى رايتها على بن أبى طالب ، ويقال لها : العُقاب .

٢ - وكتيبة الأنصار : وأعطى رايتها سعد بن معاذ . (وكانت الرايتان سوداوين) .

وجعل على قيادة الميمنة الزبير بن العوام ، وعلى اليسرة المقداد بن عمرو - وكانا هما الفارسين الوحيديين فى الجيش - كما سبق - وجعل على الساقة قيس بن أبى صَعْصَعَة ، وظلت القيادة العامة فى يده عليه السلام كقائد أعلى للجيش .

الجيش الإسلامى يتحرك نحو بدر :

وسار رسول الله عليه السلام فى هذا الجيش غير المتأهب ، فخرج من نقب المدينة ، ومضى على الطريق الرئيسى المؤدى إلى مكة ، حتى بلغ بئر الروحاء ، فلما ارتحل منها ترك طريق مكة إلى اليسار ، وانحرف ذات اليمين على النازية يريد بدرًا ، فسلك فى ناحية منها حتى جزع وادياً (١) يقال له : رُحْقَان بين النازية وبين مَضِيق الصَّفراء ، ثم مر على المضيق ثم انصب منه حتى قرب من الصَّفراء ، ومن هنالك بعث بَسْبَس بن عمرو الجهنى وعدى بن أبى الزَّغْبَاء الجهنى إلى بدر يتجسسان له أخبار العير .

النذير فى مكة :

وأما خبر العير فإن أبا سفيان - وهو المسئول عنها - كان على غاية من الحيطة والحذر ، فقد كان يعلم أن طريق مكة محفوف بالأخطار ، وكان يتحسس الأخبار ويسأل من لقي من الركبان ، ولم يلبث أن نقلت إليه استخباراته بأن محمداً عليه السلام قد استنفر أصحابه ليوقع بالعير ، وحينئذ استأجر أبو سفيان ضمضم بن عمرو الغفارى إلى مكة مستصرخاً لقريش بالنفير إلى غيرهم ؛ ليمنعوه من محمد عليه السلام وأصحابه ، وخرج ضمضم سريعا حتى أتى مكة ، فصرخ ببطن الوادى واقفا على بعيره ، وقد جدَّع أنفه ، وحولَّ رَحْلَه ، وشقَّ قميصه ، وهو يقول : يا معشر قريش ، اللطيمة (٢) ، اللطيمة ، أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه ، لا أرى أن تدركوها ، الغوث . . . الغوث .

أهل مكة يتجهزون للغزو :

فتحفز الناس سراعاً وقالوا : أئظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي؟ كلا والله ليعلمن غير ذلك، فكانوا بين رجلين: إما خارج، وإما باعث مكانه رجلاً، وأوعبوا (٣) فى الخروج فلم يتخلف من أشرافهم أحد سوى أبى لهب ، فإنه عوض عنه رجلاً كان له عليه دين ، وحشدوا من حولهم من قبائل العرب ، ولم يتخلف عنهم أحد من بطون قريش إلا بنى عدى فلم يخرج منهم أحد .

(١) جزع الوادى : قطعه عرضاً .

(٢) اللطيمة : الإبل تحمل الطيب .

(٣) جمعوا .

قوام الجيش المكي :

وكان قوام هذا الجيش نحو ألف وثلاثمائة مقاتل في بداية سيره ، وكان معه مائة فرس وستمائة درع ، وجمال كثيرة لا يعرف عددها بالضبط ، وكان قائده العام أبا جهل ابن هشام ، وكان القائمون بتموينه تسعة رجال من أشرف قريش ، فكانوا ينحرون يوماً تسعاً ويوماً عشراً من الإبل .

مشكلة قبائل بني بكر :

ولما أجمع هذا الجيش على المسير ذكرت قريش ما كان بينها وبين بني بكر من العداوة والحرب ، فخافوا أن تضربهم هذه القبائل من الخلف ، فيكونوا بين نارين ، فكاد ذلك يشيهم ، ولكن حينئذ تبدى لهم إبليس في صورة سُرَّاقَة بن مالك بن جُعْشُم المدلجى - سيد بني كنانة - فقال لهم : أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه .

جيش مكة يتحرك :

وحينئذ خرجوا من ديارهم ، كما قال الله : ﴿ بَطْرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنفال : ٤٧] ، وأقبلوا - كما قال رسول الله ﷺ - بحدهم وحديدهم يحادون الله ويحادون رسوله ﴿ وَعَدُوا عَلَى حَرِّ قَادِرِينَ ﴾ (٢٥) [القلم] ، وعلى حمية وغضب وحقن على رسول الله ﷺ وأصحابه ، لجرأة هؤلاء على قوافلهم .

تحركوا بسرعة فائقة نحو الشمال في اتجاه بدر ، وسلكوا في طريقهم وادى عُسْفَانَ ، ثم قُدَيْدًا ، ثم الجُحْفَةَ ، وهناك تلقوا رسالة جديدة من أبى سفيان يقول لهم فيها : إنكم إنما خرجتم لتحزروا غيركم ورجالكم وأموالكم ، وقد نجاها الله فارجعوا .

العرير تفلت :

وكان من قصة أبى سفيان أنه كان يسير على الطريق الرئيسى ، ولكنه لم يزل حذراً متيقظاً ، وضاعف حركاته الاستكشافية ، ولما اقترب من بدر تقدم غيره حتى لقي مَجْدَى بن عمرو ، وسأله عن جيش المدينة ، فقال : ما رأيت أحداً أنكره إلا أنى قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل ، ثم استقيا فى شن لهما ، ثم انطلقا ، فبادر أبو سفيان إلى مناخهما ، فأخذ من أبعاد بعيرهما ، ففته فإذا فيه النوى ، فقال : هذه والله علائف يثرب ، فرجع إلى غيره سريعا ، وضرب وجهها محولا اتجاهها نحو الساحل غرباً ، تاركاً الطريق الرئيسى الذى يمر ببدر على اليسار ، وبهذا نجا بالقافلة من الوقوع فى قبضة جيش المدينة ، وأرسل رسالته إلى جيش مكة التى تلقاها فى الجحفة .

همّ الجيش المكي بالرجوع ، ووقوع الانشقاق فيه :

ولما تلقى هذه الرسالة جيش مكة هم بالرجوع ، ولكن قام طاغية قريش أبو جهل فى كبرياء وغطرسة قائلاً : والله لا نرجع حتى نرد بدرأ ، فقيم بها ثلاثاً ، فننحر الجزور ، وننعم الطعام ، ونسقى الخمر ، وتعزف لنا القيان ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبداً .

ولكن على رغم أبى جهل - أشار الأخنس بن شريق بالرجوع فعضوه ، فرجع هو وبنو زُهرة - وكان حليفاً لهم ، ورئيساً عليهم فى هذا النفير - فلم يشهد بدرأ زهرى واحد ، وكانوا حوالى ثلاثمائة رجل ، واعتبطت بنو زهرة بعدُ برأى الأخنس بن شريق ، فلم يزل فيهم مطاعاً معظماً .

وأرادت بنو هاشم الرجوع فاشتد عليهم أبو جهل ، وقال : لا تفارقنا هذه العصابة حتى نرجع .

فسار جيش مكة وقوامه ألف مقاتل بعد رجوع بنى زهرة - وهو يقصد بدرأ - فواصل سيره حتى نزل قريباً من بدر ، وراء كثيب يقع بالعدوة القصوى على حدود وادى بدر . موقف الجيش الإسلامى فى ضيق وحرَج :

أما استخبارات جيش المدينة فقد نقلت إلى رسول الله ﷺ - وهو لا يزال فى الطريق بوادى ذِفْران - خبر العير والنفير ، وتأكد لديه بعد التدبر فى تلك الأخبار أنه لم يبق مجال لاجتناب اللقاء الدامى ، وأنه لا بد من إقدام يبنى على الشجاعة والبسالة ، والجرأة ، والجسارة ، فمما لا شك فيه أنه لو ترك جيش مكة يجوس خلال تلك المنطقة يكون ذلك تدعيماً لمكانة قريش العسكرية ، وامتداداً لسلطانها السياسى ، وإضعافاً لكلمة المسلمين وتوهيناً لها ، بل ربما تبقى الحركة الإسلامية بعد ذلك جسداً لا روح فيه ، ويجرؤ على الشر كل من فيه حقد أو غيظ على الإسلام فى هذه المنطقة .

ثم هل هناك ضمان للمسلمين بامتناع جيش مكة عن مواصلة سيره نحو المدينة ، حتى ينقل المعركة إلى أسوارها ، ويغزو المسلمين فى عقر دارهم ؟ كلا ! فلو حدث من جيش المدينة نكول ما ، لكان له أسوأ الأثر على هيبة المسلمين وسمعتهم .

المجلس الاستشارى :

ونظراً إلى هذا التطور الخطير المفاجئ عقد رسول الله ﷺ مجلساً عسكرياً استشارياً أعلى ، أشار فيه إلى الوضع الراهن ، وتبادل فيه رأى مع عامة جيشه وقادته . وحينئذ تزعزع قلوب فريق من الناس ، وخافوا اللقاء الدامى ، وهم الذين قال الله فيهم : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ [الأنفال: ٦] ، وأما قادة الجيش فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن ، ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله ، امض لما أراك الله ، فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢٤] ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه .

فقال رسول الله ﷺ خيراً ودعا له به .

وهؤلاء القادة الثلاثة كانوا من المهاجرين ، وهم أقلية فى الجيش ، فأحب رسول الله ﷺ أن يعرف رأى قادة الأنصار ؛ لأنهم كانوا يمثلون أغلبية الجيش ، ولأن ثقل المعركة

سيدور على كواهلهم ، مع أن نصوص العقبة لم تكن تلزمهم بالقتال خارج ديارهم ، فقال بعد سماع كلام هؤلاء القادة الثلاثة : « أشيروا على أيها الناس » وإنما يريد الانتصار ، وفطن إلى ذلك قائد الانتصار وحامل لوائهم سعد بن معاذ .

فقال : والله ، ولكأنك تريدنا يا رسول الله ؟

قال : « أجل » .

قال : فقد آمنا بك ، فصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهدونا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصبرٌ في الحرب ، صدقٌ في اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله .

وفي رواية أن سعد بن معاذ قال لرسول الله ﷺ : لعلك تخشى أن تكون الانتصار ترى حقاً عليها ألا تنصرك إلا في ديارهم ، وإنى أقول عن الانتصار وأجيب عنهم : فاطعن حيث شئت ، وصل حبل من شئت ، واقطع حبل من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وأعطنا ما شئت ، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت ، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك ، فهو الله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك ، ووالله لئن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك .

فَسَّرَ رسول الله ﷺ بقول سعد ، ونشطه ذلك ، ثم قال : « سيروا وأبشروا ، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم » .

الجيش الإسلامي يواصل سيره :

ثم ارتحل رسول الله ﷺ من دِفْرَانَ ، فسلك على ثنايا يقال لها : الأصافر ، ثم انحط منها إلى بلد يقال له : الدَّبَّةُ ، وترك الحَنَانُ بيمين - وهو كَثِيبٌ عظيم كالجبل - ثم نزل قريباً من بدر .

الرسول ﷺ يقوم بعملية الاستكشاف :

وهناك قام ﷺ بنفسه بعملية الاستكشاف مع رفيقه في الغار أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وبينما هما يتجولان حول معسكر مكة إذا هما بشيخ من العرب ، فسأله رسول الله ﷺ عن قريش وعن محمد وأصحابه - سأل عن الجيشين زيادة في التكتّم - ولكن الشيخ قال : لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما ؟ فقال له رسول الله ﷺ : « إذا أخبرتنا أخبرناك » ، قال : أو ذاك بذاك ؟ قال : « نعم » .

قال الشيخ : فإنه بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا - للمكان الذي به جيش المدينة . وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا - للمكان الذي به جيش مكة .

ولما فرغ من خبره قال : ممن أنتم ؟ فقال له رسول الله ﷺ : « نحن من ماء » ، ثم انصرف عنه ، وبقي الشيخ يتفوه : ما من ماء ؟ أمن ماء العراق ؟
الحصول على أهم المعلومات عن الجيش المكي :

وفى مساء ذلك اليوم بعث ﷺ استخباراته من جديد ليبحث عن أخبار العدو ، وقام لهذه العملية ثلاثة من قادة المهاجرين ؛ على بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد ابن أبي وقاص فى نفر من أصحابه ، ذهبوا إلى ماء بدر فوجدوا غلامين يستقيان لجيش مكة ، فألقوا عليهما القبض ، وجاءوا بهما إلى الرسول ﷺ وهو فى الصلاة ، فاستخبرهما القوم ، فقالا : نحن سقا قريش ، بعثونا نسقيهم من الماء ، فكره القوم ، ورجوا أن يكونا لأبى سفيان - لاتزال فى نفوسهم بقايا أمل فى الاستيلاء على القافلة - فضربوهما ضرباً موجعاً حتى اضطر الغلامان أن يقولوا : نحن لأبى سفيان فتركوهما .

ولما فرغ رسول الله ﷺ من الصلاة قال لهم كالعائب : « إذا صدقاكم ضربتموهما ، وإذا كذباكم تركتموهما ، صدقا والله ، إنهما لقريش » .

ثم خاطب الغلامين قائلاً : « أخبرانى عن قريش » ، قالوا : هم وراء هذا الكتيب الذى ترى بالعدوة القصوى ، فقال لهما : « كم القوم ؟ » قالوا : كثير . قال : « ما عدتهم ؟ » قالوا : لا ندرى ، قال : « كم ينحرون كل يوم ؟ » قالوا : يوماً تسعاً ويوماً عشراً ، فقال رسول الله ﷺ : « القوم فيما بين التسعمائة إلى الألف » ، ثم قال لهما : « فمن فيهم من أشرف قريش ؟ » قالوا : عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو البختري بن هشام ، وحكيم بن حزام ، ونوفل ابن خويلد ، والحارث بن عامر ، وطعيمة بن عدى ، والنضر بن الحارث ، وزمعة بن الأسود ، وأبو جهل بن هشام ، وأميمة بن خلف فى رجال سميأهم .

فأقبل رسول الله ﷺ على الناس فقال : « هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها » .

نزول المطر :

وأنزل الله عز وجل فى تلك الليلة مطراً واحداً ، فكان على المشركين وإبلاً شديداً منعهم من التقدم ، وكان على المسلمين طلاً طهرهم به ، وأذهب عنهم رجس الشيطان ، ووطأ به الأرض ، وصلب به الرمل ، وثبت الأقدام ، ومهد به المنزل ، وربط به على قلوبهم .

الجيش الإسلامى يسبق إلى أهم المراكز العسكرية :

وتحرك رسول الله ﷺ بجيشه ليسبق المشركين إلى ماء بدر ، ويحول بينهم وبين الاستيلاء عليه ، فنزل عشاء أدنى ماء من مياه بدر ، وهنا قام الحباب بن المنذر كخبير عسكرى وقال : يا رسول الله ، رأيت هذا المنزل ، أمزلاً أنزلكه الله ، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال : « بل هو الرأى والحرب والمكيدة » .

قال : يا رسول الله ، إن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم

- قريش - فتنزله ونغور - أى نُخَرَّب - ما وراءه من القُلب (١) ، ثم بنى عليه حوضاً ، فتملأه ماء ، ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون ، فقال رسول الله ﷺ : «لقد أشرت بالرأى» .

فنهض رسول الله ﷺ بالجيش حتى أتى أقرب ماء من العدو ، فنزل عليه شطر الليل ، ثم صنعوا الحياض وغوروا ما عداها من القلب .

مقر القيادة :

وبعد أن تم نزول المسلمين على الماء اقترح سعد بن معاذ على رسول الله ﷺ أن يبنى المسلمون مقراً لقيادته ؛ استعداداً للطوارئ ، وتقديراً للهزيمة قبل النصر ، حيث قال :

يا نبي الله ، ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ، ونعد عندك ركائبك ، ثم نلقى عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحيينا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحققت بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن بأشد لك حباً منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك ، يمنحك الله بهم ، يناصحونك ويجاهدون معك .

فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيراً ودعا له بخير ، وبنى المسلمون عريشاً على تل مرتفع يقع فى الشمال الشرقى لميدان القتال ، ويشرف على ساحة المعركة .

كما تم اختيار فرقة من شباب الأنصار بقيادة سعد بن معاذ يحرسون رسول الله ﷺ حول مقر قيادته .

تعبئة الجيش وقضاء الليل :

ثم عبأ رسول الله ﷺ جيشه (٢) . ومشى فى موضع المعركة ، وجعل يشير بيده : «هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله ، وهذا مصرع فلان غداً إن شاء الله» (٣) . ثم بات رسول الله ﷺ يصلى إلى جذع شجرة هنالك ، وبات المسلمون ليلهم هادئى الأنفاس منيرى الآفاق ، غمرت الثقة قلوبهم ، وأخذوا من الراحة قسطهم ؛ يأملون أن يروا بشائر ربهم بعيونهم صباحاً : ﴿ إِذِ يَغْشِيكَمُ النَّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رَجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ (١١) [الانفال] .

كانت هذه الليلة ليلة الجمعة ، السابعة عشرة من رمضان فى السنة الثانية من الهجرة ، وكان خروجه ﷺ فى ٨ أو ١٢ من نفس الشهر .

الجيش المكي فى عرصه القتال ، ووقوع الانشقاق فيه :

أما قريش ففضت ليلتها هذه فى معسكرها بالعدوة القصوى ، ولما أصبحت أقبلت فى كتابها ، ونزلت من الكتيب إلى وادى بدر . وأقبل نفر منهم إلى حوض رسول الله ﷺ فقال : «دعوهم» ، فما شرب أحد منهم يومئذ إلا قتل ، سوى حكيم بن حزام ، فإنه لم

(١) القُلب : الآبار .

(٢) انظر : جامع الترمذى : أبواب الجهاد ، باب ما جاء فى الصف والتعبئة ١ / ٢٠١ .

(٣) رواه مسلم عن أنس ، انظر : مشكاة المصابيح ٢ / ٥٤٣ .

يقتل ، وأسلم بعد ذلك ، وحسن إسلامه ، وكان إذا اجتهد في اليمين قال : لا والذي نحاني من يوم بدر .

فلما اطمأنت قريش بعثت عُمَيْرَ بن وهب الجُمَحِيَّ للتعرف على مدى قوة جيش المدينة ، فدار عمير بفرسه حول العسكر ، ثم رجع إليهم فقال : ثلاثمائة رجل ، يزيدون قليلاً أو ينقصون ، ولكن أمهلوني حتى أنظر ألقوم كمين أو مدد ؟

فضرب في الوادي حتى أبعد ، فلم ير شيئاً ، فرجع إليهم فقال : ما وجدت شيئاً ، ولكني قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا ، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع ، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم ، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلاً منكم ، فإذا أصابوا منكم أعدادكم فما خير العيش بعد ذلك ؟ فروا رأيكم .

وحينئذ قامت معارضة أخرى ضد أبي جهل - المصمم على المعركة - تدعو إلى العودة بالجيش إلى مكة دونما قتال ، فقد مشى حكيم بن حزام في الناس ، وأتى عتبة ابن ربيعة فقال : يا أبا الوليد ، إنك كبير قريش وسيدها ، والمطاع فيها ، فهل لك إلى خير تذكر به إلى آخر الدهر ؟ قال : وما ذاك يا حكيم ؟ قال : ترجع بالناس ، وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي - المقتول في سرية نخلة - فقال عتبة : قد فعلت . أنت ضامن علىّ بذلك . إنما هو حليفى ، فعلى عقله (ديته) وما أصيب من ماله .

ثم قال عتبة لحكيم بن حزام : فائت ابن الحنظليَّة - أبا جهل ، والحنظلية أمه - فإنى لا أخشى أن يشجر أمر الناس غيره .

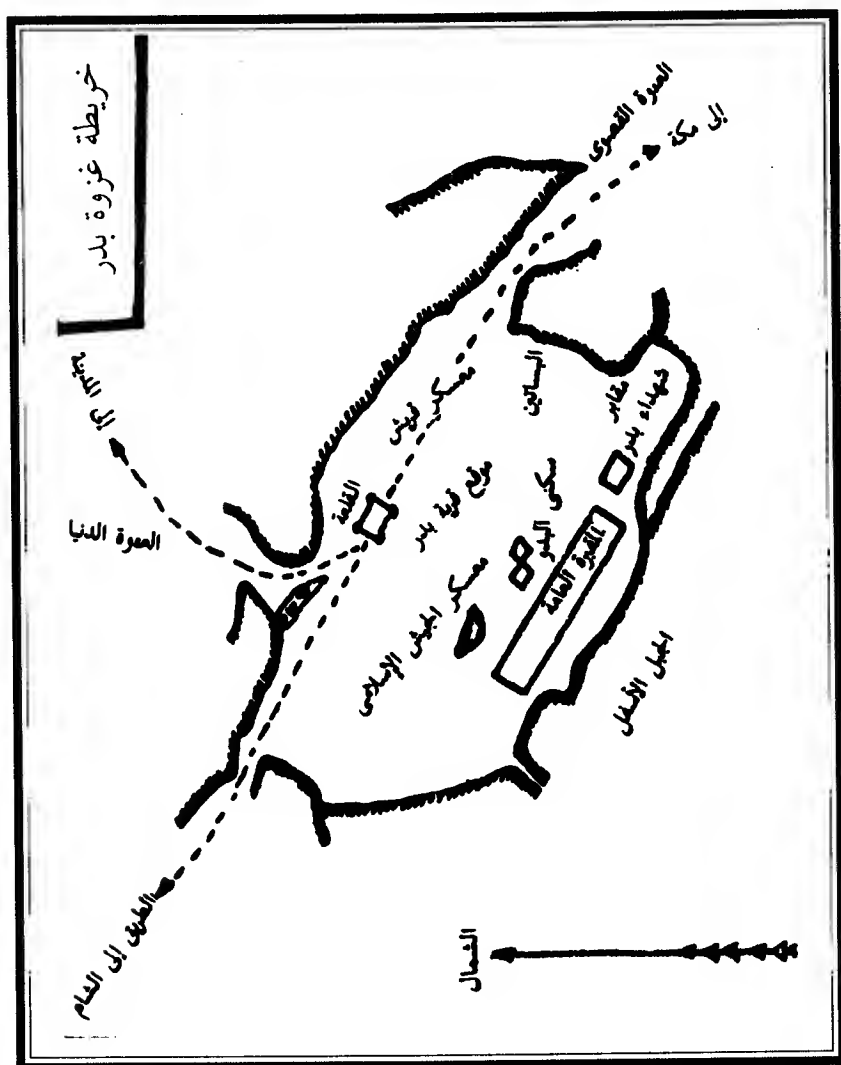
ثم قام عتبة بن ربيعة خطيباً فقال : يا معشر قريش ، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً ، والله لئن أصبتموه لايزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه ، قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته ، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب ، فإن أصابوه فذاك الذى أردتم ، وإن كان غير ذلك ألقاكم ولم تعرّضوا منه ما تريدون .

وانطلق حكيم بن حزام إلى أبي جهل - وهو يهيمُ درعاً له - قال : يا أبا الحكم ، إن عتبة أرسلنى بكذا وكذا ، فقال أبو جهل : انتفخ والله سحره^(١) حين رأى محمداً وأصحابه ، كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، وما بعتة ما قال ، ولكنه قد رأى أن محمداً وأصحابه أكلة جزور ، وفيهم ابنه - وهو أبو حذيفة بن عتبة كان قد أسلم قديماً وهاجر - فتخوَّفكم عليه .

ولما بلغ عتبة قول أبي جهل : انتفخ والله سحره ، قال عتبة : سيعلم مصفرُّ استه^(٢) من انتفخ سحره ، أنا أم هو ؟ وتعجل أبو جهل ، مخافة أن تقوى هذه المعارضة ، فبعث على إثر هذه المحاورة إلى عامر بن الحضرمي - أخى عمرو بن الحضرمي المقتول في سرية عبد الله بن جحش - فقال : هذا حليفك (أى عتبة) يريد أن يرجع بالناس ، وقد رأيت

(٢) مصفرُّ استه : أى ضراط .

(١) السَّحَر : الرثة .



ثأرك بعينك ، فقم فأنشد خُفَرَتَكَ (١) ، ومَقَتَلَ أخيك ، فقام عامر فكشف عن استه ، وصرخ : وإعمره ، وإعمره ، فحمى القوم ، وحَقَبَ (٢) أمرهم ، واستوثقوا على ما هم عليه من الشر ، وأفسد على الناس الرأي الذى دعاهم إليه عتبة . وهكذا تغلب الطيش على الحكمة ، وذهبت هذه المعارضة دون جدوى .

الجيشان يترآن :

ولما طلع المشركون وتراءى الجمعان قال رسول الله ﷺ : « اللهم هذه قرىش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتني ، اللهم أحنهم (٣) الغداة » وقد قال رسول الله ﷺ - ورأى عتبة بن ربيعة فى القوم على جمل له أحمر : « إن يكن فى أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر ، إن يطيعوه يرشدوا » .

وعدل رسول الله ﷺ صفوف المسلمين ، وبينما هو يعدلها وقع أمر عجيب ، فقد كان فى يديه قدح يعدل به ، وكان سواد بن غزاة مُسْتَصِلاً (٤) من الصف ، فطعن فى بطنه بالقدح ، وقال : « استو يا سواد » ، فقال سواد : يا رسول الله ، أوجعتنى فأقدنى ، فكشف عن بطنه وقال : « استقد » ، فاعتنقه سواد وقبل بطنه ، فقال : « ما جملك على هذا يا سواد ؟ » قال : يا رسول الله ، قد حضر ما ترى ، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك . فدعا له رسول الله ﷺ بخير .

ولما تم تعديل الصفوف أصدر أوامره إلى جيشه ألا يبدأوا القتال حتى يتلقوا منه الأوامر الأخيرة ، ثم أدلى إليهم بتوجيه خاص فى أمر الحرب ، فقال : « إذا أكتبوكم - يعنى اقتربوا منكم - فارموهم ، واستبقوا نبلكم (٥) ، ولا تسلبوا السيوف حتى يغشوكم » (٦) ثم رجع إلى العريش هو وأبو بكر خاصة ، وقام سعد بن معاذ بكتيبة الحراسة على باب العريش .

أما المشركون فقد استفتح أبو جهل فى ذلك اليوم فقال : اللهم أقطعنا للرحم ، وآتانا بما لانعرفه ، فأحنه الغداة ، اللهم أينما كان أحب إليك وأرضى عندك فانصره اليوم ، وفى ذلك أنزل الله : ﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُدُّوا نَعْدَ وَلَنْ تَغْنِي عَنْكُمْ فَتُنُكُمُ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٨) [الأنفال] .

ساعة الصفر وأول وقود المعركة :

وكان أول وقود المعركة الأسود بن عبد الأسد المخزومى - وكان رجلاً شرساً سيئ الخلق - خرج قائلاً : أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتن دونه . فلما خرج خرج إليه حمزة بن عبد المطلب ﷺ فلما التقيا ضربه حمزة فأطن (٧) قدمه بنصف ساقه وهو دون الحوض ، فوقع على ظهره تشخب رجله دماً نحو أصحابه ، ثم حبا إلى

(٢) اشتد .

(١) الخُفَرَة : العهد .

(٤) متقدماً .

(٣) أهلهم .

(٥) صحيح البخارى ٥٦٨ / ٢ .

(٦) سنن أبى داود : باب فى سل السيوف عند اللقاء ١٣ / ٢ .

(٧) أطار .

الحوض حتى اقتحم فيه ، يريد أن تبر يمينه ، ولكن حمزة ثنى عليه بضربة أخرى أتت عليه وهو داخل الحوض .

المبارزة :

وكان هذا أول قتل أشعل نار المعركة ، فقد خرج بعده ثلاثة من خيرة فرسان قريش كانوا من عائلة واحدة، وهم عتبة وأخوه شيبة ابنا ربيعة ، والوليد بن عتبة ، فلما انفصلوا من الصف طلبوا المبارزة، فخرج إليهم ثلاثة من شباب الأنصار عوف ومعوذ ابنا الحارث - وأمهما عفراء - وعبد الله بن رواحة ، فقالوا : من أنتم ؟ قالوا : رهط من الأنصار . قالوا : أكفاء كرام ، ما لنا بكم حاجة ، وإنما نريد بنى عمنا ، ثم نادى مناديهم : يا محمد ، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا ، فقال رسول الله ﷺ : «قم يا عبيدة بن الحارث ، وقم يا حمزة ، وقم يا علي» ، فلما قاموا ودنوا منهم، قالوا : من أنتم ؟ فأخبروهم ، فقالوا : أنتم أكفاء كرام ، فبارز عبيدة - وكان أسن القوم - عتبة بن ربيعة، وبارز حمزة شيبة ، وبارز علي الوليد (١) . فأما حمزة وعلي فلم يمهلّا قرنيهما أن قتلاههما ، وأما عبيدة فاختلف بينه وبين قرنه ضربتان ، فأنخن كل واحد منهما صاحبه، ثم كرّ علي وحمزة على عتبة فقتلاه ، واحتملا عبيدة وقد قطعت رجله ، فلم يزل ضَمَمًا (٢) حتى مات بالصفراء ، بعد أربعة أو خمسة أيام من وقعة بدر ، حينما كان المسلمون في طريقهم إلى المدينة . وكان علي يقسم بالله أن هذه الآية نزلت فيهم : ﴿ هَذَا خِطْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ الآية [الحج : ١٩] .

الهجوم العام :

وكانت نهاية هذه المبارزة بداية سيئة بالنسبة للمشركين ؛ إذ فقدوا ثلاثة من خيرة فرسانهم وقادتهم دفعة واحدة ، فاستشاطوا غضباً ، وكروا على المسلمين كرة رجل واحد . وأما المسلمون فبعد أن استنصروا ربههم واستغاثوه وأخلصوا له وتضرعوا إليه تلقوا هجمات المشركين المتتالية ، وهم مرابطون في مواقعهم ، واقفون موقف الدفاع ، وقد ألحقوا بالمشركين خسائر فادحة ، وهم يقولون : أحد أحد .

الرسول ﷺ يناشد ربه :

أما رسول الله ﷺ فكان منذ رجوعه بعد تعديل الصفوف يناشد ربه ما وعده من النصر ، ويقول : « اللهم أنجز لى ما وعدتنى ، اللهم إنى أنشدك عهدك ووعدك » ، حتى إذا حمى الوطيس ، واستدارت رحى الحرب بشدة واحتدم القتال ، وبلغت المعركة قمته ، قال : « اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد ، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبداً » . وبالغ فى الابتهاال حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فردّه عليه الصديق ، وقال : حسبك يا رسول الله ، ألححت على ربك .

(١) هذا على ما قاله ابن إسحاق ، وفى رواية أحمد وأبى داود : أن عبيدة بارز الوليد ، وعلي بارز شيبة ،

وحمزة بارز عتبة . مشكاة المصابيح ٢ / ٣٤٣ .

(٢) مريضاً .

غزوة بدر الكبرى أول معركة من معارك الإسلام الفاصلة ٢٠١

وأوحى الله إلى ملائكته : ﴿ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾ [الأنفال : ١٢] ، وأوحى إلى رسوله : ﴿ أَنِّي مِمْدُكُم بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ (٩) ﴿ [الأنفال] - أى إنهم ردف لكم ، أو يردف بعضهم بعضاً أرسالاً ، لا يأتون دفعة واحدة . نزول الملائكة :

وأغفى رسول الله ﷺ إغفاءة واحدة ، ثم رفع رأسه فقال : « أبشر يا أبا بكر ، هذا جبريل على ثنأياه النفع » (أى الغبار) وفى رواية ابن إسحاق : قال رسول الله ﷺ : « أبشر يا أبا بكر ، أتاك نصر الله ، هذا جبريل أخذ بعنان فرسه يقوده ، وعلى ثنأياه النفع » . ثم خرج رسول الله ﷺ من باب العريش وهو يثب فى الدرع ويقول : ﴿ سَيَهْزُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونُ الدُّبْرَ ﴾ (٤٥) ﴿ [القمر] ، ثم أخذ حَفَنَةً من الحَصْبَاءِ ، فاستقبل بها قريشاً وقال : « شأهت الوجوه » ، ورمى بها فى وجوههم ، فما من المشركين من أحد إلا أصاب عينيه ومنخره وفمه من تلك القبضة ، وفى ذلك أنزل الله : ﴿ وَمَا رَمَيْتْ إِذْ رَمَيْتْ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ [الأنفال : ١٧] . الهجوم المضاد :

وحينئذ أصدر إلى جيشه أوامره الأخيرة بالهجمة المضادة فقال : « شدوا » ، وحرصهم على القتال ، قائلاً : « والذى نفس محمد بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة » ، وقال وهو يحضهم على القتال : « قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض » ، (وحينئذ) قال عُمَيْرُ بن الحَمَام : بَخْ بَخْ . فقال رسول الله ﷺ : « ما يحملك على قولك : بَخْ بَخْ ؟ » قال : لا ، والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها ، قال : « فإنك من أهلها » . فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ، ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة ، فرمى بما كان معه من التمر ، ثم قاتلهم حتى قتل (١) .

وكذلك سأله عوف بن الحارث - ابن عفراء - فقال : يا رسول الله ، ما يضحك الرب من عبده ؟ قال : « غَمَسُهُ يَدَهُ فِي الْعَدُوِّ حَاسِراً » ، فتزع درعا كانت عليه فقتلها ، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل .

وحين أصدر رسول الله ﷺ الأمر بالهجوم المضاد كانت حدة هجمات العدو قد ذهبت وفتر حماسه ، فكان لهذه الخطوة الحكيمة أثر كبير فى تعزيز موقف المسلمين ، فإنهم حينما تلقوا أمر الشد والهجوم - وقد كان نشاطهم الحربى على شابه - قاموا بهجوم كاسح مرير ، فجعلوا يقلبون الصفوف ، ويقطعون الأعناق . وزادهم نشاطاً وحدة أن رأوا رسول الله ﷺ يثب فى الدرع ، وقد تقدمهم فلم يكن أحد أقرب من المشركين منه (٢) ، وهو يقول فى جزم وصراحة : ﴿ سَيَهْزُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونُ الدُّبْرَ ﴾ فقاتل المسلمون أشد القتال ونصرتهم الملائكة .

(١) رواه مسلم ١٣٩ / ٢ ، مشكاة المصابيح ٢ / ٣٣١ . والقرن : الجعبة ، وهى تشبه الكيس .

(٢) رواه البخارى : كتاب التفسير : باب قوله : ﴿ سَيَهْزُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونُ الدُّبْرَ ﴾ (٤٨٧٥) ، وأحمد فى المسند ٣٢٩ / ١ .

ففى رواية ابن سعد عن عكرمة قال: كان يومئذ يَنْدُرُ رأس الرجل لا يدري من ضربه، وتندر يد الرجل لا يدري من ضربها . وقال ابن عباس : بينما رجل من المسلمين يشتد فى إثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول : أقدم حيزُوم ، فنظر إلى المشرك أمامه ، فخر مستلقياً ، فنظر إليه فإذا هو قد خطم أنفه وشق وجهه كضربة السوط، فاخضرَّ ذلك أجمع، فجاء الأنصارى فحدث بذلك رسول الله ﷺ، فقال: « صدقت ، ذلك من مدد السماء الثالثة » (١) .

وقال أبو داود المازنى: إنى لأتبع رجلاً من المشركين لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفى ، فعرفت أنه قد قتله غيرى ، وجاء رجل من الأنصار بالعباس بن عبد المطلب أسيراً ، فقال العباس : إن هذا والله ما أسرنى ، لقد أسرنى رجل أجلىح ، من أحسن الناس وجهاً على فرس أبلىق ، وما أراه فى القوم ، فقال الأنصارى : أنا أسرته يا رسول الله ، فقال : « اسكت فقد أيدك الله بملك كريم » .

وقال على : قال لى رسول الله ﷺ يوم بدر ، ولأبى بكر : « مع أحدكما جبريل ومع الآخر ميكائيل ، وإسرافيل ملك عظيم يشهد القتال ، أو يكون فى القتال » (٢) .
إبليس ينسحب عن ميدان القتال :

ولما رأى إبليس - وكان قد جاء فى صورة سراقه بن مالك بن جُعْشُم المدبجى كما ذكرنا ، ولم يكن فارقههم منذ ذلك الوقت - فلما رأى ما يفعل الملائكة بالمشركين فر ونكص على عقبيه، وتشبث به الحارث بن هشام - وهو يظنه سراقه - فوكز فى صدر الحارث فألقاه ، ثم خرج هارباً ، وقال له المشركون : إلى أين يا سراقه ؟ ألم تكن قلت: إنك جار لنا ، لا تفارقنا ؟ فقال : ﴿ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٤٨) [الانفال] ، ثم فر حتى ألقى نفسه فى البحر .
الهزيمة الساحقة :

وبدأت أمارات الفشل والاضطراب فى صفوف المشركين ، وجعلت تتهدم أمام حملات المسلمين العنيفة، واقتربت المعركة من نهايتها ، وأخذت جموع المشركين فى الفرار والانسحاب المبدد ، وركب المسلمون ظهورهم يأسرون ويقتلون، حتى تمت عليهم الهزيمة .
صمود أبى جهل :

أما الطاغية الأكبر أبو جهل ، فإنه لما رأى أول أمارات الاضطراب فى صفوفه حاول أن يصمد فى وجه هذا السيل، فجعل يشجع جيشه ويقول لهم فى شراسة ومكابرة: لا يهزمكم خذلان سراقه إياكم ، فإنه كان على ميعاد من محمد ، ولا يهولنكم قتل عتبة وشيبة والوليد ، فإنهم قد عجلوا ، فواللات والعزى لا نرجع حتى نقرنهم بالحبال ، ولا ألفين

(١) روى مثل ذلك مسلم ٢ / ٩٣ وغيره . ويندر : ينقطع . واخضرَّ : انقطع .

(٢) أحمد فى مسنده ١ / ١٤٧ ، والبزار (١٤٦٧) ، والحاكم فى المستدرک ٣ / ١٣٤ ، وقد صححه ووافقه الذهبى ، وأبو يعلى فى مسنده ١ / ٢٨٤ ح (٣٤٠) .

رجلاً منكم قتل منهم رجلاً ، ولكن خذوهم أخذاً حتى نعرفهم بسوء صنيعهم .
ولكن سرعان ما تبدت له حقيقة هذه الغطرسه ، فما لبث إلا قليلاً حتى أخذت الصفوف تتصدع أمام تيارات هجوم المسلمين . نعم ، بقى حوله عصابة من المشركين ضربت حوله سياجاً من السيوف ، وغابات من الرماح ، ولكن عاصفة هجوم المسلمين بددت هذا السياج ، وأقلعت هذه الغابات ، وحينئذ ظهر هذا الطاغية ، ورآه المسلمون يجول على فرسه ، وكان الموت ينتظر أن يشرب من دمه بأيدي غلامين أنصاريين .

مصراع أبى جهل :

قال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه : إني لفي الصف يوم بدر إذ التفت ، فإذا عن يميني وعن يساري فتیان حديثا السن ، فكأنني لم آمن بمكانهما ، إذ قال لى أحدهما سراً من صاحبه : يا عم ، أرني أبا جهل ، فقلت : يابن أخى ، فما تصنع به ؟ قال : أخبرته أنه يسب رسول الله ﷺ ، قال : والذي نفسى بيده لئن رأيته لا يفارق سوادى سواده حتى يموت الأعرج منا ، فتعجبت لذلك . قال : وغمزنى الآخر ، فقال لى مثلها ، فلم أنشب أن نظرت إلى أبى جهل يجول فى الناس . فقلت : ألا تريان ؟ هذا صاحبكما الذى تسألانى عنه ، قال : فابتدراه فضرباه حتى قتلاه ، ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ ، فقال : « أيكما قتله ؟ » فقال كل واحد منهما : أنا قتلت ، قال : « هل مسحتما سيفيكما ؟ » فقالا : لا . فنظر رسول الله ﷺ إلى السيفين فقال : « كلاكما قتله » ، وقضى رسول الله ﷺ بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح ، والرجلان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعوذ ابن عفراء (١) .

وقال ابن إسحاق : قال معاذ بن عمرو بن الجموح : سمعت القوم ، وأبو جهل فى مثل الحَرْجَة - والحرجة : الشجر الملتف ، أو شجرة من الأشجار لا يوصل إليها ، شبه رماح المشركين وسيوفهم التى كانت حول أبى جهل لحفظه بهذه الشجرة - وهم يقولون : أبو الحكم لا يخلص إليه ، قال : فلما سمعتها جعلته من شأنى فصمدت نحوه ، فلما أمكنتى حملت عليه ، فضربت ضربة أطئت قدمه - أطارتها - بنصف ساقه ، فوالله ما شبهتها حين طاحت إلا بالنواة تطيح من تحت مريضخة (٢) النوى حين يضرب بها . قال : وضربنى ابنه عكرمة على عاتقى فطرح يدى ، فتعلقت بجلدة من جنبى ، وأجهضنى القتال عنه ، فلقد قاتلت عامة يومى وإنى لأسحبها خلفى ، فلما آذنتى وضعت عليها قدمى ، ثم تمطيت بها عليها حتى طرحتها (٣) ، ثم مر بأبى جهل - وهو عقير - معوذ ابن عفراء فضربه حتى أثبتته ، فتركه وبه رمق ، وقاتل معوذ حتى قتل .

ولما انتهت المعركة قال رسول الله ﷺ : « من ينظر ما صنع أبو جهل ؟ » ففرق الناس فى طلبه ، فوجده عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وبه آخر رمق ، فوضع رجله على عنقه وأخذ لحيته ليحتز رأسه ، وقال : هل أخزأك الله يا عدو الله ؟ قال : وبماذا أخزأتى ؟ أأعمد من

(١) صحيح البخارى ٤٤٤/١ ، ٥٦٨/٢ ، ومشكاة المصابيح ٣٥٢/٢ ، وإنما خص بالسلب واحداً منهما ؛ لأن الثانى قتل شهيداً فى نفس المعركة .

(٢) المريضخة : الحجر الذى يكسر به النوى . (٣) بقى معاذ هذا إلى زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه .

رجل قتلتموه؟^(١) أو هل فوق رجل قتلتموه؟ وقال: فلو غير أكَّار^(٢) قتلنى، ثم قال: أخبرنى لمن الدائرة اليوم؟ قال: لله ورسوله، ثم قال لابن مسعود - وكان قد وضع رجله على عنقه: لقد ارتقيت مرتقى صعباً يا رُوَيْعِي الغنم، وكان ابن مسعود من رعاة الغنم فى مكة .

وبعد أن دار بينهما هذا الكلام احتز ابن مسعود رأسه، وجاء به إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، هذا رأس عدو الله أبى جهل، فقال: «الله الذى لا إله إلا هو؟» فرددها ثلاثاً، ثم قال: «الله أكبر، الحمد لله الذى صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، انطلق أرنيه»، فانطلقنا فأربرته إياه، فقال: «هذا فرعون هذه الأمة» .

من روايع الإيمان فى هذه المعركة :

لقد أسلفنا نمودجين رائعين من عمير بن الحمام وعوف بن الحارث - ابن عفراء - وقد تجلت فى هذه المعركة مناظر رائعة تبرز فيها قوة العقيدة وثبات المبدأ، وفى هذه المعركة التقى الآباء بالأبناء، والإخوة بالإخوة، خالفت بينهما المبادئ ففصلت بينهما السيوف، والتقى المقهور بقاهره فشفى منه غيظه .

روى ابن إسحاق عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال لأصحابه: «إنى قد عرفت أن رجلاً من بنى هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً، لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقى أحداً من بنى هاشم فلا يقتله، ومن لقى أبا البختري بن هشام فلا يقتله، ومن لقى العباس بن عبد المطلب فلا يقتله، فإنه إنما أخرج مستكراً»، فقال أبو حذيفة بن عتبة: أنقتل آبائنا وأبنائنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك العباس، والله لئن لقيته لأحمنه - أو لأجمنه - بالسيف، فبلغت رسول الله ﷺ، فقال لعمر بن الخطاب: «يا أبا حفص، أياضرب وجه عم رسول الله ﷺ بالسيف»، فقال عمر: يا رسول الله، دعنى فلاضرب عنقه بالسيف، فوالله لقد نافق .

فكان أبو حذيفة يقول: ما أنا بأمن من تلك الكلمة التى قلت يومئذ، ولا أزال منها خائفاً إلا أن تكفرها عنى الشهادة . فقتل يوم اليمامة شهيداً .

وكان النهى عن قتل أبى البختري؛ لأنه كان أكف القوم عن رسول الله ﷺ وهو بمكة، وكان لا يؤذيه، ولا يبلغ عنه شيء يكرهه، وكان ممن قام فى نقض صحيفة مقاطعة بنى هاشم وبنى المطلب .

ولكن أبا البختري قتل على رغم هذا كله، وذلك أن المُجَدَّر بن زياد البَلَوِي لقيه فى المعركة ومعه زميل له، يقاتلان سوياً، فقال المجذر: يا أبا البختري إن رسول الله ﷺ قد نهانا عن قتلك، فقال: وزميلي؟ فقال المجذر: لا والله ما نحن بتاركى زميلك، فقال: والله إذن لأموتن أنا وهو جميعاً، ثم اقتتلا، فاضطر المجذر إلى قتله .

٣ - كان عبد الرحمن بن عوف وأمىة بن خلف صديقين فى الجاهلية بمكة، فلما كان يوم بدر مر به عبد الرحمن، وهو واقف مع ابنه على بن أمىة، أخذاً بيده، ومع عبد الرحمن

(١) أى ليس علي عار فلن أبعد أن أكون رجلاً قتله قومه .

(٢) الأكَّار: الحُرَّات .

أدراع قد استلبها ، وهو يحملها ، فلما رآه قال : هل لك فى ؟ فأنأ خير من هذه الأدراع التى معك ، ما رأيت كاليوم قط ، أما لكم حاجة فى اللبن ؟ - يريد أن من أسرنى اقتديت منه ببإل كثيرة اللبن - فطرح عبد الرحمن الأدراع ، وأخذهما يمشى بهما ، قال عبد الرحمن : قال لى أمية بن خلف ، وأنا بيسته وبين ابنه : من الرجل منكم المعلم بريشة النعامة فى صدره ؟ قلت : ذاك حمزة بن عبد المطلب ، قال : ذاك الذى فعل بنا الأفاعيل .

قال عبد الرحمن : فوالله إنى لأقودهما إذ رآه بلال معى - وكان أمية هو الذى يعذب بلالاً بمكة - فقال بلال : رأس الكفر أمية بن خلف ، لا نجوت إن نجا . قلت : أى بلال ، أسيرى . قال : لا نجوت إن نجا . قلت : أسمع يابن السوداء . قال : لا نجوت إن نجا . ثم صرخ بأعلى صوته : يا أنصار الله ، رأس الكفر أمية بن خلف ، لا نجوت إن نجا . قال : فأحاطوا بنا حتى جعلونا فى مثل المَسَكَةِ ^(١) ، وأنا أذب عنه ، قال : فأخلف رجل السيف ، فضرب رجل ابنه فوق ، وصاح أمية صيحة ما سمعت مثلها قط ، فقلت : انج بنفسك ، ولا نجا بك ، فوالله ما أغنى عنك شيئاً . قال : فَهَرَّوْهُمَا بِأَسْيَافِهِمْ حتى فرغوا منهما ، فكان عبد الرحمن يقول : يرحم الله بلالاً ، ذهبت أدراعى ، وفجئنى بأسيرى .

وروى البخارى عن عبد الرحمن بن عوف قال : كاتب أمية بن خلف كتاباً بأن يحفظنى فى صاغيتى - أى خاصتى ومالى - بمكة ، وأحفظه فى صاغيته بالمدينة ... فلما كان يوم بدر خرجت إلى جبل لأحرزه حين نام الناس ، فأبصره بلال ، فخرج حتى وقف على مجلس الأنصار فقال : أمية بن خلف ، لا نجوت إن نجا أمية ، فخرج معه فريق من الأنصار فى آثارنا ، فلما خشيت أن يلحقونا خلفت لهم ابنه ليشغلهم ، فقتلوه ، ثم أبوا حتى يتبعونا ، وكان رجلاً ثقيلاً ، فلما أدركونا قلت له : ابرك ، فبرك ، فالتقيت عليه نفسى لأمنعه ، فتخللوه بالسيف من تحتى حتى قتلوه ، وأصاب أحدهم رجلى بسيفه . وكان عبد الرحمن يرينا ذلك الأثر فى ظهر قدمه ^(٢) .

٤ - وقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه يومئذ خاله العاص بن هشام بن المغيرة ، ولم يلتفت إلى قرابته منه ، ولكن حين رجع إلى المدينة قال للعباس عم رسول الله ﷺ ، وهو فى الأسر : يا عباس أسلم ، فوالله أن تسلم أحب إلى من أن يسلم الخطاب ، وما ذاك إلا لما رأيت رسول الله ﷺ يعجبه إسلامك ^(٣) .

٥ - ونادى أبو بكر الصديق رضي الله عنه ابنه عبد الرحمن - وهو يومئذ مع المشركين - فقال : أين مالى يا خبيث ؟ فقال عبد الرحمن :

لَمْ يَبْقَ غَيْرُ شَكَّةٍ وَيَعْبُوبُ وَصَارِمٌ يَقْتُلُ ضَلَالُ الشَّيْبِ ^(٤)

٦ - ولما وضع القوم أيديهم يأسرون ، ورسول الله ﷺ فى العريش ، وسعد بن معاذ قائم على بابهِ يحرسه متوشحاً سيفه ، رأى رسول الله ﷺ فى وجه سعد بن معاذ الكراهية لما

(١) الأسورة . (٢) صحيح البخارى : كتاب الوكالة ١/٣٠٨ .

(٣) رواه الحاكم فى المستدرک (فتح القدير للشوكانى ٢/٣٢٧) .

(٤) الشكَّة : السلاح . واليعبوب : الفرس الكثير الجرى .

يصنع الناس ، فقال له : والله لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم ؟ قال : أجل والله يا رسول الله ، كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك ، فكان الإثخان في القتل بأهل الشرك أحب إلى من استبقاء الرجال .

٧ - وانقطع يومئذ سيف عكاشة بن محصن الأسدي ، فأتى رسول الله ﷺ فأعطاه جذلاً من حطب ، فقال : « قاتل بهذا يا عكاشة » ، فلما أخذه من رسول الله ﷺ هزه ، فعاد سيفاً في يده طويل القامة ، شديد المتن ، أبيض الحديد ، فقاتل به حتى فتح الله تعالى للمسلمين ، وكان ذلك السيف يسمى العون ، ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد ، حتى قتل في حروب الردة وهو عنده .

٨ - وبعد انتهاء المعركة مر مصعب بن عمير العبدري بأخيه أبي عزيز بن عمير الذي خاض المعركة ضد المسلمين ، مر به وأحد الأنصار يشد يده ، فقال مصعب للأنصارى : شد يدك به ، فإن أمه ذات متاع ، لعلها تفديه منك ، فقال أبو عزيز لأخيه مصعب : أهذه وصاتك بي ؟ فقال مصعب : إنه - أي الأنصارى - أخى دونك .

٩ - ولما أمر بإلقاء جيف المشركين في القليب ، وأخذ عتبة بن ربيعة فسحب إلى القليب ، نظر رسول الله ﷺ في وجه ابنه أبي حذيفة ، فإذا هو كئيب قد تغير ، فقال : « يا أبا حذيفة ، لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء ؟ » فقال : لا والله ، يا رسول الله ، ما شككت في أبي ولا مصرعه ، ولكنني كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلاً ، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام ، فلما رأيت ما أصابه ، وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذي كنت أرجو له أحزننى ذلك . فدعا له رسول الله ﷺ بخير ، وقال له خيراً .

قتلى الفريقين :

انتهت المعركة بهزيمة ساحقة بالنسبة للمشركين ، وافتح مبين بالنسبة للمسلمين ، وقد استشهد من المسلمين في هذه المعركة أربعة عشر رجلاً ، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار .

أما المشركون فقد لحقتهم خسائر فادحة ، قتل منهم سبعون ، وأسر سبعون . وعامتهم القادة والزعماء والصناديد .

ولما انقضت الحرب أقبل رسول الله ﷺ حتى وقف على القتلى فقال : « بشس العشيرة كنتم لنبيكم ؛ كذبتموني وصدقني الناس ، وخذلتهموني ونصرني الناس ، وأخرجتموني وآواني الناس » ، ثم أمر بهم فسحبوا إلى قليب من قلوب بدر .

وعن أبي طلحة : أن نبي الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش ، فلففوا في طوى^(١) من أطواء بدر حيث مخبث . وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال ، فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها رحلها ، ثم مشى ، واتبعه أصحابه . حتى قام على شفة الركي^(٢) ، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم ، « يا فلان

بن فلان ، يا فلان بن فلان ، أيسركم أنكم أطعمتم الله ورسوله ؟ فإننا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ » فقال عمر : يا رسول الله ، ما تكلم من أجساد لا أرواح لها ؟ قال النبي ﷺ : « والذي نفس محمد بيده ، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم » وفى رواية : « ما أنتم بأسمع منهم ، ولكن لا يجيبون » (١) .

مكة تتلقى نبأ الهزيمة :

فر المشركون من ساحة بدر فى صورة غير منظمة ؛ تبعثروا فى الوديان والشعاب ، واتجهوا صوب مكة مذعورين ، لا يدرون كيف يدخلونها خجلاً .

قال ابن إسحاق: وكان أول من قدم بمصاب قریش الحِيسْمَان بن عبد الله الخزاعى ، فقالوا : ما وراءك ؟ قال : قتل عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو الحكم بن هشام وأمّية بن خلف ، فى رجال من الزعماء سماهم . فلما أخذ يعد أشراف قریش قال صفوان بن أمّية وهو قاعد فى الحجر : والله إن يعقل هذا ، فاسألوه عنى . قالوا : ما فعل صفوان بن أمّية ؟ قال : ها هو ذا جالس فى الحجر ، وقد والله رأيت أباه وأخاه حين قتل .

وقال أبو رافع - مولى رسول الله ﷺ : كنت غلاماً للعباس وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت ، فأسلم العباس ، وأسلمت أم الفضل ، وأسلمت ، وكان العباس يكتّم إسلامه ، وكان أبو لهب قد تخلف عن بدر ، فلما جاءه الخبر كبتّه الله وأخزاه ، ووجدنا فى أنفسنا قوة وعزاً ، وكنت رجلاً ضعيفاً أعمل الأقداح ، أنحتها فى حجرة زمزم ، فوالله إنى لجالس فيها أنحت أقداحى وعندى أم الفضل جالسة ، وقد سرنا ما جاءنا من الخبر ، إذ أقبل أبو لهب يجر رجله بشر حتى جلس على طنبّ الحجر (٢) ، فكان ظهره إلى ظهري ، فبينما هو جالس إذ قال الناس : هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم ، فقال له أبو لهب : هلم إلى ، فعندك لعمرى الخبر ، قال : فجلس إليه ، والناس قيام عليه . فقال : يابن أخى ، أخبرنى كيف كان أمر الناس ؟ قال : ما هو إلا أن لقينا القوم فمحنناهم أكتافنا ، يقتلوننا كيف شاءوا ، ويأسروننا كيف شاءوا وإيم الله مع ذلك ما ملت الناس ، لقيناً رجال بيض على خيل بلق بين السماء والأرض ، والله ما تليق (٣) شيئاً ، ولا يقوم لها شيء .

قال أبو رافع : فرفعت طنب الحجر بيدي ، ثم قلت : تلك والله الملائكة . قال : فرفع أبو لهب يده ، فضرب بها وجهى ضربة شديدة ، فتاورته ، فاحتملنى فضرب بى الأرض ، ثم برك على يضربنى ، وكنت رجلاً ضعيفاً فقامت أم الفضل إلى عمود من عمود الحجر فأخذته ، فضربت به ضربة فلّعت (٤) فى رأسه شجة منكرة ، وقالت : استضعفت أن غاب عنه سيده ، فقام مولياً ذليلاً ، فوالله ما عاش إلا سبع ليال حتى رماه الله بالعدسة (وهى قرحة تشاءم بها العرب) فقتلته ، فتركه بنوه ، وبقي ثلاثة أيام لا تقرب جنازته ، ولا يحاول دفنه ، فلما خافوا السبة فى تركه حفروا له ، ثم دفعوه يعود فى حفرة ، وقذفوه بالحجارة من بعيد حتى واروه .

(٢) طنبّ الحجر : طرفها .

(١) متفق عليه ، مشكاة المصابيح ٣٤٥/٢ .

(٤) شقّت .

(٣) أى لا تبقى شيئاً .

هكذا تلقت مكة أنباء الهزيمة الساحقة فى ميدان بدر ، وقد أثر ذلك فيهم أثراً سيئاً جداً ، حتى منعوا النياحة على القتلى ؛ لئلا يشمت بهم المسلمون .

ومن الطرائف أن الأسود بن المطلب أصيب ثلاثة من أبنائه يوم بدر ، وكان يحب أن يبكى عليهم ، وكان ضرير البصر ، فسمع ليلاً صوت نائحة ، فبعث غلامه ، وقال : انظر هل أحل النخب^(١) ؟ هل بكت قريش على قتلاها ؟ لعلى أبكى على أبى حكيمة - ابنه - فإن جوفى قد احترق ، فرجع الغلام وقال : إنما هى امرأة تبكى على بعير لها أضلته ، فلم يتمالك الأسود نفسه وقال :

أبتكى أن يضل لها بعير	ويعنعا من النوم السهود ^(٢)
فلا تبكى على بكرٍ ولكن على	على بدرٍ تقاصرت الجدود ^(٣)
بدر سراً ^(٤) بنى مضيق	ومخزوم ورهط أبى الوليد
وبكى إن بكيت على عقيل	وبكى حارثاً أسد الأسود
وبكىهم ، ولا تسمى جميعاً	وما لأبى حكيمة من نديد
ألا قد ساد بعدهم رجال	ولولا يوم بدرٍ لم يسودوا

المدينة تتلقى أنباء النصر :

ولما تم الفتح للمسلمين أرسل رسول الله ﷺ بشيرين إلى أهل المدينة ؛ ليعجل لهم البشرى ، أرسل عبد الله بن زواحة بشيراً إلى أهل العالية ، وأرسل زيد بن حارثة بشيراً إلى أهل السافلة .

وكان اليهود والمنافقون قد أرجفوا فى المدينة بإشاعة الدعايات الكاذبة ، حتى إنهم أشاعوا خبر مقتل النبي ﷺ ، ولما رأى أحد المنافقين زيد بن حارثة ركباً الفصواء - ناقة رسول الله ﷺ - قال : لقد قتل محمد ، وهذه ناقته نعرفها ، وهذا زيد لا يدري ما يقول من الرعب ، وجاء فلا^(٥) .

فلما بلغ الرسولان أحاط بهما المسلمون ، وأخذوا يسمعون منهما الخبر ، حتى تأكد لديهم فتح المسلمين ، فعمت البهجة والسرور ، واهتزت أرجاء المدينة تهليلاً وتكبيراً ، وتقدم رءوس المسلمين - الذين كانوا بالمدينة - إلى طريق بدر ، ليهتوا رسول الله ﷺ بهذا الفتح المبين .

قال أسامة بن زيد : أتانا الخبر حين سونا التراب على رقية بنت رسول الله ﷺ التى كانت عند عثمان بن عفان ، كان رسول الله ﷺ خلفنى عليها مع عثمان .

الجيش النبوى يتحرك نحو المدينة :

أقام رسول الله ﷺ ببدر بعد انتهاء المعركة ثلاثة أيام ، وقبل رحيله من مكان المعركة وقع خلاف بين الجيش حول الغنائم ، ولما اشتد هذا الخلاف أمر رسول الله ﷺ بأن يرد

(٢) الأرقى .

(٤) سراً : خيار .

(١) البكاء بصوت .

(٣) الحفظ .

(٥) أى منهزماً .

الجميع ما بأيديهم ، ففعلوا ، ثم نزل الوحي بحل هذه المشكلة .

عن عبادة بن الصامت قال : خرجنا مع النبي ﷺ ، فشهدت معه بدرًا ، فالتقى الناس فهزم الله العدو ، فانطلقت طائفة في آثارهم يطاردون ويقتلون ، وأكبت طائفة على المغنم يحرزونه ويجمعونه ، وأحدثت طائفة برسول الله ﷺ ؛ لا يصيب العدو منه غرة ، حتى إذا كان الليل ، وفاء الناس بعضهم إلى بعض ، قال الذين جمعوا الغنائم : نحن حويناها ، وليس لأحد فيها نصيب ، وقال الذين خرجوا في طلب العدو : لستم أحق بها منا ، نحن نحينا منها العدو وهزمناه ، وقال الذين أهدقوا برسول الله ﷺ : خفنا أن يصيب العدو منه غرة ، فاشتغلنا به ، فأنزل الله : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرُّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ١ ﴾ [الأنفال] . فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين (١) .

وبعد أن أقام رسول الله ﷺ ببدر ثلاثة أيام تحرك بجيشه نحو المدينة ومعه الأسارى من المشركين ، واحتمل معه النفل الذي أصيب من المشركين ، وجعل عليه عبد الله بن كعب ، فلما خرج من مضيق الصفراء نزل على كتيب بين المضيق وبين النازية ، وقسم هنالك الغنائم على المسلمين على السواء بعد أن أخذ منها الخمس .

وعندما وصل إلى الصفراء أمر بقتل النضر بن الحارث - وكان هو حامل لواء المشركين يوم بدر ، وكان من أكابر مجرمي قريش ، ومن أشد الناس كيداً للإسلام وإيذاء لرسول الله ﷺ - فضرب عنقه على بن أبي طالب .

ولما وصل إلى عرق الظبية أمر بقتل عقبة بن أبي معيط - وقد أسلفنا بعض ما كان عليه من إيذاء رسول الله ﷺ ، فهو الذي كان ألقى سلاً جزوراً على ظهر رسول الله ﷺ وهو في الصلاة ، وهو الذي خنقه بردائه وكاد يقتله ، لولا اعتراض أبي بكر رضي الله عنه - فلما أمر بقتله قال : من للصبية يا محمد ؟ قال : « النار » (٢) . فقتله عاصم ابن ثابت الأنصاري ، ويقال : على بن أبي طالب .

وكان قتل هذين الطاغيتين واجباً نظراً إلى سوابقهما ، فلم يكونا من الأسارى فحسب ، بل كانا من مجرمي الحرب بالاصطلاح الحديث .
وفود التهنتة :

ولما وصل ﷺ إلى الروحاء لقيه رءوس المسلمين - الذين كانوا قد خرجوا للتهنتة والاستقبال حين سمعوا بشارة الفتح من الرسولين - يهتونه بالفتح . وحينئذ قال لهم سلمة ابن سلامة : ما الذي تهنتوننا به ؟ فوالله إن لقينا إلا عجائز صلعاً كالبدن المعقلة ، فنحرناها ، فتبسم رسول الله ﷺ ، ثم قال : « يا بن أخي ، أولئك الملا » .

وقال أسيد بن حضير : يا رسول الله ، الحمد لله الذي أظفرك ، وأقر عينك ، والله يا

(١) أخرجه أحمد ٣٢٣/٥ ، ٣٢٤ ، والحاكم ٣٢٦/٢ .

(٢) روى ذلك أصحاب الصحاح ، انظر : سنن أبي داود مع حاشيته عون المعبود ١٢/٣ .

رسول الله ما كان تخلفى عن بدر وأنا أظن أنك تلقى عدواً ، ولكن ظننت أنها غير ، ولو ظننت أنه عدو ما تخلفت ، فقال رسول الله ﷺ : « صدقت » .

ثم دخل رسول الله ﷺ المدينة مظفراً منصوراً قد خافه كل عدو له بالمدينة وحولها ، فأسلم بشر كثير من أهل المدينة ، وحيث دخل عبد الله بن أبى وأصحابه فى الإسلام ظاهراً .

وقدم الأسارى بعد بلوغه المدينة بيوم ، فقسمهم على أصحابه ، وأوصى بهم خيراً . فكان الصحابة يأكلون التمر ، ويقدمون لأسراهم الخبز ، عملاً بوصية رسول الله ﷺ .
قضية الأسارى :

ولما بلغ رسول الله ﷺ المدينة استشار أصحابه فى الأسارى ، فقال أبو بكر : يا رسول الله ، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان ، وإنى أرى أن تأخذ منهم الفدية ، فيكون ما أخذناه قوة لنا على الكفار ، وعسى أن يهديهم الله ، فيكونوا لنا عضداً .

فقال رسول الله ﷺ : « ما ترى يا بن الخطاب ؟ » قال : قلت : والله ما أرى ما رأى أبو بكر ، ولكن أرى أن تمكثنى من فلان - قريب لعمر - فأضرب عنقه ، وتمكن علياً من عقيل بن أبى طالب فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه ، حتى يعلم الله أنه ليست فى قلوبنا هودة للمشركين . وهؤلاء صنائدهم وأئمتهم وقادتهم .

فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ، ولم يهو ما قلت ، وأخذ منهم الفداء : فلما كان من الغد قال عمر : فغدوت إلى النبى ﷺ وأبى بكر وهما يبيكان ، فقلت : يا رسول الله ، أخبرنى ماذا يبيك أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما ، فقال رسول الله ﷺ : « أبكى للذى عرض على أصحابك من أخذهم الفداء ، فقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة » - شجرة قرية (١) .

وأنزل الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يَتَّخِذَ فِي الْأَرْضِ تَرْيَدُونَ عَرْضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٦٧) لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) [الأنفال] .

والكتاب الذى سبق من الله قيل : هو قوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءٌ ﴾ [محمد : ٤] . ففيه الإذن بأخذ الفدية من الأسارى ؛ ولذلك لم يعذبوا ، وإنما نزل العتاب لأنهم أسروا الكفار قبل أن يتخذوا فى الأرض ، وقيل : بل الآية المذكورة نزلت فيما بعد ، وإنما الكتاب الذى سبق من الله هو ما كان فى علم الله من إحلال الغنائم لهذه الأمة ، أو من المغفرة والرحمة لأهل بدر .

وحيث إن الأمر كان قد استقر على رأى الصديق فقد أخذ منهم الفداء ، وكان الفداء من أربعة آلاف درهم إلى ثلاثة آلاف درهم إلى ألف درهم ، وكان أهل مكة يكتبون ، وأهل المدينة لا يكتبون ، فمن لم يكن عنده فداء دفع إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة يعلمهم ،

فإذا حذقوا فهو فداء .

ومن رسول الله ﷺ على عدة من الأسارى فأطلقهم بغير فداء ، منهم : المطلب بن حنطب ، وصيفي بن أبي رفاعه ، وأبو عزة الجمحي ، وهو الذي قتله أسيراً في أحد ، وسيأتي .

ومن على خنته أبي العاص بشرط أن يخلى سبيل زينب ، وكانت قد بعثت في فدائه بمال بعثت فيه بقلادة لها كانت عند خديجة ، أدخلتها بها على أبي العاص ، فلما رآها رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة ، واستأذن أصحابه في إطلاق أبي العاص ففعلوه ، واشترط رسول الله ﷺ على أبي العاص أن يخلى سبيل زينب ، فخلاها فهاجرت ، وبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار ، فقال : « كونا بيطن يأجج حتى تمر بكما زينب فنصحبها » ، فخرجا حتى رجعا بها . وقصة هجرتها طويلة ومؤلمة جداً .

وكان في الأسرى سهيل بن عمرو ، وكان خطيباً مصقلاً (١) ، فقال عمر : يا رسول الله ، انزع ثنيتي سهيل بن عمرو يدلع (٢) لسانه ، فلا يقوم خطيباً عليك في موطن أبداً ، بيد أن رسول الله ﷺ رفض هذا الطلب ؛ احترازاً عن المثلثة ، وعن بطش الله يوم القيامة .

وخرج سعد بن النعمان معتمراً فحبسه أبو سفيان ، وكان ابنه عمرو بن أبي سفيان في الأسرى ، فبعثوا به إلى أبي سفيان فخلى سبيل سعد .

القرآن يتحدث حول موضوع المعركة :

وحول موضوع هذه المعركة نزلت سورة الأنفال ، وهذه السورة تعليق إلهي - إن صح هذا التعبير - على هذه المعركة ، يختلف كثيراً عن التعليقات التي ينطق بها الملوك والقواد بعد الفتح .

إن الله تعالى لفت أنظار المسلمين - أولاً - إلى بعض التقصيرات الأخلاقية التي كانت قد بقيت فيهم ، وصدر بعضها منهم ؛ ليسعوا في تحلية نفوسهم بأرفع مراتب الكمال ، وفي تزكيتها عن هذه التقصيرات .

ثم ثنى بما كان في هذا الفتح من تأييد الله وعونه ونصره بالغيب للمسلمين . ذكر لهم ذلك لئلا يغتروا بشجاعتهم وبسالتهم ، فتتسور نفوسهم الغطرسة والكبرياء ، بل ليتوكلوا على الله ، ويطيعوه ويطيعوا رسوله عليه الصلاة والسلام .

ثم بين لهم الأهداف والأغراض النبيلة التي خاض الرسول ﷺ لأجلها هذه المعركة الدامية الرهيبة ، ودلهم على الصفات والأخلاق التي تتسبب في الفتوح في المعارك .

ثم خاطب المشركين والمنافقين واليهود وأسارى المعركة ، ووعظهم موعظة بليغة ، تهديهم إلى الاستسلام للحق والالتزام به .

ثم خاطب المسلمين حول موضوع الغنائم ، وقرن لهم مبادئ وأسس هذه المسألة .

ثم بين وشرع لهم من قوانين الحرب والسلام ما كانت الحاجة تمس إليها بعد دخول

الدعوة الإسلامية في هذه المرحلة، حتى تمتاز حروب المسلمين عن حروب أهل الجاهلية، ويتفوق المسلمون في الأخلاق والقيم والمثل، ويتأكد للدنيا أن الإسلام ليس مجرد وجهة نظر، بل هو دين يتقف أهله عملياً على الأسس والمبادئ التي يدعو إليها.

ثم قرر بنوداً من قوانين الدولة الإسلامية التي تقيم الفرق بين المسلمين الذين يسكنون داخل حدودها، والذين يسكنون خارجها.

وفي السنة الثانية من الهجرة فرض صيام رمضان، وفرضت زكاة الفطر، وبينت أنصبة الزكاة الأخرى، وكانت فريضة زكاة الفطر وتفصيل أنصبة الزكاة الأخرى تخفيفاً لكثير من الأوزار التي كان يعانيها عدد كبير من المهاجرين اللاجئين الذين كانوا فقراء لا يستطيعون ضرباً في الأرض.

ومن أحسن المواقع وأروع الصدقات أن أول عيد تعيد به المسلمون في حياتهم هو العيد الذي وقع في شوال سنة ٢ هـ، إثر الفتح المبين الذي حصل لهم في غزوة بدر. فما أروع هذا العيد السعيد الذي جاء به الله بعد أن تَوَجَّ هامتهم بتاج الفتح والعز، وما أروق منظر تلك الصلاة التي صلوها بعد أن خرجوا من بيوتهم يرفعون أصواتهم بالتكبير والتوحيد والتحميد، وقد فاضت قلوبهم رغبة إلى الله، وحنيناً إلى رحمته ورضوانه بعد ما أولاهم به من النعم، وأيدهم به من النصر، وقد ذكرهم بذلك قائلاً: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٢٦) [الأنفال].

النشاط العسكري بين بدر وأحد

إن معركة بدر كانت أول لقاء مسلح بين المسلمين والمشركين ، وكانت معركة فاصلة أكسبت المسلمين نصراً حاسماً شهد له العرب قاطبة . والذين كانوا أشد استياءً لنتائج هذه المعركة هم أولئك الذين منوا بخسائر فادحة مباشرة ؛ وهم المشركون ، أو الذين كانوا يرون عزة المسلمين وغلبتهم ضرباً قاصماً على كيانهم الديني والاقتصادي ، وهم اليهود . فمنذ أن انتصر المسلمون في معركة بدر كان هذان الفريقان يحترقان غيظاً وحنقاً على المسلمين ؛ ﴿ تَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودُ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ [المائدة : ٨٢] ، وكانت في المدينة بطانة للفريقين دخلوا في الإسلام حين لم يبق مجال لعزهم إلا في الإسلام ، وهم عبد الله بن أبي وأصحابه ، ولم تكن هذه الفرقة الثالثة أقل غيظاً من الأوليين .

وكانت هناك فرقة رابعة ، وهم البدو الضاربون حول المدينة ، لم يكن يهمهم مسألة الكفر والإيمان ، ولكنهم كانوا أصحاب سلب ونهب ، فأخذهم القلق ، واضطربوا لهذا الانتصار ، وخافوا أن تقوم في المدينة دولة قوية تحول بينهم وبين اكتساب قوتهم عن طريق السلب والنهب ، فجعلوا يحقدون على المسلمين وصاروا لهم أعداء .

وتبين بهذا أن الانتصار في بدر كما كان سبباً لشوكة المسلمين وعزهم وكرامتهم كذلك كان سبباً لحقد جهات متعددة ، وكان من الطبيعي أن يتبع كل فريق ما يراه كفيلاً لإيصاله إلى غايته .

فبينما كانت المدينة وما حولها تظاهر بالإسلام ، وتأخذ في طريق المؤامرات والدسائس الخفية كانت فرقة من اليهود تعلن بالعداوة ، وتكاشف عن الحقد والغيظ ، وكانت مكة تهدد بالضرب القاصم ، وتعلن بأخذ الثأر والنقمة ، وتهتم بالتعبئة العامة جهاراً ، وترسل إلى المسلمين بلسان حالها ، تقول :

ولا بد من يوم أغرَّ مُحَجَّلٌ يطول استماعي بعده للنوادر

وفعلاً فقد قادت غزوة قاصمة إلى أسوار المدينة عرفت في التاريخ بغزوة أحد ، والتي كان لها أثر سيئ على سمعة المسلمين وهيبتهم .

وقد لعب المسلمون دوراً هاماً للقضاء على هذه الأخطار ، تظهر فيه عبقرية قيادة النبي ﷺ ، وما كان عليه من غاية التيقظ حول هذه الأخطار ، وما كان عليه من حسن التخطيط للقضاء عليها ، ونذكر في السطور الآتية صورة مصغرة منها :

غزوة بني سليم بالكدر

أول ما نقلت استخبارات المدينة إلى النبي ﷺ بعد بدر أن بني سليم وبني غطفان تحشد قواتها لغزو المدينة ، فباغتهم النبي ﷺ في مائتي راكب في عقر دارهم ، وبلغ إلى منازلهم في

موضع يقال له : الكُدْر (١) . ففر بنو سليم ، وتركوا فى الوادى خمسمائة بغير استولى عليها جيش المدينة ، وقسمها رسول الله ﷺ بعد إخراج الخمس فأصاب كل رجل بغيرين ، وأصاب غلاما يقال له : « يسار » فأعتقه .

وأقام النبى ﷺ فى ديارهم ثلاثة أيام ، ثم رجع إلى المدينة .

وكانت هذه الغزوة فى شوال سنة ٢ هـ بعد الرجوع من بدر بسبعة أيام ، أوفى المحرم للنصف منه ، واستخلف فى هذه الغزوة على المدينة سُبَاع بن عُرْفُطَةَ . وقيل : ابن أم مكتوم (٢) .

مؤامرة لاغتيال النبى ﷺ

كان من أثر هزيمة المشركين فى وقعة بدر أن استشاطوا غضباً ، وجعلت مكة تغلَى كالمِرْجَل ضد النبى ﷺ ، حتى تأمر بطلان من أبطالها أن يقضوا على مبدأ هذا الخلاف والشقاق ومثار هذا الذل والهوان فى زعمهم ، وهو النبى ﷺ .

جلس عمير بن وهب الجمحى مع صفوان بن أمية فى الحِجْر بعد وقعة بدر بيسير - وكان عمير من شياطين قريش ممن كان يؤذى النبى ﷺ وأصحابه وهم بمكة - وكان ابنه وهب بن عمير فى أسارى بدر ، فذكر أصحاب القليب ومصابهم ، فقال صفوان : والله إن فى العيش بعدهم خير .

قال له عمير : صدقت والله ، أما والله لولا دَيْنٌ علىّ ليس له عندى قضاء ، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى لركبتُ إلى محمد حتى أقتله ، فإن لى قِبَلَهُمْ عَلَةٌ ، ابنى أسير فى أيديهم .

فاغتنمها صفوان وقال : علىّ دينك ، أنا أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالى ، أواسيهم ما بقوا ، لا يسعنى شيء ويعجز عنهم .

فقال له عمير : فاكم عنى شائى وشأنك . قال : أفعل .

ثم أمر عمير بسيفه فشحذَ له وسُمٌّ ، ثم انطلق حتى قدم به المدينة ، فبينما هو على باب المسجد ينيخ راحلته رآه عمر بن الخطاب - وهو فى نفر من المسلمين يتحدثون ما أكرمهم الله به يوم بدر - فقال عمر : هذا الكلب عدو الله عمير ما جاء إلا لشر . ثم دخل على النبى ﷺ ، فقال : يا نبى الله ، هذا عدو الله عمير قد جاء متوشحاً سيفه ، قال : « فأدخله على » ، فأقبل إلى عمير فلبَّيه بحمالة سيفه ، وقال لرجال من الأنصار : ادخلوا على رسول الله ﷺ ، فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث ، فإنه غير مأمون ، ثم دخل به ، فلما رآه رسول الله ﷺ - وعمر أخذ بحمالة سيفه فى عنقه - قال : « أرسله يا عمر ، ادن يا عمير » ، فدنا

(١) الكدر ، بالضم فالسكون : طير فى لونها كدرة ، وهو ماء من مياه بنى سليم يقع فى نجد على الطريق التجارية الشرقية الحيوية بين مكة والشام .

(٢) زاد المعاد ٢ / ٩٠ ، وابن هشام ٢ / ٤٣ ، ٤٤ .

وقال : أنعموا صباحاً ، فقال النبي ﷺ : « قد أكرمنا الله بتحية خيرة من تحيتك يا عمير ، بالسلام تحية أهل الجنة » .

ثم قال : « ما جاء بك يا عمير ؟ » قال : جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم ، فأحسنوا فيه .

قال : « فما بال السيف فى عنقك ؟ » قال : قبحها الله من سيوف ، وهل أغنت عنا شيئاً ؟

قال : « اصدقنى ، ما الذى جئت له ؟ » قال : ما جئت إلا لذلك .

قال : « بل قعدت أنت وصفوان بن أمية فى الحجر ، فذكرتما أصحاب القليب من قريش ، ثم قلت : لولا دين على وعيال عندى لخرجت حتى أقتل محمداً ، فتحمل صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلنى ، والله حائل بينك وبين ذلك » .

قال عمير : أشهد أنك رسول الله ، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء ، وما ينزل عليك من الوحى ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذى هدانى للإسلام ، وساقنى هذا المساق ، ثم تشهد شهادة الحق . فقال رسول الله ﷺ : « ففهموا أحاكم فى دينه ، وأقرئوه القرآن ، وأطلقوا له أسيره » .

وأما صفوان فكان يقول : أبشروا بوقعة تأتيكم الآن فى أيام تنسيكم وقعة بدر . وكان يسأل الركبان عن عمير ، حتى أخبره راكب عن إسلامه فحلف صفوان ألا يكلمه أبداً ، ولا ينفعه بنفع أبداً .

ورجع عمير إلى مكة وأقام بها يدعو إلى الإسلام ، فأسلم على يديه ناس كثير (١) .

غزوة بني قينقاع

قدمنا بنود المعاهدة التي عقدها رسول الله ﷺ مع اليهود ، وقد كان حريصاً كل الحرص على تنفيذ ما جاء في هذه المعاهدة ، وفعلاً لم يأت من المسلمين ما يخالف حرفاً واحداً من نصوصها . ولكن اليهود الذين ملأوا تاريخهم بالغدر والخيانة ونكث العهود ، لم يلبثوا أن تمشوا مع طبائعهم القديمة ، وأخذوا في طريق الدس والمؤامرة والتحريش وإثارة القلق والاضطراب في صفوف المسلمين . وهاك مثلاً من ذلك :

نموذج من مكيدة اليهود :

قال ابن إسحاق : مر شاس بن قيس - وكان شيخاً (يهودياً) قد عسا (١) ، عظيم الكفر ، شديد الضغن على المسلمين ، شديد الحسد لهم - على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم ، يتحدثون فيه ، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام ، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية ، فقال : قد اجتمع ملأ بنى قيلة بهذه البلاد ، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار ، فأمر فتى شاباً من يهود كان معه ، فقال : اعمد إليهم ، فاجلس معهم ، ثم اذكر يوم بُعِثَ وما كان من قبله ، وأنشدكم بعض ما كانوا يقولوا فيه من الأشعار ، ففعل ، فتكلم القوم عند ذلك ، وتنازعوا وتفاخروا حتى تواتب رجلان من الحيين على الركب فتقاولا ، ثم قال أحدهما لصاحبه : إن شئتُم ردناها الآن جَذَعَةً - يعني الاستعداد لإحياء الحرب الأهلية التي كانت بينهم - وغضب الفريقان جميعاً ، وقالوا : قد فعلنا ، موعدكم الظاهرة - والظاهرة : الحرة - السلاح السلاح ، فخرجوا إليها (وكادت تنشب الحرب) .

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم فقال : « يا معشر المسلمين ، الله الله ، أبدوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام ، وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر وألف بين قلوبكم ؟ » .

فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان ، وكيد من عدوهم ، فبكوا ، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً ، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين ، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس (٢) .

هذا نموذج مما كان اليهود يفعلونه ويحاولونه من إثارة القلاقل والفتن في المسلمين ، وإقامة العراقيل في سبيل الدعوة الإسلامية ، وقد كانت لهم خطط شتى في هذا السبيل . فكانوا يبتئون الدعايات الكاذبة ، ويؤمنون وجه النهار ، ثم يكفرون آخره ؛ ليزرعوا بذور الشك في قلوب الضعفاء ، وكانوا يضيقون سبل المعيشة على من آمن إن كان لهم به ارتباط

مالى ، فإن كان لهم عليه يتقاضونه صباح مساء ، وإن كان له عليهم يأكلونه بالباطل ، ويمتنعون عن أدائه وكانوا يقولون : إنما كان علينا قرضك حينما كنت على دين آبائك ، فأما إذ صبت فليس لك علينا من سبيل (١) .

كانوا يفعلون كل ذلك قبل بدر على رغم المعاهدة التى عقدها مع رسول الله ﷺ ، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه يصبرون على كل ذلك ؛ حرصاً على رشدهم ، وعلى بسط الأمن والسلام فى المنطقة .

بنو قينقاع ينقضون العهد :

لكنهم لما رأوا أن الله قد نصر المؤمنين نصراً مؤزراً فى ميدان بدر ، وأنهم قد صارت لهم غزوة وشوكة وهيبة فى قلوب القاصى والدانى . تميزت قدر غيظهم ، وكاشفوا بالشر والعداوة ، وجأهروا بالبغى والأذى .

وكان أعظمهم حقداً وأكبرهم شراً كعب بن الأشرف - وسيأتى ذكره - كما أن شر طائفة من طوائفهم الثلاث هم يهود بنى قينقاع ، كانوا يسكنون داخل المدينة - فى حى باسمهم - وكانوا صاغة وحدادين وصناع الظروف والأوانى ، ولأجل هذه الحرف كانت قد توفرت لكل رجل منهم آلات الحرب ، وكان عدد المقاتلين فيهم سبعمائة ، وكانوا أشجع يهود المدينة ، وكانوا أول من نكث العهد والميثاق من اليهود .

فلما فتح الله للمسلمين فى بدر اشتد طغيانهم، وتوسعوا فى تحرشاتهم واستفزازاتهم، فكانوا يثيرون الشغب ، ويتعرضون بالسخرية ، ويواجهون بالأذى كل من ورد سوقهم من المسلمين حتى أخذوا يتعرضون بنسائهم .

وعندما تفاقم أمرهم واشتد بغيمهم ، جمعهم رسول الله ﷺ ، فوعظهم ودعاهم إلى الرشد والهدى، وحذرهم مغبة البغى والعدوان ، ولكنهم ازدادوا فى شرهم وغطرستهم .

روى أبو داود وغيره ، عن ابن عباس رضيهما الله عنهما قال : لما أصاب رسول الله ﷺ قريشاً يوم بدر ، وقدم المدينة جمع اليهود فى سوق بنى قينقاع . فقال : « يا معشر يهود، أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشاً » . قالوا : يا محمد ، لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفرأ من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال ، إنك لو قاتلتنا لعرفت أننا نحن الناس ، وأنت لم تلق مثلنا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيٌ وَلَهُمْ جَزَاءُ وَبُشْرُ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُكَفِّرُونَ ﴾ (٢٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنِ الثَّقَانِ فَتَةً تَقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (٢٣) ﴿ [آل عمران] (٢٢) .

كان فى معنى ما أجاب به بنو قينقاع هو الإعلان السافر عن الحرب ، ولكن كظم النبى ﷺ غيظه ، وصبر المسلمون ، وأخذوا ينتظرون ما تتمخض عنه الليالى والأيام .

وازداد اليهود - من بنى قينقاع - جراءة ، فقلما لبثوا أن أثاروا فى المدينة قلقاً واضطراباً ،

(١) ذكر المفسرون نماذج لفعلاتهم هذه فى تفسير سورة آل عمران وغيرها .

(٢) سنن أبى داود مع عون المعبود ٣/ ١١٥ ، وابن هشام ١/ ٥٥٢ .

وسعوا إلى حتفهم بظلفهم ، وسدوا على أنفسهم أبواب الحياة .

روى ابن هشام عن أبي عون: أن امرأة من العرب قدمت بجَلَبٍ لها ، فباعته في سوق بنى قينقاع ، وجلست إلى صائغ ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها ، فأبت ، فَعَمَد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها - وهى غافلة - فلما قامت انكشفت سواتنها فضحكوا بها فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله - وكان يهودياً - فشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع (١) .

الحصار ثم التسليم ثم الجلاء :

وحينئذ عيّل صبر رسول الله ﷺ ، فاستخلف على المدينة أبا لُبابة بن عبد المنذر ، وأعطى لواء المسلمين حمزة بن عبد المطلب ، وسار بجنود الله إلى بنى قينقاع ، ولما راوه تحصنوا في حصونهم ، فحاصروهم أشد الحصار ، وكان ذلك يوم السبت للنصف من شوال سنة ٢ هـ ، ودام الحصار خمس عشرة ليلة إلى هلال ذى القعدة ، وقذف الله في قلوبهم الرعب - فهو إذا أرادوا خذلان قوم وهزيمتهم أنزله عليهم وقذفه في قلوبهم - فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ في رقابهم وأموالهم ونسائهم وذريتهم ، فأمر بهم فكتفوا .

وحينئذ قام عبد الله بن أبي بن سلول بدور نفاقه ، فألح على رسول الله ﷺ أن يصدر عنهم العفو، فقال : يا محمد ، أحسن في موالى - وكان بنو قينقاع حلفاء الخزرج - فأبطأ عليه رسول الله ﷺ فكرر ابن أبي مقالته فأعرض عنه ، فأدخل يده في جيب درعه، فقال له رسول الله ﷺ : «أرسلنى»، وغضب حتى راوا لوجهه ظُللاً (٢) ، ثم قال : « ويحك ، أرسلنى » . ولكن المناق مضى على إصراره وقال : لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالى أربعمئة حاسر (٣) وثلاثمئة دارع قد منعونى من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة ؟ إنى والله امرؤ أخشى الدوائر .

وعامل رسول الله ﷺ هذا المناق - الذى لم يكن مضى على إظهار إسلامه إلا نحو شهر واحد فحسب - عامله بالحسنى . فوهبهم له ، وأمرهم أن يخرجوا من المدينة ولا يجاوروه بها ، فخرجوا إلى أذرعات الشام ، فقل أن لبثوا فيها حتى هلك أكثرهم .

وقبض رسول الله ﷺ منهم أموالهم ، فأخذ منها ثلاث قسيّ ودرعين وثلاثة أسياف وثلاثة رماح ، وخمس غنائمهم ، وكان الذى تولى جمع الغنائم محمد بن مسلمة (٤) .

غزوة السَّوِّيق

بينما كان صفوان بن أمية واليهود والمناقفون يقومون بمؤامراتهم وعملياتهم، كان أبو سفيان يفكر في عمل قليل المغارم ظاهر الأثر ، يتعجل به ؛ ليحفظ مكانة قومه ، ويبرز ما

(١) ابن هشام ٢ / ٤٧ ، ٤٨ .

(٢) كناية عن تغيير وجه النبي ﷺ .

(٣) لا درع له .

(٤) زاد المعاد ٢ / ٧١ ، ٩١ ، وابن هشام ٢ / ٤٧ - ٤٩ .

لديهم من قوة ، وكان قد نذر ألا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً ، فخرج في مائتي راكب ليبر يمينه ، حتى نزل بصدر قناة إلى جبل يقال له: ثيب ، من المدينة على بريد^(١) أو نحوه ، ولكنه لم يجرؤ على مهاجمة المدينة جهاراً ، فقام بعمل هو أشبه بأعمال القرصنة ، فإنه دخل في ضواحي المدينة في الليل مستخفياً تحت جنح الظلام ، فأتى حبي بن أخطب ، فاستفتح بابه ، فأبى وخاف ، فانصرف إلى سلام بن مشكم سيد بني النضير ، وصاحب كنزهم إذ ذاك ، فاستأذن عليه فأذن ، فقرأه وسقاه الخمر ، ويطن له من خبر الناس ، ثم خرج أبو سفيان في عقب ليلته حتى أتى أصحابه ، فبعث مفرزة منهم ، فأغارت على ناحية من المدينة يقال لها: « العريض » ، فقطعوا وأحرقوا هناك أضواءاً^(٢) من النخل ، ووجدوا رجلاً من الأنصار وحليفاً له في حرث لهما فقتلوهما ، وفروا راجعين إلى مكة .

وبلغ رسول الله ﷺ الخبر ، فسارع لمطاردة أبي سفيان وأصحابه ، ولكنهم فروا ببالغ السرعة ، وطرحوا سويقاً كثيراً من أزوادهم وتمويناتهم ، يتخفون به ، فتمكنوا من الإفلات ، وبلغ رسول الله ﷺ إلى قرقرة الكدر ، ثم انصرف راجعاً . وحمل المسلمون ما طرحه الكفار من سويقهم ، وسموا هذه المناوشة بغزوة السويق . وقد وقعت في ذي الحجة سنة ٢ هـ بعد بدر بشهرين ، واستعمل على المدينة في هذه الغزوة أبا لبابة بن عبد المنذر^(٣) .

غزوة ذي أمر

وهي أكبر حملة عسكرية قادها رسول الله ﷺ قبل معركة أحد ، قادها في المحرم سنة ٣ هـ .

وسببها أن استخبارات المدينة نقلت إلى رسول الله ﷺ أن جمعاً كبيراً من بني ثعلبة ومحارب تجمعوا ، يريدون الإغارة على أطراف المدينة ، فندب رسول الله ﷺ المسلمين ، وخرج في أربعمئة وخمسين مقاتلاً ما بين راكب وراجل ، واستخلف على المدينة عثمان بن عفان . وفي أثناء الطريق قبضوا على رجل يقال له: جبار من بني ثعلبة ، فأدخل على رسول الله ﷺ ، فدعاه إلى الإسلام فأسلم ، فضمه إلى بلال ، وصار دليلاً لجيش المسلمين إلى أرض العدو .

وتفرق الأعداء في رؤوس الجبال حين سمعوا بقدوم جيش المدينة . أما النبي ﷺ فقد وصل بجيشه إلى مكان تجمعهم ، وهو الماء المسمى « بذي أمر » فأقام هناك صفراً كله - من سنة ٣ هـ - أو قريباً من ذلك ، ليشعر الأعراب بقوة المسلمين ، ويستولى عليهم الرعب والرهبة ، ثم رجع إلى المدينة^(٤) .

(١) البريد : مسافة اثني عشر ميلاً . (٢) جماعة .

(٣) زاد المعاد ٢ / ٩٠ ، ٩١ ، وابن هشام ٢ / ٤٤ ، ٤٥ .

(٤) ابن هشام ٢ / ٤٦ ، وزاد المعاد ٢ / ٩١ ، ويذكر أن محاولة اغتيال النبي ﷺ من قبل دعثور أو غورث المحاربين كانت في هذه الغزوة . والصحيح أنها في غير هذه الغزوة ، انظر : صحيح البخاري ٥٩٣ / ٢ .

قتل كعب بن الأشرف

كان كعب بن الأشرف من أشد اليهود حنقاً على الإسلام والمسلمين ، وإيذاء لرسول الله ﷺ ، وتظاهراً بالدعوة إلى حربه .

كان من قبيلة طيم - من بنى نهبان - وأمه من بنى النضير ، وكان غنياً مترفاً معروفاً بجماله فى العرب ، شاعراً من شعرائها . وكان حصنه فى شرق جنوب المدينة خلف ديار بنى النضير .

ولما بلغه أول خبر عن انتصار المسلمين، وقتل صناديد قريش فى بدر قال : أحق هذا ؟ هؤلاء أشرف العرب ، وملوك الناس ، والله إن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها .

ولما تأكد لديه الخبر ، انبعث عدو الله يهجو رسول الله ﷺ والمسلمين ، ويمدح عدوهم ويحرضهم عليهم ، ولم يرض بهذا القدر حتى ركب إلى قريش ، فنزل على المطلب ابن أبى وداعة السهمي ، وجعل ينشد الأشعار يبكى فيها على أصحاب القلب من قتلى المشركين ، يثير بذلك حفاظهم ، ويذكرى حقدهم على النبي ﷺ ، ويدعوهم إلى حربه ، وعندما كان بمكة سأل أبو سفيان والمشركون : أديننا أحب إليك أم دين محمد وأصحابه؟ وأى الفريقين أهدى سبيلاً؟ فقال : أنتم أهدى منهم سبيلاً ، وأفضل ، وفى ذلك أنزل الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴾ [النساء] .

ثم رجع كعب إلى المدينة على تلك الحال ، وأخذ يشبب فى أشعاره بنساء الصحابة ، ويؤذيهم بسلاطة لسانه أشد الإيذاء .

وحينئذ قال رسول الله ﷺ : « من لكعب بن الأشرف ؟ فإنه أذى الله ورسوله » ، فانتدب له محمد بن مسلمة ، وعباد بن بشر ، وأبو نائلة - واسمه سلكتان بن سلامة ، وهو أخو كعب من الرضاعة - والحارث بن أوس ، وأبو عبس بن جبر ، وكان قائد هذه المفزة محمد بن مسلمة .

وتفيد الروايات فى قتل كعب بن الأشرف أن رسول الله ﷺ لما قال : « من لكعب ابن الأشرف ؟ فإنه قد أذى الله ورسوله » ، قام محمد بن مسلمة فقال : أنا يا رسول الله ، أتحب أن أقتله ؟ قال : « نعم » . قال : فائذن لى أن أقول شيئاً . قال : « قل » .

فأتاه محمد بن مسلمة ، فقال : إن هذا الرجل قد سألنا صدقة ، وإنه قد عَنَّنا (١) . قال كعب : والله لَتَمْلَنَّهُ .

قال محمد بن مسلمة : فإننا قد اتبعناه ، فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أى شىء يصير شأنه ؟ وقد أردنا أن تسلفنا وسقاً أو وسقَيْن .

قال كعب : نعم ، أرهنوني .

قال ابن مسلمة : أى شئ تريد ؟

قال : أرهنوني نساءكم .

قال : كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب ؟

قال : فترهنوني أبناءكم .

قال : كيف نرهنك أبناءنا فَيُسَبَّ أَحَدُهُمْ فيقال : رهن بوسق أو وسقين هذا عار علينا .

ولكننا نرهنك اللأمة ، يعنى السلاح .

فواعده أن يأتيه .

وصنع أبو نائلة مثل ما صنع محمد بن مسلمة ، فقد جاء كعباً فتناشد معه أطراف الأشعار

سوية ، ثم قال له : ويحك يا بن الأشرف ، إني قد جئت لحاجة أريد ذكرها لك فاكتم عني .

قال كعب : أفعل .

قال أبو نائلة : كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء ، عادتنا العرب ، ورمتنا عن قوس واحدة ،

وقطعت عنا السبل ، حتى ضاع العيال ، وجهدت الأنفس ، وأصبحنا قد جهدنا وجهد

عائلنا ، ودار الحوار على نحو ما دار مع ابن مسلمة ، وقال أبو نائلة أثناء حديثه : إن معي

أصحاباً لي على مثل رأيي ، وقد أردت أن آتيك بهم ، فتبيعهم وتحسن في ذلك .

وقد نجح ابن مسلمة وأبو نائلة في هذا الحوار إلى ما قصد ، فإن كعباً لن ينكر معهما

السلاح والأصحاب بعد هذا الحوار .

وفي ليلة مقمرة - ليلة الرابع عشر من شهر ربيع الأول سنة ٣ هـ - اجتمعت هذه المفزة

إلى رسول الله ﷺ ، فشيعهم إلى بقيع الغرقد ، ثم وجههم قائلاً : «انطلقوا على اسم الله ،

اللهم أعنهم» ، ثم رجع إلى بيته ، وطفق يصلى ويناجي ربه .

وانتهت المفزة إلى حصن كعب بن الأشرف ، فهتف به أبو نائلة ، فقام لينزل إليهم ،

فقال له امرأته - وكان حديث العهد بها : أين تخرج هذه الساعة ؟ أسمع صوتاً كأنه يقطر

منه الدم .

قال كعب : إنما هو أخى محمد بن مسلمة ، ورضيعى أبو نائلة ، إن الكريم لو دعى

إلى طعنة أجاب ، ثم خرج إليهم وهو متطيب ينفع رأسه .

وقد كان أبو نائلة قال لأصحابه : إذا ما جاء فإنى آخذ بشعره فأشمه ، فإذا رأيتموني

استمكنت من رأسه فدونكم فاضربوه ، فلما نزل كعب إليهم تحدث معهم ساعة ، ثم قال

أبو نائلة : هل لك يا بن الأشرف أن تتماشى إلى شعب العجوز فتحدث بقية ليلتنا ؟ قال :

إن شئتم ، فخرجوا يتماشون ، فقال أبو نائلة وهو فى الطريق : ما رأيت كالليلة طيباً أعطر ،

وزهى كعب بما سمع ، فقال : عندى أعطر نساء العرب ، قال أبو نائلة : أتأذن لى أن أشم

رأسك ؟ قال : نعم ، فأدخل يده فى رأسه فشمه وأشم أصحابه .

ثم مشى ساعة ثم قال : أعود ؟ قال كعب : نعم ، فعاد لمثلها . حتى اطمأن .

ثم مشى ساعة ثم قال : أعود ؟ قال : نعم ، فأدخل يده فى رأسه ، فلما استمكن منه قال : دونكم عدو الله ، فاختلفت عليه أسياهم ، لكنها لم تغن شيئاً ، فأخذ محمد بن مسلمة مغولاً^(١) فوضعه فى ثنته^(٢) ، ثم تحامل عليه حتى بلغ عاتته ، فوقع عدو الله قتيلاً ، وكان قد صاح صيحة شديدة أفزعت من حوله ، فلم يبق حصن إلا أوقدت عليه النيران .

ورجعت المفزة وقد أصيب الحارث بن أوس بذباب^(٣) بعض سيوف أصحابه فجرح ونزف الدم ، فلما بلغت المفزة حرَّ العريض رأت أن الحارث ليس معهم ، فوقفت ساعة حتى أتاهم يتبع آثارهم ، فاحتملوه ، حتى إذا بلغوا بَقِيع الغرقد كبروا ، وسمع رسول الله ﷺ تكبيرهم ، فعرف أنهم قد قتلوه ، فكبر ، فلما انتهوا إليه قال : «أفلحت الوجوه» ، قالوا : ووجهك يا رسول الله ، ورموا برأس الطاغية بين يديه ، فحمد الله على قتله ، وتفل على جرح الحارث فبرأ ، ولم يؤذ بعده^(٤) .

ولما علمت اليهود بمصرع طاغيها كعب بن الأشرف دب الرعب فى قلوبهم العنيدة ، وعلموا أن الرسول ﷺ لن يتوانى فى استخدام القوة حين يرى أن النصيح لا يجدى نفعاً لمن يريد العبث بالأمن وإثارة الاضطرابات وعدم احترام المواثيق ، فلم يحركوا ساكناً لقتل طاغيهم ، بل لزموا الهدوء ، وتظاهروا بليقاء اليهود ، واستكانوا ، وأسرع الأفاعى إلى جحورها تخبئ فيها .

وهكذا تفرغ الرسول ﷺ - إلى حين - لمواجهة الأخطار التى كان يتوقع حدوثها من خارج المدينة ، وأصبح المسلمون وقد تخفف عنهم كثير من المتاعب الداخلية التى كانوا يتوجسونها ، ويشمون رائحتها بين آونة وأخرى .

غزوة بخران

وهى دورية قتال كبيرة ، قوامها ثلاثمائة مقاتل ، قادها الرسول ﷺ فى شهر ربيع الآخر سنة ٣ هـ إلى أرض يقال لها: بخران - وهى معدن بالحجاز من ناحية الفرع - فأقام بها شهر ربيع الآخر ثم جمادى الأولى (من السنة الثالثة من الهجرة) ثم رجع إلى المدينة ، ولم يلق حرباً^(٥) .

(١) المغول : السكين .

(٢) الثنت : ما بين السرة والعانة .

(٣) ذباب السيف : طرفه .

(٤) أخذنا تفاصيل هذه الواقعة من ابن هشام ٢ / ٥١ - ٥٧ ، وصحيح البخارى ١ / ٣٤١ ، ٤٢٥ ، ٢ / ٥٧٧ ، وسنن أبى داود مع عون المعبود ٢ / ٤٢ ، ٤٣ ، وزاد المعاد ٢ / ٩١ .

(٥) ابن هشام ٢ / ٥٠ ، ٥١ ، وزاد المعاد ٢ / ٩١ ، واختلفت المصادر فى تعيين سبب هذه الغزوة . فقليل :

إن استخبارات المدينة نقلت إلى رسول الله ﷺ أن بنى سليم يحشدون قوات كبيرة لغزو المدينة أو أطرافها ، وقيل : بل خرج يريد قريشاً ، وهذا الثانى هو الذى ذكره ابن هشام واختاره ابن القيم - حتى لم يذكر الأول رأساً .

سرية زيد بن حارثة

وهي آخر وأنجح دورية للقتال قام بها المسلمون قبل أحد ، وقعت في جمادى الآخرة سنة ٣ هـ .

وتفصيلها: أن قريشاً بقيت بعد بدر يساورها القلق والاضطراب، وجاء الصيف، واقترب موسم رحلتها إلى الشام ، فأخذها هم آخر .

قال صفوان بن أمية لقريش - وهو الذي نخبته قريش في هذا العام لقيادة تجارتها إلى الشام: إن محمداً وصحبه عَوَّروا علينا متجرنا ، فما ندرى كيف نصنع بأصحابه، وهم لا يبرحون الساحل ؟ وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامتهم معه ، فما ندرى أين نسلك ؟ وإن أقمنا في دارنا هذه أكلنا رءوس أموالنا فلم يكن لها من بقاء. وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام في الصيف ، وإلى الحبشة في الشتاء .

ودارت المناقشة حول هذا الموضوع ، فقال الأسود بن عبد المطلب لصفوان : تنكب الطريق على الساحل وخذ طريق العراق - وهي طريق طويلة جداً تخترق نجداً إلى الشام ، وتمر في شرقي المدينة على بعد كبير منها ، وكانت قريش تجهل هذه الطريق كل الجهل - فأشار الأسود بن عبد المطلب على صفوان أن يتخذ فُرَات بن حَيَّان - من بنى بكر بن وائل - دليلاً له ، ويكون رائده في هذه الرحلة .

وخرجت عبر قريش يقودها صفوان بن أمية ، آخذة الطريق الجديدة ، إلا أن أنباء هذه القافلة وخطة سيرها طارت إلى المدينة . وذلك أن سَلَيْط بن النعمان - كان قد أسلم - اجتمع في مجلس شرب - وذلك قبل تحريم الخمر - مع نعيم بن مسعود الأشجعي - ولم يكن أسلم إذ ذاك - فلما أخذت الخمر من نعيم تحدث بالتفصيل عن قضية العير وخطة سيرها ، فأسرع سَلَيْط إلى النبي ﷺ يروى له القصة .

وجهر رسول الله ﷺ لوقته حملة قوامها مائة راكب في قيادة زيد بن حارثة الكلبي ، وأسرع زيد حتى دهم القافلة بغتة - على حين غرة - وهي تنزل على ماء في أرض نجد يقال له: قَرْدَة - بالفتح فالسكون - فاستولى عليها كلها ، ولم يكن من صفوان ومن معه من حرس القافلة إلا الفرار بدون أى مقاومة .

وأسر المسلمون دليل القافلة - فرات بن حيان ، وقيل : ورجلين غيره - وحملوا غنيمة كبيرة من الأواني والفضة كانت تحملها القافلة، قدرت قيمتها بمائة ألف، وقسم رسول الله ﷺ هذه الغنيمة على أفراد السرية بعد أخذ الخمس ، وأسلم فرات بن حيان على يديه ﷺ (١) .

وكانت مأساة شديدة ونكية كبيرة أصابت قريشاً بعد بدر ، اشتد لها قلق قريش وزادتها هما وحزناً . ولم يبق أمامها إلا طريقان ، إما أن تمتنع عن غطرسها وكبرياتها، وتأخذ طريق المواجهة والمصالحة مع المسلمين ، أو تقوم بحرب شاملة تعيد لها مجدها التليد ، وعزها

القديم ، وتقضى على قوات المسلمين بحيث لا يبقى لهم سيطرة على هذا ولا ذاك ، وقد اختارت مكة الطريق الثانية ، فازداد إصرارها على المطالبة بالثأر ، والتهيؤ للقاء المسلمين فى تعبئة كاملة ، وتصميمها على الغزو فى ديارهم ، فكان ذلك وما سبق من أحداث التمهيد القوى لمعركة أحد .

غزوة أحد

استعداد قريش لمعركة ناقمة :

كانت مكة تحترق غيظاً على المسلمين مما أصابها في معركة بدر من مأساة الهزيمة وقتل الصناديد والأشراف ، وكانت تخبش فيها نزعات الانتقام وأخذ الثأر ، حتى إن قريشاً كانوا قد منعوا البكاء على قتلاهم في بدر ، ومنعوا من الاستعجال في فداء الأسارى حتى لا يتفطن المسلمون مدى مأساتهم وحزنهم .

وعلى أثر غزوة بدر اتفقت قريش على أن تقوم بحرب شاملة ضد المسلمين تشفى غيظها وتروى غلة حقدّها ، وأخذت في الاستعداد للخوض في مثل هذه المعركة .

وكان عكرمة بن أبى جهل ، وصفوان بن أمية ، وأبو سفيان بن حرب ، وعبد الله بن أبى ربيعة أكثر زعماء قريش نشاطاً وتحمساً لخوض المعركة .

وأول ما فعلوه بهذا الصدد أنهم احتجزوا العير التى كان قد نجا بها أبو سفيان ، والتى كانت سبباً لمعركة بدر ، وقالوا للذين كانت فيها أموالهم : يا معشر قريش، إن محمداً قد وَتَرَكَكُمْ ^(١) وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربهِ ؛ لعلنا أن ندرك منه ثأراً، فأجابوا لذلك ، فباعوها ، وكانت ألف بعير ، والمال خمسين ألف دينار ، وفى ذلك أنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفِقُونَ أَموالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَفْضَحُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٦] .

ثم فتحوا باب التطوع لكل من أحب المساهمة فى غزو المسلمين من الأحابيش وكنانة وأهل تهامة، وأخذوا لذلك أنواعاً من طرق التحريض، حتى إن صفوان بن أمية أغرى أبا عزة الشاعر - الذى كان قد أسر فى بدر، فَمَنَّ عليه رسول الله ﷺ وأطلق سراحه بغير فدية ، وأخذ منه العهد بالألا يقوم ضده - أغراه على أن يقوم بتحريض القبائل ضد المسلمين ، وعاهده أنه إن رجع عن الغزوة حياً يغنيه ، وإلا يكفل بناته ، فقام أبو عزة بتحريض القبائل بأشعاره التى كانت تذكى حفاظهم ، كما اختاروا شاعراً آخر - مُسَافِع بن عبد مناف الجمحى - لنفس المهمة .

وكان أبو سفيان أشد تألياً على المسلمين بعدما رجع من غزوة السَّوِيق خائباً لم ينل ما فى نفسه ، بل أضاع مقداراً كبيراً من تمويناته فى هذه الغزوة .

وزاد الطينة بلة - أو زاد النار إذكاء ، إن صح هذا التعبير - ما أصاب قريشاً أخيراً فى سرية زيد بن حارثة من الخسارة الفادحة التى قصمت فقار اقتصادها ، وزودها من الحزن والهجم ما لا يقادر قدره ، وحينئذ زادت سرعة قريش فى استعدادها للخوض فى معركة تفصل بينهم وبين المسلمين .

قوام جيش قريش وقيادته :

ولما استدارت السنة كانت مكة قد استكملت عدتها ، واجتمع إليها من المشركين ثلاثة آلاف مقاتل من قريش والحلفاء والاحابيش ، ورأى قادة قريش أن يستصحبوا معهم النساء حتى يكون ذلك أبلغ في استماتة الرجال دون أن تصاب حرمانهم وأعراضهم ، وكان عدد هذه النسوة خمس عشرة امرأة .

وكان سلاح الثقليات في هذا الجيش ثلاثة آلاف بعير ، ومن سلاح الفرسان مائتا فرس^(١) ، جنوبها طول الطريق ، وكان من سلاح الوقاية سبعمائة درع . وكانت القيادة العامة إلى أبي سفيان بن حرب ، وقيادة الفرسان إلى خالد بن الوليد يعاونه عكرمة بن أبي جهل . أما اللواء فكان إلى بنى عبد الدار .

جيش مكة يتحرك :

تحرك الجيش المكي بعد هذا الإعداد التام نحو المدينة ، وكانت التارات القديمة والغيط الكامن يشعل البغضاء في القلوب ، ويشف عما سوف يقع من قتال مرير .
الاستخبارات النبوية تكشف حركة العدو :

وكان العباس بن عبد المطلب يرقب حركات قريش واستعداداتها العسكرية ، فلما تحرك هذا الجيش بعث العباس رسالة مستعجلة إلى النبي ﷺ ضمنها جميع تفاصيل الجيش .

وأُسرع رسول العباس بإبلاغ الرسالة ، وجد في السير حتى إنه قطع الطريق بين مكة والمدينة - التي تبلغ مسافتها إلى نحو خمسمائة كيلو متر - في ثلاثة أيام ، وسلم الرسالة إلى النبي ﷺ وهو في مسجد قباء .

قرأ الرسالة على النبي ﷺ أبي بن كعب ، فأمره بالكتمان ، وعاد مسرعاً إلى المدينة ، وتبادل الرأي مع قادة المهاجرين والأنصار .

استعداد المسلمين للطوارئ :

وظلت المدينة في حالة استنفار عام لا يفارق رجالها السلاح حتى وهم في الصلاة ، استعداداً للطوارئ .

وقامت مفرزة من الأنصار - فيهم سعد بن معاذ ، وأسيد بن حضير، وسعد بن عباد - بحراسة رسول الله ﷺ ، فكانوا يبيتون على بابه وعليهم السلاح . وقامت على مداخل المدينة وأنقابها مفرزات تحرسها ؛ خوفاً من أن يؤخذوا على غرة .

وقامت دوريات من المسلمين - لاكتشاف تحركات العدو - تتجول حول الطرق التي يحتمل أن يسلكها المشركون للإغارة على المسلمين .

الجيش المكي إلى أسوار المدينة :

وتابع جيش مكة سيره على الطريق الغربية الرئيسية المعتادة ، ولما وصل إلى الأبواء

(١) زاد المعاد ٢ / ٩٢ وهو المعروف ، وفي فتح الباري : مائة فرس ٧ / ٣٤٦ .

اقترحَت هند بنت عتبة - زوج أبي سفيان - بنش قبر أم رسول الله ﷺ ، بيد أن قادة الجيش رفضوا هذا الطلب، وحذروا من العواقب الوخيمة التي تلحقهم لو فتحوا هذا الباب .

ثم واصل جيش مكة سيره حتى اقترب من المدينة ، فسلك وادي العقيق ، ثم انحرف منه إلى ذات اليمين حتى نزل قريباً بجبل أحد ، في مكان يقال له : عَيْنين ، في بطن السبْخَةِ من قناة على شفير الوادي - الذي يقع شمالي المدينة بجانب أحد، فعسكر هناك يوم الجمعة السادس من شهر شوال سنة ثلاث من الهجرة .

المجلس الاستشاري لأخذ خطة الدفاع :

ونقلت استخبارات المدينة أخبار جيش مكة خيراً بعد خبر حتى الخبر الأخير عن معسكره، وحينئذ عقد رسول الله ﷺ مجلساً استشارياً عسكرياً أعلى، تبادل فيه الرأي لاختيار الموقف، وأخبرهم عن رؤيا رآها، قال : «إني قد رأيت والله خيراً ، رأيت بقرأ يذبح، ورأيت في ذُبَاب سيفي ثُلماً ، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة» ، وتأول البقر بنفر من أصحابه يقتلون ، وتأول الثلثة في سيفه برجل يصاب من أهل بيته، وتأول الدرع بالمدينة .

ثم قدم رأيهِ إلى صحابته ألا يخرجوا من المدينة وأن يتحصنوا بها ، فإن أقام المشركون بمعسكرهم أقاموا بِشْرُ مَقَامٍ وبغير جدوى ، وإن دخلوا المدينة قاتلهم المسلمون على أفواه الأزقة ، والنساء من فوق البيوت ، وكان هذا هو الرأي . ووافقهُ على هذا الرأي عبد الله بن أبي ابن سلول - رأس المنافقين - وكان قد حضر المجلس بصفته أحد زعماء الخزرج . ويبدو أن موافقته لهذا الرأي لم تكن لأجل أن هذا هو الموقف الصحيح من حيث الوجهة العسكرية ، بل ليتمكن من التبعاد عن القتال دون أن يعلم بذلك أحد، وشاء الله أن يفتضح هو وأصحابه - لأول مرة - أمام المسلمين وينكشف عنهم الغطاء الذي كان كفرهم ونفاقهم يكمن وراءه ، ويتعرف المسلمون في أخرج ساعاتهم على تلك الأفاعى التي كانت تتحرك تحت ملابسهم وأكمامهم .

فقد بادر جماعة من فضلاء الصحابة ممن فاته الخروج يوم بدر ومن غيرهم ، فأشاروا على النبي ﷺ بالخروج، وألحوا عليه في ذلك حتى قال قائلهم: يا رسول الله ، كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله ، فقد ساقه إلينا وقرب المسير ، اخرج إلى أعدائنا، لا يرون أننا جَبَنَّا عنهم .

وكان في مقدمة هؤلاء المتحمسين حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ - الذي كان قد أبلى أحسن بلاء في معركة بدر - فقد قال للنبي ﷺ : والذي أنزل عليك الكتاب لا أطعم طعاماً حتى أجالدهم بسيفي خارج المدينة (١) .

وتنازل رسول الله ﷺ عن رأيهِ مراعاة لهؤلاء المتحمسين ، واستقر الرأي على الخروج من المدينة ، واللقاء في الميدان السافر .

تكتيب الجيش الإسلامي وخروجه إلى ساحة القتال :

ثم صلى النبي ﷺ بالناس يوم الجمعة ، فوعظهم وأمرهم بالجد والاجتهاد ، وأخبر أن

لهم النصر بما صبروا ، وأمرهم بالتهيؤ لعدوهم ، ففرح الناس بذلك . ثم صلى بالناس العصر ، وقد حشدوا وحضر أهل العَوَالِي ، ثم دخل بيته ، ومعه صاحبه أبو بكر وعمر ، فعمماه وألبساه ، فتدجج بسلاحه وظاهر بين درعين (أى لبس درعا فوق درع) وتقلد السيف ، ثم خرج على الناس .

وكان الناس ينتظرون خروجه ، وقد قال لهم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير : استكرهتم رسول الله ﷺ على الخروج فردوا الأمر إليه ، فندموا جميعاً على ما صنعوا ، فلما خرج قالوا له : يا رسول الله ، ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما شئت ، إن أحبيت أن تمكث بالمدينة فافعل . فقال رسول الله ﷺ : « ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته - وهى الدرع - أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه » (١) .

وقسم النبي ﷺ جيشه إلى ثلاث كتائب :

١- كتيبة المهاجرين ، وأعطى لواءها مصعب بن عمير العبدري .

٢- كتيبة الأوس من الأنصار ، وأعطى لواءها أسيد بن حضير .

٣- كتيبة الخزرج من الأنصار ، وأعطى لواءها الحُباب بن المنذر .

وكان الجيش متألّفاً من ألف مقاتل فيهم مائة دارع ، ولم يكن فيهم من الفرسان أحد (٢) ، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم على الصلاة بمن بقى فى المدينة ، وأذن بالرحيل ، فتحرك الجيش نحو الشمال ، وخرج السعدان أمام النبي ﷺ يعدوان دارعين .

ولما جاوز ثنية الوداع رأى كتيبة حسنة التسليح منفردة عن سواد الجيش ، فسأل عنها ، فأخبر أنهم اليهود من حلفاء الخزرج (٣) يرغبون المساهمة فى القتال ضد المشركين ، فسأل : « هل أسلموا ؟ » فقالوا : لا ، فأبى أن يستعين بأهل الكفر على أهل الشرك .

استعراض الجيش :

وعندما وصل إلى مقام يقال له : « الشيخان » استعرض جيشه ، فرد من استصغره ولم يره مطيقاً للقتال ، وكان منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب وأسامة بن زيد ، وأسيد ابن ظُهَيْر ، وزيد بن ثابت ، وزيد بن أرقم ، وعَرَابَة بن أوس ، وعمر بن حزم ، وأبو سعيد الخدرى ، وزيد بن حارثة الأنصارى ، وسعد بن حَبَّة ، ويذكر فى هؤلاء البراء بن عازب ، لكن حديثه فى البخارى يدل على شهوده القتال ذلك اليوم .

وأجاز رافع بن خديج ، وسمرّة بن جندب على صغر سنهما ، وذلك أن رافع بن خديج كان ماهراً فى رماية النبل فأجازه ، فقال سمرّة : أنا أقوى من رافع ، أنا أصرعه ، فلما

(١) رواه أحمد ٣/ ٣٥١ ، والنسائى والحاكم وابن إسحاق ، وذكره البخارى فى الاعتصام فى ترجمة باب ٢٨ .

(٢) قال ابن القيم فى الهدى ٢ / ٩٢ : وخمسون فارساً . قال ابن حجر : هو غلط بين . وقد جزم موسى بن عقبة بأنه لم يكن معهم فى أحد شئ من الخيل ، ووقع عند الواقدي : كان معهم فرس لرسول الله ﷺ وفرس لأبى بردة (فتح البارى ٧ / ٣٥٠) .

(٣) روى ذلك ابن سعد ، وفيه : أنهم من بنى قينقاع (٢ / ٣٤) ، ومعلوم أن بنى قينقاع كان قد تم إجلأؤهم عقب بدر .

أخبر رسول الله ﷺ بذلك أمرهما أن يتصارعا أمامه فتصارعا ، فصرع سمرة رافعاً ، فأجاره أيضاً .

المبيت بين أحد والمدينة :

وفي هذا المكان أدرکہم المساء ، فصلی المغرب ، ثم صلی العشاء ، وبات هنالك ، واختار خمسين رجلاً لحراسة المعسكر يتجولون حوله ، وكان قائدهم محمد بن مسلمة الأنصاري ، بطل سرية كعب بن الأشرف ، وتولى ذكوان بن عبد قيس حراسة النبي ﷺ خاصة .

تمرد عبد الله بن أبي وأصحابه :

وقبل طلوع الفجر بقليل أدلج ، حتى إذا كان بالشَّوْط صلی الفجر ، وكان بمقربة جداً من العدو ، فقد كان يراهم ويرونه ، وهناك تمرد عبد الله بن أبي المنافق ، فانسحب بنحو ثلث العسكر - ثلاثمائة مقاتل - قائلاً : ما ندرى علام نقتل أنفسنا ؟ ومتظاهراً بالاحتجاج بأن الرسول ﷺ ترك رأيه وأطاع غيره .

ولا شك أن سبب هذا الانعزال لم يكن هو ما أبداه هذا المنافق من رفض رسول الله ﷺ رأيه ، وإلا لم يكن لسيره مع الجيش النبوي إلى هذا المكان معنى . ولو كان هذا هو السبب لا نزل عن الجيش منذ بداية سيره ، بل كان هدفه الرئيسي من هذا التمرد - في ذلك الظرف الدقيق - أن يحدث البلبلة والاضطراب في جيش المسلمين على مرأى ومسمع من عدوهم ، حتى ينحاز عامة الجيش عن النبي ﷺ ، وتنهار معنويات من يبقى معه ، بينما يتشجع العدو ، وتعلو همته لرؤية هذا المنظر ، فيكون ذلك أسرع إلى القضاء على النبي ﷺ وأصحابه المخلصين ، ويصحو بعد ذلك الجو لعودة الرياسة إلى هذا المنافق وأصحابه .

وكاد المنافق ينجح في تحقيق بعض ما كان يهدف إليه ، فقد همت طائفتان - بنو حارثة من الأوس ، وبنو سلمة من الخزرج - أن تفشلا ، ولكن الله تولاهما ، فثبتتا بعدما سرى فيهما الاضطراب ، وهمتا بالرجوع والانسحاب ، وعنهما يقول الله تعالى : ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢) ﴾ [آل عمران] .

وحاول عبد الله بن حرام - والد جابر بن عبد الله - تذكير هؤلاء المنافقين بواجبهم في هذا الظرف الدقيق ، فتبهم وهو يوبخهم ويحضهم على الرجوع ، ويقول : تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا ، قالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون لم نرجع ، فرجع عنهم عبد الله بن حرام قائلاً : أبعدكم الله أعداء الله ، فسيغنى الله عنكم نبيه .

وفي هؤلاء المنافقين يقول الله تعالى : ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦١) ﴾ [آل عمران] .

بقية الجيش الإسلامي إلى أحد :

وبعد هذا التمرد والانسحاب قام النبي ﷺ ببقية الجيش - وهم سبعمائة مقاتل -

ليواصل سيره نحو العدو ، وكان معسكر المشركين يحول بينه وبين أحد في مناطق كثيرة ، فقال: « من رجل يخرج بنا على القوم من كَثَبٍ (أى من قريب) من طريق لا يمر بنا عليهم ؟ » .

فقال أبو خَيْثَمَةَ : أنا يا رسول الله ، ثم اختار طريقاً قصيراً إلى أحد يمر بحرّة بنى حارثة ويزارعهم ، تاركاً جيش المشركين إلى الغرب .

ومر الجيش فى هذا الطريق بحائط مَرْبَعٍ بن قَيْطَى - وكان منافقاً ضريّر البصر - فلما أحس بالجيش قام يحثو التراب فى وجوه المسلمين ، ويقول : لا أحل لك أن تدخل حائطى إن كنت رسول الله . فابتدره القوم ليقتلوه ، فقال ﷺ : « لا تقتلوه ، فهذا الأعمى أعمى القلب أعمى البصر » .

ونفذ رسول الله ﷺ حتى نزل الشعب من جبل أحد فى عدوة الوادى ، فعسكر بجيشه مستقبلاً المدينة ، وجاعلاً ظهره إلى هضاب جبل أحد ، وعلى هذا صار جيش العدو فاصلاً بين المسلمين وبين المدينة .
خطة الدفاع :

وهناك عبأ رسول الله ﷺ جيشه ، وهياهم صفوفاً للقتال ، فاختر منهم فصيلة من الرماة الماهرين ، قوامها خمسون مقاتلاً ، وأعطى قيادتها لعبد الله بن جبير بن النعمان الأنصارى الأوسى البدرى ، وأمرهم بالتمركز على جبل يقع على الضفة الشمالية من وادى قناة - وعرف فيما بعد بجبل الرماة - جنوب شرق معسكر المسلمين ، على بعد حوالى مائة وخمسين متراً من مقر الجيش الإسلامى .

والهدف من ذلك هو ما أبداه رسول الله ﷺ فى كلماته التى ألّفها إلى هؤلاء الرماة ، فقد قال لقائدهم : « انضح الخيل عنا بالنبل ، لا يأتونا من خلفنا ، إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك ، لا تؤتين من قبلك » ^(١) وقال للرماة : « احموا ظهورنا ، فإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا ، وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشاركونا » ^(٢) ، وفى رواية البخارى أنه قال : « إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم ، وإن رأيتمونا هزمنا القوم ووطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم » ^(٣) .

بتعين هذه الفصيلة فى الجبل مع هذه الأوامر العسكرية الشديدة سد رسول الله ﷺ الثلمة الوحيدة التى كان يمكن لفرسان المشركين أن يتسللوا من ورائها إلى صفوف المسلمين ، ويقوموا بحركات الالتفاف وعملية التطويق .

أما بقية الجيش فجعل على الميمنة المنذر بن عمرو ، وجعل على الميسرة الزبير بن العوام ، يسانده المقداد بن الأسود ، وكان إلى الزبير مهمة الصمود فى وجه فرسان خالد بن

(١) ابن هشام ٢ / ٦٥ ، ٦٦ .

(٢) روى ذلك أحمد والطبرانى والحاكم عن ابن عباس . انظر : فتح البارى ٧ / ٣٥٠ .

(٣) صحيح البخارى : كتاب الجهاد ١ / ٤٢٦ .

الوليد ، وجعل فى مقدمة الصفوف نخبة ممتازة من شجعان المسلمين ورجالاتهم المشهورين بالنجدة والبسالة ، والذين يوزنون بالآلاف .

ولقد كانت خطة حكيمة ودقيقة جداً ، تتجلى فيها عبقرية قيادة النبى ﷺ العسكرية ، وأنه لا يمكن لأى قائد مهما تقدمت كفاءته أن يضع خطة أدق وأحكم من هذا ؛ فقد احتل أفضل موضع من ميدان المعركة ، مع أنه نزل فيه بعد العدو ، فإنه حمى ظهره ويمينه بارتفاعات الجبل ، وحمى ميسرته وظهره - حين يحتدم القتال - بسد الثلثة الوحيدة التى كانت توجد فى جانب الجيش الإسلامى ، واختار لمعسكره موضعاً مرتفعاً يحتوى به - إذا نزلت الهزيمة بالمسلمين - ولا يلتجئ إلى الفرار ، حتى يتعرض للوقوع فى قبضة الأعداء المطاردين وأسرهم ، ويلحق مع ذلك خسائر فادحة بأعدائه إن أرادوا احتلال معسكره وتقدموا إليه، وألجأ أعداءه إلى قبول موضع منخفض يصعب عليهم جداً أن يحصلوا على شىء من فوائدهم إن كانت الغلبة لهم ، ويصعب عليهم الإفلات من المسلمين المطاردين إن كانت الغلبة للمسلمين ، كما أنه عوض النقص العدى فى رجاله باختيار نخبة ممتازة من أصحابه الشجعان البارزين .

وهكذا تمت تعبئة الجيش النبوى صباح يوم السبت السابع من شهر شوال سنة ٣هـ .

الرسول ﷺ ينفث روح البسالة فى الجيش :

ونهى الرسول ﷺ الناس عن الأخذ فى القتال حتى يأمرهم ، وظاهر بين درعين^(١) ، وحرص أصحابه على القتال ، وحضهم على المصابرة والجلاد عند اللقاء ، وأخذ ينفث روح الحماسة والبسالة فى أصحابه حتى جرد سيفاً باتراً ونادى أصحابه : « من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ » ، فقام إليه رجال ليأخذوه - منهم على بن أبى طالب ، والزبير بن العوام ، وعمر بن الخطاب - حتى قام إليه أبو دجانة سمك بن خرشة ، فقال : وما حقه يا رسول الله ؟ قال : « أن تضرب به وجوه العدو حتى ينحني » . قال : أنا آخذه بحقه يا رسول الله ، فأعطاه إياه .

وكان أبو دجانة رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب ، وكانت له عصابة حمراء إذا اعتصب بها علم الناس أنه سيفاتل حتى الموت . فلما أخذ السيف عصب رأسه بتلك العصابة ، وجعل يتبخر بين الصفين ، وحينئذ قال رسول الله ﷺ : « إنها لمشية يبغضها الله إلا فى مثل هذا الموطن » .

تعبئة الجيش المكى :

أما المشركون فعباؤا جيشهم حسب نظام الصفوف ، فكانت القيادة العامة إلى أبى سفيان صخر بن حرب الذى تركز فى قلب الجيش ، وجعلوا على الميمنة خالد بن الوليد - وكان إذ ذاك مشركاً - وعلى الميسرة عكرمة بن أبى جهل ، وعلى المشاة صفوان بن أمية ، وعلى رماة النبل عبد الله بن أبى ربيعة .

أما اللواء فكان إلى مفرزة من بنى عبد الدار ، وقد كان ذلك منصبهم منذ أن اقتسمت

(١) أى لبس درعا فوق درع .

بنو عبد مناف المناصب التي ورثوها من قصي بن كلاب - كما أسلفنا في أوائل الكتاب - وكان لا يمكن لأحد أن ينازعهم في ذلك ؛ تقيداً بالتقاليد التي ورثوها كابراً عن كابر ، بيد أن القائد العام - أبا سفيان - ذكرهم بما أصاب قريشاً يوم بدر حين أسر حامل لوائهم النضر بن الحارث ، وقال لهم - ليستفز غضبهم ويثير حميتهم : يا بني عبد الدار ، قد وليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم، وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم، وإذا زالت زالوا ، فإما أن تكفونا لواءنا، وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه .

ونجح أبو سفيان في هدفه ، فقد غضب بنو عبد الدار لقول أبي سفيان أشد الغضب ، وهما به وتواعده وقالوا له : نحن نسلم إليك لواءنا ؟ ستعلم غداً إذا التقينا كيف نصنع . وقد ثبتوا عند احتدام المعركة حتى أبعدوا عن بكرة أبيهم .
مناورات سياسية من قبل قريش :

وقبيل نشوب المعركة حاولت قريش إيقاع الفرقة والنزاع داخل صفوف المسلمين . فقد أرسل أبو سفيان إلى الأنصار يقول لهم : خلوا بيننا وبين ابن عمنا فننصرف عنكم ، فلا حاجة لنا إلي قتالكم . ولكن أين هذه المحاولة أمام الإيمان الذي لا تقوم له الجبال ، فقد رد عليه الأنصار رداً عنيماً ، وأسمعوه ما يكره .

واقتربت ساعة الصفر ، وتدانست الفتتان ، فقامت قريش بمحاولة أخرى لنفس الغرض ، فقد خرج إلى الأنصار عميل خائن يسمى أبا عامر الفاسق - واسمه عبد عمرو بن صَيْفِي ، وكان يسمى الراهب ، فسماه رسول الله ﷺ الفاسق، وكان رأس الأوس في الجاهلية ، فلما جاء الإسلام شَرِقَ به (١) ، وجاهر رسول الله ﷺ بالعداوة ، فخرج من المدينة وذهب إلى قريش يؤلبهم على رسول الله ﷺ ويحرضهم على قتاله ، ووعدهم بأن قومه إذا رأوه أطاعوه ، ومالوا معه - فكان أول من خرج إلى المسلمين في الأحابيش وعبدان أهل مكة . فنادى قومه وتعرف عليهم ، وقال : يا معشر الأوس ، أنا أبو عامر . فقالوا : لا أنعم الله بك عينا يا فاسق . فقال : لقد أصاب قومي بعدى شر . (ولما بدأ القتال قاتلهم قتالاً شديداً وراضخهم بالحجارة) .

وهكذا فشلت قريش في محاولتها الثانية للتفريق بين صفوف أهل الإيمان . ويدل عملهم هذا على ما كان يسيطر عليهم من خوف المسلمين وهيتهم ، مع كثرتهم وتفوقهم في العدد والعدة .

جهود نسوة قريش في التحميس :

وقامت نسوة قريش بنصيهن من المشاركة في المعركة ، تقودهن هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان ، فكن يتجولن في الصفوف ، ويضربن بالدفوف ؛ يستنهضن الرجال، ويحرضن على القتال ، ويثرن حفاظ الأبطال ، ويحركن مشاعر أهل الطعان والضراب والنضال ، فتارة يخاطبن أهل اللواء فيقلن :

(١) يقال : شَرِقَ بِرَبِيقِهِ : أَىْ غَصَّ .

ويها بنى عبد الدار

ويها حُماة الأدبار

ضرباً بكل بتار

وتارة يَأْزَن قومهن على القتال وينشدن :

إِنْ تُقْبِلُوا نُعَانِقْ

وَنَفْرِشُ النَّمَارِقْ

أَوْ تُدْبِرُوا نُفَارِقْ

فراق غير وَاَمَقْ (١)

أول وقود المعركة :

وتقارب الجمعان وتدانست الفئتان ، وأنت مرحلة القتال ، وكان أول وقود المعركة حامل لواء المشركين طلحة بن أبي طلحة العبدري ، وكان من أشجع فرسان قريش ، يسميه المسلمون كبش الكتبية . خرج وهو راكب على جمل يدعو إلى المبارزة ، فأحجم عنه الناس لفرط شجاعته ، ولكن تقدم إليه الزبير ولم يمهله ، بل وثب إليه وثبة الليث حتى صار معه على جملة ، ثم اقتحم به الأرض فألقاه عنه وذبحه بسيفه .

ورأى النبي ﷺ هذا الصراع الرائع فكبر ، وكبر المسلمون وأثنى على الزبير ، وقال في حقه : « إِنْ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا ، وَحَوَارِيُّ الزَّبِيرِ » (٢) .

ثقل المعركة حول اللواء وإبادة حملته :

ثم اندلعت نيران المعركة ، واشتد القتال بين الفريقين في كل نقطة من نقاط الميدان ، وكان ثقل المعركة يدور حول لواء المشركين ، فقد تعاقب بنو عبد الدار لحمل اللواء بعد قتل قائدهم طلحة بن أبي طلحة ، فحملة أخوه أبو شيبه عثمان بن أبي طلحة ، وتقدم للقتال وهو يقول :

إِنَّ عَلَى أَهْلِ اللِّوَاءِ حَقًّا أَنْ تُخَضَّبَ الصَّعْدَةُ (٣) أَوْ تَنْدَقًا

فحمل عليه حمزة بن عبد المطلب فضربه على عاتقه ضربة بترت يده مع كتفه ، حتى وصلت إلى سرتة ، فبانت رثته .

ثم رفع اللواء أبو سعد بن أبي طلحة ، فرماه سعد بن أبي وقاص بسهم أصاب حنجرتة ، فأدْلَعُ (٤) لسانه ومات لحينه . وقيل : بل خرج أبو سعد يدعو إلى البراز ، فتقدم إليه على بن أبي طالب ، فاختلفا ضربتين ، فضربه على فقتله .

ثم رفع اللواء مُسَاعِفُ بن طلحة بن أبي طلحة ، فرماه عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح بسهم فقتله ، فحمل اللواء بعده أخوه كِلَابُ بن طلحة بن أبي طلحة ، فانقض عليه الزبير

(٢) ذكره صاحب السيرة الحلبية ٢ / ١٨ .

(٤) خرج .

(١) الواثق : المحب .

(٣) الصعداء : الفتاة .

ابن العوام وقاتله حتى قتله ، ثم حمل اللواء أخوهما الجَلَّاس بن طلحة بن أبي طلحة ، فطعنه طلحة بن عبيد الله طعنة قضت على حياته . وقيل : بل رماه عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح بسهم فقتل عليه .

هؤلاء ستة نفر من بيت واحد، بيت أبي طلحة عبد الله بن عثمان بن عبد الدار ، قتلوا جميعاً حول لواء المشركين، ثم حملة من بنى عبد الدار أربطة بن شُرْحَيْل ، فقتله على بن أبي طالب ، وقيل : حمزة بن عبد المطلب، ثم حملة شُرَيْح بن قارظ فقتله قُرْمَان - وكان منافقاً قاتل مع المسلمين حمية ، لا عن الإسلام - ثم حملة أبو زيد عمرو بن عبد مناف العبدي ، فقتله قزمان أيضاً ، ثم حملة ولد لشرحيل بن هاشم العبدي فقتله قزمان أيضاً .

فهؤلاء عشرة من بنى عبد الدار - من حملة اللواء - أبعدوا عن آخرهم ، ولم يبق منهم أحد يحمل اللواء . فتقدم غلام لهم حبشى - اسمه صُؤَاب - فحمل اللواء ، وأبدي من صنوف الشجاعة والثبات ما فاق به مواليه من حملة اللواء الذين قتلوا قبله ، فقد قاتل حتى قطعت يده ، فبرك على اللواء ب صدره وعنقه ؛ لثلا يسقط ، حتى قتل وهو يقول : اللّٰهُم هل أعزرت ؟ يعنى هل أعذرت ؟ .

وبعد أن قتل هذا الغلام - صُؤَاب - سقط اللواء على الأرض ، ولم يبق أحد يحمله ، فبقى ساقطاً .

القتال فى بقية النقاط :

وبينما كان ثقل المعركة يدور حول لواء المشركين كان القتال الميرير يجرى فى سائر نقاط المعركة ، وكانت روح الإيمان قد سادت صفوف المسلمين ، فانطلقوا خلال جنود الشرك انطلاق الفيزان تتقطع أمامه السدود ، وهم يقولون : « أمت ، أمت » كان ذلك شعاراً لهم يوم أحد .

أقبل أبو دُجَانَة معلماً بعصابته الحمراء ، أخذاً بسيف رسول الله ﷺ ، مصمماً على أداء حقه ، فقاتل حتى أمعن فى الناس ، وجعل لا يلقى مشركاً إلا قتله ، وأخذ يهد صفوف المشركين هذا . قال الزبير بن العوام : وجدت فى نفسى حين سألت رسول الله ﷺ السيف فمنعني ، وأعطاه أبا دجانة ، وقلت - أى فى نفسى : أنا ابن صفية عمته ، ومن قريش ، وقد قمت إليه ، فسألت إياه قبله فاتاه إياه وتركنى ، والله لأنظرن ما يصنع ؟ فاتبعته ، فأخرج عصابة له حمراء فعصب بها رأسه ، فقالت الأنصار : أخرج أبو دجانة عصابة الموت ، فخرج وهو يقول :

أنا الذى عاهدنى خليلى ونحن بالسَّفْح لَدَى النَّخِيلِ

ألا أقوم الدَّهْرَ فى الكَيْوَلِ (١) أَضْرِبْ بِسَيْفِ الله والرسول

فجعل لا يلقى أحداً إلا قتله ، وكان فى المشركين رجل لا يدع لنا جريحاً إلا دَفَّفَ

(١) الكَيْوَل : آخر الصفوف يعنى أنه لا يقاتل فى مؤخرة الصفوف ، بل يظل أبداً فى المقدمة .

عليه (١) ، فجعل كل واحد منهما يدنو من صاحبه ، فدعوت الله أن يجمع بينهما فالتقيا ، فاختلفا ضربتين ، فضرب المشرك أبا دجانة فاتقاه بدرقته ، فَعَصَّتْ سَيْفَهُ ، فضربه أبو دجانة فقتله (٢) .

ثم أمعن أبو دجانة في هذ الصفوف ، حتى خلص إلى قائدة نسوة قريش ، وهو لا يدري بها . قال أبو دجانة : رأيت إنساناً يَخْمَشُ (٣) الناس خمشاً شديداً ، فصمدت له (٤) ، فلما حملت عليه السيف ولَوَّلَ ، فإذا امرأة ، فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة .

وكانت تلك المرأة هي هند بنت عتبة . قال الزبير بن العوام : رأيت أبا دجانة قد حمل السيف على مفرق رأس هند بنت عتبة ، ثم عدل السيف عنها ، فقلت : الله ورسوله أعلم (٥) .

وقاتل حمزة بن عبد المطلب قتال الليث المحتاجة ، فقد اندفع إلى قلب جيش المشركين يغامر مغامرة منقطعة النظير ، ينكشف عنه الأبطال كما تتطاير الأوراق أمام الرياح الهوجاء ، فبالإضافة إلى مشاركته الفعالة في إبادة حاملي لواء المشركين فعل الأفاعيل بأبطالهم الآخرين ، حتى صرع وهو في مقدمة المبرزين ، ولكن لا كما تصرع الأبطال وجهاً لوجه في ميدان القتال ، وإنما كما يغتال الكرام في حلك الظلام .

مصراع أسد الله حمزة بن عبد المطلب :

يقول قاتل حمزة وحشِيُّ بن حرب : كنت غلاماً لجير بن مُطْعِم ، وكان عمه طُعَيْمَةَ بن عدى قد أصيب يوم بدر ، فلما سارت قريش إلى أحد قال لى جبير : إنك إن قتلت حمزة عم محمد بعمى فأنت عتيق . قال : فخرجت مع الناس - وكنت رجلاً حبشياً أقذف بالحربة قذف الحبشة ، قلما أخطئ بها شيئاً - فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصره ، حتى رأيته في عرض الناس مثل الجمل الأورق ، يَهْدُ الناس هدأ ما يقوم له شيء . فوالله إنى لأنتهيأ له أريده ، فأستتر منه بشجرة أو حجر ليدنو منى إذ تقدمنى إليه سِبَاع بن عبد العزى ، فلما رآه حمزة قال له : هلم إلى يابن مَقْطَعَةَ البُظُور - وكانت أمه ختانة - قال : فضربه ضربة كأنما أخطأ رأسه (٦) .

قال : وهزرت حربتي حتى إذا رضيت منها دفعتها إليه ، فوقع في ثُتَّة - أحشائه - حتى خرجت من بين رجله ، وذهب لينوء نحوى فَعُلبَ ، وتركته وإياها حتى مات ، ثم أتيته فأخذت حربتي ، ثم رجعت إلى العسكر فقعدت فيه ، ولم يكن لى بغيره حاجة ، وإنما قتلته لأعتق ، فلما قدمت مكة عتقت (٧) .

(١) أجهز عليه وأسرع قتله .

(٢) ابن هشام ٢ / ٦٨ ، ٦٩ .

(٣) يشجع على القتال .

(٤) قصدت نحوه .

(٥) أخطأ رأسه : يقال عند المبالغة في الإصابة .

(٦) ابن هشام ٢ / ٦٩ - ٧٢ ، صحيح البخارى ٢ / ٥٨٣ - أسلم وحشى هذا بعد معركة الطائف ، وقتل

مسيلم الكذاب بحربه تلك ، وشهد اليرموك ضد الرومان .

السيطرة على الموقف :

وبرغم هذه الخسارة الفادحة التي لحقت المسلمين بقتل أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب ، ظل المسلمون مسيطرين على الموقف كله . فقد قاتل يومئذ أبو بكر ، وعمر ابن الخطاب ، وعلى بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، ومصعب بن عمير ، وطلحة بن عبيد الله ، وعبد الله بن جحش ، وسعد بن معاذ ، وسعد بن عباد ، وسعد بن الربيع ، وأنس بن النضر وأمثالهم قتالاً فلَّ عزائم المشركين ، وفتَّ في أعضادهم .

من أحضان المرأة إلى مقارعة السيوف والدرقة :

وكان من الأبطال المغامرين يومئذ حَنْظَلَةُ الغَسِيل - وهو حنظلة بن أبي عامر، وأبو عامر هذا هو الراهب الذي سُمي بالفاسق ، والذي مضى ذكره قريباً - كان حنظلة حديث عهد بالعرس ، فلما سمع هواتف الحرب وهو على امرأته انخلع من أحضانها، وقام من فوره إلى الجهاد ، فلما التقى بجيش المشركين في ساحة القتال أخذ يشق الصفوف حتى خلص إلى قائد المشركين أبي سفيان صخر بن حرب ، وكاد يقضى عليه لولا أن أتاح الله له الشهادة ، فقد شد على أبي سفيان ، فلما استعلاه وتمكن منه رآه شداد بن الأسود فضربه حتى قتله .

نصيب فصيلة الرماة في المعركة :

وكانت للفصيلة التي عينها الرسول ﷺ على جبل الرماة يد بيضاء في إدارة دفعة القتال لصالح الجيش الإسلامي ، فقد هجم فرسان مكة بقيادة خالد بن الوليد يسانده أبو عامر الفاسق ثلاث مرات؛ ليحطموا جناح الجيش الإسلامي الأيسر ، حتى يتسربوا إلى ظهور المسلمين ، فيحدثوا البلبلة والارتباك في صفوفهم وينزلوا عليهم هزيمة ساحقة ، ولكن هؤلاء الرماة رشقوهم بالنبل حتى فشلت هجماتهم الثلاث (١) .

الهزيمة تنزل بالمشركين :

هكذا دارت رحى الحرب الزبُون ، وظل الجيش الإسلامي الصغير مسيطراً على الموقف كله حتى خارت عزائم أبطال المشركين ، وأخذت صفوفهم تتبدد عن اليمين والشمال والأمام والخلف ، كأن ثلاثة آلاف مشرك يواجهون ثلاثين ألف مسلم لا بضع مئات قلائل ، وظهر المسلمون في أعلى صور الشجاعة واليقين .

وبعد أن بذلت قريش أقصى جهدها لسد هجوم المسلمين أحست بالعجز والخور ، وانكسرت همتها - حتى لم يجترئ أحد منها أن يدنو من لوائها الذي سقط بعد مقتل صُواب فيحمله ليدور حوله القتال - فأخذت في الانسحاب ، ولجأت إلى الفرار ، ونسيت ما كانت تتحدث به في نفوسها من أخذ الثأر والوتر والانتقام ، وإعادة العز والمجد والوقار .

قال ابن إسحاق : ثم أنزل الله نصره على المسلمين ، وصدقهم وعده ، فذهبواهم بالسيوف حتى كشفوهم عن المعسكر ، وكانت الهزيمة لاشك فيها .

روى عبد الله بن الزبير عن أبيه أنه قال: والله لقد رأيتني أنظر إلى خَدَم - سوق - هند بنت عتبة وصواحبه مشمرات هوارب، ما دون أخذهن قليل ولا كثير... إلخ (١).

وفى حديث البراء بن عازب عند البخارى فى الصحيح : فلما لقيناهم هربوا حتى رأيت النساء يشتددن فى الجبل ، يرفعن سوقهن قد بدت خلاخيلهن (٢) . وتبع المسلمون المشركين يضعون فيهم السلاح ويتهبون الغنائم .

غلطة الرماة الفظيعة :

وبينما كان الجيش الإسلامى الصغير يسجل مرة أخرى نصراً ساحقاً على أهل مكة لم يكن أقل روعة من النصر الذى اكتسبه يوم بدر ، وقعت من أغلبية فصيلة الرماة غلطة فظيعة قلبت الوضع تماماً ، وأدت إلى إلحاق الخسائر الفادحة بالمسلمين ، وكادت تكون سبباً فى مقتل النبى ﷺ ، وقد تركت أسوأ أثر على سمعتهم ، وعلى الهبة التى كانوا يتمتعون بها بعد بدر .

لقد أسلفنا نصوص الأوامر الشديدة التى أصدرها رسول الله ﷺ إلى هؤلاء الرماة، بلزومهم موقفهم من الجبل فى كل حال من النصر أو الهزيمة ، ولكن على رغم هذه الأوامر المشددة لما رأى هؤلاء الرماة أن المسلمين يتهبون غنائم العدو غلبت عليهم أثارة من حب الدنيا ، فقال بعضهم لبعض: الغنمة ، الغنمة ، ظهر أصحابكم ، فما تنتظرون ؟

أما قائدهم عبد الله بن جبير ، فقد ذكرهم أوامر الرسول ﷺ ، وقال : أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ ؟

ولكن الأغلبية الساحقة لم تلق لهذا التذكير بالاً ، وقالت: والله لنأتين الناس فلنصين من الغنمة (٣). ثم غادر أربعون رجلاً أو أكثر هؤلاء الرماة مواقعهم من الجبل ، والتحقوا بسواد الجيش ليشاركوه فى جمع الغنائم. وهكذا خلت ظهور المسلمين، ولم يبق فيها إلا ابن جبير وتسعة أو أقل من أصحابه والتزموا مواقعهم مصممين على البقاء حتى يؤذن لهم أو يبادوا .

خالد بن الوليد يقوم بخطة تطويق الجيش الإسلامى :

وانتهز خالد بن الوليد هذه الفرصة الذهبية ، ففكر بسرعة خاطفة إلى جبل الرماة ليدور من خلفه إلى مؤخرة الجيش الإسلامى ، فلم يلبث أن أباد عبد الله بن جبير وأصحابه إلا البعض الذين لحقوا بالمسلمين ، ثم انقض على المسلمين من خلفهم ، وصاح فرسانه صيحة عرف بها المشركون المهزومون بالتطور الجديد فانقلبوا على المسلمين، وأسرع امرأة منهم - وهى عمرة بنت علقمة الحارثية - فرفعت لواء المشركين المطروح على التراب ، فالتف حوله المشركون ولاثوا به ، وتنادى بعضهم بعضاً ، حتى اجتمعوا على المسلمين ، وثبتوا للقتال ، وأحيط المسلمون من الأمام والخلف ، ووقعوا بين شقَى الرحى .

(١) صحيح البخارى ٥٧٩ / ٢ .

(٢) ابن هشام ٧٧ / ٢ .

(٣) روى ذلك البخارى من حديث البراء بن عازب ١ / ٤٢٦ .

موقف الرسول الباسل إزاء عمل التطويق :

وكان رسول الله ﷺ حينئذ في مفرزة صغيرة - تسعة نفر من أصحابه (١) - في مؤخرة المسلمين (٢)، كان يرقب مجالدة المسلمين ومطاردتهم المشركين؛ إذ بوغت بفرسان خالد مباغته كاملة ، فكان أمامه طريقان : إما أن ينجو - بالسرعة - بنفسه وبأصحابه التسعة إلى ملجأ مأمون ، ويترك جيشه المطوق إلى مصيره المقدور ، وإما أن يخاطر بنفسه فيدعو أصحابه ليجمعهم حوله ، ويتخذ بهم جبهة قوية يشق بها الطريق لجيشه المطوق إلى هضاب أحد .

وهناك تجلت عبقرية الرسول ﷺ وشجاعته المنقطعة النظير، فقد رفع صوته ينادي أصحابه : « إلى عباد الله » ، وهو يعرف أن المشركين سوف يسمعون صوته قبل أن يسمعه المسلمون ، ولكنه ناداهم ودعاهم مخاطراً بنفسه في هذا الظرف الدقيق .
وفعلأ فقد علم به المشركون فخلصوا إليه ، قبل أن يصل إليه المسلمون .

تبدد المسلمين في الموقف :

أما المسلمون فلما وقعوا في التطويق طار صواب طائفة منهم ، فلم تكن تهمها إلا أنفسهم ، فقد أخذت طريق الفرار ، وتركت ساحة القتال ، وهي لا تدري ماذا وراءها؟ وفر من هذه الطائفة بعضهم إلى المدينة حتى دخلها ، وانطلق بعضهم إلى ما فوق الجبل .

ورجعت طائفة أخرى فاختلطت بالمشركين ، والتبس العسكران فلم يتميزا ، فوقع القتل في المسلمين بعضهم من بعض . روى البخاري عن عائشة قالت : لما كان يوم أحد هزم المشركون هزيمة بينة ، فصاح إبليس : أى عباد الله أخراكم - أى احترزوا من ورائكم - فرجعت أولاهم فاجتلدت هى وأخراهم ، فبصر حذيفة ، فإذا هو بأبيه اليمان ، فقال : أى عباد الله أبى أبى . قالت : فوالله ما احتجزوا عنه حتى قتلوه ، فقال حذيفة : يغفر الله لكم . قال عروة: فوالله ما زالت في حذيفة بقية خير حتى لحق بالله (٣) .

وهذه الطائفة حدث داخل صفوفها ارتباك شديد، وعمتها الفوضى، وتاه منها الكثيرون؛ لا يدرون أين يتوجهون ، وبينما هم كذلك إذ سمعوا صائحاً يصيح: إن محمداً قد قتل ، فطارت بقية صوابهم ، وانهارت الروح المعنوية أو كادت تنهار في نفوس كثير من أفرادها ، فتوقف من توقف منهم عن القتال ، وألقى بأسلحته مستكيناً، وفكر آخرون في الاتصال بعبد الله بن أبى - رأس المنافقين - ليأخذ لهم الأمان من أبى سفيان. ومر بهؤلاء أنس بن النضر ، وقد ألقوا ما بأيديهم فقال : ما تنتظرون ؟ فقالوا : قتل رسول الله ﷺ ، قال : ما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ ، ثم قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ، يعنى المسلمين، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء، يعنى المشركين ، ثم تقدم

(١) في صحيح مسلم (٢ / ١٠٧) أنه ﷺ أفرد يوم أحد في سبعة من الأتصار ورجلين من قريش .

(٢) يدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ ﴾ .

(٣) صحيح البخاري ١ / ٥٣٩ ، ٢ / ٥٨١ ، وفتح الباري ٧ / ٣٥١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ وذكر غير البخاري أن رسول الله ﷺ أراد أن يديه . فقال حذيفة : تصدقت بديته على المسلمين ، فزاد ذلك حذيفة خيراً عند النبي ﷺ .

فلقيه سعد بن معاذ، فقال: أين يا أبا عمر؟ فقال أنس: وإها لريح الجنة يا سعد، إنى أجده دون أحد، ثم مضى فقاتل القوم حتى قتل، فما عرف حتى عرفته أخته - بعد نهاية المعركة - بينانه، وبه بضع وثمانون ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم (١).

ونادى ثابت بن الدحداح قومه فقال: يا معشر الأنصار، إن كان محمد قد قتل، فإن الله حى لا يموت، قاتلوا على دينكم، فإن الله مظفركم وناصركم. فنهض إليه نفر من الأنصار، فحمل بهم على كتيبة فرسان خالد فما زال يقاتلهم حتى قتله خالد بالرمح، وقتل أصحابه (٢).

ومر رجل من المهاجرين برجل من الأنصار، وهو يتشحط في دمه، فقال: يا فلان، أشعرت أن محمداً قد قتل؟ فقال الأنصارى: إن كان محمد قد قتل فقد بلغ، فقاتلوا عن دينكم (٣).

وبمثل هذا الاستبسال والتشجيع عادت إلى جنود المسلمين روحهم المعنوية، ورجع إليهم رشدهم وصوابهم، فعدلوا عن فكرة الاستسلام أو الاتصال بابن أبى، وأخذوا سلاحهم، يهاجمون تيارات المشركين، وهم يحاولون شق الطريق إلى مقر القيادة، وقد بلغهم أن خبر مقتل النبى ﷺ كذب مختلق، فزادهم ذلك قوة على قوتهم، فنجحوا فى الإفلات عن التطويق، وفى التجمع حول مركز منيع، بعد أن باشروا القتال المرير، وجالدوا بضراوة بالغة.

وكانت هناك طائفة ثالثة لم يكن يهمهم إلا رسول الله ﷺ. فقد كرت هذه الطائفة إلى رسول الله ﷺ، وعمل التطويق فى بدايته، وفى مقدمة هؤلاء أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعلى بن أبى طالب وغيرهم ﷺ كانوا فى مقدمة المقاتلين، فلما أحسوا بالخطر على ذاته الشريفة - عليه الصلاة والسلام - والتحية - صاروا فى مقدمة المدافعين. احتدام القتال حول رسول الله ﷺ:

وبينما كانت تلك الطوائف تتلقى أوامر التطويق، وتطحن بين شقى رَحَى المشركين، كان العراك محتدماً حول رسول الله ﷺ، وقد ذكرنا أن المشركين لما بدءوا عمل التطويق لم يكن مع رسول الله ﷺ إلا تسعة نفر، فلما نادى المسلمين: «هلموا إلى»، أنا رسول الله، سمع صوته المشركون وعرفوه، فكروا إليه وهاجموه، ومالوا إليه بثقلهم قبل أن يرجع إليه أحد من جيش المسلمين، فجرى بين المشركين وبين هؤلاء نفر التسعة من الصحابة عراك عنيف ظهرت فيه نوادر الحب والتفانى والبسالة والبطولة.

روى مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ أفرد يوم أحد فى سبعة من الأنصار ورجلين من قريش، فلما رهقوه قال: «من يردهم عنا وله الجنة؟ أو هو رفيقى فى الجنة؟» فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل ثم رهقوه أيضاً فقال: «من يردهم عنا وله الجنة، أو هو رفيقى فى الجنة؟» فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل، فلم يزل كذلك حتى

(١) زاد المعاد ٢ / ٩٣، ٩٦، صحيح البخارى ٢ / ٥٧٩.

(٢) زاد المعاد ٢ / ٩٦.

(٣) السيرة الحلبية ٢ / ٢٢.

قتل السبعة ، فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه - أى القرشيين : « ما أنصفنا أصحابنا » (١) .
وكان آخر هؤلاء السبعة هو عمارة بن يزيد بن السَّكَن ، قاتل حتى أثبتته الجراحة فسقط (٢) .

أخرج ساعة فى حياة الرسول ﷺ :

وبعد سقوط ابن السكن بقى الرسول فى القرشيين فقط ، ففى الصحيحين عن أبى عثمان قال : لم يبق مع النبى ﷺ فى بعض تلك الأيام التى يقاتل فيهن غير طلحة بن عبيد الله وسعد (بن أبى وقاص) (٣) . وكانت أخرج ساعة بالنسبة إلى حياة رسول الله ﷺ ، وفرصة ذهبية بالنسبة إلى المشركين ، ولم يتوان المشركون فى انتهاز تلك الفرصة ، فقد ركزوا حملتهم على النبى ﷺ ، وطمعوا فى القضاء عليه ، رماه عتبة ابن أبى وقاص بالحجارة فوقع لشقه ، وأصبحت رباعيته اليمنى السفلى ، وكُلِمَتْ شفته السفلى ، وتقدم إليه عبد الله بن شهاب الزهرى فَشَجَّه فى جبهته ، وجاء فارس عنيد هو عبد الله بن قَمَيْة ، فضرب على عاتقه بالسيف ضربة عنيفة شكا لأجلها أكثر من شهر إلا أنه لم يتمكن من هتك الدرعين ، ثم ضرب على وجته ضربة أخرى عنيفة كالأولى حتى دخلت حلقتان من حلق المغفر فى وجته ، وقال : خذها وأنا ابن قمنة . فقال رسول الله ﷺ وهو يمسح الدم عن وجهه : « أَمَّا كَ اللهُ » (٤) .

وفى الصحيح أنه ﷺ كسرت رباعيته ، وشُجَّ فى رأسه ، فجعل يَسْلُتُ الدم عنه ويقول : « كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم ، وكسروا رباعيته ، وهو يدعوهم إلى الله » ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (١٢٨) [آل عمران (٥)] .

وفى رواية الطبرانى أنه قال يومئذ : « اشتد غضب الله على قوم دموا وجه رسوله » ، ثم مكث ساعة ثم قال : « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » (٦) ، وفى صحيح مسلم أنه قال : « رب اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » (٧) ، وفى الشفاء للقاضى عياض أنه قال : « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون » (٨) .

(١) صحيح مسلم : باب غزوة أحد ١٠٧ / ٢ .

(٢) وبعد لحظة قامت إلى رسول الله ﷺ فئة من المسلمين فأجهضوا الكفار عن عمارة ، وأذنوه من رسول الله ﷺ فوسده قدمه ، فمات وخده على قدم رسول الله ﷺ . (ابن هشام ٨١ / ٢) .

(٣) صحيح البخارى ١ / ٥٢٧ ، ٢ / ٥٨١ .

(٤) وقد سمع الله دعاء رسوله ﷺ ، فعن ابن عائذ أن ابن قمنة « انصرف إلى أهله فخرج إلى غنمه فوافاها على ذروة جبل فدخل فيها ، فشد عليه تيسها فطحنه نطحة أرداه من شاطئ الجبل فتقطع (فتح البارى ٧ / ٣٧٣) وعند الطبرانى : فسلط الله عليه تيس جبل ، فلم يزل ينطحه حتى قطعه قطعة قطعة (فتح البارى ٧ / ٣٦٦) . و « أَمَّا كَ اللهُ » : أذلك الله .

(٥) صحيح البخارى ٢ / ٥٨٢ ، وصحيح مسلم ١٠٨ / ٢ .

(٦) فتح البارى ٧ / ٣٧٣ . (٧) صحيح مسلم : باب غزوة أحد ١٠٨ / ٢ .

(٨) كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٨١ / ١ .

ولا شك أن المشركين كانوا يهدفون القضاء على حياة رسول الله ﷺ إلا أن القرشيين سعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله قاما ببطولة نادرة ، وقاتلا ببسالة منقطعة النظير ، حتى لم يتركا - وهما اثنان فحسب - سبيلاً إلى نجاح المشركين فى هدفهم ، وكانا من أمهر رماة العرب فتناضلا حتى أجهضا مفرزة المشركين عن رسول الله ﷺ.

فأما سعد بن أبي وقاص ، فقد نثل له رسول الله ﷺ كنانته وقال: « ارم فداك أبى وأمى » (١) . ويدل على مدى كفاءته أن النبى ﷺ لم يجمع أبويه لأحد غير سعد (٢).

وأما طلحة بن عبيد الله فقد روى النسائي عن جابر قصة تَجَمُّع المشركين حول رسول الله ﷺ ومعه نفر من الأنصار ، قال جابر : فأدرك المشركون رسول الله ﷺ فقال: « من للقوم ؟ » فقال طلحة: أنا ، ثم ذكر جابر تقدم الأنصار ، وقتلهم واحداً بعد واحد، بنحو ما ذكرنا من رواية مسلم ، فلما قتل الأنصار كلهم تقدم طلحة . قال جابر: ثم قاتل طلحة قتال الأحد عشر حتى ضربت يده فقطعت أصابعه، فقال: حسٌ، فقال النبى ﷺ: « لو قلت: بسم الله، لرفعتك الملائكة والناس ينظرون » ، قال: ثم رد الله المشركين (٣) . ووقع عند الحاكم فى الإكليل أنه جرح يوم أحد تسعاً وثلاثين أو خمساً وثلاثين، وشلت إصبعه ، أى السبابة والتى تليها (٤) .

وروى البخارى عن قيس بن أبى حازم قال: رأيت يد طلحة شلاء ، وقى بها النبى ﷺ يوم أحد (٥) .

وروى الترمذى وابن ماجه أن النبى ﷺ قال فيه يومئذ: « من أحب أن ينظر إلى شهيد يمشى على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله » (٦) .

وروى أبو داود الطيالسى عن عائشة قالت : كان أبوبكر إذا ذكر يوم أحد قال : ذلك اليوم كله لطلحة (٧) .

وقال فيه أبو بكر الصديق رضى الله عنه أيضاً :

يا طلحة بن عبيد الله قد وَجَبَتْ لك الجنان وبُوِئْتَ المَهْمَا العَيْنَا (٨)

وفى ذلك الظرف الدقيق والساعة الحرجة أنزل الله نصره بالغيب ، وفى الصحيحين عن سعد ، قال: رأيت رسول الله ﷺ يوم أحد، ومعه رجلان يقاتلان عنه، عليهما ثياب بيض كأشد القتال، ما رأيتهما قبل ولا بعد. وفى رواية: يعنى جبريل وميكائيل (٩) .

بداية تجمع الصحابة حول الرسول ﷺ :

وقعت هذه كلها بسرعة هائلة فى لحظات خاطفة ، وإلا فالمصطفون الأخيار من صحابته

(١) صحيح البخارى ١/ ٤٠٧ ، ٢/ ٥٨٠ ، ٥٨١ .

(٣) فتح البارى ٧ / ٣٦١ ، وسنن النسائي ٢ / ٥٢ . و « حَسٌ » يقال عند التوجع .

(٤) المصدر الأول نفسه ٧ / ٣٦١ . (٥) صحيح البخارى ١ / ٥٢٧ ، ٥٨١ .

(٦) الترمذى : مناقب ح (٣٧٤٠) ، وابن ماجه : المقدمة ح (١٢٥) .

(٧) فتح البارى ٧ / ٣٦١ . (٨) مختصر تاريخ دمشق ٧ / ٨٢ . والعين : بقر الوحش .

(٩) صحيح البخارى ٢ / ٥٨٠ ، ونحوه عند مسلم : الفضائل ٤ / ١٠٨٢ ح (٤٦ ، ٤٧) .

ﷺ - الذين كانوا في مقدمة صفوف المسلمين عند القتال - لم يكادوا يرون تغير الموقف ، أو يسمعوا صوته ﷺ حتى أسرعوا إليه ؛ لئلا يصل إليه شيء يكرهونه ، إلا أنهم وصلوا وقد لقي رسول الله ﷺ ما لقي من الجراحات - وستة من الأنصار قد قتلوا والسابع قد أثبتته الجراحات ، وسعد وطلحة يكافحان أشد الكفاح - فلما وصلوا أقاموا حوله سياجاً من أجسادهم وسلاحهم ، وبالغوا في وقايته من ضربات العدو ، ورد هجماته . وكان أول من رجع إليه هو ثانيه في الغار أبو بكر الصديق ﷺ .

روى ابن حبان في صحيحه عن عائشة قالت: قال أبو بكر الصديق : لما كان يوم أحد انصرف الناس كلهم عن النبي ﷺ ، فكنت أول من فاء إلى النبي ﷺ ، فرأيت بين يديه رجلاً يقاتل عنه ويحميه ، قلت : كن طلحة ، فذاك أبي وأمي ، كن طلحة ، فذاك أبي وأمي ، [حيث فاتني ما فاتني، فقلت: يكون رجل من قومي أحب إلي] (١) فلم أنشب أن أدركني أبو عبيدة بن الجراح ، وإذا هو يشتد كأنه طير حتى لحقني، فدفعنا إلى النبي ﷺ ، فإذا طلحة بين يديه صريعاً ، فقال النبي ﷺ : « دونكم أخاكم فقد أوجب » ، وقد رمى النبي ﷺ في وجعته حتى غابت حلقتان من حلق المغفر في وجعته، فذهبت لأنزعهما عن النبي ﷺ فقال أبو عبيدة : نشدتك بالله يا أبا بكر، إلا تركتني ، قال : فأخذ بفيه فجعل ينفضه كراهية أن يؤذي رسول الله ﷺ ، ثم استل السهم بفيه ، فندرت ثنية أبي عبيدة ، قال أبو بكر : ثم ذهبت لأخذ الآخر ، فقال أبو عبيدة : نشدتك بالله يا أبا بكر، إلا تركتني ، قال: فأخذه فجعل ينفضه حتى استلّه ، فندرت ثنية أبي عبيدة الأخرى ، ثم قال رسول الله ﷺ : « دونكم أخاكم ، فقد أوجب » ، قال : فأقبلنا على طلحة نعالجه ، وقد أصابته بضع عشرة ضربة (٢) . وفي تهذيب تاريخ دمشق (٣) : فأتيناه في بعض تلك الحفار فإذا به بضع وستون أو أقل أو أكثر ، بين طعنة ورمية وضربة ، وإذا قد قطعت إصبعه ، فأصلحنا من شأنه .

وخلال هذه اللحظات الحرجة اجتمع حول النبي ﷺ عصابة من أبطال المسلمين منهم أبو دجانة ، ومصعب بن عمير ، وعلى بن أبي طالب (٤) ، وسهل بن حنيف ، ومالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري ، وأم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية ، وقتادة ابن النعمان ، وعمر بن الخطاب ، وحاطب بن أبي بلتعة ، وأبو طلحة .

تضاعف ضغط المشركين :

كما كان عدد المشركين يتضاعف كل آن ، وبالطبع فقد اشتدت حملاتهم وزاد ضغطهم على المسلمين ، حتى سقط رسول الله ﷺ في حفرة من الحفر التي كان أبو عامر الفاسق

(١) من تهذيب تاريخ دمشق ٧ / ٧٧ .

(٢) زاد المعاد ٢ / ٩٥ .

(٣) ٧ / ٧٨ .

(٤) قال على بن أبي طالب : لما انحلى الناس عن رسول الله ﷺ يوم أحد نظرت القتلى فلم أر رسول الله ﷺ فقلت : والله ما كان ليفر ، وما أراه في القتلى ، ولكن أرى الله غضب علينا بما صنعنا ، فرفع نبيه ﷺ ، فما في خير من أن أقاتل حتى أقتل ، فكسرت جفن سيفي ، ثم حملت على القوم فأفروا لي ، فإذا أنا برسول الله ﷺ بينهم . مسند أبي يعلى ١ / ٤١٦ ح (٥٤٦) .

يكيد بها ، فجُحِشتُ ركبته ، وأخذه على يده ، واحتضنه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائماً ، وقال نافع بن جبير : سمعت رجلاً من المهاجرين يقول : شهدت أحداً فنظرت إلى النبل يأتي من كل ناحية ، ورسول الله ﷺ وسطها ، كل ذلك يصرف عنه ، ولقد رأيت عبد الله بن شهاب الزهري يقول يومئذ : دلوني على محمد ، فلا نجوت إن نجا ، ورسول الله ﷺ إلى جنبه ، ما معه أحد ، ثم جاوزه ، فعاتبه في ذلك صفوان ، فقال : والله ما رأيته ، أحلف بالله إنه منا ممنوع ، خرجنا أربعة ، فتعاهدنا وتعاهدنا على قتله ، فلم نخلص إلى ذلك (١) .

البطولات النادرة :

وقام المسلمون ببطولات نادرة وتضحيات رائعة ، لم يعرف لها التاريخ نظيراً . كان أبو طلحة يسور نفسه بين يدي رسول الله ﷺ ، ويرفع صدره ليقيه سهام العدو . قال أنس : لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي ﷺ ، وأبو طلحة بين يديه محبوب عليه بحجة له ، وكان رجلاً رامياً شديد النزع ، كسر يومئذ قوسين أو ثلاثاً ، وكان الرجل يمر معه بجعبة من النبل فيقول : « انثرها لأبي طلحة » ، قال : ويشرف النبي ﷺ ينظر إلى القوم ، فيقول أبو طلحة : بأبي أنت وأمي لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم ، نَحْرِي دون نحرك (٢) .

وعنه أيضاً قال : كان أبو طلحة يتترس مع النبي ﷺ بترس واحد ، وكان أبو طلحة حسن الرمي ، فكان إذا رمى تشرف النبي ﷺ ، فينظر إلى موقع نبله (٣) .

وقام أبو دجانة أمام رسول الله ﷺ ، فترسَ عليه بظهره . والنبل يقع عليه وهو لا يتحرك .

وتبع حاطب بن أبي بلتعة عتبة بن أبي وقاص - الذي كسر الرباعية الشريفة - فضربه بالسيف حتى طرح رأسه ، ثم أخذ فرسه وسيفه ، وكان سعد بن أبي وقاص شديد الحرص على قتل أخيه - عتبة هذا - إلا أنه لم يظفر به ، بل ظفر به حاطب .

وكان سهل بن حنيف أحد الرماة الأبطال ، بايع رسول الله ﷺ على الموت ، ثم قام بدور فعال في ذود المشركين .

وكان رسول الله ﷺ يباشر الرماية بنفسه ، فعن قتادة بن النعمان : أن رسول الله رَمَى عن قوسه حتى اندقت سِيَّتْهَا (٤) ، فأخذها قتادة بن النعمان ، فكانت عنده ، وأصيب يومئذ عينه حتى وقعت على وَجَّتِهِ ، فردها رسول الله ﷺ بيده ، فكانت أحسن عينيه وأحدهما .

وقاتل عبد الرحمن بن عوف حتى أصيب فوه يومئذ فهِتَمَ ، وجرح عشرين جراحة أو أكثر ، أصابه بعضها في رجله فخرج .

وامتص مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري الدم من وجته ﷺ حتى أنقاه ، فقال :

(٢) صحيح البخارى ٢ / ٥٨١ .

(١) زاد المعاد ٢ / ٩٧ .

(٣) المصدر نفسه ١ / ٤٠٦ .

(٤) سِيَّتْهَا : ما عطف من طرفها .

« مُجَّة » ، فقال : والله لا أمجه ، ثم أدبر يقاتل ، فقال النبي ﷺ : « من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا » ، فقتل شهيداً .

وقاتلت أم عمارة فاعترضت لابن قَمَته في أناس من المسلمين ، فضربها ابن قَمَته على عاتقها ضربة تركت جرحاً أجوف ، وضربت هي ابن قَمَته عدة ضربات بسيفها ، لكن كانت عليه درعان فنجا ، وبقيت أم عمارة تقاتل حتى أصابها اثنا عشر جرحاً .

وقاتل مصعب بن عمير بضراوة بالغة ، يدافع عن النبي ﷺ هجوماً ابن قَمَته وأصحابه ، وكان اللواء بيده ، فضربوه على يده اليمنى حتى قطعت ، فأخذ اللواء بيده اليسرى ، وصمد في وجوه الكفار حتى قطعت يده اليسرى ، ثم برك عليه بصدرة وعنقه حتى قتل ، وكان الذى قتله هو ابن قَمَته ، وهو يظنه رسول الله - لشبهه به - فانصرف ابن قَمَته إلى المشركين ، وصاح : إن محمداً قد قتل (١) .

إشاعة مقتل النبي ﷺ وأثره على المعركة :

ولم يمض على هذا الصباح دقائق ، حتى شاع خبر مقتل النبي ﷺ في المشركين والمسلمين . وهذا هو الظرف الدقيق الذى خارت فيه عزائم كثير من الصحابة المطوقين ، الذين لم يكونوا مع رسول الله ﷺ ، وانهارت معنوياتهم ، حتى وقع داخل صفوفهم ارتباك شديد ، وعمتها الفوضى والاضطراب ، إلا أن هذه الصيحة خففت بعض التخفيف من مضاعفة هجمات المشركين ؛ لظنهم أنهم نجحوا في غاية مرامهم ، فاشتغل الكثير منهم بتمثيل قتلى المسلمين .

الرسول ﷺ يواصل المعركة وينقذ الموقف :

ولما قتل مصعب أعطى رسول الله اللواء على بن أبى طالب ، فقاتل قتالاً شديداً ، وقامت بقية الصحابة الموجودين هناك ببطولاتهم النادرة ، يقاتلون ويدافعون .

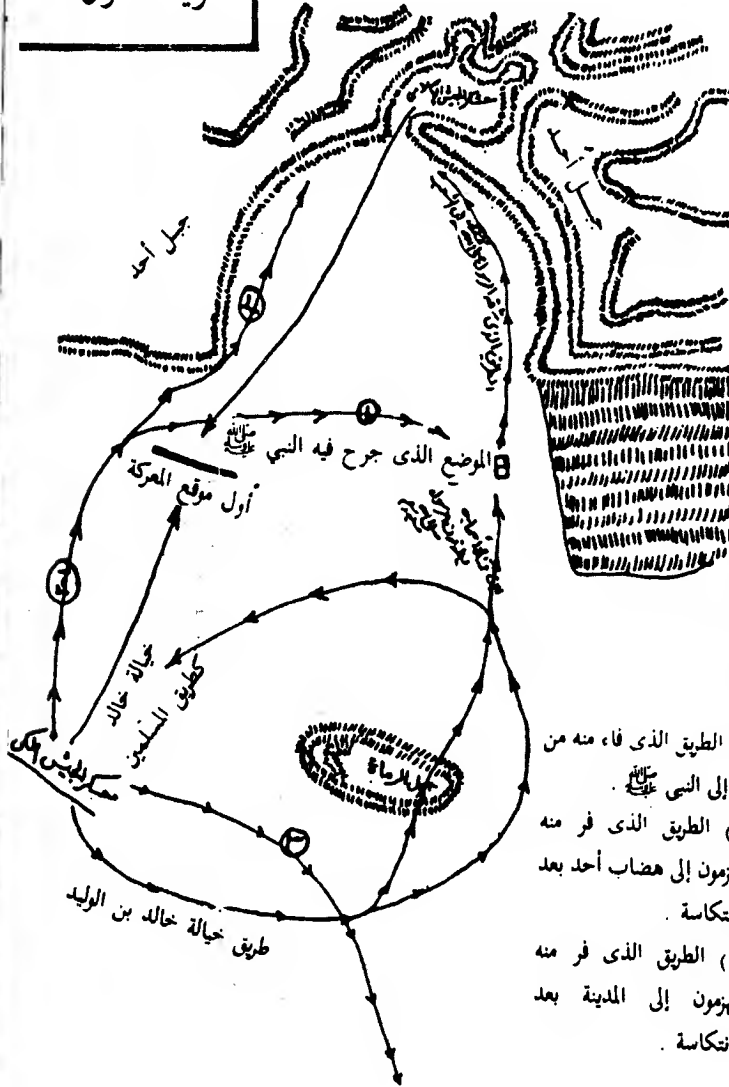
وحينئذ استطاع رسول الله ﷺ أن يشق الطريق إلى جيشه المطوق ، فأقبل إليهم فعرفه كعب بن مالك - وكان أول من عرفه - فنادى بأعلى صوته : يا معشر المسلمين أبشروا ، هذا رسول الله ﷺ ، فأشار إليه أن اصمت - وذلك لئلا يعرف موضعه المشركون - إلا أن هذا الصوت بلغ إلى آذان المسلمين ، فلاذ إليه المسلمون حتى تجمع حوله حوالى ثلاثين رجلاً من الصحابة .

وبعد هذا التجمع أخذ رسول الله ﷺ فى الانسحاب المنظم إلى شعب الجبل ، وهو يشق الطريق بين المشركين المهاجمين ، واشتد المشركون فى هجومهم ؛ لعرقلة الانسحاب إلا أنهم فشلوا أمام بسالة ليوث الإسلام .

تقدم عثمان بن عبد الله بن المغيرة - أحد فرسان المشركين - إلى رسول الله ﷺ وهو يقول : لا نجوت إن نجا . وقام رسول الله ﷺ لمواجهته ، إلا أن الفرس عثرت فى بعض الحفر ، فنازله الحارث بن الصَّمة ، فضرب على رجله فاقعده ، ثم دَفَفَ عليه وأخذ سلاحه ، والتحق

(١) انظر : ابن هشام ٢ / ٧٣ ، ٨٠ - ٨٣ ، وزاد المعاد ٢ / ٩٧ .

خريطة غزوة أحد



برسول الله ﷺ .

وعطف عبد الله بن جابر - فارس آخر من فرسان مكة - على الحارث بن الصمة ، فضرب بالسيف على عاتقه فجرحه حتى حملة المسلمون ولكن انقض أبو دجانة - البطل المغامر ذو العصابة الحمراء - على عبد الله بن جابر فضربه بالسيف ضربة أطارت رأسه .

وأثناء هذا القتال المريع كان المسلمون يأخذهم النعاس أمنة من الله ، كما تحدث عنه القرآن . قال أبو طلحة : كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفي من يدي مراراً ، يسقط وأخذه ويسقط وأخذه (١) .

وبمثل هذه البسالة بلغت هذه الكتيبة - في انسحاب منظم - إلى شعب الجبل ، وشق لبقية الجيش طريقاً إلى هذا المقام المأمون ، فتلاحق به في الجبل ، وفشلت عبقرية خالد أمام عبقرية رسول الله ﷺ .

مقتل أبي بن خلف :

قال ابن إسحاق : فلما أسند رسول الله ﷺ في الشعب أدركه أبي بن خلف وهو يقول : أين محمد ؟ لا نجوت إن نجا . فقال القوم : يا رسول الله ، أيعطف عليه رجل منا ؟ فقال رسول الله ﷺ : «دعوه» ، فلما دنا منه تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة ، فلما أخذها منه انتفض انتفاضة تطايروا عنه تطاير الشعر عن ظهر البعير إذا انتفض ، ثم استقبله وأبصر ترقوته من فرجة بين سابغة الدرع والبيضة ، فطعنه فيها طعنة تدأداً - تدرج - منها عن فرسه مراراً . فلما رجع إلى قريش وقد خدشه في عنقه خدشاً غير كبير ، فاحتقن الدم ، قال : قتلني والله محمد ، قالوا له : ذهب والله فؤادك ، والله إن بك من بأس ، قال : إنه قد كان قال لي بمكة : «أنا أقتلك» (٢) ، فوالله لو بصق عليّ لقتلني . فمات عدو الله بسرف وهم قافلون به إلى مكة . وفي رواية أبي الأسود عن عروة ، وكذا في رواية سعيد بن المسيب عن أبيه : أنه كان يخور خوار الثور ، ويقول : والذي نفسي بيده ، لو كان الذي بي بأهل ذى المجاز لما تواتوا جميعاً (٣) .

طلحة ينهض بالنبي ﷺ :

وفي أثناء انسحاب رسول الله ﷺ إلى الجبل عرضت له صخرة من الجبل ، فنهض إليها ليعلوها فلم يستطع ؛ لأنه كان قد بدّن وظاهر بين الدرعين ، وقد أصابه جرح شديد . فجلس تحته طلحة بن عبيد الله ، فنهض به حتى استوى عليها ، وقال : «أوجب طلحة» (٤) ، أي : الجنة .

(١) صحيح البخارى ٢ / ٥٨٢ .

(٢) وذلك أن رسول الله ﷺ لما كان بمكة كان يلقاه أبى هذا ، فيقول : يا محمد ، إن عندى العودَ فرساً أعلفه كل يوم فرساً من ذرة أقتلك عليه ، فيقول رسول الله ﷺ : «بل أنا أقتلك إن شاء الله» .

(٣) ابن هشام ٢ / ٨٤ ، والمستدرك للحاكم ٢ / ٣٢٧ .

(٤) ابن هشام ٢ / ٨٦ ، ورواه الترمذى فى الجهاد ح (١٦٩٢) ، وفى المناقب ح (٣٧٣٩) ، وأحمد ١ / ١٦٥ ، وصححه الحاكم ٣ / ٣٧٤ ووافقه الذهبى . وظاهر بين الدرعين : لبس درعا فوق درع .

آخر هجوم قام به المشركون :

ولما تمكن رسول الله ﷺ من مقر قيادته فى الشعب قام المشركون بآخر هجوم حاولوا به النيل من المسلمين . قال ابن إسحاق : بينا رسول الله ﷺ فى الشعب إذ علت عالية من قريش الجبل - يقودهم أبو سفيان وخالد بن الوليد - فقال رسول الله ﷺ : « اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَعْلُونَا » ، فقاتل عمر بن الخطاب ورهط معه من المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبل (١) .

وفى مغازى الأموى : أن المشركين صعدوا على الجبل ، فقال رسول الله ﷺ لسعد : « اجْنُبْهُمْ » - يقول : ارددهم - فقال : كيف أجنبهم وحدى ؟ فقال ذلك ثلاثاً ، فأخذ سعد سهماً من كنانته ، فرمى به رجلاً فقتله ، قال : ثم أخذت سهماً أعرفه ، فرميت به آخر ، فقتلته ، ثم أخذته أعرفه فرميت به آخر فقتلته ، فهبطوا من مكانهم ، فقلت : هذا سهم مبارك ، فجعلته فى كنانتي . فكان عند سعد حتى مات ، ثم كان عند بنيه (٢) . تشويه الشهداء :

وكان هذا آخر هجوم قام به المشركون ضد النبی ﷺ ، ولما لم يكونوا يعرفون من مصيره شيئاً - بل كانوا على شبه اليقين من قتله - رجعوا إلى مقرهم ، وأخذوا يتهيئون للرجوع إلى مكة ، واشتغل من اشتغل منهم - وكذا اشتغلت نساؤهم - بقتلى المسلمين ، يمثلون بهم ، ويقطعون الأذان والأنوف والفروج ، ويقررون البطون . وبقرت هند بنت عتبة كبد حمزة فلاكتهما ، فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها ، واتخذت من الأذان والأنوف خدماً - خلاخيل - وقلائد (٣) .

مدى استعداد أبطال المسلمين للقتال حتى نهاية المعركة :

وفى هذه الساعة الأخيرة وقعت وقعتان تدلان على مدى استعداد أبطال المسلمين للقتال ، ومدى استماتتهم فى سبيل الله :

١- قال كعب بن مالك : كنت فيمن خرج من المسلمين ، فلما رأيت تمثيل المشركين بقتلى المسلمين قمت فتجاوزت ، فإذا رجل من المشركين جمع الأمة يجوز المسلمين وهو يقول : استوسقوا كما استوسقت جزر الغنم (٤) . وإذا رجل من المسلمين ينتظره وعليه لأمته ، فمضيت حتى كنت من ورائه ، ثم قمت أقدر المسلم والكافر ببصرى ، فإذا الكافر أفضلهما عدة وهيئة ، فلم أزل أنتظرهما حتى التقيا ، فضرب المسلم الكافر ضربة فبلغت وركه وتفرق فرقتين ، ثم كشف المسلم عن وجهه ، وقال : كيف ترى يا كعب ؟ أنا أبو دجاجة (٥) .

٢- جاءت نسوة من المؤمنين إلى ساحة القتال بعد نهاية المعركة ، قال أنس : لقد رأيت عائشة بنت أبى بكر وأم سليم ، وإنهما لمشمرتان - أرى خدَم سوقهما - تَنْقُرَانِ (٦) القِرْبَ على

(٢) زاد المعاد ٢ / ٩٥ .

(٤) أى استجمعوا وانضموا .

(٦) تحملان .

(١) ابن هشام ٢ / ٨٦ .

(٣) ابن هشام ٢ / ٩٠ .

(٥) البداية والنهاية ٤ / ١٧ .

متونهما ، تفرغانه فى أفواه القوم ، ثم ترجعان فتملاّنها ، ثم تحيثان فتفرغانه فى أفواه القوم (١) . وقال عمر : كانت (أم سَلَيْط من نساء الأنصار) تزفر لنا القرب يوم أحد (٢) .

وكانت فى هؤلاء النسوة أم أيمن ، لما رأت فلول المسلمين يريدون دخول المدينة ، أخذت تحثو التراب فى وجوههم وتقول لبعضهم : هاك المغزل ، وهلم سيفك . ثم سارعت إلى ساحة القتال ، فأخذت تسقى الجرحى ، فرماها حَبَّان (بالكسر) بن العرقَة بسهم ، فوقعت وتكشفت ، فأغرق عدو الله فى الضحك ، فشق ذلك على رسول الله ﷺ ، فدفع إلى سعد بن بى وقاص سهماً لا فصل له ، وقال : « ارم به » ، فرمى به سعد ، فوقع السهم فى نحر حبان ، فوقع مستلقياً حتى تكشف ، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه ، ثم قال : « استقاد لها سعد ، أجاب الله دعوته » (٣) .

بعد انتهاء الرسول ﷺ إلى الشعب :

ولما استقر رسول الله ﷺ فى مقره من الشعب خرج على أبى طالب حتى ملأ دَرَقَتَهُ ماء من المِهْرَاس - قيل : هو صخرة منقورة تسع كثيراً . وقيل : اسم ماء بأحد - فجاء به إلى رسول الله ﷺ ليشرب منه ، فوجد له ريحاً فعاغه ، فلم يشرب منه ، وغسل عن وجهه الدم ، وصب على رأسه وهو يقول : « اشتد غضب الله على من دُمى وجه نبيه » (٤) .

وقال سهل : والله إنى لأعرف من كان يغسل جرح رسول الله ﷺ ، ومن كان يسكب الماء ، وبما دُووِى ؟ كانت فاطمة ابنته تغسله ، وعلى بن أبى طالب يسكب الماء بالمجنّ ، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة من حصير ، فأحرقتها ، فألصقتها فاستمسك الدم (٥) .

جاء محمد بن مسلمة بماء عذب سائغ ، فشرب منه النبى ﷺ ودعا له بخير (٦) . وصلى الظهر قاعداً من أثر الجراح ، وصلى المسلمون خلفه قعوداً (٧) .

شماتة أبى سفيان بعد نهاية المعركة وحديثه مع عمر :

ولما تكامل تهيوّ المشركين للانصراف أشرف أبو سفيان على الجبل ، فنادى أفيكم محمد ؟ فلم يجيبوه . فقال : أفيكم ابن أبى قحافة ؟ فلم يجيبوه . فقال : أفيكم عمر بن الخطاب ؟ فلم يجيبوه - وكان النبى ﷺ منهمم من الإجابة - ولم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة لعلمه وعلم قومه أن قيام الإسلام بهم . فقال : أما هؤلاء فقد كفيتموهم ، فلم يملك عمر نفسه أن قال : يا عدو الله ، إن الذين ذكرتهم أحياء ، وقد أبقى الله ما يسوءك . فقال : قد كان فيكم مثله لم آمر بها ولم تسؤنى .

ثم قال : أعلى هُبَل .

(١) صحيح البخارى مع الفتح ٩١ / ٦ ح (٢٨٨ ، ٢٩٠٢ ، ٣٨١١ ، ٤٠٦٤) .

(٢) المصدر نفسه مع الفتح ٩٣ / ٦ ح (٢٨٨١ ، ٤٠٧١) .

(٣) السيرة الحلبية ٢ / ٢٢ .

(٤) ابن هشام ٢ / ٨٥ .

(٥) صحيح البخارى ٢ / ٥٨٤ .

(٦) السيرة الحلبية ٢ / ٣٠ .

(٧) ابن هشام ٢ / ٨٧ .

فقال النبي ﷺ: «ألا تحيونه؟» فقالوا: فما نقول؟ قال: «قولوا: الله أعلى وأجل». ثم قال: لنا العزى ولا عزى لكم. فقال النبي ﷺ: «ألا تحيونه؟» قالوا: ما نقول؟ قال: «قولوا: الله مولانا، ولا مولى لكم».

ثم قال أبو سفيان: أُنعمتَ فعَالٌ^(١)، يوم بيوم بدر، والحرب سجال. فأجابه عمر، وقال: لاسواء، قتلانا فى الجنة، وقتلاكم فى النار. ثم قال أبو سفيان: هلم إلى يا عمر، فقال رسول الله ﷺ: «أئنه فانظر ما شأنه؟» فجاءه، فقال له أبو سفيان: أشدك الله يا عمر، أقتلنا محمداً؟ قال عمر: اللهم لا. وإنه ليستمع كلامك الآن. قال: أنت أصدق عندى من ابن قَمَته وأبر^(٢). مواعدة التلاقي فى بدر:

قال ابن إسحاق: ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى: إن موعدكم بدر العام القابل. فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه: «قل: نعم، هو بيننا وبينك موعد»^(٣). التثبت من موقف المشركين:

ثم بعث رسول الله ﷺ على بن أبي طالب، فقال: «أخرج فى آثار القوم فانظر ماذا يصنعون؟ وما يريدون؟ فإن كانوا قد جنبوا الخيل، وامتطوا الإبل، فإنهم يريدون مكة، وإن كانوا قد ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة. والذي نفسى بيده، لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها، ثم لأناجزهن». قال على: فخرجت فى آثارهم أنظر ماذا يصنعون، فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل، ووجهوا إلى مكة^(٤). تفقد القتلى والجرحى:

وفرح الناس لتفقد القتلى والجرحى بعد منصرف قريش. قال زيد بن ثابت: بعثنى رسول الله ﷺ يوم أحد أطلب سعد بن الربيع. فقال لى: «إن رأيته فأقرئه منى السلام، وقل له: يقول لك رسول الله ﷺ كيف تحبك؟» قال: فجعلت أطوف بين القتلى، فأتيته وهو بأخر رمق، فيه سبعون ضربة، ما بين طعنة برمخ، وضربة بسيف، ورمية بسهم، فقلت: يا سعد، إن رسول الله يقرأ عليك السلام، ويقول لك: أخبرنى كيف تحبك؟ فقال: وعلى رسول الله ﷺ السلام، قل له، يا رسول الله، أجد ريح الجنة، وقل لقومى الأنصار: لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله ﷺ وفيكم عين تطرف، وفاضت نفسه من وقته^(٥). ووجدوا فى الجرحى الأصبرم - عمرو بن ثابت - وبه رمق يسير، وكانوا من قبل

(١) أى ارتفع.

(٢) ابن هشام ٢ / ٩٣، ٩٤، وزاد المعاد ٢ / ٩٤، وصحيح البخارى ٢ / ٥٧٩.

(٣) ابن هشام ٢ / ٩٤.

(٤) ابن هشام ٢ / ٩٤، وفى فتح البارى: أن الذى خرج فى آثار المشركين هو سعد بن أبى وقاص (٣٤٧/٧).

(٥) زاد المعاد ٢ / ٩٦.

يعرضون عليه الإسلام فيأباه ، فقالوا : إن هذا الأصيرم ما جاء به ؟ لقد تركناه وإنه لمنكر لهذا الأمر ، ثم سألوه : ما الذى جاء بك ، أهدب على قومك ، أم رغبة فى الإسلام ؟ فقال : بل رغبة فى الإسلام ، آمنت بالله ورسوله ، ثم قاتلت مع رسول الله ﷺ حتى أصابنى ما ترون ، ومات من وقته ، فذكروه لرسول الله ﷺ ، فقال : « هو من أهل الجنة » . قال أبو هريرة : ولم يُصلِّ لله صلاة قط (١) .

ووجدوا فى الجرحى قُزْمَان - وكان قد قاتل قتال الأبطال ؛ قتل وحده سبعة أو ثمانية من المشركين - وجدوه قد أثبتته الجراحة ، فاحتملوه إلى دار بنى ظَفَر ، وبشره المسلمون فقال : والله إن قاتلت إلا عن أحساب قومي ، ولولا ذلك ما قاتلت ، فلما اشتد به الجراح نحر نفسه . وكان رسول الله ﷺ يقول - إذا ذكر له : « إنه من أهل النار » (٢) - وهذا هو مصير المقاتلين فى سبيل الوطنية أو فى أى سبيل سوى إعلاء كلمة الله ، وإن قاتلوا تحت لواء الإسلام ، بل وفى جيش الرسول والصحابة .

وعلى عكس من هذا كان فى القتلى رجل من يهود بنى ثعلبة ، قال لقومه : يا معشر يهود ، والله لقد علمتم أن نصر محمد عليكم حق . قالوا : إن اليوم يوم السبت . قال : لا سبت لكم . فأخذ سيفه وعدته ، وقال : إن أصبت فمالى لمحمد . يصنع فيه ما شاء ، ثم غدا فقاتل حتى قتل . فقال رسول الله ﷺ : « مُخْبِرٌ قَبِيحٌ خَيْرٌ يَهُودٍ » (٣) .

جمع الشهداء ودفنهم :

وأشرف رسول الله ﷺ على الشهداء فقال : « أنا شهيد على هؤلاء ، إنه ما من جريح يُجرح فى الله إلا والله يبعثه يوم القيامة ، يذمى جُرحه ، اللون لون الدم ، والريح ريح المسك » (٤) .

وكان أناس من الصحابة قد نقلوا قتلاهم إلى المدينة فأمر أن يردوهم ، فيدفنهم فى مضاجعهم وألا يغسلوا ، وأن يدفنوا كما هم بشياهم بعد نزع الحديد والجلود . وكان يدفن الاثنين والثلاثة فى القبر الواحد ، ويجمع بين الرجلين فى ثوب واحد ، ويقول : « أيهم أكثر أخذًا للقرآن ؟ » فإذا أشاروا إلى الرجل قدمه فى اللحد ، وقال : « أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة » (٥) . ودفن عبد الله بن عمرو بن حرام وعمرو بن الجموح فى قبر واحد لما كان بينهما من المحبة (٦) .

وفقدوا نعش حظلة ، ففقدوه فوجدوه فى ناحية فوق الأرض يقطر منه الماء ، فأخبر رسول الله ﷺ أصحابه أن الملائكة تغسله ، ثم قال : « سلوا أهله ما شأنه ؟ » فسألوا امرأته ، فأخبرتهم الخبر . ومن هنا سمى حظلة : غسيل الملائكة (٧) .

(١) زاد المعاد ٢ / ٩٤ ، وابن هشام ٢ / ٩٠ .

(٢) المصدر الأول نفسه ٢ / ٩٧ ، ٩٨ ، وابن هشام ٢ / ٨٨ .

(٣) ابن هشام ٢ / ٨٨ ، ٨٩ . (٤) المصدر نفسه ٢ / ٩٨ .

(٥) صحيح البخارى مع الفتح ٣ / ٢٤٨ ح (١٣٤٦ ، ١٣٤٨ ، ١٣٥٣ ، ٤٠٧٩) .

(٦) صحيح البخارى ٢ / ٥٨٤ ، وزاد المعاد ٢ / ٩٨ .

(٧) زاد المعاد ٢ / ٩٤ .

ولما رأى ما بحمزة - عمه وأخيه من الرضاعة - اشتد حزنه ، وجاءت عمته صفية تريد أن تنظر أخاها حمزة ، فأمر رسول الله ﷺ ابنها الزبير أن يصرفها ، لا ترى ما بأخيها ، فقالت : ولم ؟ وقد بلغنى أن قد مُثِّلَ بأخي ، وذلك في الله ، فما أرضانا بما كان من ذلك ، لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله ، فأنته فنظرت إليه ، فصلت عليه - دعت له - واسترجعت واستغفرت له . ثم أمر رسول الله ﷺ بدفنه مع عبد الله بن جحش - وكان ابن أخته ، وأخاه من الرضاعة .

قال ابن مسعود : ما رأينا رسول الله ﷺ باكياً قط أشد من بكائه على حمزة بن عبد المطلب . وضعه في القبلة ، ثم وقف على جنازته وانتحب حتى نَشَعَ من البكاء ^(١) - والنشع : الشهيق .

وكان منظر الشهداء مريعاً جداً يفتت الأكباد . قال خباب : (إن) حمزة لم يوجد له كفن إلا بردة مَلْحَاء ، إذا جعلت على رأسه قَلَصَتْ عن قدميه ، وإذا جعلت على قدميه قلصت عن رأسه ، حتى مدت على رأسه ، وجعل على قدميه الإِذْخَر ^(٢) .

وقال عبد الرحمن بن عوف : قتل مصعب بن عمير وهو خير مني ، كفن في بردة إن غطى رأسه بدت رجلاه ، وإن غطى رجلاه بدا رأسه ^(٣) ، وروى مثل ذلك عن خباب ، وفيه : فقال لنا النبي ﷺ : « غطوا بها رأسه ، واجعلوا على رجليه الإِذْخَر » ^(٤) .
الرسول ﷺ يثنى على ربه عز وجل ويدعوه :

روى الإمام أحمد : لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون ، قال رسول الله ﷺ : « استووا حتى أثنى على ربي عز وجل » ، فصاروا خلفه صفوفاً ، فقال :

« اللهم لك الحمد كله ، اللهم لا قابض لما بسطت ، ولا باسط لما قبضت ، ولا هادي لمن أضللت ، ولا مضل لمن هديت ، ولا معطي لما منعت ، ولا مانع لما أعطيت ، ولا مقرب لما باعدت ، ولا مبعد لما قربت . اللهم اسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك » .

« اللهم إني أسألك النعيم المقيم ، الذي لا يحُول ولا يزول . اللهم إني أسألك العون يوم العيلة ، والأمن يوم الخوف . اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعتنا . اللهم حجب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا ، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين . اللهم توفنا مسلمين ، وأحينا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين ، غير خزايا ولا مفتونين . اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ، ويصدون عن سبيلك ، واجعل عليهم رجزك وعذابك . اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب ، إله الحق » ^(٥) .

(١) رواه ابن شاذان ، انظر : مختصر سيرة الرسول ﷺ للشيخ عبد الله النجدي ص ٢٥٥ .

(٢) رواه أحمد ، مشكاة المصابيح ١ / ١٤٠ . وملحاء : أى فيها خطوط سود وبيض .

(٣) صحيح البخارى مع الفتح ٣ / ١٦٨ ، ١٦٩ ، ح (١٢٧٤ ، ١٢٧٥ ، ٤٠٤٥) .

(٤) صحيح البخارى ٢ / ٥٧٩ ، ٥٨٤ ط : الهند ، ومع فتح البارى ٣ / ١٧٠ ح (١٢٧٦ ، ٣٨٩٧ ، ٣٩١٣ ، ٣٩١٤ ، ٤٠٤٧ ، ٤٠٨٢ ، ٦٤٣٢ ، ٦٤٤٨) .

(٥) رواه البخارى فى الأدب المفرد ح ٦٩٩ ، والإمام أحمد فى مسنده ٣ / ٤٢٤ .

الرجوع إلى المدينة ، ونوادر الحب والتفانى :

ولما فرغ رسول الله من دفن الشهداء والثناء على الله والتضرع إليه ، انصرف راجعاً إلى المدينة ، وقد ظهرت له نوادر الحب والتفانى من المؤمنين الصادقات ، كما ظهرت من المؤمنين فى أثناء المعركة .

لقبته فى الطريق حَمْنَةُ بنت جحش ، فَنَعِيَ إليها أخوها عبد الله بن جحش فاسترجعت واستغفرت له ، ثم نعى لها خالها حمزة بن عبد المطلب ، فاسترجعت واستغفرت ، ثم نعى لها زوجها مصعب بن عمير ، فصاحت وولوت ، فقال رسول الله ﷺ : « إن زوج المرأة منها ليمكان » (١) .

ومر بامرأة من بنى ديار ، وقد أصيب زوجها وأبوها بأحد ، فلما نعوا لها قالت : فما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالوا : خيراً يا أم فلان ، هو بحمد الله كما تحين ، قالت : أرونيه حتى أنظر إليه ، فأشير إليها حتى إذا رآته قالت : كل مصيبة بعدك جَلَلٌ - تريد صغيرة (٢) .

وجاءت إليه أم سعد بن معاذ تَعْدُو ، وسعد أخذ بلجام فرسه ، فقال : يا رسول الله ، أمى ، فقال : « مرحباً بها » ، ووقف لها ، فلما دنت عزاها بابنها عمرو بن معاذ . فقالت : أما إذ رأيتك سالماً فقد اشتويت المصيبة (أى استقلتتها) ثم دعا لأهل من قتل بأحد ، وقال : « يا أم سعد ، أبشرى وبشرى أهلهم أن قتلهم ترافقوا فى الجنة جميعاً ، وقد شفَعُوا فى أهلهم جميعاً » . قالت : رضينا يا رسول الله ، ومن ييكى عليهم بعد هذا ؟ ثم قالت : يا رسول الله ، ادع لمن خلفوا منهم ، فقال : « اللَّهُمَّ اذهب حزن قلوبهم ، واجبر مصيبتهم ، وأحسن الخَلْفَ على من خَلَفُوا » (٣) .

الرسول ﷺ فى المدينة :

وانتهى رسول الله ﷺ مساء ذلك اليوم - يوم السبت السابع من شهر شوال سنة ٣هـ - إلى المدينة . فلما انتهى إلى أهله ناول سيفه ابنته فاطمة ، فقال : « اغسلى عن هذا دمه يا بنية ، فوالله لقد صدقنى اليوم » ، وناولها على بن أبى طالب سيفه ، فقال : وهذا أيضاً فاغسلى عنه دمه ، فوالله لقد صدقنى اليوم ، فقال رسول الله ﷺ : « لئن كنت صدقت القتال ، لقد صدق معك سهل بن حنيف وأبو دُجَانَةَ » (٤) .

قتلى الفريقين :

اتفقت جل الروايات على أن قتلى المسلمين كانوا سبعين ، وكانت الأغلبية الساحقة من الانتصار ؛ فقد قتل منهم خمسة وستون رجلاً ، واحد وأربعون من الخزرج ، وأربعة وعشرون من الأوس ، وقتل رجل من اليهود . وأما شهداء المهاجرين فكانوا أربعة فقط .

وأما قتلى المشركين فقد ذكر ابن إسحاق أنهم اثنان وعشرون قتيلاً ، ولكن الإحصاء

(٢) المصدر نفسه ٢ / ٩٩ .

(٤) ابن هشام ٢ / ١٠٠ .

(١) ابن هشام ٢ / ٩٨ .

(٣) السيرة الحلبية ٢ / ٤٧ .

الدقيق - بعد تعميق النظر فى جميع تفاصيل المعركة التى ذكرها أهل المغازى والسير ، والتى تتضمن ذكر قتلى المشركين فى مختلف مراحل القتال - يفيد أن عدد قتلى المشركين سبعة وثلاثون ، لا اثنان وعشرون ، والله أعلم (١) .

حالة الطوارئ فى المدينة :

بات المسلمون فى المدينة - ليلة الأحد الثامن من شهر شوال سنة ٣ هـ بعد الرجوع من معركة أحد - وهم فى حالة الطوارئ ، باتوا - وقد أنهكهم التعب ، ونال منهم أى منال - يحرسون أنقاب المدينة ومدخلها ، ويحرسون قائدهم الأعلى رسول الله ﷺ خاصة ؛ إذ كانت تتلاحقهم الشبهات من كل جانب .

غزوة حمراء الأسد :

وبات الرسول ﷺ وهو يفكر فى الموقف ، فقد كان يخاف أن المشركين إن فكروا فى أنهم لم يستفيدوا شيئاً من النصر والغلبة التى كسبوها فى ساحة القتال ، فلا بد من أن يندموا على ذلك ، ويرجعوا من الطريق لغزو المدينة مرة ثانية ، فصمم على أن يقوم بعملية مطاردة الجيش المكي .

قال أهل المغازى ما حاصله : إن النبى ﷺ نادى فى الناس ، وندبهم إلى المسير إلى لقاء العدو - وذلك صباح الغد من معركة أحد ، أى يوم الأحد الثامن من شهر شوال سنة ٣ هـ - وقال : « لا يخرج معنا إلا من شهد القتال » ، فقال له عبد الله بن أبى : أركب معك ؟ قال : « لا » ، واستجاب له المسلمون على ما بهم من الجرح الشديد ، والخوف المزيد ، وقالوا : سمعاً وطاعة . واستأذنه جابر بن عبد الله ، وقال : يا رسول الله ، إني أحب ألا تشهد مشهداً إلا كنت معك ، وإنما خلفنى أبى على بناته فآذن لى أسير معك ، فأذن له .

وسار رسول الله ﷺ والمسلمون معه حتى بلغوا حمراء الأسد ، على بعد ثمانية أميال من المدينة ، فعسكروا هناك .

وهناك أقبل مَعْبَد بن أبى معبد الخزاعى إلى رسول الله ﷺ فأسلم - ويقال : بل كان على شركه ، ولكنه كان ناصحاً لرسول الله ﷺ لما كان بين خزاعة وبنى هاشم من الحلف - فقال : يا محمد ، أما والله لقد عز علينا ما أصابك فى أصحابك ، ولوددنا أن الله عافاك . فأمره رسول الله ﷺ أن يلحق أبا سفيان فيُخَذِّله .

ولم يكن ما خافه رسول الله ﷺ من تفكير المشركين فى العودة إلى المدينة إلا حقاً ، فإنهم لما نزلوا بالروحاء على بعد ستة وثلاثين ميلاً من المدينة تلاوموا فيما بينهم ، قال بعضهم لبعض : لم تصنعوا شيئاً ، أصبتم شوكتهم وحدهم ، ثم تركتموهم ، وقد بقى منهم رءوس يجمعون لكم ، فارجعوا حتى نستأصل شأفتهم .

ويبدو أن هذا رأى جاء سطحياً ممن لم يكن يقدر قوة الفريقين ومعنوياتهم تقديراً

(١) انظر : ابن هشام ٢ / ١٢٢ - ١٢٩ ، فتح البارى ٧ / ٣٥١ ، وغزوة أحد لمحمد أحمد باشمى ص

صحيحاً؛ ولذلك خالفهم زعيم مسنول « صفوان بن أمية » قائلاً: يا قوم، لاتفعلوا فإني أخاف أن يجمع عليكم من تخلف من الخروج - أى من المسلمين فى غزوة أحد - فارجعوا والدولة لكم ، فإني لا آمن إن رجعت أن تكون الدولة عليكم . إلا أن هذا رأى رفض أمام رأى الأغلبية الساحقة، وأجمع جيش مكة على المسير نحو المدينة. ولكن قبل أن يتحرك أبو سفيان بجيشه من مقره لحقه معبد بن أبى معبد الخزاعى ولم يكن يعرف أبو سفيان بإسلامه ، فقال : ما وراءك يا معبد ؟ فقال معبد - وقد شن عليه حرب أعصاب دعائية عنيفة: محمد قد خرج فى أصحابه ، يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط ، يتحرقون عليكم تحرقاً ، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه فى يومكم، وندموا على ما ضيعوا ، فيهم من الخنق عليكم شئ لم أر مثله قط .

قال أبو سفيان : ويحك ، ما تقول ؟

قال : والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصى الخيل - أو - حتى يطلع أول الجيش من وراء هذه الأكمة .

فقال أبو سفيان : والله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصلهم .

قال : فلا تفعل ، فإني ناصح .

وحينئذ انهارت عزائم الجيش المكي وأخذ الفزع والرعب ، فلم ير العافية إلا فى مواصلة الانسحاب والرجوع إلى مكة ، بيد أن أبا سفيان قام بحرب أعصاب دعائية ضد الجيش الإسلامى ، لعله ينجح فى كف هذا الجيش عن مواصلة المطاردة ، وطبعاً فهو ينجح فى تجنب لقائه . فقد مر به ركب من عبد القيس يريد المدينة ، فقال : هل أنتم مبلغون عنى محمداً رسالة ، وأوقر لكم راحلتكم هذه زبيياً بعكاظ إذا أتيتم إلى مكة؟ قالوا : نعم .

قال : فأبلغوا محمداً أنا قد أجمعنا الكرة ؛ لنستأصله ونستأصل أصحابه .

فمر الركب برسول الله ﷺ وأصحابه ، وهم بحمراء الأسد ، فأخبرهم بالذى قال له أبو سفيان ، وقالوا : ﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فِرَادَهُمْ ﴾ - أى زاد المسلمين قولهم ذلك - ﴿ إِيْمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانِ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) ﴾ [آل عمران] .

أقام رسول الله ﷺ بحمراء الأسد - بعد مقدمه يوم الأحد - الإثنين والثلاثاء والأربعاء - ٩ ، ١٠ ، ١١ شوال سنة ٣ هـ - ثم رجع إلى المدينة ، وأخذ رسول الله قبل الرجوع إلى المدينة أبا عزة الجمحى - وهو الذى كان قد منّ عليه من أسارى بدر ؛ لفقره وكثرة بناته ، على ألا يظهر عليه أحداً ، ولكنه نكث وغدر فحرض الناس بشعره على النبى ﷺ والمسلمين ، كما أسلفنا ، وخرج لمقاتلتهم فى أحد - فلما أخذه رسول الله ﷺ قال: يا محمد، ألقنى، وامنن على ، ودعنى لبناتى ، وأعطيك عهداً ألا أعود لمثل ما فعلت، فقال ﷺ : « لا تمسح عارضيك بمكة بعدها وتقول : خدعت محمداً مرتين ، لا يلدغ المؤمن من

جحر مرتين «، ثم أمر الزبير أو عاصم بن ثابت فضرب عنقه .

كما حكم بالإعدام فى جاسوس من جواسيس مكة ، وهو معاوية بن المغيرة بن أبى العاص جد عبد الملك بن مروان لأمه ؛ وذلك أنه لما رجع المشركون يوم أحد جاء معاوية هذا إلى ابن عمه عثمان بن عفان رضي الله عنه فاستأمن له عثمان رسول الله ﷺ ، فأمنه على أنه إن وجد بعد ثلاث قتله . فلما خلت المدينة من الجيش الإسلامى أقام فيها أكثر من ثلاث يتجسس لحساب قريش ، فلما رجع الجيش خرج معاوية هارباً ، فأمر رسول الله ﷺ زيد ابن حارثة وعمار بن ياسر ، فتعقباه حتى قتلاه (١) .

ومما لا شك فيه أن غزوة حمراء الأسد ليست بغزوة مستقلة ، وإنما هى جزء من غزوة أحد ، وتتمه لها وصفحة من صفحاتها .

تلك هى غزوة أحد بجميع مراحلها وتفصيلها ، وطالما بحث الباحثون حول مصير هذه الغزوة ، هل كانت هزيمة أم لا ؟ والذي لا يشك فيه أن التفوق العسكرى فى الصفحة الثانية من القتال كان للمشركين ، وأنهم كانوا مسيطرين على ساحة القتال ، وأن خسارة الأرواح والنفوس كانت فى جانب المسلمين أكثر وأفدح ، وأن طائفة من المؤمنين انهزمت قطعاً ، وأن دفعة القتال جرت لصالح الجيش المكى ، لكن هناك أمور تمنعنا أن نعبر عن كل ذلك بالنصر والفتح .

فمما لا شك فيه أن الجيش المكى لم يستطع احتلال معسكر المسلمين ، وأن المقدار الكبير من الجيش المدنى لم يلتجئ إلى الفرار - مع الارتباك الشديد والفوضى العامة - بل قاوم بالبسالة حتى تجمع حول مقر قيادته ، وأن كفته لم تسقط إلى حد أن يطارده الجيش المكى ، وأن أحداً من جيش المدينة لم يقع فى أسر الكفار ، وأن الكفار لم يحصلوا على شىء من غنائم المسلمين ، وأن الكفار لم يقوموا إلى الصفحة الثالثة من القتال مع أن جيش المسلمين لم يزل فى معسكره ، وأنهم لم يقيموا بساحة القتال يوماً أو يومين أو ثلاثة أيام - كما هو دأب الفاتحين فى ذلك الزمان - بل سارعوا إلى الانسحاب وترك ساحة القتال قبل أن يتركها المسلمون ، ولم يجترئوا على الدخول فى المدينة لنهب الذرارى والأموال ، مع أنها على بعد عدة خطوات فحسب ، وكانت مفتوحة وخالية تماماً .

كل ذلك يؤكد لنا أن ما حصل لقريش لم يكن أكثر من أنهم وجدوا فرصة نجحوا فيها بإلحاق الخسائر الفادحة بالمسلمين ، مع الفشل فيما كانوا يهدفون إليه من إبادة الجيش الإسلامى بعد عمل التطويق - وكثيراً ما يلقى الفاتحون بمثل هذه الخسائر التى نالها المسلمون - أما أن ذلك كان نصراً وفتحاً فكلًا وحاشا .

بل يؤكد لنا تعجيل أبى سفيان فى الانسحاب والانصراف أنه كان يخاف على جيشه المعرة والهزيمة لو جرت صفحة ثالثة من القتال ، ويزداد ذلك تأكيداً حين ننظر إلى موقف أبى

(١) أخذنا تفصيل غزوة أحد ، وحمراء الأسد من ابن هشام ٢ / ٦٠ - ١٢٩ ، وزاد المعاد ٢ / ٩١ - ١٠٨ ، وفتح البارى ٧ / ٣٤٥ - ٣٧٧ مع صحيح البخارى ، ومختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ٢٤٢ - ٢٥٧ ، وقد أخذنا على المصادر الأخرى فى مواضعها .

سفيان من غزوة حمراء الأسد .

وإذن فهذه الغزوة إنما كانت حرباً غير منفصلة ، أخذ كل فريق بقسطه ونصيبه من النجاح والخسارة ، ثم حاد كل منها عن القتال من غير أن يفر عن ساحة القتال ويترك مقره لاحتلال العدو ، وهذا هو معنى الحرب غير المنفصلة .

وإلى هذا يشير قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ [النساء : ١٠٤] ، فقد شبه أحد العسكريين بالآخر في التألم وإيقاع الألم ، مما يفيد أن الموقفين كانا متماثلين ، وأن الفريقين رجعا وكل غير غالب .

القرآن يتحدث حول موضوع المعركة :

ونزل القرآن يلقي ضوءاً على جميع المراحل المهمة من هذه المعركة مرحلة مرحلة ، وصرح بالأسباب التي أدت إلى هذه الخسارة الفادحة ، وأبدى النواحي الضعيفة التي لم تزل موجودة في طوائف أهل الإيمان بالنسبة إلى واجبه في مثل هذه المواقف الحاسمة ، وبالنسبة إلى الأهداف النبيلة السامية التي أنشئت للحصول عليها هذه الأمة ، والتي تمتاز عن غيرها بكونها خير أمة أخرجت للناس .

كما تحدث القرآن عن موقف المنافقين ، ففضحهم وأبدى ما كان في باطنهم من العداوة لله ولرسوله ، مع إزالة الشبهات والوساوس التي كانت تختلج في قلوب ضعفاء المسلمين ، والتي كان يثيرها هؤلاء المنافقون وإخوانهم اليهود - أصحاب الدس والمؤامرة - وقد أشار إلى الحكم والغايات المحمودة التي تمخضت عنها هذه المعركة .

نزلت حول موضوع المعركة ستون آية من سورة آل عمران تبتدئ بذكر أول مرحلة من مراحل المعركة : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ [آل عمران : ١٢١] ، وترك في نهايتها تعليقاً جامعاً على نتائج هذه المعركة وحكمتها ، قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تَوَمَّنُوا وَتَقَوُّوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٧٩] .

الحكم والغايات المحمودة في هذه الغزوة :

قد بسط ابن القيم الكلام على هذا الموضوع بسطاً تاماً^(١) . وقال ابن حجر : قال العلماء : وكان في قصة أحد وما أصيب به المسلمون فيها من الفوائد والحكم الربانية أشياء عظيمة ، منها تعريف المسلمين سوء عاقبة المعصية ، وشؤم ارتكاب النهي ؛ لما وقع من ترك الرماة موقفهم الذي أمرهم الرسول ﷺ ألا يبرحوا منه .

ومنها أن عادة الرسل أن تبتلى وتكون لها العاقبة ، والحكمة في ذلك أنهم لو انتصروا دائماً دخل في المؤمنين من ليس منهم ، ولم يتميز الصادق من غيره ، ولو انكسروا دائماً لم يحصل المقصود من البعثة ، فاقترضت الحكمة الجمع بين الأمرين لتمييز الصادق من الكاذب ،

(١) انظر : زاد المعاد ٢ / ٩٩ - ١٠٨ .

وذلك أن نفاق المنافقين كان مخفياً عن المسلمين ، فلما جرت هذه القصة ، وأظهر أهل النفاق ما أظهره من الفعل والقول عاد التلويح تصريحاً ، وعرف المسلمون أن لهم عدواً في دورهم ، فاستعدوا لهم وتحزوا منهم .

ومنها أن في تأخير النصر في بعض المواطن هضماً للنفس ، وكسراً لشماختها ، فلما ابتلى المؤمنون صبروا، وجزع المنافقون .

ومنها أن الله هياً لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته لا تبلغها أعمالهم ، فقيض لهم أسباب الابتلاء والمحن ليصلوا إليها .

ومنها أن الشهادة من أعلى مراتب الأولياء فساقها إليهم، ومنها أنه أراد إهلاك أعدائه ، فقيض لهم الأسباب التي يستوجبون بها ذلك من كفرهم وبغيهم وطغيانهم في أذى أوليائه ، فمحص بذلك ذنوب المؤمنين ، ومحق بذلك الكافرين (١) .

السرايا والبعوث بين أحاد والأحزاب

كان لمأساة أحد أثر سيئ على سمعة المؤمنين ، فقد ذهبت ريحهم ، وزالت هيبته عن النفوس، وزادت المتاعب الداخلية والخارجية على المؤمنين وأحاطت الأخطار بالمدينة من كل جانب، وكاشف اليهود والمنافقون والأعراب بالعداء السافر ، وهمت كل طائفة منهم أن تنال من المؤمنين ، بل طمعت في أن تقضى عليهم وتستأصل شأفتهم .

فلم يمتص على هذه المعركة شهران حتى تهيأت بنو أسد للإغارة على المدينة . ثم قامت قبائل عَصَلٍ وقَارَةَ في شهر صفر سنة ٤ هـ بمكيدة تسببت في قتل عشرة من الصحابة ، وفي نفس الشهر نفسه قام عامر بن الطفيل العامري بتحريض بعض القبائل حتى قتلوا سبعين من الصحابة ، وتعرف هذه الواقعة بوقعة بئر معونة ، ولم تزل بنو نضير خلال هذه المدة تجاهر بالعداوة حتى قامت في ربيع الأول سنة ٤ هـ بمكيدة تهدف إلى قتل النبي ﷺ ، ونجرات بنو غَطَفَانَ حتى همت بالغزو على المدينة في جمادى الأولى سنة ٤ هـ .

فريح المسلمين التي كانت قد ذهبت في معركة أحد تركت المسلمين - إلى حين - يهددون بالأخطار ، ولكن تلك هي حكمة محمد ﷺ التي صرفت وجوه التيارات ، وأعادت للمسلمين هيبته المفقودة ، وأكسبتهم العلو والمجد من جديد . وأول ما أقدم عليه بهذا الصدد هي حركة المطاردة التي قام بها إلى حمراء الأسد ، فقد حفظ بها قدراً من سمعة جيشه ، واستعاد بها من مكانته شيئاً مذكوراً ، ثم قام بمناورات أعادت للمسلمين هيبته ، بل زادت فيها، وفي الصفحات الآتية شيء مما جرى بين الطرفين:

سرية أبي سلمة :

أول من قام ضد المسلمين بعد نكسة أحد هم بنو أسد بن خزيمة، فقد نقلت استخبارات المدينة أن طلحة وسلمة ابني خويلد قد سارا في قومهما ومن أطاعهما يدعون بنى أسد بن خزيمة إلى حرب رسول الله ﷺ .

فسارع رسول الله ﷺ إلى بعث سرية قوامها مائة وخمسون مقاتلاً من المهاجرين والأنصار ، وأمر عليهم أبا سلمة ، وعقد له لواء . وباغت أبو سلمة بنى أسد بن خزيمة في ديارهم قبل أن يقوموا بغارتهم ، فتشتوا في الأمر ، وأصاب المسلمون إبلاً وشاء لهم فاستاقوها ، وعادوا إلى المدينة سالمين غانمين لم يلقوا حرباً .

كان مبعث هذه السرية حين استهل هلال المحرم سنة ٤ هـ . وعاد أبو سلمة وقد نفر عليه جرح كان قد أصابه في أحد ، فلم يلبث حتى مات (١) .

بعث عبد الله بن أنيس :

وفي اليوم الخامس من نفس الشهر - المحرم سنة ٤ هـ - نقلت الاستخبارات أن خالد بن

سفيان الهذلي يحشد الجموع لحرب المسلمين ، فأرسل إليه النبي ﷺ عبد الله بن أنيس ليقضى عليه .

وظل عبد الله بن أنيس غائباً عن المدينة ثمانى عشرة ليلة، ثم قدم يوم السبت لسبع بقين من المحرم، وقد قتل خالداً وجاء برأسه، فوضعه بين يدي النبي ﷺ فأعطاه عصا وقال: « هذه آية بيني وبينك يوم القيامة »، فلما حضرته الوفاة أوصى أن تجعل معه في أكفانه (١) .

بعث الرجيع :

وفى شهر صفر من نفس السنة - أى الرابعة من الهجرة - قدم على رسول الله ﷺ قوم من عَضَلٍ وقَارَةٍ ، وذكروا أن فيهم إسلاماً ، وسألوا أن يبعث معهم من يعلمهم الدين ، ويقرئهم القرآن ، فبعث معهم ستة نفر - فى قول ابن إسحاق ، وفى رواية البخارى أنهم كانوا عشرة - وأمر عليهم مرثد بن أبى مرثد الغنوى - فى قول ابن إسحاق ، وعند البخارى أنه عاصم بن ثابت جد عاصم بن عمر بن الخطاب - فذهبوا معهم ، فلما كانوا بالرجيع - وهو ماء لهذيل بناحية الحجاز بين رابغ وجدّة - استصرخوا عليهم حياً من هذيل يقال لهم: بنو لَحْيَان ، فتبعوهم بقريب من مائة رام ، واقتصوا آثارهم حتى لحقوهم ، فأحاطوا بهم - وكانوا قد لجأوا إلى فدّقد (٢) - وقالوا : لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا ألا نقتل منكم رجلاً . فأما عاصم فأبى من الزول وقاتلهم فى أصحابه ، فقتل منهم سبعة بالنبل ، وبقي خبيب وزيد بن الدثنة ورجل آخر ، فأعطوهم العهد والميثاق مرة أخرى، فنزلوا إليهم ولكنهم غدروا بهم وربطوهم بأوتار قسيهم، فقال الرجل الثالث: هذا أول الغدر ، وأبى أن يصحبهم، فجزروه وعالجوه على أن يصحبهم فلم يفعل فقتلوه، وانطلقوا بخبيب وزيد فباعوهما بمكة ، وكانا قتلا من رءوسهم يوم بدر، فأما خبيب فمكث عندهم مسجوناً ، ثم أجمعوا على قتله ، فخرجوا به من الحرم إلى التنعيم ، فلما أجمعوا على صلبه قال : دعونى حتى أركع ركعتين، فتركوه فصلاهما ، فلما سلم قال: والله لولا أن تقولوا: إن ما بى جزع لزدت، ثم قال: اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً (٣) ، ولا تبق منهم أحداً، ثم قال :

لقد أجمع الأحزاب حولى وألبوا	قبائلهم واستجمعوا كل مَجْمَع
وقد قربوا أبناءهم ونساءهم	وقُربَتْ من جذع طويل مُنْع
إلى الله أشكو غُرْبَتى بعد كُرْبَتى	وما جمع الأحزاب لى عند مضجعى
وقد خيرُونى الكُفْرَ والموتُ دونه	فقد ذرفت عيناى من غير مدْمَع
فذا العرش صَبْرَتى على ما يراد بى	فقد بَضَعُوا لحمى وقد بَوَّسَ مَطْمَعى
ولَسْتُ أَبَالى حين أُقتل مُسْلِماً	على أى شق كان فى الله مضجعى
وذلك فى ذات الإله وإن يشأ	يسارك على أوصالِ شِلْو (٤) مُنْع

فقال له أبو سفيان : أيسرك أن محمداً عندنا نضرب عنقه، وأنتك فى أهلك ؟ فقال :

(١) زاد المعاد ٢ / ١٠٩ ، وابن هشام ٢ / ٦١٩ ، ٦٢٠ .

(٢) مكان مرتفع .

(٣) أى متفرقين .

(٤) عضو .

لا والله ، ما يسرنى أنى فى أهلى وأن محمداً فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه . ثم صلبوه واكلوا به من يحرس جثته ، فجاء عمرو بن أمية الضمري ، فاحتمله بخدعة ليلاً ، فذهب به فدفنه ، وكان الذى تولى قتل خبيب هو عقبة بن الحارث ، وكان خبيب قد قتل أباه حارثاً يوم بدر .

وفى الصحيح أن خبيباً أول من سن الركعتين عند القتل ، وأنه رثى وهو أسير يأكل قطعاً من العنب ، وما بمكة ثمرة .

وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية فقتله بأبيه .

وبعثت قريش إلى عاصم ليؤتوا بشيء من جسده يعرفونه - وكان عاصم قتل عظيماً من عظمائهم يوم بدر - فبعث الله عليه مثل الظلة من الدبر - الزناير - فحمته من رسلهم ، فلم يقدروا منه على شيء . وكان عاصم أعطى الله عهداً ألا يمسه مشرك ولا يمس مشركاً . وكان عمر لما بلغه خبره يقول : يحفظ الله العبد المؤمن بعد وفاته كما يحفظه فى حياته^(١) .

ماساة بئر معونة :

وفى الشهر نفسه الذى وقعت فيه ماساة الرجيع وقعت ماساة أخرى أشد وأفظع من الأولى ، وهى التى تعرف بوقعة بئر معونة .

وملخصها : أن أبا براء عامر بن مالك المدعو بمُلاعِب الأسنة قدم على رسول الله ﷺ المدينة ، فدعاه إلى الإسلام فلم يسلم ولم يبعد ، فقال : يا رسول الله ، لو بعثت أصحابك إلى أهل نجد يدعونهم إلى دينك لرجوت أن يجيبوهم ، فقال : « إني أخاف عليهم أهل نجد » ، فقال أبو براء : أنا جارٌ لهم ، فبعث معه أربعين رجلاً - فى قول ابن إسحاق ، وفى الصحيح أنهم كانوا سبعين ، والذى فى الصحيح هو الصحيح - وأمر عليهم المنذر بن عمرو أحد بنى ساعدة الملقب بالمُعَنَقَ لِيَمُوت^(٢) ، وكانوا من خيار المسلمين وفضلائهم وساداتهم وقرائهم ، فساروا يحيطون بالنهار ، يشترون به الطعام لأهل الصفة ، ويتدارسون القرآن ويصلون بالليل ، حتى نزلوا بئر معونة - وهى أرض بين بنى عامر وحرّة بنى سليم - فنزلوا هناك ، ثم بعثوا حرام بن ملحان أخا أم سليم بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطفيل ، فلم ينظر فيه ، وأمر رجلاً فطعنه بالحربة من خلفه ، فلما أنفذها فيه رأى الدم ، قال حرام : الله أكبر ، فزُت ورب الكعبة .

ثم استنفر عدو الله لفوره بنى عامر إلى قتال الباقيين ، فلم يجيبوه لأجل جوار أبي براء ، فاستنفر بنى سليم ، فأجابته عصبية ورغل وذكوان ، فجاءوا حتى أحاطوا بأصحاب رسول الله ﷺ ، فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم إلا كعب بن زيد بن النجار ، فإنه ارتث^(٣) من بين القتلى ، فعاش حتى قتل يوم الخندق .

وكان عمرو بن أمية الضمري والمنذر بن عقبة بن عامر فى سرح المسلمين فرأيا الطير

(١) ابن هشام ٢ / ١٦٩ - ١٧٩ ، وزاد المعاد ٢ / ١٠٩ ، وصحيح البخارى ٢ / ٥٦٨ ، ٥٦٩ ، ٥٨٥ .

(٢) لُقِبَ بذلك لأنه أسرع إلى الشهادة .

(٣) رُفِعَ وبه جراح .

تحوم على موضع الوقعة ، فنزل المنذر ، فقاتل المشركين حتى قتل مع أصحابه ، وأسر عمرو بن أمية الضمري ، فلما أخبر أنه من مُضَرَّ جَزَّ عامر ناصيته ، وأعتقه عن رقبة كانت على أمه .

ورجع عمرو بن أمية الضمري إلى النبي ﷺ حاملاً معه أبناء المصاب الفادح ، مصرع سبعين من أفاضل المسلمين ، تذكر نكبتهم الكبيرة بنكبة أحد ؛ إلا أن هؤلاء ذهبوا في قتال واضح ؛ وأولئك ذهبوا في غدر شائنة .

ولما كان عمرو بن أمية في الطريق بالقرقرة من صدر قناة ، نزل في ظل شجرة ، وجاء رجلان من بني كلاب فنزلا معه ، فلما ناما فتك بهما عمرو ، وهو يرى أنه قد أصاب ثأر أصحابه ، وإذا معهما عهد من رسول الله ﷺ لم يشعر به ، فلما قدم أخبر رسول الله ﷺ بما فعل ، فقال : « لقد قتلت قتيلين لأدينيهما » ، وانشغل بجمع ديتهما من المسلمين ومن حلفائهم اليهود (١) ، وهذا الذي صار سبباً لغزوة بني النضير ، كما سيذكر .

وقد تألم النبي ﷺ لأجل هذه المأساة ، ولأجل مأساة الرجيع اللتين وقعتا خلال أيام معدودة (٢) ، تألماً شديداً ، وتغلب عليه الحزن والقلق (٣) ، حتى دعا على هؤلاء الأقوام والقبائل التي قامت بالغدر والفتك في أصحابه . ففي الصحيح عن أنس قال : دعا النبي ﷺ على الذين قتلوا أصحابه بئر معونة ثلاثين صباحاً ، يدعو في صلاة الفجر على رِعلٍ وذُكُوانٍ ولَحِيَّانٍ وعُصَيَّةٍ ، ويقول : « عَصِيَّةُ عَصَتْ الله ورسوله » ، فأنزل الله تعالى على نبيه قرآناً قرأناه حتى نسخ بعد : « بلغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضى عنا ورضينا عنه » فترك رسول الله ﷺ قُنُونَهُ (٤) .

غزوة بني النضير :

قد أسلفنا أن اليهود كانوا يتحرقون على الإسلام والمسلمين إلا أنهم لم يكونوا أصحاب حرب وضرب ، بل كانوا أصحاب دس ومؤامرة ، فكانوا يجاهرون بالحقد والعداوة ، ويختارون أنواعاً من الحيل ؛ لإيقاع الإيذاء بالمسلمين دون أن يقوموا للقتال مع ما كان بينهم وبين المسلمين من عهود ومواثيق ، وأنهم بعد وقعة بني قينقاع وقتل كعب بن الأشرف خافوا على أنفسهم فاستكانوا والتزموا الهدوء والسكوت .

ولكنهم بعد وقعة أحد تجرأوا ، فكاشفوا بالعداوة والغدر ، وأخذوا يتصلون بالمنافقين وبالمشركين من أهل مكة سراً ، ويعملون لصالحهم ضد المسلمين (٥) .

وصبر النبي ﷺ حتى ازدادوا جرأة وجسارة بعد وقعة الرجيع وبئر معونة ، حتى قاموا بمؤامرة تهدف القضاء على النبي ﷺ .

(١) انظر : ابن هشام ٢ / ١٨٣ - ١٨٨ ، وزاد المعاد ٢ / ١٠٩ ، ١١٠ ، وصحيح البخاري ٢ / ٥٨٤ ، ٥٨٦ .

(٢) ذكر ابن سعد أن خبر أصحاب الرجيع وخبر أصحاب بئر معونة أتى النبي ﷺ في ليلة واحدة (٥٣ / ٢) .

(٣) روى ابن سعد عن أنس : ما رأيت رسول الله ﷺ وجد على أحد ما وجد على أصحاب بئر معونة (٥٤ / ٢) .

(٤) البخاري ٢ / ٥٨٦ - ٥٨٨ .

(٥) يؤخذ ذلك مما رواه أبو داود في باب خبر النضير ٣ / ١١٦ ، ١١٧ (عون المعبود شرح سنن أبي داود) .

وبيان ذلك : أنه ﷺ خرج إليهم في نفر من أصحابه ، وكلمهم أن يعينوه في دية الكلابيين اللذين قتلها عمرو بن أمية الضمري - وكان ذلك يجب عليهم حسب بنود المعاهدة - فقالوا : نفعل يا أبا القاسم ، اجلس ها هنا حتى نقضى حاجتك . فجلس إلى جنب جدار من بيوتهم ينتظر وفاءهم بما وعدوا ، وجلس معه أبو بكر وعمر وعلى وطائفة من أصحابه .

وخلا اليهود بعضهم إلى بعض ، وسول لهم الشيطان الشقاء الذي كتب عليهم ، فتآمروا بقتله ﷺ ، وقالوا : أيكم يأخذ هذه الرحى ، ويصعد فيلقئها على رأسه يشدخه بها ؟ ... فقال أشقاهم عمرو بن جحاش : أنا . فقال لهم سلام بن مشكم : لا تفعلوا ، فوالله ليخبرن بما هممنتم به ، وإنه لنقض للعهد الذي بيننا وبينه . ولكنهم عزموا على تنفيذ خطتهم .

ونزل جبريل من عند رب العالمين على رسوله ﷺ يعلمه بما هموا به ، فنهض مسرعاً وتوجه إلى المدينة ، ولحقه أصحابه فقالوا : نهضت ولم نشعر بك ، فأخبرهم بما هممت به يهود .

وما لبث رسول الله ﷺ أن بعث محمد بن مسلمة إلى بني النضير يقول لهم : « اخرجوا من المدينة ولا تسكنوني بها ، وقد أجلتكم عشراً ، فمن وحدث بعد ذلك بها ضربت عنقه » . ولم يجد يهود مناصاً من الخروج ، فأقاموا أياماً يتجهزون للرحيل ، بيد أن رئيس المنافقين - عبد الله بن أبي - بعث إليهم أن اثبتوا وتمنعوا ، ولا تخرجوا من دياركم ، فإن ألفين يدخلون معكم حصنكم ، فيموتون دونكم ﴿ لئن أخرجتكم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم ﴾ [الحشر: ١١] وتنصركم قريظة وحلفائكم من غطفان .

وهناك عادت لليهود ثقتهم ، واستقر رأيهم على المناوأة ، وطمع رئيسهم حبي بن أخطب فيما قاله رأس المنافقين ، فبعث إلى رسول الله ﷺ يقول : إنا لا نخرج من ديارنا ، فاصنع ما بدا لك .

ولا شك أن الموقف كان حرجاً بالنسبة للمسلمين ، فإن اشتباكهم بخصومهم في هذه الفترة المحرجة من تاريخهم لم يكن مأمون العواقب ، وقد رأوا كلب العرب عليهم وفكهم الشنيع ببعوئهم ، ثم إن يهود بني النضير كانوا على درجة من القوة تجعل استسلامهم بعيد الاحتمال ، وتجعل فرض القتال معهم محفوفاً بالمكاره ، إلا أن الحال التي جدت بعد مأساة بئر معونة وما قبلها زادت حساسية المسلمين بجرائم الاغتيال والغدر التي أخذوا يتعرضون لها جماعات وأفراداً ، وضاعفت نفقتهم على مقترفيها ، ومن ثم قرروا أن يقاتلوا بني النضير - بعد همهم باغتيال الرسول ﷺ - مهما تكن النتائج .

فلما بلغ رسول الله ﷺ جواب حبي بن أخطب كبر وكبر أصحابه ، ثم نهض لمناجزة القوم ، فاستعمل على المدينة ابن أم مكتوم ، وسار إليهم ، وعلى بن أبي طالب يحمل اللواء ، فلما انتهى إليهم فرض عليهم الحصار .

والتجأ بنو النضير إلى حصونهم ، فأقاموا عليها يرمون بالنبل والحجارة ، وكانت نخيلهم وبساتينهم عوناً لهم في ذلك ، فأمر بقطعها وتحريقها ، وفي ذلك يقول حسان :

وهان على سرّاة ^(١) بنى لؤى حريق بالبويرة مستطير

البويرة : اسم لنخل بنى النضير ، وفي ذلك أنزل الله تعالى : ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [الحشر : ٥] .

واعترلتهم قريظة ، وخانهم عبد الله بن أبي وحلفاؤهم من غطفان ، فلم يحاول أحد أن يسوق لهم خيراً ، أو يدفع عنهم شراً ، ولهذا شبه سبحانه وتعالى قصتهم ، وجعل مثلهم : ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ ﴾ [الحشر : ١٦] .

ولم يطل الحصار - فقد دام ست ليال فقط ، وقيل : خمس عشرة ليلة - حتى قذف الله في قلوبهم الرعب ، فاندحروا وتهيأوا للاستسلام ولإلقاء السلاح ، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ : نحن نخرج عن المدينة . فأنزلهم على أن يخرجوا عنها بنفوسهم وذرائعهم ، وأن لهم ما حملت الإبل إلا السلاح .

فنزّلوا على ذلك ، وخربوا بيوتهم بأيديهم ، ليحملوا الأبواب والشبابيك ، بل حتى حمل بعضهم الأوتاد وجذوع السقف ، ثم حملوا النساء والصبيان ، وتحملوا على ستمائة بعير ، فترحل أكثرهم وأكابرهم كحیی بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق إلى خيبر ، وذهبت طائفة منهم إلى الشام ، وأسلم منهم رجلان فقط : يامين بن عمرو وأبو سعد بن وهب ، فأحرزا أموالهما .

وقبض رسول الله ﷺ سلاح بنى النضير ، واستولى على أرضهم وديارهم وأموالهم ، فوجد من السلاح خمسين درعاً وخمسين بيضة ، وثلاثمائة وأربعين سيفاً .

وكانت أموال بنى النضير وأرضهم وديارهم خالصة لرسول الله ﷺ ؛ يضعها حيث يشاء ، ولم يُخمسها لأن الله أفاءها عليه ، ولم يُوجِف المسلمون عليها بخيل ولا ركاب ، فقسّمها بين المهاجرين الأولين خاصة ، إلا أنه أعطى أبا دُجّانة وسهل بن حنيف الأنصاريين لفقرهما . وكان ينفق منها على أهله نفقة سنة ، ثم يجعل ما بقى في السلاح والكرّاع عدة في سبيل الله .

كانت غزوة بنى النضير في ربيع الأول سنة ٤ من الهجرة ، أغسطس ٦٢٥ م ، وأنزل الله في هذه الغزوة سورة الحشر بأكملها ، فوصف طرد اليهود ، وفضح مسلك المنافقين ، وبين أحكام الفء ، وأثنى على المهاجرين والأنصار ، وبين جواز القطع والحرق في أرض العدو للمصالح الحربية ، وأن ذلك ليس من الفساد في الأرض ، وأوصى المؤمنين بال التزام التقوى والاستعداد للآخرة ، ثم ختمها بالثناء على نفسه وبيان أسمائه وصفاته .

وكان ابن عباس يقول عن سورة الحشر : قل : سورة النضير ^(٢) .

(١) أشرف .

(٢) ابن هشام ٢ / ١٩٠ - ١٩٢ ، وزاد المعاد ٢ / ٧١ ، ١١٠ ، وصحيح البخارى ٢ / ٥٧٤ ، ٥٧٥ .

هذه خلاصة ما رواه ابن إسحاق وعامة أهل السير حول هذه الغزوة . وقد روى أبو داود وعبد الرزاق وغيرهما سبباً آخر حول هذه الغزوة ، وهو أنه لما كانت وقعة بدر فكتبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود : إنكم أهل الحلقة والحصون ، وإنكم لتقاتلن صاحبنا أو لنفعلن كذا وكذا ، ولا يحول بيننا وبين خدَم نساءكم شيء - وهو الخلاخيل - فلما بلغ كتابهم اليهود أجمعت بنو النضير على الغدر ، فأرسلوا إلى النبي ﷺ : اخرج إلينا في ثلاثين رجلاً من أصحابك ، ولنخرج في ثلاثين حبراً ، حتى نلتقى في مكان كذا ، نصَف بيننا وبينكم ، فيسمعوا منك ، فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا كلنا ، فخرج النبي ﷺ في ثلاثين من أصحابه ، وخرج إليه ثلاثون حبراً من يهود ، حتى إذا برزوا في براز من الأرض قال بعض اليهود لبعض : كيف تخلصون إليه ومعه ثلاثون رجلاً من أصحابه ، كلهم يحب أن يموت قبله ، فأرسلوا إليه : كيف تفهم ونفهم ونحن ستون رجلاً ؟ اخرج في ثلاثة من أصحابك ويخرج إليك ثلاثة من علمائنا ، فليسمعوا منك ، فإن آمنوا بك آمنا كلنا وصدقناك ، فخرج النبي ﷺ في ثلاثة نفر من أصحابه واشتملوا (أى اليهود) على الخناجر ، وأرادوا الفتك برسول الله ﷺ ، فأرسلت امرأة ناصحة من بنى النضير إلى بنى أخيهما ، وهو رجل مسلم من الأنصار ، فأخبرته خبر ما أرادت بنو النضير من الغدر برسول الله ﷺ ، فأقبل أخوها سريعاً حتى أدرك النبي ﷺ ، فساره بخبرهم قبل أن يصل النبي ﷺ إليهم ، فرجع النبي ﷺ ، فلما كان من الغد غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب فحاصرهم ، وقال لهم : « إنكم لا تأمنون عندي إلا بعهد تعاهدوني عليه » ، فأبوا أن يعطوه عهداً ، فقاتلهم يومهم ذلك هو والمسلمون ، ثم غدا الغد على بنى قريظة بالخيل والكتائب ، وترك بنى النضير ، ودعاهم إلى أن يعاهدوه ، فعاهدوه ، فانصرف عنهم ، وغدا إلى بنى النضير بالكتائب ، فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء ، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل إلا الحلقة - والحلقة : السلاح - فجاءت بنو النضير واحتملوا ما أقلت إبل من أمتعتهم وأبواب بيوتهم وخشبها ، فكانوا يخربون بيوتهم فيهدمونها ، فيحملون ما وافقهم من خشبها ، وكان جلاؤهم ذلك أول حشر الناس إلى الشام (١) .

غزوة نجد :

وبهذا النصر الذى أحرزه المسلمون - فى غزوة بنى النضير - دون قتال وتضحية توطد سلطانهم فى المدينة ، وتخاذل المنافقون عن الجهر بكيدهم ، وأمكن للرسول ﷺ أن يتفرغ لقمع الأعراب الذين آذوا المسلمين بعد أحد ، وتواثبوا على بعوث الدعاة يقتلون رجالها فى ندالة وكفران ، وبلغت بهم الجراة إلى أن أرادوا القيام بجر غزوة على المدينة .

فقبل أن يقوم النبي ﷺ بتأديب أولئك الغادرين ، نقلت إليه استخبارات المدينة بتحشد جموع البدو والأعراب من بنى مُحَارِب وبنى ثعلبة من غَطَفَان ، فسارع النبي ﷺ إلى الخروج ، يجوس فيافي نجد ، ويلقى بذور الخوف فى أفئدة أولئك البدو القساة حتى لا يعاودوا

(١) مصنف عبد الرزاق ٥ / ٣٥٨ - ٣٦٠ ح (٩٧٣٣) ، وسنن أبى داود : كتاب الخراج والفيء والإمارة ،

باب فى خبر النضير ٢ / ١٥٤ .

مناكرهم التى ارتكبها إخوانهم مع المسلمين .

وأضحى الأعراب الذين مردوا على النهب والسطو لا يسمعون بمقدم المسلمين إلا حذروا وتمنعوا فى رءوس الجبال ، وهكذا أربح المسلمون هذه القبائل المغيرة ، وخلطوا بمشاعرهم الرعب ، ثم رجعوا إلى المدينة آمنين .

وقد ذكر أهل المغازى والسير بهذا الصدد غزوة معينة غزاها المسلمون فى أرض نجد فى شهر ربيع الثانى أو جمادى الأولى سنة ٤ هـ ، ويسمون هذه الغزوة بغزوة ذات الرقاع . أما وقوع الغزوة خلال هذه المدة فهو أمر تقتضيه ظروف المدينة ، فإن موسم غزوة بدر التى كان قد تواعد بها أبو سفيان حين انصرافه من أحد ، كان قد اقترب . وإخلاء المدينة ، مع ترك البدو والأعراب على تمردهم وغطرستهم ، والخروج لمثل هذا اللقاء الرهيب لم يكن من مصالح سياسة الحروب قطعاً ، بل كان لا بد من خضد شوكتهم وكف شرهم ، قبل الخروج لمثل هذه الحرب الكبيرة ، التى كانوا يتوقعون وقوعها فى رحاب بدر .

وأما أن تلك الغزوة التى قادها الرسول ﷺ فى ربيع الآخر أو جمادى الأولى سنة ٤ هـ هى غزوة ذات الرقاع فلا يصح ، فإن غزوة ذات الرقاع شهدا أبو هريرة وأبو موسى الأشعري رضي الله عنهما ، وكان إسلام أبى هريرة قبل غزوة خيبر بأيام ، وكذلك أبو موسى الأشعري رضي الله عنهما وافى النبي ﷺ بخيبر . وإذن فغزوة ذات الرقاع بعد خيبر ، ويدل على تأخرها عن السنة الرابعة أن النبي ﷺ صلى فيها صلاة الخوف ، وكانت أول شرعية صلاة الخوف فى غزوة عُسْفَانَ ، ولا خلاف أن غزوة عسفان كانت بعد الخندق ، وكانت غزوة الخندق فى أواخر السنة الخامسة .

غزوة بدر الثانية :

ولما خضد المسلمون شوكة الأعراب ، وكفكفوا شرهم ، أخذوا يتجهزون لملاقاة عدوهم الأكبر ، فقد استدار العام وحضر الموعد المضروب مع قريش - فى غزوة أحد - وحق لمحمد ﷺ وصحبه أن يخرجوا ؛ ليواجهوا أبا سفيان وقومه ، وأن يديروا رحى الحرب كرة أخرى حتى يستقر الأمر لأهدى الفريقين وأجدرهما بالبقاء .

ففى شعبان سنة ٤ هـ يناير سنة ٦٢٦ م خرج رسول الله ﷺ لموعده فى ألف وخمسمائة ، وكانت الخيل عشرة أفراس ، وحمل لواءه على بن أبى طالب ، واستخلف على المدينة عبد الله بن رواحة ، وانتهى إلى بدر ، فأقام بها ينتظر المشركين .

وأما أبو سفيان فخرج فى ألفين من مشركى مكة ، ومعهم خمسون فرساً ، حتى انتهى إلى مَرِّ الظَّهْرَانِ على بعد مرحلة من مكة فنزل بِمَجَنَّةٍ - ماء فى تلك الناحية .

خرج أبو سفيان من مكة مثاقلاً يفكر فى عقبى القتال مع المسلمين ، وقد أخذه الرعب ، واستولت على مشاعره الهيبة ، فلما نزل بمر الظهران خار عزمه ، فاحتال للرجوع ، وقال لأصحابه: يا معشر قريش ، إنه لا يصلحكم إلا عام خصب ترعون فيه الشجر ، وتشربون فيه اللبن ، وإن عامكم هذا عام جدد ، وإنى راجع فارجعوا .

ويبدو أن الخوف والهبة كانت مستولية على مشاعر الجيش أيضاً ، فقد رجع الناس ولم يبدوا أى معارضة لهذا رأى ، ولا أى إصرار وإلحاح على مواصلة السير للقاء المسلمين .

وأما المسلمون فأقاموا ببدر ثمانية أيام ينتظرون العدو ، وباعوا ما معهم من التجارة فربحوا بدرهم درهمين ، ثم رجعوا إلى المدينة وقد انتقل زمام المفاجأة إلى أيديهم ، وتوطدت هيبته في النفوس ، وسادوا على الموقف .

وتعرف هذه الغزوة ببدر الموعد ، وبدر الثانية ، وبدر الآخرة ، وبدر الصغرى (١) .

غزوة دومة الجندل :

عاد رسول الله ﷺ من بدر ، وقد ساد المنطقة الأمن والسلام ، واطمأنت دولته ، فتنفرغ للتوجه إلى أقصى حدود العرب حتى تصير السيطرة للمسلمين على الموقف ، ويعترف بذلك المواليون والمعادون .

مكث بعد بدر الصغرى في المدينة ستة أشهر ، ثم جاءت إليه الأخبار بأن القبائل حول دومة الجندل - قريباً من الشام - تقطع الطريق هناك ، وتنهب ما يمر بها وأنها قد حشدت جمعاً كبيراً تريد أن تهاجم المدينة ، فاستعمل رسول الله ﷺ على المدينة سباع بن عُرْفُطَةَ الغفاري ، وخرج في ألف من المسلمين لخمس ليال بقين من ربيع الأول سنة ٥هـ ، وأخذ رجلاً من بني عذرة دليلاً للطريق يقال له : مذكور .

خرج يسير الليل ويكمن النهار حتى يفاجئ أعداءهم وهم غارون ، فلما دنا منهم إذا هم مغربون ، فهجم على ما شيتهم ورعائهم ، فأصاب من أصاب ، وهرب من هرب .

وأما أهل دومة الجندل ففروا في كل وجه ، فلما نزل المسلمون بساحتهم لم يجدوا أحداً ، وأقام رسول الله ﷺ أياماً ، وبث السرايا وفرق الجيوش ، فلم يصب منهم أحداً ، ثم رجع إلى المدينة ، ووادع في تلك الغزوة عيينة بن حصن . ودومة بالضم : موضع معروف بمشارف الشام بينها وبين دمشق خمس ليال ، وبعدها من المدينة خمس عشرة ليلة .

بهذه الإجراءات السريعة الحاسمة ، وبهذه الخطط الحكيمة الحازمة نجح النبي ﷺ في بسط الأمن ، وتنفيذ السلام في المنطقة ، والسيطرة على الموقف ، وتحويل مجرى الأيام لصالح المسلمين ، وتخفيف المتاعب الداخلية والخارجية التي كانت قد توالى عليهم وأحاطت بهم من كل جانب ، فقد سكت المنافقون واستكانوا ، وتم إجلاء قبيلة من اليهود ، وبقيت الأخرى تظاهر بإيفاء حق الجوار ، وإيفاء العهود والمواثيق ، واستكانت البدو والأعراب ، وحادت قريش عن مهاجمة المسلمين ، ووجد المسلمون فرصة لنشر الإسلام وتبليغ رسالات رب العالمين .

(١) انظر لتفصيل هذه الغزوة : ابن هشام ٢ / ٢٠٩ ، ٢١٠ ، وراود الماد ٢ / ١١٢ .

غزوة الأحزاب

عاد الأمن والسلام ، وهذأت الجزيرة العربية بعد الحروب والبعوث التي استغرقت أكثر من سنة كاملة ، إلا أن اليهود - الذين كانوا قد ذاقوا ألراًناً من الذلة والهوان نتيجة غدرهم وخيانتهم ومؤامراتهم ودسائسهم - لم يفيقوا من غيهم ، ولم يستكينوا ، ولم يتعظوا بما أصابهم من نتيجة الغدر والتآمر . فهم بعد نفيهم إلى خيبر ظلوا ينتظرون ما يحل بالمسلمين من خلال المناوشات التي كانت قائمة بين المسلمين والوثنيين ، ولما تحول مجرى الأيام لصالح المسلمين ، وتمخضت الليالي والأيام عن بسط نفوذهم ، وتوطد سلطانهم - تحرق هؤلاء اليهود أى تحرق .

وشرعوا فى التآمر من جديد على المسلمين ، وأخذوا يعدون العدة ، لتصويب ضربة إلى المسلمين تكون قاتلة لا حياة بعدها . ولما لم يكونوا يجدون فى أنفسهم جرأة على قتال المسلمين مباشرة ، خططوا لهذا الغرض خطة رهيبة .

خرج عشرون رجلاً من زعماء اليهود وسادات بنى النضير إلى قريش بمكة ، يحرضونهم على غزو الرسول ﷺ ، ويوالونهم عليه ، ووعدوهم من أنفسهم بالنصر لهم ، فأجابتهم قريش ، وكانت قريش قد أخلفت موعدها فى الخروج إلى بدر ، فرأت فى ذلك إنفاذا لسمعتها والبر بكلمتها .

ثم خرج هذا الوفد إلى غطفان ، فدعاهم إلى ما دعا إليه قريشاً فاستجابوا لذلك ، ثم طاف الوفد فى قبائل العرب يدعوهم إلى ذلك فاستجاب له من استجاب ، وهكذا نجح ساسة اليهود وقادتهم فى تأليب أحزاب الكفر على النبى ﷺ والمسلمين .

وعلى إثر ذلك خرجت من الجنوب قريش وكنانة وحلفاؤهم من أهل تهامة - وقائدهم أبو سفيان - فى أربعة آلاف ، ووافاهم بنو سليم بمر الظهران ، وخرجت من الشرق قبائل غطفان : بنو فزارة ، يقودهم عيينة بن حصن ، وبنو مرة ، يقودهم الحارث بن عوف ، وبنو أشجع ، يقودهم مسعر بن ربيعة ، كما خرجت بنو أسد وغيرها .

واتجهت هذه الأحزاب وتحركت نحو المدينة على ميعاد كانت قد تعاقدت عليه .

وبعد أيام تجمع حول المدينة جيش عرمرم يبلغ عدده عشرة آلاف مقاتل ، جيش ربما يزيد عدده على جميع من فى المدينة من النساء والصبيان والشباب والشيوخ .

ولو بلغت هذه الأحزاب والمحزبة والجند المجندة إلى أسوار المدينة بغتة لكانت أعظم خطراً على كيان المسلمين مما يقاس ، وربما تبلغ إلى استئصال الشافة وإبادة الخضر ، ولكن قيادة المدينة كانت قيادة متيقظة ، لم تزل واضعة أناملها على العروق النابضة ، تتجسس الظروف ، وتقدر ما يتمخض عن مجراها ، فلم تكذب تحرك هذه الجيوش عن مواضعها حتى نقلت استخبارات المدينة إلى قيادتها فيها بهذا الزحف الخطير .

وسارع رسول الله ﷺ إلى عقد مجلس استشارى أعلى ، تناول فيه موضوع خطة الدفاع عن كيان المدينة ، وبعد مناقشات جرت بين القادة وأهل الشورى اتفقوا على قرار قدمه الصحابى النبيل سلمان الفارسى رضي الله عنه .

قال سلمان : يا رسول الله ، إنا كنا بأرض فارس إذا حوصرنا خندقنا علينا . وكانت خطة حكيمة لم تكن تعرفها العرب قبل ذلك .

وأسرع رسول الله ﷺ إلى تنفيذ هذه اللحظة ، فوكل إلى كل عشرة رجال أن يحفروا من الخندق أربعين ذراعاً ، وقام المسلمون بجِد ونشاط يحفرون الخندق ، ورسول الله ﷺ يحثهم ويساهمهم فى عملهم هذا . ففى البخارى عن سهل بن سعد ، قال : كنا مع رسول الله فى الخندق ، وهم يحفرون ، ونحن ننقل التراب على أكتادنا ^(١) ، فقال رسول الله ﷺ : « اللهم لا عيش إلا عيشُ الآخرة ، فاغفر للمهاجرين والأنصار » ^(٢) .

وعن أنس : خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق فإذا المهاجرين والأنصار يحفرون فى غداة باردة ، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم ، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال :

«اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة»

فقالوا مجيبين له :

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً ^(٣)

وفيه عن البراء بن عازب قال : رأيته عليه السلام ينقل من تراب الخندق حتى وارى عنى الغبار جلدة بطنه ، وكان كثير الشعر ، فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحة ، وهو ينقل من التراب ويقول :

«اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينه علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألى رغبوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا»

قال : ثم يمد بها صوته بأخرها ، وفى رواية :

« إن الألى قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا » ^(٤)

كان المسلمون يعملون بهذا النشاط وهم يقاسون من شدة الجوع ما يفتت الأكباد ، قال أنس : (كان أهل الخندق) يؤتون بملء كفى من الشعير ، فيصنع لهم بإهالة ^(٥) نسخة ^(٥) توضع بين يدى القوم ، والقوم جياع ، وهى بشعة فى الحلق ولها ريح ^(٦) ..

وقال أبو طلحة : شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع ، فرفعنا عن بطوننا عن حجر

(١) جمع كَدَد ، وهو مجتمع الكتفين . (٢) صحيح البخارى : باب غزوة الخندق ٢ / ٥٨٨ .

(٣) صحيح البخارى ١ / ٣٩٧ ، ٢ / ٥٨٨ . (٤) المصدر نفسه ٢ / ٥٨٩ .

(٥) الإهالة : الدهن ، وسنخة : أى تغيرت من طول بقائها .

(٦) صحيح البخارى ٢ / ٥٨٨ .

حجر ، فرفع رسول الله ﷺ عن حجرين (١).

وبهذه المناسبة وقعت أثناء حفر الخندق آيات من أعلام النبوة ، رأى جابر بن عبد الله فى النبى ﷺ خمصاً شديداً فذبح بهيمة ، وطحنت امرأته صاعاً من شعير ، ثم التمس من رسول الله ﷺ سراً أن يأتى فى نفر من أصحابه ، فقام النبى ﷺ بجميع أهل الخندق ، وهم ألف ، فأكلوا من ذلك الطعام وشبعوا ، وبقيت بُرْمَةٌ اللحم تغط به كما هى ، وبقي العجين يخبز كما هو (٢) .

وجاءت أخت النعمان بن بشير بحَفَنَةٍ من تمر إلى الخندق ليتغدى به أبوه وخاله ، فمرت برسول الله ﷺ ، فطلب منها التمر ، وبدده فوق ثوب ، ثم دعا أهل الخندق ، فجعلوا يأكلون منه وجعل التمر يزيد ، حتى صدر أهل الخندق عنه ، وإنه يسقط من أطراف الثواب (٣) .

وأعظم من هذين ما رواه البخارى عن جابر قال: إنا يوم خندق نحفر ، فعرضت كُدِيَّةٌ شديدة ، فجاءوا النبى ﷺ فقالوا : هذه كدية عرضت فى الخندق . فقال : «أنا نازل» ، ثم قام ويطنه معصوب بحجر - ولبنا ثلاثة لا ندوق ذواقاً - فأخذ النبى ﷺ المِعْوَل ، فضرب فعاد كشيئاً أهيل أو أهيم (٤) ، أى صار رملاً لا يتماسك .

وقال البراء: لما كان يوم الخندق عرضت لنا فى بعض الخندق صخرة لا تأخذ منها الماعول، فاشتكىنا ذلك لرسول الله ﷺ ، فجاء وأخذ المِعْوَل فقال : «بسم الله» ، ثم ضرب ضربة ، وقال : «الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام ، والله إني لأنظر قصورها الحمر الساعة» ، ثم ضرب الثانية فقطع آخر ، فقال: «الله أكبر ، أعطيت فارس ، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن» ، ثم ضرب الثالثة ، فقال : «بسم الله» ، فقطع بقية الحجر ، فقال : «الله أكبر ، أعطيت مفاتيح اليمن ، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني» (٥) .

وروى ابن إسحاق مثل ذلك عن سلمان الفارسي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (٦) .

ولما كانت المدينة تحيط بها الحرات والجبال وبساتين من النخيل من كل جانب سوى الشمال ، وكان النبى ﷺ يعلم أن زحف مثل هذا الجيش الكبير ، ومهاجمته المدينة لا يمكن إلا من جهة الشمال ، اتخذ الخندق فى هذا الجانب .

وواصل المسلمون عملهم فى حفرة ، فكانوا يحفرونه طول النهار ، ويرجعون إلى أهليهم فى المساء ، حتى تكامل الخندق حسب الخطة المنشودة ، قبل أن يصل الجيش الوثنى العرمرم إلى أسوار المدينة (٧) .

وأقبلت قريش فى أربعة آلاف ، حتى نزلت بمجتمع الأسياال من رُومَةٍ بين الجُرْفِ

(١) رواه الترمذى ، مشكاة المصابيح ٢ / ٤٤٨ .

(٢) روى ذلك البخارى ٢ / ٥٨٨ ، ٥٨٩ . (٣) ابن هشام ٢ / ٢١٨ .

(٤) صحيح البخارى ٢ / ٥٨٨ .

(٥) سنن النسائي ٢ / ٥٦ ، وأحمد فى مسنده ٣٠٣ / ٤ واللفظ ليس للنسائي ، وفيه عن رجل من الصحابة .

(٦) ابن هشام ٢ / ٢١٩ . (٧) المصدر نفسه ٣ / ٣٣٠ ، ٣٣١ .

وَرَغَابَةً ، وَأَقْبَلَتْ غَطَفَانٌ وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ فِي سِتَّةِ آلَافٍ حَتَّى نَزَلُوا بِذَنْبٍ نَقَمَى إِلَى جَانِبِ أَحَدٍ .

﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢) ﴾ [الأحزاب] .

وأما المنافقون وضعفاء النفوس فقد تزعزعت قلوبهم لرؤية هذا الجيش ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (٢٣) ﴾ [الأحزاب] .

وخرج رسول الله ﷺ في ثلاثة آلاف من المسلمين ، فجعلوا ظهورهم إلى جبل سلع فتحصنوا به ، والخذق بينهم وبين الكفار . وكان شعارهم : « حم لا ينصرون » ، واستحلف على المدينة ابن أم مكتوم ، وأمر بالنساء والذراري فجعلوا في آطام (١) المدينة .

ولما أراد المشركون مهاجمة المسلمين واقتحام المدينة ، وجدوا خندقاً عريضاً يحول بينهم وبينها ، فالتجأوا إلى فرض الحصار على المسلمين ، بينما لم يكونوا مستعدين له حين خرجوا من ديارهم ، إذ كانت هذه الخطة - كما قالوا - مكيدة ما عرفتها العرب ، فلم يكونوا أدخلوها في حسابهم رأساً .

وأخذ المشركون يدورون حول الخندق غضاباً ، يتحسسون نقطة ضعيفة ؛ لينحدروا منها ، وأخذ المسلمون يتطلعون إلى جولات المشركين ، يرشقونهم بالنبل ، حتى لا يجترئوا على الاقتراب منه ، ولا يستطيعوا أن يقتحموه ، أو يهيلوا عليه التراب ، ليبينوا به طريقاً يمكنهم من العبور .

وكره فوارس من قريش أن يقفوا حول الخندق من غير جدوى في ترقب نتائج الحصار ، فإن ذلك لم يكن من شيمهم ، فخرجت منها جماعة فيها عمرو بن عبد ود وعكرمة بن أبي جهل وضرار بن الخطاب وغيرهم ، فتميموا مكاناً ضيقاً من الخندق فاقتحموه ، وجالت بهم خيلهم في السبخة بين الخندق وسلع ، وخرج على بن أبي طالب في نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التي أقحموا منها خيلهم ، ودعا عمرو إلى المبارزة ، فانتدب له على بن أبي طالب ، وقال كلمة حمى لأجلها - وكان من شجعان المشركين وأبطالهم - فاقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه ، ثم أقبل على على ، فتجالوا وتصالوا حتى قتله على ﷺ ، وانهزم الباقون حتى اقتحموا الخندق هارين ، وقد بلغ بهم الرعب إلى أن ترك عكرمة رمحه وهو منهزم عن عمرو .

وقد حاول المشركون في بعض الأيام محاولة بليغة لاقتحام الخندق ، أو لبناء الطرق فيها ، ولكن المسلمين كافحوا مكافحة مجيدة ، ورشقوهم بالنبل ، وناصلوهم أشد النضال حتى فشل المشركون في محاولتهم .

ولأجل الاشتغال بمثل هذه المكافحة الشديدة فات بعض الصلوات عن رسول الله ﷺ والمسلمين ، ففي الصحيحين عن جابر ﷺ : أن عمر بن الخطاب جاء يوم الخندق ، فجعل

يسب كفار قريش . فقال : يا رسول الله ﷺ ، ما كدت أن أصلى حتى كادت الشمس أن تغرب ، فقال النبي ﷺ : « وأنا والله ما صليتها » ، فنزلنا مع النبي ﷺ بَطْحَانَ ، فتوضاً للصلاة ، وتوضأنا لها ، فصلّى العصر بعد ما غربت الشمس ، ثم صلى بعدها المغرب (١) .

وقد استاء رسول الله ﷺ لفوات هذه الصلاة حتى دعا على المشركين ، ففى البخارى عن على عن النبي ﷺ أنه قال يوم الخندق : « ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم ناراً ، كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس » (٢) .

وفى مسند أحمد والشافعى أنهم حبسوه عن صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء فصلاهم جميعاً . قال النووى : وطريق الجمع بين هذه الروايات أن وقعة الخندق بقيت أياماً فكان هذا فى بعض الأيام ، وهذا فى بعضها . انتهى (٣) .

ومن هنا يؤخذ أن محاولة العبور من المشركين ، والمكافحة المتواصلة من المسلمين ، دامت أياماً ، إلا أن الخندق لما كان حائلاً بين الجيشين لم يجر بينهما قتال مباشر أو حرب دامية ، بل اقتصروا على المراماة والمناضلة .

وفى هذه المراماة قتل رجال من الجيشين ، يعدون على الأصابع : ستة من المسلمين ، وعشرة من المشركين ، بينما كان قتل واحد أو اثنين منهم بالسيف .

وفى هذه المراماة رمى سعد بن معاذ رُمِيَّ بسهم ففُتِحَ منه الأَكْحَلُ (٤) ، رماه رجل من قريش يقال له : حَبَّان بن العَرَقَة ، فدعا سعد : اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ أَجَاهِدَهُمْ فِيكَ مِنْ قَوْمٍ كَذَبُوا رَسُولَكَ وَأَخْرَجُوهُ ، اللَّهُمَّ فَإِنِّي أَظُنُّ أَنَّكَ قَدْ وَضَعْتَ الْحَرْبَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ ، فَإِنْ كَانَ بَقِيَ مِنْ حَرْبِ قُرَيْشٍ شَيْءٌ فَأَبْقِنِي لَهُمْ حَتَّى أَجَاهِدَهُمْ فِيكَ ، وَإِنْ كُنْتُ وَضَعْتَ الْحَرْبَ فَأَفْجَرَهَا وَاجْعَلْ مَوْتِي فِيهَا (٥) . وقال فى آخر دعائه : وَلَا تَمَتِّنِي حَتَّى تَقْرَعَ عَيْنِي مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ (٦) .

وبينما كان المسلمون يواجهون هذه الشدائد على جبهة المعركة كانت أفاعى الدس والتآمر تتقلب فى جحورها ، تريد إيصال السم داخل أجسادهم : انطلق كبير مجرمى بنى النضير حى بن أخطب إلى ديار بنى قريظة فأتى كعب بن أسد القرظى - سيد بنى قريظة وصاحب عقدهم وعهدهم ، وكان قد عاقد رسول الله ﷺ على أن ينصره إذا أصابته حرب ، كما تقدم - فضرب عليه حى الباب فأغلقه كعب دونه ، فما زال يكلمه حتى فتح له بابه ، فقال حى : إني قد جئتُك يا كعب بعز الدهر وبيحر طأم ، جئتُك بقريش على قادتها وسادتها ، حتى أنزلتهم بمجمع الأسيال من رُومَة ، وبغطفان على قادتها وسادتها ، حتى أنزلتهم بذئب نَقَمَى إلى جانب أحد ، قد عاهدونى وعاهدونى على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه .

(١) ، (٢) صحيح البخارى ٢ / ٥٩٠ .

(٤) عَرَقُ فى الذراع يُقَصَّد .

(٣) شرح مسلم للنووى ١ / ٢٢٧ .

(٦) ابن هشام ٣ / ٣٣٧ .

(٥) صحيح البخارى ٣ / ٥٩١ .

فقال له كعب : جئتني والله بذلّ الدهر بجَهَام (١) قد هَرَّاقَ ماؤه ، فهو يُرْعَدُ وَيُتْرَقُ ، ليس فيه شيء . ويحك يا حبي فدعني وما أنا عليه ، فإني لم أر من محمد إلا صدقاً ووفاء . فلم يزل حبي بكعب يَفْتَلُهُ في الذَّرْوَةِ والغَارِبِ (٢) ، حتى سمح له على أن أعطاه عهداً من الله وميثاقاً : لئن رجعت قريش وغطفان ، ولم يصيبوا محمداً أن أدخل معك في حصنك ، حتى يصيبني ما أصابك ، فنقض كعب بن أسد عهده ، وبرئ مما كان بينه وبين المسلمين ، ودخل مع المشركين في المحاربة ضد المسلمين (٣) .

وفعلًا قامت يهود بنى قريظة بعمليات الحرب . قال ابن إسحاق : كانت صفية بنت عبد المطلب في فارح حصن حسان بن ثابت ، وكان حسان فيه مع النساء والصبيان ، قالت صفية : فمر بنا رجل من يهود ، فجعل يطيف بالحصن ، وقد حاربت بنو قريظة وقطعت ما بينها وبين رسول الله ﷺ ، وليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنا ، ورسول الله ﷺ والمسلمون في غور عدوهم ، لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إن أتانا أت ، قالت : فقلت : يا حسان ، إن هذا اليهودي كما ترى يطيف بالحصن ، وإنني والله ما آمنه أن يدل على عورتنا من وراءنا من يهود ، وقد شغل عنا رسول الله ﷺ وأصحابه ، فانزل إليه فاقتله .

قال : والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا ، قالت : فاحتجزت (٤) ثم أخذت عموداً ، ثم نزلت من الحصن إليه ، فضربته بالعمود حتى قتلتها ، ثم رجعت إلى الحصن وقلت : يا حسان ، انزل إليه فاسلبه ، فإنه لم يمنعني من سبله إلا أنه رجل ، قال : ما لي بسلبه من حاجة (٥) .

وقد كان لهذا الفعل المجيد من عمة الرسول ﷺ أثر عميق في حفظ ذراري المسلمين ونسائهم ، ويبدو أن اليهود ظنوا أن هذه الآطام والحصون في منعة من الجيش الإسلامي - مع أنها كانت خالية عنهم تماماً - فلم يجترؤا مرة ثانية للقيام بمثل هذا العمل ، إلا أنهم أخذوا يمدون الغزاة الوثنيين بالمؤن ، كدليل عملي على انضمامهم إليهم ضد المسلمين ، حتى أخذ المسلمون من مؤنهم عشرين جملًا .

وانتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ وإلى المسلمين فبادر إلى تحقيقه ، حتى يستجلي موقف قريظة ، فيواجهه بما يجب من الوجهة العسكرية ، وبعث لتحقيق الخبر السعديين ؛ سعد بن معاذ وسعد بن عباد ، وعبد الله بن رواحة وخوات بن جبير ، وقال : «انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ؟ فإن كان حقاً فالحنوا لي لحاً أعرفه ، ولا تقتلوا في أعضاد الناس ، وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس» . فلما دنوا منهم وجدوهم على أخبث ما يكون ، فقد جاهروهم بالسب والعداوة ، ونالوا من رسول الله ﷺ .

(١) السحاب الذي لا ماء فيه .

(٢) الذَّرْوَةُ والغَارِبُ : أعلى ظهر البعير ، أى أنه لم يزل يخادعه كما يخادع البعير إذا كان نافرا .

(٣) ابن هشام ٢ / ٢٢٠ ، ٢٢١ . (٤) أى شددت وسطى .

(٥) ابن هشام ٢ / ٢٢٨ وذكر الحافظ ابن حجر : أن أحمد رواه بإسناد قوى عن عبد الله بن الزبير . فتح الباري ٢٨٥/٦ شرح كتاب فرض الخمس ، باب ١٨ من صحيح البخارى .

وقالوا : من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد ، ولا عقد . فانصرفوا عنهم ، فلما أقبلوا على رسول الله ﷺ لحنوا له ، وقالوا : عَضَلْ وَقَارَةٌ ؛ أى إنهم على غدر كغدر عضل وقارة بأصحاب الرجيع .

وعلى رغم محاولتهم إخفاء الحقيقة تظن الناس لجلية الأمر ، فتجسد أمامهم خطر رهيب .

وقد كان أخرج موقف يقفه المسلمون ، فلم يكن يحول بينهم وبين قريظة شيء يمنعهم من ضربهم من الخلف ، بينما كان أمامهم جيش عرمرم لم يكونوا يستطيعون الانصراف عنه ، وكانت ذرايعهم ونساؤهم بمقربة من هؤلاء الغادرين في غير منعة وحفظ ، وصاروا كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا (١١) ﴾ [الأحزاب] .

ونجم النفاق من بعض المنافقين حتى قال : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط . وحتى قال بعض آخر فى ملاء من رجال قومه : إن بيوتنا عورة من العدو ، فائذن لنا أن نخرج ، فنرجع إلى دارنا فإنها خارج المدينة . وحتى همت بنو سلمة بالفشل ، وفى هؤلاء أنزل الله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ (١٢) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا إِفْرَارًا ﴾ (١٣) [الأحزاب] .

أما رسول الله ﷺ فتقنع بثوبه حين أتاه غدر قريظة ، فاضطجع ومكث طويلاً حتى اشتد على الناس البلاء ، ثم نهض مبشراً يقول : « الله أكبر ، أبشروا يا معشر المسلمين بفتح الله ونصره » ، ثم أخذ يخطط لمجابهة الظرف الراهن ، وكجزء من هذه الخطة كان يبعث الحرس إلى المدينة ؛ لئلا يؤتى الذرارى والنساء على غرة ، ولكن كان لابد من إقدام حاسم ، يفضى إلى تخاذل الأحزاب ، وتحقيقاً لهذا الهدف أراد أن يصالح عيينة بن حصن والحارث ابن عوف رئيسى غطفان على ثلث ثمار المدينة ، حتى ينصرفا بقومهما ، ويخلو المسلمون لإلحاق الهزيمة الساحقة العاجلة بقريش التى اختبروا مدى قوتها وبأسها مراراً ، وجرت المروادة على ذلك ، فاستشار السعدين فى ذلك ، فقالا : يا رسول الله ، إن كان الله أمرك بهذا فسمعا وطاعة ، وإن كان شيء تصنعه لنا فلا حاجة لنا فيه ، لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرئى أو بيعاً ، فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك نعطيهم أموالنا ؟ والله لا نعطيهم إلا السيف ، فَصَوَّبَ رَأْيُهُمَا وقال : « إنما هو شيء أصنعه لكم لما رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة » .

ثم إن الله عز وجل - وله الحمد - صنع أمراً من عنده خذل به العدو وهزم جموعهم ، وقَلََّ حدهم ، فكان مما هباً من ذلك أن رجلاً من غطفان يقال له : نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعي رضي الله عنه جاء رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنى قد أسلمت ، وإن قومى لم

يعلموا بإسلامي ، فمرني ما شئت ، فقال رسول الله ﷺ : « إنما أنت رجل واحد ، فخذلّ عنا ما استطعت ، فإن الحرب خدعة » ، فذهب من فوره إلى بني قريظة - وكان عشرين ألفاً - فدخل عليهم وقال : قد عرفتم ودي إياكم ، وخاصة ما بيني وبينكم ، قالوا : صدقت . قال : فإن قريشاً ليسوا مثلكم ، البلد بلدكم ، فيه أموالكم وأبناؤكم ونسأؤكم ، لا تقدرون أن تتحولوا منه إلى غيره ، وإن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهروهم عليه ، وبلدهم وأموالهم ونسأؤهم بغيره ، فإن أصابوا فرصة انتهزوها ، وإلا لحقوا ببلادهم وتركوكم ومحمداً فانتقم منكم ، قالوا : فما العمل يا نعيم ؟ قال : لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن . قالوا : لقد أشرت بالرأى .

ثم مضى نعيم على وجهه إلى قريش وقال لهم : تعلمون ودي لكم ونصحى لكم؟ قالوا : نعم ، قال : إن يهود قد ندموا على ما كان منهم من نقض عهد محمد وأصحابه ، وإنهم قد راسلوه أنهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه ، ثم يوالونه عليكم ، فإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم ، ثم ذهب إلى غطفان ، فقال لهم مثل ذلك .

فلما كانت ليلة السبت من شوال - سنة ٥ هـ - بعثوا إلى يهود : أنا لسنا بأرض مقام ، وقد هلك الكراع والخف (١) ، فانهضوا بنا حتى نناجز محمد ، فأرسل إليهم اليهود أن اليوم يوم السبت ، وقد علمتم ما أصاب من قبلنا حين أحدثوا فيه ، ومع هذا فإننا لا نقاتل معكم حتى تبعثوا إلينا رهائن ، فلما جاءتهم رسلهم بذلك قالت قريش وغطفان : صدقكم والله نعيم ، فبعثوا إلى يهود إنا والله لا نرسل إليكم أحداً ، فأخرجوا معنا حتى نناجز محمد ، فقالت قريظة : صدقكم والله نعيم . فتخاذل الفريقان ، ودبت الفرقة بين صفوفهم ، وخارت عزائمهم .

وكان المسلمون يدعون الله تعالى : « اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا » ، ودعا رسول الله ﷺ على الأحزاب ، فقال : « اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وزلزلهم » (٢) .

وقد سمع الله دعاء رسوله والمسلمين ، فبعد أن دبت الفرقة في صفوف المشركين وسرى بينهم التخاذل أرسل الله عليهم جنداً من الريح فجعلت تقوض خيامهم ، ولا تدع لهم قدراً إلا كسأتها ، ولا طنباً (٣) إلا قلعته ، ولا يقر لهم قرار ، وأرسل جنداً من الملائكة يزلزلونهم ، ويلقون في قلوبهم الرعب والخوف .

وأرسل رسول الله ﷺ في تلك الليلة الباردة القارسة حذيفة بن اليمان يأتيه بخبرهم ، فوجدهم على هذه الحالة ، وقد تهيأوا للرحيل ، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره برحيل القوم ، فأصبح رسول الله ﷺ وقد رد الله عدوه بغیظهم لم ينالوا خيراً وكفاه الله قتالهم ، فصدق وعده ، وأعز جنده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، فرجع إلى المدينة .

(١) يعني بالكراع : الخيل ، وبالخف : الإبل .

(٢) صحيح البخاري : كتاب الجهاد ١ / ٤١١ ، وكتاب المغازي ٢ / ٥٩٠ .

(٣) هي الجبال تُشدُّ بها الخيمة .

وكانت غزوة الخندق سنة خمس من الهجرة فى شوال على أصح القولين ، وأقام المشركون محاصرين رسول الله ﷺ والمسلمين شهراً أو نحو شهر. ويبدو بعد الجمع بين المصادر أن بداية فرض الحصار كانت فى شوال ونهايته فى ذى القعدة، وعند ابن سعد أن انصراف رسول الله ﷺ من الخندق كان يوم الأربعاء لسبع بقين من ذى القعدة.

إن معركة الأحزاب لم تكن معركة خسائر ، بل كانت معركة أعصاب ، لم يجر فيها قتال مرير ، إلا أنها كانت من أحسم المعارك فى تاريخ الإسلام ، تمخضت عن تخاذل المشركين ، وأفادت أن أية قوة من قوات العرب لا تستطيع استئصال القوة الصغيرة التى تنمو فى المدينة ؛ لأن العرب لم تكن تستطيع أن تأتى بجمع أقوى مما أنت به فى الأحزاب ، ولذلك قال رسول الله ﷺ حين أجلى الله الأحزاب: « الآن نغزوهم ، ولا يغزونا ، نحن نسير إليهم » (١) .

غزوة بني قريظة

وفي اليوم الذي رجع فيه رسول الله إلى المدينة ، جاءه جبريل عليه السلام عند الظهر ، وهو يغتسل في بيت أم سلمة ، فقال: أو قد وضعت السلاح ؟ فإن الملائكة لم تضع أسلحتهم ، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم ، فانهض بمن معك إلى بني قريظة ، فإنني سائر أمامك أرلزل بهم حصونهم ، وأقذف في قلوبهم الرعب ، فसार جبريل في موكبه من الملائكة .

وأمر رسول الله ﷺ مؤذناً فأذن في الناس: من كان سامعاً مطيعاً فلا يُصلِّينَ العصر إلا ببني قريظة، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وأعطى الراية على بن أبي طالب، وقدمه إلى بني قريظة ، فसार على حتى إذا دنا من حصونهم سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله ﷺ .

وخرج رسول الله ﷺ في موكبه من المهاجرين والأنصار ، حتى نزل على بئر من آبار قريظة يقال لها : بئر أنا . وبادر المسلمون إلى امتثال أمره ، ونهضوا من فورهم ، وتحركوا نحو قريظة ، وأدركتهم العصر في الطريق فقال بعضهم : لا نصليها إلا في بني قريظة كما أمرنا ، حتى إن رجالاً منهم صلوا العصر بعد العشاء الآخرة ، وقال بعضهم: لم يرد منا ذلك ، وإنما أراد سرعة الخروج ، فصلوها في الطريق ، فلم يعنف واحدة من الطائفتين .

هكذا تحرك الجيش الإسلامي نحو بني قريظة أرسالاً حتى تلاحقوا بالنبي ﷺ ، وهم ثلاثة آلاف ، والخييل ثلاثون فرساً ، فنازلوا حصون بني قريظة ، وفرضوا عليهم الحصار .

ولما اشتد عليهم الحصار عرض عليهم رئيسهم كعب بن أسد ثلاث خصال : إما أن يسلموا ويدخلوا مع محمد ﷺ في دينه ، فيأمنوا على دمايتهم وأموالهم وأبنائهم ونسائهم - وقد قال لهم : والله ، لقد تبين لكم أنه لنبي مرسل ، وأنه الذي تجددونه في كتابكم - وإما أن يقتلوا ذرائعهم ونساءهم بأيديهم ، ويخرجوا إلى النبي ﷺ بالسيوف مُصلِّتين^(١) ، يناجزونه حتى يظفروا بهم ، أو يقتلوا عن آخرهم ، وإما أن يهجموا على رسول الله ﷺ وأصحابه ، ويكبسوه يوم السبت ؛ لأنهم قد آمنوا أن يقاتلوهم فيه ، فأبوا أن يجيبوه إلى واحدة من هذه الخصال الثلاث، وحيث قال سيدهم كعب بن أسد - في انزعاج وغضب: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازماً .

ولم يبق لقريظة بعد رد هذه الخصال الثلاث إلا أن ينزلوا على حكم رسول الله ﷺ، ولكنهم أرادوا أن يتصلوا ببعض حلفائهم من المسلمين ، لعلهم يتعرفون ماذا سيحل بهم إذا نزلوا على حكمه ، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ أن أرسل إلينا أبا لبابة نستشير ، وكان حليفاً لهم ، وكانت أمواله وولده في منطقتهم ، فلما رآه قام إليه الرجال ، وجهش^(٢) النساء والصبيان ليكون في وجهه ، فرقَّ لهم ، وقالوا : يا أبا لبابة، أترى أن نزل على حكم محمد ؟ قال : نعم ؛ وأشار بيده إلى حلقة ، يقول: إنه الذبح، ثم علم من فوره أنه خان

(١) مجردة من أغمادها .

(٢) نهياً .

الله ورسوله فمضى على وجهه ، ولم يرجع إلى رسول الله ﷺ حتى أتى المسجد النبوى بالمدينة ، فربط نفسه بسارية المسجد ، وحلف ألا يحله إلا رسول الله ﷺ بيده ، وأنه لا يدخل أرض بنى قريظة أبداً . فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره - وكان قد استبطأه - قال : « أما إنه لو جاءنى لاستغفرت له ، أما إذ قد فعل ما فعل فما أنا بالذى أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه » .

وبرغم ما أشار إليه أبو لبابة قررت قريظة النزول على حكم رسول الله ﷺ ، ولقد كان باستطاعة اليهود أن يتحملوا الحصار الطويل ؛ لتوفر المواد الغذائية والمياه والآبار ومناعة الحصون ؛ ولأن المسلمين كانوا يقاسون البرد القارس والجوع الشديد وهم فى العراء ، مع شدة التعب الذى اعتراههم ؛ لمواصلة الأعمال الحربية من قبل بداية معركة الأحزاب ، إلا أن حرب قريظة كانت حرب أعصاب ، فقد قذف الله فى قلوبهم الرعب ، وأخذت معنوياتهم تنهار ، وبلغ هذا الانهيار إلى نهايته أن تقدم على ابن أبى طالب والزبير بن العوام ، وصاح على : يا كتيبة الإيمان ، والله لأذوقن ما ذاق حمزة أو لأفتحن حصنهم .

وحينئذ بادروا إلى النزول على حكم رسول الله ﷺ ، وأمر رسول الله ﷺ باعتقال الرجال ، فوضعت القيود فى أيديهم تحت إشراف محمد بن مسلمة الأنصارى ، وجعلت النساء والذراري بمعزل عن الرجال فى ناحية ، وقامت الأوس إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله ، قد فعلت فى بنى قينقاع ما قد علمت ، وهم حلفاء إخواننا الخزرج ، وهؤلاء موالينا ، فأحسن فيهم ، فقال : « ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ » قالوا : بلى . قال : « فذاك إلى سعد بن معاذ » . قالوا : قد رضينا .

فأرسل إلى سعد بن معاذ ، وكان فى المدينة لم يخرج معهم للجرح الذى كان قد أصاب أكحله فى معركة الأحزاب . فأركب حماراً ، وجاء إلى رسول الله ﷺ ، فجعلوا يقولون ، وهم كنفية : يا سعد ، أجمل فى مواليك ، فأحسن فيهم ، فإن رسول الله قد حكمك لتحسن فيهم ، وهو ساكت لا يرجع إليهم شيئاً ، فلما أكثروا عليه قال : لقد آن لسعد ألا تأخذه فى الله لومة لائم ، فلما سمعوا ذلك منه رجع بعضهم إلى المدينة فعنى إليهم القوم .

ولما انتهى سعد إلى النبى ﷺ قال للصحابة : « قوموا إلى سيدكم » ، فلما أنزلوه قالوا : يا سعد ، إن هؤلاء قد نزلوا على حكمك . قال : وحكى نافذ عليهم ؟ قالوا : نعم . قال : وعلى المسلمين ؟ قالوا : نعم ، قال : وعلى من هاهنا؟ وأعرض بوجهه وأشار إلى ناحية رسول الله ﷺ إجلالاً له وتعظيماً . قال : « نعم ، وعلى » . قال : فإنى أحكم فيهم أن يقتل الرجال ، وتسبى الذرية ، وتقسم الأموال ، فقال رسول الله ﷺ : « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات » .

وكان حكم سعد فى غاية العدل والإنصاف ، فإن بنى قريظة ، بالإضافة إلى ما ارتكبوا من الغدر الشنيع ، كانوا قد جمعوا لإبادة المسلمين ألفاً وخمسمائة سيف ، وألفين من الرماح ، وثلاثمائة درع ، وخمسمائة ترس ، وحجفة (١) ، حصل عليها المسلمون بعد فتح ديارهم .

وأمر رسول الله ﷺ فحبست بنو قريظة في دار بنت الحارث امرأة من بني النجار، وحفرت لهم خنادق في سوق المدينة، ثم أمر بهم، فجعل يذهب بهم إلى الخنادق أرسالاً أرسالاً، وتضرب في تلك الخنادق أعناقهم. فقال من كان بعد في الحبس لرئيسهم كعب بن أسد: ما تراه يصنع بنا؟ فقال: أفنى كل موطن لا تعقلون؟ أما ترون الداعي لا ينزع؟ والذاهب منكم لا يرجع؟ هو والله القتل - وكانوا ما بين الستمائة إلى السبعمائة، فضربت أعناقهم.

وهكذا تم استئصال أفاعى الغدر والخيانة، الذين كانوا قد نقضوا الميثاق المؤكد، وعاونوا الأحزاب على إبادة المسلمين في أخرج ساعة كانوا يمرون بها في حياتهم، وكانوا قد صاروا بعملهم هذا من أكابر مجرمي الحروب الذين يستحقون المحاكمة والإعدام.

وقتل مع هؤلاء شيطان بنى النصير، وأحد أكابر مجرمي معركة الأحزاب حبي بن أخطب والد صفية أم المؤمنين رضي الله عنها، كان قد دخل مع بنى قريظة في حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان، وفاء لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه حينما جاء يثيرة على الغدر والخيانة أيام غزوة الأحزاب، فلما أتى به - وعليه حلة قد شققها من كل ناحية بقدر أثملة لثلا يُسَلِّبها - مجموعة يداها إلى عنقه بحبل، قال لرسول الله ﷺ: أما والله ما لمت نفسي في معاداتك، ولكن من يُغالب الله يُغلب. ثم قال: أيها الناس، لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بنى إسرائيل، ثم جلس، فضربت عنقه.

وقتل من نساءهم امرأة واحدة كانت قد طرحت الرحي على خلاد بن سويد فقتلته، فقتلت لأجل ذلك.

وكان قد أمر رسول الله بقتل من أثبت، وترك من لم يثبت، فكان ممن لم يثبت عطية القرظي، فترك حياً فأسلم، وله صحبة.

واستوهب ثابت بن قيس، الزبير بن باطا وأهله وماله - وكانت للزبير يد عند ثابت - فوهبهم له رسول الله ﷺ، فقال له ثابت بن قيس: قد وهبك رسول الله ﷺ إلى، ووهب لي مالك وأهلك فهم لك. فقال الزبير بعد أن علم بمقتل قومه: سألتك بيدى عندك يا ثابت إلا الحقنتي بالأحبة، فضرب عنقه، والحقه بالأحبة من اليهود، واستحيا ثابت من ولد الزبير بن باطا عبد الرحمن بن الزبير، فأسلم وله صحبة.

واستوهبت أم المنذر سلمى بنت قيس النجارية رفاعة بن سموال القرظي، فوهبه لها فاستحيته، فأسلم وله صحبة.

وأسلم منهم تلك الليلة نفر قبل النزول، فحقنوا دماءهم وأموالهم وذرائعهم.

وخرج تلك الليلة عمرو بن سعدى - وكان رجلاً لم يدخل مع بنى قريظة في غدرهم برسول الله ﷺ - فرأه محمد بن مسلمة قائد الحرس النبوي، فخلى سبيله حين عرفه، فلم يعلم أين ذهب.

وقسم رسول الله ﷺ أموال بنى قريظة بعد أن أخرج منها الخمس، فأسهم للفارس ثلاثة أسهم؛ سهمان للفارس وسهم للفارس، وأسهم للراجل سهماً واحداً، ويعت من

السبايا إلى نجد تحت إشراف سعد بن زيد الأنصارى فابتاع بها خيلاً وسلاحاً .
 واصطفى رسول الله ﷺ لنفسه من نسائهم رِيحانة بنت عمرو بن خُنافة ، فكانت عنده
 حتى توفي عنها وهى فى ملكه ، هذا ما قاله ابن إسحاق (١) . وقال الكلبي : إنه ﷺ
 أعتقها ، وتزوجها سنة ٦ هـ ، وماتت مرجعه من حجة الوداع ، فدفنها بالبيع (٢) .
 ولما تم أمر قريظة أجيبت دعوة العبد الصالح سعد بن معاذ رضِيَ الله عنه - التى قدمنا ذكرها فى
 غزوة الأحزاب - وكان النبی ﷺ قد ضرب له خيمة فى المسجد ليعوده من قريب ، فلما تم
 أمر قريظة انتقضت جراحته . قالت عائشة : فانفجرت من لَبَّته فلم يرعهم - وفى المسجد
 خيمة من بنى غفار - إلا والدم يسيل إليهم ، فقالوا : يا أهل الخيمة ، ما هذا الذى يأتينا من
 قبلكم ، فإذا سعد يغذو جرحه دماً ، فمات منها (٣) .

وفى الصحيحين عن جابر أن رسول الله ﷺ قال : « اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن
 معاذ » (٤) . وصحح الترمذى من حديث أنس قال : لما حملت جنازة سعد بن معاذ قال
 المنافقون : ما أخف جنازته ، فقال رسول الله ﷺ : « إن الملائكة كانت تحمله » (٥) .

قتل فى حصار بنى قريظة رجل واحد من المسلمين ، وهو خلاد بن سويد الذى طرحت
 عليه الرعى امرأة من قريظة . ومات فى الحصار أبو سنان بن محصن أخو عكاشة .

وأما أبو لبابة ، فأقام مرتبطاً بالجدع ست ليال ، تأتبه امرأته فى وقت كل صلاة فتحله
 للصلاة ، ثم يعود فيرتبط بالجدع ، ثم نزلت توبته على رسول الله ﷺ سَحَرًا وهو فى بيت
 أم سلمة ، فقامت على باب حجرتها ، وقالت : يا أبا لبابة ، أبشر فقد تاب الله عليك ، فنار
 الناس ليطلقوه ، فأبى أن يطلقه أحد إلا رسول الله ﷺ ، فلما مر النبی ﷺ خارجاً إلى
 صلاة الصبح أطلقه .

وقعت هذه الغزوة فى ذى القعدة سنة ٥ هـ ، ودام الحصار خمساً وعشرين
 ليلة (٦) .

وأنزل الله تعالى فى غزوة الأحزاب وبنى قريظة آيات من سورة الأحزاب ، ذكر فيها
 أهم جزئيات الواقعة ، وبين حال المؤمنين والمنافقين ، ثم تخذيل الأحزاب ، ونتائج الغدر من
 أهل الكتاب .

(١) انظر : ابن هشام ٢ / ٢٤٥ . (٢) تلقيح فهوم أهل الأثر ص ١٢ .

(٣) صحيح البخارى ٢ / ٥٩١ . واللَّبَّة : موضع القلادة من الصدر . ويرعهم : يفرعهم .

(٤) صحيح البخارى ١ / ٥٣٦ ، وصحيح مسلم ٢ / ٢٩٤ ، وجامع الترمذى ٢ / ٢٢٥ .

(٥) جامع الترمذى ٢ / ٢٢٥ .

(٦) ابن هشام ٢ / ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، وانظر لتفصيل هذه الغزوة ٢ / ٢٣٢ - ٢٧٣ ، وصحيح البخارى ٢ /

٥٩٠ ، ٥٩١ ، وزاد المعاد ٢ / ٧٢ - ٧٤ .

النشاط العسكري بعد هذه الغزوة

مقتل سلام بن أبي الحقيق :

كان سلام بن أبي الحقيق - وكنيته أبو رافع - من أكابر مجرمي اليهود الذين حاربوا الأحزاب ضد المسلمين ، وأعانهم بالمؤن والأموال الكثيرة (١) ، وكان يؤذى رسول الله ﷺ ، فلما فرغ المسلمون من أمر قريظة استأذنت الخزرج رسول الله ﷺ فى قتله . وكان قتل كعب ابن الأشرف على أيدي رجال من الأوس ، فرغبت الخزرج فى إحراز فضيلة مثل فضيلتهم ، فلذلك أسرعوا إلى هذا الاستئذان .

وأذن رسول الله فى قتله ونهى عن قتل النساء والصبيان ، فخرجت مفرزة قوامها خمسة رجال ، كلهم من بنى سلمة من الخزرج ، قائدهم عبد الله بن عتيك .

خرجت هذه المفرزة ، واتجهت نحو خير ؛ إذ كان هناك حصن أبى رافع ، فلما دنوا منه ، وقد غربت الشمس ، وراح الناس بسرهم ، قال عبد الله بن عتيك لأصحابه : اجلسوا مكانكم ، فإنى منطلق ومتلطف للبواب ، لعلنى أن أدخل ، فأقبل حتى دنا من الباب ، ثم تقنع بثوبه كأنه يقضى حاجته ، وقد دخل الناس ، فهتف به البواب : يا عبد الله ، إن كنت تريد أن تدخل فادخل ، فإنى أريد أن أغلق الباب .

قال عبد الله بن عتيك : فدخلت فكمنت ، فلما دخل الناس أغلق الباب ، ثم علق الأغاليق على ود (٢) . قال : فممت إلى الأقاليد فأخذتها ، ففتحت الباب ، وكان أبو رافع يسمر عنده ، وكان فى علالي له ، فلما ذهب عنه أهل سمره صعدت إليه ، فجعلت كلما فتحت باباً أغلقت على من داخل . قلت : إن القوم لو نذروا بى لم يخلصوا إلى حتى أقتله ، فأنهيت إليه ، فإذا هو فى بيت مظلم وسط عياله ، لا أدرى أين هو من البيت . قلت : أبا رافع ، قال : من هذا ؟ فأهويت نحو الصوت فأضربه ضربة بالسيف وأنا دهش ، فما أغنيت شيئاً ، وصاح ، فخرجت من البيت ، فامكث غير بعيد ، ثم دخلت إليه ، فقلت : ما هذا الصوت يا أبا رافع ؟ فقال : لأمك الليل ، إن رجلاً فى البيت ضربنى قبل بالسيف . قال : فأضربه ضربة أثختته ولم أقتله . ثم وضعت ضييب السيف (٣) فى بطنه حتى أخذ فى ظهره ، فعرفت أنى قتلته ، فجعلت أفتح الأبواب باباً باباً ، حتى انتهيت إلى درجة له ، فوضعت رجلى ، وأنا أرى أنى قد انتهيت إلى الأرض ، فوقعت فى ليلة مقمرة ، فانكسرت ساقى ، فمصبتها بعمامة ، ثم انطلقت حتى جلست على الباب . فقلت : لا أخرج الليلة حتى أعلم أقتله ؟ فلما صاح الديك قام الناعى على السور ، فقال : أنعى أبا رافع تاجر أهل الحجاز ، فانطلقت إلى أصحابى فقلت : النجاء ، فقد قتل الله أبا رافع . فأنهيت إلى النبى ﷺ ، فحدثته فقال : « ابسط رجلك » ، فبسطت رجلى فمسحها فكأنما لم

(١) انظر : فتح البارى ٧ / ٣٤٣ .

(٢) حده .

(٣) أى علق المفاتيح على وتد .

أشتكها (١) .

هذه رواية البخارى ، وعند ابن إسحاق أن جميع نفر دخلوا على أبى رافع واشتركوا فى قتله ، وأن الذى تحامل عليه بالسيف حتى قتله هو عبد الله بن أنيس ، وفيه : أنهم لما قتلوه ليلاً ، وانكسرت ساق عبد الله بن عتيك حملوه ، وأتوا منهراً (٢) من عيونهم فدخلوا فيه ، وأوقد اليهود النيران واشتدوا فى كل وجه ، حتى إذا يشوا رجعوا إلى صاحبهم ، وأنهم حين رجعوا احتملوا عبد الله بن عتيك حتى قدموا على رسول الله ﷺ (٣) .

كان مبعث هذه السرية فى ذى القعدة أو ذى الحجة سنة ٥ هـ (٤) .

ولما فرغ رسول الله ﷺ من الأحزاب وقريظة أخذ يوجه حملات تأديبية إلى القبائل والأعراب ، الذين لم يكونوا يستكينون للأمن والسلام إلا بالقوة القاهرة .
سرية محمد بن مسلمة :

وكانت أول سرية بعد الفراغ من الأحزاب وقريظة ، وكان عدد قوات هذه السرية ثلاثين راکباً .

تحركت هذه السرية إلى القرطاء بناحية ضريبة بالكربات من أرض نجد ، وبين ضريبة والمدينة سبع ليال ، تحركت لعشر ليال خلون من المحرم سنة ٦ هـ إلى بطن بنى بكر بن كلاب . فلما أغارت عليهم هربوا ، فاستاق المسلمون نعما وشاء ، وقدموا المدينة لليلة بقيت من المحرم ومعهم ثمامة بن أثال الحنفى سيد بنى حنيفة ، كان قد خرج متنكراً لاغتيال النبى ﷺ بأمر مسيلمة الكذاب (٥) ، فأخذه المسلمون ، فلما جاءوا به ربطوه بسارية من سواري المسجد ، فخرج إليه النبى ﷺ فقال : « ما ذا عندك يا ثمامة ؟ » فقال : عندى خير يا محمد ، إن تقتل تقتل ذا دم ، وإن تنعم تنعم على شاكرك ، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت ، فتركه ، ثم مر به مرة أخرى ؛ فقال له مثل ذلك ، فرد عليه كما رد عليه أولاً ، ثم مر مرة ثالثة فقال - بعد ما دار بينهما الكلام السابق : « أطلقوا ثمامة » ، فأطلقوه ، فذهب إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ، ثم جاء فأسلم ، وقال : والله ، ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إلى من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلى ، والله ما كان على وجه الأرض دين أبغض إلى من دينك ، فقد أصبح دينك أحب الأديان إلى ، وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة ، فبشره رسول الله ﷺ ، وأمره أن يعتمر ، فلما قدم على قريش قالوا : صبات يا ثمامة ، قال : لا والله ، ولكنى أسلمت مع محمد ﷺ ، ولا والله لا يأتىكم من الإمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ . وكانت يمامة ريف مكة ، فانصرف إلى بلاده ، ومنع الحمل إلى مكة ، حتى جهدت قريش ، وكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثمامة يخلى إليه حمل الطعام ، ففعل

(٢) شق فى الحصن يجرى منه الماء .

(١) صحيح البخارى ٢ / ٥٧٧ .

(٣) ابن هشام ٢ / ٢٧٤ ، ٢٧٥ .

(٤) رحمة للعالمين ٢ / ٢٢٣ ، مع ما يؤخذ من المصادر الأخرى المذكورة فى غزوة الأحزاب وقريظة .

(٥) السيرة الحلبية ٢ / ٢٩٧ .

رسول الله ﷺ (١)

غزوة بنى لحيان :

بنو لحيان هم الذين كانوا قد غلدوا بعشرة من أصحاب رسول الله ﷺ بالرجيع ، وتسببوا في إعدامهم ، ولكن لما كانت ديارهم متوغلة في الحجاز إلى حدود مكة . والتارات الشديدة قائمة بين المسلمين وقريش والأعراب ، لم يكن يرى رسول الله ﷺ أن يتوغل في البلاد بمقربة من العدو الأكبر ، فلما تخاذلت الأحزاب ، واستوهنت عزائمهم ، واستكانوا للظروف الراهنة إلى حد ما ، رأى أن الوقت قد آن لأن يأخذ من بنى لحيان ثار أصحابه القتولين بالرجيع ، فخرج إليهم في ربيع الأول أو جمادى الأولى سنة ٦ هـ في مائتين من أصحابه ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم ، وأظهر أنه يريد الشام ، ثم أسرع السير حتى انتهى إلى بطن غُرَّان - واد بين أَمَجَ وعُسْفَانَ - حيث كان مصاب أصحابه ، فترحم عليهم ودعا لهم ، وسمعت به بنو لحيان فهربوا في رؤوس الجبال ، فلم يقدر منهم على أحد ، فأقام يومين بأرضهم ، وبعث السرايا ، فلم يقدرُوا عليهم ، فسار إلى عسفان ، فبعث عشرة فوارس إلى كِرَاعِ الغَمِيمِ لتسمع به قريش ، ثم رجع إلى المدينة . وكانت غيبته عنها أربع عشرة ليلة .

متابعة البعوث والسرايا :

ثم تابع رسول الله ﷺ في إرسال البعوث والسرايا ، وهاك صورة مصغرة منها :

١ - سرية عُكَّاشَةَ بن مُحَصَّنٍ إلى الغَمَرِ في ربيع الأول أو الآخر سنة ٦ هـ . خرج عكاشة في أربعين رجلاً إلى الغمر ، ماء لبنى أسد ، فقر القوم ، وأصاب المسلمون مائتي بعير ساقوها إلى المدينة .

٢ - سرية محمد بن مَسْلَمَةَ إلى ذِي الْقَصَّةِ في ربيع الأول أو الآخر سنة ٦ هـ . خرج ابن مسلمة في عشرة رجال إلى ذِي الْقَصَّةِ في ديار بنى ثعلبة ، فكمن القوم لهم - وهم مائة - فلما ناموا قتلوهما إلا ابن مسلمة فإنه أفلت منهم جريحاً .

٣ - سرية أبي عبيدة بن الجراح إلى ذِي الْقَصَّةِ في ربيع الآخر سنة ٦ هـ ، وقد بعثه النبي ﷺ على إثر مقتل أصحاب محمد بن مسلمة ، فخرج ومعه أربعون رجلاً إلى مصارعهم ، فساروا ليلتهم مشاة ، ووافوا بنى ثعلبة مع الصبح فأغاروا عليهم ، فأعجزوهم هرباً في الجبال ، وأصابوا رجلاً واحداً فأسلم ، وغنموا نَعْماً وشاء .

٤ - سرية زيد بن حارثة إلى الجُمُومِ في ربيع الآخر سنة ٦ هـ - والجموم ماء لبنى سليم في مَرِّ الظُّهْرَانِ - خرج إليهم زيد فأصاب امرأة من مُزَيْنَةَ يقال لها: حليلة ، فدلتهم على محلة من بنى سليم أصابوا فيها نعماً وأسرى ، فلما قفل زيد بما أصاب وهب رسول الله ﷺ للمزينة نفسها وزوجها .

٥ - سرية زيد إلى العيص في جمادى الأولى سنة ٦ هـ في سبعين ومائة راكب ،

(١) زاد المعاد ٢ / ١١٩ ، وصحيح البخارى ج (٤٣٧٢) وغيره ، وفتح البارى ٧ / ٦٨٨ .

وفيهما أخذت أموال غير لقريش كان قائدها أبو العاص ختن رسول الله ﷺ. وأفلت أبو العاص، فأتى زينب فاستجار بها، وسألها أن تطلب من رسول الله ﷺ رد أموال العير عليه ففعلت، وأشار رسول الله ﷺ على الناس برد الأموال من غير أن يكرههم، فردوا الكثير والقليل والكبير والصغير حتى رجع أبو العاص إلى مكة، وأدى الودائع إلى أهلها، ثم أسلم وهاجر، فرد عليه رسول الله ﷺ زينب بالنكاح الأول بعد ثلاث سنين ونيف، كما ثبت فى الحديث الصحيح^(١) ردها بالنكاح الأول؛ لأن آية تحريم المسلمات على الكفار لم تكن نزلت إذ ذاك، وأما ما ورد من الحديث من أنه رد عليه بنكاح جديد، أو رد عليه بعد ست سنين فلا يصح معنى، كما أنه ليس بصحيح سنداً^(٢). والعجب ممن يتسكون بهذا الحديث الضعيف فإنهم يقولون: إن أبا العاص أسلم فى أواخر سنة ثمان قبيل الفتح. ثم يناقضون أنفسهم، فيقولون: إن زينب ماتت فى أوائل سنة ثمان، وقد بسطنا الكلام شيئاً فى تعليقنا على بلوغ المرام^(٣). وجنح موسى بن عقبة إلى أن هذا الحادث وقع فى سنة ٧هـ من قبل أبى بصير وأصحابه، ولكن ذلك لا يطابق الحديث الصحيح ولا الضعيف.

٦ - سرية زيد أيضاً إلى الطَّرَف أو الطَّرَق فى جمادى الآخر سنة ٦ هـ. خرج زيد فى خمسة عشر رجلاً إلى بنى ثعلبة فهربت الأعراب، وخافوا أن يكون رسول الله ﷺ سار إليهم، فأصاب من نَعِمِهِم عشرين بعيراً، وغاب أربع ليال.

٧ - سرية زيد أيضاً إلى وادى القرى فى رجب سنة ٦ هـ. خرج زيد فى اثني عشر رجلاً إلى وادى القرى؛ لاستكشاف حركات العدو إن كانت هناك، فهجم عليهم سكان وادى القرى؛ فقتلوا تسعة، وأفلتت ثلاثة فيهم زيد بن حارثة^(٤).

٨ - سرية الخَبَط - تذكر هذه السرية فى رجب سنة ٨ هـ، ولكن السياق يدل على أنها كانت قبل الحديبية - قال جابر: بعثنا النبی ﷺ فى ثلاثمائة راكب، أميرنا أبو عبيدة بن الجراح، نرصد عيراً لقريش، فأصابنا جوع شديد حتى أكلنا الخبط، فسمى جيش الخبط، فنحر رجل ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم إن أبا عبيدة نهاه، فألقى إلينا البحر دابة يقال لها: العنبر، فأكلنا منه نصف شهر، وادهنّا منه حتى ثابت منه أجسامنا، وصلحت، وأخذ أبو عبيدة ضلعاً من أضلاعه، فنظر إلى أطول رجل فى الجيش وأطول جمل، فحمل عليه، ومر تحته، وتزودنا من لحمه وشائق، فلما قدمنا المدينة، أتينا رسول الله ﷺ فذكرنا له ذلك، فقال: «هو رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم من لحمه شيء تطعمونا؟» فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه^(٥).

ولمّا قلنا: إن سياق هذه السرية يدل على أنها كانت قبل الحديبية؛ لأن المسلمين لم يكونوا يتعرضون لعير قريش بعد صلح الحديبية.

(١) انظر: سنن أبى داود مع شرحه عون المعبود: باب إلى متى ترد عليه امرأته إذا أسلم بعدها.

(٢) انظر الكلام على الحديثين فى: تحفة الأحوذى ٢ / ١٩٥، ١٩٦.

(٣) ومن ذكر هذه السرية فى حوادث سنة ٦ هـ ابن حجر فى فتح البارى ٧ / ٤٩٨.

(٤) رحمة للعالمين ٢ / ٢٢٦، وانظر لهذه السرايا المصدر المذكور، وزاد المعاد ٢ / ١٢٠ - ١٢٢،

وحواشى تلقيح فهم أهل الأثر ص ٢٨، ٢٩.

(٥) صحيح البخارى ٢ / ٦٢٥، ٦٢٦، وصحيح مسلم ٢ / ١٤٥، ١٤٦.

غزوة بني المصطلق أو غزوة المريسيع (في شعبان سنة ٦٥ هـ)

وهذه الغزوة وإن لم تكن طويلة الذيل، عريضة الأطراف من حيث الوجة العسكرية ، إلا أنها وقعت فيها وقائع أحدثت البلبلة والاضطراب فى المجتمع الإسلامى، وتمخضت عن افتضاح المنافقين، والتشريعات التعزيرية التى أعطت المجتمع الإسلامى صورة خاصة من النبيل والكرامة وطهارة النفوس. ونسرد الغزوة أولاً ، ثم نذكر تلك الوقائع .

كانت هذه الغزوة فى شعبان سنة خمس عند عامة أهل المغارى، وسنة ست على قول ابن إسحاق (١) .

وسببها أنه بلغه ﷺ أن رئيس بنى المصطلق الحارث بن أبى ضرار سار فى قومه ومن قدر عليه من العرب يريدون حرب رسول الله ﷺ ، فبعث بريرة بن الحصيب الأسلمى لتحقيق الخبر ، فأتاهم ، ولقى الحارث بن أبى ضرار وكلمه ، ورجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر .

وبعد أن تأكد لديه ﷺ صحة الخبر ندب الصحابة ، وأسرع فى الخروج، وكان خروجه لليلتين خلتا من شعبان ، وخرج معه جماعة من المنافقين لم يخرجوا فى غزاة قبلها ، واستعمل على المدينة زيد بن حارثة ، وقيل: أبا ذر ، وقيل: نُمَيْلَة بن عبد الله الليثى ، وكان الحارث بن أبى ضرار قد وجه عيناً ؛ لياتيه بخبر الجيش الإسلامى ، فالتقى المسلمون عليه القبض وقتلوه .

ولما بلغ الحارث بن أبى ضرار ومن معه مسير رسول الله ﷺ وقتله عينه ، خافوا خوفاً شديداً وتفرق عنهم من كان معهم من العرب ، وانتهى رسول الله ﷺ إلى المريسيع - بالضم - فالفتح مصغراً ، اسم لواء من مياهم فى ناحية قُدَيْد إلى الساحل - فتهأأوا للقتال . وصَف رسول الله ﷺ أصحابه ، وراية المهاجرين مع أبى بكر الصديق ، وراية الأنصار مع سعد بن عبادَة ، فتراموا بالنبل ساعة، ثم أمر رسول الله ﷺ فحملوا حملة رجل واحد ، فكانت النصرَة

(١) واستدل على ذلك بما ثبت فى حديث الإفك من أن القضية كانت بعد ما أنزل الحجاب وآية الحجاب نزلت فى شأن زينب ، وزينب إذ ذاك كانت تحته ، فإنه ﷺ سألها عن عائشة فقالت : أحمى سمعى وبصرى ، قالت عائشة : وهى التى كانت تسامىنى من أزواج النبى ﷺ ، وقد عقد عليها النبى ﷺ فى أواخر سنة خمس بعد غزوة بنى قريظة ، وأما ما وقع فى حديث الإفك من أن سعد بن معاذ وسعد بن عبادَة تنازعا فى أصحاب الإفك، ومعلوم أن سعد بن معاذ مات عقب غزوة بنى قريظة ، فالظاهر أن هذا وهم من الراوى ، فقد روى ابن إسحاق حديث الإفك عن الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن عائشة ، فلم يذكر فيه سعد بن معاذ ، بل ذكر أسيد بن حضير ، قال أبو محمد بن حزم : وهذا هو الصحيح الذى لا شك فيه ، وذكر سعد بن معاذ وهم (وانظر : زاد المعاد ٢ / ١١٥) .

أما الذين قالوا بوقوع هذه الغزوة سنة ٥ هـ فقد قدموا عقده ﷺ على زينب إلى السنة الرابعة أو أوائل السنة الخامسة ، وقالوا : إن ذكر سعد بن معاذ ليس بوهم ، بل هو ثابت تماماً ، والله أعلم .

وانهزم المشركون ، وقتل من قتل ، وسبى رسول الله ﷺ النساء والذراري والنعم والشاء ، ولم يقتل من المسلمين إلا رجل واحد ، قتله رجل من الأنصار ظناً منه أنه من العدو .

كذا قال أهل المغازى والسير ، قال ابن القيم : هو وهم ، فإنه لم يكن بينهم قتال ، وإنما أغار عليهم على الماء فسبى ذراريهم وأموالهم ، كما فى الصحيح أغار رسول الله ﷺ على بنى المصطلق وهم غارون ، وذكر الحديث (١) . انتهى .

وكان من جملة السبى : جُورِيَّة بنت الحارث سيد القوم ، وقعت فى سهم ثابت بن قيس ، فكاتبتها ، فأدى عنها رسول الله ﷺ وتزوجها ، فأعتق المسلمون بسبب هذا التزويج مائة أهل بيت من بنى المصطلق قد أسلموا ، وقالوا : أصهار رسول الله ﷺ (٢) .

وأما الوقائع التى حدثت فى هذه الغزوة ، فلأجل أن مبعثها كان هو رأس النفاق عبد الله بن أبى وأصحابه ، نرى أن نورد أولاً شيئاً من أفعالهم فى المجتمع الإسلامى :

دور المنافقين قبل غزوة بنى المصطلق :

قدمنا مراراً أن عبد الله بن أبى كان يَحْنُقُ على الإسلام والمسلمين ، ولا سيما على رسول الله ﷺ حَقّاً شديداً ؛ لأن الأوس والخزرج كانوا قد اتفقوا على سيادته ، وكانوا ينظمون له الخرز ليتوجوه إذ دخل فيهم الإسلام ، فصرفهم عن ابن أبى ، فكان يرى أن رسول الله ﷺ هو الذى استلبه ملكه .

وقد ظهر حنقه هذا وتحرقه منذ بداية الهجرة قبل أن يتظاهر بالإسلام ، وبعد أن تظاهر به . ركب رسول الله ﷺ مرة على حمار ليعود سعد بن عبادة ، فمر بمجلس فيه عبد الله ابن أبى فحَمَرَ ابن أبى أنفه ، وقال : لا تُغَبِّرُوا علينا (٣) . ولما تلا رسول الله ﷺ على المجلس القرآن ، قال : اجلس فى بيتك ، ولا تؤذنا فى مجالسنا (٤) .

وهذا قبل أن يتظاهر بالإسلام ، ولما تظاهر به بعد بدر لم يزل إلا عدواً لله ولرسوله وللمؤمنين ، ولم يكن يفكر إلا فى تشتيت المجتمع الإسلامى وتوهين كلمة الإسلام . وكان يوالى أعداءه ، وقد تدخل فى أمر بنى قينقاع كما ذكرنا ، وكذلك جاء فى غزوة أحد من الشر والغدر والتفريق بين المسلمين ، وإثارة الارتباك والفوضى فى صفوفهم بما مضى .

وكان من شدة مكر هذا المنافق وخداعه بالمؤمنين أنه كان بعد التظاهر بالإسلام ، يقوم كل جمعة حين يجلس رسول الله ﷺ للخطبة ، فيقول : هذا رسول الله ﷺ بين أظهركم ، أكرمكم الله وأعزكم به ، فانصروه وعزروه ، واسمعوا له وأطيعوا ، ثم يجلس ، فيقوم رسول الله ﷺ ويخطب . وكان من وقاحة هذا المنافق أنه قام فى يوم الجمعة التى بعد أحد - مع ما ارتكبه من الشر والغدر الشنيع - قام ليقول ما كان يقوله من قبل ، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه ، وقالوا له : اجلس أى عدو الله ، لست لذلك بأهل وقد صنعت ما صنعت ،

(١) انظر : صحيح البخارى كتاب العتق ١ / ٣٤٥ ، وانظر أيضاً : فتح البارى ٥ / ٢٠٢ و ٧ / ٤٣١ .

(٢) زاد المعاد ٢ / ١١٢ ، ١١٣ ، وابن هشام ٢ / ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

(٣) لا تشيروا علينا الغبار .

(٤) ابن هشام ١ / ٥٨٤ ، ٥٨٧ ، وصحيح البخارى ٢ / ٩٢٤ ، وصحيح مسلم ٢ / ١٠٩ .

فخرج يتخطى رقاب الناس، وهو يقول : والله لكأنما قلت بُجراً أن قمت أشدد أمره ، فلقبه رجل من الأنصار بـباب المسجد... فقال: ويلك ، ارجع يستغفر لك رسول الله ﷺ ، قال : والله ما أبتغي أن يستغفر لى (١) .

وكانت له اتصالات ببني النضير يؤامر معهم ضد المسلمين حتى قال لهم: ﴿لَنْ أُخْرِجَكُمْ لَنُخْرِجَنَّ مَعَكُمْ... وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾ [الحشر : ١١] .

وكذلك فعل هو وأصحابه فى غزوة الأحزاب من إثارة القلق والاضطراب وإلقاء الرعب والدهشة فى قلوب المؤمنين ما قصه الله تعالى فى سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (٢٧) إلى قوله : ﴿يَحْسِبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٢٨) [الأحزاب] .

بيد أن جميع أعداء الإسلام من اليهود والمنافقين والمشركين كانوا يعرفون جيداً أن سبب غلبة الإسلام ليس هو التفوق المادى وكثرة السلاح والجيش والعدد ، وإنما السبب هو القيم والأخلاق والمثل التى يتمتع بها المجتمع الإسلامى وكل من يمت بصلة إلى هذا الدين ، وكانوا يعرفون أن منبع هذا الفيض إنما هو رسول الله ﷺ الذى هو المثل الأعلى - إلى حد الإعجاز - لهذه القيم، كما عرفوا بعد إدارة دفعة الحروب طيلة خمس سنين ، أن القضاء على هذا الدين وأهله لا يمكن عن طريق استخدام السلاح ، فقرروا أن يشنوا حرباً دعائية واسعة ضد الدين من ناحية الأخلاق والتقاليد ، وأن يجعلوا شخصية الرسول ﷺ أول هدف لهذه الدعاية الكاذبة الخاطئة . ولما كان المنافقون هم الطابور الخامس فى صفوف المسلمين ، ولكونهم سكان المدينة ، كان يمكن لهم الاتصال بالمسلمين واستفزاز مشاعرهم كل حين . تحمل فريضة الدعاية هؤلاء المنافقون ، وعلى رأسهم ابن أبى .

وقد ظهرت خطتهم هذه جلية حينما تزوج رسول الله ﷺ بأم المؤمنين زينب بنت جحش ، بعد أن طلقها زيد بن حارثة، فقد كان من تقاليد العرب أنهم كانوا يعتبرون المتبنى مثل الابن الصلبى ، فكانوا يعتقدون حرمة حليلة المتبنى على الرجل الذى تبناه، فلما تزوج النبى ﷺ بزينب وجد المنافقون ثلثتين - حسب زعمهم - لإثارة المشاغب ضد النبى ﷺ .

الأولى : أن زوجته هذه كانت زوجة خامسة، والقرآن لم يكن أذن فى الزواج بأكثر من أربع نسوة ، فكيف صح له هذا الزواج ؟

الثانية: أن زينب كانت زوجة ابنه - مُتَبَنَاهُ - فالزواج بها من أكبر الكبائر، حسب تقاليد العرب . وأكثروا من الدعاية فى هذا السبيل، واختلقوا قصصاً وأساطير، قالوا: إن محمداً رآها بغتة، فتأثر بحسنها وشغفته حباً، وعلقت بقلبه ، وعلم بذلك ابنه زيد فخلى سبيلها لمحمد ، وقد نشروا هذه الدعاية المختلقة نشرأ بقيت آثاره فى كتب التفسير والحديث إلى هذا الزمان ، وقد أثرت تلك الدعاية أثراً قوياً فى صفوف الضعفاء حتى نزل القرآن بالآيات البينات فيها شفاء لما فى الصدور، وينبئ عن سعة نشر هذه الدعاية أن الله استفتح سورة الأحزاب بقوله :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (١) [الأحزاب] .

وهذه إشارات عابرة ، وصور مصغرة لما اقترفه المنافقون قبل غزوة بنى المصطلق ، وكان النبي ﷺ يكابد كل ذلك بالصبر واللين والتلطف، وكان عامة المسلمين يحترزون عن شرهم ، أو يتحملونه بالصبر ؛ إذ كانوا قد عرفوهم بافتضاحهم مرة بعد أخرى حسب قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ يَرْوُونَ أَنَّهُمْ يَقْتُلُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ ﴾ (١٢٦) [التوبة] .

دور المنافقين في غزوة بنى المصطلق :

ولما كانت غزوة بنى المصطلق وخرج فيها المنافقون مثلوا قوله تعالى : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ ﴾ [التوبة : ٤٧] فقد وجدوا متنفسين للتنفس بالشر ، فأثاروا الارتباك الشديد في صفوف المسلمين ، والدعاية الشنيعة ضد النبي ﷺ ، وهاك بعض التفصيل عنها :

١ - قول المنافقين : « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » :

كان رسول الله ﷺ بعد الفراغ من الغزوة مقيماً على المريسيع ، ووردت واردة الناس ، ومع عمر بن الخطاب أجبر يقال له : جهجه الغفارى ، فازدحم هو وسنان بن وبر الجهنى على الماء فاقبتلا ، فصرخ الجهنى : يا معشر الأنصار ، وصرخ جهجه : يا معشر المهاجرين ، فقال رسول الله ﷺ : « أبدوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ؟ دعوها فإنها مُتَنَّةٌ » ، وبلغ ذلك عبد الله بن أبى بن سلول فغضب - وعنده رهط من قومه ، فيهم زيد بن أرقم غلام حدث - وقال : أو قد فعلوها ، قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا ، والله ما نحن وهم إلا كما قال الأول : سَمَنَ كَلْبَكَ يَأْكُلُكَ ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، ثم أقبل على من حضره فقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتهمهم بلادكم ، وقاسمتهمهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم .

فأخبر زيد بن أرقم عمه بالخبر ، فأخبر عمه رسول الله ﷺ وعنده عمر ، فقال عمر : مُرْ عَبَادَ بْنَ بَشْرٍ فليقتله . فقال : « فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ؟ لا ولكن أَدْنُ بِالرَّحِيلِ » ، وذلك فى ساعة لم يكن يرتحل فيها ، فارتحل الناس ، فلقية أسيد ابن حضير فحياه ، وقال : لقد رحت فى ساعة منكرا ؟ فقال له : « أو ما بلغك ما قال صاحبكم ؟ » يريد ابن أبى ، فقال : وما قال ؟ قال : « زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » ، قال : فأنت يا رسول الله ، تخرجه منها إن شئت ، هو والله الذليل وأنت العزيز ، ثم قال : يا رسول الله ، ارفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك ، وإن قومه لينظّمون له الخرز ليتوجوه ، فإنه يرى أنك استلبته ملكاً .

ثم مشى بالناس يومهم ذلك حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ، ثم نزل بالناس ، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياماً . فعل ذلك ليشغل الناس عن الحديث .

أما ابن أبى فلما علم أن زيد بن أرقم بلغ الخبر جاء إلى رسول الله ﷺ ، وحلف بالله

ما قلت ما قال ، ولا تكلمت به ، فقال من حضر من الأنصار : يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه ، ولم يحفظ ما قال الرجل . فصدقه ، قال زيد : فأصابني هم لم يصبني مثله قط ، فجلست في بيتي ، فأنزل الله : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا ﴾ إلى ﴿ لِيُخْرِجَنَ الْأَعْزُ مِنْهَا الْأَذْلَ ﴾ [المنافقون : ١ - ٨] ، فأرسل إلى رسول الله ﷺ فقرأها علي . ثم قال : « إن الله قد صدقك » (١) .

وكان ابن هذا المنافق - وهو عبد الله بن عبد الله بن أبي - رجلاً صالحاً من الصحابة الأخيار ، فترا من أبيه ، ووقف له على باب المدينة ، واستل سيفه ، فلما جاء ابن أبي قال له : والله لا تجوز من هاهنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ ، فإنه العزيز وأنت الذليل ، فلما جاء النبي ﷺ أذن له فخلى سبيله ، وكان قد قال عبد الله بن عبد الله بن أبي : يا رسول الله ، إن أردت قتله فمرني بذلك ، فأنا والله أحمل إليك رأسه (٢) .

٢ - حديث الإفك :

وفي هذه الغزوة كانت قصة الإفك ، وملخصها : أن عائشة ؓ كانت قد خرج بها رسول الله ﷺ معه في هذه الغزوة بقرعة أصابها ، وكانت تلك عادته مع نساؤه ، فلما رجعوا من الغزوة نزلوا في بعض المنازل ، فخرجت عائشة لحاجتها ، ففقدت عقداً لأختها كانت أعارتها إياه ، فرجعت تلتصم في الموضع الذي فقدته فيه في وقتها ، فجاء نفر الذين كانوا يرحلون هودجها فظنوها فيه فحملوا الهودج ، ولا ينكرون خفته ؛ لأنها ؓ كانت فتية السن لم يغشها اللحم الذي كان يثقلها ، وأيضاً فإن النفر لما تساعدوا على حمل الهودج لم ينكروا خفته ، ولو كان الذي حملة واحداً أو اثنين لم يخف عليهما الحال ، فرجعت عائشة إلى منازلهم ، وقد أصابت العقد ، فإذا ليس به داع ولا مجيب ، فقعدت في المنزل ، وظنت أنهم سيفقدونها فيرجعون في طلبها ، والله غالب على أمره ، يدبر الأمر من فوق عرشه كما يشاء ، فغلبتها عيناها ، فنامت ، فلم تستيقظ إلا بقول صفوان ابن المعطل : إنا لله وإنا إليه راجعون ، زوجة رسول الله ﷺ ؟ وكان صفوان قد عرس في أخريات الجيش ؛ لأنه كان كثير النوم ، فلما رآها عرفها ، وكان يراها قبل نزول الحجاب ، فاسترجع وأناخ راحلته ، فقربها إليها ، فركبتها ، وما كلمها كلمة واحدة ، ولم تسمع منه إلا استرجاعه ، ثم سار بها يقودها ، حتى قدم بها ، وقد نزل الجيش في نحر الظهيرة ، فلما رأى ذلك الناس تكلم كل منهم بشاكلته ، وما يليق به ، ووجد الخبيث عدو الله ابن أبي متنفساً ، فتنفس من كرب النفاق والحسد الذي بين ضلوعه ، فجعل يستحكي الإفك ، ويستوشيه ، ويشيعه ، ويذيعه ، ويجمعه ويفرقه ، وكان أصحابه يتقربون به إليه ، فلما قدموا المدينة أفاض أهل الإفك في الحديث ، ورسول الله ﷺ ساكت لا يتكلم ، ثم استشار أصحابه - لما استلبت الوحى طويلاً - في فراقها ، فأشار عليه علي ؓ أن يفارقها ، ويأخذ

(١) انظر : صحيح البخارى ١ / ٤٩٩ ، ٢ / ٧٢٧ - ٧٢٩ ، وصحيح مسلم ح (٢٥٨٤) ، والترمذى ح

(٣٣١٢) ، وابن هشام ٢ / ٢٩٠ - ٢٩٢ .

(٢) ابن هشام ٢ / ٢٩٢ ، ومختصر السيرة للشيخ عبد الله ص ٢٧٧ .

غيرها ، تلويحاً لاتصريحاً ، وأشار عليه أسامة وغيره بإمساكها ، وألا يلتفت إلى كلام الأعداء . فقام على المنبر يستعذر من عبد الله ابن أبي ، فأظهر أسيد بن حضير سيد الأوس رغبته في قتله فأخذت سعد بن عباد - سيد الخزرج ، وهي قبيلة ابن أبي - الحمية القبلية ، فجرى بينهما كلام تثار له الحيان ، فخفضهم رسول الله ﷺ حتى سكتوا وسكت .

أما عائشة فلما رجعت مرضت شهراً ، وهى لاتعلم عن حديث الإفك شيئاً ، سوى أنها كانت لا تعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذى كانت تعرفه حين تشتكى ، فلما نَقِهَتْ خرجت مع أم مَسْطَحٍ إلى البرّاز ليلاً ، فعثرت أم مسطح فى مِرْطَها ، فدعت على ابنها ، فاستنكرت ذلك عائشة منها ، فأخبرتها الخبر ، فرجعت عائشة واستأذنت رسول الله ﷺ لتأتى أبويها وتستيقن الخبر، ثم أتتهما بعد الإذن حتى عرفت جلية الأمر ، فجعلت تبكى ، فبكت ليلتين ويوماً ، لم تكن تكتحل بنوم ، ولا يرقأ لها دمع ، حتى ظنت أن البكاء فالتق كبدها ، وجاء رسول الله ﷺ فى ذلك ، فتشهد وقال : « أما بعد يا عائشة ، فإنه قد بلغنى عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ، ثم تاب إلى الله تاب الله عليه » .

وحينئذ قلص دمعتها ، وقالت لكل من أبويها أن يعجبا ، فلم يدريا ما يقولان . فقالت : والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر فى أنفسكم ، وصدقتم به ، فلئن قلت لكم : إني بريئة - والله يعلم أنى بريئة - لا تصدقوننى بذلك ، ولئن اعترفت لكم بأمر - والله يعلم أنى منه بريئة - لَتُصَدِّقُنِي ، والله ما أجد لى ولكم مثلاً إلا قول أبى يوسف ، قال : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ [١٨] [يوسف] .

ثم تحولت واضطجعت ، ونزل الوحي ساعته ، فسرى عن رسول الله ﷺ وهو يضحك . فكانت أول كلمة تكلم بها : « يا عائشة ، أما الله فقد برأك » ، فقالت لها أمها : قومى إليه . . فقالت عائشة - إدلالاً ببراءة ساحتها ، وثقة بمحبة رسول الله ﷺ - والله لا أقوم إليه ، ولا أحمده إلا الله .

والذى أنزله الله بشأن الإفك هو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ... ﴾ [النور : ١١ - ٢٠] . العشر الآيات .

وجلد من أهل الإفك مسطح بن أثاثه ، وحسان بن ثابت ، وحمّة بنت جحش ، جلدوا ثمانين ثمانين ، ولم يحّد الخبيث عبد الله بن أبى مع أنه رأس أهل الإفك ، والذي تولى كبره ؛ إما لأن الحدود تخفيف لأهلها ، وقد وعده الله بالعذاب العظيم فى الآخرة ، وإما للمصلحة التى ترك لأجلها قتله (١) .

وهكذا وبعد شهر أقشعت سحابة الشك والارتياب والقلق والاضطراب عن جو المدينة، وافتضح رأس المنافقين افتضحاً لم يستطع أن يرفع رأسه بعد ذلك، قال ابن إسحاق :

وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه . فقال رسول الله ﷺ لعمر : « كيف ترى يا عمر ؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لى : اقتله ، لأرعدت له أنف ، ولو أمرتها اليوم بقتله لقتلته » . قال عمر : قد والله علمتُ ، لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمرى (١) .

البعوث والسرايا بعد غزوة المريسيع

١ - سرية عبد الرحمن بن عوف إلى ديار بنى كلب بدومة الجندل ، فى شعبان سنة ٦ هـ . أقعده رسول الله ﷺ بين يديه وعممه بيده ، وأوصاه بأحسن الأمور فى الحرب ، وقال له : « إن أطاعوك فتزوج ابنة ملكهم » ، فمكث عبد الرحمن بن عوف ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام ، فأسلم القوم وتزوج عبد الرحمن تَمَاضِر بنت الأصبغ ، وهى أم أبى سلمة ، وكان أبوها رأسهم وملكهم .

٢ - سرية على بن أبى طالب إلى بنى سعد بن بكر بَقْدَك ، فى شعبان سنة ٦ هـ . وذلك أنه بلغ رسول الله ﷺ أن بها جمعاً يريدون أن يمدوا اليهود . فبعث إليهم علياً فى مائتى رجل ، وكان يسير الليل ويكنم النهار ، فأصاب عيناً لهم ، فأقر أنهم بعثوه إلى خير يعرضون عليهم نصرتهم على أن يجعلوا لهم تمر خير . ودل العين على موضع تجمع بنى سعد ، فأغار عليهم على ، فأخذ خمسمائة بعير وألفى شاة ، وهربت بنو سعد بالظعن ، وكان رئيسهم وَبْر بن عُلَيْم .

٣ - سرية أبى بكر الصديق أو زيد بن حارثة إلى وادى القرى ، فى رمضان سنة ٦ هـ . كان بطن من فزارة يريد اغتيال النبى ﷺ ، فبعث رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق . قال سَلَمَةُ ابن الأكوع : وخرجت معه حتى إذا صلينا الصبح أمرنا فشننا الغارة ، فوردنا الماء ، فقتل أبو بكر من قتل ، ورأيت طائفة وفيهم الذرارى ، فخشيت أن يسبقونى إلى الجبل فأدركتهم ، ورميت بسهم بينهم وبين الجبل ، فلما رأوا السهم وقفوا ، وفيهم امرأة هى أم قَرْقَة ، عليها قَشْعٌ من أديم ، معها ابنتها من أحسن العرب ، فجئت بهم أسوقهم إلى أبى بكر ، فنفلنى أبو بكر ابنتها ، فلم أكشف لها ثوباً ، وقد سأله رسول الله ﷺ بنت أم قَرْقَة ، فبعث بها إلى مكة ، وفدى بها أسرى من المسلمين هناك (١) .

وكانت أم قرفة شيطانة تحاول اغتيال النبى ﷺ ، وجهازت ثلاثين فارساً من أهل بيتها لذلك ، فلاقت جزاءها ، وقتل الثلاثون .

٤ - سرية كُرْز بن جابر الفهري (٢) إلى العُرَيْنين ، فى شوال سنة ٦ هـ ، وذلك أن رهطاً من عُكْل وعُرَيْنَة أظهروا الإسلام ، وأقاموا بالمدينة فاستوخموها ، فبعثهم رسول الله ﷺ فى ذود فى الراعى ، وأمرهم أن يشربوا من ألبانها وأبوالها ، فلما صحوا قتلوا راعى رسول الله ﷺ ، واستاقوا الإبل ، وكفروا بعد إسلامهم ، فبعث فى طلبهم كرزاً الفهري فى عشرين من الصحابة ، ودعا على العرينيين : « اللهم أعم عليهم الطريق ، واجعلها عليهم

(١) انظر : صحيح مسلم ٢ / ٨٩ ، ويقال : إن هذه السرية كانت سنة سبع .

(٢) هذا هو الذى كان قد أغار على سرح المدينة قبل بدر فى غزوة سَقَوَان ، ثم أسلم وقتل شهيداً يوم فتح مكة .

أضيق من مَسَكٍ ، فعَمِيَ الله عليهم السبيل فأدركوا ، فقطعت أيديهم وأرجلهم ، وسمَلَتْ أعينهم ، جزاء وقصاصاً بما فعلوا ، ثم تركوا في ناحية الحرة حتى ماتوا (١) ، وحديثهم في الصحيح عن أنس (٢) .

ويذكر أهل السير بعد ذلك سرية عمرو بن أمية الضمري مع سلمة بن أبي سلمة ، في شوال سنة ٦ هـ . أنه ذهب إلى مكة لاغتيال أبي سفيان ؛ لأن أبا سفيان كان أرسل أعرابياً لاغتيال النبي ﷺ ، بيد أن المبعوثين لم ينجحوا في الاغتيال ، لاهذا ، ولا ذاك . ويذكرون أن عمرا قتل في الطريق ثلاثة رجال ، ويقولون : إن عمرا أخذ جثة الشهيد خبيب في هذا السفر ، والمعروف أن خبيباً استشهد بعد الرجيع بأيام أو أشهر ، ووقعة الرجيع كانت في صفر سنة ٤ هـ ، فلا أدري هل اختلط السفران على أهل السير ، أو كان الأمران في سفر واحد في السنة الرابعة ، وقد أنكر العلامة المنصورفوري أن تكون هذه السرية سرية حرب أو مناوشة . والله أعلم .

هذه هي السرايا والغزوات بعد الأحزاب ، وبنى قريظة ، لم يجر في واحدة منها قتال مرير، وإنما وقعت فيما وقعت مصادمة خفيفة، فليست هذه البعث إلا دوريات استطلاعية ، أو تحركات تأديبية ؛ لإرهاب الأعراب والأعداء الذين لم يستكينوا بعد . ويظهر بعد التأمل في الظروف أن مجرى الأيام كان قد أخذ في التطور بعد غزوة الأحزاب ، وأن أعداء الإسلام كانت معنوياتهم في انهيار متواصل ، ولم يكن بقي لهم أمل في نجاح كسر الدعوة الإسلامية وخضد شوكتها ، إلا أن هذا التطور ظهر جلياً بصلح الحديبية ، فلم تكن الهدنة إلا الاعتراف بقوة الإسلام ، والتسجيل على بقائها في ربوع الجزيرة العربية .

عمرة الحديبية في ذي القعدة سنة ٦ هـ

سبب عمرة الحديبية :

ولما تطورت الظروف في الجزيرة العربية إلى حد كبير لصالح المسلمين ، أخذت طلائع الفتح الأعظم ونجاح الدعوة الإسلامية تبدو شيئاً فشيئاً، وبدأت التمهيدات لإقرار حق المسلمين في أداء عبادتهم في المسجد الحرام ، الذي كان قد صد عنه المشركون منذ ستة أعوام .

أرى رسول الله ﷺ في المنام، وهو بالمدينة، أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام، وأخذ مفتاح الكعبة، وطافوا واعتمروا، وحلق بعضهم وقصر بعضهم، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا، وحسبوا أنهم داخلوا مكة عامهم ذلك ، وأخبر أصحابه أنه معتمر فتجهزوا للسفر .

استنفار المسلمين :

واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادي ليخرجوا معه ، فأبطأ كثير من الأعراب ، أما هو فغسل ثيابه، وركب ناقته القصواء، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم أو نُمَيْلَةَ الليثي .

وخرج منها يوم الإثنين غرة ذى القعدة سنة ٦ هـ، ومعه زوجته أم سلمة، في ألف وأربعمائة ، ويقال : ألف وخمسمائة ، ولم يخرج معه سلاح ، إلا سلاح المسافر : السيوف في القرب .
المسلمون يتحركون إلى مكة :

وتحرك في اتجاه مكة ، فلما كان بذي الحليفة قلد الهدى وأشعره ، وأحرم بالعمرة ؛ ليأمن الناس من حربه ، ويحث بين يديه عيناً له من خزاعة يخبره عن قريش ، حتى إذا كان قريباً من عسفان أتاه عينه ، فقال : إني تركت كعب بن لؤى قد جمعوا لك الأحابيش (١) ، وجمعوا لك جموعاً ، وهم مقاتلون وصادوك عن البيت ، واستشار النبي ﷺ أصحابه ، وقال : « أترون نميل إلى ذراري هؤلاء الذين أعانواهم فنصيبهم ؟ فإن قعدوا قعدوا موتورين محزونين ، وإن نجوا يكن عتق قطعها الله ، أم تريدون أن نؤم هذا البيت فمن صدنا عنه قاتلناه ؟ » فقال أبو بكر : الله ورسوله أعلم ، إنما جئنا معتمرين ، ولم نجئ لقتال أحد ، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه ، فقال النبي ﷺ : « فروحوا » ، فراحوا .

محاولة قريش صد المسلمين عن البيت :

وكانت قريش لما سمعت بخروج النبي ﷺ عقدت مجلساً استشارياً قررت فيه صد المسلمين عن البيت كيفما يمكن ، فبعد أن أعرض رسول الله ﷺ عن الأحابيش ، نقل إليه رجل من بني كعب أن قريشاً نازلة بذي طوى ، وأن مائتي فارس في قيادة خالد بن الوليد مرابطة بكرأع الغميم في الطريق الرئيسي الذي يوصل إلى مكة . وقد حاول خالد صد المسلمين ، فقام بفرسانه إزاءهم يترأى الجيشان . ورأى خالد المسلمين في صلاة الظهر يركعون ويسجدون ، فقال : لقد كانوا على غرة ، لو كنا حملنا عليهم لأصبنا منهم ، ثم قرر أن يميل على المسلمين - وهم في صلاة العصر - ميلاً واحدة ، ولكن الله أنزل حكم صلاة الخوف ، ففادت الفرصة خالداً .

تبديل الطريق ومحاولة اجتناب اللقاء الدامي :

وأخذ رسول الله ﷺ طريقاً وعرّاً بين شعاب ، وسلك بهم ذات اليمين بين ظهرى الحمض في طريق تخرجه على ثنية المزار مهبط الحديبية من أسفل مكة ، وترك الطريق الرئيسي الذي يقضى إلى الحرم ماراً بالتنعيم ، تركه إلى اليسار ، فلما رأى خالد قترّة (٢) الجيش الإسلامي قد خالفوا عن طريقه انطلق يركض نذيراً لقريش .

وسار رسول الله ﷺ حتى إذا كان بثنية المزار بركت راحلته ، فقال الناس : حلّ حلّ ، فألحّت (٣) ، فقالوا : خلأت القصواء ، فقال النبي ﷺ : « ما خلأت القصواء ، وما ذاك

(١) هم عرب من بطون بني كنانة وغيرهم ، وليسوا من الحبشة ، كما يتبادر من اللفظ ، منسوبون إلى حبشي - يضم فسكون فشين معجمة مكسورة فياء مشددة - جبل بأسفل مكة بنعمان الأراك ، بينه وبين مكة ستة أميال ، اجتمع بذنبه بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، وبنو المصطلق والحيا بن سعد بن عمر ، وبنو الهون ابن خزيمة فحالفوا قريشاً ، وتحالفوا بالله : إنا ليد واحدة على غيرنا ما سجا ليل ووضع نهار ، ومارسا حبشي مكانه ، فسموا أحابيش قريش باسم الجبل . (معجم البلدان ٢ / ٢١٤ ، والمنطق ص ٢٧٥) .

(٢) غبار .

(٣) حلّ حلّ : تقال زجراً للناقة ، وألحّت الناقة وخلأت بمعنى : حرّنت .

لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل » ، ثم قال : « والذي نفسى بيده لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها » ، ثم رجزها فوثبت به ، فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية ، على ثَمَد ^(١) قليل الماء ، إنما يتبرضه ^(٢) الناس تبرضاً ، فلم يلبث أن نزحوه . فشكوا إلى رسول الله ﷺ العطش ، فانتزع سهماً من كنانته ، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه ، فوالله ما زال يجيش لهم بالرى حتى صدروا .
بَدِيل يتوسط بين رسول الله ﷺ وقريش :

ولما اطمأن رسول الله ﷺ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي فى نفر من خزاعة ، وكانت خزاعة عِيَّة نَصَح ^(٣) لرسول الله ﷺ من أهل تُهَامَة ، فقال : إني تركت كعب ابن لؤى ، نزّلوا أعداد مياه الحديبية ، معهم العوذ المطافيل ^(٤) ، وهم مقاتلون وصادوك عن البيت . قال رسول الله ﷺ : « إنا لم نحى لقتال أحد ، ولكننا جئنا معتمرين ، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضررت بهم ، فإن شاءوا ماددتهم ، ويخلوا بينى وبين الناس ، وإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس ففعلوا ، وإلا فقد جَمَوْا ^(٥) ، وإن هم أبوا إلا القتال فوالذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى ، أو لينفذن الله أمره » .

قال بديل : سأبلغهم ما تقول ، فانطلق حتى أتى قريشاً ، فقال : إني قد جئتكم من عند هذا الرجل ، وسمعتة يقول قولاً ، فإن شئتم عرضته عليكم .

فقال سفهاؤهم : لا حاجة لنا أن تحدثنا عنه بشيء . وقال ذوو الرأى منهم : هات ما سمعته . قال : سمعته يقول كذا وكذا ، فبعثت قريش مَكْرَز بن حفص ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال : هذا رجل غادر ، فلما جاء وتكلم قال له مثل ما قال لبديل وأصحابه ، فرجع إلى قريش وأخبرهم .
رسل قريش :

ثم قال رجل من كنانة - اسمه الحُلَيْس بن علقمة : دعونى آت . فقالوا : آتته ، فلما أشرف على النبى ﷺ وأصحابه قال رسول الله ﷺ : « هذا فلان ، وهو من قوم يعظمون البدن ، فابعثوها » ، فبعثوها له ، واستقبله القوم يلبون ، فلما رأى ذلك . قال : سبحان الله ما ينبغى لهؤلاء أن يصدوا عن البيت ، فرجع إلى أصحابه ، فقال : رأيت البدن قد قلدت وأشعرت ، وما أرى أن يصدوا ، وجرى بينه وبين قريش كلام أحفظه .

فقال عروة بن مسعود الثقفى : إن هذا قد عرض عليكم خطة رُشِد فاقبلوها ، ودعونى آتته ، فأتاه ، فجعل يكلمه ، فقال له النبى ﷺ نحواً من قوله لبديل . فقال له عروة عند ذلك : أى محمد أرايت لو استأصلت قومك ، هل سمعت بأحد من العرب اجتاحت أهله قبلك ، وإن تكن الأخرى فوالله إني لا أرى وجوها ، وإنى أرى أوباشاً من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك ، قال له أبو بكر : امصص بَطَر اللات ، أنحن نفر عنه ؟ قال : من ذا ؟

(١) حوض .

(٢) يأخذون منه قليلاً قليلاً .

(٣) أى موضع سره .

(٤) العوذ : الإبل ، والمطافيل : حديثة التاج .

(٥) استراحوا .

قالوا : أبو بكر ، قال : أما والذي نفسى بيده لولا يد كانت عندى لم أجْزِكَ بها لأجبتك . وجعل يكلم النبی ﷺ ، وكلما كلمه أخذ بلحيته ، والمغيرة بن شعبة عند رأس النبی ﷺ ، ومعه السيف وعليه المغفرُ ، فكلما أهوى عروة إلى لحية النبی ﷺ ضرب يده بنعل السيف ، وقال : أخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ ، فرفع عروة رأسه ، وقال : من ذا ؟ قالوا : المغيرة بن شعبة ، فقال : أى عُذْر ، أو لستُ أسعى فى عُذْرَتِكَ ؟ وكان المغيرة صَحْبَ قوماً فى الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ، ثم جاء فأسلم ، فقال النبی ﷺ : « أما الإسلام فأقبل ، وأما المال فلست منه فى شيء » (وكان المغيرة ابن أخى عروة) .

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب رسول الله ﷺ وتعظيمهم له ، فرجع إلى أصحابه ، فقال : أى قوم ، والله لقد وفدت على الملوك ، على قيصر وكسرى والنجاشي ، والله ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً ، والله إن تَنَحَّمْ نخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم ، فذلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يُحِدُّون إليه النظر تعظيماً له ، وقد عرض عليكم خطة رُشِدٍ فاقبلوها . هو الذى كف أيديهم عنكم :

ولما رأى شباب قريش الطائشون ، الطامحون إلى الحرب ، رغبة زعمائهم فى الصلح فكروا فى خطة تحول بينهم وبين الصلح ، فقرروا أن يخرجوا ليلاً ، ويتسللوا إلى معسكر المسلمين ، ويحدثوا أحداثاً تشعل نار الحرب ، وفعلوا قد قاموا بتنفيذ هذا القرار ، فقد خرج سبعون أو ثمانون منهم ليلاً فهبطوا من جبل التنعيم ، وحاولوا التسلل إلى معسكر المسلمين ، غير أن محمد بن مسلمة قائد الحرس اعتقلهم جميعاً .

ورغبة فى الصلح أطلق سراحهم النبی ﷺ وعفا عنهم ، وفى ذلك أنزل الله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفتح : ٢٤] . عثمان بن عفان سفيراً إلى قريش :

وحينئذ أراد رسول الله ﷺ أن يبعث سفيراً يؤكد لدى قريش موقفه وهدفه من هذا السفر ، فدعا عمر بن الخطاب ليرسله إليهم ، فاعتذر قائلاً : يا رسول الله ، ليس لى أحد بمكة من بنى عدى بن كعب يغضب لى إن أوديت ، فأرسل عثمان بن عفان ، فإن عشيرته بها ، وإنه مبلغ ما أردت ، فدعاه ، وأرسله إلى قريش ، وقال : أخبرهم أنا لم نأت لقتال ، وإنما جئنا عماراً ، وادعهم إلى الإسلام ، وأمره أن يأتى رجالاً بمكة مؤمنين ، ونساء مؤمنات ، فيبشرهم بالفتح ، ويخبرهم أن الله عز وجل مظهر دينه بمكة ، حتى لا يستخفى فيها أحد بالإيمان .

فانطلق عثمان حتى مر على قريش بِلَدَحَ ، فقالوا : أين تريد ؟ فقال : بعثنى رسول الله ﷺ بكذا وكذا ، قالوا : قد سمعنا ما تقول ، فانفذ لحاجتك ، وقام إليه أبان ابن سعيد ابن العاص ، فرحب به ثم أسرج فرسه ، فحمل عثمان على الفرس ، وأجاره وأردفه حتى جاء مكة ، وبلغ الرسالة إلى زعماء قريش ، فلما فرغ عرضوا عليه أن يطوف بالبيت ، فرفض هذا العرض ، وأبى أن يطوف حتى يطوف رسول الله ﷺ .

إشاعة مقتل عثمان وبيعة الرضوان :

واحتبسته قريش عندها - ولعلهم أرادوا أن يتشاوروا فيما بينهم فى الوضع الراهن ، ويبرموا أمرهم ، ثم يزدوا عثمان بجواب ما جاء به من الرسالة - وطال الاحتباس ، فشاع بين المسلمين أن عثمان قتل ، فقال رسول الله ﷺ لما بلغته الإشاعة : « لا نبوح حتى نناجز القوم » ، ثم دعا أصحابه إلى البيعة ، فثاروا إليه يبايعونه على ألا يفروا ، وبايعته جماعة على الموت ، وأول من بايعه أبو سنان الأسدى ، وبايعه سلمة بن الأكوع على الموت ثلاث مرات ، فى أول الناس ووسطهم وآخرهم ، وأخذ رسول الله ﷺ بيد نفسه وقال : « هذه عن عثمان » . ولما تمت البيعة جاء عثمان فبايعه ، ولم يتخلف عن هذه البيعة إلا رجل من المنافقين يقال له : جد بن قيس .

أخذ رسول الله ﷺ هذه البيعة تحت شجرة ، وكان عمر آخذاً بيده ، ومعهل بن يسار آخذاً بغصن الشجرة يرفعه عن رسول الله ﷺ ، وهذه هى بيعة الرضوان التى أنزل الله فيها : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يَبَايَعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ الآية [الفتح : ١٨] .

إبرام الصلح وبنوده :

وعرفت قريش ضيق الموقف ، فأسرعت إلى بعث سهيل بن عمرو لعقد الصلح ، وأكدت له ألا يكون فى الصلح إلا أن يرجع عنا عامه هذا ، لا تتحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً ، فأتاه سهيل بن عمرو ، فلما رآه ﷺ قال : « قد سهل لكم أمركم » ، أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل ، فجاء سهيل فتكلم طويلاً ، ثم اتفقا على قواعد الصلح ، وهى هذه :

١ - الرسول ﷺ يرجع من عامه ، فلا يدخل مكة ، وإذا كان العام القابل دخلها المسلمون فأقاموا بها ثلاثاً ، معهم سلاح الراكب ، السيوف فى القرب ، ولا يتعرض لهم بأى نوع من أنواع التعرض .

٢ - وضع الحرب بين الطرفين عشر سنين ، يأمن فيها الناس ، ويكف بعضهم عن بعض .

٣ - من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه ، وتعتبر القبيلة التى تنضم إلى أى الفريقين جزءاً من ذلك الفريق ، فأى عدوان يتعرض له أى من هذه القبائل يعتبر عدواناً على ذلك الفريق .

٤ - من أتى محمداً من قريش من غير إذن وليه - أى هارباً منهم - رده عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد - أى هارباً منه - لم يرد عليه .

ثم دعا علياً ليكتب الكتاب ، فأملئ عليه : « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال سهيل : أما الرحمن فوالله لا ندرى ما هو ؟ ولكن اكتب : باسمك اللهم . فأمر النبى ﷺ بذلك . ثم أملئ : « هذا ما صالح عليه محمد رسول الله » فقال سهيل : لو نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ، ولا قاتلناك ، ولكن اكتب : محمد بن عبد الله فقال : « إني رسول

الله وإن كذبتُموني» ، وأمر علياً أن يكتب: محمد بن عبد الله ، ويمحو لفظ رسول الله ، فأبى علي أن يحو هذا اللفظ . فمحاه ﷺ بيده ، ثم تمت كتابة الصحيفة ، ولما تم الصلح دخلت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ - وكانوا حليف بنى هاشم منذ عهد عبد المطلب ، كما قدمنا في أوائل الكتاب ، فكان دخولهم في هذا العهد تأكيداً لذلك الحلف القديم - ودخلت بنو بكر في عهد قريش .

رد أبي جندل :

وبينما الكتاب يكتب إذ جاء أبو جندل بن سهيل يرُسُفُ في قيوده ، قد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين ظهور المسلمين ، فقال سهيل : هذا أول ما أقاضيك عليه على أن ترده فقال النبي ﷺ : « إنا لم نقض الكتاب بعد » .

فقال : فوالله إذا لا أقاضيك على شيء أبداً . فقال النبي ﷺ : « فأجزه لي » . قال : ما أنا بمجيزه لك . قال : « بلى فافعل » ، قال : ما أنا بفاعل . وقد ضرب سهيل أبا جندل في وجهه ، وأخذ بتلابيه وجره؛ ليرده إلى المشركين ، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يا معشر المسلمين ، أأرد إلى المشركين يفتنونى في ديني ؟ فقال رسول الله ﷺ : « يا أبا جندل ، اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً ، وأعطيناكم على ذلك ، وأعطونا عهد الله فلا نغدر بهم » .

فوثب عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مع أبي جندل يمشى إلى جنبه ويقول : اصبر يا أبا جندل ، فإنما هم المشركون ، وإنما دم أحدهم دم كلب ، ويدنى قائم السيف منه ، يقول عمر : رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه ، فضن الرجل بأبيه ، ونفذت القضية .

النَّحْرُ وَالْحَلْقُ لِلْحَلِّ عَنْ الْعِمْرَةِ :

ولما فرغ رسول الله ﷺ من قضية الكتاب قال : « قوموا فانحروا » ، فوالله ما قام منهم أحد حتى قال ثلاث مرات ، فلما لم يقم منهم أحد قام فدخل على أم سلمة ، فذكر لها ما لقي من الناس ، فقالت : يا رسول الله ، أتحب ذلك ؟ اخرج ، ثم لا تكلم أحداً كلمة حتى تنحر بدئك ، وتدعو حالكك فيحلقك ، فقام فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك ، نحر بُدْنَهُ ، ودعا حالقه فحلقه ، فلما رأى الناس ذلك قاموا فانحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضاً ، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمّاً ، وكانوا نحروا البدنة عن سبعة ، والبقرة عن سبعة ، ونحر رسول الله ﷺ جملاً كان لأبى جهل ، كان في أنفه بُرَّةٌ (١) من فضة ، ليغيظ به المشركين ، ودعا رسول الله ﷺ للمحلقين ثلاثاً بالمغفرة وللمقصرين مرة . وفي هذا السفر أنزل الله فدية الأذى لمن حلق رأسه ، بالصيام ، أو الصدقة ، أو النسك ، في شأن كعب بن عُجْرَةَ .

الإبَاءُ عَنْ رَدِّ الْمَاهِجَاتِ :

ثم جاء نسوة مؤمنات فسأل أولياؤهن أن يردهن عليهن بالعهد الذي تم في الحديبية ،

فرفض طلبهم هذا ؛ بدليل أن الكلمة التي كتبت في المعاهدة بصدد هذا البند هي : « وعلى أنه لا يأتيك منا رجل ، وإن كان على دينك إلا رددته علينا » ^(١) ، فلم تدخل النساء في العقد رأساً . وأنزل الله في ذلك : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مِهَاجِرَاتٍ فَأَمْتَحِنُوهُنَّ ﴾ ، حتى بلغ ﴿ بَعْضَ الْكَافِرِ ﴾ [المتحنة : ١٠] فكان رسول الله ﷺ يمتحنهن بقوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا ... ﴾ [إلخ] [المتحنة : ١٢] ، فمن أقرت بهذه الشروط قال لها : « قد بايعتك » ، ثم لم يكن يردهن .

وطلق المسلمون زوجاتهم الكافرات بهذا الحكم . فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك ، تزوج بإحدهما معاوية ، وبالأخرى صفوان بن أمية .
ماذا يتمخض عن بنود المعاهدة :

هذا هو صلح الحديبية ، ومن سبر أغوار بنوده مع خلفياته لا يشك أنه فتح عظيم للمسلمين ، فقريش لم تكن تعترف بالمسلمين أى اعتراف ، بل كانت تهدف استئصال شأفتهم ، وتنتظر أن تشهد يوماً ما نهايتهم ، وكانت تحاول بأقصى قوتها الحيلولة بين الدعوة الإسلامية وبين الناس ، بصفتها ممثلة الزعامة الدينية والصدارة الدنيوية في جزيرة العرب ، ومجرد الجنوح إلى الصلح اعتراف بقوة المسلمين ، وأن قريشاً لا تقدر على مقاومتهم ، ثم البند الثالث يدل بفحواه على أن قريشاً نسيت صدارتها الدنيوية وزعامتها الدينية ، وأنها لاتهمها الآن إلا نفسها ، أما سائر الناس وبقية جزيرة العرب فلو دخلت في الإسلام بأجمعها ، فلايهم ذلك قريشاً ، ولا تتدخل في ذلك بأى نوع من أنواع التدخل . أليس هذا فشلاً ذريعاً بالنسبة إلى قريش ؟ وفتحا ميبئاً بالنسبة إلى المسلمين ؟ إن الحروب الدامية التي جرت بين المسلمين وبين أعدائهم لم تكن أهدافها - بالنسبة إلى المسلمين - مصادرة الأموال وإبادة الأرواح ، وإفناء الناس ، أو إكراه العدو على اعتناق الإسلام ، وإنما كان الهدف الوحيد الذى يهدفه المسلمون من هذه الحروب هو الحرية الكاملة للناس فى العقيدة والدين ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ [الكهف : ٢٩] . لا يحول بينهم وبين ما يريدون أى قوة من القوات ، وقدحصل هذا الهدف بجميع أجزائه ولوازمه ، وبطريق ربما لا يحصل بمثله فى الحروب مع الفتح المبين ، وقد كسب المسلمون لأجل هذه الحرية نجاحاً كبيراً فى الدعوة ، فبينما كان عدد المسلمين لا يزيد على ثلاثة آلاف قبل الهدنة صار عدد الجيش الإسلامى فى سنتين عند فتح مكة عشرة آلاف .

أما البند الثانى فهو جزء ثان لهذا الفتح المبين ، فالمسلمون لم يكونوا بادئين بالحروب ، وإنما بدأتها قريش ، يقول الله تعالى : ﴿ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [التوبة : ١٣] ، أما المسلمون فلم يكن المقصود من دورياتهم العسكرية إلا أن تفيق قريش عن غطرستها وصدها عن سبيل الله ، وتعمل معهم بالمساواة ، كل من الفريقين يعمل على شاكلته ، فالعقد بوضع الحرب عشر سنين حد لهذه الغطرسة والصد ، ودليل على فشل من بدأ بالحرب وعلى ضعفه وانتهياره .

أما البند الأول فهو حد لصد قريش عن المسجد الحرام ، فهو أيضاً فشل لقريش ، وليس فيه ما يشفي قريشاً سوى أنها نجحت في الصد لذلك العام الواحد فقط .

أعطت قريش هذه الخلال الثلاث للمسلمين ، وحصلت بإزائها خلة واحدة فقط ، وهي ما في البند الرابع ، ولكن تلك الخلة تافهة جداً ، ليس فيها شيء يضر بالمسلمين ، فمعلوم أن المسلم ما دام مسلماً لا يفر عن الله ورسوله ، وعن مدينة الإسلام ، ولا يفر إلا إذا ارتد عن الإسلام ظاهراً أو باطناً ، فإذا ارتد فلا حاجة إليه للمسلمين ، وانفصاله من المجتمع الإسلامي خير من بقاءه فيه ، وهذا الذي أشار إليه رسول الله ﷺ بقوله : « إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله » (١) . وأما من أسلم من أهل مكة فهو وإن لم يبق للجوثة إلى المدينة سبيل لكن أرض الله واسعة ، ألم تكن الحبشة واسعة للمسلمين حينما لم يكن يعرف أهل المدينة عن الإسلام شيئاً ؟ وهذا الذي أشار إليه النبي بقوله : « ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً » (٢) .

والأخذ بمثل هذا الاحتفاظ ، وإن كان مظهر الاعتزاز لقريش ، لكنه في الحقيقة ينبئ عن شدة انزعاج قريش وهلعهم وخوَرهم ، وعن شدة خوفهم على كياناتهم الوثنية ، وكأنهم كانوا قد أحسوا أن كياناتهم اليوم على شفا جرف هار لا بد له من الأخذ بمثل هذا الاحتفاظ . وما سمح به النبي ﷺ من أنه لا يسترد من فرّ إلى قريش من المسلمين ، فليس هذا إلا دليلاً على أنه يعتمد على تثبيت كيانه وقوته كمال الاعتماد ، ولا يخاف عليه من مثل هذا الشرط .

حزن المسلمين ومناقشة عمر النبي ﷺ :

هذه هي حقيقة بنود هذا الصلح ، لكن هناك ظاهرتان عمت لأجلهما المسلمين كآبة وحزن شديد .

الأولى : أنه كان قد أخبرهم أنا سنأتي البيت فنطوف به ، فما له يرجع ولم يطف به ؟
الثانية : أنه رسول الله ﷺ وعلى الحق ، والله وعد إظهار دينه ، فما له قبل ضغط قريش ، وأعطى الدِّينَةَ في الصلح ؟

كانت هاتان الظاهرتان مثار الريب والشكوك والوساوس والظنون ، وصارت مشاعر المسلمين لأجلهما جريحة ، بحيث غلب الهم والحزن على التفكير في عواقب بنود الصلح . ولعل أعظمهم حزناً كان عمر بن الخطاب ، فقد جاء إلى النبي ﷺ وقال : يا رسول الله ، ألسنا على حق وهم على باطل ؟ قال : « بلى » . قال : أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار ؟ قال : « بلى » . قال : ففيم نعطي الدنيا في ديننا ، ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم ؟ قال : « يا بن الخطاب ، إني رسول الله ولست أعصيه ، وهو ناصري ولن يضيعني أبداً » . قال : أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به ؟ قال : « بلى ، فأخبرتكم أنا نأتيه العام ؟ » قال : لا . قال : « فإنك أتيت ومطوف به » .

ثم انطلق عمر متغيظاً فاتى أبا بكر ، فقال له كما قال لرسول الله ﷺ ، ورد عليه أبو

بكر ، كما رد عليه رسول الله ﷺ سواء ، وزاد : فاستمسك بغرْزِهِ حتى تموت ، فوالله إنه لعلى الحق .

ثم نزلت : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ... ﴾ إلخ [سورة الفتح] ، فأرسل رسول الله إلى عمر فأقرأه إياه . فقال : يا رسول الله ، أو فتح هو ؟ قال : « نعم » . فطابت نفسه ورجع .
ثم ندم عمر على ما فرط منه ندماً شديداً ، قال عمر : فعلت لذلك أعمالاً ، مازلت أتصدق وأصوم وأصلى وأعتق من الذى صنعت يومئذ ، مخافة كلامى الذى تكلمت به ، حتى رجوت أن يكون خيراً (١) .

انحلت أزمة المستضعفين :

ولما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ، واطمأن بها ، انفلت رجل من المسلمين ، ممن كان يعذب فى مكة ، وهو أبو بصير ، رجل من ثقيف حليف لقريش ، فأرسلوا فى طلبه رجلين ، وقالوا للنبي ﷺ : العهد الذى جعلت لنا . فدفعه النبي ﷺ إلى الرجلين ، فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة ، فترلوا يأكلون من تمر لهم ، فقال أبو بصير لأحد الرجلين : والله إننى لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً ، فاستله الآخر فقال : أجل ، والله إنه لجيد ، لقد جربتُ به ثم جربتُ . فقال أبو بصير : أرنى أنظر إليه ، فأمكنه منه ، فضربه حتى برد .

وفر الآخر حتى أتى المدينة ، فدخل المسجد يعدو ، فقال رسول الله ﷺ حين رآه : « لقد رأى هذا ذعراً » ، فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال : قُتِلَ صاحِبى ، وإنى لمقتول ، فجاء أبو بصير وقال : يا نبي الله ، قد والله أوفى الله ذمتك ، قد رددتنى إليهم ، ثم أنجاني الله منهم ، قال رسول الله ﷺ : « ويل أمه ، مسعر حرب لو كان له أحد » ، فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم ، فخرج حتى أتى سيف (٢) البحر ، وبنفتل منهم أبو جندل بن سهيل ، فلحق بأبى بصير ، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبى بصير ، حتى اجتمعت منهم عصابة . فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها ، فقتلوههم وأخذوا أموالهم . فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل ، فمن أتاه فهو آمن ، فأرسل النبي ﷺ إليهم ، فقدموا عليه المدينة (٣) .

إسلام أبطال من قريش :

وفى سنة ٧ من الهجرة بعد هذا الصلح أسلم عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وعثمان ابن طلحة ، ولما حضروا عند النبي ﷺ قال : « إن مكة قد ألقت إلينا أفلاذ كبدها » (٤) .

(١) انظر لتفصيل هذه الغزوة والصلح : فتح البارى ٧ / ٤٣٩ - ٤٥٨ ، وصحيح البخارى ١ / ٣٧٨ - ٣٨١ ، ٢ / ٥٩٨ ، ٦٠٠ ، ٧١٧ ، وصحيح مسلم ٢ / ١٠٤ - ١٠٦ ، وابن هشام ٢ / ٣٠٨ - ٣٢٢ ، وزاد المعاد ٢ / ١٢٢ - ١٢٧ ، وتاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص ٣٩ ، ٤٠ .
(٢) ساحل .

(٤) اختلفوا كثيراً فى تعيين السنة التى أسلم فيها هؤلاء الصحابة ، وعامة كتب أسماء الرجال تصرح بأنها سنة ثمان ، ولكن قصة إسلام عمرو بن العاص عند النجاشى معروفة ، وأسلم خالد وطلحة حين رجع عمرو ابن العاص من الحبشة ، فإنه بعد الرجوع قصد المدينة فلقياه فى الطريق ، وحضر الثلاثة عند النبي ﷺ وأسلموا ، وهذا يقتضى أنهم أسلموا فى سنة سبع . والله أعلم .

المرحلة الثانية طور جديد

إن صلح الحديبية كان بداية طور جديد فى حياة الإسلام والمسلمين ، فقد كانت قريش أقوى قوة وأعندها وألدها فى عدااء الإسلام ، وبانسحابها عن ميدان الحرب إلى رحاب الأمن والسلام انكسر أقوى جناح من أجنحة الأحزاب الثلاثة - قريش و غطفان واليهود - ولما كانت قريش ممثلة للوثنية ، وزعيمتهم فى ربوع جزيرة العرب انخفضت حدة مشاعر الوثنيين ، وانهارت نزعاتها العدائية إلى حد كبير ، ولذلك لا نرى لغطفان استفزازاً كبيراً بعد هذه الهدنة ، وجل ما جاء منهم إنما جاء من قبل إغراء اليهود .

أما اليهود فكانوا قد جعلوا خبير بعد جلائهم عن يثرب وكرا للدس والتآمر ، وكانت شياطينهم تبيض هناك وتفرخ ، وتوجج نار الفتنة ، وتغري الأعراب الضاربة حول المدينة ، وتبيت للقضاء على النبى ﷺ والمسلمين ، أو لإلحاق الخسائر الفادحة بهم ، ولذلك كان أول إقدام حاسم من النبى ﷺ بعد هذا الصلح هو شن الحرب الفاصلة على هذا الوكر .

ثم إن هذه المرحلة التى بدأت بعد الصلح أعطت المسلمين فرصة كبيرة لنشر الدعوة الإسلامية وإبلاغها ، وقد تضاعف نشاط المسلمين فى هذا المجال ، وبرز نشاطهم فى هذا الوجه على نشاطهم العسكرى ؛ ولذلك ترى أن نقسم هذه المرحلة إلى قسمين :

١ - النشاط فى مجال الدعوة ، أو مكاتبة الملوك والأمراء .

٢ - النشاط العسكرى .

وقبل أن نتابع النشاط العسكرى فى هذه المرحلة ، نتناول موضوع مكاتبة الملوك والأمراء ؛ إذ الدعوة الإسلامية هى المقدمة طبعاً ، بل ذلك هو الهدف الذى عانى له المسلمون ما عانوه من المصائب والآلام ، والحروب والفتن ، والقلقل والاضطرابات .

مكاتبة الملوك والأمراء

فى أواخر السنة السادسة حين رجع رسول الله ﷺ من الحديبية كتب إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام .

ولما أراد أن يكتب إلى هؤلاء الملوك قيل له : إنهم لا يقرءون كتاباً إلا وعليه خاتم ، فاتخذ النبي ﷺ خاتماً من فضة ، نقشه : محمد رسول الله ﷺ ، وكان هذا النقش ثلاثة أسطر : محمد سطر ، ورسول سطر ، والله سطر ، هكذا : رسول الله محمد (١) .

واختار من أصحابه رسلاً لهم معرفة وخبرة ، وأرسلهم إلى الملوك ، وقد جزم العلامة المنصورفوري أن النبي ﷺ أرسل هؤلاء الرسل غرة المحرم سنة سبع من الهجرة قبل الخروج إلى خيبر بأيام (٢) . وفيما يلي نصوص هذه الكتب ، وبعض ما تمخضت عنه .

١ - الكتاب إلى النجاشى ملك الحبشة :

وهذا النجاشى اسمه أصْحَمَةُ بن الأَنْجَر ، كتب إليه النبي ﷺ مع عمرو بن أمية الضميرى فى آخر سنة ست أو فى المحرم سنة سبع من الهجرة . وقد ذكر الطبرى نص الكتاب ، ولكن النظر الدقيق فى ذلك النص ، يفيد أنه ليس بنص الكتاب الذى كتبه ﷺ بعد الحديبية ، بل لعله نص كتاب بعثه مع جعفر حين خرج هو وأصحابه مهاجرين إلى الحبشة فى العهد المكي ، فقد ورد فى آخر الكتاب ذكر هؤلاء المهاجرين بهذا اللفظ : « وقد بعثت إليكم ابن عمى جعفرأ ومعه نفر من المسلمين ، فإذا جاءك فأقرهم ودع التجبر » .

وروى البيهقى عن ابن إسحاق نص كتاب كتبه النبي ﷺ إلى النجاشى ، وهو هذا :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من محمد رسول الله إلى النجاشى ، الأصحم عظيم الحبشة ، سلام على من أتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، لم يتخذ صاحبه ولا ولداً ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأدعوك بدعاية الإسلام ، إني أنا رسوله فأسلم تسليم ، ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران] فَإِنْ آبَيْتَ فَعَلَيْكَ إِثْمُ النَّصَارَى مِنْ قَوْمِكَ » (٣) .

وقد أورد المحقق الكبير الدكتور حميد الله (باريس) نص كتاب قد عثر عليه فى الماضى القريب - بمثل ما أورده ابن القيم مع الاختلاف فى كلمة فقط - وبذل الدكتور فى تحقيق ذلك النص جهداً بليغاً ، واستعان فى ذلك كثيراً باكتشافات العصر الحديث ، وأورد صورته فى الكتاب وهو هكذا :

(١) صحيح البخارى ٢ / ٨٧٢ ، ٨٧٣ . (٢) رحمة للعالمين ١ / ١٧١ .

(٣) دلائل النبوة للبيهقى ٢ / ٣٠٨ ، والمستدرک للحاكم ٢ / ٦٢٣ .

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى النجاشي عظيم الحبشة ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد :

فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت ببعسى من روحه ونفخه ، كما خلق آدم بيده ، وإنى أدعو إلى الله وحده لا شريك له ، والموالة على طاعته ، وأن تتبني ، وتؤمن بالذي جاءني ، فإنني رسول الله ﷺ ، وإنى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت ، فاقبل نصيحتي ، والسلام على من اتبع الهدى » (١) .

وأكد الدكتور المحترم أن هذا هو نص الكتاب الذي كتبه النبي ﷺ إلى النجاشي بعد الحديبية ، أما صحة هذا النص فلا شك فيها بعد النظر في الدلائل ، وأما أن هذا الكتاب هو الذي كتب بعد الحديبية فلا دليل عليه ، والذي أورد البيهقي عن ابن إسحاق أشبه بالكتب التي كتبها النبي ﷺ إلى ملوك وأمراء النصارى بعد الحديبية ، فإن فيه الآية الكريمة : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ ... ﴾ إلخ ، كما كان دأبه في تلك الكتب ، وقد ورد فيه اسم الأصحمة صريحاً ، وأما النص الذي أورده الدكتور حميد الله ، فالأغلب عندي أنه نص الكتاب الذي كتبه النبي ﷺ بعد موت أصحمة إلى خليفته ، ولعل هذا هو السبب في ترك الاسم .

وهذا الترتيب ليس عندي عليه دليل قطعي سوى الشهادات الداخلية التي تؤيدها نصوص هذه الكتب . والعجب من الدكتور حميد الله أنه جزم بأن النص الذي أورده البيهقي عن ابن عباس هو نص الكتاب الذي كتبه النبي ﷺ بعد موت أصحمة إلى خليفته مع أن اسم أصحمة وارد في هذا النص صريحاً ، والعلم عند الله (٢) .

ولما بلغ عمرو بن أمية الضمري كتاب النبي ﷺ إلى النجاشي أخذه النجاشي ، ووضعه على عينه ، ونزل عن سريره على الأرض ، وأسلم على يد جعفر بن أبي طالب ، وكتب إلى النبي ﷺ بذلك ، وهاك نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . إلى محمد رسول الله من النجاشي أصحمة ، سلام عليك يا نبي الله من الله ورحمة الله وبركاته ، الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد :

فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى ، فو رب السماء والأرض إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت تُفَرُّوْا (٣) ، إنه كما قلت ، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا ، وقد قرينا ابن عمك وأصحابك ، فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصداً ، وقد بايعتك ، وبايعت ابن عمك ، وأسلمت على يديه لله رب العالمين » (٤) .

(١) انظر : رسول أكرم كى سياسى زندكى (بالأردو) ص ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١٢٢ - ١٢٥ ، وفى زاد

المعاد : « أسلم أنت » بدل : « والسلام على من اتبع الهدى » . انظر : زاد المعاد ٣ / ٦٠ .

(٢) انظر لهذه المباحث : كتاب الدكتور حميد الله « رسول أكرم كى سياسى زندكى » ص ١٠٨ - ١١٤ ،

١٢١ - ١٣١ .

(٣) التفرُّوق : قَمَعَ التمرة .

(٤) زاد المعاد ٣ / ٦١ .

وكان النبي ﷺ قد طلب من النجاشي أن يرسل جعفرأ ومن معه من مهاجري الحبشة، فأرسلهم في سفينتين مع عمرو بن أمية الضمري، فقدم بهم على النبي ﷺ وهو بخير (١). وتوفي النجاشي هذا في رجب سنة تسع من الهجرة بعد تبوك، ونعاه النبي ﷺ يوم وفاته، وصلى عليه صلاة الغائب، ولما مات وتخلف على عرشه ملك آخر كتب إليه النبي ﷺ كتاباً آخر، ولا يدري هل أسلم أم لا؟ (٢).

٢ - الكتاب إلى المقوقس ملك مصر:

وكتب النبي ﷺ إلى جُرَيْج بن مَتَّى (٣) الملقب بالمُقَوْقَس ملك مصر والإسكندرية:

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم أهل القبط، ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران] (٤).

واختار لحمل هذا الكتاب حاطب بن أبي بلتعة. فلما دخل حاطب على المقوقس قال له: إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى، فانتقم به ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك، ولا يعتبر بغيرك بك.

فقال المقوقس: إن لنا ديناً لن ندعه إلا لما هو خير منه.

فقال حاطب: ندعوك إلى دين الإسلام الكافي به الله فقد ما سواه، إن هذا النبي دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش، وأعداهم له اليهود، وأقربهم منه النصارى، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، فكل نبي أدرك قوماً فهم أمته، فالحق عليهم أن يطيعوه، وأنت ممن أدركه هذا النبي، ولسنا ننهك عن دين المسيح، ولكننا نأمرك به.

فقال المقوقس: إني قد نظرت في أمر هذا النبي، فوجدته لا يأمر بمزهود فيه. ولا ينهى عن مرغوب فيه، ولم أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكاذب، ووجدت معه آية النبوة بإخراج الخبء والإخبار بالنجوى، وسأنظر.

وأخذ كتاب النبي ﷺ، فجعله في حَقٍّ من عاج، وختم عليه، ودفعه إلى جارية له،

(١) ابن هشام ٢ / ٣٥٩.

(٢) ربما يؤخذ هذا مما رواه مسلم عن أنس ٢ / ٩٩.

(٣) هذا على رأى العلامة المنصورفرى في كتابه رحمة للعالمين ١ / ١٧٨، وقال الدكتور حميد الله: «إن اسمه بنيامين». انظر: رسول أكرم كى سياسى زندكى ص ١٤١.

(٤) هذا النص أورده ابن القيم في زاد المعاد ٣ / ٦١، والذي أورده الدكتور حميد الله أخذاً من صورة الكتاب الذى عثر عليه في الماضى القريب يختلف بعض كلماته عن هذا النص ففيه: «فأسلم تسلم يؤتك الله... إلخ» وفيه: «إثم القبط» بدل قوله: «إثم أهل القبط». انظر: رسول أكرم كى سياسى زندكى ص ١٣٦، ١٣٧.

ثم دعا كاتباً له يكتب بالعربية ، فكتب إلى رسول الله ﷺ :
 « بسم الله الرحمن الرحيم . لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط ، سلام عليك ، أما بعد :

فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه ، وما تدعو إليه ، وقد علمت أن نبياً بقى ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك ، وبعثت إليك بجاريتين ، لهما مكان فى القبط عظيم ، وبكسوة ، وأهديت بغلة لتركبها ، والسلام عليك » .
 ولم يزد على هذا ولم يسلم ، والجارتان مارية ، وسيرين ، والبغلة دُلْدُل ، بقيت إلى زمن معاوية (١) ، واتخذ النبي ﷺ مارية سرية له ، وهى التى ولدت له إبراهيم . وأما سيرين فأعطاهما لحسان بن ثابت الأنصارى .

٣ - الكتاب إلى كسرى ملك فارس :

وكتب النبي ﷺ إلى كسرى ملك فارس :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأدعوك بدعاية الله ، فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة ، لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ، فأسلم تسلم ، فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك » .

واختار لحمل هذا الكتاب عبد الله بن حذافة السهمى ، فدفعه السهمى إلى عظيم البحرين ، ولا ندرى هل بعث به عظيم البحرين رجلاً من رجاله ، أم بعث عبد الله السهمى ، وأياً ما كان فلما قرئ الكتاب على كسرى مزقه ، وقال فى غطرسة : عبد حقير من ريعتى يكتب اسمه قبلى ، ولما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال : « مزق الله ملكه » ، وقد كان كما قال ، فقد كتب كسرى إلى بأذان عامله على اليمن : ابعث إلى هذا الرجل الذى بالحجاز رجلين من عندك جلدتين فليأتاني به . فاختار بأذان رجلين ممن عنده ، أحدهما : قهرمانه بانويه ، وكان حاسباً كاتباً بكتاب فارس . وثانيهما : خرخسرو من الفرس (٢) ، وبعثهما بكتاب إلى رسول الله ﷺ يأمر أن ينصرف معهما إلى كسرى ، فلما قدما المدينة ، وقابلا النبي ﷺ ، قال أحدهما : إن شاهنشاه (ملك الملوك) كسرى قد كتب إلى الملك بأذان يأمره بأن يبعث إليك من يأتيه بك ، وبعثنى إليك لتنتقل معى ، وقال قولاً توعد به فيه ، فأمرهما النبي ﷺ أن يلاقياه غداً .

وفى ذلك الوقت كانت قد قامت ثورة كبيرة ضد كسرى من داخل بيته بعد أن لاقت جنوده هزيمة منكرة أمام جنود قيصر ، فقد قام شيرويه بن كسرى على أبيه فقتله ، وأخذ الملك لنفسه ، وكان ذلك فى ليلة الثلاثاء لعشر مضين من جمادى الأولى سنة سبع (٣) ، وعلم رسول الله ﷺ الخبر من الوحى ، فلما غدوا عليه أخبرهما بذلك . فقالا : هل تدري ما

(٢) تاريخ ابن خلدون ٢ / ٣٧ .

(١) زاد المعاد ٣ / ٦١ .

(٣) فتح البارى ٨ / ١٢٧ ، وتاريخ ابن خلدون ٢ / ٣٧ .

تقول ؟ إنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر ، أفنكتب هذا عنك ، ونخبره الملك . قال : « نعم أخبره ذلك عنى ، وقولا له : إن دينى وسلطانى سيبلغ ما بلغ كسرى ! وينتهى إلى منتهى الخلف والخافر » . وقولا له : « إن أسلمت أعطيتك ما تحت يدك ، وملكتك على قومك من الأبناء » ، فخرجا من عنده حتى قدما على باذان فأخبراه الخبر ، وبعد قليل جاء كتاب بقتل شيرويه لأبيه ، وقال له شيرويه فى كتابه : انظر الرجل الذى كان كتب فيه أبى إليك ، فلا تهجه حتى يأتيك أمرى .

وكان ذلك سبباً فى إسلام باذان ومن معه من أهل فارس باليمن (١) .

٤ - الكتاب إلى قيصر ملك الروم :

روى البخارى - ضمن حديث طويل - نص الكتاب الذى كتبه النبى ﷺ إلى ملك الروم هرقل ، وهو هذا :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أسلم تسليم ، أسلم يؤتلك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران] (٢) .

واختار لحمل هذا الكتاب دحية بن خليفة الكلبي ، وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى ، ليدفعه إلى قيصر ، وقد روى البخارى عن ابن عباس أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه فى ركب من قريش ، كانوا تجاراً بالشام ، فى المدة التى كان رسول الله ﷺ مآد فيها أبا سفيان وكفار قريش ، فاتوه وهم بإيلياء (٣) ، فدعاهم فى مجلسه وحوله عظماء الروم ، ثم دعاهم ودعا ترجمانه فقال : أياكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ؟ قال أبو سفيان : فقلت : أنا أقربهم نسباً ، فقال : أدنوه منى ، وقربوا أصحابه ، فاجعلوهم عند ظهره ، ثم قال لترجمانه : إنى سائل هذا عن هذا الرجل ، فإن كذبنى فكذبوه ، فو الله لولا الحياء من أن يأتروا على كذباً لكذبت عليه .

ثم قال : أول ما سألنى عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟ فقلت : هو فينا ذو نسب ، قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟ قلت : لا . قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟ قلت : لا . قال : فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ قلت : بل ضعفاؤهم .

(١) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ١ / ١٤٧ ، وفتح البارى ٨ / ١٢٧ ، ١٢٨ .

(٢) صحيح البخارى ١ / ٤ ، ٥ . والأريسيون : الفلاحون ، وهم كانوا عامة شعبه .

(٣) كان قيصر جاء إذ ذاك فى إيلياء - بيت المقدس - من حمص ، شكراً لما من الله عليه من إلحاق الهزيمة الساحقة بالفرس . (انظر : صحيح مسلم ٢ / ٩٩) ، وكانت الفرس قد قتلوا كسرى أبرويز ، وصالحوا الروم على تسليم جميع ما كانوا قد احتلوا من بلاد قيصر ، وردوا إلى الصليب الذى تزعم النصرى أن المسيح عليه السلام كان قد صلب عليه ، فكان قيصر قد جاء إلى إيلياء (بيت المقدس) سنة ٦٢٩ م (أى سنة ٧ هـ) يضع الصليب فى موضعه ويشكر الله على هذا الفتح المبين .

قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت : بل يزيدون . قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه : قلت : لا . قال : فهل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا . قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا ، ونحن منه في مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها - قال : ولم تمكنتي كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة - قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت : نعم . قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سجال ، ينال منا وننال منه . قال : ماذا يأمركم ؟ قلت : يقول : « عبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به شيئاً ، واتركوا ما يقول آبائكم » ، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة .

فقال للترجمان : قل له : سألتك عن نسبه ، فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، وكذلك الرسل تبعث في نسب من قومها . وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول قبله ؟ فذكرت أن لا . قلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت : رجل يأتي بقول قيل قبله . وسألتك : هل كان من آبائه من ملك ؟ فذكرت أن لا . فقلت : فلو كان من آبائه من ملك قلت : رجل يطلب ملك أبيه . وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فذكرت أن لا ، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ، ويكذب على الله . وسألتك : أشرف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه ، وهم أتباع الرسل . وسألتك : أيزيدون أم ينقصون ؟ فذكرت أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم . وسألتك : أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب . وسألتك : هل يغدر ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر . وسألتك : بماذا يأمر ؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئاً وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف ، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ، ولم أكن أظنه أنه منكم ، فلو أئى أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه .

ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرأ ، فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده وكثر اللغط ، وأمر بنا فأخرجنا ، قال : فقلت لأصحابي حين أخرجنا : لقد أمر أمر^(١) ابن أبي كبشة ، إنه ليخافه ملك بنى الأصفر^(٢) ، فما زلت موقناً بأمر رسول الله ﷺ أنه سيظهر حتى أدخل الله على الإسلام^(٣) .

هذا ما رآه أبو سفيان من أثر هذا الكتاب على قيصر ، وقد كان من أثره عليه أنه أجاز دحية بن خليفة الكلبي ، حامل كتاب الرسول ﷺ بمال وكسوة ، ولما كان دحية بحسبى فى

(١) أى اشتد أمره . وأبو كبشة هو وجز بن غالب الخزاعي جد وهب بن عبد مناف من جهة الأم ، وهوب هو جد النبي ﷺ من جهة الأم ، كان أبو كبشة مشركاً فذهب إلى الشام فنصر ، فلما خالف النبي ﷺ دين قريش وجاء بالحنيفية شبهوه به ونسبوه إليه للتعبير . (دلائل النبوة للبيهقي ١ / ٨٢ ، ٨٣ ، والسيرة النبوية لأبى حاتم ص ٤٤) .

(٢) بنو الأصفر هم الروم .

(٣) صحيح البخارى ١ / ٤ ، وصحيح مسلم ٢ / ٩٧ - ٩٩ .

الطريق لقيه ناس من جُذَام ، فقطعوها عليه ، فلم يتركوا معه شيئاً ، فجاء رسول الله ﷺ قبل أن يدخل بيته ، فأخبره ، فبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة إلى حسمى ، وهى وراء وادى القرى ، فى خمسمائة رجل ، فشن زيد الغارة على جذام ، فقتل فيهم قتلاً ذريعاً ، واستاق نَعْمهم ونساءهم ، فأخذ من النعم ألف بعير ، ومن الشاء خمسة آلاف ، والسبى مائة من النساء والصبيان .

وكان بين النبي ﷺ وبين قبيلة جذام موادة ، فأسرع زيد بن رِفاعَة الجذامى أحد زعماء هذه القبيلة بتقديم الاحتجاج إلى النبي ﷺ ، وكان قد أسلم هو ورجال من قومه ، ونصروا دحية حين قطع عليه الطريق فقبل النبي ﷺ احتجاجه ، وأمر برد الغنائم والسبى .
وعامة أهل المغازى يذكرون هذه السرية قبل الحديبية ، وهو خطأ واضح ، فإن بعث الكتاب إلى قيصر كان بعد الحديبية ؛ ولنا قال ابن القيم : هذا بعد الحديبية بلا شك (١) .

٥ - الكتاب إلى المنذر بن ساوى :

وكتب النبي ﷺ إلى المنذر بن ساوى حاكم البحرين كتاباً يدعو فيه إلى الإسلام ، وبعث إليه العلاء بن الحضرمى بذلك الكتاب ، فكتب المنذر إلى رسول الله ﷺ :
« أما بعد ، يا رسول الله ، فإنى قرأت كتابك على أهل البحرين ، فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ، ودخل فيه ، ومنهم من كرهه ، وبأرضى مجوس ويهود ، فأحدث إلى ذلك أمرك » .
فكتب إليه رسول الله ﷺ :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى ، سلام عليك ، فإننى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أما بعد .

فإنى أذكرك الله عز وجل ، فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه ، وإنه من يطيع رسلى ويتبع أمرى فقد أطاعنى ، ومن نصح لهم فقد نصح لى ، وإن رسلى قد أثنوا عليك خيراً ، وإنى قد سمعت فى قومك ، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه ، وعفوت عن أهل الذنوب ، فأقبل منهم ، وإنك مهما تصلح فلم نغزلك عن عملك . ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية » (٢) .

٦ - الكتاب إلى هُوذة بن على صاحب اليمامة :

وكتب النبي ﷺ إلى هُوذة بن على صاحب اليمامة :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى هُوذة بن على ، سلام على من اتبع الهدى ، واعلم أن دينى سيظهر إلى منتهى الخف والحافر ، فأسلم تسلم ، وأجعل لك ما تحت يديك » .

واختار لحمل هذا الكتاب سَلِيط بن عمرو العامرى ، فلما قدم سَلِيط على هُوذة بهذا

(١) انظر : زاد المعاد ٢ / ١٢٢ ، وحاشية تلفيح فهم أهل الاثر ص ٢٩ .

(٢) زاد المعاد ٣ / ٦١ ، ٦٢ ، والنص الذى أورده الدكتور حميد الله - آخذاً من صورة الكتاب الذى عثر عليه فى الماضى القريب - يختلف فى كلمة واحدة ، ففيه : « لا إله غيره » بدل قوله : « لا إله إلا هو » .

الكتاب مختوماً أنزله وحياءه، وقرأ عليه الكتاب، فرد عليه رداً دون رد، وكتب إلى النبي ﷺ « ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله ، والعرب تهاب مكاني ، فاجعل لي بعض الأمر أتبعك » ، وأجاز سليطاً بجائزة ، وكساه أثواباً من نسج هجر .

فقدم بذلك كله على النبي ﷺ فأخبره، وقرأ النبي ﷺ كتابه فقال: « لو سألتني قطعة من الأرض ما فعلت ، باد ، وباد ما في يديه » . فلما انصرف رسول الله من الفتح جاءه جبريل ﷺ بأن هودة مات ، فقال النبي ﷺ : « أما إن اليمامة سيخرج بها كذاب يتنبى ، يقتل بعدى » ، فقال قائل : يا رسول الله ، من يقتله ؟ فقال : « أنت وأصحابك » ، فكان كذلك ؟ (١) .

٧ - الكتاب إلى الحارث بن أبي شمر الغساني صاحب دمشق :

كتب إليه النبي ﷺ :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر ، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله وصدق ، وإني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له ، يبقى لك ملكك » .

واختار لحمل هذا الكتاب شجاع بن وهب من بني أسد بن خزيمة، ولما أبلغه الكتاب رمى به وقال: « من يتزع ملكي مني ؟ أنا سائر إليه » ، ولم يسلم (٢) . واستأذن قيصر في حرب رسول الله ﷺ فثناه عن عزمه، فأجاز الحارث شجاع بن وهب بالكسوة والنفقة، وردّه بالحسنى .

٨ - الكتاب إلى ملك عُمان :

وكتب النبي ﷺ كتاباً إلى ملك عمان جَيْفَر وأخيه عبد ابني الجُلَنْدِي ، ونصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى جيفر وعبد ابني الجُلَنْدِي ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد :

فإني أدعوكما بدعاية الإسلام، أسلما تسلما، وإني رسول الله ﷺ إلى الناس كافة، لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، فإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما، وإن أبيتما [أن تقرّا بالإسلام] فإن ملككما زائل ، وخيلي تحل بساحتكما ، وتظهر نبوتي على ملككما » .

واختار لحمل هذا الكتاب عمرو بن العاص ﷺ ، قال عمرو : فخرجت حتى انتهيت إلى عمان ، فلما قدمتها عمدت إلى عبد - وكان أحلم الرجلين، وأسهلهما خلقاً - فقلت : إني رسول رسول الله ﷺ إليك وإلى أخيك، فقال: أخى المقدم على بالسن والملك ، وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك، ثم قال : وما تدعو إليه ؟ قلت : أدعو إلى الله وحده لا شريك له ، وتخلع ما عبد من دونه ، وتشهد أن محمداً عبده ورسوله . قال : يا عمرو ، إنك ابن سيد قومك فكيف صنع أبوك ؟ فإن لنا فيه قدوة . قلت : مات ولم يؤمن بمحمد ﷺ ، ووددت أنه كان أسلم وصدق به ، وقد كنت أنا على مثل رأيه حتى هداني الله للإسلام . قال :

(١) زاد المعاد ٣ / ٦٣ .

(٢) زاد المعاد ٣ / ٦٣ ، ومحاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ١ / ١٤٦ .

فمتى تبعته؟ قلت: قريباً. فسألني أين كان إسلامك؟ قلت: عند النجاشي، وأخبرته أن النجاشي قد أسلم. قال: وكيف صنع قومه بملكه؟ فقلت: أقروه واتبعوه. قال: والأساقفة والرهبان تبعوه؟ قلت: نعم. قال: انظر يا عمرو ما تقول، إنه ليس من خصلة في رجل أفصح له من الكذب. قلت: ما كذبت، وما نستحلّه في ديننا، ثم قال: ما أرى هرقل علم بإسلام النجاشي. قلت: بلى، قال: فبأي شيء علمت ذلك؟ قلت: كان النجاشي يخرج له خرجاً، فلما أسلم وصدق بمحمد ﷺ، قال: لا والله لو سألتى درهما واحداً ما أعطيته، فبلغ هرقل قوله، فقال له اليناق أخوه: أتدع عبدك لا يخرج لك خرجاً، ويدين بدين غيرك ديناً محدثاً؟ قال هرقل: رجل رغب في دين، فاختاره لنفسه، ما أصنع به؟ والله لولا الضن بملكى لصنعت كما صنع. قال: انظر ما تقول يا عمرو؟ قلت: والله صدقتك.

قال عبد: فأخبرني ما الذي يأمر به وينهى عنه؟ قلت: يأمر بطاعة الله عز وجل وينهى عن معصيته، ويأمر بالبر وصلة الرحم، وينهى عن الظلم والعدوان، وعن الزنا، وعن الخمر، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب. قال: ما أحسن هذا الذي يدعو إليه، لو كان أخى يتابعنى عليه لركبنا حتى نؤمن بمحمد ﷺ ونصدق به، ولكن أخى أضن بملكه من أن يدعه ويصير ذنباً. قلت: إنه إن أسلم ملكه رسول الله ﷺ على قومه، فأخذ الصدقة من غنيهم فإيردها على فقيرهم. قال: إن هذا لخلق حسن. وما الصدقة؟ فأخبرته بما فرض رسول الله ﷺ في الصدقات في الأموال، حتى انتهيت إلى الإبل. قال: يا عمرو، وتؤخذ من سوائم مواشينا التي ترعى الشجر وترد المياه؟ فقلت: نعم، فقال: والله ما أرى قومي في بعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون لهذا.

قال: فمكثت ببابه أياماً، وهو يصل إلى أخيه فيخبره كل خبرى، ثم إنه دعانى يوماً فدخلت عليه، فأخذ أعوانه بضبعى فقال: دعوه، فأرسلت فذهبت لأجلس، فأبوا أن يدعوني أجلس، فنظرت إليه فقال: تكلم بحاجتك، فدفعت إليه الكتاب مختماً، ففحص خاتمه، وقرأ حتى انتهى إلى آخره، ثم دفعه إلى أخيه فقرأه مثل قراءته، إلا أنى رأيت أخاه أرق منه، قال: ألا تخبرنى عن قريش كيف صنعت؟ فقلت: تبعوه، إما راغب في الدين، وإما مقهور بالسيف. قال: ومن معه؟ قلت: الناس قد رغبوا في الإسلام واختاروه على غيره، وعرفوا بعقولهم مع هدى الله إياهم أنهم كانوا في ضلال، فما أعلم أحداً بقى غيرك في هذه الحرجة، وأنت إن لم تسلم اليوم وتبعته توطئك الخيل وتبيد خضرأك، فأسلم تسلم، ويستعملك على قومك، ولا تدخل عليك الخيل والرجال، قال: دعنى يومى هذا، وارجع إلى غداً.

فرجعت إلى أخيه فقال: يا عمرو، إنى لأرجو أن يسلم إن لم يضمن بملكه، حتى إذا كان الغد آتيت إليه، فأبى أن يأذن لى. فانصرفت إلى أخيه، فأخبرته أنى لم أصل إليه، فأوصلنى إليه، فقال: إنى فكرت فيما دعوتنى إليه، فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلاً ما فى يدى، وهو لا تبلغ خيله هاهنا، وإن بلغت خيله لقيت قتالاً ليس كقتال من لاقى. قلت: أنا خارج غداً، فلما أيقن بمخرجى خلا به أخوه فقال: ما نحن فيما ظهر عليه،

وكل من أرسل إليه قد أجابه ، فأصبح فأرسل إلى ، فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعاً ،
وصدقاً النبي ﷺ ، وخلياً بينى وبين الصدقة ، وبين الحكم فيما بينهم ، وكانا لى عوناً على
من خالفنى (١) .

وسياق هذه القصة تدل على أن إرسال الكتاب إليهما تأخر كثيراً عن كتب بقية الملوك،
والأغلب أنه كان بعد الفتح .

وبهذه الكتب كان النبي ﷺ قد أبلغ دعوته إلى أكثر ملوك الأرض ، فمنهم من آمن به
ومنهم من كفر ، ولكن شغل فكره هؤلاء الكافرين ، وعرف لديهم باسمه ودينه .

النشاط العسكري بعد صلح الحديبية

غزوة الغابة أو غزوة ذي قرد :

هذه الغزوة حركة مطاردة ضد فصيلة من بني فزارة قامت بعمل القرصنة في لِقَاح (١) رسول الله ﷺ .

وهي أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ بعد الحديبية ، وقبل خيبر . ذكر البخاري في ترجمة باب أنها كانت قبل خيبر بثلاث ، وروى ذلك مسلم مستنداً من حديث سلمة بن الأكوع . وذكر الجمهور من أهل المغازي أنها كانت قبل الحديبية ، وما في الصحيح أصح مما ذكره أهل المغازي (٢) .

وخلاصة الروايات عن سلمة بن الأكوع بطل هذه الغزوة أنه قال : بعث رسول الله ﷺ بظهره مع غلامه رباح ، وأنا معه بفرس أبي طلحة ، فلما أصبحنا إذا عبد الرحمن الفزاري قد أغار على الظهر، فاستاقه أجمع ، وقتل راعيه ، فقلت : يا رباح ، خذ هذا الفرس فأبلغه أبا طلحة ، وأخبر رسول الله ﷺ ، ثم قمت على أكمة ، واستقبلت المدينة ، فناديت ثلاثاً : يا صباحاه ، ثم خرجت في آثار القوم أرميهم بالنبل وأرتجز ، أقول : [خُذْهَا] أنا ابنُ الأكوع واليومُ يومُ الرُّضْع

فو الله ما زلت أرميهم وأعقر بهم ، فإذا رجع إلى فارس جلست في أصل الشجر، ثم رميته فتعفرت به ، حتى إذا دخلوا في تضاييق الجبل علوته ، فجعلت أرميهم بالحجارة ، فما زلت كذلك أتبعهم حتى ما خلق الله تعالى من بعير من ظهر رسول الله ﷺ إلا خلفته وراء ظهري، وخلصوا بيني وبينه، ثم اتبعتهم أرميهم، حتى ألقوا أكثر من ثلاثين بردة، وثلاثين رمحاً يستخفون ، ولا يطرحون شيئاً إلا جعلت عليه أراماً من الحجارة ، يعرفها رسول الله ﷺ وأصحابه . حتى أتوا متضايقاً من ثنية، فجلسوا يتغدون ، وجلست على رأس قرن ، فصعد إلى منهم أربعة في الجبل، قلت : هل تعرفوني ؟ أنا سلمة بن الأكوع ، لا أطلب رجلاً منكم إلا أدركته ، ولا يطلبني فيدركني ، فرجعوا . فما برحت مكاني حتى رأيت فوارس رسول الله ﷺ يتخللون الشجر ، فإذا أولهم آخرم ، وعلى أثره أبو قتادة ، وعلى أثره المقداد بن الأسود ، فالتقى عبد الرحمن وأخرم ، فعقر بعبد الرحمن فرسه ، وطعنه عبد الرحمن فقتله ، وتحول على فرسه ، ولحق أبو قتادة بعبد الرحمن فطعنه فقتله ، وولى القوم مدبرين ، فتبعتهم أعدو على رجلى، حتى يعدلوا قبل غروب الشمس إلى شعب فيه

(١) اللقاح : الإبل الحوامل ذوات اللبن .

(٢) انظر : صحيح البخاري : باب غزوة ذات قرد ٢ / ٦٠٣ ، وصحيح مسلم : باب غزوة ذي قرد وغيرها ٢ / ١١٣ - ١١٥ ، وفتح الباري ٧ / ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٣ ، وزاد المعاد ٢ / ١٢٠ ويدل على تأخر هذه الغزوة عن الحديبية حديث آخر رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري : كتاب الحج ، باب الترغيب في سكنى المدينة والصبر على لاوائها ٢ / ١٠٠١ (١٣٧٤ / ٤٧٥) .

ماء يقال له: ذو قَرْد ، ليشربوا منه، وهم عطاش، فأجلبتهم عنه ، فما ذاقوا قطرة منه، ولحقنى رسول الله ﷺ والخيل عشاء ، فقلت : يا رسول الله ، إن القوم عطاش ، فلو بعثتنى فى مائة رجل استنقذت ما عندهم من السَّرْح ، وأخذت بأعناق القوم ، فقال : « يا بن الأكوع . ملكت فأسجج » ، ثم قال : « إنهم ليقرون الآن فى غطفان » .

وقال رسول الله ﷺ : « خير فرساننا اليوم أبو قتادة ، وخير رجالتنا سلمة » . وأعطانى سهمين ، سهم الراجل وسهم الفارس ، وأردفنى وراءه على العَصْبَاء راجعين إلى المدينة . استعمل رسول الله ﷺ على المدينة فى هذه الغزوة ابن أم مكتوم ، وعقد اللواء للمقداد ابن عمرو (١) .

(١) انظر صحيح البخارى ٢ / ٦٠٣ ، وصحيح مسلم ٢ / ١١٣ - ١١٥ ، وزاد المعاد ٢ / ١٢٠ .

غزوة خيبر ووادي القرى (في المحرم سنة ٧هـ)

كانت خيبر مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع على بعد ثمانين ميلاً من المدينة في جهة الشمال ، وهي الآن قرية في مناخها بعض الوخامة .
سبب الغزوة :

ولما اطمأن رسول الله ﷺ من أقوى أجنحة الأحزاب الثلاثة ، وهو قريش ، وأمن منه تماماً بعد صلح الحديبية أراد أن يحاسب الجناحين الباقيين - اليهود وقبائل نجد - حتى يتم الأمن والسلام ، ويسود الهدوء في المنطقة ، ويفرغ المسلمون من الصراع الدامي المتواصل إلى تبليغ رسالة الله والدعوة إليه .

ولما كانت خيبر هي وكرة الدس والتآمر ومركز الاستفزازات العسكرية ، ومعدن التحرشات وإثارة الحروب ، كانت هي الجديرة بالتفات المسلمين أولاً .

أما كون خيبر بهذه الصفة ، فلا ننسى أن أهل خيبر هم الذين حاربوا الأحزاب ضد المسلمين، وأثاروا بنى قريظة على الغدر والخيانة، ثم أخذوا في الاتصالات بالمنافقين - الطابور الخامس في المجتمع الإسلامي - وبغطفان وأعراب البادية - الجناح الثالث من الأحزاب - وكانوا هم أنفسهم يتهايئون للقتال ، فآلقوا المسلمين بإجراءاتهم هذه في محن متوصلة ، حتى وضعوا خطة لاغتيال النبي ﷺ ، وإزاء ذلك اضطر المسلمون إلى بعوث متواصلة ، وإلى الفتك برأس هؤلاء المتآمرين ، مثل سلام بن أبي الحقيق ، وأسير بن زارم ، ولكن الواجب على المسلمين إزاء هؤلاء اليهود كان أكبر من ذلك ، وإنما أبطأوا في القيام بهذا الواجب ؛ لأن قوة أكبر وأقوى وألد وأعند منهم - وهي قريش - كانت مجابهة للمسلمين ، فلما انتهت هذه المجابهة صفا الجو لمحاسبة هؤلاء المجرمين ، واقترب لهم يوم الحساب .
الخروج إلى خيبر :

قال ابن إسحاق : أقام رسول الله ﷺ بالمدينة حين رجع من الحديبية ذا الحجة وبعض المحرم ، ثم خرج في بقية المحرم إلى خيبر .

قال المفسرون : إن خيبر كانت وعدا وعدها الله تعالى بقوله : ﴿ وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ ﴾ [الفتح : ٢٠] يعني صلح الحديبية ، وبالمغانم الكثيرة خيبر .
عدد الجيش الإسلامي :

ولما كان المنافقون وضعفاء الإيمان تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة الحديبية أمر الله تعالى نبيه ﷺ فيهم قائلاً : ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسَدُونَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥) ﴾ [الفتح : ١٥] .

فلما أراد رسول الله ﷺ الخروج إلى خيبر أعلن ألا يخرج معه إلا راغب في الجهاد ، فلم يخرج إلا أصحاب الشجرة وهم ألف وأربعمائة .

واستعمل على المدينة سباع بن عُرْفُطَةَ الغفاري ، وقال ابن إسحاق : نُمَيْلَةُ بن عبد الله الليثي ، والأول أصح عند المحققين (١) .

وبعد خروجه ﷺ قدم أبو هريرة المدينة مسلماً ، فوافي سباع بن عرْفُطَةَ في صلاة الصبح ، فلما فرغ من صلاته أتى سباعاً فزوده ، حتى قدم على رسول الله ﷺ ، وكلم المسلمين فأشركوه وأصحابه في سهمانهم .

اتصال المنافقين باليهود :

وقد قام المنافقون يعملون لليهود ، فقد أرسل رأس المنافقين عبد الله بن أبي إلى يهود خيبر : إن محمداً قصد قصدكم ، وتوجه إليكم ، فخذوا حذرکم ، ولا تخافوا منه فإن عددكم وعدتكم كثيرة ، وقوم محمد شرذمة قليلون ، عزل ، لا سلاح معهم إلا قليل ، فلما علم ذلك أهل خيبر ، أرسلوا كنانة بن أبي الحقيق وهُوْدَةَ بن قيس إلى غطفان يستمدونهم ؛ لأنهم كانوا حلفاء يهود خيبر ، ومظاهرين لهم على المسلمين ، وشرطوا لهم نصف ثمار خيبر إن هم غلبوا المسلمين .

الطريق إلى خيبر :

وسلك رسول الله ﷺ في اتجاهه نحو خيبر جبل عَصْر (بالكسر ، وقيل : بالتحريك) ثم على الصهباء ، ثم نزل على واد يقال له : الرجيع ، وكان بينه وبين غطفان مسيرة يوم وليلة ، فتهيأت غطفان وتوجهوا إلى خيبر ، لإمداد اليهود ، فلما كانوا ببعض الطريق سمعوا من خلفهم حساً ولغطاً ، فظنوا أن المسلمين أغاروا على أهاليهم وأموالهم فرجعوا ، وخلوا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر .

ثم دعا رسول الله ﷺ الدليلين اللذين كانا يسلكان بالجيش - وكان اسم أحدهما : حُسَيْل - ليدلاه على الطريق الأحسن ، حتى يدخل خيبر من جهة الشمال - أي جهة الشام - فيحول بين اليهود وبين طريق فرارهم إلى الشام ، كما يحول بينهم وبين غطفان .

قال أحدهما : أنا أدلك يا رسول الله ﷺ ، فأقبل حتى انتهى إلى مفرق الطرق المتعددة وقال : يا رسول الله ، هذه طرق يمكن الوصول من كل منها إلى المقصد ، فأمر أن يسمها له واحداً واحداً . قال : اسم واحد منها حزن ، فأبى النبي ﷺ من سلوكه ، قال : اسم الآخر شاش ، فامتنع منه أيضاً ، وقال : اسم الآخر حاطب ، فامتنع منه أيضاً ، قال حُسَيْل : فما بقي إلا واحد . قال عمر : ما اسمه ؟ قال : مَرْحَب ، فاختر النبي ﷺ سلوكه .

بعض ما وقع في الطريق :

١ - عن سلمة بن الأكوع قال : خرجنا مع النبي ﷺ إلى خيبر فسرنا ليلاً ، فقال رجل من القوم لعامر : يا عامر ، ألا تسمعنا من هنيهاتك ؟ - وكان عامر رجلاً شاعراً - فنزل يحذر

بالقوم ، يقول :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فاغفر فداءً لك ما اقتفينا وثبت الأقدام إن لاقينا
وألقيين سكينه علينا إنا إذا صبح بنا أيننا
وبالصياح عولوا علينا

فقال رسول الله ﷺ: « من هذا السائق » قالوا : عامر بن الأكوع ، قال : « يرحمه الله » : قال رجل من القوم : وجبت يا نبي الله ، لولا أمتعتنا به ^(١) .
وكانوا يعرفون أن رسول الله ﷺ لا يستغفر لإنسان يخصه إلا استشهد ^(٢) ، وقد وقع ذلك في حرب خيبر .

٢- وبالصهباء من أدنى خيبر صلى النبي ﷺ العصر ، ثم دعا بالأزواد ، فلم يؤت إلا بالسويق ، فأمر به فثرى ، فأكل وأكل الناس ، ثم قام إلى المغرب ، فمضمض ، ومضمض الناس ، ثم صلى ولم يتوضأ ^(٣) ، ثم صلى العشاء ^(٤) .

٣- ولما دنا من خيبر وأشرف عليها قال : « قفوا » ، فوقف الجيش ، فقال : « اللهم رب السموات السبع وما أظللن ، ورب الأرضين السبع وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، ورب الرياح وما أذرين ، فإننا نسألك خير هذه القرية ، وخير أهلها ، وخير ما فيها ، ونعوذ بك من شر هذه القرية ، وشر أهلها ، وشر ما فيها ، أقدموها ، بسم الله » ^(٥) .
الجيش الإسلامي إلى أسوار خيبر :

وبات المسلمون الليلة الأخيرة التي بدأ في صباحها القتال قريباً من خيبر ، ولا تشعر بهم اليهود ، وكان النبي ﷺ إذا أتى قوماً بليل لم يقربهم حتى يصبح ، فلما أصبح صلى الفجر بغلّس ، وركب المسلمون ، فخرج أهل خيبر بمساحيهم ومكاتلهم ، ولا يشعرون ، بل خرجوا لأرضهم ، فلما رأوا الجيش قالوا : محمد ، والله محمد والخميس ^(٦) ، ثم رجعوا هاربين إلى مدينتهم ، فقال النبي ﷺ : « الله أكبر ، خربت خيبر ، الله أكبر ، خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين » ^(٧) .

حصون خيبر :

وكانت خيبر منقسمة إلى شطرين ، شطر فيها خمسة حصون :

- ١ - حصن ناعم .
- ٢ - حصن الصعْب بن معاذ .
- ٣ - حصن قلعة الزبير .
- ٤ - حصن أبيّ .

(١) صحيح البخارى : باب غزوة خيبر ٢ / ٦٠٣ ، وصحيح مسلم : باب غزوة ذي قرد وغيرها ١١٥ / ٢ .
(٢) صحيح مسلم ١١٥ / ٢ .
(٣) صحيح البخارى ٦٠٣ / ٢ .
(٤) مغازى الواقدي (غزوة خيبر ص ١١٢) .
(٥) ابن هشام ٣٢٩ / ٢ وغيره .
(٦) الجيش .
(٧) صحيح البخارى : باب غزوة خيبر ٢ / ٦٠٣ ، ٦٠٤ .

٥ - حصن التّزّار .

والحصون الثلاثة الأولى منها كانت تقع في منطقة يقال لها : « النطاة » وأما الحصنان الآخران فيقعان في منطقة تسمى بالشّق .

أما الشطر الثاني ، ويعرف بالكتيبة ، ففيه ثلاثة حصون فقط :

١ - حصن القمّوص (وكان حصن بني أبي الحقيق من بني النضير) .

٢ - حصن الوطّيح .

٣ - حصن السّلام .

وفى خيبر حصون وقلاع غير هذه الثمانية ، إلا أنها كانت صغيرة ، لا تبلغ إلى درجة هذه القلاع في مناعتها وقوتها .

والقتال المرير إنما دار في الشطر الأول منها ، أما الشطر الثاني فحصونها الثلاثة مع كثرة المحاربين فيها سلمت دونما قتال .

معسكر الجيش الإسلامي :

وتقدم رسول الله ﷺ حتى اختار لمعسكره منزلاً ، فأتاه حُباب بن المنذر، فقال: يا رسول الله ، أرايت هذا المنزل أنزلكه الله ، أم هو الرأى فى الحرب؟ قال: « بل هو الرأى » فقال: يا رسول الله ، إن هذا المنزل قريب جداً من حصن نطاة ، وجميع مقاتلى خيبر فيها ، وهم يدرون أحوالنا، ونحن لا ندرى أحوالهم، وسهامهم تصل إلينا، وسهامنا لا تصل إليهم، ولا نأمن من بيّاتهم، وأيضاً هذا بين النخلات، ومكان غائر، وأرض وخيمة، لو أمرت بمكان خال عن هذه المفاصد نتخذة معسكراً ، قال ﷺ: « الرأى ما أشرت » ، ثم تحول إلى مكان آخر .

التهيؤ للقتال وبشارة الفتح :

ولما كانت ليلة الدخول - وقيل : بل بعد عدة محاولات ومحاربات - قال النبي ﷺ : « لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، [يفتح الله على يديه] » فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ ، كلهم يرجو أن يعطاها ، فقال : « أين على ابن أبي طالب ؟ » فقالوا : يا رسول الله ، هو يشكى عينيه ، قال : « فأرسلوا إليه » ، فأتى به فبصق رسول الله ﷺ فى عينيه ، ودعا له ، فبرئ ، كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية ، فقال : يا رسول الله ، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ، قال : « انفذ على رسلك ، حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فوالله ، لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم » (١) .

بدء المعركة وفتح حصن ناعم :

أما اليهود فإنهم لما رأوا الجيش وفروا إلى مدينتهم تحصنوا فى حصونهم ، وكان من الطبيعى أن يستعدوا للقتال .

وأول حصن هاجمه المسلمون من حصونهم الثمانية هو حصن ناعم .
وكان خط الدفاع الأول لليهود لمكانه الاستراتيجي ، وكان هذا الحصن هو حصن مرحب
البطل اليهودي الذي كان يعد بالآلاف .

خرج على بن أبي طالب عليه السلام بالمسلمين إلى هذا الحصن ، ودعا اليهود إلى الإسلام ،
فرفضوا هذه الدعوة ، وبرزوا إلى المسلمين ومعهم ملكهم مرحب ، فلما خرج إلى ميدان
القتال دعا إلى المبارزة ، قال سلمة بن الأكوع : فلما أتينا خير خرج ملكهم مرحب يخطر
بسيفه يقول :

قد علمت خير أني مرحب شاكى السلاح بطل مجرب
إذا الحروب أقبلت تلهب

فبرز له عمى عامر فقال :

قد علمت خير أني عامر شاكى السلاح بطل مغامر

فاختلفا ضربتين ، فوقع سيف مرحب في ترس عمى عامر ، وذهب عامر يسفل له ،
وكان سيفه قصيراً ، فتناول به ساق اليهودي ليضربه ، فيرجع ذباب سيفه فأصاب عين ركبته
فمات منه ، وقال فيه النبي ﷺ : « إن له لأجرين - وجمع بين إصبعيه - إنه لجاهد مجاهد ،
قل عري مشى بها مثله » (١) .

ويبدو أن مرحباً دعا بعد ذلك إلى البراز مرة أخرى وجعل يرتجز بقوله :

قد علمت خير أني مرحب ... إلخ ، فبرز له على بن أبي طالب . قال سلمة بن
الأكوع : فقال على :

أنا الذي سمتني أمي حيدر
أوفيهم بالصاع كيل السندرة

فضرب رأس مرحب فقتله ، ثم كان الفتح على يديه (٢) .

ولما دنا على عليه السلام من حصونهم اطلع يهودي من رأس الحصن ، وقال : من أنت؟
فقال : أنا على بن أبي طالب ، فقال اليهودي : علوتم وما أنزل على موسى .

ثم خرج ياسر أخو مرحب ، وهو يقول : من يبارز ؟ فبرز إليه الزبير ، فقالت صفية
أمه : يا رسول الله ، يقتل ابني ، قال : « بل ابنك يقتله » ، فقتله الزبير .

ودار القتال المير حول حصن ناعم ، قتل فيه عدة سراة من اليهود ، انهارت لأجله

(١) صحيح مسلم : باب غزوة خيبر ١٢٢/٢ ، باب غزوة ذي قرد وغيرها ١١٥/٢ ، وصحيح البخاري :
باب غزوة خيبر ٦٠٣ / ٢ . وذباب السيف : طرفه .

(٢) بين المصادر اختلاف كبير في الرجل الذي قتل مرحباً ، وفي اليوم الذي قتل فيه وفتح هذا الحصن ،
وبعض هذا الاختلاف موجود في سياق روايات الصحيحين أيضاً ، وهذا الترتيب أخذناه بعد ترجيح
سياق رواية البخاري .

مقاومة اليهود ، وعجزوا عن صد هجوم المسلمين ، ويؤخذ من المصادر أن هذا القتال دام أياماً لاقي المسلمون فيها مقاومة شديدة ، إلا أن اليهود يثسوا من مقاومة المسلمين ، فتسللوا من هذا الحصن إلى حصن الصَّعْب ، واقتحم المسلمون حصن ناعم .

فتح حصن الصَّعْب بن معاذ :

وكان حصن الصَّعْب الحصن الثاني من حيث القوة والمناعة بعد حصن ناعم ، قام المسلمون بالهجوم عليه تحت قيادة الحباب بن المنذر الأنصاري ، ففرضوا عليه الحصار ثلاثة أيام ، وفي اليوم الثالث ، دعا رسول الله ﷺ لفتح هذا الحصن دعوة خاصة .

روى ابن إسحاق أن بنى سهم من أسلم أتوا رسول الله ﷺ ، فقالوا : لقد جهدنا ، وما بأيدينا من شيء ، فقال : « اللهم إنك قد عرفت حالهم ، وأن ليست بهم قوة ، وأن ليس بيدي شيء أعطيهم إياه ، فافتح عليهم أعظم حصونها عنهم غنائ ، وأكثرها طعاماً وودكاً » . فغدا الناس ففتح الله عز وجل حصن الصَّعْب بن معاذ ، وما بخيبر حصن كان أكثر طعاماً وودكاً منه (١) .

ولما نذب النبي ﷺ المسلمين بعد دعائه لمهاجمة هذا الحصن كان بنو أسلم هم المقادير في المهاجمة ، ودار البراز والقتال أمام الحصن ، ثم فتح الحصن في ذلك اليوم قبل أن تغرب الشمس ، ووجد فيه المسلمون بعض المنجنقات والدبابات .

ولأجل هذه المجاعة الشديدة التي ورد ذكرها في رواية ابن إسحاق ، كان رجال من الجيش قد ذبحوا الحمير ، ونصبوا القدور على النيران ، فلما علم رسول الله ﷺ بذلك نهى عن لحوم الحمر الإنسية .

فتح قلعة الزبير :

وبعد فتح حصن ناعم والصَّعْب تحول اليهود من كل حصون النِّطَاة إلى قلعة الزبير ، وهو حصن منيع في رأس قَلَّة (٢) ، لا تقدر عليه الخيل والرجال لصعوبته وامتناعه ، ففرض عليه رسول الله ﷺ الحصار ، وأقام محاصراً ثلاثة أيام ، فجاء رجل من اليهود ، وقال : يا أبا القاسم ، إنك لو أقيمت شهراً ما بالوا ، إن لهم شراً وعيوناً تحت الأرض ، يخرجون بالليل ويشربون منها ، ثم يرجعون إلى قلعته فيمتنعون منك ، فإن قطعت مشربهم عليهم أصبحوا لك . فقطع ماءهم عليهم ، فخرجوا فقاتلوا أشد القتال ، قتل فيه نفر من المسلمين ، وأصيب نحو العشرة من اليهود ، وافتتحه رسول الله ﷺ .

فتح قلعة أبي :

وبعد فتح قلعة الزبير انتقل اليهود إلى قلعة أبي وتحصنوا فيه ، وفرض المسلمون عليهم الحصار ، وقام بطلان من اليهود واحد بعد الآخر بطلب المبارزة ، وقد قتلها أبطال المسلمين ، وكان الذي قتل المبارز الثاني هو البطل المشهور أبو دُجَانَةَ سِمَاك بن خَرْشَةَ الأنصاري صاحب العصابة الحمراء . وقد أسرع أبو دُجَانَةَ بعد قتله إلى اقتحام القلعة ، واقتحم معه الجيش

الإسلامي ، وجرى قتال مرير ساعة داخل الحصن ، ثم تسلل اليهود من القلعة ، وتحولوا إلى حصن التزار آخر حصن في الشطر الأول .

فتح حصن التزار :

كان هذا الحصن أمنع حصون هذا الشطر ، وكان اليهود على شبه اليقين بأن المسلمين لا يستطيعون اقتحام هذه القلعة ، وإن بذلوا قصارى جهدهم في هذا السبيل ، ولذلك أقاموا في هذه القلعة مع الذراري والنساء ، بينما كانوا قد أدخلوا منها القلاع الأربعة السابقة .

وفرض المسلمون على هذا الحصن أشد الحصار ، وصاروا يضغطون عليهم بعنف ، ولكون الحصن يقع على جبل مرتفع منيع لم يكونوا يجدون سبيلا للاقتحام فيه . أما اليهود فلم يجترئوا للخروج من الحصن ، وللأشباك مع قوات المسلمين ، ولكنهم قاوموا المسلمين مقاومة عنيدة برشق النبال ، وبإلقاء الحجارة .

وعندما استعصى حصن التزار على قوات المسلمين ، أمر النبي ﷺ بنصب آلات المنجنيق ، ويبدو أن المسلمين قذفوا به القذائف ، فأوقعوا الخلل في جدران الحصن ، واقتحموه ، ودار قتال مرير في داخل الحصن انهزم أمامه اليهود هزيمة منكرة ، وذلك لأنهم لم يتمكنوا من التسلل من هذا الحصن كما تسللوا من الحصون الأخرى ، بل فروا من هذا الحصن تاركين للمسلمين نساءهم وذريتهم .

وبعد فتح هذا الحصن المنيع تم فتح الشطر الأول من خير ، وهي ناحية النطا والشق ، وكانت في هذه الناحية حصون صغيرة أخرى إلا أن اليهود بمجرد فتح هذا الحصن المنيع أدخلوا هذه الحصون ، وهربوا إلى الشطر الثاني من بلدة خير .

فتح الشطر الثاني من خير :

ولما أتم رسول الله ﷺ فتح ناحية النطا والشق ، تحول إلى أهل الكتيبة التي بها حصن القموص : حصن بنى أبي الحقيق من بنى النضير ، وحصن الوطيح والسلالم ، وجاءهم كل فل كان انهزم من النطا والشق ، وتحصن هؤلاء أشد التحصن .

واختلف أهل المغازي هل جرى هناك قتال في أى حصن من حصونها الثلاثة أم لا ؟ فسياق ابن إسحاق صريح في جريان القتال لفتح حصن القموص ، بل يؤخذ من سياقه أن هذا الحصن تم فتحه بالقتال فقط من غير أن يجرى هناك مفاوضة للاستسلام (١) .

أما الواقدي ، فيصرح تمام التصريح أن قلاع هذا الشطر الثلاث إنما أخذت بعد المفاوضة ، ويمكن أن تكون المفاوضة قد جرت لاستلام حصن القموص بعد إدارة القتال ، وأما الحصنان الآخران فقد سلما إلى المسلمين دونما قتال .

ومهما كان ، فلما أتى رسول الله ﷺ إلى هذه الناحية - الكتيبة - فرض على أهلها أشد الحصار ، ودام الحصار أربعة عشر يوماً ، واليهود لا يخرجون من حصونهم ، حتى هم رسول الله ﷺ أن ينصب عليهم المنجنيق ، فلما أيقنوا بالهلكة سألوا رسول الله ﷺ الصلح .

المفاوضة :

وأرسل ابن أبي الحقيق إلى رسول الله ﷺ: أنزل فأكلمك ؟ قال: «نعم»، فتزل، وصالح على حقن دماء من في حصونهم من المقاتلة ، وترك الذرية لهم ، ويخرجون من خيبر وأرضها بذراريهم ، ويخلون بين رسول الله ﷺ وبين ما كان لهم من مال وأرض، وعلى الصفراء والبيضاء - أى الذهب والفضة - والكراع والحلقة إلا ثوباً على ظهر إنسان (١) ، فقال رسول الله ﷺ: « وبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كنتم تمنون شيئاً » ، فصالحوه على ذلك (٢) ، وبعد هذه المصالحة تم تسليم الحصون إلى المسلمين ، وبذلك تم فتح خيبر .

قتل ابني أبي الحقيق لنقض العهد :

وعلى رغم هذه المعاهدة غيب ابنا أبي الحقيق مالا كثيراً ، غيباً مسكاً (٣) فيه مال وحلى الحى بن أخطب ، كان احتمله معه إلى خيبر حين أجليت النضير .

قال ابن إسحاق: وأتى رسول الله ﷺ بكنانة الربيع ، وكان عنده كنز بنى النضير ، فسأله عنه ، فوجد أن يكون يعرف مكانه ، فأتى رجل من اليهود فقال : إني رأيت كنانة يطيف بهذه الخربة كل غداة ، فقال رسول الله ﷺ لكنانة : « رأيت إن وجدناه عندك أأقتلك ؟ » قال : نعم ، فأمر بالخربة ، فحفرت ، فأخرج منها بعض كنزهم ، ثم سأله عما بقى ، فأبى أن يؤديه . فدفعه إلى الزبير ، وقال : عذبه حتى نستأصل ما عنده ، فكان الزبير يقدح بزند فى صدره حتى أشرف على نفسه ، ثم دفعه رسول الله ﷺ إلى محمد بن مسلمة ، فضرب عنقه بمحمود بن مسلمة (وكان محمود قتل تحت جدار حصن ناعم ، ألقى عليه الرحي ، وهو يستظل بالجدار فمات) .

وذكر ابن القيم أن رسول الله ﷺ أمر بقتل ابني أبي الحقيق ، وكان الذى اعترف عليهما بإخفاء المال هو ابن عم كنانة .

وسبى رسول الله ﷺ صفية بنت حى بن أخطب، وكانت تحت كنانة بن أبي الحقيق، وكانت عروساً حديثة عهد بالدخول.

قسمة الغنائم :

وأراد رسول الله ﷺ أن يجلى اليهود من خيبر ، فقالوا: يا محمد ، دعنا نكون فى هذه الأرض ، نصلحها ، ونقوم عليها ، فنحن أعلم بها منكم ، ولم يكن لرسول الله ﷺ ولا لأصحابه غلمان يقومون عليها، وكانوا لا يفرغون حتى يقوموا عليها ، فأعطاهم خيبر على أن لهم الشطر من كل زرع ، ومن كل ثمر ، ما بدا لرسول الله ﷺ أن يقرهم ، وكان عبد الله بن رواحة يخرصه عليهم .

وقسم أرض خيبر على ستة وثلاثين سهماً ، جمع كل سهم مائة سهم ، فكانت ثلاثة

(١) ولكن صرح فى رواية أبى داود أنه عاهد على أن المسلمين يسمحون لليهود عند جلائهم عن خيبر أن يأخذوا من الأموال ما حملت ركابهم (انظر: سنن أبى داود ، باب ما جاء فى حكم أرض خيبر ٧٦/٢) .

(٢) زاد المعاد ١٣٦/٢ ، والكراع : الخيل ، والحلقة : السلاح .

(٣) جلدًا .

آلاف وستمائة سهم ، فكان لرسول الله ﷺ والمسلمين النصف من ذلك وهو ألف وثمانمائة سهم ، لرسول الله ﷺ سهم كسهم أحد المسلمين، وعزل النصف الآخر، وهو ألف وثمانمائة سهم ، لنوابه وما يتنزل به من أمور المسلمين ، وإنما قسمت على ألف وثمانمائة سهم لأنها كانت طعمة من الله لأهل الحديبية من شهد منهم ومن غاب ، وكانوا ألفاً وأربعمائة ، وكان معهم مائتا فرس ، لكل فرس سهمان ، فقسمت على ألف وثمانمائة سهم ، فصار للفارس ثلاثة أسهم ، وللراجل سهم واحد (١) .

ويدل على كثرة مغنم خيبر ما رواه البخارى عن ابن عمر قال : ما شبعنا حتى فتحنا خيبر، وما رواه عن عائشة قالت : لما فتحت خيبر قلنا : الآن نشبع من التمر (٢) ، ولما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة رد المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التي كانوا منحوهم إياها من النخيل حين صار لهم بخيبر مال ونخيل (٣) .
قدوم جعفر بن أبى طالب والأشعرين :

وفى هذه الغزوة قدم عليه ابن عمه جعفر بن أبى طالب وأصحابه ، ومعهم الأشعريون أبو موسى وأصحابه .

قال أبو موسى: بلغنا مخرج رسول الله ﷺ ونحن باليمن ، فخرجنا مهاجرين إليه - أنا وأخوان لى - فى بضع وخمسين رجلاً من قومي، ركبنا سفينة ، فالتقنا سفيتنا إلى النجاشى بالحبيشة ، فوافقنا جعفرًا وأصحابه عنده ، فقال : إن رسول الله ﷺ بعثنا وأمرنا بالإقامة ، فأقيموا معنا ، فأقمنا معه حتى قدمنا فوافقنا رسول الله ﷺ حين فتح خيبر، فأسهم لنا ، وما قسم لأحد غاب عن فتح خيبر شيئاً إلا لمن شهد معه ، إلا لأصحاب سفيتنا مع جعفر وأصحابه ، قسم لهم معهم (٤) .

ولما قدم جعفر على النبى ﷺ تلقاه وقَبَلَ ما بين عينيه وقال : « والله ما أدري بأيهما أفرح ؟ بفتح خيبر أم بقدوم جعفر » (٥) .

وكان قدوم هؤلاء على أثر بعث الرسول ﷺ إلى النجاشى عمرو بن أمية الضمرى يطلب توجيههم إليه ، فأرسلهم النجاشى على مركبين ، وكانوا ستة عشر رجلاً ، معهم من بقى من نسائهم وأولادهم ، وبقيتهم جاءوا إلى المدينة قبل ذلك (٦) .
الزواج بصفية :

ذكرنا أن صفية جعلت فى السبايا حين قتل زوجها كنانة بن أبى الحقيق لغدره ، ولما جمع السبى جاء دحية بن خليفة الكلبي، فقال: يا نبى الله، أعطني جارية من السبى، فقال : اذهب فخذ جارية ، فأخذ صفية بنت حبي ، فجاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا نبى الله،

(١) زاد المعاد ٢ / ١٣٧ ، ١٣٨ . (٢) صحيح البخارى ٢ / ٦٠٩ .

(٣) زاد المعاد ٢ / ١٤٨ ، وصحيح مسلم ٢ / ٩٦ .

(٤) صحيح البخارى ١ / ٤٤٣ ، وانظر أيضا : فتح البارى ٧ / ٤٨٤ - ٤٨٧ .

(٥) زاد المعاد ٢ / ١٣٩ ، والمعجم الصغير للطبرانى ١ / ١٩٩ .

(٦) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ١ / ١٢٨ .

أعطيت دحية صفية بنت حبي سيدة قريظة وبنى النضير، لا تصلح إلا لك ، قال : « ادعوه بها » . فجاء بها ، فلما نظر إليها النبي ﷺ قال : « خذ جارية من السبي غيرها » ، وعرض عليها النبي ﷺ الإسلام فأسلمت ، فأعتقها وتزوجها ، وجعل عتقها صداقها ، حتى إذا كان بسد الصهباء راجعاً إلى المدينة حلت ، فجهزتها له أم سليم ، فأهدتها له من الليل ، فأصبح عروساً بها ، وأولم عليها بحيس من التمر والسمن والسويق ، وأقام عليها ثلاثة أيام في الطريق يبنى بها (١) .

ورأى بوجهها خضرة ، فقال : « ما هذا ؟ » قالت : يا رسول الله، رأيت قبل قدومك علينا كأن القمر زال من مكانه ، وسقط في حجرى ، ولا والله ما أذكر من شأنك شيئاً ، فقصصتها على زوجى ، فلطم وجهى . فقال : تمنين هذا الملك الذى بالمدينة (٢) .

أمر الشاة المسمومة :

ولما اطمأن رسول الله ﷺ بخيبر بعد فتحها أهدت له زينب بنت الحارث ، امرأة سَلَامَ ابنِ مشكَم ، شاة مَصْلِيَّة ، وقد سألت أى عضو أحب إلى رسول الله ﷺ ؟ فقيل لها : الذراع ، فأكثر فيها من السم ، ثم سمت سائر الشاة ، ثم جاءت بها ، فلما وضعتها بين يدى رسول الله ﷺ تناول الذراع ، فلَاكَ منها مضغة فلم يسغها ، ولفظها ، ثم قال : « إن هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم » ، ثم دعا بها فاعترفت ، فقال : « ما حملك على ذلك ؟ » قالت : قلت : إن كان ملكاً استرحت منه ، وإن كان نبياً فسيخبر ، فتجاوز عنها .

وكان معه بشر بن البراء بن معرور ، أخذ منها أكلة فأساغها ، فمات منها .

واختلفت الروايات فى التجاوز عن المرأة وقتلها ، وجمعوا بأنه تجاوز عنها أولاً ، فلما مات بشر قتلها قصاصاً (٣) .

قتلى الفريقين فى معارك خيبر :

وجملة من استشهد من المسلمين فى معارك خيبر ستة عشر رجلاً ، أربعة من قريش وواحد من أشجع ، وواحد من أسلم ، وواحد من أهل خيبر والباقون من الأنصار .

ويقال : إن شهداء المسلمين فى هذه المعارك ١٨ رجلاً .

وذكر العلامة المنصورفورى ١٩ رجلاً ، ثم قال : إنى وجدت بعد التفحص ٢٣ اسماً ، واحد منها فى الطبرى فقط ، وواحد عند الواقدى فقط ، وواحد مات لأجل أكل الشاة المسمومة ، وواحد اختلفوا هل قتل فى بدر أو خيبر ، والصحيح أنه قتل فى بدر (٤) .

أما قتلى اليهود فعددهم ثلاثة وتسعون قتيلاً .

(١) صحيح البخارى ٥٤/١ ، ٦٠٤/٢ ، ٦٠٦ ، وزاد المعاد ١٣٧/٢ . والحيص : الخلط .

(٢) المصدر نفسه الأخير ، وابن هشام ٣٣٦/٢ .

(٣) انظر : زاد المعاد ١٣٩/٢ ، ١٤٠ ، وفتح البارى ٤٩٧/٧ ، وأصل القصة مروية فى البخارى مطولاً ومختصراً : ٤٤٩/١ ، ٦١٠/٢ ، ٨٦٠ ، وفى ابن هشام ٣٣٧/٢ ، ٣٣٨ . و« مصلية » : مشوية .

(٤) رحمة للعالمين ٢٦٨/٢ - ٢٧٠ .

فَدَكْ :

ولما بلغ رسول الله ﷺ إلى خير ، بعث مُحِصَّةَ بن مسعود إلى يهود فَدَكْ ، ليدعوهم إلى الإسلام ، فأبطأوا عليه ، فلما فتح الله خير قذف الرعب في قلوبهم ، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يصلحونه على النصف من فدك بمثل ما عامل عليه أهل خير ، فقبل ذلك منهم ، فكانت فدك لرسول الله ﷺ خالصة ؛ لأنه لم يُوجِفْ عليه المسلمون بخيل ولا ركاب (١) .
وادی القرى :

ولما فرغ رسول الله ﷺ من خير ، انصرف إلى وادی القرى ، وكان بها جماعة من اليهود ، وانضاف إليهم جماعة من العرب .

فلما نزلوا استقبلتهم يهود بالرمي ، وهم على تعبئة ، فقتل مدغم - عبدُ لرسول الله ﷺ - فقال الناس : هنيئا له الجنة ، فقال النبي ﷺ : « كلا ، والذي نفسى بيده ، إن الشَّمْلَةَ التي أخذها يوم خير من المغانم ، لم تصبها المقاسم ، لتشتعل عليه ناراً » ، فلما سمع بذلك الناس جاء رجل إلى النبي ﷺ بِشِرَاكٍ أو شراكين ، فقال النبي ﷺ : « شراك من نار أو شراكان من نار » (٢) .

ثم عبَّ رسول الله ﷺ أصحابه للقتال ، وصفَّهم ، ودفع لواءه إلى سعد بن عباد ، وراية إلى الحُبَّاب بن المنذر ، وراية إلى سهل بن حنيف ، وراية إلى عباد بن بشر ، ثم دعاهم إلى الإسلام فأبوا ، وبرز رجل منهم ، فبرز إليه الزبير بن العوام فقتله ، ثم برز آخر فقتله ، ثم برز آخر فبرز إليه على بن أبى طالب فقتله ، حتى قتل منهم أحد عشر رجلاً ، كلما قتل منهم رجل دعا من بقى إلى الإسلام .

وكانت الصلاة تحضر هذا اليوم ، فيصلى بأصحابه ، ثم يعود ، فيدعوهم إلى الإسلام وإلى الله ورسوله ، فقاتلهم حتى أمسوا ، وغدا عليهم فلم ترتفع الشمس قيد رمح حتى أعطوا ما بأيديهم ، وفتحها عنوة ، وغنمَ الله أموالهم ، وأصابوا أثاثاً ومتاعاً كثيراً .

وأقام رسول الله ﷺ بوادی القرى أربعة أيام . وقسم على أصحابه ما أصاب بها ، وترك الأرض والنخل بأيدي اليهود ، وعاملهم عليها (٣) (كما عامل أهل خير) .
تيماء :

ولما بلغ يهود تيماء خبر استسلام أهل خير ثم فَدَكْ ووادی القرى ، لم يدؤوا أى مقاومة ضد المسلمين ، بل بعثوا من تلقاء أنفسهم يعرضون الصلح ، فقبل ذلك منهم رسول الله ﷺ ، وأقاموا بأموالهم (٤) . وكتب لهم بذلك كتاباً وهاك نصه : هذا كتاب محمد رسول الله لبنى عاديا ، أن لهم الذمة ، وعليهم الجزية ، ولا عداء ولا جلاء ، الليل مد ، والنهار شد ، وكتب خالد بن سعيد (٥) .

(٢) صحيح البخارى ٢ / ٦٠٨ .

(٤) المصدر نفسه ٢ / ١٤٧ .

(١) ابن هشام ٢ / ٣٣٧ ، ٣٥٣ .

(٣) زاد المعاد ٢ / ١٤٦ ، ١٤٧ .

(٥) ابن سعد ١ / ٢٧٩ .

العودة إلى المدينة :

ثم أخذ رسول الله ﷺ في العودة إلى المدينة ، وفي الطريق أشرف الناس على واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير : « الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله » فقال رسول الله ﷺ : « أربعوا على أنفسكم ، إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً ، إنكم تدعون سميعاً قريباً » (١) .

وفي مرجعه ذلك سار النبي ﷺ ليلة ، ثم نام في آخر الليل ببعض الطريق ، وقال لبلال : « اكلاً لنا الليل » ، فغلبت بلالاً عيناه ، وهو مستند إلى راحلته ، فلم يستيقظ أحد ، حتى ضربتهم الشمس ، وأول من استيقظ بعد ذلك رسول الله ﷺ ، ثم خرج من ذلك الوادي ، وتقدم ، ثم صلى الفجر بالناس ، وقيل : إن هذه القصة في غير هذا السفر (٢) .

وبعد النظر في تفصيل معارك خيبر ، يبدو أن رجوع النبي ﷺ كان في أواخر صفر أو في ربيع الأول سنة ٧ هـ .

سرية أبان بن سعيد :

كان النبي ﷺ يعرف أكثر من كل قائد عسكري أن إخلاء المدينة تماماً بعد انقضاء الأشهر الحرم ليس من الحزم قطعاً ، بينما الأعراب ضاربة حولها ، تطلب غرة المسلمين للقيام بالنهب والسلب وأعمال القرصنة ؛ ولذلك أرسل سرية إلى نجد لإرهاب الأعراب تحت قيادة أبان بن سعيد ، بينما كان هو إلى خيبر ، وقد رجع أبان بن سعيد بعد قضاء ما كان واجباً عليه ، فوافى النبي ﷺ بخيبر ، وقد افتتحها .

والأغلب أن هذه السرية كانت في صفر سنة ٧ هـ ، وقد ورد ذكرها في البخاري (٣) . قال ابن حجر : لم أعرف حال هذه السرية (٤) .

* * *

(١) صحيح البخاري ٢ / ٦٠٥ .

(٢) ابن هشام ٢ / ٣٤٠ ، والقصة معروفة مروية في عامة كتب الحديث ، وانظر : زاد المعاد ٢ / ١٤٧ .

(٣) انظر : صحيح البخاري : باب غزوة خيبر ٢ / ٦٠٨ ، ٦٠٩ .

(٤) فتح الباري ٧ / ٤٩١ .

بقية السرايا والغزوات فى السنة السابعة

غزوة ذات الرقاع :

ولما فرغ رسول الله ﷺ من كسر جناحين قوين من أجنحة الأحزاب الثلاثة تفرغ تماماً للالتفات إلى الجناح الثالث، أى إلى الأعراب القساة الضاريين فى فيافى نجد، والذين ما زالوا يقومون بأعمال النهب والسلب بين آونة وأخرى.

ولما كان هؤلاء البدو لا تجمعهم بلدة أو مدينة، ولم يكونوا يقطنون الحصون والقلاع، كانت الصعوبة فى فرض السيطرة عليهم وإخماد نار شرهم تماماً تزداد بكثير عما كانت بالنسبة إلى أهل مكة وخيبر؛ ولذلك لم تكن تجدى فيهم إلا حملات التأديب والإرهاب، وقام المسلمون بمثل هذه الحملات مرة بعد أخرى.

ولفرض الشوكة - أو لاجتماع البدو الذين كانوا يتحشدون للإغارة على أطراف المدينة - قام رسول الله ﷺ بحملة تأديبية عرفت بغزوة ذات الرقاع.

وعامة أهل المغازى يذكرون هذه الغزوة فى السنة الرابعة، ولكن حضور أبى موسى الأشعرى وأبى هريرة رضي الله عنهما فى هذه الغزوة يدل على وقوعها بعد خيبر، والأغلب أنها وقعت فى شهر ربيع الأول سنة ٧ هـ.

وملخص ما ذكره أهل السير حول هذه الغزوة : أن النبى ﷺ سمع باجتماع بنى أثمار أو بنى ثعلبة وبنى مُحارب من غطفان، فأسرع بالخروج إليهم فى أربعمئة أو سبعمئة من أصحابه، واستعمل على المدينة أبا ذر أو عثمان بن عفان رضي الله عنهما، وسار فتوغل فى بلادهم حتى وصل إلى موضع يقال له: نخل، على بعد يومين من المدينة، ولقى جمعاً من غطفان، فتقاربوا وأخاف بعضهم بعضاً ولم يكن بينهم قتال، إلا أنه صلى بهم يومئذ صلاة الخوف. وفى رواية البخارى: وأقيمت الصلاة فصلى بطائفة ركعتين، ثم تأخروا، وصلى بالطائفة الأخرى ركعتين، وكان للنبي ﷺ أربع، وللقوم ركعتان (١).

وفى البخارى عن أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ ونحن ستة نفر بيننا بغير نعتبه، فنقبت أقدامنا، ونقبت قدمائى، وسقطت أظفارى، فكنا نلف على أرجلنا الحرق، فسميت ذات الرقاع، لما كنا نعصب الحرق على أرجلنا (٢).

وفيه عن جابر : كنا مع النبى ﷺ بذات الرقاع، فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها للنبي ﷺ، فنزل رسول الله ﷺ فتفرق الناس فى العضاة، يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت شجرة فعلق بها سيفه. قال جابر : فتمنا نومة، فجاء رجل من المشركين:

(١) صحيح البخارى ١ / ٤٠٧، ٤٠٨، ٢ / ٥٩٣.

(٢) صحيح البخارى: باب غزوة ذات الرقاع ٢ / ٥٩٢، وصحيح مسلم : باب غزوة ذات الرقاع ٢ / ١١٨.

فاختلط سيف رسول الله ﷺ ، فقال : أتخافني ؟ قال : « لا » ، قال : فمن يمنعك مني ؟ قال : « الله » . قال جابر : فإذا رسول الله ﷺ يدعوننا ، فجننا ، فإذا عنده أعرابي جالس . فقال رسول الله ﷺ : « إن هذا اختلط سيفي وأنا نائم ، فاستيقظت وهو في يده صلتاً . فقال لي : من يمنعك مني ؟ قلت : الله ، فهذا هو ذا جالس » ، ثم لم يعاتبه رسول الله ﷺ . وفي رواية أبي عوانة : فسقط السيف من يده ، فأخذه رسول الله ﷺ ، فقال : « من يمنعك مني ؟ » قال : كن خير آخذ ، قال : « تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ؟ » قال الأعرابي : أعاهدك على ألا أقاتلك ، ولا أكون مع قوم يقاتلونك ، قال : فخلى سبيله ، فجاء إلى قومه ، فقال : جئكم من عند خير الناس ^(١) .

وفي رواية البخاري : قال مسدد عن أبي عوانة عن أبي بشر : اسم الرجل غُورث بن الحارث ^(٢) . قال ابن حجر : ووقع عند الواقدي في سبب هذه القصة : أن اسم الأعرابي دُعُور ، وأنه أسلم ، لكن ظاهر كلامه أنهما قصتان في غزوتين . والله أعلم ^(٣) .

وفي مرجعهم من هذه الغزوة سبوا امرأة من المشركين ، فنذر زوجها ألا يرجع حتى يهريق دمًا في أصحاب محمد ﷺ ، فجاء ليلاً ، وقد أرصد رسول الله ﷺ رجلين ربيثة ^(٤) للمسلمين من العدو ، وهما عباد بن بشر وعمار بن ياسر ، فضرب عبداً ، وهو قائم يصلي ، بسهم فنزعه ، ولم يطل صلاته ، حتى رشقه بثلاثة أسهم ، فلم ينصرف منها حتى سلم ، فابقظ صاحبه ، فقال : سبحان الله ! هلا نبهتني ، فقال : إني كنت في سورة فكرهت أن أقطعها ^(٥) .

كان لهذه الغزوة أثر في قذف الرعب في قلوب الأعراب القساة ، وإذا نظرنا إلى تفاصيل السرايا بعد الغزوة نرى أن هذه القبائل من غطفان لم تجترئ أن ترفع رأسها بعد هذه الغزوة ، بل استكانت شيئاً فشيئاً حتى استسلمت ، بل وأسلمت ، حتى نرى عدة قبائل من هذه الأعراب تقوم مع المسلمين في فتح مكة ، وتغزو حنيناً ، وتأخذ من غنائمها ، ويبعث إليها المصدقون فتعطى صدقاتها بعد الرجوع من غزوة الفتح ، فهذا تم كسر الأجنحة الثلاثة التي كانت ممثلة في الأحزاب ، وساد المنطقة الأمن والسلام ، واستطاع المسلمون بعد ذلك أن يسدوا بسهولة كل خلل وثلمة حدثت في بعض المناطق من بعض القبائل ، بل بعد هذه الغزوة بدأت التمهيدات لفتوح البلدان والممالك الكبيرة ؛ لأن الظروف في داخل البلاد كانت قد تطورت لصالح الإسلام والمسلمين .

وبعد الرجوع من هذه الغزوة أقام رسول الله ﷺ إلى شوال سنة ٧ هـ . وبعث في خلال ذلك عدة سرايا . وهاك بعض تفصيلها :

١ - سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى بني الملوّح بقدّيد ، في صفر أو ربيع الأول سنة

(١) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ٢٦٤ ، وانظر : فتح الباري ٧ / ٤١٦ .

(٢) صحيح البخاري ٢ / ٥٩٣ .

(٣) فتح الباري ٧ / ٤٢٨ .

(٤) شخص مخصص للمراقبة .

(٥) زاد المعاد ٢ / ١١٢ ، وانظر لتفصيل مباحث هذه الغزوة : ابن هشام ٢ / ٢٠٣ - ٢٠٩ ، وزاد المعاد ٢ / ١١٠ - ١١٢ ، وفتح الباري ٧ / ٤١٧ - ٤٢٨ .

٧ هـ . كان بنو الملوخ قد قتلوا أصحاب بشير بن سويد ، فبعثت هذه السرية لأخذ الثأر ، فشنوا الغارة في الليل فقتلوا من قتلوا ، وساقوا النعم ، وطاردتهم جيش كبير من العدو ، حتى إذا قرب من المسلمين نزل مطر ، فجاء سيل عظيم حال بين الفريقين . ونجح المسلمون في بقية الانسحاب .

٢ - سرية حسمى ، في جمادى الثانية سنة ٧ هـ ، وقد مضى ذكرها في مكاتبة الملوك .

٣ - سرية عمر بن الخطاب إلى تربة ، في شعبان سنة ٧ هـ ، ومعه ثلاثون رجلاً . كانوا يسرون الليل ويستخفون في النهار ، وأتى الخبر إلى هوازن فهربوا ، وجاء عمر إلى محالهم فلم يلق أحداً ، فانصرف راجعاً إلى المدينة .

٤ - سرية بشير بن سعد الأنصاري إلى بني مرة بناحية فدك ، في شعبان سنة ٧ هـ في ثلاثين رجلاً . خرج إليهم واستاق الشاء والنعم ، ثم رجع فأدركه الطلب عند الليل ، فرمهم بالنبل حتى فنى نبل بشير وأصحابه ، فقتلوا جميعاً إلا بشير ، فإنه ارتث^(١) إلى فدك ، فأقام عند يهود حتى برأت جراحه ، فرجع إلى المدينة .

٥ - سرية غالب بن عبد الله الليثي ، في رمضان سنة ٧ هـ إلى بني عوال وبني عبد ابن ثعلبة باليفعة ، وقيل إلى الحرقات من جهينة ، في مائة وثلاثين رجلاً ، فهجموا عليهم جميعاً ، وقتلوا من أشرف لهم ، واستاقوا نعماً وشاء ، وفي هذه السرية قتل أسامة بن زيد نهيك بن مرداس بعد أن قال : لا إله إلا الله ، فلما قدموا وأخبر النبي ﷺ ، كبر عليه وقال : « أقتلته بعد ما قال : لا إله إلا الله ؟ » فقال : إنما قالها متعوذاً قال : « فهلا شققت عن قلبه فتعلم أصادق هو أم كاذب ؟ » .

٦ - سرية عبد الله بن رواحة إلي خيبر ، في شوال سنة ٧ هـ في ثلاثين راکباً . وذلك أن أسير أو بشير بن زارم كان يجمع غطفان لغزو المسلمين ، فأخرجوا أسيراً في ثلاثين من أصحابه ، وأطمعوه أن الرسول ﷺ يستعمله على خيبر ، فلما كانوا بقرقرة نيار وقع بين الفريقين سوء ظن أفضى إلى قتل أسير وأصحابه الثلاثين . ذكر الواقدي هذه السرية في شوال سنة ست قبل خيبر بأشهر .

٧ - سرية بشير بن سعد الأنصاري إلى يمن وجبار (بالتفتح ، أرض لغطفان ، وقيل : لفزارة وعذرة) ، في شوال سنة ٧ هـ في ثلاثمائة من المسلمين ، للقاء جمع كبير تجمعوا للإغارة على أطراف المدينة ، فساروا الليل وكمنوا النهار ، فلما بلغهم مسير بشير هربوا ، وأصاب بشير نعماً كثيرة ، وأسر رجلين ، فقدم بهما المدينة إلى رسول الله ﷺ فأسلما .

٨ - سرية أبي حذرد الأسلمي إلى الغابة ، ذكرها ابن القيم في سرايا السنة السابعة قبل عمرة القضاء ، وملخصها : أن رجلاً من جشم بن معاوية أقبل في عدد كبير إلى الغابة ، يريد أن يجمع قيساً على محاربة المسلمين . فبعث رسول الله ﷺ أبا حذر مع رجلين ليأتوا منه بخبر وعلم ، فوصلوا إلى القوم مع غروب الشمس ، فكمن أبو حذر في ناحية ،

(١) حُيِّل من المعركة جريحا .

وصاحبه فى ناحية أخرى، وأبطأ على القوم راعيهم حتى ذهبت فحمة العشاء ، فقام رئيس القوم وحده ، فلما مر بأبى حدرد رماه بسهم فى فؤاده فسقط ولم يتكلم ، فاحتز أبو حدرد رأسه ، وشد فى ناحية العسكر ، وكبر ، وكبر صاحبه وشد ، فما كان من القوم إلا الفرار ، واستاق المسلمون الثلاثة الكثير من الإبل والغنم (١) .

(١) زاد المعاد ٢ / ١٤٩ ، ١٥٠ ، وابن هشام ٢ / ٦٢٩ ، ٦٣٠ وعنده : ابن أبى حدرد ، وانظر لتفصيل هذه السرايا : رحمة للعالمين ٢ / ٢٢٩ - ٢٣١ ، وزاد المعاد ٢ / ١٤٨ - ١٥٠ ، وتلقيح فهوم أهل الأثر مع حواشيها ص ٣١ ، ومختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ٣٢٢ - ٣٢٤ .

عمرة القضاء

قال الحاكم : تواترت الاخبار أنه ﷺ لما هَلَّ ذو القعدة أمر أصحابه أن يعتمروا قضاء عمرتهم ، وألا يتخلف منهم أحد شهد الحديبية ، فخرجوا إلا من استشهد ، وخرج معه آخرون معتمرين ، فكانت عدتهم ألفين سوى النساء والصبيان . ١ هـ (١) .

واستخلف على المدينة عُوَيْفُ بْنُ الْأَضْبَطِ الدِّيْلِيُّ ، أو أبا رُحْمَ الغفارى ، وساق ستين بدنة ، وجعل عليها ناجية بن جُنْدُبِ الْأَسْلَمِيِّ ، وأحرم للعمرة من ذى الحُلَيْفَةِ ، ولبى ، ولبى المسلمون معه ، وخرج مستعداً بالسلاح والمقاتلة ، خشية أن يقع من قريش غدر ، فلما بلغ يَأْجُجَ وضع الاداة كلها : الْحَجَفَ وَالْمِجَانَ وَالنَّبْلَ وَالرِّمَاحَ ، وخلف عليها أوس بن خُوَلَيٍّ الأنصارى فى مائتى رجل ، ودخل بسلاح الراكب : السيف فى القُرْب (٢) .

وكان رسول الله ﷺ عند الدخول راكباً على ناقته القَصْوَاءَ ، والمسلمون متوشحون السيوف ، محدقون برسول الله ﷺ يلبون .

وخرج المشركون إلى جبل قُعَيْقَعَانَ - الجبل الذى فى شمال الكعبة - ليروا المسلمين ، وقد قالوا فيما بينهم : إنه يقدم عليكم وفد وهتهم حمى يثرب ، فأمر النبى ﷺ أصحابه أن يرملوا الأشواط الثلاثة ، وأن يمشوا ما بين الركنين . ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم ، وإنما أمرهم بذلك ليرى المشركين قوته (٣) كما أمرهم بالاضطباع ، أى أن يكشفوا المناكب اليمنى ، ويضعوا طرفى الرداء على اليسرى .

ودخل رسول الله ﷺ مكة من الثنية التى تطلعه على الْحَجُّونَ - وقد صف المشركون ينظرون إليه - فلم يزل يلبى حتى استلم الركن بِحَجَّتِهِ ، ثم طاف ، وطاف المسلمون ، وعبد الله بن رواحة بين يدى رسول الله ﷺ يرتجز متوشحاً بالسيف :

خَلُّوا بَنِي الْكَفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ	خَلُّوا بَنِي الْكَفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ
قَدْ أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ فِي تَنْزِيلِهِ	قَدْ أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ فِي تَنْزِيلِهِ
يَا رَبِّ إِنِّى مُؤْمِنٌ بِقَبِيلِهِ	يَا رَبِّ إِنِّى مُؤْمِنٌ بِقَبِيلِهِ
بِأَنَّ خَيْرَ الْقَتْلِ فِي سَبِيلِهِ	بِأَنَّ خَيْرَ الْقَتْلِ فِي سَبِيلِهِ
ضَرْباً يَزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ	وَيُذْهِلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ (٤)

وفى حديث أنس فقال عمر : يا ابن رواحة ، بين يدى رسول الله ﷺ ، وفى حرم الله تقول الشعر؟ فقال له النبى ﷺ : « خَلِّ عَنْهُ يَا عُمَرُ ، فَلَهُوَ أَسْرَعُ فِيهِمْ مِنْ نَضْحِ النَّبْلِ » (٥) .

ورمَلَ رسول الله ﷺ والمسلمون ثلاثة أشواط ، فلما رَأَهم المشركون قالوا : هؤلاء

(١) فتح البارى ٧ / ٥٠٠ . (٢) المصدر نفسه ، وزاد المعاد ٢ / ١٥١ .

(٣) صحيح البخارى ١ / ٢١٨ ، ٢ / ٦١٠ ، ٦١١ ، وصحيح مسلم ١ / ٤١٢ .

(٤) اضطربت الأشعار وترتيبها فى الروايات فجمعنا بين شتيتها .

(٥) رواء الترمذى : أبواب الاستئذان والأدب ، باب ما جاء فى إنشاد الشعر ٢ / ١٠٧ .

الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم ، هؤلاء أجلد من كذا وكذا (١) .

ولما فرغ من الطواف سعى بين الصفا والمروة ، فلما فرغ من السعى ، وقد وقف الهدى عند المروة ، قال : « هذا المنحر ، وكل فجاج مكة منحر » ، فنحر عند المروة ، وحلق هناك ، وكذلك فعل المسلمون ، ثم بعث ناساً إلى يأجُج ، ليقيموا على السلاح ، ويأتى الآخرون فيقضون نسكهم ففعلوا .

وأقام رسول الله ﷺ بمكة ثلاثاً ، فلما أصبح من اليوم الرابع أتوا علياً فقالوا : قل لصاحبك : اخرج عنا فقد مضى الأجل ، فخرج النبي ﷺ ، ونزل بسرِّف فأقام بها .

ولما أراد الخروج من مكة تبتعهم ابنة حمزة ، تنادى ، يا عم يا عم ، فتناولها على ، واختصم فيها على وجعفر وزيد ، ففضى النبي ﷺ لجعفر ؛ لأن خالتها كانت تحته .

وفى هذه العمرة تزوج النبي ﷺ بميمونة بنت الحارث العامرية ، وكان رسول الله ﷺ قبل الدخول فى مكة بعث جعفر بن أبى طالب بين يديه إلى ميمونة ، فجعلت أمرها إلى العباس ، وكانت أختها أم الفضل تحته ، فزوجها إياه ، فلما خرج من مكة خلف أبا رافع ليحمل ميمونة إليه حين يمشى ، فبنى بها بسرف (٢) .

وسميت هذه العمرة بعمرة القضاء ؛ إما لأنها كانت قضاء عن عمرة الحديبية ، أو لأنها وقعت حسب المقاضاة - أى المصالحة - التى وقعت فى الحديبية ، والوجه الثانى رجحه المحققون (٣) ، وهذه العمرة تسمى بأربعة أسماء : القضاء ، والقضية ، والقصاص ، والصِّلح (٤) .

وقد أرسل رسول الله ﷺ بعد الرجوع من هذه العمرة عدة سرايا ، وهى كما يلي :

١ - سرية ابن أبى العوجاء ، فى ذى الحجة سنة ٧ هـ فى خمسين رجلاً . بعثه رسول الله ﷺ إلى بنى سليم ؛ ليدعوهم إلى الإسلام ، فقالوا : لا حاجة لنا إلى ما دعوتنا ، ثم قاتلوا قتالاً شديداً . جرح فيه أبو العوجاء ، وأسر رجلان من العدو .

٢ - سرية غالب بن عبد الله إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد بفدك ، فى صفر سنة ٨ هـ . بعث فى مائتى رجل ، فأصابوا من العدو نعماً ، وقتلوا منهم قتلى .

٣ - سرية ذات أطلح فى ربيع الأول سنة ٨ هـ . كانت بنو قُضاعة قد حشدت جمعواً كبيرة للإغارة على المسلمين ، فبعث إليهم رسول الله ﷺ كعب بن عمير الأنصارى فى خمسة عشر رجلاً ، فلقوا العدو ، فدعوههم إلى الإسلام ، فلم يستجيبوا لهم ، وأرشقوهم بالنبل حتى استشهد كلهم إلا رجلاً واحداً ، فقد ارتث من بين القتلى (٥) .

٤ - سرية ذات عرق إلى بنى هوازن ، فى ربيع الأول سنة ٨ هـ . كانت بنو هوازن قد أمدت الأعداء مرة بعد أخرى فأرسل إليها شجاع بن وهب الأسدى فى خمسة وعشرين رجلاً ، فاستاقوا نعماً من العدو ، ولم يلقوا كيداً (٦) .

(١) صحيح مسلم ١ / ٤١٢ . (٢) زاد المعاد ٢ / ١٥٢ .

(٣) انظر : زاد المعاد ١ / ١٧٢ ، وفتح البارى ٧ / ٥٠٠ .

(٤) انظر : فتح البارى ٧ / ٥٠٠ .

(٥) رحمة للعالمين ٢ / ٢٣١ . وارث : حُل جريحا .

(٦) المصدر السابق نفسه ، وتلقيح فهم أهل الاثر لابن الجوزى ص ٣٣ حاشية .

معركة مؤتة

وهذه المعركة أكبر لقاء مُثخِن ، وأعظم حرب دامية خاضها المسلمون في حياة رسول الله ﷺ ، وهى مقدمة وتمهيد لفتوح بلدان النصارى، وقعت فى جمادى الأولى سنة ٨ هـ ، وفق أغسطس أو سبتمبر سنة ٦٢٩ م .

ومؤتة (بالضم فالسكون) هى قرية بأدنى بقاء الشام ، بينها وبين بيت المقدس مرحلتان .

سبب المعركة :

وسبب هذه المعركة أن رسول الله ﷺ بعث الحارث بن عمير الأزدى بكتابه إلى عظيم بُصْرَى . فعرض له شُرْحِيل بن عمرو الغسانى - وكان عاملاً على البقاء من أرض الشام من قبل قيصر - فأوثقه رباطاً ، ثم قدمه ، فضرب عنقه .

وكان قتل السفراء والرسول من أشنع الجرائم ، يساوى بل يزيد على إعلان حالة الحرب ، فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ حين نقلت إليه الأخبار ، فجهز إليهم جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل (١) ، وهو أكبر جيش إسلامى لم يجتمع قبل ذلك إلا فى غزوة الأحزاب .

أمراء الجيش ووصية رسول الله ﷺ إليهم :

أمر رسول الله ﷺ على هذا البعث زيد بن حارثة ، وقال : « إن قتل زيد فجعفر ، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة » (٢) ، وعقد لهم لواء أبيض ، ودفعه إلى زيد بن حارثة .

وأوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير ، وأن يدعوا مَنْ هناك إلى الإسلام ، فإن أجابوا وإلا استعانوا بالله عليهم ، وقتلوهم ، وقال لهم : « اغزوا بسم الله ، فى سبيل الله ، مَنْ كفر بالله ، لا تغدروا ، ولا تغلوا ، ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ، ولا كبيراً فانياً ، ولا متعزلاً بصومعة ، ولا تقطعوا نخلاً ولا شجرة ، ولا تهدموا بناء » (٣) .

توديع الجيش الإسلامى وبكاء عبد الله بن رواحة :

ولما تهيأ الجيش الإسلامى للخروج حضر الناس ، وودعوا أمراء رسول الله ﷺ ، وسلموا عليهم ، وحيثئذ بكى أحد أمراء الجيش - عبد الله بن رواحة - فقالوا : ما يبكيك ؟ فقال : أما والله ما بى حب الدنيا ، ولا صباية بكم ، ولكنى سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾ (٧١) [مريم] ،

(١) زاد المعاد ٢ / ١٥٥ ، وفتح البارى ٧ / ٥١١ .

(٢) صحيح البخارى : باب غزوة مؤتة من أرض الشام ٢ / ٦١١ .

(٣) مختصر السيرة للشيخ عبد الله ص ٣٢٧ ، والحديث مروي بغير القصة فى صحيح مسلم وسنن أبى داود والترمذى وابن ماجه ، وغيرها بالفاظ مختلفة .

فلست أدري كيف لى بالصدور بعد الورود ؟ فقال المسلمون : صحبكم الله بالسلامة ، ودفع عنكم ، وردكم إلينا صالحين غانمين ، فقال عبد الله بن رواحة :

لكننى أسأل الرحمن مغفرة وضربة ذات فرغ^(١) تقذف الزبدا
أو طعنة بيدى حاراً مجهزة بحربة تنفذ الأحشاء والكبد
حتى يقال إذا مروا على جدتى^(٢) يا أرشد الله من غار ، وقد رشدا

ثم خرج القوم ، وخرج رسول الله ﷺ مشيعاً لهم حتى بلغ ثنية الوداع ، فوقف وودّعهم^(٣) .

تحرك الجيش الإسلامى ، ومباغتته حالة رهيبة :

وتحرك الجيش الإسلامى فى اتجاه الشمال حتى نزل معان ، من أرض الشام ، مما يلى الحجاز الشمالى ، وحينئذ نقلت إليهم الاستخبارات بأن هرقل نازل بمآب من أرض البلقاء فى مائة ألف من الروم ، وانضم إليهم من لخم وجذام وبلقين وبهراء ويلي مائة ألف .
المجلس الاستشارى بمعان :

لم يكن المسلمون أدخلوا فى حسابهم لقاء مثل هذا الجيش العرمرم - الذى بوغتوا به فى هذه الأرض البعيدة - وهل يهجم جيش صغير ، قوامه ثلاثة آلاف مقاتل فحسب ، على جيش كبير عرمرم مثل البحر الخضم ، قوامه مائتا ألف مقاتل ؟ حار المسلمون ، وأقاموا فى معان ليلتين يفكرون فى أمرهم ، وينظرون ويتشاورون ، ثم قالوا : نكتب إلى رسول الله ﷺ ، فنخبره بعدد عدونا ، فإذا أن يمدنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضى له .

ولكن عبد الله بن رواحة عارض هذا رأى ، وشجع الناس ، قائلاً : يا قوم ، والله إن التى تكروهون للتى خرجتم تطلبون : الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فانطلقوا ، فلما هى إحدى الحسينين ، إما ظهور وإما شهادة . وأخيراً استقر رأى على ما دعا إليه عبد الله بن رواحة .

الجيش الإسلامى يتحرك نحو العدو :

وحينئذ بعد أن قضى الجيش الإسلامى ليلتين فى معان ، تحركوا إلى أرض العدو ، حتى لقيتهم جموع هرقل بقرية من قرى البلقاء يقال لها : « مشارف » ثم دنا العدو ، وانحاز المسلمون إلى مؤتة ، فعسكروا هناك ، وتعبأوا للقتال ، فجعلوا على ميمنتهم قطبة ابن قتادة العذرى ، وعلى اليسرة عبادة بن مالك الأنصارى .

بداية القتال ، وتناوب القواد :

وهناك فى مؤتة التقى الفريقان ، وبدأ القتال المرير ، ثلاثة آلاف رجل يواجهون هجمات مائتى ألف مقاتل . معركة عجيبة تشاهدها الدنيا بالدهشة والحيرة ، ولكن إذا هبت ريح الإيمان جاءت بالعجائب .

(٢) قبرى .

(١) الفرغ : السعة .

(٣) ابن هشام ٢ / ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، زاد المعاد ٢ / ١٥٦ .

أخذ الراية زيد بن حارثة - حَبُّ رسول الله ﷺ - وجعل يقاتل بضراوة بالغة ، وبسالة لا يوجد لها نظير إلا في أمثاله من أبطال الإسلام ، فلم يزل يقاتل ويقاتل حتى شاط في رماح القوم ، وخر صريعاً .

وحينئذ أخذ الراية جعفر بن أبي طالب ، وطفق يقاتل قتالاً منقطع النظير ، حتى إذا أرهقه القتال اقتحم عن فرسه الشقراء فعقرها ، ثم قاتل حتى قطعت يمينه ، فأخذ الراية بشماله ، ولم يزل بها حتى قطعت شماله ، فاحتضنها بعضديه ، فلم يزل رافعاً إياها حتى قتل . يقال : إن رومياً ضربه ضربةً قطعتة نصفين ، وأثابه الله بجناحيه جناحين في الجنة ، يطير بهما حيث يشاء ؛ ولذلك سمى بجعفر الطيار ، وبجعفر ذى الجناحين .

روى البخارى عن نافع ؛ أن ابن عمر أخبره : أنه وقف على جعفر يؤمئذ وهو قتيل ، فعددت به خمسين بين طعنة وضربة ، ليس منها شيء في دبره ، يعني ظهره (١) .

وفى رواية أخرى قال ابن عمر : كنت فيهم في تلك الغزوة ، فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلى ، ووجدنا ما في جسده بضعا وتسعين من طعنة ورمية (٢) . وفى رواية العمري عن نافع زيادة : « فوجدنا ذلك فيما أقبل من جسده » (٣) .

ولما قتل جعفر بعد أن قاتل بمثل هذه الضراوة والبسالة ، أخذ الراية عبد الله بن رواحة ، وتقدم بها ، وهو على فرسه ، فجعل يستنزل نفسه ، ويتردد بعض التردد ، حتى حاد حيدة ثم قال :

أَفَسَمْتُ يَا نَفْسَ لَتَنْزِلَنِي كَارِهَةً أَوْ لَتُطَاوِعَنِي
إِنْ أَجْلَبَ النَّاسُ وَشَدُّوا الرِّهْ مَالِي أَرَاكَ تَكْرِهِينَ الْجَنَّةَ

ثم نزل ، فاتاه ابن عم له بعرق من لحم فقال : شد بهذا صلبك ، فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت ، فأخذه من يده فانتهس منه نَهْسَةً ، ثم ألقاه من يده ، ثم أخذ سيفه فتقدم ، فقاتل حتى قتل .

الراية إلى سيف من سيوف الله :

وحينئذ تقدم رجل من بنى عَجَلَانَ - اسمه ثابت بن أقرم - فأخذ الراية وقال : يا معشر المسلمين ، اصطلحوا على رجل منكم ، قالوا : أنت . قال : ما أنا بفاعل ، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد ، فلما أخذ الراية قاتل قتالاً مريراً ، فقد روى البخارى عن خالد بن الوليد قال : لقد انقطعت في يدى يوم مؤتة تسعة أسياف ، فما بقى في يدى إلا صفيحة يمانية (٤) . وفى لفظ آخر : لقد دق في يدى يوم مؤتة تسعة أسياف ، وصبرت في يدى صفيحة لى يمانية (٥) .

(١) صحيح البخارى ، باب غزوة مؤتة من أرض الشام ٦١١ / ٢ .

(٣) انظر: فتح البارى ٥١٢ / ٧ ، وظاهر الحديثين التخالف فى العدد ، وجمع بأن الزيادة باعتبار ما وجد فيه من رمى السهام ، انظر المصدر المذكور .

(٤) ، (٥) صحيح البخارى ، باب غزوة مؤتة من أرض الشام ٦١١ / ٢ .

وقد قال رسول الله ﷺ يوم مؤتة - مخبراً بالوحى ، قبل أن يأتى إلى الناس الخبر من ساحة القتال : « أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذ جعفر فأصيب ، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب - وعيناه تذرفان - حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله ، حتى فتح الله عليهم » (١) .

نهاية المعركة :

ومع الشجاعة البالغة والبسالة والضراوة الميريتين ، كان مستغرباً جداً أن ينجح هذا الجيش الصغير فى الصمود أما تيارات ذلك البحر العظيم من جيوش الروم . ففى ذلك الوقت أظهر خالد بن الوليد مهارته ونبوغه فى تخليص المسلمين مما ورطوا أنفسهم فيه .

واختلفت الروايات كثيراً فيما آل إليه أمر هذه المعركة أخيراً . ويظهر بعد النظر فى جميع الروايات أن خالد بن الوليد نجح فى الصمود أمام جيش الرومان طول النهار ، فى أول يوم من القتال . وكان يشعر بمسيس الحاجة إلى مكيدة حربية تلقى الرعب فى قلوب الرومان حتى ينجح فى الانحياز بالمسلمين من غير أن يقوم الرومان بحركات المطاردة . فقد كان يعرف جيداً أن الإفلات من براثنهم صعب جداً لو انكشف المسلمون ، وقام الرومان بالمطاردة .

فلما أصبح اليوم الثانى غير أوضاع الجيش ، وعبأه من جديد ، فجعل مقدمته ساقه ، وميمينته ميسرة ، وعلى العكس ، فلما رآهم الأعداء أنكروا حالهم ، وقالوا : جاءهم مدد ، فرعبوا ، وصار خالد - بعد أن تراءى الجيشان ، وتناوشا ساعة - يتأخر بالمسلمين قليلاً قليلاً ، مع حفظ نظام جيشه ، ولم يتبعهم الرومان ظناً منهم أن المسلمين يخدعونهم ، ويحاولون القيام بمكيدة ترمى بهم فى الصحراء .

وهكذا انحاز العدو إلى بلاده ، ولم يفكر فى القيام بمطاردة المسلمين ونجح المسلمون فى الانحياز سالمين ، حتى عادوا إلى المدينة (٢) .

قتلى الفريقين :

واستشهد يومئذ من المسلمين اثنا عشر رجلاً ، أما الرومان ، فلم يعرف عدد قتلاهم ، غير أن تفصيل المعركة يدل على كثرتهم .

أثر المعركة :

وهذه المعركة وإن لم يحصل المسلمون بها على الثار ، الذى عانوا مرارتها لأجله ، لكنها كانت كبيرة الأثر لسمعة المسلمين ، إنها ألقت العرب كلها فى الدهشة والحيرة ، فقد كانت الرومان أكبر وأعظم قوة على وجه الأرض ، وكانت العرب تظن أن معنى جلادها هو القضاء على النفس وطلب الحتف بالظلف ، فكان لقاء هذا الجيش الصغير - ثلاثة آلاف مقاتل - مع ذلك الجيش الضخم العرمرم الكبير - مائتا ألف مقاتل - ثم الرجوع عن الغزو

(١) صحيح البخارى ٢ / ٦١١ .

(٢) انظر : فتح البارى ٧ / ٥١٣ ، ٥١٤ ، وزاد المعاد ٢ / ١٥٦ ، وتفصيل المعركة مأخوذ من هذين المصدرين والذى قبلهما .

من غير أن تلحق به خسارة تذكر . كان كل ذلك من عجائب الدهر، وكان يؤكد أن المسلمين من طراز آخر غير ما ألفته العرب وعرفته، وأنهم مؤيدون ومنصورون من عند الله ، وأن صاحبهم رسول الله حقاً . ولذلك نرى القبائل اللدودة التي كانت لا تزال تشور على المسلمين جنحت بعد هذه المعركة إلى الإسلام ، فأسلمت بنو سُلَيْمٍ وأشجَع وعَطْفَان وذُبْيَان وفَزَارَة وغيرها .

وكانت هذه المعركة بداية اللقاء الدامى مع الرومان ، فكانت توطئة وتمهيداً لفتوح البلدان الرومانية ، واحتلال المسلمين الأراضي البعيدة النائية .
سرية ذات السلاسل :

ولما علم رسول الله ﷺ بموقف القبائل العربية - التي تقطن مشارف الشام - فى معركة مؤتة من اجتماعهم إلى الرومان ضد المسلمين، شعر بمسيس الحاجة إلى القيام بحكمة بالغة توقع الفرقة بينها وبين الرومان ، وتكون سبباً للاتلاف بينها وبين المسلمين، حتى لا تتحشد مثل هذه الجموع الكبيرة مرة أخرى .

واختار لتنفيذ هذه الخطة عمرو بن العاص ؛ لأن أم أبيه كانت امرأة من بَلِيٍّ . فبعثه إليهم فى جمادى الآخرة سنة ٨ هـ على إثر معركة مؤتة ؛ ليستألفهم ، ويقال : بل نقلت الاستخبارات أن جمعاً من قُضَاعَة قد تجمعوا ، يريدون أن يدنوا من أطراف المدينة ، فبعثه إليه ، ويمكن أن يكون السببان اجتماعاً معاً .

وعقد رسول الله ﷺ لعمرو بن العاص لواء أبيض ، وجعل معه راية سوداء ، وبعثه فى ثلاثمائة من سراة المهاجرين والأنصار ، ومعهم ثلاثون فرساً ، وأمره أن يستعين بمن مر به من بَلِيٍّ وعُذْرَة وبلقين . فسار الليل وكَمَنَ النهار ، فلما قرب من القوم بلغه أن لهم جمعاً كثيراً ، فبعث رافع بن مَكِيث الجُهَنِيَّ إلى رسول الله ﷺ يستمده ، فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح فى مائتين ، وعقد له لواء ، وبعث له سراة المهاجرين والأنصار - فيهم أبو بكر وعمر - وأمره أن يلحق بعمرو ، وأن يكونا جميعاً ولا يختلفا . فلما لحق به أراد أبو عبيدة أن يؤم الناس، فقال عمرو : إنما قدمت على مددا ، وأنا الأمير ، فأطاعه أبو عبيدة ، فكان عمرو يصلى بالناس .

وسار حتى وطئ بلاد قُضَاعَة ، فدوخها حتى أتى أقصى بلادهم ، ولقى فى آخر ذلك جمعاً ، فحمل عليهم المسلمون فهربوا فى البلاد وتفرقوا .

وبعث عوف بن مالك الأشجعى بريداً إلى رسول الله ﷺ ، فأخبره بقولهم وسلامتهم ، وما كان فى غزاتهم .

وذاات السلاسل (بضم السين الأولى وفتحها : لغتان) بقعة وراء وادى القُرى ، بينها وبين المدينة عشرة أيام . وذكر ابن إسحاق أن المسلمين نزلوا على ماء بأرض جُدَام يقال له : السلسل ، فسمى ذات السلاسل ^(١) .

سرية أبي قتادة إلى خضرة :

كانت هذه السرية في شعبان سنة ٨ هـ ؛ وذلك لأن بني عَطَفَان كانوا يتحشدون في خَضْرَة - وهي أرض مُحَارِب بَنَجْد - فبعث إليهم رسول الله ﷺ أبا قتادة في خمسة عشر رجلاً ، فقتل منهم ، وسبى وغنم ، وكانت غيبته خمس عشرة ليلة (١) .

(١) تلقيح فهوم أهل الاثر ص ٣٣ وغيره .

غزوة فتح مكة

قال ابن القيم : هو الفتح الأعظم الذى أعز الله به دينه ورسوله وجنده وحزبه الأمين ، واستنقذ به بلده وبيته الذى جعله هدى للعالمين ، من أيدي الكفار والمشركين ، وهو الفتح الذى استبشر به أهل السماء ، وضربت أطنا ب عزه على مناكب الجوزاء ، ودخل الناس به فى دين الله أفواجا ، وأشرق به وجه الأرض ضياءً وابتهاجا (١) . هـ .

سبب الغزوة :

قدمنا فى وقعة الحديبية أن بدأ من بنود هذه المعاهدة يفيد أن من أحب أن يدخل فى عقد محمد ﷺ وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه ، وأن القبيلة التى تنضم إلى أي الفريقين تعتبر جزءاً من ذلك الفريق ، فأى عدوان تتعرض له أى من تلك القبائل يعتبر عدواناً على ذلك الفريق .

وحسب هذا البند دخلت خزاعة فى عهد رسول الله ﷺ ، ودخلت بنو بكر فى عهد قريش ، وصارت كل من القبيلتين فى أمن من الأخرى ، وقد كانت بين القبيلتين عداوة وتوترات فى الجاهلية ، فلما جاء الإسلام ، وقعت هذه الهدنة ، وأمن كل فريق من الآخر - اغتتمها بنو بكر ، وأرادوا أن يصيبوا من خزاعة الثأر القديم ، فخرج نوفل بن معاوية الديلى فى جماعة من بنى بكر فى شهر شعبان سنة ٨ هـ ، فأغاروا على خزاعة ليلاً ، وهم على ماء يقال له : « الوثير » فأصابوا منهم رجالاً ، وتناوشوا واقتتلوا ، وأعانت قريش بنى بكر بالسلاح ، وقاتل معهم رجال من قريش مستغلين ظلمة الليل ، حتى حازوا خزاعة إلى الحرم ، فلما انتهوا إليه قالت بنو بكر : يا نوفل ، إنا قد دخلنا الحرم ، إلهك إلهك ، فقال كلمة عظيمة : لا إله اليوم يا بنى بكر ، أصيبوا ثأركم . فلعمري إنكم لتسرقون فى الحرم ، أفلا تصيبون ثأركم فيه ؟

ولما دخلت خزاعة مكة لجأوا إلى دار بُدَيْل بن وَرْقَاء الخزاعى ، وإلى دار مولى لهم يقال له : رافع .

وأسرع عمرو بن سالم الخزاعى ، فخرج حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة ، فوقف عليه ، وهو جالس فى المسجد بين ظهراى الناس فقال :

يا رب إني نأشدُ محمداً	حلفنا وحلف أيه الأئلدأ (٢)
قد كتمم وكدأ وكنا والدأ (٣)	ثمة أسلمنا ولم نترع يدأ
فانصر، هداك الله ، نصرأ أبدا	وادع عباد الله يأتوا مددا

(١) زاد المعاد ٢ / ١٦٠ .

(٢) الأئلد : القديم ، يشير إلى الحلف الذى كان بين خزاعة وبين بنى هاشم منذ عهد عبد المطلب .

(٣) يشير إلى أن أم عبد مناف - وهى حبي زوجة قصى - كانت من خزاعة .

ففيهم رسول الله قد تجردا
 إن سيم خسفاً وجهه تريبدا
 إن قريشاً أخلفوك الموعدا
 وجعلوا لى فى كداء رصدا
 وهم أذل ، وأقل عددا
 أبيض مثل البدر ، يسمو صعدا
 فى فيلق كالبحر يجرى مزبدا
 ونقضوا ميثاقك المؤكدا
 وزعموا أن لست أدعو أحدا
 هم يثبونا بالوتير هجدا

وقتلونا رُكعاً وسُجّداً (١)

فقال رسول الله ﷺ: « نصرت يا عمرو بن سالم » ، ثم عرضت له سحابة من السماء ، فقال : « إن هذه السحابة لتستهل بنصر بنى كعب » .

ثم خرج بديل بن ورقاء الخزاعي فى نفر من خزاعة ، حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة ، فأخبروه بمن أصيب منهم ، وبمظاهرة قريش بنى بكر عليهم ، ثم رجعوا إلى مكة .

أبو سفيان يخرج إلى المدينة ليجدد الصلح :

ولا شك أن ما فعلت قريش وحلفاؤها كان غدرًا محضاً ونقضاً صريحاً للميثاق ، لم يكن له أى مبرر ، ولذلك سرعان ما أحست قريش بغدرها ، وخافت وشعرت بعواقبه الوخيمة ، فعددت مجلساً استشارياً ، وقررت أن تبعث قائدها أبا سفيان ممثلاً لها ليقوم بتجديد الصلح .

وقد أخبر رسول الله ﷺ أصحابه بما ستفعله قريش إزاء غدرتهم . قال : « كأنكم بأبى سفيان قد جاءكم ليشد العقد ، ويزيد فى المدة » .

وخرج أبو سفيان - حسب ما قرره قريش - فلقى بديل بن ورقاء بعُسفان - وهو راجع من المدينة إلى مكة - فقال: من أين أقبلت يا بديل؟ - وظن أنه أتى النبى ﷺ - فقال: سرت فى خزاعة فى هذا الساحل وفى بطن هذا الوادى . قال : أو ما جئت محمداً ؟ قال : لا .

فلما راح بديل إلى مكة قال أبو سفيان : لئن كان جاء المدينة لقد علف بها النوى ، فاتى مبرك راحلته ، فأخذ من بعرها ، ففته ، فرأى فيها النوى ، فقال : أحلف بالله لقد جاء بديل محمداً .

وقدم أبو سفيان المدينة ، فدخل على ابنته أم حبيبة ، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه ، فقال : يا بنية ، أرغبت بى عن هذا الفراش ، أم رغبت به عنى ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله ﷺ ، وأنت رجل مشرك نجس . فقال : والله لقد أصابك بعدى شر .

ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ فكلمه ، فلم يرد عليه شيئاً ، ثم ذهب إلى أبى بكر فكلمه أن يكلم رسول الله ﷺ ، فقال: ما أنا بفاعل . ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه ، فقال: أنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به ، ثم جاء

فدخل على على بن أبى طالب ، وعنده فاطمة ، وحسن ، غلام يدب بين يديهما ، فقال : يا على ، إنك أمس القوم بى رحماً ، وإنى قد جئت فى حاجة ، فلا أرجعن كما جئت خائباً ، اشفع لى إلى محمد ، فقال : ويحك يا أبا سفيان ، لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه . فالتفت إلى فاطمة ، فقال : هل لك أن تأمرى ابنك هذا فيجبر بين الناس ، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟ قالت : والله ما يبلغ ابنى ذاك أن يجبر بين الناس ، وما يجبر أحد على رسول الله ﷺ .

وحيتئذ أظلمت الدنيا أمام عيني أبى سفيان ، فقال لعلى بن أبى طالب فى هلع وانزعاج ويأس وقنوط : يا أبا الحسن ، إنى أرى الأمور قد اشتدت على ، فانصحنى ، قال : والله ما أعلم لك شيئاً يغنى عنك . ولكنك سيد بنى كنانة ، فقم فأجر بين الناس ، ثم الحق بأرضك . قال : أو ترى ذلك مغنياً عنى شيئاً ؟ قال : لا والله ما أظنه ، ولكنى لم أجد لك غير ذلك . فقام أبو سفيان فى المسجد ، فقال : أيها الناس ، إنى قد أجرت بين الناس ، ثم ركب بعيره ، وانطلق .

ولما قدم على قريش ، قالوا : ما وراءك ؟ قال : جئت محمداً فكلمته ، فوالله ما رد على شيئاً ، ثم جئت ابن أبى قحافة فلم أجد فيه خيراً ، ثم جئت عمر بن الخطاب ، فوجدته أدنى العدو ، ثم جئت علياً فوجدته ألين القوم ، قد أشار على بشيء صنعته ، فوالله ما أدرى هل يغنى عنى شيئاً أم لا ؟ قالوا : ويم أمرك ؟ قال : أمرنى أن أجبر بين الناس ، ففعلت ، قالوا : فهل أجاز ذلك محمد ؟ قال : لا . قالوا : ويلك ، إن زاد الرجل على أن لعب بك . قال : لا والله ما وجدت غير ذلك .

التهيب للغزوة ومحاولة الإخفاء :

يؤخذ من رواية الطبرانى أن رسول الله ﷺ أمر عائشة - قبل أن يأتى إليه خبر نقض الميثاق بثلاثة أيام - أن تجهزه ، ولا يعلم أحد ، فدخل عليها أبو بكر ، فقال : يابنية ، ما هذا الجهاز ؟ قالت : والله ما أدرى . فقال : والله ما هذا زمان غزو بنى الأصفر ، فأين يريد رسول الله ؟ قالت : والله لا أعلم لى ، وفى صباح الثالثة جاء عمرو بن سالم الخزاعى فى أربعين راكباً ، وارتجز : يا رب إنى ناشد محمداً ... الأبيات . فعلم الناس بنقض الميثاق ، وبعد عمرو جاء بديل ، ثم أبو سفيان ، وتأكد عند الناس الخبر ، فأمرهم رسول الله ﷺ بالجهاز ، وأعلمهم أنه سائر إلى مكة ، وقال : « اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها » .

وزيادة فى الإخفاء والتعمية بعث رسول الله ﷺ سرية قوامها ثمانية رجال ، تحت قيادة أبى قتادة بن ربعى ، إلى بطن إضم ، فيما بين ذى خشب وذى المروة ، على ثلاثة برء من المدينة ، فى أول شهر رمضان سنة ٨ هـ ؛ ليظن الظان أنه ﷺ يتوجه إلى تلك الناحية ، ولتذهب بذلك الأخبار ، وواصلت هذه السرية سيرها ، حتى إذا وصلت حيثما أمرت بلغها

أن رسول الله ﷺ خرج إلى مكة ، فسارت إليه حتى لحقته (١) .

وكتب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش كتاباً يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم ، ثم أعطاه امرأة ، وجعل لها جعلاً على أن تبلغه قريشاً ، فجعلته في قرون رأسها ، ثم خرجت به ، وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب ، فبعث علياً والمقداد والزبير بن العوام وأبا مرثد الغنوي فقال : « انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها ظعينة معها كتاب إلى قريش » ، فانطلقوا تعادى بهم خيلهم حتى وجدوا المرأة بذلك المكان ، فاستنزلوها ، وقالوا : معك كتاب ؟ فقالت : ما معي كتاب ، ففتشوا رحلها فلم يجدوا شيئاً . فقال لها على : أحلف بالله ، ما كذب رسول الله ﷺ ولا كذبنا ، والله لتخرجن الكتاب أو لتجردينك . فلما رأت الجد منه قالت : أعرض ، فأعرض ، فحلت قرون رأسها ، فاستخرجت الكتاب منها ، فدفعته إليهم ، فأتوا به رسول الله ﷺ ، فإذا فيه : (من حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش) يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ ، فدعا رسول الله ﷺ حاطباً ، فقال : « ما هذا يا حطب ؟ » فقال : لا تعجل علي يا رسول الله . والله إنى لمؤمن بالله ورسوله ، وما ارتددت ولا بدلت ، ولكنى كنت امرأً ملصقةً في قريش ؛ لست من أنفسهم ، ولى فيهم أهل وعشيرة وولد ، وليس لى فيهم قرابة يحمونهم ، وكان من معك له قرابات يحمونهم ، فأحببت إذ فاتنى ذلك أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي . فقال عمر بن الخطاب : دعنى يا رسول الله أضرب عنقه ، فإنه قد خان الله ورسوله ، وقد نافق ، فقال رسول الله ﷺ : « إنه قد شهد بداراً ، وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » ، فذرفت عينا عمر ، وقال : الله ورسوله أعلم (٢) .

وهكذا أخذ الله العيون ، فلم يبلغ إلى قريش أى خبر من أخبار تجهز المسلمين وتهينهم للزحف والقتال .

الجيوش الإسلامية يتحرك نحو مكة :

ولعشر خلون من شهر رمضان المبارك ٨ هـ ، غادر رسول الله ﷺ المدينة متجهاً إلى مكة ، فى عشرة آلاف من الصحابة رضي الله عنهم ، واستخلف على المدينة أبا رهم الغفارى .

ولما كان بالجحفة - أو فوق ذلك - لقيه عمه العباس بن عبد المطلب ، وكان قد خرج بأهله وعياله مسلماً مهاجراً ، ثم لما كان رسول الله ﷺ بالأبواء لقيه ابن عمه أبو سفيان ابن الحارث وابن عمته عبد الله بن أبى أمية ، فأعرض عنهما ، لما كان يلقاه منهما من شدة الأذى والهجو ، فقالت له أم سلمة : لا يكن ابن عمك وابن عمك أشقى الناس بك .

(١) وهذه السرية لقيت عامر بن الأضيظ ، فسلم عليهم بتحية الإسلام ، فقتله مُحَلِّم بن جثامة لشيء كان بينهما ، وأخذ بعيره ومِتيعة ، فأنزل الله : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ آتَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامُ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾ الآية ، وجاءوا بمحلّم ليستغفر له رسول الله ﷺ ، فلما قام بين يديه قال : « اللهم لا تغفر لمحلّم » ، وقالها ثلاثاً ، فقام وإنه ليتلقى دموعه بطرف ثوبه ، قال ابن إسحاق : وزعم قومه أنه استغفر له بعد ذلك . انظر : زاد

المعاد ٢ / ١٥٠ ، وابن هشام ٢ / ٦٢٦ - ٦٢٨ .

(٢) انظر : صحيح البخارى ١ / ٤٢٢ ، ٢ / ٦١٢ .

وقال على لأبى سفيان بن الحارث : ائت رسول الله ﷺ من قبل وجهه ، فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف : ﴿ قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ أَتَرَكْنَا اللَّهَ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ (٩١) ﴿ يوسف] ، فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه قولاً . ففعل ذلك أبو سفيان ، فقال له رسول الله ﷺ : ﴿ لَا تَتْرِبْ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٩٢) ﴿ يوسف] ، فأنشده أبو سفيان أبياتاً منها :

لَعَمْرُكَ إِنِّي حِينَ أَحْمِلُ رَايَةَ لَتَغْلِبَ خَيْلُ اللَّاتِ خَيْلَ مُحَمَّدٍ
لَكَالْمُدْلِجِ الْحِيرَانِ أَظْلَمَ لَيْلُهُ فَهَذَا أَوَانِي حِينَ أَهْدَى فَاهْتَدَى
هَدَانِي هَادٍ غَيْرُ نَفْسِي وَدَلَّنِي عَلَى اللَّهِ مِنْ طَرَدْتُهُ كُلَّ مُطَرَّدٍ

فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال : « أَنْتَ طَرَدْتَنِي كُلَّ مُطَرَّدٍ ؟ » (١) .

الجيش الإسلامي ينزل بمر الظهران :

وواصل رسول الله ﷺ سيره وهو صائم ، والناس صيام ، حتى بلغ الكُدَيْدَ - وهو ماء بين عُسْفَانَ وقُدَيْدَ - فافطر ، وأفطر الناس معه (٢) . ثم واصل سيره حتى نزل بمر الظهران - وادى فاطمة - نزله عشاء ، فأمر الجيش ، فأوقدوا النيران ، فأوقدت عشرة آلاف نار ، وجعل رسول الله ﷺ على الحرس عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

أبو سفيان بين يدي رسول الله ﷺ :

وركب العباس - بعد نزول المسلمين بمر الظهران - بغلة رسول الله ﷺ البيضاء ، وخرج يلتمس ، لعله يجد بعض الخطابة أو أحداً يخبر قريشاً ليخرجوا يستأمنون رسول الله ﷺ قبل أن يدخلها .

وكان الله قد عمى الأخبار عن قريش ، فهم على وَجَلٍ وترقب ، وكان أبو سفيان يخرج يتجسس الأخبار ، فكان قد خرج هو وحكيم بن حزام ، وبديل بن ورقاء يتجسسون الأخبار .

قال العباس : والله إنى لأسير عليها - أى على بغلة رسول الله ﷺ - إذ سمعت كلام أبى سفيان وبديل بن ورقاء ، وهما يتراجعان ، وأبو سفيان يقول : ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكرياً . قال : يقول بديل : هذه والله خزاعة ، حَمَشَتْهَا (٣) الحرب ، فيقول أبو سفيان : خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها .

قال العباس : فعرفت صوته ، فقلت : أبا حَنْظَلَةَ ؟ فعرف صوتي ، فقال : أبا

(١) ابن هشام ٤١/٤ ، ٤٢ ، ودلائل النبوة للبيهقي ٢٨/٥ .

حسن إسلام أبى سفيان هنا بعد ذلك ، ويقال : إنه ما رفع رأسه إلى رسول الله ﷺ منذ أسلم حياءً منه . وكان رسول الله ﷺ يحبه ، وشهد له بالجنة ، وقال : « أَرْبَعُونَ أَنْ يَكُونَ خَلْفًا مِنْ حِمْرَةٍ » . ولما حضرته الوفاة قال : لا تبكوا على ، فوالله ما نطقت بخطيئة منذ أسلمت . زاد المعاد ٢ / ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٢) رواه أحمد في مسنده ٢٦٦/١ ، وقال الهيثمي في المجمع (١٦٧/٦) : « رجاله رجال الصحيح ، غير ابن إسحاق ، وقد صرح بالسماع » ، وابن هشام ٤٠/٤ .

(٣) أحرقتها .

الفضل ؟ قلت : نعم . قال : مالك ؟ فذاك أبى وأمى . قلت : هذا رسول الله ﷺ فى الناس ، واصباح قريش والله .

قال : فما الحيلة فذاك أبى وأمى ؟ قلت : والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، فاركب فى عجز هذه البغلة ، حتى أتى بك رسول الله ﷺ فأستأمنه لك ، فركب خلفى ، ورجع صاحبا .

قال : فجيئت به ، فكلما مررت به على نار من نيران المسلمين ، قالوا : من هذا ؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ وأنا عليها قالوا : عم رسول الله ﷺ على بغلته . حتى مررت بنار عمر بن الخطاب فقال : من هذا ؟ وقام إلى ، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال : أبو سفيان ، عدو الله ؟ الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد ، ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ ، وركضتُ البغلة فسبقت ، فاقتحمت عن البغلة ، فدخلت على رسول الله ﷺ ، ودخل عليه عمر ، فقال : يا رسول الله ، هذا أبو سفيان فدعنى أضرب عنقه ، قال : قلت : يا رسول الله ، إنى قد أجرته ، ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه ، فقلت : والله لا ينجيه الليلة أحد دونى ، فلما أكثر عمر فى شأنه قلت : مهلاً يا عمر ، فوالله لو كان من رجال بنى عدى بن كعب ما قلت مثل هذا ، قال : مهلاً يا عباس ، فوالله لإسلامك كان أحب إلى من إسلام الخطاب ، لو أسلم ، وما بى إلا أنى قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب .

فقال رسول الله ﷺ : « اذهب به يا عباس إلى رحلك ، فإذا أصبحت فأتنى به » ، فذهبت ، فلما أصبحت غدوت به إلى رسول الله ﷺ ، فلما رآه قال : « ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله ؟ » قال : بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ؟ لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عنى شيئاً بعد .

قال : « ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟ » ، قال : بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك : أما هذه فإن فى النفس حتى الآن منها شىء . فقال له العباس : ويحك أسلم ، واشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، قبل أن تضرب عنقك ، فأسلم وشهد شهادة الحق .

قال العباس : يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً . قال : « نعم ، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن » .

الجيش الإسلامى يغادر مر الظهران إلى مكة :

وفى هذا الصباح - صباح يوم الثلاثاء للسابع عشر من شهر رمضان سنة ٨ هـ - غادر رسول الله ﷺ مر الظهران إلى مكة ، وأمر العباس أن يحبس أبا سفيان بمضييق الوادى عند خَطْمِ الجبل ، حتى تمر به جنود الله فيراها ، ففعل ، فمرت القبائل على راياتها . كلما مرت به قبيلة قال : يا عباس ، من هذه ؟ فيقول - مثلاً - سليم ، فيقول : مالى ولِسُلَيْم ؟ ثم تمر به القبيلة فيقول : يا عباس ، من هؤلاء ؟ فيقول : مُزَيْنَة ، فيقول : ما لى ولمزينة ؟ حتى نفذت

القبائل ، ما تمر به قبيلة إلا سأل العباس عنها ، فإذا أخبره قال : مالى ولبنى فلان ؟ حتى مر به رسول الله ﷺ فى كتيبه الخضراء ، فيها المهاجرون والأنصار ، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد ، قال : سبحان الله ! يا عباس ، من هؤلاء ؟ قال : هذا رسول الله ﷺ فى المهاجرين والأنصار ، قال : ما لأحد بهؤلاء قَبْل ولا طاقة . ثم قال : والله يا أبا الفضل ، لقد أصبح مُلكُ ابن أخيك اليوم عظيماً . قال العباس : يا أبا سفيان ، إنها النبوة ، قال : فنعم إذن .

وكانت راية الأنصار مع سعد بن عباد ، فلما مر بأبى سفيان قال له : اليوم يوم الملمحة ، اليوم تُسْتَحَلُّ الحُرْمَةُ ، اليوم أذل الله قريشاً . فلما حاذى رسول الله ﷺ أبا سفيان قال : يا رسول الله ، ألم تسمع ما قال سعد ؟ قال : « وما قال ؟ » فقال : قال كذا وكذا . فقال عثمان وعبد الرحمن بن عوف : يا رسول الله ، ما نأمن أن يكون له فى قريش صولة ، فقال رسول الله ﷺ : « بل اليوم يوم تُعْظَم فيه الكعبة ، اليوم يوم أعز الله فيه قريشاً » ، ثم أرسل إلى سعد فنزع منه اللواء ، ودفعه إلى ابنه قيس ، ورأى أن اللواء لم يخرج عن سعد . وقيل : بل دفعه إلى الزبير .

قريش تباغت زحف الجيش الإسلامى :

ولما مر رسول الله ﷺ بأبى سفيان ومضى قال له العباس : النجاء إلى قومك . فأسرع أبو سفيان حتى دخل مكة ، وصرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش ، هذا محمد ، قد جاءكم فيما لا قبل لكم به . فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن . فقامت إليه زوجته هند بنت عتبة فأخذت بشاريه فقالت : اقتلوا الحَمِيَّة (١) الدسم الأخمس الساقين ، قُبِحَ من طليعة قوم .

قال أبو سفيان : ويلكم ، لاتغرنكم هذه من أنفسكم ، فإنه قد جاءكم بما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن . قالوا : قاتلك الله ، وما تغنى عنا دارك ؟ قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن . ففرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد ، ووبشوا أوباشاً لهم ، وقالوا : نقدم هؤلاء ، فإن كان لقريش شيء كنا معهم ، وإن أصيبوا أعطينا الذى سئلنا . فتجمع سفهاء قريش وأخفأوها مع عكرمة بن أبى جهل ، وصفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو بالخنْدَمَةِ ليقاتلوا المسلمين . وكان فيهم رجل من بنى بكر - حماس بن قيس - كان يعد قبل ذلك سلاحاً ، فقالت له امرأته : لماذا تعد ما أرى ؟ قال : لمحمد وأصحابه . قالت : والله ما يقوم لمحمد وأصحابه شيء . قال : إني والله لأرجو أن أخدمك بعضهم ، ثم قال :

إن يقبلوا اليوم فمالى علَّ هذا سلاح كامل وألَّه (٢)

وذو غَرَارَيْن (٣) سريع السَّلة

فكان هذا الرجل فيمن اجتمعوا فى الخندمة .

(١) وعاء السمن .

(٢) الآلة : الحربة .

(٣) سيف ذو حدين .

الجيش الإسلامى بذى طوى :

أما رسول الله ﷺ فمضى حتى انتهى إلى ذى طوى - وكان يضع رأسه تواضعاً لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، حتى أن شعر لحيته ليكاد يمس واسطة الرجل - وهناك وزع جيشه ، وكان خالد بن الوليد على المجنبة اليمنى - وفيها أسلم وسليم وغفار ومزينة وجهينة وقبائل من قبائل العرب - فأمره أن يدخل مكة من أسفلها ، وقال : « إن عرض لكم أحد من قريش فاحصدوهم حصداً ، حتى توافوني على الصفا » .

وكان الزبير بن العوام على المجنبة اليسرى ، وكان معه راية رسول الله ﷺ ، فأمره أن يدخل مكة من أعلاها - من كداء - وأن يغرز رايته بالحجون ، ولا يبرح حتى يأتيه .

وكان أبو عبيدة على الرجالة والحسر - وهم الذيم لاسلاح معهم - فأمره أن يأخذ بطن الوادى حتى ينصب لمكة بين يدى رسول الله ﷺ .

الجيش الإسلامى يدخل مكة :

وتحركت كل كتيبة من الجيش الإسلامى على الطريق التى كلفت الدخول منها .

فأما خالد وأصحابه فلم يلقهم أحد من المشركين إلا أناموه . وقتل من أصحابه من المسلمين كرز بن جابر الفهري وخنيس بن خالد بن ربيعة . كانا قد شذا عن الجيش ، فسلكا طريقاً غير طريقه فقتلا جميعاً ، وأما سفهاء قريش فلقبهم خالد وأصحابه بالخدماء فناوشوهم شيئاً من قتال ، فأصابوا من المشركين اثنى عشر رجلاً ، فانهزم المشركون ، وانهزم حماس بن قيس - الذى كان يعد السلاح لقتال المسلمين - حتى دخل بيته ، فقال لامراته : أغلقى على بابى .

فقلت : وأين ما كنت تقول ؟ فقال :

إذ فرَّ صفوان وفر عكرمه	إنك لو شهدت يوم الخندمة
يقطعن كل ساعد وجمجمه	واستقبلتنا بالسيف المسلمه
لهم نهيت خلفنا وهمهمه (١)	ضرباً فلا يسمع إلا غمغمه

لم تنطقى فى اللوم أدنى كلمه

وأقبل خالد يجوس مكة حتى وافى رسول الله ﷺ على الصفا .

وأما الزبير فتقدم حتى نصب راية رسول الله ﷺ بالحجون عند مسجد الفتح ، وضرب له هناك قبة ، فلم يبرح حتى جاءه رسول الله ﷺ .

الرسول ﷺ يدخل المسجد الحرام ويطهره من الأصنام :

ثم نهض رسول الله ﷺ ، والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله ، حتى دخل المسجد ، فأقبل إلى الحجر الأسود ، فاستلمه ، ثم طاف بالبيت ، وفى يده قوس ، وحول

(١) الغمغمه : أصوات الأبطال . والنهيت : صياح الأسد . والهممهه : صوت فى الصدر .

البيت ثلاثمائة وستون صنماً ، فجعل يطعنهما بالقوس ، ويقول : ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (٨١) [الإسراء] ، ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُدْيِ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ (٤٩) [سبا] والأصنام تتساقط على وجوهها .

وكان طوافه على راحلته ، ولم يكن محرماً يومئذ ، فاقصر على الطواف ، فلما أكمله دعا عثمان بن طلحة ، فأخذ منه مفتاح الكعبة ، فأمر بها ففتحت فدخلها ، فرأى فيها الصور ، ورأى فيها صورة إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - يستقيمان بالأزلام ، فقال : «قاتلهم الله ، والله ما استقسما بها قط» . ورأى في الكعبة حمامة من عيدان ، فكسرها بيده ، وأمر بالصور فمحيث .

الرسول ﷺ يصلى في الكعبة ثم يخطب أمام قريش :

ثم أغلق عليه الباب ، وعلى أسامة وبلال ، فاستقبل الجدار الذى يقابل الباب حتى إذا كان بينه وبينه ثلاثة أذرع وقف ، وجعل عمودين عن يساره ، وعموداً عن يمينه ، وثلاثة أعمدة وراءه - وكان البيت يومئذ على ستة أعمدة - ثم صلى هناك . ثم دار فى البيت ، وكبر فى نواحيه ، ووحد الله ، ثم فتح الباب ، وقريش قد ملأت المسجد صفوفاً ينتظرون ماذا يصنع ؟ فأخذ بعضادتي الباب وهم تحته ، فقال :

«لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو مال أو دم فهو تحت قدمي هاتين ، إلا سداة البيت وسقاية الحاج ، ألا وقتل الخطأ شبه العمد - السوط والعصا - ففيه الدية مغلظة ، مائة من الإبل ، أربعون منها فى بطونها أولادها » .

« يا معشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتَعْظُمُهَا بِالْأَبَاءِ ، الناس من آدم ، وآدم من تراب » . ثم تلا هذه الآية : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات] .
لاتثريب عليكم اليوم :

ثم قال : «يا معشر قريش ، ما ترون أنى فاعل بكم ؟» قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : «فإنى أقول لكم كما قال يوسف لإخوته : ﴿ لا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

مفتاح البيت إلى أهله :

ثم جلس رسول الله ﷺ فى المسجد ، فقام إليه على نوحته ، ومفتاح الكعبة فى يده . فقال : يا رسول الله ، اجمع لنا الحجابة مع السقاية ، صلى الله عليك ، وفى رواية : أن الذى قال ذلك هو العباس ، فقال رسول الله ﷺ : « أين عثمان بن طلحة ؟ » فدعى له ، فقال له : «هاك مفتاحك يا عثمان ، اليوم يوم بر ووفاء» ، وفى رواية ابن سعد فى الطبقات أنه قال له حين دفع المفتاح إليه : « خذوها خالدة نالدة ، لا ينزعها منكم إلا ظالم ، يا عثمان ، إن الله استأمنكم على بيته ، فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف » .

بلال يؤذن على الكعبة :

وحانت الصلاة ، فأمر رسول الله ﷺ بلالاً أن يصعد فيؤذن على الكعبة ، وأبو سفيان ابن حرب ، وعَتَّاب بن أسيد ، والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة ، فقال عتاب : لقد أكرم الله أسيداً ألا يكون سمع هذا ، فيسمع منه ما يغيظه ، فقال الحارث : أما والله لو أعلم أنه حقٌّ لاتبعته ، فقال أبو سفيان : أما والله لا أقول شيئاً ، لو تكلمت لأخبرت عنى هذه الحصباء ، فخرج عليهم النبي ﷺ فقال لهم : « قد علمت الذي قلتم » ، ثم ذكر ذلك لهم . فقال الحارث وعتاب : نشهد أنك رسول الله ، والله ما أطلع على هذا أحد كان معنا فنقول : أخبرك .

صلاة الفتح أو صلاة الشكر :

ودخل رسول الله ﷺ يؤمئذ دار أم هانئ بنت أبي طالب ، فاغتسل وصلى ثمانى ركعات فى بيتها ، وكان ضحى ، فظنها من ظنها صلاة الضحى ، وإنما هذه صلاة الفتح ، وأجارت أم هانئ حمويين لها ، فقال رسول الله ﷺ : « قد أجرنا من أجرنا يا أم هانئ » ، وقد كان أخوها على بن أبي طالب أراد أن يقتلها ، فأغلقت عليهما باب بيتها ، وسألت النبي ﷺ فقال لها ذلك .

إهدار دماء رجال من أكابر المجرمين :

وأهدر رسول الله ﷺ يؤمئذ دماء تسعة نفر من أكابر المجرمين ، وأمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة ، وهم عبد العزى بن خطل ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وعكرمة بن أبي جهل ، والحارث بن نفيل بن وهب ، ومقيس بن صباب ، وهبار بن الأسود ، وقينتان كانتا لابن خطل ، كانتا تغنيان بهجو النبي ﷺ ، وسارة مولاة لبعض بنى عبد المطلب ، وهى التى وجد معها كتاب حاطب .

فأما ابن أبي سرح ، فجاء به عثمان إلى النبي ﷺ ، وشفع فيه ، فحقن دمه ، وقبل إسلامه بعد أن أمسك عنه رجاء أن يقوم إليه بعض الصحابة فيقتله ، وكان قد أسلم قبل ذلك وهاجر ، ثم ارتد ورجع إلى مكة .

وأما عكرمة بن أبي جهل ، ففر إلى اليمن ، فاستأمنت له امرأته ، فأمنه النبي ﷺ فتبعته ، فرجع معها وأسلم ، وحسن إسلامه .

وأما ابن خطل ، فكان متعلقاً بأستار الكعبة ، فجاء رجل إلى النبي ﷺ وأخبره فقال : « اقتله » ، فقتله .

وأما مقيس بن صباب ، فقتله نُمَيْلَة بن عبد الله ، وكان مقيس قد أسلم قبل ذلك ، ثم عدا على رجل من الأنصار فقتله ، ثم ارتد ولحق بالمشركين .

وأما الحارث ، فكان شديد الأذى لرسول الله ﷺ بمكة ، فقتله على .

وأما هبار بن الأسود ، فهو الذى كان قد عرض لزينب بنت رسول الله ﷺ حين هاجرت ، فنخس بها حتى سقطت على صخرة وأسقطت جنيها ، ففر هبار يوم مكة ، ثم

أسلم وحسن إسلامه .

وأما القيتان، فقتلت إحداهما ، واستؤمن للأخرى ، فأسلمت ، كما استؤمن لسارة وأسلمت .

قال ابن حجر: وذكر أبو معشر فيمن أهدر دمه الحارث بن طلائل الخزاعي ، قتله على . وذكر الحاكم أيضاً ممن أهدر دمه كعب بن زهير ، وقصته مشهورة ، وقد جاء بعد ذلك وأسلم ومدح ، ووَحْشِيَّ بن حرب ، وهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان ، وقد أسلمت ، وأرنب مولاة ابن خطل أيضاً قتلت ، وأم سعد قتلت ، فيما ذكر ابن إسحاق ، فكمملت العدة ثمانية رجال وست نسوة ، ويحتمل أن تكون أرنب وأم سعد القيتان ، اختلف في اسمهما أو باعتبار الكنية واللقب (١) .

إسلام صفوان بن أمية ، وفضالة بن عمير :

لم يكن صفوان ممن أهدر دمه ، لكنه بصفته زعيماً كبيراً من زعماء قريش خاف على نفسه وفر ، فاستأمن له عُمَيْرُ بن وهب الجُمَحِيُّ رسول الله ﷺ فأمنه ، وأعطاه عمامته التي دخل بها مكة ، فلحقه عمير وهو يريد أن يركب البحر من جدة إلى اليمن فردّه ، فقال لرسول الله ﷺ : اجعلني بالخيار شهرين . قال : «أنت بالخيار أربعة أشهر» . ثم أسلم صفوان ، وقد كانت امرأته أسلمت قبله ، فأقرهما على النكاح الأول .

وكان فضالة رجلاً جريئاً جاء إلى رسول الله ﷺ ، وهو في الطواف ؛ ليقتله ، فأخبر الرسول ﷺ بما في نفسه فأسلم .

خطبة الرسول ﷺ في اليوم الثاني من الفتح :

ولما كان الغد من يوم الفتح قام رسول الله ﷺ في الناس خطيباً ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ومجده بما هو أهله ، ثم قال : «أيها الناس ، إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دمًا ، أو يعُضِدَ بها شجرة ، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ فقولوا : إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم ، وإنما حلت لي ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، فليبلغ الشاهد الغائب» .

وفى رواية : « لا يُعْضَدُ شوْكُه ، ولا ينفر صيده ، ولا تُلْتَقَطُ ساقطته إلا من عَرَفَها ، ولا يُخْتَلَى خِلاه » ، فقال العباس : يا رسول الله ، إلا الإذخِر ، فإنه لِقَيْنِهِمْ وبيوتهم ، فقال : «إلا الإذخِر» .

وكانت خُرَاعَة قتلت يومئذ رجلاً من بني لَيْث بقتيل لهم في الجاهلية ، فقال رسول الله ﷺ بهذا الصدد : « يا معشر خزاعة ، ارفعوا أيديكم عن القتل ، فلقد كثر القتل إن نَفَعَ ، ولقد قتلتم قتيلاً لأدينه ، فمن قتل بعد مقامى هذا فأهله بخيرِ النَّظَرَيْنِ ، إن شاءوا قدم قاتله ، وإن شاءوا فَعَتَلُهُ » .

وفى رواية : فقام رجل من أهل اليمن يقال له : أبو شاه فقال : اكتب لى يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : « اكتبوا لأبى شاه » (١).

تخوف الأنصار من بقاء الرسول ﷺ فى مكة :

ولما تم فتح مكة على الرسول ﷺ - وهى بلده ووطنه ومولده - قال الأنصار فيما بينهم : أترون رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده أن يقيم بها - وهو يدعو على الصفا رافعاً يديه - فلما فرغ من دعائه قال : « ماذا قلتم ؟ » قالوا : لا شئ يا رسول الله ، فلم يزل بهم حتى أخبروه ، فقال رسول الله ﷺ : « معاذ الله ، المحيا محياكم ، والممات مماتكم » .
أخذ البيعة :

وحين فتح الله مكة على رسول الله ﷺ والمسلمين ، تبين لأهل مكة الحق ، وعلموا أن لا سبيل إلى النجاح إلا الإسلام ، فاذعنوا له ، واجتمعوا للبيعة ، فجلس رسول الله ﷺ على الصفا يبايع الناس ، وعمر بن الخطاب أسفل منه ، يأخذ على الناس ، فبايعوه على السمع والطاعة فيما استطاعوا .

وفى المدارك : روى أن النبى ﷺ لما فرغ من بيعة الرجال أخذ فى بيعة النساء ، وهو على الصفا ، وعمر قاعد أسفل منه ، يبايعهن بأمره ، ويبلغهن عنه ، فجاءت هند بنت عتبة امرأة أبى سفيان متنكرة ، خوفاً من رسول الله ﷺ أن يعرفها ؛ لما صنعت بحمزة ، فقال رسول الله ﷺ : « أبايعكن على ألا تشركن بالله شيئاً » ، فبايع عمر النساء على ألا يشركن بالله شيئاً .

فقال رسول الله ﷺ : « ولا تسرقن » . فقالت هند : إن أبا سفيان رجل شحيح ، فإن أنا أصبت من ماله هنات ؟ فقال أبو سفيان : وما أصبت فهو لك حلال ، فضحك رسول الله ﷺ وعرفها ، فقال : « وإنك لهند ؟ » قالت : نعم ، فاعف عما سلف يا نبى الله ، عفا الله عنك .

فقال : « ولا يزنين » . فقالت : أو تزنى الحرة ؟

فقال : « ولا يقتلن أولادهن » . فقالت : ريبناهم صغاراً ، وقتلتموهم كباراً ، فأنتم وهم أعلم - وكان ابنها حنظلة بن أبى سفيان قد قتل يوم بدر - فضحك عمر حتى استلقى ، فبتسم رسول الله ﷺ .

قال : « ولا يأتين بيهتان » . فقالت : والله إن البهتان لأمر قبيح ، وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق .

فقال : « ولا يعصينك فى معروف » . فقالت : والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفى أنفسنا أن نعصيك .

ولما رجعت جعلت تكسر صنمها وتقول : كنا منك فى غرور (٢) .

وفى الصحيح : جاءت هند بنت عتبة فقالت : يا رسول الله ، ما كان على ظهر

(١) انظر لهذه الروايات : صحيح البخارى ١ / ٢٢ ، ٢١٦ ، ٢٤٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٢ / ٦١٥ ،

٦١٧ ، وصحيح مسلم ١ / ٤٣٧ - ٤٣٩ ، وابن هشام ٢ / ٤١٥ ، ٤١٦ ، وأبو داود ١ / ٢٧٦ .

(٢) مدارك التنزيل للنسفى : تفسير آية البيعة .

الأرض من أهل خباء أحب إلى أن يذلوا من أهل خبائك ، ثم ما أصبح اليوم على ظهر الأرض أهل خباء أحب إلى أن يعزوا من أهل خبائك . قال : « وأيضاً ، والذي نفسى بيده » . قالت : يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل مسيك فهل على حرج أن أطعم من الذى له عيالنا ؟ قال : « لا أراه إلا بالمعروف » (١) .

إقامته ﷺ بمكة ، وعمله فيها :

وأقام رسول الله ﷺ بمكة تسعة عشر يوماً يجدد معالم الإسلام ، ويرشد الناس إلى الهدى والتقى ، وخلال هذه الأيام أمر أبا أسيد الخزاعى ، فجدد أنصاب الحرم ، وبث سراياه للدعوة إلى الإسلام ، ولكسر الاوثان التى كانت حول مكة ، فكسرت كلها ، ونادى مناديه بمكة : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع فى بيته صنماً إلا كسره . السرايا والبعوث :

١ - ولما اطمأن رسول الله ﷺ بعد الفتح بعث خالد بن الوليد إلى العزى لخمس ليلتين من شهر رمضان (سنة ٨ هـ) ليهدهما ، وكانت بنخله ، وكانت لقريش وجميع بنى كنانة ، وهى أعظم أصنامهم . وكان سدنتها بنى شيبان ، فخرج إليها خالد فى ثلاثين فارساً حتى انتهى إليها ، فهدمها . ولما رجع إليها سأل رسول الله ﷺ « هل رأيت شيئاً ؟ » قال : لا ، قال : « فإنك لم تهدهما ، فارجع إليها فاهدهما » ، فرجع خالد متغيظاً قد جرد سيفه ، فخرجت إليه امرأة عريانة سوداء ناشرة الرأس ، فجعل السادن يصيح بها ، فضربها خالد فجزلها بائنتين ، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره ، فقال : « نعم ، تلك العزى ، وقد أيسأت أن تعبد فى بلادكم أبداً » .

٢ - ثم بعث عمرو بن العاص فى نفس الشهر إلى سِوَاع ليهدهما ، وهو صنم لهذيل برهط ، على قرابة ١٥٠ كيلواً متراً شمال شرقى مكة ، فلما انتهى إليه عمرو قال له السادن : ما تريد ؟ قال : أمرنى رسول الله ﷺ أن أهدهما ، قال : لا تقدر على ذلك ، قال : لم ؟ قال : تمنع . قال : حتى الآن أنت على الباطل ؟ ويحك ، فهل يسمع أو يبصر ؟ ثم دنا فكسره ، وأمر أصحابه فهدموا بيت خزانته ، فلم يجدوا فيه شيئاً ، ثم قال للسادن : كيف رأيت ؟ قال : أسلمت لله .

٣ - وفى الشهر نفسه بعث سعد بن زيد الأشهلى فى عشرين فارساً إلى مناة ، وكانت بالشلال عند قديد للأوس والخزرج وغسان وغيرهم ، فلما انتهى سعد إليها قال له سادنها : ما تريد ؟ قال : هدم مناة ، قال : أنت وذاك ، فأقبل إليها سعد ، وخرجت امرأة عريانة سوداء نائرة الرأس ، تدعو بالويل ، وتضرب صدرها ، فقال لها السادن : مناة دونك بعض عصاتك . فضربها سعد فقتلها ، وأقبل إلى الصنم فهدمه وكسره ، ولم يجدوا فى خزانته شيئاً .

٤ - ولما رجع خالد بن الوليد من هدم العزى بعث رسول الله ﷺ فى شوال من نفس السنة (٨ هـ) إلى بنى جذيمة داعياً إلى الإسلام لا مقاتلاً . فخرج فى ثلاثمائة وخمسين

رجلاً من المهاجرين والأنصار وبنى سليم ، فانتهى إليهم فدعاهم إلى الإسلام ، فلم يحسنوا أن يقولوا : أسلمنا ، فجعلوا يقولون : صبأنا ، صبأنا . فجعل خالد يقتلهم ويأسرهم ، ودفع إلى كل رجل ممن كان معه أسيراً ، فأمر يوماً أن يقتل كل رجل أسيره ، فأبى ابن عمر وأصحابه حتى قدموا على النبي ﷺ ، فذكروا له ، فرفع ﷺ يديه وقال : « اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد » مرتين (١) .

وكانت بنو سليم هم الذين قتلوا أسراهم دون المهاجرين والأنصار ، وبعث رسول الله ﷺ علياً فودى لهم قتلهم وما ذهب منهم ، وكان بين خالد وعبد الرحمن بن عوف كلام وشر في ذلك ، فبلغ النبي ﷺ فقال : « مهلاً يا خالد ، دع عنك أصحابي ، فوالله لو كان أحدٌ ذهباً ، ثم أنفقت في سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابي ولا روحته » (٢) .

تلك هي غزوة فتح مكة ، وهي المعركة الفاصلة والفتح الأعظم الذي قضى على كيان الوثنية قضاءً باتاً ، ولم يترك لبقائها مجالاً ولا مبرراً في ربوع الجزيرة العربية ، فقد كانت عامة القبائل تنتظر ماذا يتمخض عنه العراك والاصطدام الذي كان دائراً بين المسلمين والوثنيين ، وكانت تلك القبائل تعرف جيداً أن الحرم لا يسيطر عليه إلا من كان على الحق ، وكان قد تأكد لديهم هذا الاعتقاد الجازم أى تأكد قبل نصف القرن حين قصد أصحاب الفيل هذا البيت ، فأهلكوا وجعلوا كعصفٍ مأكول .

وكان صلح الحديبية مقدمة وتوطئة بين يدي هذا الفتح العظيم ، أمن الناس به وكلم بعضهم بعضاً ، وناظره في الإسلام ، وتمكن من اختفى من المسلمين بمكة من إظهار دينه والدعوة إليه والمناظرة عليه ، ودخل بسببه بشر كثير في الإسلام ، حتى إن عدد الجيش الإسلامي الذي لم يزد في الغزوات السالفة على ثلاث آلاف إذا هو يزخر في هذه الغزوة في عشرة آلاف .

وهذه الغزوة الفاصلة فتحت أعين الناس ، وأزالت عنها آخر الستور التي كانت تحول بينها وبين الإسلام ، وبهذا الفتح سيطر المسلمون على الموقف السياسي والديني كليهما معاً في طول جزيرة العرب وعرضها ، فقد انتقلت إليهم الصدارة الدينية والزعامة الدينية .

فالطور الذي كان قد بدأ بعد صلح الحديبية لصالح المسلمين قد تم وكمل بهذا الفتح المبين ، وبدأ بعد ذلك طور آخر كان لصالح المسلمين تماماً ، وكان لهم فيه السيطرة على الموقف تماماً . ولم يبق لأقوام العرب إلا أن يفدوا إلى الرسول ﷺ فيعتنقوا الإسلام ، ويحملوا دعوته إلى العالم ، وقد تم استعدادهم لذلك في ستين آيتين .

(١) صحيح البخارى ١ / ٤٥٠ ، ٢ / ٦٢٢ .

(٢) أخذنا تفاصيل هذه الغزوة من ابن هشام ٢ / ٣٨٩ - ٤٣٧ ، وصحيح البخارى : كتاب فضائل أصحاب النبي ح (٣٦٧٣) ، وفتح البارى ٨ / ٣ - ٢٧ ، وصحيح مسلم ١ / ٤٣٧ - ٤٣٩ ، ٢ / ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٣٠ ، وزاد المعاد ٢ / ١٦٠ - ١٦٨ .

المرحلة الثالثة

وهى آخر مرحلة من مراحل حياة الرسول ﷺ . تمثل النتائج التى أثمرتها دعوته الإسلامية بعد جهاد طويل وعناء ومتاعب وقلاقل وفتن واضطرابات ومعارك وحروب دامية واجهتها طيلة بضعة وعشرين عامًا .

وكان فتح مكة هو أعظم فتح حصل عليه المسلمون فى هذه الأعوام ، تغير لأجله مجرى الأيام ، وتحول به جو العرب ، فقد كان الفتح حدًا فاصلاً بين المدة السابقة عليه وبين ما بعده ، فإن قريشًا كانت فى نظر العرب حماة الدين وأنصاره ، والعرب فى ذلك تبع لهم ، فخضوع قريش يعتبر القضاء الأخير على الدين الوثنى فى جزيرة العرب .

ويمكن أن نقسم هذه المرحلة إلى صفحتين :

١ - صفحة المجاهدة والقتال .

٢ - صفحة تسابق الشعوب والقبائل إلى اعتناق الإسلام .

وهاتان الصفحتان متلاصقتان تناوبتا فى هذه المرحلة ، ووقعت كل واحدة منهما خلال الأخرى ، إلا أنا اخترنا فى الترتيب الوضعى أن نأتى على ذكر كل من الصفحتين متميزة عن الأخرى ، ونظراً إلى أن صفحة القتال ألصق بما مضى ، وأكثر مناسبة من الأخرى قدمناها فى الترتيب .

غزوة حنين

إن فتح مكة جاء عقب ضربة خاطفة شَدَّ لها العرب ، وبوغت القبائل المجاورة بالأمر الواقع ، الذى لم يكن يمكن لها أن تدفعه ، ولذلك لم تمتنع عن الاستسلام إلا بعض القبائل الشرسة القوية المتطرفة ، وفى مقدمتها بطون هوازن وثقيف، واجتمعت إليها نصر وجشم وسعد بن بكر وناس من بنى هلال - وكلها من قيس عيلان - رأت هذه البطون من نفسها عزا وأنفة أن تقابل هذا الانتصار بالخضوع، فاجتمعت إلى مالك ابن عوف النَّصْرِيَّ ، وقررت المسير إلى حرب المسلمين .

مسير العدو ونزوله بأوطاس :

ولما أجمع القائد العام - مالك بن عوف - المسير إلى حرب المسلمين، ساق مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم ، فسار حتى نزل بأوطاس - وهو واد فى دار هَوَازِنَ بالقرب من حنين ، لكن وادى أوطاس غير وادى حنين، وحنين واد إلى جنب ذى المجاز ، بينه وبين مكة بضعة عشر ميلاً من جهة عرفات (١) .

مُجَرَّبُ الحروب يُغْلَظُ رأى القائد :

ولما نزل بأوطاس اجتمع إليه الناس ، وفيهم دُرَيْدُ بن الصَّمَّة - وهو شيخ كبير ، ليس فيه إلا رأيهِ ومعرفته بالحرب وكان شجاعاً مجرباً - قال دريد: بأى واد أنتم ؟ قالوا: بأوطاس ، قال: نعم مَجَالُ الخيل ، لا حَزَنٌ (٢) ضَرَسٌ (٣) ، ولا سَهْلٌ دَهَسٌ (٤) ، مالى أسمع رُغَاءَ البعير، ونُهَاقَ الحمير، وبُكَاءَ الصبى، وثَغَاءَ الشاء ؟ قالوا : ساق مالك بن عوف مع الناس نساءهم وأموالهم وأبناءهم، فدعا مالكا وسأله عما حمّله على ذلك ، فقال: أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم ، فقال: راعى ضأن والله، وهل يرد المنهزم شيء ؟ إنها إن كانت لك لم ينفك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فُضِّحَتْ فى أهلك ومالك، ثم سأل عن بعض البطون والرؤساء، ثم قال: يا مالك، إنك لم تصنع بتقديم بِيضَةِ هوازن إلى نحر الخيل شيئاً، ارفعهم إلى ممتنع بلادهم وعلياء قومهم، ثم اتى الصُّبَاة على متون الخيل ، فإن كانت لك لحق بك من وراءك ، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك .

ولكن مالكا - القائد العام - رفض هذا الطلب قائلاً : والله لا أفعل ، إنك قد كبرت وكبر عقلك ، والله لتطيعنى هوازن أو لأتَّكِنَنَّ على هذا السيف حتى يخرج من ظهري ، وكره أن يكون لدريد فيها ذكر أو رأى ، فقالوا: أطعناك . فقال دريد : هذا يوم لم أشهده ولم يَفْتِنْنِي :

(٢) الحزن : ما ارتفع من الأرض .

(١) انظر: فتح الباري ٨ / ٢٧ ، ٤٢ .

(٤) الدهس : ما لان من الأرض .

(٣) الضرس : أرض بها حجارة محددة .

يا ليتنى فيها جَذَعُ أَحْبُ فيها وَأَضَعُ (١)
أَقود وطفاءَ الزَّمْعِ (٢) كأنها شاة صَدَعُ (٣)

سلاح استكشاف العدو :

وجاءت إلى مالك عيون كان قد بعثهم للاستكشاف عن المسلمين ، جاءت هذه العيون وقد تفرقت أوصالهم ، قال : ويلكم ، ما شأنكم ؟ قالوا: رأينا رجالاً بيضا على خيل بُلْقٍ ، والله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى .

سلاح استكشاف رسول الله ﷺ :

ونقلت الأخبار إلى رسول الله ﷺ بمسير العدو ، فبعث أبا حذرَد الأسلمي ، وأمره أن يدخل في الناس ، فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ، ثم يأتيه بخبرهم ، ففعل .

الرسول ﷺ يغادر مكة إلى حنين :

وفى يوم السبت - السادس من شهر شوال سنة ٨ هـ - غادر رسول الله ﷺ مكة - وكان ذلك اليوم التاسع عشر من يوم دخوله في مكة - خرج في اثني عشر ألفاً من المسلمين ؛ عشرة آلاف ممن كانوا خرجوا معه لفتح مكة ، وألفان من أهل مكة . وأكثرهم حديثو عهد بالإسلام واستعار من صفوان بن أمية مائة درع بأداتها، واستعمل على مكة عتَّاب بن أسيد .

ولما كان عشية جاء فارس، فقال: إني طلعت جبل كذا وكذا ، فإذا أنا بهوازن على بكرة آبائهم يَطْعُنُهُمْ وَنَعْمُهُمْ وشأنهم اجتمعوا إلى حنين ، فتبسم رسول الله ﷺ وقال : « تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله » ، وتطوع للحراسة تلك الليلة أنس بن أبى مرثد الغنوى (٤).

وفى طريقهم إلى حنين رأوا سِدْرَةً عظيمة خضراء يقال لها : ذات أنواط ، كانت العرب تعلق عليها أسلحتهم ، ويذبحون عندها ويعكفون ، فقال بعض أهل الجيش لرسول الله ﷺ : اجعل لنا ذات أنواط ، كما لهم ذات أنواط . فقال : « الله أكبر ، قلتُم والذى نفس محمد بيده كما قال قوم موسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، قال: إنكم قوم تجهلون ، إنها السنن ، لتركن سنن من كان قبلكم » (٥).

وقد كان بعضهم قال نظراً إلى كثرة الجيش : لن نُغَلَبَ اليوم ، وكان قد شق ذلك على رسول الله ﷺ .

الجيش الإسلامى يُباغِتُ بالرماة والمهاجمين :

انتهى الجيش الإسلامى إلى حنين، الليلة التى بين الثلاثاء والأربعاء لعشر خلون من

(١) أحب وأضع : ضربان من السير . (٢) وطفاء الزمع : خيل طويلة الشعر .

(٣) صدع : شئ بين شيتين من أى نوع كان .

(٤) انظر : سنن أبى داود : الجهاد ، فضل الحرس فى سبيل الله ٢ / ١٠ .

(٥) روى ذلك الترمذى: الفتن ، باب لتركبن سنن من كان قبلكم ٤ / ٤١٢ ، وأحمد فى مسنده ٥ / ٢١٨ .

شوال، وكان مالك بن عوف قد سبقهم ، فأدخل جيشه بالليل فى ذلك الوادى ، وفرق كُمناءه فى الطرق والمداخل والشعاب والأخباء والمضايق ، وأصدر إليهم أمره بأن يرشقوا المسلمين أول ما طلوعوا ، ثم يشدوا شدة رجل واحد .

وبالسَّحَرِ عباً رسول الله ﷺ جيشه ، وعقد الألوية والرايات ، وفرقها على الناس ، وفى عَمَاية الصبح استقبل المسلمون وادى حنين ، وشرعوا ينحدرون فيه ، وهم لا يدرون بوجود كمناء العدو فى مضايق هذا الوادى ، فبينما هم ينحطون إذا تمطر عليهم النبال ، وإذا كتائب العدو قد شدت عليهم شدة رجل واحد ، فانشمر المسلمون راجعين ، لا يلوى أحد على أحد ، وكانت هزيمة منكرة ، حتى قال أبو سفيان بن حرب ، وهو حديث عهد بالإسلام : لا تنتهى هزيمتهم دون البحر - الأحمر - وصرخ جبلة أو كلدنة بن الحنبل : ألا بطل السَّحَرِ اليوم .

وانحاز رسول الله ﷺ جهة اليمين وهو يقول : «هَلُمُّوا إِلَى أَيُّهَا النَّاسُ ، أَنَا رَسُولُ اللَّهِ ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ » ولم يبق معه فى موقفه إلا عدد قليل من المهاجرين والأنصار . تسعة على قول ابن إسحاق ، واثنان عشر على قول النووي ، والصحيح ما رواه أحمد والحاكم فى المستدرک من حديث ابن مسعود ، قال : كنت مع النبى ﷺ يوم حنين ، فولى عنه الناس وثبت معه ثمانون رجلاً من المهاجرين والأنصار ، فكنا على أقدامنا ولم نُؤْلَهِمُ الدَّبِرَ ، وروى الترمذى من حديث ابن عمر بإسناد حسن قال : لقد رأيتنا يوم حنين وإن الناس لمولين ، وما مع رسول الله ﷺ مائة رجل (١) .

وحينئذ ظهرت شجاعة النبى ﷺ التى لا نظير لها ، فقد طفق يركض بغلته قبل الكفار وهو يقول :

« أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبُ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ »

بيد أن أبا سفيان بن الحارث كان أخذاً بلجام بغلته ، والعباس يركابه ، يكفانها ألا تسرع ، ثم نزل رسول الله ﷺ فاستنصر ربه قائلاً : « اللَّهُمَّ أَنْزِلْ نَصْرَكَ » . رجوع المسلمين واحتدام المعركة :

وأمر رسول الله ﷺ عمه العباس - وكان جَهَّيرَ الصوت - أن ينادى الصحابة ، قال العباس : فقلت بأعلى صوتى : أين أصحاب السَّمُرَةِ؟ قال : فوالله لكان عَطَفَتْهُمُ حِينَ سَمِعُوا صوتى عَطْفَةَ الْبَقْرِ عَلَى أَوْلَادِهَا ، فقالوا : يا لبيك ، يا لبيك (٢) . ويذهب الرجل ليشئ بغيره ، فلا يقدر عليه ، فيأخذ درعه ، فيقذفها فى عنقه ، ويأخذ سيفه وترسه ، ويقتحم عن بغيره ، ويخلى سبيله ، فيؤم الصوت ، حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة استقبلوا الناس واقتتلوا .

وصرفت الدعوة إلى الأنصار : يا معشر الأنصار ، يا معشر الأنصار ، ثم قصرت الدعوة فى بنى الحارث بن الخزرج ، وتلاحقت كتائب المسلمين واحدة تلو الأخرى كما كانوا

(١) أحمد فى مسنده ٤٥٣/١ ، ٤٥٤ ، والحاكم ١١٧/٢ ، والترمذى : الجهاد ، باب ما جاء فى الثبات عند القتال ١٧٣/٤ (١٦٨٩) ، وانظر أيضاً : فتح البارى ٢٩/٨ ، ٣٠ ، ومسنده أبى يعلى ٣٨٨/٣ ، ٣٨٩ .

(٢) صحيح مسلم ١٠٠ / ٢ .

تركوا الموقعة ، وتجالد الفريقان مجالدة شديدة ، ونظر رسول الله ﷺ إلى ساحة القتال، وقد استحر واحتدم ، فقال : « الآن حمى الوطيس » . ثم أخذ رسول الله ﷺ قبضة من تراب الأرض، فرمى بها فى وجوه القوم وقال : « شاهت الوجوه » ، فما خلق الله إنساناً إلا ملأ عينيه تراباً من تلك القبضة، فلم يزل حدُّهم كليلًا وأمرهم مُدبرًا .

انكسار حدة العدو ، وهزيمته الساحقة :

وما هى إلا ساعات قلائل - بعد رمى القبضة - حتى انهزم العدو هزيمة منكرة، وقتل من تُقيف وحدهم نحو السبعين، وحاز المسلمون ما كان مع العدو من مال وسلاح وطمع .

وهذا هو التطور الذى أشار إليه سبحانه وتعالى في قوله : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعَجَبْتُمْ كَثْرَتَكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ (٢٥) ثم أنزل الله سكينة على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين (٢٦) [التوبة] .

حركة المطاردة :

ولما انهزم العدو صارت طائفة منهم إلى الطائف ، وطائفة إلى نخلة ، وطائفة إلى أوطاس، فأرسل النبي ﷺ إلى أوطاس طائفة من المطاردين يقودهم أبو عامر الأشعري، فتناوش الفريقان القتال قليلاً ، ثم انهزم جيش المشركين، وفى هذه المناوشة قتل القائد أبو عامر الأشعري .

وطاردت طائفة أخرى من فرسان المسلمين فلول المشركين الذين سلكوا نخلة، فأدركت دُرَيْدَ بن الصَّمَّةَ فقتله ربيعة بن رُفَيْع .

وأما معظم فلول المشركين الذين لجأوا إلى الطائف، فتوجه إليهم رسول الله ﷺ بنفسه بعد أن جمع الغنائم .

الغنائم :

وكانت الغنائم : السبى ستة آلاف رأس ، والإبل أربعة وعشرون ألفاً ، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة ، وأربعة آلاف أوقية فضة ، أمر رسول الله ﷺ بجمعها ، ثم حبسها بالجعرانة، وجعل عليها مسعود بن عمرو الغفارى، ولم يقسمها حتى فرغ من غزوة الطائف .

وكانت فى السبى الشيماء بنت الحارث السعدية ؛ أخت رسول الله ﷺ من الرضاة ، فلما جرى بها إلى رسول الله ﷺ عرفت له نفسها ، فعرفها بعلامة فأكرمها، وبسط لها رداءه ، وأجلسها عليه ، ثم من عليها ، وردّها إلى قومها .

غزوة الطائف :

وهذه الغزوة فى الحقيقة امتداد لغزوة حنين ، وذلك أن معظم فلول هوازن وثقيف دخلوا الطائف مع القائد العام - مالك بن عوف النَّصْرِيّ - وتحصنوا بها ، فسار إليهم رسول الله ﷺ بعد فراغه من حنين وجمع الغنائم بالجعرانة ، فى الشهر نفسه - شوال سنة ٨ هـ .

وقدم خالد بن الوليد على مقدمته طليعة فى ألف رجل ، ثم سلك رسول الله ﷺ إلى الطائف ، فمر فى طريقه على نخلة اليمانية ، ثم على قَرْنِ المنازل ، ثم على لَيْثٍ ، وكان هناك حصن للمالك بن عوف فأمر بهدمه ، ثم واصل سيره حتى انتهى إلى الطائف فنزل قريباً من حصنه ، وعسكر هناك ، وفرض الحصار على أهل الحصن .

ودام الحصار مدة غير قليلة ، ففى رواية أنس عند مسلم : أن مدة حصارهم كانت أربعين يوماً ، وعند أهل السير خلاف فى ذلك ، فقليل : عشرين يوماً ، وقيل : بضعة عشر ، وقيل : ثمانية عشر ، وقيل : خمسة عشر (١) .

ووقعت فى هذه المدة مراماة ، ومقاذفات ، فالمسلمون أول ما فرضوا الحصار رماهم أهل الحصن رمياً شديداً ، كأنه رجل جراد ، حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة ، وقتل منهم اثنا عشر رجلاً ، واضطروا إلى الارتفاع عن معسكرهم إلى مسجد الطائف اليوم ، فعسكروا هناك .

ونصب النبى ﷺ المنجنيق على أهل الطائف ، وقذف به القذائف ، حتى وقعت شذخة فى جدار الحصن ، فدخل نفر من المسلمين تحت دبابه (٢) .

ودخلوا بها إلى الجدار ليحرقوه ، فأرسل عليهم العدو سكك الحديد محمأة بالنار . فخرجوا من تحتها ، فرمهم بالنبل وقتلوا منهم رجالاً .

وأمر رسول الله ﷺ - كجزء من سياسة الحرب لإلجاء العدو إلى الاستسلام - أمر بقطع الأغراب وتحريقها ، فقطعها المسلمون قطعاً ذريعاً ، فسألته ثقيف أن يدعها لله والرحم ، فتركها لله والرحم .

ونادى مناديه ﷺ : أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر ، فخرج إليهم ثلاثة وعشرون رجلاً (٣) ، فيهم أبو بكره - تسور حصن الطائف ، وتدلّى منه ببكرة مستديرة يستقى عليها ، فكانه رسول الله ﷺ « أبا بكره » - فأعتقهم رسول الله ﷺ ، ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يمونه ، فشق ذلك على أهل الحصن مشقة شديدة .

ولما طال الحصار واستعصى الحصن ، وأصيب المسلمون بما أصيب من رشق النبال وبسكك الحديد المحمأة - وكان أهل الحصن قد أعدوا فيه ما يكفيهم لحصار سنة - استشار رسول الله ﷺ نوفل بن معاوية الديلى فقال : هم ثعلب فى جحر ، إن أقيمت عليه أخذته وإن تركته لم يضرك ، وحيثئذ عزم رسول الله ﷺ على رفع الحصار والرحيل ، فأمر عمر بن الخطاب فأذن فى الناس ، إنا قافلون غداً إن شاء الله ، فنقل عليهم وقالوا : نذهب ولا نفتحه؟ فقال رسول الله ﷺ : « اغدوا على القتال » ، فغدوا فأصابهم جراح ، فقال : « إنا قافلون غداً إن شاء الله » فسروا بذلك وأذعنوا ، وجعلوا يرحلون ، ورسول الله ﷺ يضحك .

(١) فتح البارى ٨ / ٤٥ .

(٢) لم تكن الدبابه كدبابتنا اليوم ، وإنما كانت تصنع من الخشب ، كان الناس يدخلون فى جوفها ثم يدفعونها فى أصل الحصن لينقبوه وهم فى جوفها ، أو ليدخلوا من النقبات .

(٣) صحيح البخارى ٢ / ٦٢٠ .

ولما ارتحلوا واستقلوا قال: قولوا: «أيون تائبون عابدون، لربنا حامدون». وقيل: يا رسول الله، ادع على ثقيف، فقال: «اللهم اهد ثقيفا، وائت بهم» .
 قسمة الغنائم بالجعرانة:

ولما عاد رسول الله ﷺ بعد رفع الحصار عن الطائف مكث بالجعرانة بضعة عشرة ليلة لا يقسم الغنائم، ويتأني بها، يبتغي أن يقدم عليه وفد هوازن تائبين فيحرزوا ما فقدوا، ولكنه لم يجئه أحد، فبدأ بقسمة المال، ليست المتطلعين من رؤساء القبائل وأشرف مكة، فكان المؤلف قلوبهم أول من أعطى وحظى بالأنصبة الجزلة.

أعطى أبا سفيان بن حرب أربعين أوقية ومائة من الإبل، فقال: ابني يزيد؟ فأعطاه مثلها، فقال: ابني معاوية؟ فأعطاه مثلها، وأعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل، ثم سأله مائة أخرى، فأعطاه إياها. وأعطى صفوان بن أمية مائة من الإبل، ثم مائة ثم مائة - كذا في الشفاء (١) - وأعطى الحارث بن الحارث بن كلفة مائة من الإبل، وكذلك أعطى رجالا من رؤساء قريش وغيرها مائة مائة من الإبل وأعطى آخرين خمسين وخمسين وأربعين وأربعين، حتى شاع في الناس أن محمداً يعطي عطاءً، ما يخاف الفقر، فازدحمت عليه الأعراب يطلبون المال حتى اضطروه إلى شجرة، فانترعت رداءه فقال: «أيها الناس، ردوا عليّ ردائي، فوالذي نفسي بيده لو كان عندي عدد شجر تهامة نعماً لقسمته عليكم، ثم ما ألفتيموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً».

ثم قام إلى جنب بعيه فأخذ من سنامه وبرة، فجعلها بين إصبعه، ثم رفعها، فقال: «أيها الناس، واللّه مالي من فيثكم ولا هذه البرة إلا الخمس، والخمس مردود عليكم». وبعد إعطاء المؤلف قلوبهم أمر رسول الله ﷺ زيد بن ثابت بإحضار الغنائم والناس، ثم فرضها على الناس، فكانت سهامهم لكل رجل إما أربعاً من الإبل، وإما أربعين شاة، فإن كان فارساً أخذ اثني عشر بغيراً أو عشرين ومائة شاة. الأنصار تجدد على رسول الله ﷺ:

كانت هذه القسمة مبنية على سياسة حكيمة، لكنها لم تفهم أول الأمر، فأطلقت السنة شتى بالاعتراض.

روى ابن إسحاق عن أبي سعيد الخدري قال: لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا في قريش وفي قبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء، وجدّ هذا الحى من الأنصار في أنفسهم حتى كثرت فيهم القالة، حتى قال قائلهم: لقي الله رسول الله ﷺ وقومه، فدخل عليه سعد بن عبادة فقال: يا رسول الله، إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفء الذي أصبت، قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يك في هذا الحى من الأنصار منها شيء. قال: «فأين أنت من ذلك يا سعد؟» قال: يا رسول الله، ما أنا إلا من قومي. قال: «فاجمع

لى قومك فى هذه الحظيرة . فخرج سعد فجمع الأنصار فى تلك الحظيرة ، فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا . وجاء آخرون فردهم ، فلما اجتمعوا له أتاه سعد فقال : لقد اجتمع لك هذا الحى من الأنصار ، فاتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : « يا معشر الأنصار ، ما قاله بلغتنى عنكم ، وجدة وجدتموها على أنفُسكم ؟ ألم أتكم ضلّالاً فهداكم الله ؟ وعالة فأغناكم الله ؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ » قالوا : بلى ، الله ورسوله أمّن وأفضل .

ثم قال : « ألا تحبونى يا معشر الأنصار ؟ » قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ورسوله المن والفضل . قال : « أما والله لو شتّم لقتلتم ، فصدّقتم ولصدّقتم : أتيتنا مكذباً فصدقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فأويناك ، وعائلاً فأسيناك ! » .

« أوجدتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم فى لعاعة ^(١) من الدنيا تألفتُ بها قوماً ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله ﷺ إلى رحالكُم ؟ فوالذى نفس محمد بيده ، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً ، وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار . »

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله ﷺ قسماً وحطاً ، ثم انصرف رسول الله ﷺ ، وتفرقوا ^(٢) .

قدوم وفد هوازن :

وبعد توزيع الغنائم أقبل وفد هوازن مسلماً ، وهم أربعة عشر رجلاً ورأسهم زهير بن صُرد ، وفيهم أبو بُرقان عم رسول الله ﷺ من الرضاعة ، فأسلموا وبايعوا ثم قالوا : يا رسول الله ، إن فيمن أصبتم الأمهات والأخوات ، والعمات والخالات ، وهن مخازى الأقوام :

فامن علينا رسول الله فى كسرم فإنك المرء نرجوه ونتنظر

امن على نسوة قد كنت ترضعها إذ فوك تملؤه من محضها الدرر

وذلك فى آيات . فقال : « إن معى من ترون ، وإن أحب الحديث إلى أصدقته ، فأبناؤكم ونسائكم أحب إليكم أم أموالكم ؟ » قالوا : ما كنا نعدل بالأحساب شيئاً . فقال : « إذا صليت الغداة - أى صلاة الظهر - فقوموا فقولوا : إنا نستشفع برسول الله ﷺ إلى المؤمنين ، ونستشفع بالمؤمنين إلى رسول الله ﷺ أن يرد إلينا سيينا » ، فلما صلى الغداة قاموا فقالوا ذلك . فقال رسول الله ﷺ : « أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، وسأسال لكم الناس » ، فقال المهاجرون والأنصار : ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ . فقال الأقرع بن حابس : أما أنا وبنو تميم فلا . وقال عيينة بن حصن : أما أنا وبنو فزارة فلا . وقال العباس بن مرداس : أما أنا وبنو سليم فلا . فقالت بنو سليم : ما كان لنا فهو لرسول الله

(١) بقلة .

(٢) ابن هشام ٢ / ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، وروى مثل ذلك البخارى ٢ / ٦٢٠ ، ٦٢١ .

ﷺ . فقال العباس بن مرداس : وهتتمونى .

فقال رسول الله ﷺ : « إن هؤلاء القوم قد جاءوا مسلمين ، وقد كنت استأنيت سبيهم ، وقد خيرتهم فلم يعدلوا بالأبناء والنساء شيئاً ، فمن كان عنده منهن شيء فطابت نفسه بأن يرده فسييل ذلك ، ومن أحب أن يستمسك بحقه فليرد عليهم ، وله بكل فريضة ست فرائض من أول ما يقىء الله علينا » ، فقال الناس : قد طيبنا لرسول الله ﷺ . فقال : « إنا لا نعرف من رضى منكم ممن لم يرض ، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم » ، فردوا عليهم نساءهم وأبناءهم ، لم يتخلف منهم أحد غير عيينة بن حصن ، فإنه أبى أن يرد عجزوا صارت فى يديه منهم ، ثم ردها بعد ذلك ، وكسا رسول الله ﷺ السبى قبطية قبطية (١) .

العمرة والانصراف إلى المدينة :

ولما فرغ رسول الله ﷺ من قسمة الغنائم فى الجعرانة أهل معتمراً منها ، فأدى العمرة ، وانصرف بعد ذلك راجعاً إلى المدينة بعد أن ولى على مكة عتاب بن أسيد ، وكان رجوعه إلى المدينة ودخوله فيها لست ليال بقيت من ذى القعدة سنة ٨ هـ (٢) .

(١) لينظر فى قصة سبى هوازن البخارى مع الفتح ٥ / ٢٠١ .

(٢) تاريخ ابن خلدون ٤٨/٢ ، وانظر لتفصيل هذه الغزوات - فتح مكة وحنين والطائف ، وما وقع خلالها : زاد المعاد ٢ / ١٦٠ - ٢٠١ ، وابن هشام ٣٨٩/٢ - ٥٠١ وصحيح البخارى : أبواب غزوة الفتح وحنين وأوطاس والطائف وغيرها ٢ / ٦١٢ - ٦٢٢ ، وفتح البارى ٨ / ٣ - ٥٨ .

البعوث والسرايا بعد الرجوع من غزوة الفتح

وبعد الرجوع من هذا السفر الطويل الناجح أقام رسول الله ﷺ بالمدينة يستقبل الوفود، ويبعث العمال، ويث الدعاء، ويكتب من بقى فيه الاستكبار عن الدخول فى دين الله، والاستسلام للأمر الواقع الذى شاهده العرب. وهاك صورة مصغرة من ذلك : المصدقون :

قد عرفنا مما تقدم أن رجوع رسول الله ﷺ إلى المدينة كان فى أواخر أيام السنة الثامنة، فما هو إلا أن استهل هلال المحرم من سنة ٩ هـ، وبعث رسول الله ﷺ المصدقين إلى القبائل، وهذه هى قائمتهم :

- ١ - عيينة بن حصن إلى بنى تميم .
- ٢ - يزيد بن الحصين إلى أسلم وغفار .
- ٣ - عبادة بن بشير الأشهل إلى سليم ومزينة .
- ٤ - رافع بن مكيت إلى جهينة .
- ٥ - عمرو بن العاص إلى بنى فزارة .
- ٦ - الضحاك بن سفيان إلى بنى كلاب .
- ٧ - بشير بن سفيان إلى بنى كعب .
- ٨ - ابن اللثية الأزدي إلى بنى ذبيان .
- ٩ - المهاجر بن أبى أمية إلى صنعاء (وخرج عليه الأسود العنسى وهو بها) .
- ١٠ - زياد بن لبيد إلى حضرموت .
- ١١ - عدى بن حاتم إلى طيئ وبنى أسد .
- ١٢ - مالك بن نويرة إلى بنى حنظلة .
- ١٣ - الزبرقان بن بدر إلى بنى سعد (إلى قسم منهم) .
- ١٤ - قيس بن عاصم إلى بنى سعد (إلى قسم آخر منهم) .
- ١٥ - العلاء بن الحضرمي إلى البحرين .
- ١٦ - على بن أبى طالب إلى نجران (لجمع الصدقة والجزية كليهما) .

وليس هؤلاء العمال كلهم بعثوا فى المحرم سنة ٩ هـ، بل تأخر بعث عدة منهم إلى اعتناق الإسلام من تلك القبائل التى بعثوا إليها. نعم كانت بداية بعث العمال بهذا الاهتمام البالغ فى المحرم سنة ٩ هـ، وهذا يدل على مدى نجاح الدعوة الإسلامية بعد صلح الحديبية،

وأما بعد فتح مكة فقد دخل الناس في دين الله أفواجا .

السرايا :

وكما بعث المصدقون إلى القبائل ، مَسَّت الحاجة إلى بعث عدة من السرايا مع سيادة الأمن على عامة مناطق الجزيرة ، وهالك لوحدة تلك السرايا :

١- سرية عيينة بن حصن الفزارى - في المحرم سنة ٩ هـ - إلى بنى تميم ، في خمسين فارساً ، لم يكن فيهم مهاجرى ولا أنصارى ، وسببها : أن بنى تميم كانوا قد أغروا القبائل ، ومنعوهم عن أداء الجزية .

وخرج عيينة بن حصن يسير الليل ، ويكمن النهار ، حتى هجم عليهم في الصحراء فولى القوم مدبرين ، وأخذ منهم أحد عشر رجلاً وإحدى وعشرين امرأة وثلاثين صبياً ، وساقهم إلى المدينة ، فانزلوا في دار رَمْلَةَ بنت الحارث .

وقدم فيهم عشرة من رؤسائهم ، فجاءوا إلى باب النبي ﷺ فنادوا : يا محمد ، اخرج إلينا ، فخرج ، فتعلقوا به ، وجعلوا يكلمونه ، فوقف معهم ، ثم مضى حتى صلى الظهر ، ثم جلس في صحن المسجد ، فأظهروا رغبتهم في المفاخرة والمباهاة ، وقدموا خطيبهم عَطَّارِد ابن حاجب فتكلم ، فأمر رسول الله ﷺ ثابت بن قيس بن شماس - خطيب الإسلام - فأجابهم ، ثم قدموا شاعرهم الزبرقان بن بدر ، فأنشد مفاخرأ ، فأجابه شاعر الإسلام حسان ابن ثابت على البيهية .

ولما فرغ الخطيبان والشاعران قال الأقرع بن حابس : خطيبه أخطب من خطيبنا ، وشاعره أشعر من شاعرنا ، وأصواتهم أعلى من أصواتنا ، وأقوالهم أعلى من أقوالنا ، ثم أسلموا ، فأجازهم رسول الله ﷺ ، فأحسن جوائزهم ، ورد عليهم نساءهم وأبناءهم (١) .

٢- سرية قُطَبة بن عامر إلى حى من خَتَمَ بناحية تَبَّالَة ، بالقرب من تُرَبَة في صفر سنة ٩ هـ . خرج قطبة في عشرين رجلاً على عشرة أبعة يعتقبونها ، فشن الغارة ، فاقتتلوا قتلاً شديداً حتى كثر الجرحى في الفريقين جميعاً ، وقتل قطبة مع من قتل ، وساق المسلمون النعم والنساء والشاء إلى المدينة .

٣- سرية الضحّاك بن سفيان الكلابي إلى بنى كلاب في ربيع الأول سنة ٩ هـ : بعثت هذه السرية إلى بنى كلاب ؛ لدعوتهم إلى الإسلام ، فأبوا وقاتلوا ، فهزمهم المسلمون ، وقتلوا منهم رجلاً .

٤- سرية علقمة بن مُجَزَّر المُدَلِجى إلى سواحل جُدَّة في شهر ربيع الآخر سنة ٩ هـ في ثلاثمائة . بعثهم إلى رجال من الحبيشة ، كانوا قد اجتمعوا بالقرب من سواحل جدة للقيام بأعمال القَرَصَة ضد أهل مكة ، فخاض علقمة البحر حتى انتهى إلى جزيرة ، فلما سمعوا

(١) هكذا ذكره أهل المغازي أن هذه السرية كانت في المحرم سنة ٩ هـ ، وفيه نظر ظاهر ؛ فإن السياق يشعر بأن الأقرع بن حابس لم يكن أسلم قبلها ، وقد ذكروا أن الأقرع بن حابس هو الذى قال حين استرد رسول الله ﷺ مسبايا بنى هوازن : أما أنا وبنو تميم فلا ، وهذا يقتضى إسلامه قبل هذه السرية .

بمسير المسلمين إليهم هربوا (١) .

٥- سرية علي بن أبي طالب إلى صنم لطى يقال له : الفلّس - ليهدمه - فى شهر ربيع الأول سنة ٩ هـ . بعثه رسول الله ﷺ فى خمسين ومائة ، على مائة بغير وخمسين فرساً ، ومعه راية سوداء ولواء أبيض ، فشنوا الغارة على محلة آل حاتم مع الفجر ، فهدموه وملأوا أيديهم من السبى والنعم والشاء ، وفى السبى أخت عدى بن حاتم ، وهرب عدى إلى الشام ، ووجد المسلمون فى خزانة الفلّس ثلاثة أسياف وثلاثة أدرع ، وفى الطريق قسموا الغنائم ، وعزلوا الصفى لرسول الله ﷺ . ولم يقسموا آل حاتم .

ولما جاءوا إلى المدينة استعطفت أخت عدى بن حاتم رسول الله ﷺ ، قائلة : يا رسول الله ، غاب الوافد ، وانقطع الوالد ، وأنا عجوز كبيرة ، ما بى من خدمة ، فمن على ، من الله عليك . قال : « من وافدك ؟ » قالت : عدى بن حاتم ، . قال : « الذى فر من الله ورسوله ؟ » ثم مضى ، فلما كان الغد قالت مثل ذلك ، وقال لها مثل ما قال أمس . فلما كان بعد الغد قالت مثل ذلك ، فمن عليها ، وكان إلى جنبه رجل - ترى أنه على - فقال لها : سليه الحِمْلان فسألته فأمر لها به .

ورجعت أخت عدى بن حاتم إلى أخيها عدى بالشام ، فلما لقيته قالت عن رسول الله ﷺ : لقد فعل فعلة ما كان أبوك يفعلها ، اتته راغباً أو راهباً ، فجاءه عدى بغير أمان ولا كتاب . فأتى به إلى داره ، فلما جلس بين يديه حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : ما يُفْرُكُ؟ أَيْفُركُ أن تقول : « لا إله إلا الله ؟ فهل تعلم من إله سوى الله ؟ » قال : لا . ثم تكلم ساعة ثم قال : « إنما تفر أن يقال : الله أكبر ، فهل تعلم شيئاً أكبر من الله ؟ » قال : لا . قال : « فإن اليهود مغضوب عليهم ، وإن النصارى ضالون » . قال : فإنى حنيف مسلم ، فانبسط وجهه فرحاً ، وأمر به فتزل عند رجل من الأنصار ، وجعل يأتى النبی ﷺ طرفى النهار (٢) .

وفى رواية ابن إسحاق عن عدى : أن النبی ﷺ لما أجلسه بين يديه فى داره قال له : « إيه يا عدى بن حاتم ، ألم تكن ركُوسياً ؟ » (٣) قال : قلت : بلى ، قال : « أو لم تكن تسير فى قومك بالمرْبَاع (٤) ؟ » قال : قلت : بلى . قال : « فإن ذلك لم يحل لك فى دينك » . قال : قلت أجل والله . قال : وعرفت أنه نبي مرسل ، يعرف ما يُجهل (٥) .

وفى رواية لأحمد : أن النبی ﷺ قال : « يا عدى ، أسلم تسلم » . فقلت : إني من أهل دين . قال : « أنا أعلم بدينك منك » . فقلت : أنت أعلم بدينى منى ؟ قال : « نعم ، أأست من الركوسية ، وأنت تأكل مرباع قومك ؟ » فقلت : بلى ، قال : « فإن هذا لا يحل لك فى دينك » . قال : فلم يعد أن قالها فتواضعت لها (٦) .

(٢) زاد المعاد ٢ / ٢٠٥ .

(٤) ربع الغنيمة .

(١) فتح البارى ٨ / ٥٩ .

(٣) دين بين دين النصارى والصابئين .

(٥) ابن هشام ٢ / ٥٨١ .

(٦) مسند الإمام أحمد ٤ / ٢٥٧ ، ٢٧٨ .

وروى البخارى عن عدى قال : بينا أنا عند النبى ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة ، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل ، فقال : « يا عدى ، هل رأيت الحيرة ؟ فإن طالت بك حياة فلترين الظعينة تترحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة ، لا تخاف أحداً إلا الله ، ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى ، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة ، ويطلب من يقبله فلا يجد أحداً يقبله منه... » الحديث وفى آخره : قال عدى : فرأيت الظعينة تترحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله . وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز ، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبى أبو القاسم ﷺ « يخرج ملء كفه » (١)

(١) صحيح البخارى ح (١٤١٣ ، ١٤١٧ ، ٣٥٩٥ ، ٦٠٢٣ ، ٦٥٣٩ ، ٦٥٤٠ ، ٦٥٦٣ ، ٧٤٤٣ ، ٧٥١٢).

غزوة تبوك في رجب سنة ٩هـ

إن غزوة فتح مكة كانت غزوة فاصلة بين الحق والباطل ، لم يبق بعدها مجال للريبة والظن في رسالة محمد ﷺ عند العرب ، ولذلك انقلب المجري تماماً ، ودخل الناس في دين الله أفواجا - كما سيظهر ذلك مما نقدمه في فصل الوفود ، ومن العدد الذي حضر في حجة الوداع - وانتهت المتاعب الداخلية ، واستراح المسلمون لتعليم شرائع الله ، وبث دعوة الإسلام .

سبب الغزوة :

إلا أنه كانت هناك قوة تعرضت للمسلمين من غير مبرر ، وهى قوة الرومان - أكبر قوة عسكرية ظهرت على وجه الأرض في ذلك الزمان - وقد عرفنا فيما تقدم أن بداية هذا التعرض كانت بقتل سفير رسول الله ﷺ - الحارث بن عمير الأزدي - علي يدى شُرَحْبِيل ابن عمرو الغساني ، حينما كان السفير يحمل رسالة النبي ﷺ إلى عظيم بصرى ، وأن النبي ﷺ أرسل بعد ذلك سرية زيد بن حارثة التى اصطدمت بالرومان اصطداماً عنيفاً فى مؤتة ، ولم تنجح فى أخذ الثأر من أولئك الظالمين المتغطرسين ، إلا أنها تركت أروع أثر فى نفوس العرب ، قريتهم وبعيدهم .

ولم يكن قيصر ليصرف نظره عما كان لمعركة مؤتة من الأثر الكبير لصالح المسلمين ، وعما كان يطمح إليه بعد ذلك كثير من قبائل العرب من استقلالهم عن قيصر ، ومواطنتهم للمسلمين ، إن هذا كان خطراً يتقدم ويخطو إلى حدوده خطوة بعد خطوة ، ويهدد الثغور الشامية التى تجاور العرب ، فكان يرى أن القضاء يجب على قوة المسلمين قبل أن تتجسد فى صورة خطر عظيم لا يمكن القضاء عليها ، وقبل أن تثير القلاقل والثورات فى المناطق العربية المجاورة للرومان .

ونظراً إلى هذه المصالح ، لم يقض قيصر بعد معركة مؤتة سنة كاملة حتى أخذ يهيئ الجيش من الرومان والعرب التابعة لهم من آل غسان وغيرهم ، وبدأ يجهز لمعركة دامية فاصلة .

الأخبار العامة عن استعداد الرومان وغسان :

وكانت الأنباء تتراعى إلى المدينة بإعداد الرومان ؛ للقيام بغزوة حاسمة ضد المسلمين ، حتى كان الخوف يتسورهم كل حين ، لا يسمعون صوتاً غير معتاد إلا ويظنون زحف الرومان . ويظهر ذلك جلياً مما وقع لعمر بن الخطاب ، فقد كان النبي ﷺ آلى من نسائه شهراً فى هذه السنة (٩هـ) وكان هجرهن واعتزل عنهن فى مشربة له ، ولم يفتن الصحابة إلى حقيقة الأمر فى بدايته ، فظنوا أن النبي ﷺ طلقهن ، فسرى فيهم الهم والحزن والقلق . يقول عمر بن الخطاب - وهو يروى هذه القصة : وكان لى صاحب من الأنصار

إذا غبت أثنائي بالخبر ، وإذا غاب كنت آتية أنا بالخبر - وكانا يسكنان في عوالى المدينة ، يتناوبان إلى النبي ﷺ - ونحن نتخوف ملكاً من ملوك غسان ذكر لنا أنه يريد أن يسير إلينا ، فقد امتلأت صدورنا منه ، فإذا صاحبى الأنصارى يدق الباب ، فقال : افتح ، افتح ، فقلت : جاء الغسانى ؟ فقال : بل أشد من ذلك ، اعتزل رسول الله ﷺ أزواجه ... الحديث (١).

وفى لفظ آخر (أنه قال) : وكنا تحدثنا أن آل غسان تتعل النعال لغزونا ، فنزل صاحبى يوم نوبته ، فرجع عشاء ، فضرب بابى ضرباً شديداً وقال : أنائم هو ؟ ففزعت ، فخرجت إليه ، وقال : حدث أمر عظيم . فقلت : ما هو ؟ أجاءت غسان ؟ قال : لا بل أعظم منه وأطول ، طلق رسول الله ﷺ نساءه ... الحديث (٢).

وهذا يدل على خطورة الموقف ، الذى كان يواجهه المسلمون بالنسبة إلى الرومان ، ويزيد ذلك تأكيداً ما فعله المنافقون حينما نقلت إلى المدينة أخبار إعداد الرومان ، فبرغم ما رآه هؤلاء المنافقون من نجاح رسول الله ﷺ فى كل الميادين ، وأنه لا يوجل من سلطان على ظهر الأرض ، بل يذيب كل ما يعترض فى طريقه من عوائق - برغم هذا كله - طفق هؤلاء المنافقون يأملون فى تحقق ما كانوا يخفونه فى صدورهم ، وما كانوا يترصدونه من الشر بالإسلام وأهله. ونظراً إلى قرب تحقق آمالهم أنشأوا وكرة للدس والتآمر ، فى صورة مسجد ، وهو مسجد الضرار ، أسسوه كفرة وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله ، وعرضوا على رسول الله ﷺ أن يصلى فيه ، وإنما مرامهم بذلك أن يخدعوا المؤمنين فلا يفتنوا ما يؤتى به فى هذا المسجد من الدس والمؤامرة ضدهم ، ولا يلتفتوا إلى من يرده ويصدر عنه ، فيصير وكرة مأمونة لهؤلاء المنافقين ولرفقائهم فى الخارج ، ولكن رسول الله ﷺ أخر الصلاة فيه - إلى قفوله من الغزوة - لشغله بالجهاز ، ففشلوا فى مرامهم وفضحهم الله ، حتى قام الرسول ﷺ بهدم المسجد بعد القفول من الغزو ، بدل أن يصلى فيه .

الأخبار الخاصة عن استعداد الرومان وغسان :

كانت هذه هى الأحوال والأخبار التى يواجهها ويتلقاها المسلمون ، إذ بلغهم من الأنباء الذين قدموا بالزيت من الشام إلى المدينة أن هرقل قد هيا جيشاً عرمرماً قوامه أربعون ألف مقاتل ، وأعطى قيادته لعظيم من عظماء الروم ، وأنه أجلب معهم قبائل لخم وجذام وغيرهما من متصرة العرب ، وأن مقدمتهم بلغت إلى البلقاء ، وبذلك تمثل أمام المسلمين خطر كبير .

زيادة خطورة الموقف :

والذى كان يزيد خطورة الموقف أن الزمان كان فصل القيظ الشديد ، وكان الناس فى عسرة وجذب من البلاء وقلة من الظهر ، وكانت الثمار قد طابت ، فكانوا يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم ، ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذى هم فيه ، ومع هذا كله كانت المسافة بعيدة ، والطريق وعرة صعبة .

الرسول ﷺ يقرر القيام بإقدام حاسم :

ولكن الرسول ﷺ كان ينظر إلى الظروف والتطورات بنظر أدق وأحكم من هذا كله ، إنه كان يرى أنه لو توانى وتكاسل عن غزو الرومان فى هذه الظروف الحاسمة ، وترك الرومان لتجوس خلال المناطق التى كانت تحت سيطرة الإسلام ونفوذه ، وتزحف إلى المدينة كان له أسوأ أثر على الدعوة الإسلامية وعلى سمعة المسلمين العسكرية ، فالجاهلية التى نلفظ نفسها الأخير بعد ما لقيت من الضربة القاصمة فى حنين ستحيا مرة أخرى ، والمنافقون الذين يترصون الدوائر بالمسلمين ، ويتصلون بملك الرومان بواسطة أبى عامر الفاسق سيعجون بطون المسلمين بخناجرهم من الخلف ، فى حين تهجم الرومان بحملة ضارية ضد المسلمين من الامام ، وهكذا يخفق كثير من الجهود التى بذلها هو أصحابه فى نشر الإسلام ، وتذهب المكاسب التى حصلوا عليها بعد حروب دامية ودوريات عسكرية متتابعة متواصلة . . . تذهب هذه المكاسب بغير جدوى .

كان رسول الله ﷺ يعرف كل ذلك جيداً ، ولذلك قرر القيام - مع ما كان فيه من العسرة والشدة - بغزوة فاصلة يخوضها المسلمون ضد الرومان فى حدودهم ، ولا يمهلونهم حتى يزحفوا إلى دار الإسلام .

الإعلان بالتهيؤ لقتال الرومان :

ولما قرر الرسول ﷺ الموقف أعلن فى الصحابة أن يتجهزوا للقتال ، وبعث إلى القبائل من الغرب وإلى أهل مكة يستنفرهم . وكان قل ما يريد غزوة يغزوها إلا ورى بغيرها ، ولكنه نظراً إلى خطورة الموقف وإلى شدة العسرة أعلن أنه يريد لقاء الرومان ، وجلى للناس أمرهم ؛ ليتأهبوا أهبة كاملة ، وحضهم على الجهاد ، ونزلت قطعة من سورة براءة تثيرهم على الجلال ، وتحثهم على القتال ، ورغبهم رسول الله ﷺ فى بذل الصدقات ، وإنفاق كرائم الأموال فى سبيل الله .

المسلمون يتسابقون إلى التجهز للغزو :

ولم يكن من المسلمين أن سمعوا صوت رسول الله ﷺ يدعو إلى قتال الروم إلا وتسابقوا إلى امتثاله ، فقاموا يتجهزون للقتال بسرعة بالغة ، وأخذت القبائل والبطون تهبط إلى المدينة من كل صوب وناحية ، ولم يرض أحد من المسلمين أن يتخلف عن هذه الغزوة - إلا الذين فى قلوبهم مرض وإلا ثلاثة نفر - حتى كان يجىء أهل الحاجة والفاقة يستحملون رسول الله ﷺ ؛ ليخرجوا إلى قتال الروم ، فإذا قال لهم : ﴿ لَا أَجِدُ مَا أُحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾ (٩٢) ﴿ [التوبة] .

كما تسابق المسلمون فى إنفاق الأموال وبذل الصدقات ، كان عثمان بن عفان قد جهز عيراً للشام ، مائتا بعير بأقتابها وأحلاسها ، ومائتا أوقية ، فتصدق بها ، ثم تصدق بمائة بعير بأحلاسها وأقتابها ، ثم جاء بألف دينار فنثرها فى حجره ﷺ ، فكان رسول الله ﷺ

يقلبها ويقول : « ما ضَرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم » ^(١) ، ثم تصدق وتصدق حتى بلغ مقدار صدقته تسعمائة بغير ومائة فرس سوى النقود .

وجاء عبد الرحمن بن عوف بما تى أوقية فضة ، وجاء أبو بكر بماله كله ولم يترك لأهله إلا الله ورسوله - وكانت أربعة آلاف درهم - وهو أول من جاء بصدقته . وجاء عمر بنصف ماله ، وجاء العباس بمال كثير ، وجاء طلحة وسعد بن عباد ومحمد بن مسلمة ، كلهم جاءوا بمال . وجاء عاصم بن عدى بتسعين وسقاً من التمر ، وتتابع الناس بصدقاتهم قليلها وكثيرها ، حتى كان منهم من أنفق مداً أو مدين لم يكن يستطيع غيرها . وبعث النساء ما قدرن عليه من مسك ^(٢) ومعاضد وخلاخل وقرط وخواتم .

ولم يمك أحد يده ، ولم يبخل بماله إلا المنافقون ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جَهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ﴾ [التوبة : ٧٩] .
الجيش الإسلامى إلى تبوك :

وهكذا تجهز الجيش ، فاستعمل رسول الله ﷺ على المدينة محمد بن مسلمة الأنصارى ، وقيل : سباع بن عُرْطَةَ ، وخلف على أهله على بن أبى طالب ، وأمره بالإقامة فيهم ، وغمَصَ عليه المنافقون ، فخرج فلحق برسول الله ﷺ ، فردّه إلى المدينة وقال : « ألا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبي بعدى » .

وتحرك رسول الله ﷺ يوم الخميس نحو الشمال يريد تبوك ، ولكن الجيش كان كبيراً - ثلاثون ألف مقاتل ، لم يخرج المسلمون فى مثل هذا الجمع الكبير قبله قط - فلم يستطع المسلمون مع ما بذلوه من الأموال أن يجهزوه تجهيزاً كاملاً ، بل كانت فى الجيش قلة شديدة بالنسبة إلى الزاد والمراكب ، فكان ثمانية عشر رجلاً يعتقبون بغيراً واحداً ، وربما أكلوا أوراق الأشجار حتى تورمت شفاههم ، واضطروا إلى ذبح البعير - مع قلتها - ليشربوا ما فى كرشه من الماء ، ولذلك سُمى هذا الجيش جيش العُسرة .

ومر الجيش الإسلامى فى طريقه إلى تبوك بالحجر - ديار ثمود الذين جابوا الصخر بالوادى ، أى وادى القرى - فاستقى الناس من بثرها ، فلما راحوا قال رسول الله ﷺ : « لا تشربوا من مائها ولا تتوضأوا منه للصلاة ، وما كان من عججن عجنتموه فاعلفوه الإبل ، ولا تأكلوا منه شيئاً » ، وأمرهم أن يستقوا من البئر التى كانت تردها ناقة صالح ﷺ .

وفى الصحيحين عن ابن عمر قال : لما مر النبي ﷺ بالحجر قال : « لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين » ، ثم قنع رأسه وأسرع بالسير حتى جاز الوادى ^(٣) .

واشتدت فى الطريق حاجة الجيش إلى الماء حتى شكوا إلى رسول الله ، فدعا الله ، فأرسل الله سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس ، واحتملوا حاجاتهم من الماء .

(٢) أساور .

(١) جامع الترمذى : مناقب عثمان بن عفان ٢ / ٢١١ .

(٣) صحيح البخارى : باب نزول النبي ﷺ الحجر ٢ / ٦٣٧ .

ولما قرب من تبوك قال: « إنكم ستأتون غداً إن شاء الله تعالى عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يَضْحَى النهار، فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئاً حتى آتَى »، قال معاذ: فجننا وقد سبق إليها رجلان، والعين تَبْضُ بشيء من مائها، فسألهما رسول الله ﷺ « هل مسستما من مائها شيئاً؟ » قالا: نعم. وقال لهما ما شاء الله أن يقول. ثم غرف من العين قليلاً قليلاً حتى اجتمع الْوَشْلُ^(١)، ثم غسل رسول الله ﷺ وجهه ويده، ثم أعاده فيها فجرت العين بماء كثير، فاستقى الناس، ثم قال رسول الله ﷺ: « يوشك يا معاذ، إن طالت بك حياة أن ترى ما هاهنا قد ملئ جنائاً »^(٢).

وفى الطريق أو لما بلغ تبوك - على اختلاف الروايات - قال رسول الله ﷺ: « تهب عليكم الليلة ريح شديدة، فلا يقم أحد منكم، فمن كان له بعير فليشد عقاله »، فهبت ريح شديدة، فقام رجل فحملته الريح حتى ألقت به بجبل طي^(٣).

وكان دأب رسول الله ﷺ فى الطريق أنه كان يجمع بين الظهر والعصر، وبين المغرب والعشاء جمع التقديم وجمع التأخير كليهما.

الجيش الإسلامى بتبوك:

نزل الجيش الإسلامى بتبوك، فعسكر هناك، وهو مستعد للقاء العدو، وقام رسول الله ﷺ فيهم خطيباً، فخطب خطبة بليغة، أتى بجوامع الكلم، وحض على خير الدنيا والآخرة، وحذر وأندر، وبشر وأبشر، حتى رفع معنوياتهم، وجبر بها ما كان فيهم من النقص والخلل من حيث قلة الزاد والمادة والمؤنة. وأما الرومان وحلفاؤهم فلما سمعوا بزحف رسول الله ﷺ أخذهم الرعب، فلم يجترؤا على التقدم واللقاء، بل تفرقوا فى البلاد فى داخل حدودهم، فكان لذلك أحسن أثر بالنسبة إلى سمعة المسلمين العسكرية، فى داخل الجزيرة وأرجائها النائية، وحصل بذلك المسلمون على مكاسب سياسية كبيرة خطيرة، لعلهم لم يكونوا يحصلون عليها لو وقع هناك اصطدام بين الجيشين.

جاء يُحَنُّ بن رُوَيْبَة صاحب أيلة، فصالح الرسول ﷺ وأعطاه الجزية، وأتاه أهل جَرْبَاء وأهل أذْرَح، فأعطوه الجزية، وكتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً فهو عندهم، وصالحه أهل مِينَاء على ربع ثمارها، وكتب لصاحب أيلة: « بسم الله الرحمن الرحيم، هذه أمانة من الله ومحمد النبى رسول الله ليحنته بن رُوَيْبَة وأهل أيلة، سفنهم وسياراتهم فى البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبى، ومن كان معه من أهل الشام وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثاً، فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وإنه طيب لمن أخذه من الناس، وأنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه، ولا طريقاً يربدون من بر أو بحر ».

وبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى أَكْبَدَر دُومَة الجَنْدَل فى أربعمئة وعشرين فارساً، وقال له: « إنك ستجده يصيد البقر »، فأتاه خالد، فلما كان من حصنه بمنظر العين، خرجت بقرة، تحك بقرونها باب القصر، فخرج أكيدر لصيدها - وكانت ليلة مقمرة - فتلقاها خالد فى خيله، فأخذه وجاء به إلى رسول الله ﷺ، فحقت دمه، وصالحه على

(١) كماء القليل يُتَحَلَّب من الجبل.

(٢) (٣، ٢) رواه مسلم عن معاذ بن جبل ٢ / ٢٤٦.

ألفي بعير ، وثمانمائة رأس وأربعمائة درع ، وأربعمائة رمح ، وأقر بإعطاء الجزية ، فقاضاه مع يُحَنَّة على قضية دومة وتبوك وأَيْلَةَ وَتَيْمَاء .

وأيقنت القبائل التي كانت تعمل لحساب الرومان أن اعتمادها على سادتها الأقدمين قد فات أوانه ، فانقلبت لصالح المسلمين ، وهكذا توسعت حدود الدولة الإسلامية ، حتى لاقت حدود الرومان مباشرة ، وشهد عملاء الرومان نهايتهم إلى حد كبير .
الرجوع إلى المدينة :

ورجع الجيش الإسلامي من تبوك مظفرين منصورين ، لم ينالوا كيداً ، وكفى الله المؤمنين القتال، وفي الطريق عند عقبة حاول اثنا عشر رجلاً من المنافقين الفتك بالنبي ﷺ ، وذلك أنه حينما كان يمر بتلك العقبة كان معه عمار يقود بزمام ناقته ، وحذيفة بن اليمان يسوقها، وأخذ الناس بطن الوادي ، فانتهر أولئك المنافقون هذه الفرصة . فبينما رسول الله ﷺ وصاحبه يسيران إذ سمعوا وكزة القوم من ورائهم ، قد غشوه وهم ملتشمون ، فبعث حذيفة فضرب وجوه رواحلهم بِمَحْجَن كان معه، فأرعبهم الله، فأسرعوا في الفرار حتى لحقوا بالقوم، وأخبر رسول الله ﷺ بأسمائهم ، وبما هموا به ، فلذلك كان حذيفة يسمى بصاحب سر رسول الله ﷺ، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ وَهُمُوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ﴾ [التوبة : ٧٤] .

ولما لاحت للنبي ﷺ معالم المدينة من بعيد قال: « هذه طَابَةُ ، وهذا أَحَدٌ ، جبل يحبنا ونحبه » ، وتسامع الناس بمقدمه ، فخرج النساء والصبيان والولائد يقابلن الجيش بحفاوة بالغة ويقلن ^(١) :

طلع البدر علينا من ثِيَابِ الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

وكانت عودته ﷺ من تبوك ودخوله في المدينة في رجب سنة ٩ هـ ^(٢) ، واستغرقت هذه الغزوة خمسين يوماً ، أقام منها عشرين يوماً في تبوك، والبواقي قضاها في الطريق جيئةً وذهوباً . وكانت هذه الغزوة آخر غزواته ﷺ .
المُخْلَفُونَ :

وكانت هذه الغزوة - لظروفها الخاصة بها - اختباراً شديداً من الله ، امتاز به المؤمنون من غيرهم ، كما هي سنته تعالى في مثل هذه المواطن، حيث يقول: ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَيْبَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ [آل عمران : ١٧٩] . فقد خرج لهذه الغزوة كل

(١) هذا رأى ابن القيم وقد مضى البحث عليه .

(٢) وهذا هو الحق دون ما قاله ابن إسحاق من أن عودته ﷺ كانت في رمضان ؛ لأنه يقتضى خروجه ﷺ إلى تبوك في الخميس الثاني من شهر رجب ، وذلك الخميس يوافق الخامس والعشرين من شهر أكتوبر ، وهو من الأيام المعتدلة القريبة من البرد ، ولا سيما في الصباح والمساء ، وتأتي بعد جدد التمر بزمان ، بينما الخروج إلى تبوك كان في شدة الحر وفي أيام جدد التمر ، ثم إن النبي ﷺ كان موجوداً في المدينة في شهر شعبان من هذه السنة حين توفيت ابنته أم كلثوم ، فالصحيح أنه ﷺ رجع إلى المدينة في شهر رجب ، وكان خروجه قبل ذلك بخمسين يوماً أي في شهر جمادى الأولى .

من كان مؤمناً صادقاً ، حتى صار يتخلف أمانة على نفاق الرجل ، فكان الرجل إذا تخلف وذكره لرسول الله ﷺ قال لهم : « دعوه ، فإن يكن فيه خير فسيلحقه الله بكم ، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم منه » ، فلم يتخلف إلا من حبسهم العذر ، أو الذين كذبوا الله ورسوله من المنافقين ، الذين قعدوا بعد أن استأذنوا للقعود كذباً ، أو قعدوا ولم يستأذنوا رأساً . نعم كان هناك ثلاثة نفر من المؤمنين الصادقين تخلفوا من غير مبرر ، وهم الذين أبلاهم الله ، ثم تاب عليهم .

ولما دخل رسول الله ﷺ المدينة بدأ بالمسجد ، فصلى فيه ركعتين ، ثم جلس للناس ، فأما المنافقون - وهم بضعة وثمانون رجلاً - فجاءوا يعتذرون بأنواع شتى من الأعذار ، وطفقوا يحلفون له ، فقبل منهم علانيتهم ، وبايعهم ، واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم إلى الله .

وأما نفر الثلاثة من المؤمنين الصادقين - وهم كعب بن مالك ، ومرة بن الربيع ، وهلال بن أمية - فاختراروا الصدق ، فأمر رسول الله ﷺ الصحابة ألا يكلموا هؤلاء الثلاثة ، وجرت ضد هؤلاء الثلاثة مقاطعة شديدة ، وتغير لهم الناس ، حتى تنكرت لهم الأرض ، وضائق عليهم بما رحبت ، وضائق عليهم أنفسهم ، وبلغت بهم الشدة إلى أنهم بعد أن قضوا أربعين ليلة من بداية المقاطعة أمروا أن يعتزلوا نساءهم ، حتى تمت على مقاطعتهم خمسون ليلة ، ثم أنزل الله توبتهم : ﴿ وَ عَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) ﴾ [التوبة] .

وفرح المسلمون ، وفرح الثلاثة فرحاً لا يقاس مداه وغايته ، فبشروا وأبشروا واستبشروا وأجازوا وتصدقوا ، وكان أسعد يوم من أيام حياتهم .

وأما الذين حبسهم العذر فقد قال تعالى فيهم : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [التوبة] . وقال فيهم رسول الله حين دنا من المدينة : « إن بالمدينة رجالاً ما سرتهم مسيراً ، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم ، حبسهم العذر » ، قالوا : يا رسول الله ، وهم بالمدينة ؟ قال : « وهم بالمدينة » . أثر الغزوة :

وكان لهذه الغزوة أعظم أثر في بسط نفوذ المسلمين وتقويته على جزيرة العرب ، فقد تبين للناس أنه ليس لأى قوة من القوات أن تعيش في العرب سوى قوة الإسلام ، وبطلت بقايا أمل وأمنية كانت تحرك في قلوب بقايا الجاهليين والمنافقين الذين كانوا يتربصون الدوائر بالمسلمين ، وكانوا قد عقدوا آمالهم بالرومان ، فقد استكانوا بعد هذه الغزوة ، واستسلموا للأمر الواقع ، الذى لم يجدوا عنه محيداً ولا مناصاً .

ولذلك لم يبق للمنافقين أن يعاملهم المسلمون بالرفق واللين ، وقد أمر الله بالتشديد عليهم ، حتى نهى عن قبول صدقاتهم ، وعن الصلاة عليهم ، والاستغفار لهم والقيام على قبرهم ، وأمر بهدم وكرة دسهم وتأميرهم التى بنوها باسم المسجد ، وأنزل فيهم آيات افتضحوا بها افتضحاً تاماً ، لم يبق فى معرفتهم بعدها أى خفاء ، كان الآيات قد نصبت على

أسمائهم لمن يسكن بالمدينة .

ويعرف مدى أثر هذه الغزوة من أن العرب وإن كانت قد أخذت في التوافد إلى رسول الله ﷺ بعد غزوة فتح مكة ، بل وما قبلها ، إلا أن تتابع الوفود وتكاثرها بلغ إلى القمة بعد هذه الغزوة ^(١) .

نزول القرآن حول موضوع الغزوة :

نزلت آيات كثيرة من سورة براءة حول موضوع الغزوة ، نزل بعضها قبل الخروج ، وبعضها بعد الخروج - وهو في السفر - وبعض آخر منها بعد الرجوع إلى المدينة ، وقد اشتملت على ذكر ظروف الغزوة ، وفضح المنافقين ، وفضل المجاهدين والمخلصين ، وقبول التوبة من المؤمنين الصادقين ، الخارجين منهم في الغزوة والمتخلفين ، إلى غير ذلك من الأمور .

(١) أخذنا تفاصيل هذه الغزوة من ابن هشام ٢ / ٥١٥ - ٥٣٧ ، وزاد المعاد ٣ / ٢ - ١٣ ، وصحيح البخارى ١ / ٢٥٢ ، ٤١٤ و ٢ / ٦٣٣ - ٦٣٧ وغيرها . وصحيح مسلم مع شرحه للنووى ٢ / ٢٤٦ ، وفتح البارى ٨ / ١١٠ - ١٢٦ .

بعض الوقائع المهمة في هذه السنة

وفي هذه السنة وقعت عدة وقائع لها أهمية في التاريخ :

- ١ - بعد قدوم رسول الله ﷺ من تبوك وقع اللعان بين عويمر العجلاني وامراته .
- ٢ - رجعت المرأة الغامدية ، التي جاءت فاعترفت على نفسها بالفاحشة ، رجعت بعدما فطمت ابنها .
- ٣ - توفي النجاشي أصحمة ، ملك الحبشة ، في رجب ، وصلى عليه رسول الله صلاة الغائب في المدينة .
- ٤ - توفيت أم كلثوم بنت النبي ﷺ في شعبان ، فحزن عليها حزناً شديداً ، وقال لعثمان : « لو كانت عندي ثلاثة لزوجتكها » .
- ٥ - مات رأس المنافقين عبد الله بن أبي ابن سلول بعد مرجع رسول الله ﷺ من تبوك ، فاستغفر له رسول الله ﷺ وصلى عليه بعد أن حاول عمر منعه عن الصلاة عليه ، وقد نزل القرآن بعد ذلك بموافقة عمر .

حج أبي بكر رضي الله عنه

وفى ذى القعدة أو ذى الحجة من نفس السنة (٩ هـ) ، بعث رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميراً على الحج ، ليقم بالمسلمين المناسك .

ثم نزلت أوائل سورة براءة بنقض الموائيق ونبذها على سواء ، فبعث رسول الله ﷺ على بن أبي طالب ليؤدي عنه ذلك ، وذلك تمشياً منه على عادة العرب في عهود الدماء والأموال ، فالتقى على بابي بكر بالعرج أو بضجنان ، فقال أبو بكر : أمير أو مأمور ؟ قال على : لا ، بل مأمور . ثم مضيا ، وأقام أبو بكر للناس حجهم ، حتى إذا كان يوم النحر ، قام على بن أبي طالب عند الجمرة ، فأذن في الناس بالذي أمره رسول الله ﷺ ، ونبذ إلى كل ذى عهد عهده ، وأجل لهم أربعة شهور ، وكذلك أجل أربعة أشهر لمن لم يكن له عهد ، وأما الذين لم ينقصوا المسلمين شيئاً ، ولم يظاهروا عليهم أحداً فأبقى عهدهم إلى مدتهم .

وبعث أبو بكر رضي الله عنه رجالاً ينادون في الناس : ألا لا يحج بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان .

وكان هذا النداء بمثابة إعلان نهاية الوثنية في جزيرة العرب ، وأنها لا تبدي ولا تُعيد بعد هذا العام (١) .

(١) صحيح البخارى ١ / ٢٢٠ ، ٤٥١ ، ٢ / ٦٢٦ ، ٦٧١ ، وزاد المعاد ٣ / ٢٥ ، ٢٦ ، وابن هشام ٢ /

نظرة علي الغزوات

إذا نظرنا إلى غزوات النبي ﷺ وبعوثه وسراياه، لا يمكن لنا ولا لأحد ممن ينظر في أوضاع الحروب وآثارها وخلفياتها - لا يمكن لنا إلا أن نقول :

إن النبي ﷺ كان أكبر قائد عسكري في الدنيا، وأشدّهم وأعمقهم فراسة وتيقظاً، إنه صاحب عبقرية فذة في هذا الوصف، كما كان سيد الرسل وأعظمهم في صفة النبوة والرسالة، فلم يخض معركة من المعارك إلا في الظرف ومن الجهة اللذين يقتضيهما الحزم والشجاعة والتدبير، ولذلك لم يفشل في أى معركة من المعارك التي خاضها لغلبة في الحكمة وما إليها من تعبئة الجيش وتعيينه على المراكز الاستراتيجية، واحتلال أفضل المواضع وأوثقها للمجابهة، واختيار أفضل خطة لإدارة دفعة القتال، بل أثبت في كل ذلك أن له نوعاً آخر من القيادة غير ما عرفتها الدنيا في القواد. ولم يقع ما وقع في أحد وحينئذ إلا من بعض الضعف في أفراد الجيش - في حين - أو من جهة معصيتهم وأوامره وتركهم التقيد والالتزام بالحكمة والخطة اللتين كان أوجبهما عليهم من حيث الوجهة العسكرية .

وقد تجلّت عبقرية ﷺ في هاتين الغزوتين عند هزيمة المسلمين، فقد ثبت مجابهاً للعدو، واستطاع بحكمته الفذة أن يخيبهم في أهدافهم - كما فعل في أحد - أو يغير مجرى الحرب حتى يبدل الهزيمة انتصاراً - كما في حنين - مع أن مثل هذا التطور الخطير، ومثل هذه الهزيمة الساحقة تأخذان بمشاعر القواد، وتتركان على أعصابهم أسوأ أثر، لا يبقى لهم بعد ذلك إلا هم النجاة بأنفسهم .

هذه من ناحية القيادة العسكرية الخالصة، أما من نواح أخرى، فإنه استطاع بهذه الغزوات فرض الأمن وبسط السلام، وإطفاء نار الفتنة، وكسر شوكة الأعداء في صراع الإسلام والوثنية، وإلجائهم إلى المصالحة، وتخليه السبيل لنشر الدعوة، كما استطاع أن يتعرف على المخلصين من أصحابه ممن هو يطن النفاق، ويضمّر نوازع الغدر والخيانة .

وقد أنشأ طائفة كبيرة من القواد، الذين لاقوا بعده الفرس والرومان في ميادين العراق والشام، ففاقوهم في تخطيط الحروب وإدارة دفعة القتال، حتى استطاعوا إجلأهم من أرضهم وديارهم وأموالهم من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين .

كما استطاع رسول الله ﷺ بفضل هذه الغزوات أن يوفر السكنى والأرض والحرف والمشغل للمسلمين، حتى تَقْصَى (١) من كثير من مشاكل اللاجئين الذين لم يكن لهم مال ولا دار، وهياً السلاح والكرَاع (٢) والعدة والنفقات، حصل على كل ذلك من غير أن يقوم بمثقال ذرة من الظلم والطغيان والبغى والعدوان على عباد الله .

(١) تخلص .

(٢) الخيل .

وقد غير أغراض الحروب وأهدافها التي كانت تضطرم نار الحرب لأجلها في الجاهلية ، فبينما كانت الحرب عبارة عن النهب والسلب والقتل والإغارة والظلم والبغى والعدوان ، وأخذ الثأر ، والفوز بالوتر ، وكبت الضعيف ، وتخريب العمران ، وتدمير البنيان ، وهتك حرمت النساء ، والقسوة بالضعاف والولائد والصبيان ، وإهلاك الحرث والنسل ، والعبث والفساد في الأرض - في الجاهلية - إذ صارت هذه الحرب - في الإسلام - جهاداً في تحقيق أهداف نبيلة ، وأغراض سامية ، وغايات محمودة ، يعتز بها المجتمع الإنساني في كل زمان ومكان ، فقد صارت الحرب جهاداً في تخليص الإنسان من نظام القهر والعدوان ، إلى نظام العدالة والتصف ، من نظام يأكل فيه القوى الضعيف ، إلى نظام يصير فيه القوى ضعيفاً حتى يؤخذ منه ، وصارت جهاداً في تخليص ﴿ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴾ [النساء ٧٥] . وصارت جهاداً في تطهير أرض الله من الغدر والخيانة والإثم والعدوان ، إلى بسط الأمن والسلامة والرفقة والرحمة ومراعاة الحقوق والمروءة .

كما شرع للحروب قواعد شريفة ألزم التقيد بها على جنوده وقوادها ، ولم يسمح لهم الخروج عنها بحال . روى سليمان بن بريدة عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله عز وجل ، ومن معه من المسلمين خيراً ، ثم قال : « اغزوا بسم الله ، في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ، فلا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليداً ... » الحديث . وكان يأمر بالتيشير ويقول : « يسروا ولا تعسروا ، وسكنوا ولا تنفروا » (١) .

وكان إذا جاء قوماً بليل لم يُغر عليهم حتى يُصبح ، ونهى أشد النهي عن التحريق في النار ، ونهى عن قتل الصبر ، وقتل النساء وضربهن ، ونهى عن النهب حتى قال : « إن النهي ليست بأحل من الميتة » ، ونهى عن إهلاك الحرث والنسل وقطع الأشجار إلا إذا اشتدت إليها الحاجة ، ولا يبقى سواه سبيل . وقال عند فتح مكة : « لا تجهزن على جريح ، ولا تتبعن مدبراً ، ولا تقتلن أسيراً » ، وأمضى السنة بأن السفير لا يقتل ، وشدد في النهي عن قتل المعاهدين حتى قال : « من قتل معاهداً لم يُرح رائحة الجنة ، وإن ريحها لتوجد من مسيرة أربعين عاماً » ، إلى غير ذلك من القواعد النبيلة التي طهرت الحروب من أدران الجاهلية حتى جعلتها جهاداً مقدساً (٢) .

(١) صحيح مسلم ٢ / ٨٢ ، ٨٣ ، والمعجم الصغير للطبراني ١ / ١٢٣ ، ١٨٧ .

(٢) انظر ذلك مفصلاً في : زاد المعاد ٢ / ٦٤ - ٦٨ .

الناس يدخلون في دين الله أفواجا

كانت غزوة فتح مكة - كما قلنا - معركة فاصلة ، قضت على الوثنية قضاء باتاً ، عرفت العرب لأجلها الحق من الباطل ، وزالت عنهم الشبهات ، فتسارعوا إلى اعتناق الإسلام . قال عمرو بن سلمة : كنا بماء عمر الناس ، وكان يمر بنا الركبان ففسألهم : مال الناس ؟ ما للناس ؟ ما هذا الرجل ؟ - أى النبي ﷺ - فيقولون : يزعم أن الله أرسله ، أوحى إليه ، أوحى الله كذا ، فكنت أحفظ ذاك الكلام ، فكأنما يقر في صدري ، وكانت العرب تلوم بإسلامهم الفتح ، فيقولون : اتركوه وقومه ، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق . فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كل قوم بإسلامهم ، وبدر أبى قومي بإسلامهم ، فلما قدم قال : جئتكم والله من عند النبي ﷺ حقاً . فقال : صلوا صلاة كذا في حين كذا ، وصلاة كذا في حين كذا ، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن أحدكم ، وليؤمكم أكثركم قرآناً... الحديث (١).

وهذا الحديث يدل مدى أثر فتح مكة في تطوير الظروف ، وتعزيز الإسلام ، وتعيين الموقف للعرب ، واستسلامهم للإسلام ، وتأكيد ذلك أى تأكد بعد غزوة تبوك ، ولذلك نرى الوفود تقصد المدينة تترى في هذين العامين - التاسع والعاشر - ونرى الناس يدخلون في دين الله أفواجا ، حتى إن الجيش الإسلامي الذي كان قوامه عشرة آلاف مقاتل في غزوة الفتح ، إذا هو يزخر في ثلاثين ألف مقاتل في غزوة تبوك قبل أن يمضي على فتح مكة عام كامل ، ثم نرى في حجة الوداع بحراً من رجال الإسلام - مائة ألف من الناس أو مائة ألف وأربعة وأربعون ألفاً منهم - يوج حول رسول الله ﷺ بالتلبية والتكبير والتسبيح والتحميد ، تدوى له الآفاق ، وترتج له الأرجاء .

الوفود

والوفود التي سردها أهل المغازي يزيد عددها على سبعين وفداً ، ولا يمكن لنا استقصاءها ، وليس كبير فائدة في بسط تفاصيلها ، وإنما نذكر منها إجمالاً ماله روعة أو أهمية في التاريخ ، وليكن على ذكر من القارئ أن وفادة عامة القبائل وإن كانت بعد الفتح ، ولكن هناك قبائل توافدت قبله أيضاً :

١ - وفد عبد القيس :

كانت لهذه القبيلة وفادتان : الأولى سنة خمس من الهجرة أو قبل ذلك . كان رجل منهم يقال له مُقَدُّ بن حيان ، يردُّ المدينة بالتجارة ، فلما جاء المدينة بتجارته بعد مقدم النبي ﷺ وعلم الإسلام أسلم ، وذهب بكتاب من النبي ﷺ إلى قومه فأسلموا ، فتوافدوا إليه في شهر حرام في ثلاثة أو أربعة عشر رجلاً ، وفيها سألوا عن الإيمان وعن الأشربة ، وكان كبيرهم الأشجع العصري الذي قال فيه رسول الله ﷺ : « إن فيك خصلتين يحبهما الله :

الحلم والأناة .

والوفادة الثانية كانت فى سنة الوفود ، وكان عددهم فيها أربعين رجلاً ، وكان فيهم الجارود بن العلاء العبدى ، وكان نصرانياً فأسلم وحسن إسلامه (١) .

٢ - وفد دوس :

كانت وفادة هذه القبيلة فى أوائل سنة سبع ، ورسول الله ﷺ بخير ، وقد قدما حديث إسلام الطفيل بن عمرو الدوسى ، وأنه أسلم ورسول الله ﷺ بمكة ، ثم رجع إلى قومه ، فلم يزل يدعوهم إلى الإسلام ، ويحثون عليه حتى يش منهم ، ورجع إلى رسول الله ﷺ ، فطلب منه أن يدعو على دوس ، فقال : « اللهم اهد دوساً » . ثم أسلم هؤلاء ، فوفد الطفيل بسبعين أو ثمانين بيتاً من قومه إلى المدينة فى أوائل سنة سبع ، ورسول الله ﷺ بخير ، فلقى به .

٣ - رسول فروة بن عمرو الجذامى :

كان فروة قائداً عربياً من قواد الرومان ، عاملاً لهم على من يليهم من العرب ، وكان منزله معان وما حوله من أرض الشام ، أسلم بعد ما رأى من جلال المسلمين وشجاعتهم ، وصدقهم اللقاء فى معركة مؤتة سنة ٨ هـ ، ولما أسلم بعث إلى رسول الله ﷺ رسولاً بإسلامه ، وأهدى له بغلة بيضاء ، ولما علم الروم بإسلامه أخذوه فحبسوه ، ثم خيروهم بين الردة والموت ، فاختار الموت على الردة ، فصلبوه بفلسطين على ماء يقال له : عفراء ، وضربوا عنقه (٢) .

٤ - وفد صداء :

جاء هذا الوفد عقب انصراف رسول الله ﷺ من الجعرانة سنة ٨ هـ ، وذلك أن رسول الله ﷺ هباً بعثاً من أربعمائة من المسلمين ، وأمرهم أن يطأوا ناحية من اليمن فيها صداء ، وبينما ذلك البعث معسكر بصدرة قناة علم به زياد بن الحارث الصدائى ، فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال : جئتكم وافداً على من ورائى ، فاردد الجيش وأنا لك بقومى ، فرد الجيش من صدر قناة ، وجاء الصدائى إلى قومه فرغبهم فى القدوم على رسول الله ﷺ ، فقدم عليه خمسة عشر رجلاً منهم ، وبايعوه على الإسلام ، ثم رجعوا إلى قومهم ، فدعواهم ففشا فيهم الإسلام ، فوافى رسول الله ﷺ منهم مائة رجل فى حجة الوداع .

٥ - قدوم كعب بن زهير بن أبى سلمى :

كان من بيت الشعراء ، ومن أشعر العرب ، وكان يهجو النبى ﷺ ، فلما انصرف رسول الله ﷺ من غزوة الطائف سنة ٨ هـ ، كتب إلى كعب بن زهير أخوه بجير بن زهير أن رسول الله ﷺ قتل رجلاً بمكة ممن كانوا يهجونه ويؤذونه ، ومن بقى من شعراء قريش هربوا فى كل وجه ، فإن كانت لك فى نفسك حاجة فطر إلى رسول الله ﷺ ، فإنه لا يقتل أحداً .

(١) شرح صحيح مسلم للنووى ١ / ٣٣ ، وفتح البارى ٨ / ٨٥ ، ٨٦ .

(٢) زاد المعاد ٣ / ٤٥ .

جاء تائباً ، وإلا فانج إلى نجاتك ، ثم جرى بين الأخوين مراسلات ضاقت لأجلها الأرض على كعب ، وأشفق على نفسه ، فجاء المدينة ، ونزل على رجل من جُهيَّنة ، وصلى معه الصبح ، فلما انصرف أشار عليه الجهني ، فقام إلى رسول الله ﷺ حتى جلس إليه ، فوضع يده في يده ، وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه فقال : يا رسول الله ، إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائباً مسلماً ، فهل أنت قابل منه إن أنا جئت بك به؟ قال : « نعم » . قال : أنا كعب بن زهير ، فوثب عليه رجل من الأنصار يستأذن ضرب عنقه ، فقال : « دعه عنك ، فإنه قد جاء تائباً نازعاً عما كان عليه » .

وحينئذ أنشد كعب قصيدته المشهورة التي أولها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها ، لم يُفد ، مكبول

قال فيها - وهو يعتذر إلى رسول الله ﷺ ، ويمدحه :

نُبئتُ أن رسول الله أوعدني	والعفو عند رسول الله مأمول
مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة الـ	قرآن فيها مواعيط وتفصيل
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم	أذنب ، ولو كثرت في الأقاويل
لقد أقوم مقاماً لو يقوم به	أرى وأسمع ما لو يسمع الفيل
لظَلَّ يُرعد ، إلا أن يكون له	من الرسول بإذن الله تنويل
حتى وضعت يميني ما أنارعه	في كف ذي نقمات قيله القيل
فلهو أخوفُ عندي إذ أكلمه	وقيل : إنك منسوب ومستول
من ضيغم بضراء الأرض مخدرة	في بطنٍ عثر غيلٌ دونه غيل ^(١)
إن الرسول لنور يستضاء به	مهتد من سيوف الله مسلول

ثم مدح المهاجرين من قريش ؛ لأنهم لم يكن تكلم منهم رجل في كعب حين جاء إلا بخير ، وعرض في أثناء مدحهم على الأنصار لاستئذان رجل منهم في ضرب عنقه ، قال :

يمشون مشى الجمال الزهر يعصمهم ضرب إذا عرد السود التنايل^(٢)

فلما أسلم وحسن إسلامه مدح الأنصار في قصيدة له ، وتدارك ما كان قد فرط منه في شأنهم ، قال في تلك القصيدة :

من سره كرم الحياة فلا يزَلْ في مقنب^(٣) من صالحى الأنصار

ورثوا المكارم كابراً عن كابر إن الخيار هم بنو الأخيار

٦ - وفد عُدرة :

قدم هذا الوفد في صفر سنة ٩ هـ ، وهم اثنا عشر رجلاً فيهم حمزة بن النعمان ، قال متكلمهم حين سئلوا « من القوم ؟ » : نحن بنو عُدرة ، إخوة قصي لأمه ، نحن الذين

(١) ضراء الأرض : ما وارك من الشجر ، وعثر : موضع تنسب إليه الأسود ، والغيل : الغابة .

(٢) عرد : نكب عن قرنه ، والتنايل : القصار . (٣) جماعة .

عضدوا قصباً ، وأزاحوا من بطن مكة خزاعة وبنى بكر ، لنا قرابات وأرحام ، فرحب بهم النبي ﷺ ، وبشرهم بفتح الشام ، ونهاهم عن سؤال الكاهنة ، وعن الذبائح التي كانوا يذبحونها . أسلموا وأقاموا أياماً ثم رجعوا .

٧ - وفد بلي :

قدم في ربيع الأول سنة ٩ هـ ، وأسلم وأقام بالمدينة ثلاثاً ، وقد سأل رئيسهم أبو الضبيب عن الضيافة هل فيها أجر ؟ فقال رسول الله ﷺ : « نعم ، وكل معروف صنعته إلى غنى أو فقير فهو صدقة » ، وسأل عن وقت الضيافة ، فقال : « ثلاثة أيام » ، وسأل عن ضالة الغنم ، فقال : « هي لك أو لأخيك أو للذنب » ، وسأل عن ضالة البعير . فقال : « مالك وله ؟ دعه حتى يجده صاحبه » .

٨ - وفد ثقيف :

كانت وفادتهم في رمضان سنة ٩ هـ ، وقصة إسلامهم أن رئيسهم عروة بن مسعود الثقفي جاء إلى رسول الله ﷺ بعد مرجعه من غزوة الطائف في ذى القعدة سنة ٨ هـ قبل أن يصل إلى المدينة ، فأسلم عروة ، ورجع إلى قومه ، ودعاهم إلى الإسلام - وهو يظن أنهم يطيعونه ؛ لأنه كان سيداً مطاعاً في قومه ، وكان أحب إليهم من أبكارهم - فلما دعاهم إلى الإسلام رموه بالنبل من كل وجه حتى قتلوه ، ثم أقاموا بعد قتله أشهراً ، ثم اتهموا بينهم ، ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب - الذين كانوا قد بايعوا وأسلموا - فأجمعوا أن يرسلوا رجلاً إلى رسول الله ﷺ ، فكلّموا عبد ياليل بن عمرو ، وعرضوا عليه ذلك فأبى ، وخاف أن يصنعوا به إذا رجع مثل ما صنعوا بعروة . وقال : لست فاعلاً حتى ترسلوا معي رجالاً ، فبعثوا معه رجلين من الأحلاف وثلاثة من بني مالك ، فصاروا ستة فيهم عثمان بن أبي العاص الثقفي ، وكان أحدثهم سناً .

فلما قدموا على رسول الله ﷺ ضرب عليهم قبة في ناحية المسجد ، لكي يسمعو القرآن ، ويروا الناس إذا صلوا ، ومكثوا يختلفون إلى رسول الله ﷺ ، وهو يدعوهم إلى الإسلام ، حتى سأل رئيسهم أن يكتب لهم رسول الله ﷺ قضية صلح بينه وبين ثقيف ، يأذن لهم فيه بالزنا وشرب الخمر وأكل الربا ، ويترك لهم طاعتهم اللات ، وأن يعفيهم من الصلاة ، وألا يكسروا أصنامهم بأيديهم ، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبل شيئاً من ذلك ، فخلوا وتشاوروا فلم يجدوا محيصاً عن الاستسلام لرسول الله ﷺ ، فاستسلموا وأسلموا ، واشترطوا أن يتولى رسول الله ﷺ هدم اللات ، وأن ثقيفاً لا يهدمونها بأيديهم أبداً . فقبل ذلك ، وكتب لهم كتاباً ، وأمر عليهم عثمان بن أبي العاص الثقفي ؛ لأنه كان أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم الدين والقرآن . وذلك أن الوفد كانوا كل يوم يغدون إلى رسول الله ﷺ ، ويخلفون عثمان بن أبي العاص في رحالهم ، فإذا رجعوا وقالوا بالهاجرة عمد عثمان بن أبي العاص إلى رسول الله ﷺ فاستقرأه القرآن ، وسأله عن الدين ، وإذا وجده نائماً عمد إلى أبي بكر لنفس الغرض (وكان من أعظم الناس بركة لقومه في زمن الردة ، فإن ثقيفاً لما عزمت على الردة قال لهم : يا معشر ثقيف ، كنتم آخر

الناس إسلاماً ، فلا تكونوا أول الناس ردة ، فامتنعوا عن الردة ، وثبتوا على الإسلام) .

ورجع الوفد إلى قومه فكتهم الحقيقة ، وخوفهم بالحرب والقتال ، وأظهر الحزن والكآبة ، وأن رسول الله ﷺ سألهم الإسلام وترك الزنا والخمر والربا وغيرها وإلا يقاتلهم . فأخذت ثقيفاً نخوة الجاهلية ، فمكتوا يومين أو ثلاثة يريدون القتال ، ثم ألقى الله في قلوبهم الرعب ، وقالوا للوفد : ارجعوا إليه فأعطوه ما سأل . وحينئذ أبدى الوفد حقيقة الأمر ، وأظهروا ما صالحوا عليه ، فأسلمت ثقيف .

وبعث رسول الله ﷺ رجلاً لهدم اللات ، أمر عليهم خالد بن الوليد ، فقام المغيرة بن شعبة ، فأخذ الكرزين وقال لأصحابه : والله لأضحكنكم من ثقيف ، فضرب بالكرزين ، ثم سقط يركض ، فارتج أهل الطائف ، وقالوا : أبعد الله المغيرة ، قتله الربة ، فوثب المغيرة فقال : قبحكم الله ، إنما هي لكأع حجارة ومدر ، ثم ضرب الباب فكسره ، ثم علا أعلى سورها ، وعلا الرجال فهدموها وسووها بالأرض حتى حفروا أساسها ، وأخرجوا حليها ولباسها ، فبهتت ثقيف ، ورجع خالد مع مفرزته إلى رسول الله ﷺ بحليها وكسوتها ، فقسمها رسول الله ﷺ من يومه ، وحمد الله على نصره نبيه وإعزاز دينه (١) .

٩ - رسالة ملوك اليمن :

وبعد مرجع النبي ﷺ من تبوك قدم كتاب ملوك حمير ، وهم الحارث بن عبد كلال ، ونعيم بن عبد كلال ، والنعمان ، وقيل ذى رعين وهمدان ومُعَافِر ، ورسولهم إليه ﷺ مالك بن مرة الرهاوي ، بعثوه بإسلامهم ومفارقتهم الشرك وأهله ، وكتب إليهم رسول الله ﷺ كتاباً بين فيه ما للمؤمنين وما عليهم ، وأعطى فيه المعاهدين ذمة الله وذمة رسوله إذا أعطوا ما عليهم من الجزية وبعث إليهم رجلاً من أصحابه أميرهم معاذ بن جبل ، وجعله على الكورة العليا من جهة عدن بين السكون والسكاسك ، وكان قاضياً وحاكماً في الحروب ، وعاملاً على أخذ الصدقة والجزية ، ويصلي بهم الصلوات الخمس ، وبعث أبا موسى الأشعري رضي الله عنه على الكورة السفلى : زبيد ومأرب وزمَّع والساحل ، وقال : « يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا ، وتطاوعا ولا تختلفا » . وقد مكث معاذ باليمن حتى توفي رسول الله ﷺ . أما أبو موسى الأشعري رضي الله عنه فقدم عليه ﷺ في حجة الوداع .

١٠ - وفد همدان :

قدموا سنة ٩ هـ بعد مرجعه ﷺ من تبوك ، فكتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً أقطعهم فيه ما سألوه ، وأمر عليهم مالك بن النَّمْطَ ، واستعمله على من أسلم من قومه ، وبعث إلى سائرهم خالد بن الوليد يدعوهم إلى الإسلام ، فأقام ستة أشهر يدعوهم فلم يجيبوه ، ثم بعث على بن أبي طالب ، وأمره أن يَقْلَ (٢) خالداً ، فجاء على إلى همدان ، وقرأ عليهم كتاباً من رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام فأسلموا جميعاً ، وكتب على بشارة

(١) زاد المعاد ٣ / ٢٦ - ٢٨ ، وابن هشام ٢ / ٥٣٧ - ٥٤٢ . والكرزين : القلعة .

(٢) يتبع .

إسلامهم إلى رسول ﷺ، فلما قرأ الكتاب خر ساجداً، ثم رفع رأسه فقال: « السلام على همدان، السلام على همدان ».

١١ - وفد بنى فزارة :

قدم هذا الوفد سنة ٩هـ بعد مرجعه ﷺ من تبوك، قدم فى بضعة عشر رجلاً جاءوا مقرين بالإسلام، وشكوا جذب بلادهم، فصعد رسول الله ﷺ المنبر، فرفع يديه واستسقى، وقال: « اللهم اسق بلادك وبهائمك، وانشر رحمتك، وأخى بلدك الميت، اللهم اسقنا غيثاً مُغيثاً، مريئاً مريعاً، طَبَقاً واسعاً، عاجلاً غير آجل، نافعاً غير ضار، اللهم سقيا رحمة، لا سقيا عذاب، ولا هدم ولا غرق ولا محق، اللهم اسقنا الغيث، وانصرنا على الأعداء » (١).

١٢ - وفد نجران :

(نجران ، بفتح النون وسكون الجيم : بلد كبير على سبع مراحل من مكة إلى جهة اليمن ، كان يشتمل على ثلاث وسبعين قرية ، مسيرة يوم للراكب السريع (٢)، وكان يؤلف مائة ألف مقاتل كانوا يدينون بالنصرانية).

وكانت وفادة أهل نجران سنة ٩هـ، وقوام الوفد ستون رجلاً منهم أربعة وعشرون من الأشراف، فيهم ثلاثة كانت إليهم زعامة أهل نجران. أحدهم: العاقب، كانت إليه الإمارة والحكومة، واسمه عبد المسيح. والثاني: السيد، كانت تحت إشرافه الأمور الثقافية والسياسية، واسمه الأيهم أو شرجيل. والثالث: الأسقف، وكانت إليه الزعامة الدينية، والقيادة الروحانية، واسمه أبو حارثة بن علقمة.

ولما نزل الوفد بالمدينة، ولقى النبی ﷺ سألهم وسألوه، ثم دعاهم إلى الإسلام، وتلا عليهم القرآن فامتنعوا، وسألوه عما يقول فى عيسى ﷺ، فمكث رسول الله ﷺ يومه ذلك حتى نزل عليه: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٥٩) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١) ﴾ [آل عمران] .

ولما أصبح رسول الله ﷺ أخبرهم بقوله فى عيسى ابن مريم فى ضوء هذه الآية الكريمة، وتركهم ذلك اليوم؛ ليفكروا فى أمرهم، فأبوا أن يقولوا بما قال فى عيسى. فلما أصبحوا وقد أبوا عن قبول ما عرض عليهم من قوله فى عيسى، وأبوا عن الإسلام دعاهم رسول الله ﷺ إلى المباهلة، وأقبل مشتملاً على الحسن والحسين فى خميل له، وفاطمة تمشى عند ظهره، فلما رأوا منه الجد والتهيؤ خلوا وتشاوروا، فقال كل من العاقب والسيد للآخر: لا تفعل، فو الله لئن كان نبياً فلاعتنا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا، فلا يبقى على وجه الأرض منا شعرة ولا ظفر إلا هلك، ثم اجتمع رأيهم على تحكيم رسول الله ﷺ فى أمرهم، فجاءوا وقالوا: إنا نعطيك ما سألنا. فقبل رسول الله ﷺ منهم الجزية، وصالحهم على ألفى حلة: ألف فى رجب، وألف فى صفر، ومع كل حلة

أوقية ، وأعطاهم ذمة الله وذمة رسوله . وترك لهم الحرية الكاملة في دينهم ، وكتب لهم بذلك كتاباً ، وطلبوا منه أن يعث عليهم رجلاً أميناً ، فبعث عليهم أمين هذه الأمة أبا عبيدة ابن الجراح ؛ ليقبض مال الصلح .

ثم طفق الإسلام يفشو فيهم ، فقد ذكروا أن السيد والعاقب أسلما بعد ما رجعا إلى نجران ، وأن النبي ﷺ بعث إليهم علياً ؛ ليأتيه بصدقاتهم وجزيتهم ، ومعلوم أن الصدقة إنما تؤخذ من المسلمين (١) .

١٣ - وفد بنى حنيفة :

كانت وفادتهم سنة ٩ هـ ، وكانوا سبعة عشر رجلاً فيهم مُسَيْلِمَةُ الكذاب (٢) - وهو مُسَيْلِمَةُ بن ثُمَامَةَ بن كَبِير بن حَبِيب بن الحارث من بنى حنيفة - نزل هذا الوفد في بيت رجل من الأنصار، ثم جاءوا إلى النبي ﷺ فأسلموا، واختلفت الروايات في مسيلمة الكذاب، ويظهر بعد النظر في جميعها أن مسيلمة صدر منه الاستكفاف والأنفة والاستكبار والطموح إلى الإمارة ، وأنه لم يحضر مع سائر الوفد إلى رسول الله ﷺ ، وأن النبي ﷺ أراد استتلافه بالإحسان بالقول والفعل أولاً ، فلما رأى أن ذلك لا يجدى فيه نفعا تفرس فيه الشر .

وكان النبي ﷺ قد أرى قبل ذلك في المنام أنه أتى بخزائن الأرض ، فوقع في يديه سواران من ذهب ، فكبرا عليه وأهماه ، فأوحى إليه أن انفخهما فنفخهما فذهبا ، فأولهما كذابين يخرجان من بعده ، فلما صدر من مسيلمة ما صدر من الاستكفاف - وقد كان يقول : إن جعل لى محمد الأمر من بعده تبعته - جاءه رسول الله ﷺ وفي يده قطعة من جريد ، ومعه خطيبه ثابت بن قيس بن شماس، حتى وقف على مسيلمة في أصحابه ، فكلمه ، فقال له مسيلمة : إن شئت خيلنا بينك وبين الأمر ، ثم جعلته لنا بعدك ، فقال : « لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها ، ولن تعدو أمر الله فيك ، ولئن أدبرت لعقرنك الله ، والله إنى لأراك الذى أريت فيه ما رأيت ، وهذا ثابت يجيبك عنى » ، ثم انصرف (٣) .

وأخيراً وقع ما تفرس فيه النبي ﷺ ، فإن مسيلمة لما رجع إلى اليمامة بقى يفكر فى أمره ، حتى ادعى أنه أشرك فى الأمر مع النبي ﷺ ، فادعى النبوة ، وجعل يسجع السجعات ، أحل لقومه الخمر والزنا ، وهو مع ذلك يشهد لرسول الله ﷺ أنه نبي ، وافتتن به قومه فتبعوه وأصفقوا معه ، حتى تفاقم أمره ، فكان يقال له : رحمان اليمامة لعظم قدره فيهم ، وكتب إلى رسول الله ﷺ كتاباً قال فيه : إنى أشركت فى الأمر معك ، وإن لنا نصف الأمر ، ولقریش نصف الأمر ، فرد عليه رسول الله ﷺ بكتاب قال فيه : « إن الأرض

(١) فتح البارى ٨ / ٩٤ - ٩٥ ، وزاد المعاد ٣ / ٣٨ - ٤١ وقد اضطربت الروايات فى بيان كيفية وفد نجران ، حتى جنح بعض المحققين إلى أن وفادة أهل نجران كانت مرتين ، وقد ذكرنا - ملخصاً - ما ترجع عندنا فى هذا الوفد .

(٢) فتح البارى ٨ / ٨٧ .

(٣) انظر : صحيح البخارى : باب وفد بنى حنيفة ، وباب قصة الأسود العنسى ٢ / ٦٢٧ ، ٦٢٨ ، وفتح البارى ٨ / ٨٧ - ٩٣ .

لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين » (١) .

وعن ابن مسعود : جاء ابن النُّوحَةِ ، وابن أُنَّال رسولا مسيلمَة إلى النبي ﷺ ، فقال لهما : « أتشهدان أني رسول الله ؟ » فقالا : نشهد أن مسيلمَة رسول الله . فقال النبي ﷺ : « أمنت بالله ورسوله ، لو كنت قاتلاً رسولاً لقتلتكما » (٢) .

كان ادعاء مسيلمَة النبوة سنة عشر ، وقتل في حرب اليمامة في عهد أبي بكر الصديق ﷺ في ربيع الأول سنة ١٢ هـ ، قتله وَحْشِي قاتل حمزة . وأما المتنبئ الثاني ، وهو الأسود العنسي الذي كان باليمن ، فقتله فَيْرُوز ، واحتز رأسه قبل وفاة النبي ﷺ بيوم وليلة ، فاتاه الوحي فأخبر به أصحابه ، ثم جاء الخبر من اليمن إلى أبي بكر ﷺ (٣) .

١٤- وفد بني عامر بن صعصعة :

كان فيهم عامر بن الطُّفَيْل عدو الله وأرْبِد بن قيس - أخو لَيْدٍ لأمه - وخالد بن جعفر ، وجَبَّار بن أسلم ، وكانوا رؤساء القوم وشياطينهم ، وكان عامر هو الذي غدر بأصحاب بئر معونة ، فلما أراد هذا الوفد أن يقدم المدينة تأمر عامر وأرْبِد ، واتفقا على الفتك بالنبي ﷺ ، فلما جاء الوفد جعل عامر يكلم النبي ﷺ ، ودار أرْبِد خلفه ، واختلط سيفه شبراً ، ثم حبس الله يده فلم يقدر على سله ، وعصم الله نبيه ، ودعا عليهما النبي ﷺ ، فلما رجعا أرسل الله على أرْبِد وجمله صاعقة فأحرقتة ، وأما عامر فنزل على امرأة سَلُولِيَّة ، فأصيب بغدَّة في عنقه فمات وهو يقول : أغدة كغدة البعير ، وموتا في بيت السلولة .

وفي صحيح البخاري : أن عامراً أتى النبي ﷺ فقال : أُخِيرَكَ بين خصال ثلاث : يكون لك أهل السهل ولي أهل المدر ، أو أكون خليفتك من بعدك ، أو أغزوك بغطفان بألف أشقر وألف شقراء ، فظعن في بيت امرأة ، فقال : أغدة كغدة البعير ، في بيت امرأة من بني فلان ! ابتونى بفرسى ، فركب ، فمات على فرسه .

١٥- وفد تجيب :

قدم هذا الوفد بصدقات قومه مما فضل عن فقرائهم ، وكان الوفد ثلاثة عشر رجلاً ، وكانوا يسألون عن القرآن والسنن يتعلمونها ، وسألوا رسول الله ﷺ أشياء فكتب لهم بها ، ولم يطيلوا اللبث ، ولما أجازهم رسول الله ﷺ بعثوا إليه غلاماً كانوا خلفوه في رحالهم ، فجاء الغلام ، وقال : والله ما أعمَلَنِي (٤) من بلادي إلا أن تسأل الله عز وجل أن يغفر لي ويرحمني ، وأن يجعل غناي في قلبي ، فدعا له بذلك . فكان أقنع الناس ، وثبت في البردة على الإسلام ، وذكر قومه ووعظهم فثبتوا عليه ، والتقى أهل الوفد بالنبي ﷺ مرة أخرى في حجة الوداع سنة ١٠ هـ .

(١) زاد المعاد ٣ / ٣١ ، ٣٢ .

(٢) رواه الإمام أحمد ، مشكاة المصابيح ٢ / ٣٤٧ .

(٣) فتح الباري ٨ / ٩٣ .

(٤) ما أحضرني .

١٦- وفد طيئ:

قدم هذا الوفد وفيهم زيد الخيل ، فلما كلموا النبي ﷺ ، وعرض عليهم الإسلام أسلموا وحسن إسلامهم ، وقال رسول الله ﷺ عن زيد : « ما ذكر لي رجل من العرب بفضل ، ثم جاءني إلا رأيته دون ما يقال فيه ، إلا زيد الخيل ، فإنه لم يبلغ كل ما فيه » ، وسماه زيد الخير .

وهكذا تابعت الوفود إلى المدينة في سبتي تسع وعشر ، وقد ذكر أهل المغازي والسير منها وفود أهل اليمن ، والأزد وبنو سعد هذيم من قضاعة ، وبنو عامر بن قيس ، وبنو أسد ، وبهراء وخولان ومُحارب وبنو الحارث بن كعب وغامد وبنو المُتَنَّق ، وسلامان ، وبنو عَبَس ، ومُزينة ، ومُمراد ، وزُبَيْد ، وكندة ، وذى مُرة ، وعَسَّان ، وبنو عيش ، ونَخَع - وهو آخر الوفود ، توافد في منتصف محرم سنة ١١ هـ في مائتي رجل - وكانت وفادة الأغلبية من هذه الوفود سنة ٩ و ١٠ هـ ، وقد تأخرت وفادة بعضها إلى سنة ١١ هـ .

وتتابع هذه الوفود يدل على مدى ما نالت الدعوة الإسلامية من القبول التام ، وبسط السيطرة والنفوذ على أنحاء جزيرة العرب وأرجائها ، وأن العرب كانت تنظر إلى المدينة بنظر التقدير والإجلال ، حتى لم تكن ترى محيصاً عن الاستسلام أمامها ، فقد صارت المدينة عاصمة لجزيرة العرب ، لا يمكن صرف النظر عنها ، إلا أننا لا يمكن لنا القول بأن الدين قد تمكن من أنفس هؤلاء بأسرهم ؛ لأنه كان وسطهم كثير من الأعراب الجفاة الذين أسلموا تبعاً لسادتهم ، ولم تكن أنفسهم قد خلصت بعد عما تأصل فيها من الميل إلى الغارات ، ولم تكن تعاليم الإسلام قد هذبت أنفسهم تمام التهذيب .

وقد وصف القرآن بعضهم بقوله في سورة التوبة : ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٩٧) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يَنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٩٨) [التوبة] .

وأثنى على آخرين منهم فقال : ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يَنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سِidْخَلَهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٩٩) [التوبة]

أما الحاضرون منهم في مكة والمدينة وثقيف ، وكثير من اليمن والبحرين ، فقد كان الإسلام فيهم قوياً ، ومنهم كبار الصحابة وسادات المسلمين (١) .

(١) كلمة للخضري في محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ١ / ١٤٤ .

وانظر في تفاصيل الوفود التي ذكرناها أو أشرنا إليها : صحيح البخاري ١ / ١٣ ، ٢ / ٦٢٦ - ٦٣٠ ، وابن هشام ٢ / ٥٠١ - ٥٠٣ ، ٥١٠ - ٥١٤ ، ٥٣٧ - ٥٤٢ ، ٥٦٠ - ٦٠١ ، وزاد المعاد ٣ / ٢٦ - ٦٠ ، وفتح الباري ٨ / ٨٣ - ١٠٣ .

نجاح الدعوة وأثرها

وقبل أن نتقدم خطوة أخرى إلى مطالعة أواخر أيام حياة الرسول ﷺ، ينبغي لنا أن نلقى نظرة إجمالية على العمل الجلل الذي هو فذلكة حياته ، والذي امتاز به عن سائر الأنبياء والمرسلين ، حتى توج الله هامته بسيادة الأولين والآخرين .

إنه ﷺ قبل له : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزْمِلُ ① قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ② ﴾ [الزمل] .
و﴿ يَا أَيُّهَا الْمَدْيَنِيُّ ① قُمْ فَأَنْذِرْ ② ﴾ [المدثر] الآيات ، فقام وظل قائماً أكثر من عشرين عاماً يحمل على عاتقه عبء الأمانة الكبرى في هذه الأرض ، عبء البشرية كلها وعبء العقيدة كلها، وعبء الكفاح والجهاد في ميادين شتى .

حمل عبء الكفاح والجهاد في ميادين الضمير البشري الغارق في أوهام الجاهلية وتصوراتها، المثقل بأنقال الأرض وجواذبها، المكبل بأوهاق الشهوات وأغلالها. حتى إذا خلص هذا الضمير في بعض صحابته مما يثقله من ركام الجاهلية والحياة الأرضية، بدأ معركة أخرى في ميدان آخر ، بل معارك متلاحقة . . . مع أعداء دعوة الله المتألبين عليها ، وعلى المؤمنين بها ، الحريصين على قتل هذه الغرسة الزكية في منبتها، قبل أن تنمو وتعد جذورها في التربة، وفروعها في الفضاء، وتظلل مساحات أخرى . . . ولم يكد يفرغ من معارك الجزيرة العربية حتى كانت الروم تعد لهذه الأمة الجديدة، وتتهيأ للبطش بها على تخومها الشمالية .

وفي أثناء هذا كله لم تكن المعركة الأولى - معركة الضمير - قد انتهت ، فهي معركة خالدة ، الشيطان صاحبها ، وهو لا يئى لحظة عن مزاوله نشاطه في أعماق الضمير الإنساني، ومحمد ﷺ قائم على دعوة الله هناك ، وعلى المعركة الدائبة في ميادينها المتفرقة ، في شظف من العيش ، والدنيا مقبلة عليه وفي جهد وكد ، والمؤمنون يستروحون من حوله ظلال الأمن والراحة ، وفي نَصَب دائم لا ينقطع ، وفي صبر جميل على هذا كله ، وفي قيام الليل ، وفي عبادة لربه وترتيل لقرآنه، وتَبَتُّل إليه كما أمره أن يفعل (١) .

وهكذا عاش في المعركة الدائبة المستمرة أكثر من عشرين عاماً ، لا يلهيه شأن عن شأن في خلال هذا الأمد، حتى نجحت الدعوة الإسلامية على نطاق واسع تنحير له العقول ، فقد دانت لها الجزيرة العربية ، وزالت غبرة الجاهلية عن آفاقها ، وصحت العقول العليلية حتى تركت الأصنام بل كسرت، أخذ الجو يرتج بأصوات التوحيد ، وسمع الأذان للصلوات يشق أجواء الفضاء خلال الصحراء التي أحيها الإيمان الجديد ، وانطلق القراء شمالاً وجنوباً ، يتلون آيات الكتاب ، ويقيمون أحكام الله .

وتوحدت الشعوب والقبائل المتناثرة ، وخرج الإنسان من عبادة العباد إلى عبادة الله، فليس هناك قاهر ومقهور ، وسادات وعبيد ، وحكام ومحكومون ، وظالم ومظلوم، وإنما

(١) كلمة لسيد قطب في ظلال القرآن ٢٩ / ١٦٨ ، ١٦٩ .

الناس كلهم عباد الله، إخوان متحابون، ممثلون لأحكامه، أذهب الله عنهم عيباً (١) الجاهلية ونخوتها وتعظيمها بالآباء، ولم يبق هناك فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى، الناس كلهم بنو آدم، وآدم من تراب.

وهكذا تحققت - بفضل هذه الدعوة - الوحدة العربية، والوحدة الإنسانية، والعدالة الاجتماعية، والسعادة البشرية في قضاياها ومشاكلها الدنيوية، وفي مسائلها الأخروية، فتقلب مجرى الأيام، وتغير وجه الأرض، وانعدل خط التاريخ، تبدلت العقلية.

إن العالم كانت تسيطر عليه روح الجاهلية - قبل هذه الدعوة - ويتعفن ضميره، وتأسن روحه، وتختل فيه القيم والمقاييس، ويسوده الظلم والعبودية، وتجتاحه موجة من الترف الفاجر والحمران التاعس، وتغشاه غاشية الكفر والضلال والظلام، على الرغم من الديانات السماوية، التي كانت قد أدركها التحريف، وسرى فيها الضعف، وفقدت سيطرتها على النفوس، واستحالت طقوساً جامدة، لا حياة فيها ولا روح.

فلما قامت هذه الدعوة بدورها في حياة البشرية، خلصت روح البشر من الوهم والخرافة، ومن العبودية والرق، ومن الفساد والتعفن، ومن القذارة والانحلال، وخلصت المجتمع الإنساني من الظلم والطغيان، ومن التفكك والانهدام، ومن فوارق الطبقات، واستبداد الحكام، واستذلال الكهان، وقامت ببناء العالم على أسس من العفة والنظافة، والإيجابية والبناء، والحرية والتجدد، ومن المعرفة واليقين، والثقة والإيمان، والعدالة والكرامة، ومن العمل الدائب لتنمية الحياة، وترقية الحياة، وإعطاء كل ذي حق حقه في الحياة (٢).

وبفضل هذه التطورات شاهدت الجزيرة العربية نهضة مباركة لم تشاهد مثلها منذ نشأ فوقها العمران، ولم يتألق تاريخها تألقه في هذه الأيام الفريدة من عمرها.

(١) أي الكبير.

(٢) من كلمة سيد قطب في مقدمة: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٤.

حجة الوداع

تمت أعمال الدعوة ، وإبلاغ الرسالة ، وبناء مجتمع جديد على أساس إثبات الألوهية لله ، ونفيها عن غيره ، وعلى أساس رسالة محمد ﷺ ، وكان هاتفاً خفياً انبعث في قلب رسول الله ﷺ ، يشعره أن مقامه في الدنيا قد أوشك على النهاية ، حتى إنه حين بعث معاذاً على اليمن سنة ١٠هـ قال له - فيما قال : «يا معاذ ، إنك عسى ألا تلقاني بعد عامي هذا ، ولعلك أن تمر بمسجدي هذا وقبري» ، فبكى معاذاً خشعاً لفراق رسول الله ﷺ .

وشاء الله أن يرى رسوله ﷺ ثمار دعوته ، التي عانى في سبيلها ألواناً من المتاعب بضعاً وعشرين عاماً ، فيجتمع في أطراف مكة بأفراد قبائل العرب ومثلها ، فيأخذوا منه شرائع الدين وأحكامه ، ويأخذ منهم الشهادة على أنه أدى الأمانة ، وبلغ الرسالة ، ونصح الأمة .

أعلن النبي ﷺ بقصده لهذه الحجة المبرورة المشهودة ، فقدم المدينة بشر كثير كلهم يلتبس أن يأتيهم برسول الله ﷺ (١) . وفي يوم السبت لخمس بقين من ذي القعدة تهيأ النبي ﷺ للرحيل (٢) ، فترجّل وأدهنّ ولبس إزاره ورداءه وقلّد بدنه ، وانطلق بعد الظهر ، حتى بلغ ذا الحليفة قبل أن يصلي العصر ، فصلاها ركعتين ، وبات هناك حتى أصبح . فلما أصبح قال لأصحابه : « أتاني الليلة آت من ربي فقال : صلّ في هذا الوادي المبارك وقل : عمرة في حجة » (٣) .

وقبل أن يصلي الظهر اغتسل لإحرامه ، ثم طيبته عائشة بيدها بذريعة (٤) وطيب فيه مسك ، في بدنه ورأسه ، حتى كان ويصص (٥) الطيب يرى في مفارقة ولحيته ، ثم استدأمه ولم يغسله ، ثم لبس إزاره ورداءه ، ثم صلى الظهر ركعتين ، ثم أهل بالحج والعمرة في مصلاه ، وقرن بينهما ، ثم خرج ، فركب القصواء ، فأهل أيضاً ، ثم أهل لما استقلت به على البئداء .

ثم واصل سيره حتى قرب من مكة ، فبات بذي طوى ، ثم دخل مكة بعد أن صلى الفجر واغتسل من صباح يوم الأحد لأربع ليال خلون من ذي الحجة سنة ١٠هـ - وقد قضى في الطريق ثمانى ليال ، وهي المسافة الوسطى - فلما دخل المسجد الحرام طاف بالبيت ، وسعى بين الصفا والمروة ، ولم يحلّ ؛ لأنه كان قارناً قد ساق معه الهدى ، فنزل بأعلى مكة عند الحجون ، وأقام هناك ، ولم يعد إلى الطواف غير طواف الحج .

وأمر من لم يكن معه هدى من أصحابه أن يجعلوا إحرامهم عمرة ، فيطوفوا بالبيت وبين الصفا والمروة ، ثم يحلوا حلالاً تاماً ، فترددوا ، فقال : « لو استقبلت من أمرى ما

(١) روى ذلك مسلم عن جابر : باب حجة النبي ﷺ ١ / ٣٩٤ .

(٢) انظر لتحقيق ذلك : فتح الباري ٨ / ١٠٤ . (٣) رواه البخاري عن عمر ١ / ٢٠٧ .

(٤) نوع من الطيب . (٥) برّيق .

استدبرت ما أهديت، ولولا أن معى الهدى لأحللت ، فحل من لم يكن معه هدى ، وسمعوا وأطاعوا .

وفى اليوم الثامن من ذى الحجة - وهو يوم التَّروية - توجه إلى منى ، فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر - خمس صلوات - ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس ، فأجاز حتى أتى عرفة ، فوجد القبة قد ضربت له بَنَمرة ، فنزل بها ، حتى إذا زالت الشمس أمر بالقَصْوَاء فرحلت له ، فأتى بطن الوادى ، وقد اجتمع حوله مائة ألف وأربعة وعشرون أو أربعة وأربعون ألفاً من الناس ، فقام فيهم خطيباً ، وألقى هذه الخطبة الجامعة :

« أيها الناس ، اسمعوا قولى ، فإننى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً » (١) .

« إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا . ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع ، ودماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث - وكان مسترضعاً فى بنى سعد فقتلته هذيل - وربا الجاهلية موضوعة ، وأول ربا أضع من ربانا ربا عباس بن عبد المطلب ، فإنه موضوع كله » .

« فاتقوا الله فى النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مُبرح ، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف » .

« وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به ، كتاب الله » (٢) .

« أيها الناس ، إنه لا نبي بعدى ، ولا أمة بعدكم ، ألا فاعبدوا ربكم ، وصلوا خمسكم ، وصوموا شهركم ، وأدوا زكاة أموالكم ، طيبة بها أنفسكم ، ونحجون بيت ربكم ، وأطيعوا أولات أمركم ، تدخلوا جنة ربكم » (٣) .

« وأنتم تسألون عنى ، فما أنتم قائلون ؟ » قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت .

فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء ، وينكتها إلى الناس : « اللهم اشهد » ثلاث مرات (٤) .

وكان الذى يصرخ فى الناس بقول رسول الله ﷺ - وهو بعرفة - ربيعة بن أمية بن خلف (٥) .

وبعد أن فرغ النبي ﷺ من إلقاء الخطبة نزل عليه قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] ، ولما نزلت بكى عمر ، فقال له

(١) ابن هشام ٢ / ٦٠٣ . (٢) صحيح مسلم : باب حجة النبي ﷺ ١ / ٣٩٧ .

(٣) رواه ابن جرير وابن عساکر ، انظر : معادن الأعمال ح (١١٠٨ ، ١١٠٩) .

(٤) مسلم ١ / ٣٩٧ . (٥) ابن هشام ٢ / ٦٠٥ .

النبي ﷺ « ما يبكيك؟ » قال : أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا ، فأما إذا كمل فإنه لم يكمل شيء قط إلا نقص ، فقال : « صدقت » (١).

وبعد الخطبة أذن بلال ثم أقام ، فصلى رسول الله ﷺ بالناس الظهر ، ثم أقام فصلي العصر ، ولم يصل بينهما شيئاً ، ثم ركب حتى أتى الموقف ، فجعل بطن ناquite القصواء إلى الصَّخْرَاتِ (٢) ، وجعل حَبْلَ (٣) المشاة بين يديه ، واستقبل القبلة ، فلم يزل واقفاً حتى غربت الشمس ، وذهبت الصفرة قليلاً حتى غاب القرص .

وأردف أسامة ، ودفع حتى أتى المزدلفة ، فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ولم يسبح بينهما شيئاً ، ثم اضطجع حتى طلع الفجر ، فصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة ، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام ، فاستقبل القبلة ، فدعا ، وكبره ، وهلل ، ووحده ، فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً .

فَدَفَعَ - من المزدلفة إلى منى - قبل أن تطلع الشمس ، وأردف الفضل بن عباس حتى أتى بَطْنَ مُحَسَّرٍ ، فَحَرَكَ قليلاً ، ثم سلك الطريق الوسطى التي تخرج على الجمرة الكبرى ، حتى أتى الجمرة التي عند الشجرة - وهي الجمرة الكبرى نفسها ، كانت عندها شجرة في ذلك الزمان ، وتسمى بجمرة العقبة وبالجمرة الأولى - فرماها بسبع حصيات ، يكبر مع كل حصاة منها مثل حصى الخدْف ، رمى من بطن الوادى ، ثم انصرف إلى المنحر ، فنحر ثلاثاً وستين بدنة بيده ، ثم أعطى علياً فنحر ما غَبَرَ (٤) - وهي سبع وثلاثون بدنة ، تمام المائة - وأشركه في هديه ، ثم أمر من كل بدنة ببضعة ، فجعلت في قِدْرٍ ، فطبخت ، فأكلوا من لحمها ، وشربوا من مَرَقِهَا .

ثم ركب رسول الله ﷺ ، فأفاض إلى البيت ، فصلى بمكة الظهر ، فأتى على بنى المطلب يَسْقُونَ على زمزم ، فقال : « انزعوا بنى عبد المطلب ، فلولا أن يغلبكم الناس على سقائكم لنزعت معكم » ، فانلوه دلواً فشرّب منه (٥).

وخطب النبي ﷺ يوم النحر - عاشر ذى الحجة - أيضاً حين ارتفع الضحى ، وهو على بغلة شهباء ، وعلى يعبر عنه ، والناس بين قائم وقاعد (٦) ، وأعاد في خطبته هذه بعض ما كان ألقاه أمس ، فقد روى الشيخان عن أبى بكره قال : خطبنا النبي ﷺ يوم النحر ، قال :

« إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهراً ، منها أربعة حرم ، ثلاث متواليات ، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مُضَرّ الذى بين جمادى وشعبان » .

(١) رواه ابن أبى شيبة وابن جرير ، انظر : تفسير ابن كثير ٢ / ١٥ ، والدر المنثور ٢ / ٤٥٦ .

(٢) هى أسفل جبل الرحمة . (٣) مُجْتَمِعُهُمْ .

(٤) ما بقى .

(٥) رواه مسلم عن جابر : باب حجة النبي ﷺ ١ / ٣٩٧ - ٤٠٠ .

(٦) روى ذلك أبو داود : باب أى وقت يخطب يوم النحر ١ / ٢٧٠ .

وقال: «أى شهر هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس ذا الحجة؟» قلنا: بلى؟ قال: «أى بلد هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليست البلدة؟» قلنا: بلى. قال: «فأى يوم هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس يوم النحر؟» قلنا: بلى. قال: «فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، فى بلدكم هذا، فى شهركم هذا».

«وستلقون ربكم، فيسألکم عن أعمالکم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضللاً يضرب بعضكم رقاب بعض».

«ألا هل بلغت؟» قالوا: نعم، قال: «اللهم اشهد، فليبلغ الشاهد الغائب، فربَّ مبلغ أوعى من سامع» (١).

وفى رواية أنه قال فى تلك الخطبة: «ألا لا يحنى جان إلا على نفسه، ألا لا يحنى جان على ولده، ولا مولود على والده، ألا إن الشيطان قد يشن أن يعبد فى بلدكم هذا أبداً، ولكن ستكون له طاعة فيما تحقرون من أعمالكم، فيسرى به» (٢).

وأقام أيام التشريق بمنى يؤدى المناسك ويعلم الشرائع، ويذكر الله، ويقيم سنن الهدى من ملة إبراهيم، ويحو آثار الشرك ومعالمها.

وقد خطب فى بعض أيام التشريق أيضاً، فقد روى أبو داود بإسناد حسن عن سراء بنت نَهْآن قالت: خطبنا رسول الله ﷺ يوم الرؤوس، فقال: «أليس هذا أوسط أيام التشريق» (٣). وكانت خطبته فى هذا اليوم مثل خطبته يوم النحر، ووقعت هذه الخطبة عقب نزول سورة النصر.

وفى يوم النَّفَر الثاني - الثالث عشر من ذى الحجة - نفر النبي ﷺ من منى، فنزل بخيف بنى كنانة من الأبطح، وأقام هناك بقية يومه ذلك، وليلته، وصلى هناك الظهر والعصر والمغرب والعشاء، ثم رقد رقة، ثم ركب إلى البيت، فطاف به طواف الوداع، وأمر به الناس:

ولما قضى مناسكه حث الركاب إلى المدينة المطهرة، لا ليأخذ حظاً من الراحة، بل ليستأنف الكفاح والكدح لله وفى سبيل الله (٤).

آخر البعوث:

كانت كبرياء دولة الروم قد جعلتها تأبى حق الحياة على من آذن بالله ورسوله، وحملها

(١) صحيح البخارى: باب الخطبة أيام منى ١ / ٢٣٤ وغيرها.

(٢) رواه الترمذى ٢ / ٣٨، ١٣٥، وابن ماجه فى الحج، انظر: مشكاة المصابيح ١ / ٢٣٤.

(٣) أبو داود: باب أى يوم يخطب بمنى ١ / ٢٦٩.

(٤) انظر لتفصيل حجة النبي ﷺ: صحيح البخارى: كتاب المناسك - ١ / ٢٠١، ٦٣١، وصحيح مسلم:

باب حجة النبي ﷺ، وفتح البارى ج ٣ من شرح كتاب المناسك. - ١ / ١٠٣ - ١١٠، وابن هشام

٢ / ٦٠١ - ٦٠٥، وزاد المعاد ١ / ١٩٦، ٢١٨ - ٢٤٠.

على أن تقتل من أتباعها من يدخل في الإسلام ، كما فعلت بقرّة بن عمرو الجذامي ، الذي كان والياً على معان من قبل الروم .

ونظراً إلى هذه الجراءة والغطرسة ، أخذ رسول الله ﷺ يجهز جيشاً كبيراً في صفر سنة ١١هـ ، وأمر عليه أسامة بن زيد بن حارثة ، وأمره أن يوطئ الخيل تُخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين ، يبلغى بذلك إرهاب الروم وإعادة الثقة إلى قلوب العرب الضارين على الحدود ، حتى لا يحسبن أحد أن بطش الكنيسة لا معقب له ، وأن الدخول في الإسلام يعجر على أصحابه الختوف فحسب .

وتكلم الناس في قائد الجيش لحدائث سنه ، واستبطأوا في بعثه ، فقال رسول الله ﷺ : « إن تطعنوا في إمارته ، فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل ، وإيم الله ، إن كان خليقاً للإمارة ، وإن كان من أحب الناس إلي ، وإن هذا من أحب الناس إليّ بعده » (١) .

وانتدب الناس يلتفون حول أسامة ، ويتنظمون في جيشة ، حتى خرجوا ونزلوا الجرف ، على فرسخ من المدينة ، إلا أن الأخبار المقلقة عن مرض رسول الله ﷺ ألزمتهم التريث ، حتى يعرفوا ما يقضى الله به ، وقد قضى الله أن يكون هذا أول بعث ينفذ في خلافة أبي بكر الصديق (٢) .

(١) صحيح البخاري : باب بعث النبي ﷺ أسامة ٢ / ٦١٢ .

(٢) المصدر السابق ، وابن هشام ٢ / ٦٠٦ ، ٦٥٠ .

آخرباب
من
الحياة الطيبة

إلى الرفيق الأعلى

طلائع التوديع :

ولما تكاملت الدعوة وسيطر الإسلام على الموقف ، أخذت طلائع التوديع للحياة والأحياء تطلع من مشاعره ﷺ ، وتتضح بعباراته وأفعاله .

إنه اعتكف في رمضان من السنة العاشرة عشرين يوماً ، بينما كان لا يعتكف إلا عشرة أيام فحسب ، وتدارسه جبريل القرآن مرتين ، وقال في حجة الوداع : « إني لا أدري لعلى لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً » ، وقال وهو عند جمرة العقبة : « خذوا عني مناسككم ، فلعلى لا أحج بعد عامي هذا » ، وأنزلت عليه سورة النصر في أوسط أيام التشريق ، فعرف أنه الوداع وأنه نعت إليه نفسه .

وفى أوائل صفر سنة ١١ هـ خرج النبي ﷺ إلى أحد ، فصلى على الشهداء كالمودع للأحياء والأموات ، ثم انصرف إلى المنبر فقال : « إني فرط لكم ، وأنا شهيد عليكم ، وإنى والله لأنظر إلى حوضي الآن ، وإنى أعطيت مفاتيح خزائن الأرض ، أو مفاتيح الأرض ، وإنى والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدى ، ولكنى أخاف عليكم أن تنافسوا فيها » (١) .

وخرج ليلة - فى منتصفها - إلى البقيع ، فاستغفر لهم ، وقال : « السلام عليكم يا أهل المقابر ، ليهن لكم ما أصبحتم فيه بما أصبح الناس فيه ، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم ، يتبع آخرها أولها ، والآخرة شر من الأولى » ، وبشرهم قائلاً : « إنا بكم للاحقون » .

بداية المرض :

وفى اليوم الثامن أو التاسع والعشرين من شهر صفر سنة ١١ هـ - وكان يوم الاثنين - شهد رسول الله ﷺ جنازة فى البقيع ، فلما رجع ، وهو فى الطريق أخذه صداع فى رأسه ، واتقدت الحرارة ، حتى إنهم كانوا يجدون سورتها فوق العصاة التى تعصب بها رأسه .

وقد صلى النبي ﷺ بالناس وهو مريض ١١ يوماً ، وجميع أيام المرض كانت ١٣ ، أو ١٤ يوماً .

الأسبوع الأخير :

وثقل برسول الله ﷺ المرض ، فجعل يسأل أزواجه : « أين أنا غداً ؟ أين أنا غداً ؟ » ففهم مراده ، فأذن له يكون حيث شاء ، فانتقل إلى بيت عائشة يمشى بين الفضل بن عباس وعلى بن أبى طالب ، عاصباً رأسه ، تخط قدماه حتى دخل بيتها ، فقضى عندها آخر أسبوع من حياته .

(١) متفق عليه ، صحيح البخارى ٥٨٥/٢ ، وفتح البارى ٢٤٨/٣ ح (١٣٤٤) ، ٣٥٩٦ ، ٤٠٤٢ ، ٤٠٨٥ ، ٦٤٢٦ ، (٦٥٩٠) ، ومسلم : الفضائل ، باب إثبات حوض نبينا وصفاته ٤ / ١٧٩٥ ح (٢٢٩٦) .

وكانت عائشة تقرأ بالمعوذات والأدعية التي حفظتها من رسول الله ﷺ ، فكانت تنفث على نفسه ، وتمسحه بيده رجاء البركة .

قبل الوفاة بخمسة أيام :

ويوم الأربعاء قبل خمسة أيام من الوفاة ، اتقدت حرارة العلة في بدنه ، فاشتد به الوجع وغمى ، فقال : « هريقوا على سبع قرب من آبار شتى ، حتى أخرج إلى الناس ، فأعهد إليهم » ، فأقعده في مِخْضَبٍ (١) ، وصبوا عليه الماء حتى طفق يقول : « حسبكم ، حسبكم » .

وعند ذلك أحس بخفة ، فدخل المسجد متعطفاً ملحفة على منكبيه ، قد عصب رأسه بعصابة دسمة حتى جلس على المنبر ، وكان آخر مجلس جلسه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أيها الناس ، إلي » ، فثابوا إليه ، فقال - فيما قال : « لعنة الله على اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » - وفي رواية : « قاتل الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » (٢) - وقال : « لا تتخذوا قبري وثناً يعبد » (٣) .

وعرض نفسه للقصاص قائلاً : « من كنت جلدت له ظهرًا فهذا ظهرى فليستقد منه ، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضى فليستقد منه » .

ثم نزل فصلى الظهر ، ثم رجع فجلس على المنبر ، وعاد لمقاتته الأولى في الشحاء وغيرها . فقال رجل : إن لى عندك ثلاثة دراهم ، فقال : « أعطه يا فضل » ، ثم أوصى بالأنصار قائلاً :

« أوصيكم بالأنصار ، فإنهم كرشى وعييتى ، وقد قضوا الذى عليهم وبقي الذى لهم ، فأقبلوا من محسنهم ، وتجاوزوا عن مسيئتهم » ، وفي رواية أنه قال : « إن الناس يكثرون ، وتقل الأنصار حتى يكونوا كالمالح فى الطعام ، فمن ولى منكم أمراً يضر فيه أحداً أو ينفعه فليقبل من محسنهم ، ويتجاوز عن مسيئتهم » (٤) .

ثم قال : « إن عبدأ خيرہ الله بين أن يؤتیه من زهرة الدنيا ما شاء ، وبين ما عنده ، فاختر ما عنده » . قال أبو سعيد الخدرى : فبكى أبو بكر . قال : فدينك بآبائنا وأمھاتنا ، فعجبنا له ، فقال الناس : انظروا إلى هذا الشيخ ، يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خيرہ الله بين أن يؤتیه من زهرة الدنيا ، وبين ما عنده ، وهو يقول : فدينك بآبائنا وأمھاتنا . فكان رسول الله ﷺ هو المخير ، وكان أبو بكر أعلمنا (٥) .

ثم قال رسول الله ﷺ : « إن من آمن الناس علىّ فى صحبتہ ومالہ أبو بكر ، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لا اتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن أخوة الإسلام ومودته ، لا يبقين فى المسجد باب إلا سد ، إلا باب أبى بكر » (٦) .

(١) أى آتية .

(٢) صحيح البخارى ١ / ٦٢ ، وموطأ الإمام مالك ص ٣٦٠ .

(٣) موطأ الإمام مالك ص ٦٥ . (٤) صحيح البخارى ١ / ٥٣٦ .

(٥) متفق عليه ، مشكاة المصابيح ٢ / ٥٤٦ .

(٦) صحيح البخارى ١ / ٥١٦ .

ويوم الخميس قبل الوفاة بأربعة أيام قال - وقد اشتد به الوجع : « هلموا أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده » - وفي البيت رجال فيهم عمر - فقال عمر : قد غلب عليه الوجع ، وعندكم القرآن ، حسبكم كتاب الله ، فاختلف أهل البيت واختصموا ، فمنهم من يقول : قربوا يكتب لكم رسول الله ﷺ ، ومنهم من يقول ما قال عمر ، فلما أكثروا اللغط والاختلاف قال رسول الله ﷺ : « قوموا عني » (١) .

وأوصى ذلك اليوم بثلاث : أوصى بإخراج اليهود والنصارى والمشركين من جزيرة العرب ، وأوصى بإجازة الوفود بنحو ما كان يجيزهم ، أما الثالث فنسبه الراوى . ولعله الوصية بالاعتصام بالكتاب والسنة ، أو تنفيذ جيش أسامة ، أو هي : « الصلاة وما ملكت أيمانكم » .

والنبي ﷺ مع ما كان به من شدة المرض كان يصلى بالناس جميع صلواته حتى ذلك اليوم - يوم الخميس قبل الوفاة بأربعة أيام - وقد صلى بالناس ذلك اليوم صلاة المغرب ، فقرأ فيها بالمرسلات عرفاً (٢) .

وعند العشاء زاد ثقل المرض ، بحيث لم يستطع الخروج إلى المسجد . قالت عائشة : فقال النبي ﷺ : « أصلى الناس ؟ » قلنا : لا يا رسول الله ، وهم ينتظرونك . قال : « ضعوا لى ماء فى المخضب » ، ففعلنا ، فاغتسل ، فذهب لينوء فأغمى عليه . ثم أفاق ، فقال : « أصلى الناس ؟ » - ووقع ثانياً وثالثاً ما وقع فى المرة الأولى من الاغتسال ثم الإغماء حينما أراد أن ينوء - فأرسل إلى أبى بكر أن يصلى بالناس ، فصلى أبو بكر تلك الأيام (٣) ١٧ صلاة فى حياته ﷺ ، وهى صلاة العشاء من يوم الخميس ، وصلاة الفجر من يوم الإثنين ، وخمس عشرة صلاة فيما بينها (٤) .

وراجعت عائشة النبي ﷺ ثلاث أو أربع مرات ؛ ليصرف الإمامة عن أبى بكر حتى لا يشاء به الناس (٥) ، فأبى وقال : « إنكن لأنتن صواحب يوسف ، مروا أبى بكر فليصل بالناس » (٦) .

قبل ثلاثة أيام :

قال جابر : سمعت النبي ﷺ قبل موته بثلاث وهو يقول : « ألا لا يموت أحد منكم إلا وهو يحسن الظن بالله » (٧) .

(١) صحيح البخارى ١ / ٢٢ ، ٤٢٩ ، ٤٤٩ ، ٢ / ٦٣٨ .

(٢) رواه البخارى عن أم الفضل : باب مرض النبي ﷺ ٢ / ٦٣٧ .

(٣) متفق عليه ، مشكاة المصابيح ١ / ١٠٢ .

(٤) البخارى مع الفتح ٢ / ١٩٣ ح (٦٨١) ، ومسلم : كتاب الصلاة ١ / ٣١٥ ح (١٠٠) ، ومسنده أحمد ٢٢٩ / ٦ .

(٥) ينظر له : البخارى مع الفتح ٧ / ٧٤٧ ح (٤٤٤٥) ، ومسلم : كتاب الصلاة ١ / ٣١٣ ح (٩٣) ، (٩٤) .

(٦) صحيح البخارى ١ / ٩٩ .

(٧) طبقات ابن سعد ٢ / ٢٥٥ ، ومسنده أبى داود الطيالسى ص ٢٤٦ ح (١٧٧٩) ، ومسنده أبى يعلى ٤ / ١٩٣ ح (٢٢٩٠) .

قبل يوم أو يومين :

ويوم السبت أو الأحد وجد النبي ﷺ في نفسه خفة، فخرج بين رجلين لصلاة الظهر ، وأبو بكر يصلى بالناس ، فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر ، فأومأ إليه بالآ يتأخر ، قال : « أجلساني إلى جنبه » ، فأجلساه إلى يسار أبي بكر ، فكان أبو بكر يقتدى بصلاة رسول الله ﷺ ويسمع الناس التكبير (١) .

قبل يوم :

وقبل يوم من الوفاة - يوم الأحد - أعتق النبي ﷺ غلماناً ، وتصدق بستة أو سبعة دنانير كانت عنده (٢) ، ووهب للمسلمين أسلحته ، وفي الليل أرسلت عائشة بمصباحها امرأة من النساء وقالت : أظنني لنا في مصباحنا من عكثك السمن (٣) ، وكانت درعه ﷺ مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعاً من الشعير (٤) .

آخر يوم من الحياة :

روى أنس بن مالك : أن المسلمين بينا هم في صلاة الفجر من يوم الاثنين - وأبو بكر يصلى بهم - لم يفجأهم إلا رسول الله ﷺ كشف ستر حجرة عائشة فنظر إليهم ، وهم في صفوف الصلاة ، ثم تبسم يضحك ، فنكص أبو بكر على عقبه ؛ ليصل الصف ، وظن أن رسول الله ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة . فقال أنس : وهم المسلمون أن يفتنوا في صلاتهم ، فرحاً برسول الله ﷺ ، فأشار إليهم بيده رسول الله ﷺ أن أتموا صلاتكم ، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر (٥) .

ثم لم يأت على رسول الله ﷺ وقت صلاة أخرى .

ولما ارتفع الضحى ، دعا النبي ﷺ فاطمة فسأرها بشيء فبكت ، ثم دعاها ، فسأرها بشيء فضحكت ، قالت عائشة : فسألنا عن ذلك - أى فيما بعد - فقالت : سارنى النبي ﷺ أنه يقبض في وجهه الذى توفى فيه ، فبكيت ، ثم سارنى فأخبرنى أنى أول أهله يتبعه فضحكت (٦) .

وبشر النبي ﷺ فاطمة بأنها سيدة نساء العالمين (٧) .

ورأت فاطمة ما برسول الله ﷺ من الكرب الشديد الذى يتغشاه .

(١) صحيح البخارى مع فتح البارى ٢ / ١٩٥ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ح (٦٨٣ ، ٧١٢ ، ٧١٣) .

(٢) طبقات ابن سعد ٢ / ٢٣٧ ، تفيد بعض الروايات أنه تصدق بها ليلة الاثنين أو يوم الاثنين ، أى فى آخر يوم من حياته .

(٣) طبقات ابن سعد ٢ / ٢٣٩ .

(٤) انظر : صحيح البخارى ح (٢٠٦٨ ، ٢٠٩٦ ، ٢٢٠٠ ، ٢٢٥١ ، ٢٢٥٢ ، ٢٣٨٦ ، ٢٥٠٩ ، ٢٥١٣ ، ٢٩١٦ ، ٤١٦٧) ، وفى أواخر المغازى : توفى رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة ، وعند أحمد فما وجد ما يفتكها به (فتح البارى ٥ / ١٦٩) .

(٥) انظر : صحيح البخارى مع فتح البارى ٢ / ١٩٣ ح (٦٨٠ ، ٦٨١ ، ٧٥٤ ، ١٢٠٥ ، ٤٤٤٨) .

(٦) صحيح البخارى ٢ / ٦٣٨ .

(٧) ويدل بعض الروايات على أن هذا الحوار والبشارة لم يكن فى آخر يوم من حياته ، بل فى آخر أسبوع ، رحمة للعالمين ١ / ٢٨٢ .

فقلت : واكره أباه . فقال لها : « ليس على أهلك كرب بعد اليوم »^(١) .

ودعا الحسن والحسين قبلهما ، وأوصى بهما خيراً ، ودعا أزواجه فوعظهن وذكرهن . وطفق الوجع يشتد ويزيد ، وقد ظهر أثر السم الذى أكله بخير حتى كان يقول : « يا عائشة ، ما أزال أجد ألم الطعام الذى أكلت بخير ، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم »^(٢) .

وقد طرح خميصاً له على وجهه ، فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه ، فقال وهو كذلك - وكان هذا آخر ما تكلم وأوصى به الناس : « لعنة الله على اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد - يحذر ما صنعوا - لا يبقين دينان بأرض العرب »^(٣) . وأوصى الناس فقال : « الصلاة ، الصلاة ، وما ملكت أيمانكم » ، كرر ذلك مراراً^(٤) . الاحتضار :

وبدأ الاختصار فأسندته عائشة إليها ، وكانت تقول : إن من نعم الله على أن رسول الله ﷺ توفي في بيتي وفي يومي وبين سحري ونحري ، وأن الله جمع بين ربي وربيته عند موته . دخل عبد الرحمن - بن أبي بكر - ويده السواك ، وأنا مسندة رسول الله ﷺ ، فرأيتَه ينظر إليه ، وعرفت أنه يحب السواك ، فقلت : آخذه لك ؟ فأشار برأسه أن نعم . فتناولته فاشتد عليه ، وقلت : أليته لك ؟ فأشار برأسه أن نعم . فليته ، فأمره - وفي رواية أنه استن به كأحسن ما كان مستن - وبين يديه ركوة فيها ماء ، فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح به وجهه ، يقول : « لا إله إلا الله ، إن للموت سكرات ... » الحديث^(٥) .

وما عدا أن فرغ من السواك حتى رفع يده أو أصبعه ، وشخص بصره نحو السقف ، وتحركت شفتاه ، فأصغت إليه عائشة وهو يقول : « مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، اللهم اغفر لى وارحمنى ، وألحقنى بالرفيق الأعلى . اللهم ، الرفيق الأعلى »^(٦) .

كرر الكلمة الأخيرة ثلاثاً ، ومالت يده ولحق بالرفيق الأعلى . إنا لله وإنا إليه راجعون . وقع هذا الحادث حين اشتدت الضحى من يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١ هـ ، وقد تم له ﷺ ثلاث وستون سنة وزادت أربعة أيام .

تفارق الأحزان على الصحابة :

وتسرب النبا الفادح ، وأظلمت على أهل المدينة أرجاؤها وآفاقها . قال أنس : ما رأيت

(١) المصدر نفسه ٢ / ٦٣٧ .

(٢) صحيح البخارى ٢ / ٦٤١ .

(٣) صحيح البخارى مع فتح البارى ١ / ٦٣٤ ح (٤٣٥ ، ١٣٣٠ ، ١٣٩٠ ، ٣٤٥٣ ، ٣٤٥٤ ، ٤٤٤١ ، ٤٤٤٣ ، ٤٤٤٤ ، ٥٨١٥ ، ٥٨١٦) ، وطبقات ابن سعد ٢ / ٢٥٤ .

(٤) صحيح البخارى ٢ / ٦٣٧ .

(٥) صحيح البخارى : باب مرض النبى ﷺ ٢ / ٦٤٠ . والسحر : الرقة .

(٦) صحيح البخارى : باب مرض النبى ﷺ ، وباب آخر ما تكلم النبى ﷺ ٢ / ٦٣٨ - ٦٤١ .

يوماً قط كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل علينا فيه رسول الله ﷺ ، وما رأيت يوماً كان أفتح ولا أظلم من يوم مات فيه رسول الله ﷺ ^(١) .

ولما مات قالت فاطمة : يا أبتاه ، أجاب ربا دعاه . يا أبتاه ، من جنة الفردوس مأواه . يا أبتاه ، إلى جبريل ننعاه ^(٢) .
موقف عمر :

ووقف عمر بن الخطاب يقول : إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ توفى ، وإن رسول الله ﷺ ما مات ، لكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فغاب عن قومه أربعين ليلة ، ثم رجع إليهم بعد أن قيل : قد مات .
والله ، ليرجعن رسول الله ﷺ فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات ^(٣) .
موقف أبي بكر :

وأقبل أبو بكر على فرس من مسكنه بالسَّحْح حتى نزل ، فدخل المسجد ، فلم يكلم الناس ، حتى دخل على عائشة فتيمن رسول الله ﷺ ، وهو مغشى بثوب حبرة ، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه ، فقبله وبكى ، ثم قال : بأبي أنت وأمي ، لا يجمع الله عليك موتين ، أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها .

ثم خرج أبو بكر ، وعمر يكلم الناس ، فقال : اجلس يا عمر ، فأبى عمر أن يجلس ، فشهد أبو بكر ، فأقبل الناس إليه ، وتركوا عمر ، فقال أبو بكر :

أما بعد ، من كان منكم يعبد محمداً ﷺ فإن محمداً قد مات ، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، قال الله : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ ^(٤) .
[آل عمران]

قال ابن عباس : والله لكان الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر ، فتلقاها منه الناس كلهم ، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها .

قال ابن المسيب : قال عمر : والله ، ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها ، فعرفت أنه الحق ، فعقرت حتى ما تُقَلِّني رجلاي ، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها ، علمت أن النبي ﷺ قد مات ^(٤) .

(١) رواه الدارمي ، مشكاة المصابيح ٢ / ٥٤٧ ، وعن أنس قال : لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء ، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء ، ولما نقضنا عن رسول الله ﷺ لا يدي ، وأنا لنى دفعته حتى أنكرنا قلوبنا (جامع الترمذي ٥ / ٥٨٨ ، ٥٨٩) .

(٢) صحيح البخاري : باب مرض النبي ﷺ ٢ / ٦٤١ .

(٣) ابن هشام ٢ / ٦٥٥ .

(٤) صحيح البخاري ٢ / ٦٤٠ ، ٦٤١ .

التجهيز وتوديع الجسد الشريف إلى الأرض :

ووقع الخلاف فى أمر الخلافة قبل أن يقوموا بتجهيزه ﷺ ، فجرت مناقشات ومجادلات وحوار وردود بين المهاجرين والأنصار فى سقيفة بنى ساعدة ، وأخيراً اتفقوا على خلافة أبى بكر ﷺ ، ومضى فى ذلك بقية يوم الاثنين حتى دخل الليل ، وشغل الناس عن جهاز رسول الله ﷺ حتى كان آخر الليل - ليلة الثلاثاء - مع الصبح ، وبقي جسده المبارك على فراشه مغشى بثوب حبرة ، قد أغلق دونه الباب أهله .

ويوم الثلاثاء غسلوا رسول الله ﷺ من غير أن يجردوه من ثيابه ، وكان القائمون بالغسل : العباس وعليّ ، والفضل وقثم ابنى العباس ، وشقران مولى رسول الله ﷺ ، وأسامة بن زيد ، وأوس بن خولّى ، فكان العباس والفضل وقثم يقلبونه ، وأسامة وشقران يصبان الماء ، وعليّ يغسله ، وأوس أسنده إلى صدره ^(١) .

وقد غسل ثلاث غسلات بماء وسدر ، وغسل من بثر يقال لها : الغرْس لسعد بن خيثمة بقباء وكان يشرب منها ^(٢) .

ثم كفنوه فى ثلاثة أثواب يمانية بيض سحولية من كرسف ، ليس فيها قميص ولا عمامة ^(٣) . أدرجوه فيها إدراجاً .

واختلفوا فى موضع دفنه ، فقال أبو بكر : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما قبض نبي إلا دفن حيث يقبض » ، فرفع أبو طلحة فراشه الذى توفى عليه ، فحفر تحته ، وجعل القبر لحداً .

ودخل الناس الحجرة أرسالاً ، عشرة عشرة ، يصلون على رسول الله ﷺ أفذاذاً ، لا يؤمهم أحد ، وصلى عليه أولاً أهل عشيرته ، ثم المهاجرون ، ثم الأنصار ، ثم الصبيان ، ثم النساء ، أو النساء ثم الصبيان ^(٤) .

ومضى فى ذلك يوم الثلاثاء كاملاً ، ومعظم ليلة الأربعاء ، قالت عائشة : ما علمنا بدفن رسول الله ﷺ حتى سمعنا صوت المساحي ^(٥) من جوف الليل - وفى رواية : من آخر الليل - ليلة الأربعاء ^(٦) .

(١) لينظر : ابن ماجه ١ / ٥٢١ .

(٢) لينظر التفصيل فى : طبقات ابن سعد ٢ / ٢٧٧ - ٢٨١ .

(٣) صحيح البخارى : جناز ، باب الثياب البيض للكفن ، وفتح البارى ٣ / ١٦٢ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ح (١٢٦٤) ، ١٢٧١ ، ١٢٧٢ ، ١٢٧٣ ، ١٣٨٧ ، وصحيح مسلم : جناز ٤٦٣ ، باب كفن الميت ح (٤٥) .

(٤) لينظر : موطأ الإمام مالك : كتاب الجنائز ، باب ما جاء فى دفن الميت ١ / ٢٣١ ، وطبقات ابن سعد ٢ / ٢٨٨ - ٢٩٢ .

(٥) جمع مسحاة : ما يجرف به الطين .

(٦) مسند أحمد ٦ / ٦٢ ، ٢٧٤ ، وانظر لتفصيل لحوقه بالرفيق الأعلى : صحيح البخارى : باب مرض النبي ﷺ وعلّة أبواب بعده مع فتح البارى ، وصحيح مسلم ، ومشكاة المصابيح : باب وفاة النبي ﷺ وابن هشام ٢ / ٦٤٩ - ٦٦٥ ، وتلقيح فهم أهل الأثر ص ٣٨ ، ٣٩ ، ورحمة للعالمين ١ / ٢٧٧ - ٢٨٦ وتعيين عامة الاوقات من المرجع الأخير .

البيت النبوي

١ - كان البيت النبوي في مكة قبل الهجرة يتألف منه عليه الصلاة والسلام ، ومن زوجته خديجة بنت خويلد ، تزوجها وهو في خمس وعشرين من سنه ، وهى في الأربعين ، وهى أول من تزوجها من النساء ، ولم يتزوج عليها غيرها ، وكان له منها أبناء وبنات ، أما الأبناء ، فلم يعيش منهم أحد ، وأما البنات فهن : زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ، فأما زينب فتزوجها قبل الهجرة ابن خالتها أبو العاص بن الربيع ، وأما رقية وأم كلثوم فقد تزوجهما عثمان بن عفان رضي الله عنه الواحدة بعد الأخرى ، وأما فاطمة فتزوجها على بن أبى طالب بين بدر وأحد ، ومنها كان الحسن والحسين وزينب وأم كلثوم .

ومعلوم أن النبى ﷺ كان يمتاز عن أمته بحلّ التزوج بأكثر من أربع زوجات لأغراض كثيرة ، فكان عدد من عقد عليهن ثلاث عشرة امرأة ، منهن تسع مات عنهن ، واثنان توفيتا في حياته ، إحداهما خديجة ، والأخرى أم المساكين زينب بنت خزيمة ، واثنان لم يدخل بهما . وهما هى أسماؤهن ، وشىء عنهن :

٢ - سودة بنت زمعة ، تزوجها رسول الله ﷺ في شوال سنة عشر من النبوة ، بعد وفاة خديجة بنحو شهر ، وكانت قبله عند ابن عم لها يقال له : السكران بن عمرو ، فمات عنها . توفيت بالمدينة في شوال سنة ٥٤ هـ .

٣ - عائشة بنت أبى بكر الصديق ، تزوجها في شوال سنة إحدى عشرة من النبوة بعد زواجه بسودة بسنة ، وقبل الهجرة بستين وخمسة أشهر ، تزوجها وهى بنت ست سنين ، وبنى بها في شوال بعد الهجرة بسبعة أشهر في المدينة ، وهى بنت تسع سنين ، وكانت بكرأ ، لم يتزوج بكرأ غيرها ، وكانت أحب الخلق إليه ، وأفقه نساء الأمة ، وأعلمهن على الإطلاق ، فضّلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام . توفيت في ١٧ رمضان سنة ٥٧ هـ أو ٥٨ هـ ودفنت بالبقيع .

٤ - حفصة بنت عمر بن الخطاب ، تأيمت من زوجها خنيس بن حذافة السهمي بين بدر وأحد ، فلما حلت تزوجها رسول الله ﷺ في شعبان سنة ٣ هـ . توفيت في شعبان سنة ٤٥ هـ بالمدينة ، ولها ستون سنة ، ودفنت بالبقيع .

٥ - زينب بنت خزيمة ، من بنى هلال بن عامر بن صعصعة ، وكانت تسمى أم المساكين ، لرحمتها إياهم ورقتها عليهم ، كانت تحت عبد الله بن جحش ، فاستشهد في أحد ، فتزوجها رسول الله ﷺ سنة ٤ هـ . ماتت بعد الزواج بنحو ثلاثة أشهر في آخر ربيع الآخر سنة ٤ هـ ، فصلى عليها النبى ﷺ ، ودفنت بالبقيع .

٦ - أم سلمة هند بنت أبى أمية ، كانت تحت أبى سلمة ، وله منها أولاد ، فمات عنها في جمادى الآخر سنة ٤ هـ فتزوجها رسول الله ﷺ في ليال بقين من شوال من السنة نفسها ،

وكانت من أفقه النساء وأعقلهن . توفيت سنة ٥٩ هـ ، وقيل : ٦٢ هـ ودفنت بالبقيع ، ولها ٨٤ سنة .

٧ - زينب بنت جحش بن رباب . من بنى أسد بن خزيمة ، وهى بنت عمه رسول الله ﷺ ، كانت تحت زيد بن حارثة - الذى كان يعتبر ابناً للنبي ﷺ - فطلقها زيد . فلما انقضت العدة أنزل الله تعالى يقول لرسوله ﷺ : ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا ﴾ [الأحزاب: ٣٧] ، وفيها نزلت من سورة الأحزاب آيات فصلت قضية التبنى - وسنأتى على ذكرها - وتزوجها رسول الله ﷺ فى ذى القعدة سنة خمس من الهجرة . وقيل : سنة ٤ هـ ، وكانت أعبد النساء وأعظمهن صدقة ، توفيت سنة ٢٠ هـ ولها ٥٣ سنة . وكانت أول أمهات المؤمنين وفاة بعد رسول الله ﷺ ، صلى عليها عمر بن الخطاب ، ودفنت بالبقيع .

٨ - جويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق من خزاعة . كانت فى سبى بنى المصطلق ، فوقع فى سهم ثابت بن قيس بن شماس فكاتبها . فقضى رسول الله ﷺ كتابتها ، وتزوجها فى شعبان سنة ٦ هـ ، وقيل : سنة ٥ هـ ، فأعتق المسلمون مائة أهل بيت من بنى المصطلق ، وقالوا : أصهار رسول الله ﷺ ، فكانت أعظم النساء بركة على قومها . توفيت فى ربيع الأول سنة ٥٦ هـ وقيل : ٥٥ هـ ولها ٦٥ سنة .

٩ - أم حبيبة رَمْلَة بنت أبى سفيان ، كانت تحت عبيد الله بن جحش ، فولدت له حبيبة فكنت بها ، وهاجرت معه إلى الحبشة ، فارتد عبيد الله وتنصر وتوفى هناك ، وثبتت أم حبيبة على دينها وهجرتها ، فلما بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري بكتابه إلى النجاشى فى المحرم سنة ٧ هـ ، خطب عليه أم حبيبة فزوجها إياه ، وأصدقها من عنده أربعمائة دينار، وبعث بها مع شُرْحِبِيل بن حسنة ، فابتنى بها النبي ﷺ بعد رجوعه من خيبر . توفيت سنة ٤٢ هـ أو ٤٤ هـ أو ٥٠ هـ .

١٠ - صفية بنت حى بن أخطب سيد بنى النضير من بنى إسرائيل ، كانت من سبى خيبر فاصطفاه رسول الله ﷺ لنفسه وعرض عليها الإسلام فأسلمت ، فأعتقها وتزوجها بعد فتح خيبر سنة ٧ هـ ، وابتنى بها بسد الصَّهْبَاء على بعد ١٢ ميلاً من خيبر فى طريقه إلى المدينة . توفيت سنة ٥٠ هـ ، وقيل : ٥٢ هـ ، وقيل : سنة ٣٦ هـ ودفنت بالبقيع .

١١ - ميمونة بنت الحارث أخت أم الفضل لُبَّابة بنت الحارث ، تزوجها فى ذى القعدة سنة ٧ هـ ، فى عمرة القضاء بعد أن حل منها على الصحيح .

وابتنى بها بِسْرَف على بعد ٩ أميال من مكة ، وقد توفيت بِسْرَف سنة ٦١ هـ ، وقيل : ٦٣ هـ ، وقيل : ٣٨ هـ ودفنت هناك ، ولا يزال موضع قبرها معروفاً .

فهؤلاء إحدى عشرة امرأة ، تزوج بهن الرسول ﷺ ، وبنى بهن ، وتوفيت منهن اثنتان - خديجة وزينب أم المساكين - فى حياته ، وتوفى هو عن التسع البواقي .

وأما الاثنتان اللتان لم يَبْنِ بهما فواحدة من بنى كِلَاب ، وأخرى من كِنْدَة ، وهى المعروفة بالجُونِيَّة ، وهناك خلافات لا حاجة إلى بسطها .

وأما السراى فالمعروف أنه تَسَرَّى باثنتين، إحداهما: مارية القبطية ، أهداها له المقوقس، فأولدها ابنه إبراهيم، الذى توفى صغيراً بالمدينة فى حياته ﷺ فى ٢٨ أو ٢٩ من شهر شوال سنة ١٠ هـ وفق ٢٧ يناير سنة ٦٣٢ م . والسرية الثانية هى: ريحانة بنت زيد النضرية أو القرظية ، كانت من سبأ قريظة فاصطفأها لنفسه ، وقيل : بل هى من أزواجه ﷺ ، أعتقها فتزوجها . والقول الأول رجحه ابن القيم ، وزاد أبو عبيدة اثنتين أخريين: جميلة، أصابها فى بعض السبي، وجارية وهبتها له زينب بنت جحش (١) .

ومن نظر إلى حياة الرسول ﷺ عرف جيداً أن زواجه بهذا العدد الكثير من النساء فى أواخر عمره، بعد أن قضى ما يقارب ثلاثين عاماً من ريعان شبابه وأجود أيامه، مقتصرأ على زوجة واحدة شبه عجور - خديجة ثم سودة - عرف أن هذا الزواج لم يكن لأجل أنه وجد بغتة فى نفسه قوة عارمة من الشَّبَق لا يصبر معها إلا بمثل هذا العدد الكثير من النساء ، بل كانت هناك أغراض أخرى أجل وأعظم من الغرض الذى يحققه عامة الزواج .

فاتجاه الرسول ﷺ إلى مصاهرة أبى بكر وعمر بزواجه بعائشة وحفصة - وكذلك تزويجه ابنته فاطمة بعلى بن أبى طالب ، وتزويجه ابنتيه رقية ثم أم كلثوم بعثمان بن عفان - يشير إلى أنه يبغي من وراء ذلك توثيق الصلات بالرجال الأربعة ، الذين عرف بلاءهم وفداءهم للإسلام فى الأزمات التى مرت به ، وشاء الله أن يجتازها بسلام .

وكان من تقاليد العرب الاحترام للمصاهرة ، فقد كان الصهر عندهم باباً من أبواب التقرب بين البطون المختلفة ، وكانوا يرون مناواة ومحاربة الأصهار سبباً وعاراً على أنفسهم ، فأراد رسول الله ﷺ بزواج عدة من أمهات المؤمنين أن يكسر سورَةَ عدا القبايل للإسلام ، ويطفى حدة بغضائها ، كانت أم سلمة من بنى مخزوم - حتى أبى جهل وخالد بن الوليد - فلما تزوجها رسول الله ﷺ لم يقف خالد من المسلمين موقفه الشديد بأحد ، بل أسلم بعد مدة غير طويلة طائعاً راغباً ، وكذلك أبو سفيان لم يواجه رسول الله ﷺ بأى محاربة بعد زواجه بابنته أم حبيبة ، وكذلك لا نرى من قبيلتى بنى المصطلق وبنى النضير أى استفزاز وعداء بعد زواجه بجويرية وصفية ، بل كانت جويرية أعظم النساء بركة على قومها ، فقد أطلق الصحابة أسر مائة بيت من قومها حين تزوجها رسول الله ﷺ ، وقالوا : أصهار رسول الله ﷺ ، ولا يخفى ما لهذا المن من الأثر البالغ فى النفوس .

وأكبر من كل ذلك وأعظم أن النبى ﷺ كان مأموراً بتزكية وتثقيف قوم لم يكونوا يعرفون شيئاً من آداب الثقافة والحضارة والتقىد بلوازم المدنية ، والمساهمة فى بناء المجتمع وتعزيزه .

والمبادئ التى كانت أسساً لبناء المجتمع الإسلامى ، لم تكن تسمح للرجال أن يختلطوا بالنساء ، فلم يكن يمكن تثقيفهن مباشرة مع المراعاة لهذه المبادئ ، مع أن ميسر الحاجة إلى تثقيفهن لم يكن أهون وأقل من الرجال ، بل كان أشد وأقوى .

وإذن فلم يكن للنبي ﷺ سبيل إلا أن يختار من النساء المختلفة الأعمار والمواهب ما يكفى لهذا الغرض، فيزكيهن ويربيهن، ويعلمهن الشرائع والأحكام، ويثقفهن بثقافة الإسلام، حتى يعدن لتربية البدويات والحضرىات، العجائز منهن والشابات، فيكفين مؤنة التبليغ فى النساء.

وقد كان لأمهات المؤمنين فضل كبير فى نقل أحوالهن المنزلية للناس، خصوصاً من طالبت حياتها منهن كعائشة، فإنها روت كثيراً من أفعاله وأقواله.

وهناك نكاح واحد كان لنقض تقليد جاهلى متأصل، وهى قاعدة التبنى، وكان للمتبنى عند العرب فى الجاهلية جميع الحرمات والحقوق التى كانت للابن الحقيقى سواء بسواء. وكانت قد تأصلت تلك القاعدة فى القلوب، بحيث لم يكن محوها سهلاً، لكن كانت تلك القاعدة تعارض معارضة شديدة للأسس والمبادئ التى قررها الإسلام فى النكاح والطلاق والميراث وغير ذلك من المعاملات. وكانت تلك القاعدة تجلب كثيراً من المفاسد والفواحش التى جاء الإسلام ليمحوها عن المجتمع.

وقدر الله أن يكون هدم تلك القاعدة على يدى رسول الله ﷺ، وبذاته الشريفة، وكانت ابنة عمته زينب بنت جحش تحت زيد بن حارثة الذى كان يدعى زيد بن محمد، ولم يكن بينهما توافق، حتى همَّ زيد بطلاقها، وفتح بذلك رسول الله ﷺ، وقد عرف الرسول ﷺ - إما بإشارات الظروف، وإما بإخبار الله عز وجل إياه - أن زيدا إن طلقها فسيؤمر هو ﷺ أن يتزوجها بعد انقضاء عدتها، وكان ذلك فى ظروف حرجة من تألب المشركين على رسول الله ﷺ والمسلمين، وكان يخاف - إذا وقع هذا الزواج - دعاية المنافقين والمشركين واليهود، وما يثيرونه من الوسوس والخرافات ضده، وما يكون له من الأثر السيئ فى نفوس ضعفاء المسلمين. فلما فاتح زيد رسول الله ﷺ بإرادته طلاق زينب أمره بأن يمسخها ولا يطلقها، وذلك لثلاث تحجى له مرحلة هذا الزواج فى تلك الظروف الصعبة.

ولم يرخص الله من رسوله ﷺ هذا التردد والخوف حتى عاتبه عليه بقوله: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وأخيراً طلقها زيد، وتزوجها رسول الله ﷺ فى أيام فرض الحصار على بنى قريظة، بعد أن انقضت عدتها، وكان الله قد أوجب عليه هذا النكاح، ولم يترك له خياراً ولا مجالاً، حتى تولى الله ذلك النكاح بنفسه، يقول: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الأحزاب: ٣٧] وذلك ليهدم قاعدة التبنى فعلاً كما هدمها قولاً: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥] ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رُّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وكم من التقاليد المتأصلة الجافة لا يمكن هدمها أو تعديلها لمجرد القول، بل لا بد من مقارنة فعل صاحب الدعوة، ويتضح ذلك بما صدر من المسلمين فى عمرة الحديبية، كان

هناك أولئك المسلمون الذين رأهم عروة بن مسعود الثقفي ، لا يقع من النبي ﷺ نخامة إلا في يد أحدهم ، ورأهم يتبادرون إلى وضوئه حتى كادوا يقتتلون عليه ، نعم كان أولئك الذين تسابقوا إلى البيعة على الموت أو على عدم الفرار تحت الشجرة ، والذين كان فيهم مثل أبي بكر وعمر ، لما أمر النبي ﷺ أولئك الصحابة المتفانين في ذاته - بعد عقد الصلح - أن يقوموا فينحروا هديهم لم يبق لامتثال أمره أحد ، حتى أخذه القلق والاضطراب ، ولكن لما أشارت عليه أم سلمة أن يقوم إلى هدية فينحر ، ولا يكلم أحدا ففعل ، تبادر الصحابة إلى اتباعه في فعله ، فتسابقوا إلى نحر جزورهم . وبهذا الحادث يتضح جلياً ما هو الفرق بين أثرى القول والفعل لهدم قاعدة راسخة .

وقد أثار المنافقون وساموس كثيرة ، وقاموا بدعايات كاذبة واسعة حول هذا النكاح ، أثر بعضها في ضعفاء المسلمين ، لاسيما أن زينب كانت خامسة أزواجه ﷺ ، ولم يكن يعرف المسلمون حل الزواج بأكثر من أربع نسوة ، وأن زيدا كان يعتبر ابناً للنبي ﷺ ، والزواج بزوجة الابن كان من أغلظ الفواحش ، وقد أنزل الله في سورة الأحزاب حول الموضوعين ما شفى وكفى ، وعلم الصحابة أن التبنى ليس له أثر في الإسلام ، وأن الله تعالى وسع لرسوله ﷺ في الزواج ما لم يوسع لغيره ، لأغراضه النبيلة الممتازة .

هذا ، وكانت عشرته ﷺ مع أمهات المؤمنين في غاية الشرف والنبل والسمو والحسن ، كما كن في أعلى درجة من الشرف ، والقناعة والصبر والتواضع والخدمة والقيام بحقوق الزواج ، مع أنه كان في شظف من العيش لا يطيقه أحد . قال أنس : ما أعلم النبي ﷺ رأى رغيفاً مرققاً حتى لحق بالله ، ولا رأى شاة سميطة بعينه قط^(١) . وقالت عائشة : إن كنا ننظر إلى الهلال ثلاثة أهلة في شهرين ، وما أوقدت في آيات رسول الله ﷺ نار . فقال لها عروة : ما كان يعيشكم ؟ قالت : الأسودان ؛ التمر والماء^(٢) والأخبار بهذا الصدد كثيرة .

ومع هذا الشظف والضيق لم يصدر منهم ما يوجب العتاب إلا مرة واحدة - حسب مقتضى البشرية ، وليكون سبباً لتشريع الأحكام - فأنزل الله آية التخيير : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُمْ تُرِيدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً (٢٨) وَإِن كُنْتُمْ تُرِيدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً (٢٩) ﴾ [الأحزاب] ، وكان من شرفهن ونبلهن أنهن آثرن الله ورسوله ، ولم تمل واحدة منهن إلى اختيار الدنيا .

وكذلك لم يقع منهن ما يقع بين الضرائر - مع كثرتهم - إلا شيء يسير من بعضهن حسب اقتضاء البشرية ، ثم عاتب الله عليه فلم يعدن له مرة أخرى ، وهو الذي ذكره الله في سورة التحريم بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ إلى تمام الآية الخامسة .

وأخيراً : أرى أنه لا حاجة إلى البحث في موضوع مبدأ تعدد الزوجات ، فمن نظر في حياة سكان أوربا الذين يصدر منهم النكير الشديد على هذا المبدأ ، ونظر إلى ما يقاسون من

الشقاوة والمرارة ، وما يأتون من الفضائح والجرائم الشنيعة ، وما يواجهون من البلايا والقلقل لانحرافهم عن هذا المبدأ - كفى له ذلك عن البحث والاستدلال ، فحياتهم أصدق شاهد على عدالة هذا المبدأ ، وإن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار .

الصفات والأخلاق

كان النبي ﷺ يمتاز من جمال خلقه وكمال خلقه بما لا يحيط بوصفه البيان ، وكان من أثره أن القلوب فاضت بإجلاله ، والرجال تفتانوا في حياته وإكباره ، بما لا تعرف الدنيا لرجل غيره ، فالذين عاشروه أحبه إلى حد الهيام ، ولم يبالوا أن تندق أعناقهم ولا يخذش له ظفر ، وما أحبه كذلك إلا لأن أنصبته من الكمال الذي يحب عادة لم يرزق بمثلها بشر . وفيما يلي نورد ملخص الروايات في بيان جماله وكماله مع اعتراف العجز عن الإحاطة .

جمال الخلق :

قالت أم مَعْدٍ الخزاعية عن رسول الله ﷺ - وهي تصفه لزوجها ، حين مر بخيمتها مهاجرة : ظاهر الوضأة ، أبلج الوجه ، حسن الخلق ، لم تبعه ثجلة ، ولم تزر به صعلة ، وسيم قسيم ، في عينيه دَعَج ، وفي أشفاره وطف ، وفي صوته سهل ، وفي عنقه سطع ، أحور ، أكحل ، أزج ، أقرن ، شديد سواد الشعر ، إذا صمت علاه الوقار ، وإن تكلم علاه البهاء ، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد ، وأحسنه وأحلاه من قريب ، حلو المنطق ، فضل ، لا تزر ولا هذر ، كان منطقته خرزات نظمن يتحدرن ، ربعة ، لا تقحمه عين من قصر ، ولا تشؤه من طول ، غصن بين غصنين ، فهو أنظر الثلاثة منظراً ، وأحسنهم قدراً ، له رفقاء يحفون به ، إذا قال استمعوا لقوله ، وإذا أمر تبادروا إلى أمره ، محفود ، محشود ، لا عابس ولا مفند (١) .

وقال على بن أبي طالب - وهو ينعت رسول الله ﷺ : لم يكن بالطويل الممّط ، ولا القصير المتردد ، وكان ربعة من القوم ، ولم يكن بالجعد القَطَط ، ولا بالسبط ، رجلاً ، ولم يكن بالمطهم ، ولا بالمكثم ، وكان في الوجه تدوير ، وكان أبيض مشرباً ، أدعج العينين ، أهدب الأشفار ، جليل المشاش والكتد ، دقيق المسربة ، أجرد ، شثن الكفين والقدمين ، إذا مشى تقلع كأنما يمشى في صَبَب ، وإذا التفت التفت معاً ، بين كتفيه خاتم النبوة ، وهو خاتم النبيين ، أجود الناس كفاً ، وأجراً الناس صدرأ ، وأصدق الناس لهجة ، وأوفى الناس ذمة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، من رآه بديهته هابه ، ومن خالطه

(١) زاد المعاد ٢ / ٥٤ . والوضأة : الجمال ، أبلج الوجه : مشرقه ومضيئه . الثجلة : كبر البطن أو كبر الرأس . لم تزر به : لم تبعه ، والصعلة : صغر الرأس ، والوسيم القسيم : الحسن الجميل ، والدعج : شدة سواد الحدقة ، وفي أشفاره وطف : في شعر أجفانه طول ، والسهل : بحة يسيرة ، سطع : طول ، أحور : شديد بياض العينين في شدة سوادهما ، أزج : متقوس الحاجبين ، أقرن : ملتقى الحاجبين بين العينين ، لانزر ولا هذر : لا قليل ولا كثير بل هو وسط الكلام ، وربعة : أى بين الطويل والقصير . محفود : الذى يخدمه أصحابه ويسرعون إلى امتثال أمره ، محشود : الذى يجتمع إليه الناس ، ولا مفند : أى لا يفند أحداً ، أى لا يهجنه ولا يستقل عقله .

- معرفة أحبه ، يقول ناعته : لم أر قبله ولا بعده مثله ، ﷺ (١) .
- وفي رواية عنه : أنه كان ضَخَمَ الرأس ، ضَخَمَ الكَرَادِيس ، طويل المَسْرَبَةِ ، إذا مشى تَكَفَّأً تَكَفُّيًّا كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ مِنْ صَبَبٍ (٢) .
- وقال جابر بن سَمُرَةَ : كان ضَلِيعَ الفم ، أَشْكَلَ العينين ، مَنهُوسَ العقبين (٣) .
- وقال أبو الطفيل : كان أبيض ، مَلِيحَ الوجه ، مُقَصِّدًا (٤) .
- وقال أنس بن مالك : كان بَسِطَ الكفين . وقال : كان أَزْهَرَ اللون ، ليس بأبيض أَهْمَقَ ، ولا أَدَمَ ، قُبْضٌ وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء (٥) .
- وقال : إنما كان شيء - أى من الشيب - في صُدُغَيْهِ ، وفي رواية : وفي الرأس نَبْذًا (٦) .
- وقال أبو جُحَيْفَةَ : رأيت بياضاً تحت شفته السفلى ، العَنَفَقَةَ (٧) .
- وقال عبد الله بن بُسْرٍ : كان في عنفقه شعرات بيض (٨) .
- وقال البراء : كان مَرَبُوعًا ، بَعِيدًا ما بين المَنْكِبَيْنِ ، له شَعْرٌ يبلغ شَحْمَةَ أُذنيه ، رأته في حُلَّةٍ حمراء ، لم أر شيئاً قط أَحْسَنَ منه (٩) .
- وكان يُسَدِّلُ شعره أولاً لحبه موافقة أهل الكتاب ، ثم فَرَّقَ رأسه بعد (١٠) .
- قال البراء : كان أحسن الناس وجهًا ، وأحسنهم خُلُقًا (١١) .
- وسئل : أكان وجه النبي ﷺ مثل السيف ؟ قال : لا بل مثل القمر . وفي رواية : كان وجهه مستديرًا (١٢) .
- وقالت الرِّبْعُ بنت مُعَوِّذٍ : لو رأته رأيت الشمس طالعة (١٣) .

- (١) ابن هشام ١ / ٤٠١ ، ٤٠٢ ، وجامع الترمذى مع شرحه تحفة الأحوذى ٤ / ٣٠٣ . والمغط : المفرط في الطول . الجعد القلط : شديد الجعودة ، وهى التواء وانقباض في الشعر ، والبسط : مسترسل الشعر ، ورجلا : بين الجعودة والبسوطه ، والمطم : الممتلئ الجسم ، والمكثم : شديد تدوير الوجه ، أهدب : الأشفار : طويل شعر الأجفان ، جليل المشاش : عظيم رءوس العظام مثل الركبتين والمرفقين والمنكبين ، والكند : الكاهل وما يليه من الجسد ، والمسربة : خط الشعر من اللبة إلى السرة ، أجرد : خال من الشعر ، الشثن : الغليظ ، تقلع في مشيته : أى شديد المشى ، الصبيب : ما انحدر من الأرض .
- (٢) جامع الترمذى مع شرحه تحفة الأحوذى ٤ / ٣٠٣ ، والكراديس جمع كردوس : رؤوس العظام ، وقيل : ملتقى كل عظمين ضخمين كالركبتين والمرفقين .
- (٣) صحيح مسلم ٢ / ٢٥٨ . ضليع الفم : واسعه ، أشكل العين : طويل شق العين ، منهوس العقب : قليل لحم العقب .
- (٤) المصدر نفسه . والمقصد : الذى ليس بطويل ولا قصير ولا جسيم .
- (٥) صحيح البخارى ١ / ٥٠٢ ، والأبيض الأهمق : كربه البياض كلون الحص .
- (٦) المصدر السابق نفسه ، وصحيح مسلم ٢ / ٢٥٩ . والنذب : يسير الشيب .
- (٧) صحيح البخارى ١ / ٥٠١ ، ٥٠٢ . (٨) المصدر نفسه ١ / ٥٠٢ .
- (٩) المصدر نفسه . (١٠) صحيح البخارى ١ / ٥٠٣ .
- (١١) صحيح البخارى ١ / ٥٠٢ ، وصحيح مسلم ٢ / ٢٥٨ .
- (١٢) صحيح البخارى ١ / ٥٠٢ ، وصحيح مسلم ٢ / ٢٥٩ .
- (١٣) رواه الدارمى ، مشكاة المصابيح ٢ / ٥١٧ .

وقال جابر بن سَمُرَةَ : رأيته في ليلة إَضْحِيَّانَ ، فجعلت أنظر إلى رسول الله ﷺ وإلى القمر - وعليه حلة حمراء - فإذا هو أحسن عندى من القمر (١) .

وقال أبو هريرة : ما رأيته شيئاً أحسن من رسول الله ﷺ ، كأن الشمس تجري في وجهه ، وما رأيته أحداً أسرع في مشيه من رسول الله ﷺ ، كأنما الأرض تطوى له ، وأنا لنجهد أنفسنا ، وإنه لغير مكترث (٢) .

وقال كعب بن مالك : كان إذا سُرَّ استنار وجهه ، حتى كأنه قطعة قمر (٣) . وعرق مرة وهو عند عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا يَخْصِفُ نَعْلًا ، وهى تغزل غزلًا ، فجعلت تبرق أسارير وجهه ، فلما رأيته بُهِتَتْ وقالت : والله لو رأيك أبو كَبِيرِ الهذلي لعلم أنك أحق بشعره من غيرك :

وإذا نظرت إلى أسرة وجهه برقت كبرق العارض المتهلل (٤)
وكان أبو بكر إذا رآه يقول :

أمين مصطفى بالخير يدعو كضوء البدر زايله الظلام (٥)
وكان عمر ينشد قول زهير في هَرَمِ بن سَنان :

لو كنت من شيء سوى البشر كنت المضيء لليلة البدر
ثم يقول : كذلك كان رسول الله ﷺ (٦) .

وكان إذا غضب احمر وجهه ، حتى كأنما فقيء في وجنتيه حبُّ الرمان (٧) . وقال جابر بن سَمُرَةَ : كان في ساقيه حُمُوشَةٌ ، وكان لا يضحك إلا تَبَسُّمًا . وكنت إذا نظرت إليه قلت : اكْحَلِ العينين ، وليس باكْحَلِ (٨) . وقال عمر بن الخطاب : وكان من أحسن الناس ثُغْرًا (٩) .

قال ابن عباس : كان أَفْلَحَ الثنيتين ، إذا تكلم رؤي كالنور يخرج من بين ثناياه (١٠) . وأما عُنُقُهُ فكانه جِيدٌ دُمِيَّةٌ في صفاء الفضة ، وكان في أَشْفَارِهِ عَطْفٌ ، وفي لحيته كثافة ، وكان واسع الجبين ، أَرْجَحُ الحواجب في غير قرن بينهما ، أَقْنَى العَرْنَيْنِ ، سَهْلٌ

(١) رواه الترمذى في الشماائل ص ٢ ، والدارمى ، مشكاة المصابيح ٢ / ٥١٨ . وإضحيان: مضيفة مقمرة .

(٢) جامع الترمذى مع شرحه تحفة الاحوذى ٤ / ٣٠٦ ، ومشكاة المصابيح ٢ / ٥١٨ .

(٣) صحيح البخارى ١ / ٥٠٢ .

(٤) تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ١ / ٣٢٥ .

(٥ ، ٦) خلاصة السير ص ٢٠ .

(٧) مشكاة المصابيح ١ / ٢٢ ، ورواه الترمذى في أبواب القدر : باب ما جاء في التشديد في الخوض في القدر ٢ / ٣٥ .

(٨) جامع الترمذى مع شرحه تحفة الاحوذى ٤ / ٣٠٦ .

(٩) صحيح مسلم : كتاب الطلاق ، باب في الإيلاء ٣ / ١١٠٧ ، ح (١٤٧٩) .

(١٠) رواه الدارمى ، مشكاة المصابيح ٢ / ٥١٨ .

الخدَّين ، من لُتِّته إلى سُرَّتِه شعر يجري كالقضيبي ، ليس في بطنه ولا صدره شعر غيره ، أشعر الذراعين والمنكبين ، سوءُ البطن والصدر ، مسيح الصدر عريضه ، طويل الزند ، رَحَب الراحة ، سَبَط القَصَب ، خُمَصَان الأَخْمَصَيْن ، سَائِل الأطراف ، إِذَا زَالَ زَالَ قَلْعاً ، يَخْطُو تَكْفِياً وَيَمْشِي هَوْناً (١) .

وقال أنس : ما مسست حريراً ولا ديباجاً ألين من كف النبي ﷺ ، ولا شممت ريحاً قط أو عَرَفاً قط ، وفي رواية : ما شممت عنبراً قط ولا مِسْكَاً ولا شيئاً أطيب من ريح أو عرف رسول الله ﷺ (٢) .

وقال أبو جُحَيْفَةَ : أخذت بيده ، فوضعتها على وجهي ، فإذا هي أبرد من الثلج ، وأطيب رائحة من المسك (٣) .

وقال جابر بن سمرة - وكان صبياً : مسح خَدِّي فوجدت ليده برداً أو ريحاً كأنما أخرجها من جُؤنَةِ عَطَّار (٤) .

وقال أنس : كان عرقه اللؤلؤ . وقالت أم سليم : هو من أطيب الطيب (٥) .

وقال جابر : لم يسلك طريقاً فيتبعه أحد إلا عرف أنه قد سلكه من طيب عَرَفِه . أو قال : من ريح عرقه (٦) .

وكان بين كتفيه خاتم النبوة مثل بيضة الحمامة ، يشبه جسده ، وكان عند نَاعِضِ كتفه اليسرى جُمُعاً ، عليه خيلان كأمثال الثَّالِيل (٧) .

كمال النفس ومكارم الأخلاق:

كان النبي ﷺ يمتاز بفصاحة اللسان ، وبلاغة القول ، وكان من ذلك بالمحل الأفضل ، والموضع الذي لا يجهل ، سلامة طبع ، ونصاعة لفظ ، وجزالة قول ، وصحة معان ، وقلة تكلف ، أوتى جوامع الكلم ، وخص ببدايع الحكم ، وعلم ألسنة العرب ، يخاطب كل قبيلة بلسانها ، ويحاورها بلغتها ، اجتمعت له قوة عارضة البادية وجزالتها ، ونصاعة ألفاظ الحاضرة ورونق كلامها ، إلى التأييد الإلهي الذي مدده الوحي .

وكان الحلم والاحتمال ، والعفو عند المقدرة ، والصبر على المكاره ، صفات أدبه الله بها ،

(١) خلاصة السير ص ١٩ ، ٢٠ . الدمية : الصورة المصورة ، والعطف : الطول ، وأقنى : طول ورقة ، والعرين : الأنف ، وسهل الخدين : أى غير مرتفع الوجنتين ، والزند : طرف الذراع في الكف ، والرحب : الواسع ، وسبط القصب : ممتد الساعدين والساقين ، وخمصان الأخمصين : الأخمص من القدم الذي لا يُلصق بالأرض منها عند الوطء ، وخمصان : مبالغة ، وسائل الأطراف : ممتدتها ، والقلع : رفع الرجل من الأرض عند المشي بقوة ، والتكفى : التمايل إلى قدام .

(٢) صحيح البخارى ١ / ٥٠٣ ، وصحيح مسلم ٢ / ٢٥٧ ، والعرف : الريح .

(٣) صحيح البخارى ١ / ٥٠٢ .

(٤) صحيح مسلم ٢ / ٢٥٦ . وجؤنة العطار : هى التى يعد فيها الطيب ويُحرز .

(٦) رواه الدارمى ، مشكاة المصابيح ٢ / ٥١٧ .

(٧) صحيح مسلم ٢ / ٢٥٩ ، ٢٦٠ . الناعض : أعلى الكتف . وجمعاً : أى مثل جُمع الكف . وخيلان جمع خال : وهو الشامة فى الجسد . والثاليل جمع ثؤلول : خراج يكون بجسم الإنسان ناتئ صلب مستدير .

وكل حليم قد عرفت منه زلة ، وحفظت عنه هَفْوَةٌ ، ولكنه ﷺ لم يزد مع كثرة الأذى إلا صبراً ، وعلى إسراف الجاهل إلا حلماً ، وقالت عائشة : ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً ، فإن كان إثماً كان أبعد الناس عنه ، وما انتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها ^(١) . وكان أبعد الناس غضباً ، وأسرعهم رضاً .

وكان من صفة الجود والكرم على مالا يقادر قدره ، كان يعطى عطاء من لا يخاف الفقر ، قال ابن عباس : كان النبي ﷺ أجود الناس ، وأجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من رمضان ، فيدارسه القرآن ، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة ^(٢) . وقال جابر : ما مثل شيئاً قط فقال : لا ^(٣) .

وكان من الشجاعة والنجدة والبأس بالمكان الذي لا يجهل ، كان أشجع الناس ، حضر المواقف الصعبة ، وفر عنه الكمأة والأبطال غير مرة ، وهو ثابت لا يبرح ، ومقبل لا يدبر ، ولا يتزحزح ، وما شجاع إلا وقد أحصيت له فَرَّةٌ ، وحفظت عنه جولة سواه ، قال على : كنا إذا حمى البأس واحمرت الحَدَقُ ، اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه ^(٤) . قال أنس : فزع أهل المدينة ذات ليلة ، فانطلق ناس قَبْلَ الصوت ، فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعاً ، وقد سبقهم إلى الصوت ، وهو على فرس لأبي طلحة عُرِي ، في عنقه السيف ، وهو يقول : « لم تُراعوا ، لم تُراعوا » ^(٥) .

وكان أشد الناس حياءً وإغضاءً ، قال أبو سعيد الخدري : كان أشد حياء من العذراء في خدرها ، وإذا كره شيئاً عرف في وجهه ^(٦) . وكان لا يثبت نظره في وجه أحد ، خافض الطرف . نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، جُلُّ نظره الملاحظة ، لا يشافه أحداً بما يكره حياء وكرم نفس ، وكان لا يسمى رجلاً بلغ عنه شيء يكرهه ، بل يقول . « ما بال أقوام يصنعون كذا » .

وكان أحق الناس بقول الفرزدق :

يغضى حياءً ويغضى من مهابته فلا يكلم إلا حين يتسم

وكان أعدل الناس ، وأعفهم ، وأصدقهم لهجة ، وأعظمهم أمانة ، اعترف له بذلك مجاوروه وأعداؤه ، وكان يسمى قبل نبوته الأمين ، ويتحاكم إليه في الجاهلية قبل الإسلام ، روى الترمذى عن على أن أبا جهل قال له : إنا لا نكذبك ، ولكن نكذب بما جئت به ، فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ ^(٧) [الانعام] . وسأل هرقل أبا سفيان ، هل تهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا .

وكان أشد الناس تواضعاً ، وأبعدهم عن الكبر ، يمنع عن القيام له كما يقومون للملوك ، وكان يعود المساكين ، ويجالس الفقراء ، ويجيب دعوة العبد ، ويجلس في أصحابه

(١) ، (٢) ، المصدر نفسه ١ / ٥٠٢ .

(١) صحيح البخارى ١ / ٥٠٣ .

(٤) انظر : الشفاء للقاضى عياض ١ / ٨٩ ، ومثل ذلك روى أصحاب الصحاح والسنن .

(٥) صحيح مسلم ٢ / ٢٥٢ ، وصحيح البخارى ١ / ٤٠٧ ، و « لم تراعوا » : لم تغزوا ولم تخافوا .

(٧) مشكاة المصابيح ٢ / ٥٢١ .

(٦) صحيح البخارى ١ / ٥٠٤ .

كأحدهم ، قالت عائشة : كان يخصف نعله ، ويخيط ثوبه ، ويعمل بيده كما يعمل أحدكم فى بيته ، وكان بشراً من البشر يُقلى ثوبه ، ويحلب شاته ، ويخدم نفسه (١) .

وكان أوفى الناس بالعهود، وأوصلهم للرحم ، وأعظمهم شفقة ورأفة ورحمة بالناس ، أحسن الناس عشرة وأدباً ، وأبسط الناس خلقاً ، أبعد الناس من سوء الأخلاق ، لم يكن فاحشاً ، ولا متفحشاً ، ولا لعاناً ، ولا صخاباً فى الأسواق ، ولا يجزى بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح ، وكان لا يدع أحداً يمشى خلفه ، وكان لا يترفع على عبيده وإمائه فى مأكلا ولا ملبس ، ويخدم من خدّمه ، ولم يقل لخدمه أف قط ، ولم يعاتبه على فعل شيء أو تركه ، وكان يحب المساكين ويجالسهم ، ويشهد جنازتهم ، ولا يحقر فقيراً لفقره . كان فى بعض أسفارة فأمر بإصلاح شاة ، فقال رجل : على ذبحها ، وقال آخر : على سلقها ، وقال آخر على طبخها ، فقال ﷺ : « وعلى جمع الحطب » ، فقالوا : نحن نكفيك . فقال : « قد علمت أنكم تكفونى ولكنى أكره أن أتميز عليكم ، فإن الله يكره من عبده أن يراه متميزاً بين أصحابه » ، وقام وجمع الحطب (٢) .

ولترك هند بن أبى هالة يصف لنا رسول الله ﷺ ؛ قال هند فيما قال : كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ، ليست له راحة ، ولا يتكلم فى غير حاجة ، طويل السكوت ، يفتح الكلام ويختمه بأشداقه - لا بأطراف فمه - ويتكلم بجوامع الكلم ، فصلاً ، لا فضول فيه ولا تقصير ، دمثاً ليس بالجافى ولا بالمهين ، يعظم النعمة وإن دقت ، لا يذم شيئاً ، ولم يكن يذم ذواقاً - ما يطعم - ولا يمدحه ، ولا يقام لغضبه إذا تعرض للحق بشيء حتى ينتصر له ، لا يغضب لنفسه ، ولا ينتصر لها - سماحة - وإذا أشار أشار بكفه كلها ، وإذا تعجب قلبها ، وإذا غضب أعرض وأشاح ، وإذا فرح غص طرفه ، جل ضحكته التبس ، ويفتر عن مثل حب الغمام .

وكان يخزن لسانه إلا عما يعنيه ، يؤلف أصحابه ولا يفرقهم ، يكرم كريم كل قوم ، ويؤليه عليهم ، ويحذر الناس ، ويحترس منهم من غير أن يطوى عن أحد منهم بشره .

يتفقد أصحابه ، ويسأل الناس عما فى الناس ، ويحسن الحسن ويصوبه ، ويقبح القبيح ويوهنه ، معتدل الأمر ، غير مختلف ، لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يملوا ، لكل حال عنده عتاد ، لا يقصر عن الحق ، ولا يجاوزه إلى غيره .

الذين يلونه من الناس خيارهم ، وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة ، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة .

كان لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر ، ولا يوطن الأماكن - لا يميز لنفسه مكاناً - إذا انتهى إلى القوم جلس حيث ينتهى به المجلس ، ويأمر بذلك ، ويعطى كل جلسائه نصيبه حتى لا يحسب جلسيه أن أحداً أكرم عليه منه ، من جالسه أو قاومه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه ، ومن سألته حاجة لم يردده إلا بها أو بميسور من القول ، وقد وسع الناس بسطه وخلقه ، فصار لهم أبا ، وصاروا عنده فى الحق متقاربين ، يتفاضلون عنده

بالتقوى، مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة، لا ترفع فيه الأصوات، ولا تؤين فيه الحرم - لا تخشى فلتاته - يتعاطفون بالتقوى، يوقرون الكبير، ويرحمون الصغير، ويرفدون ذا الحاجة، ويؤنسون الغريب.

كان دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صخاب، ولا فحاش، ولا عتاب، ولا مداح، يتغافل عما لا يشتهي، ولا يقنط منه. قد ترك نفسه من ثلاث: الرياء، والإكثار، وما لا يعنيه، وترك الناس من ثلاث: لا يذم أحداً، ولا يعيره، ولا يطلب عورته، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه، إذا تكلم أطرق جلساؤه، كأنما على رءوسهم الطير، وإذا سكت تكلموا. لا يتنازعون عنده الحديث، من تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ، حديثهم حديث أولهم، يضحك مما يضحكون منه، ويعجب مما يعجبون منه، ويصبر للغريب على الجفوة في المنطق، يقول: إذا رأيتم صاحب الحاجة يطلبها فأرفدوه، ولا يطلب الشئ إلا من مكافئ^(١).

وقال خارجه بن زيد: كان النبي ﷺ أوقر الناس في مجلسه، لا يكاد يخرج شيئاً من أطرافه، وكان كثير السكوت، لا يتكلم في غير حاجة، يعرض عن تكلم بغير جميل، كان ضحكه تبسماً، وكلامه فصلاً لا فضول ولا تقصير، وكان ضحك أصحابه عنده التبسم توقيراً له واقتداء به^(٢).

وعلى الجملة، فقد كان النبي ﷺ محلى بصفات الكمال المنقطعة النظير، أدبه ربه فأحسن تأديبه، حتى خاطبه مثنياً عليه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝﴾ [القلم]، وكانت هذه الخلال مما قرب إليه النفوس، وحببه إلى القلوب، وصيره قائداً تهوى إليه الأفئدة، وألان من شكيمة قومه بعد الإباء، حتى دخلوا في دين الله أفواجاً.

وهذه الخلال التي أتينا على ذكرها خطوط قصار من مظاهر كماله وعظيم صفاته، أما حقيقة ما كان عليه من الأمجاد والشمال فأمراً لا يدرك كنهه، ولا يسبر غوره، ومن يستطيع معرفة كنه أعظم بشر في الوجود بلغ أعلى قمة من الكمال، استضاء بنور ربه، حتى صار خلقه القرآن؟

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إِنَّكَ حَمِيدٌ مُجِيدٌ.

اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إِنَّكَ حَمِيدٌ مُجِيدٌ.

- صفى الرحمن المباركفوري -

الجامعة السلفية، بنارس، الهند

(١) انظر: الشفا للقاضي عياض ١ / ١٢١ - ١٢٦، وانظر أيضاً: شمائل الترمذی.

(٢) الشفاء ١ / ١٠٧.

ثبت المصادر والمراجع

- ١ - إتحاف الورى بأخبار أم القرى لنجم الدين، أبى القاسم عمر بن محمد بن محمد الهاشمى المعروف بابن فهذا الملكى (ت ٨٨٥هـ) .
- ٢ - الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان للإمام أحمد بن حبان البستى (٢٧٠ - ٣٥٤ هـ) ، ترتيب : الأمير علاء الدين ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- ٣ - إخبار الكرام بأخبار المسجد الحرام لشهاب السدين ، أحمد بن محمد الأسدى المكى (ت ١٠٦٦ هـ) ، المطبعة السلفية بنارس ، الهند .
- ٤ - الأدب المفرد للإمام محمد بن إسماعيل البخارى (١٩٤ - ٢٥٦ هـ) ، المطبوع مع فضل الله الصمد ، السلفية ، مصر .
- ٥ - الاستيعاب لأبى عمر، يوسف بن عبد البر (٣٦٨ - ٤٦٣ هـ) ، نهضة مصر .
- ٦ - أسد الغابة فى معرفة الصحابة لعز الدين بن الأثير، أبى الحسن على بن محمد الجزرى (٥٥٥ - ٦٣٠ هـ) ، دار الفكر .
- ٧ - الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر ، أحمد بن على بن محمد (٧٧٣ - ٨٥٢ هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- ٨ - الأصنام لأبى المنذر ، هشام بن محمد الكلبي (ت ٢٠٤ هـ) ، تحقيق : أحمد زكى باشا ، الطبعة الثانية ، دار الكتب المصرية ، القاهرة .
- ٩ - أنساب الأشراف لأحمد بن يحيى بن جابر البلاذرى (ت ٢٧٩ هـ) ، دار المعارف .
- ١٠ - البداية والنهاية للحافظ ابن كثير ، أبى الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقى (ت ٧٧٤ هـ) ، مكتبة المعارف ، بيروت .
- ١١ - تاريخ أرض القرآن (أردو) للسيد سليمان الندوى (ت ١٣٧٣ هـ) ، معارف بريس، أعظم كره، الهند، الطبعة الرابعة ١٩٥٥ م .
- ١٢ - تاريخ الأمم والملوك لأبى جعفر، محمد بن جرير الطبرى (٢٢٤ - ٣١٠ هـ) ، الطبعة الخامسة، دار المعارف ، القاهرة .
- ١٣ - تاريخ ابن خلدون (العبر وديوان المبتدأ والخبر) للعلامة عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) ، دار الطباعة الخديوية، بولاق، مصر .
- ١٤ - التاريخ الصغير للإمام أبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى

(١٩٤ - ٢٥٦ هـ) ، الطبعة الأولى ١٣٩٧ هـ ، دار التراث ، القاهرة .

لأبى الفرج ، عبد الرحمن بن الجوزى (ت ٥٩٧ هـ) ، مطبعة التوفيق الأدبية ، مصر .

لليعقوبى ، أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر (ت ٢٩٢ هـ) ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٧٩ هـ .

لأبى العلى ، عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفورى (ت ١٣٥٣ هـ) ، جيد برقى بريس ، دهلى ، الهند ١٣٤٦ - ١٣٥٣ هـ .

لأبى جعفر ، محمد بن جرير الطبرى (٢٢٤ - ٣١٠ هـ) ، دار الفكر ، بيروت .

لأبى عبد الله ، محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى (ت ٦٧١ هـ) ، دار الكتب المصرية .

لأبى الفداء ، إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقى (ت ٧٧٤ هـ) ، مكتبة دار السلام ، الرياض .

لأبى الفرج ، عبد الرحمن بن الجوزى (ت ٥٩٧ هـ) ، جيد برقى بريس دهلى ، الهند .

لابن عساكر ، على بن حسن بن هبة الله (ت ٥٧١ هـ) ، تهذيب : الشيخ عبد القادر بدران (ت ١٣٤٦ هـ) ، دار المسيرة ، بيروت .

لأبى عيسى ، محمد بن عيسى بن سورة الترمذى (٢٠٩ - ٢٧٩ هـ) ، المكتبة الرشيدية ، دهلى ، الهند . ويتحقق أحمد محمد شاكر وغيره .

لابن حزم ، أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسى (٣٨٤ - ٤٥٦ هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى .

لأبى المنذر ، هشام بن محمد بن السائب الكلبي (ت ٢٠٤ هـ) ، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الأولى .

لمحب الدين ، أبى جعفر أحمد بن عبد الله الطبرى (ت ٦٧٤ هـ) ، دلى برنتنك بريس ، دهلى ، الهند .

(الجزء الأول : تاريخ العرب قبل الإسلام) : للدكتور السيد عبد العزيز سالم ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية .

١٥ - تاريخ عمر بن الخطاب

١٦ - تاريخ اليعقوبى

١٧ - تحفة الأحوذى شرح جامع الترمذى

١٨ - تفسير الطبرى (جامع البيان)

١٩ - تفسير القرطبى (الجامع لأحكام القرآن)

٢٠ - تفسير ابن كثير

٢١ - تلقيح فهوم أهل الأثر

٢٢ - تهذيب تاريخ دمشق

٢٣ - جامع الترمذى

٢٤ - جمهرة أنساب العرب

٢٥ - جمهرة النسب

٢٦ - خلاصة السير

٢٧ - دراسات فى تاريخ العرب

- ٢٨- الدر المنثور
جلال الدين، عبد الرحمن بن أبي بكر
السيوطي (ت ٩١١ هـ) ، دار الكتب العلمية ،
بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ .
- ٢٩- دلائل النبوة
لإسماعيل بن محمد بن الفضل التيمي الأصبهاني
(٤٥٧ - ٥٣٥ هـ) ، دار طيبة ، الرياض ، الطبعة الأولى .
- ٣٠- دلائل النبوة:
لأبي نعيم، أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني
(٣٣٦ - ٤٣٠ هـ) ، دار النفائس ، بيروت ، الطبعة
الثانية .
- ٣١- دلائل النبوة
لأبي بكر، أحمد بن حسين البيهقي (٣٨٤ - ٤٥٨ هـ) ،
دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى .
- ٣٢- رحمة للعالمين
للقاضي محمد سليمان سلمان المنصورفوري (ت
١٩٣٠ م) ، الطبعة الأردنية : حنيف بكديو دلهي، الهند،
الطبعة العربية : الدار السلفية ، بومبائي ، الهند .
- ٣٣- رسول أكرم كى سياسى
زندكى (أردو)
ديوبند ، الهند ١٩٦٣ م .
- ٣٤- الروض الأنف
لأبي القاسم، عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد
السهيلي (٥٠٨ - ٥٨١ هـ) ، دار الفكر .
- ٣٥- زاد المعاد
لابن القيم ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن بكر
ابن أيوب (٦٩١ ، ٧٥١ هـ) ، المطبعة المصرية ، الطبعة
الأولى ١٣٤٧ هـ .
- ٣٦- سبائك الذهب
لمحمد أمين بن علي بن محمد سعيد السويدي البغدادي
(ت ١٣٤٦ هـ) ، الطبعة الأولى .
- ٣٧- سفر التكوين
[أحد أسفار العهد العتيق عند أهل الكتاب] .
- ٣٨- سنن أبي داود
لأبي داود ، سليمان بن الأشعث السجستاني (٢٠٢ -
٢٧٥ هـ) ، المطبع المجيدى ، كانفور ، الهند ،
والمكتبة الرحيمية ديوبند ، الهند .
- ٣٩- السنن الكبرى
لأبي بكر أحمد بن حسين بن علي البيهقي (٣٨٤ -
٤٥٨ هـ) .
- ٤٠- سنن ابن ماجه
لأبي عبد الله ، محمد بن يزيد بن ماجه القزويني
(٢٠٩ - ٢٧٣ هـ) .
- ٤١- السنن المجتبى للنسائي
لأبي عبد الرحمن، أحمد بن شعيب النسائي (٢١٥ -
٣٠٣ هـ) ، المكتبة السلفية، لاهور ، باكستان .
- ٤٢- السيرة الحلبية
لعلى بن برهان الدين الحلبي الشافعي (٩٧٥ -
١٠٤٤ هـ) ، طبعة بيروت .

- ٤٣- السيرة النبوية
لأبي حاتم، محمد بن حبان بن أحمد التيمي البستي
(ت ٣٥٤ هـ) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ،
الطبعة الأولى .
- ٤٤- السيرة النبوية
لأبي محمد، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري
(المتوفى ٢١٣ أو ٢١٨ هـ)، مصطفى البابي الحلبي،
الطبعة الثانية ١٣٧٥ هـ .
- ٤٥- شرح السنة
للإمام الحسين بن مسعود الفراء البغوي (٤٣٦ -
٥١٦ هـ)، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى .
- ٤٦- شرح صحيح مسلم
لأبي زكريا، محيي الدين يحيى بن شرف النووي
(ت ٦٧٦ هـ) المكتبة الرشيدية دهلي ، الهند ١٣٧٦ هـ.
- ٤٧- شرح المواهب اللدنية
لمحمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني المصري (ت
١١٢٢ هـ)، دار المعرفة ، بيروت ، الطبعة الثانية .
- ٤٨- الشفا
للقاضي أبي الفضل، عياض بن موسى بن عياض
اليحصبي السبتي (٤٤٦ - ٥٤٤ هـ)، المطبعة العثمانية،
إستانبول ١٣١٢ هـ .
- ٤٩- شمائل الترمذي
لأبي عيسى ، محمد بن عيسى بن سورة الترمذي
(٢٠٩ - ٢٧٩ هـ)، المكتبة الرشيدية، دهلي، الهند .
- ٥٠- صحيح البخاري
للإمام أبي عبد الله، محمد بن إسماعيل البخاري
(ت ٢٥٦ هـ)، المكتبة الرحيمية، ديوبند ، الهند ،
وبترقيم محمد فؤاد عبد الباقي ضمن فتح الباري .
- ٥١- صحيح مسلم
للإمام مسلم بن الحجاج القشيري ، (ت ٢٠٦ -
٢٦١ هـ)، المكتبة الرشيدية ، دهلي ، الهند ، وبترقيم
محمد فؤاد عبد الباقي .
- ٥٢- صحيفة حبقوق
[أحد أسفار العهد العتيق عند أهل الكتاب] .
- ٥٣- الطبقات الكبرى
لمحمد بن سعد (١٦٨ - ٢٣٠ هـ) ، دار صادر ،
بيروت .
- ٥٤- العقد الفريد
لأبي عمر، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي
(٢٤٦ - ٣٢٨ هـ)، لجنة التأليف ١٣٦٣ هـ .
- ٥٥- عون المعبود شرح سنن أبي
داود
لأبي الطيب ، شمس الحق العظيم آبادي (١٢٧٤ -
١٣٢٩ هـ)، الطبعة الأولى الهندية .
- ٥٦- فتح الباري
للمحافظ ابن حجر ، أحمد بن علي بن محمد العسقلاني
(٧٧٣ - ٨٥٢ هـ) المطبعة السلفية ، الروضة ، مصر ،
الطبعة الأولى والثانية .

- ٥٧- فتح القدير
لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) ،
مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، الطبعة الثانية .
- ٥٨- قلائد الجمان
لأبي العباس ، أحمد بن علي القلقشندي (ت ٨٢١ هـ) ،
مطبعة السعادة ، مصر ، الطبعة الأولى .
- ٥٩- قلب جزيرة العرب
لفؤاد حمزة ، المطبعة السلفية ، الروضة ، مصر ،
١٣٥٢ هـ .
- ٦٠- الكامل في التاريخ
لعز الدين بن الأثير ، أبو الحسن علي بن محمد الجزري
الشيواني (٥٥٥ - ٦٣٠ هـ) .
- ٦١- كنز العمال
لعلاء الدين ، علي المتقي بن حسام الدين البرهان فوري ،
الهندي (ت ٩٧٥ هـ) مؤسسة الرسالة ، بيروت ،
الطبعة الخامسة .
- ٦٢- اللسان
لابن منظور ، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم
ابن علي الأنصاري (٦٣٠ - ٧١١ هـ) ، دار المعارف ،
القاهرة .
- ٦٣- مجمع الزوائد
للمحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي (٨٠٧ هـ) ،
مكتبة المعارف ، بيروت ، ١٤٠٦ هـ .
- ٦٤ - محاضرات تاريخ الأمم
الإسلامية
لمحمد بن عفيفي الباجوري المعروف بالخضري بك
(١٢٨٩ - ١٣٤٥ هـ) ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ،
الطبعة الثامنة ١٣٨٢ هـ .
- ٦٥- مختصر سيرة الرسول ﷺ
للشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب النجدي (ت
١٢٤٢ هـ) ، المكتبة السلفية ، الروضة ، مصر ،
١٣٧٩ هـ .
- ٦٦- مدارك التنزيل
٦٧ - مروج الذهب ومعادن
الجوهر
لأبي الحسن ، علي بن حسين بن علي المسعودي (ت
٣٤٦ هـ) ، دار المعرفة ، بيروت .
- ٦٨- المستدرک علی الصحیحین
لأبي عبد الله ، محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه
المعروف بالحاكم النيسابوري (٣٢١ - ٤٠٥ هـ) ، دار
المعرفة ، بيروت .
- ٦٩- مسند الإمام أحمد
للإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (١٦٤ -
٢٤١ هـ) ، دار الفكر العربي ، وبتحقيق أحمد محمد
شاكر ، دار المعارف مصر ، الطبعة الثالثة .
- ٧٠- مسند البزار
لأبي بكر ، أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار
(ت ٢٩٢ هـ) .
- ٧١- مسند خليفة بن خياط
لخليفة بن خياط ، المعروف بشباب العصفري (ت ٢٤٠ هـ) ،

تحقيق : د / أكرم ضياء العمرى ، الشركة المتحدة للتوزيع ، بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ .

للإمام أبى محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل ابن بهرام الدارمى (١٨١ - ٢٥٥ هـ) ، دار إحياء السنة النبوية .

لأبى داود، سليمان بن داود بن الجارود الفارسى البصرى المعروف بالطيالسى (٢٠٤ هـ) ، دار المعرفة ، بيروت .

لأبى يعلى ، أحمد بن على بن المثنى التميمى (ت ٢١٠ - ٣٠٧ هـ) ، دار المأمون للتراث ، دمشق ، بيروت ، الطبعة الأولى .

لولى الدين ، محمد بن عبد الله الخطيب التبريزى (المتوفى فى القرن الثامن الهجرى) ، المكتبة الرحيمية ، ديوبند ، الهند .

لأبى بكر ، عبد الله بن محمد بن أبى شيبة العبسى (ت ٢٣٥ هـ) الدار السلفية ، بومبائى ، الهند ، الطبعة الأولى .

لأبى بكر ، عبد الرزاق بن همام الصنعانى (١٢٦ - ٢١١ هـ) المجلس العلمى ، جوهانسبرغ ، كراتشى ، داهيل ، الطبعة الثانية .

لابن قتيبة الدينورى ، أبى محمد عبد الله بن مسلم (٢١٣ - ٢٧٦ هـ) ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الرابعة .

للحافظ أبى القاسم ، سليمان بن أحمد الطبرانى (٢٦٠ - ٣٦٠ هـ) ، مكتبة المعارف ، الرياض ، الطبعة الأولى .

أيضاً للطبرانى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، طبعة ١٤٠٣ هـ .

لياقوت الحموى ، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى البغدادى (ت ٦٢٦ هـ) ، دار صادر ، بيروت .

لمحمد بن عمر بن واقد (ت ٢٠٧ هـ) ، تحقيق : مارسدن جونس ، عالم الكتب ، بيروت .

محمد حبيب البغدادى (ت ٢٤٥ هـ) ، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الأولى .

٧٢ - مسند الدارمى

٧٣ - مسند أبى داود الطيالسى

٧٤ - مسند أبى يعلى

٧٥ - مشكاة المصابيح

٧٦ - المصنف لابن أبى شيبة

٧٧ - المصنف لعبد الرزاق

٧٨ - المعارف

٧٩ - المعجم الأوسط

٨٠ - المعجم الصغير

٨١ - معجم البلدان

٨٢ - مغازى الواقدى

٨٣ - المنق فى أخبار قریش

- ٨٤- المواهب اللدنية لشهاب الدين ، أبى العباس أحمد بن محمد القسطلانى المصرى (ت ٩٢٣ هـ) .
- ٨٥- موطأ الإمام مالك للإمام مالك بن أنس الأصبحى (ت ٩٣ - ١٦٩ هـ) ، المكتبة الرحيمية ، ديوبند ، الهند .
- ٨٦- نتائج الأفهام فى تقويم العرب قبل الإسلام لمحمود باشا الفلكى ، تعريب : أحمد زكى أفندى ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت .
- ٨٧- نسب قریش لأبى عبد الله ، المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيرى (١٥٦ - ٢٣٦ هـ) ، دار المعارف ، مصر ، الطبعة الثالثة .
- ٨٨- نسب معد واليمن الكبير لأبى المنذر، هشام بن محمد الكلبي (٢٠٤ هـ) ، مكتبة النهضة العربية .
- ٨٩- نهاية الأرب فى معرفة قبائل العرب لأبى العباس أحمد بن على القلقشندى (ت ٨٢١ هـ) ، تحقيق إبراهيم الأبيارى ، مصر ، الطبعة الأولى ١٩٥٩ هـ .
- ٩٠- وفاء الوفاء لنور الدين ، على بن أحمد المصرى السمهودى (٨٤٤ - ٩١١ هـ) ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت .
- ٩١- اليمن عبر التاريخ لأحمد حسين شرف الدين ، مطابع البادية ، الرياض ، الطبعة الثالثة ١٤٠٠ هـ .



تفويض


الزفر	صفى الرحمن المباركفوري
المريض	م ب : ١٠٠٣٣ ، المدينة المنورة
التاريخ ٢١٤٤/١٠/٢	المملكة العربية السعودية

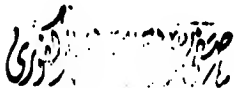
المراجعة ١٤٩٩/٥/١٨

فوضنا نحن الشيخ/ صفى الرحمن المباركفوري (مؤلف كتاب الرجيق المختوم)
وصاحب الحق المادي والأدبي الوحيد في مادته العلمية .
السادة/ دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - بالمنصورة بجمهورية مصر العربية في
الحفاظ على حقوق المؤلف والقيام بمتابعة الطبعات غير الشرعية للكتاب قضائياً بموجب
هذا التفويض ، واتخاذ الإجراءات القانونية حيال ذلك ، ولهم الحق في تحصيل كافة الحقوق
المادية المتعلقة بهذا الأمر .

وهذا تفويض منا بذلك ،،،

المفوض/ الشيخ صفى الرحمن المباركفوري

التوقيع/ 



الفهرس

الصفحة

الموضوع

٥	كلمة الناشر
٩	بين يدي الكتاب
١١	كلمة معالى الدكتور عبد الله عمر نصيف
١٣	كلمة معالى الشيخ محمد بن على الحر كان - رحمه الله
١٧	كلمة المؤلف

العرب

الأرض والشعب ، الحكم والاقتصاد، الديانة والاجتماع

٢١	موقع العرب وأقوامها
٢١	موقع العرب
٢٢	أقوام العرب
٢٩	الحكم والإمارة فى العرب
٢٩	المملك باليمن
٣١	المملك بالخيرة
٣٢	المملك بالشام
٣٣	الإمارة بالحجاز
٣٧	الحكم فى سائر العرب
٣٨	الحالة السياسية
٣٩	ديانات العرب
٤٧	الحالة الدينية
٤٨	صور من المجتمع العربى الجاهلى
٤٨	الحالة الاجتماعية
٥٠	الحالة الاقتصادية
٥٠	الأخلاق

النسب والمولد والنشأة

٥٥	نسب النبى ﷺ وأسرته
٥٥	نسب النبى ﷺ

٥٦	الأسرة النبوية
٦١	المولد وأربعون عاماً قبل النبوة
٦١	المولد
٦٢	فى بنى سعد
٦٣	شق الصدر
٦٤	إلى أمه الحنون
٦٤	إلى جده العطوف
٦٤	إلى عمه الشفيق
٦٤	يستسقى الغمام بوجهه
٦٥	بحيرى الراهب
٦٥	حرب الفجار
٦٦	حلف الفضول
٦٦	حياة الكدح
٦٧	زواجه بخديجة
٦٧	بناء الكعبة وقضية التحكيم
٦٨	السيرة الإجمالية قبل النبوة

حياة النبوة والرسالة والدعوة

٧٣	النبوة والدعوة - العهد للمكى
٧٤	فى ظلال النبوة والرسالة
٧٤	فى غار حراء
٧٤	جبريل ينزل بالوحى
٧٦	فترة الوحى
٧٧	جبريل ينزل بالوحى مرة ثانية
٧٨	أقسام الوحى
٨٠	المرحلة الأولى من جهاد الدعوة إلى الله
٨٠	ثلاث سنوات من الدعوة السرية
٨٠	الرعىل الأول
٨١	الصلاة
٨٣	المرحلة الثانية (الدعوة جهاراً)
٨٣	أول أسر يظهري الدعوة
٨٣	الدعوة فى الأقربين
٨٤	على جبل الصفا
٨٥	المجلس الاستشارى لكف الحجاج عن استماع الدعوة

٤٢٩	فهرس الموضوعات
٨٦	أساليب شتى لمجابهة الدعوة
٩٠	الاضطهادات
٩٢	موقف المشركين من رسول الله ﷺ
٩٣	وفد قريش إلى أبي طالب
٩٣	قريش يهددون أبا طالب
٩٤	قريش بين يدي أبي طالب مرة أخرى
٩٤	اعتداءات على رسول الله ﷺ
٩٧	دار الأرقم
٩٨	الهجرة الأولى إلى الحبشة
٩٨	سجود المشركين مع المسلمين وعودة المهاجرين
٩٩	الهجرة الثانية إلى الحبشة
٩٩	مكيدة قريش بمهاجرة الحبشة
١٠١	الشدة في التعذيب ومحاولة القضاء على رسول الله ﷺ
١٠٢	إسلام حمزة ؓ
١٠٣	إسلام عمر بن الخطاب ؓ
١٠٦	مثل قريش بين يدي الرسول ﷺ
١٠٨	رؤساء قريش يفاوضون رسول الله ﷺ
١٠٨	عزم أبي جهل على قتل رسول الله ﷺ
١٠٩	مساومات وتنازلات
١١٠	حيرة قريش وتفكيرهم الجاد واتصالهم باليهود
١١١	موقف أبي طالب وعشيرته
١١٢	المقاطعة العامة
١١٢	ميثاق الظلم والعدوان
١١٢	ثلاثة أعوام في شعب أبي طالب
١١٣	نقض صحيفة الميثاق
١١٥	آخر وفد قريش إلى أبي طالب
١١٧	عام الحزن
١١٧	وفاة أبي طالب
١١٧	خديجة إلى رحمة الله
١١٨	تراكم الأحزان
١١٨	الزواج بسودة ؓ
١١٩	عوامل الصبر والثبات
١٢٥	المرحلة الثالثة (دعوة الإسلام خارج مكة)
١٢٥	الرسول ﷺ في الطائف

- ١٢٩ _____ عرض الإسلام على القبائل والأفراد
- ١٢٩ _____ القبائل التي عرض عليها الإسلام
- ١٣٠ _____ المؤمنون من غير أهل مكة
- ١٣٢ _____ ست نسمات طيبة من أهل يثرب
- ١٣٤ _____ استطرد - زواج رسول الله ﷺ بعائشة
- ١٣٥ _____ الإسراء والمعراج
- ١٣٩ _____ بيعة العقبة الأولى
- ١٣٩ _____ سفير الإسلام في المدينة
- ١٤٠ _____ النجاح المغتبط
- ١٤٢ _____ بيعة العقبة الثانية
- ١٤٢ _____ بداية المحادثة وتشريح العباس لخطورة المسؤولية
- ١٤٣ _____ بنود البيعة
- ١٤٤ _____ التأكيد من خطورة البيعة
- ١٤٤ _____ عقد البيعة
- ١٤٥ _____ اثنا عشر نقيباً
- ١٤٦ _____ شيطان يكشف المعاهدة
- ١٤٦ _____ استعداد الأنصار لضرب قريش
- ١٤٦ _____ قريش تقدم الاحتجاج إلى رؤساء يثرب
- ١٤٦ _____ تأكد الخبر لدى قريش ومطاردة المبايعين
- ١٤٨ _____ طلائع الهجرة
- ١٥٠ _____ في دار الندوة (برلمان قريش)
- ١٥١ _____ النقاش البرلماني والإجماع على قرار غاشم بقتل النبي ﷺ
- ١٥٣ _____ هجرة النبي ﷺ
- ١٥٣ _____ بين تدبير قريش وتدبير الله سبحانه وتعالى
- ١٥٣ _____ تطويق منزل الرسول ﷺ
- ١٥٤ _____ الرسول ﷺ يغادر بيته
- ١٥٥ _____ من الدار إلى الغار
- ١٥٥ _____ إذ هما في الغار
- ١٥٧ _____ في الطريق إلى المدينة
- ١٦٠ _____ النزول بقباء
- ١٦٢ _____ الدخول في المدينة

العهد المدني عهد الدعوة والجهاد والنجاح

- ١٦٧ _____ مراحل الدعوة والجهاد فى العهد المدني
- ١٦٩ _____ سكان المدينة وأحوالهم عند الهجرة
- ١٧٤ _____ المرحلة الأولى : بناء مجتمع جديد
- ١٧٤ _____ بناء المسجد النبوى
- ١٧٥ _____ المؤاخاة بين المسلمين
- ١٧٦ _____ ميثاق التحالف الإسلامى
- ١٧٧ _____ أثر المعنويات فى المجتمع
- ١٨٠ _____ معاهدة مع اليهود
- ١٨١ _____ بنود المعاهدة
- ١٨٢ _____ الكفاح الدامى
- ١٨٢ _____ استفزازات قريش واتصالهم بعبد الله بن أبى
- ١٨٢ _____ إعلان عزيمة الصد عن المسجد الحرام
- ١٨٣ _____ قريش تهدد المهاجرين
- ١٨٣ _____ الإذن بالقتال
- ١٨٤ _____ الغزوات والسرايا قبل بدر
- ١٩٠ _____ غزوة بدر الكبرى
- ١٩٠ _____ سبب الغزوة
- ١٩٠ _____ مبلغ قوة الجيش الإسلامى وتوزيع القيادات
- ١٩١ _____ الجيش الإسلامى يتحرك نحو بدر
- ١٩١ _____ النذير فى مكة
- ١٩١ _____ أهل مكة يتجهزون للغزو
- ١٩٢ _____ قوام الجيش المكى
- ١٩٢ _____ مشكلة قبائل بنى بكر
- ١٩٢ _____ جيش مكة يتحرك
- ١٩٢ _____ العير تفلت
- ١٩٢ _____ هم الجيش المكى بالرجوع ، ووقوع الانشقاق فيه
- ١٩٣ _____ موقف الجيش الإسلامى فى ضيق وخرج
- ١٩٣ _____ المجلس الاستشارى
- ١٩٤ _____ الجيش الإسلامى يواصل سيره
- ١٩٤ _____ الرسول ﷺ يقوم بعملية الاستكشاف
- ١٩٥ _____ الحصول على أهم المعلومات عن الجيش المكى

- ١٩٥ نزول المطر
- ١٩٥ الجيش الإسلامى يسبق إلى أهم المراكز العسكرية
- ١٩٦ مقر القيادة
- ١٩٦ تعبئة الجيش وقضاء الليل
- ١٩٦ الجيش المكى فى عرصة القتال ووقوع الانشقاق فيه
- ١٩٩ الجيشان يترآآن
- ١٩٩ ساعة الصفر وأول وقود المعركة
- ٢٠٠ المباراة
- ٢٠٠ الهجوم العام
- ٢٠٠ الرسول ﷺ يناشد ربه
- ٢٠١ نزول الملائكة
- ٢٠١ الهجوم المضاد
- ٢٠٢ إبليس ينسحب عن ميدان القتال
- ٢٠٢ الهزيمة الساحقة
- ٢٠٢ صمود أبى جهل
- ٢٠٣ مصرع أبى جهل
- ٢٠٤ من روائع الإيمان فى هذه المعركة
- ٢٠٦ قتلى الفريقين
- ٢٠٧ مكة تتلقى نبأ الهزيمة
- ٢٠٨ المدينة تتلقى أنباء النصر
- ٢٠٨ الجيش النبوى يتحرك نحو المدينة
- ٢٠٩ وفود التهئة
- ٢١٠ قضية الأسارى
- ٢١١ القرآن يتحدث حول موضوع المعركة
- ٢١٣ النشاط العسكرى بين بدر وأحد
- ٢١٣ غزوة بنى سليم بالكدر
- ٢١٤ مؤامرة لاغتيال النبى ﷺ
- ٢١٦ غزوة بنى قينقاع
- ٢١٦ نموذج من مكيدة اليهود
- ٢١٧ بنوقينقاع ينقضون العهد
- ٢١٨ الحصار ثم التسليم ثم الجلاء
- ٢١٨ غزوة السويق
- ٢١٩ غزوة ذى أمر
- ٢٢٠ قتل كعب بن الأشرف

٤٣٣	فهرس الموضوعات
٢٢٢	غزوة بحران
٢٢٣	سرية زيد بن حارثة
٢٢٥	غزوة أحد
٢٢٥	استعداد قريش لمعركة ناقمة
٢٢٦	قوام جيش قريش وقيادته
٢٢٦	جيش مكة يتحرك
٢٢٦	الاستخبارات النبوية تكشف حركة العدو
٢٢٦	استعداد المسلمين للطوارئ
٢٢٦	الجيش المكي إلى أسوار المدينة
٢٢٧	المجلس الاستشارى لأخذ خطة الدفاع
٢٢٧	تكتيب الجيش الإسلامى وخروجه إلى ساحة القتال
٢٢٨	استعراض الجيش
٢٢٩	المبيت بين أحد والمدينة
٢٢٩	تمرد عبد الله بن أبى وأصحابه
٢٢٩	بقية الجيش الإسلامى إلى أحد
٢٣٠	خطة الدفاع
٢٣١	الرسول ﷺ ينفث روح البسالة فى الجيش
٢٣١	تعبئة الجيش المكي
٢٣٢	مناورات سياسية من قبل قريش
٢٣٢	جهود نسوة قريش فى التحميس
٢٣٣	أول وقود المعركة
٢٣٣	نقل المعركة حول اللواء وإبادة حملته
٢٣٤	القتال فى بقية النقاط
٢٣٥	مصراع أسد الله حمزة بن عبد المطلب
٢٣٦	السيطرة على الموقف
٢٣٦	من أحضان المرأة إلى مقارعة السيوف والدرقة
٢٣٦	نصيب فضيلة الرماة فى المعركة
٢٣٦	الهزيمة تنزل بالمشركين
٢٣٧	غلطة الرماة الفظيعة
٢٣٧	خالد بن الوليد يقوم بخطة تطويق الجيش الإسلامى
٢٣٨	موقف الرسول الباسل إزاء عمل التطويق
٢٣٨	تبدد المسلمين فى الموقف
٢٣٩	احتدام القتال حول رسول الله ﷺ
٢٤٠	أخرج ساعة فى حياة الرسول ﷺ

٢٤١	بداية تجمع الصحابة حول الرسول ﷺ
٢٤٢	تضاعف ضغط المشركين
٢٤٣	البطولات النادرة
٢٤٤	إشاعة مقتل النبي ﷺ وأثره على المعركة
٢٤٤	الرسول ﷺ يواصل المعركة وينقذ الموقف
٢٤٦	مقتل أبي بن خلف
٢٤٦	طلحة ينهض بالنبي ﷺ
٢٤٧	آخر هجوم قام به المشركون
٢٤٧	تشويه الشهداء
٢٤٧	مدى استعداد أبطال المسلمين للقتال حتى نهاية المعركة
٢٤٨	بعد انتهاء الرسول ﷺ إلى الشعب
٢٤٨	شماتة أبي سفيان بعد نهاية المعركة وحديثه مع عمر
٢٤٩	مواعدة التلاقي في بدر
٢٤٩	التثبت من موقف المشركين
٢٤٩	تفقد القتلى والجرحى
٢٥٠	جمع الشهداء ودفنهم
٢٥١	الرسول ﷺ ينشئ على ربه عز وجل ويدعوه
٢٥٢	الرجوع إلى المدينة ، ونوادير الحب والتفاني
٢٥٢	الرسول ﷺ في المدينة
٢٥٢	قتلى الفريقين
٢٥٣	حالة الطوارئ في المدينة
٢٥٣	غزوة حمراء الأسد
٢٥٦	القرآن يتحدث حول موضوع المعركة
٢٥٦	الحكم والغايات المحموده في هذه الغزوة
٢٥٨	السرايا والبعوث بين أحد والأحزاب
٢٥٨	سرية أبي سلمة
٢٥٨	بعث عبد الله بن أنيس
٢٥٩	بعث الرجيع
٢٦٠	مأساة بئر معونة
٢٦١	غزوة بني النضير
٢٦٤	غزوة نجد
٢٦٥	غزوة بدر الثانية
٢٦٦	غزوة دومة الجندل
٢٦٧	غزوة الأحزاب

٤٣٥	فهرس الموضوعات
٢٧٨	غزوة بنى قريظة
٢٨٢	النشاط العسكرى بعد هذه الغزوة
٢٨٢	مقتل سلام بن أبى الحقيق
٢٨٣	سرية محمد بن مسلمة
٢٨٤	غزوة بنى لحيان
٢٨٤	متابعة البعوث والسرايا
٢٨٦	غزوة بنى المصطلق أو غزوة المريسيع
٢٨٧	دور المنافقين قبل غزوة بنى المصطلق
٢٨٩	دور المنافقين فى غزوة بنى المصطلق
٢٨٩	١ - قول المنافقين: ﴿لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾
٢٩٠	٢ - حديث الإفك
٢٩٣	البعوث والسرايا بعد غزوة المريسيع
٢٩٤	عمرة الحديبية
٢٩٤	سبب عمرة الحديبية
٢٩٤	استنفار المسلمين
٢٩٥	المسلمون يتحركون إلى مكة
٢٩٥	محاولة قريش صد المسلمين عن البيت
٢٩٥	تبديل الطريق ومحاولة اجتناب اللقاء الدامى
٢٩٦	بديل يتوسط بين رسول الله ﷺ وقريش
٢٩٦	رسل قريش
٢٩٧	هو الذى كف أيديهم عنكم
٢٩٧	عثمان بن عفان سفيراً إلى قريش
٢٩٨	إشاعة مقتل عثمان وبيعة الرضوان
٢٩٨	إبرام الصلح وبنوده
٢٩٩	رد أبى جندل
٢٩٩	النحر والخلق للحل عن العمرة
٢٩٩	الإباء عن رد المهاجرات
٣٠٠	ماذا يتمخض عن بنود المعاهدة
٣٠١	حزن المسلمين ومناقشة عمر النبى ﷺ
٣٠٢	انحلت أزمة المستضعفين
٣٠٢	إسلام أبطال من قريش
٣٠٣	المرحلة الثانية (طور جديد)
٣٠٤	مكاتبة الملوك والأمراء
٣٠٤	١ - الكتاب إلى النجاشى ملك الحبشة

- ٢ - الكتاب إلى المقوقس ملك مصر ٣٠٦
- ٣ - الكتاب إلى كسرى ملك فارس ٣٠٦
- ٤ - الكتاب إلى قيصر ملك الروم ٣٠٨
- ٥ - الكتاب إلى المنذر بن ساوى ٣١٠
- ٦ - الكتاب إلى هوزة بن على صاحب اليمامة ٣١٠
- ٧ - الكتاب إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى صاحب دمشق ٣١١
- ٨ - الكتاب إلى ملك عمان ٣١١
- النشاط العسكرى بعد صلح الحديبية ٣١٤
- غزوة الغابة أو غزوة ذى قرد ٣١٤
- غزوة خيبر ووادى القرى ٣١٦
- سبب الغزوة ٣١٦
- الخروج إلى خيبر ٣١٦
- عدد الجيش الإسلامى ٣١٦
- اتصال المنافقين باليهود ٣١٧
- الطريق إلى خيبر ٣١٧
- بعض ما وقع فى الطريق ٣١٧
- الجيش الإسلامى إلى أسوار خيبر ٣١٨
- حصون خيبر ٣١٨
- معسكر الجيش الإسلامى ٣١٩
- التهيؤ للقتال وبشارة الفتح ٣١٩
- بدء المعركة وفتح حصن ناعم ٣١٩
- فتح حصن الصعب بن معاذ ٣٢١
- فتح قلعة الزبير ٣٢١
- فتح قلعة أبى ٣٢١
- فتح حصن النزار ٣٢٢
- فتح الشطر الثانى من خيبر ٣٢٢
- المفاوضة ٣٢٣
- قتل ابنى أبى الحقيق لنقض العهد ٣٢٣
- قسمة الغنائم ٣٢٣
- قدوم جعفر بن أبى طالب والأشعرين ٣٢٤
- الزواج بصفية ٣٢٤
- أمر الشاة المسمومة ٣٢٥
- قتلى الفريقين فى معارك خيبر ٣٢٥
- فدك ٣٢٦

٤٣٧	فهرس الموضوعات
٣٢٦	وادی القرى
٣٢٦	تیماء
٣٢٧	العودة إلى المدينة
٣٢٧	سرية أبان بن سعید
٣٢٨	بقية السرايا والغزوات فی السنة السابعة
٣٢٨	غزوة ذات الرقاع
٣٢٩	السرايا
٣٣٢	عمرة القضاء
٣٣٤	معركة مؤتة
٣٣٤	سبب المعركة
٣٣٤	أمراء الجيش ووصية رسول الله ﷺ إليهم
٣٣٤	توديع الجيش الإسلامي وبكاء عبد الله بن رواحة
٣٣٥	تحرك الجيش الإسلامي ومباغتته حالة رهبة
٣٣٥	المجلس الاستشاري بمعان
٣٣٥	الجيش الإسلامي يتحرك نحو العدو
٣٣٥	بداية القتال وتناوب القواد
٣٣٦	الراية إلى سيف من سيوف الله
٣٣٧	نهاية المعركة
٣٣٧	قتلى الفريقين
٣٣٧	أثر المعركة
٣٣٨	سرية ذات السلاسل
٣٣٩	سرية أبي قتادة إلى خضرة
٣٤٠	غزوة فتح مكة
٣٤٠	سبب الغزوة
٣٤١	أبو سفيان يخرج إلى المدينة ليجدد الصلح
٣٤٢	التهيؤ للغزوة ومحاولة الإخفاء
٣٤٣	الجيش الإسلامي يتحرك نحو مكة
٣٤٤	الجيش الإسلامي ينزل بمر الظهران
٣٤٤	أبو سفيان بين يدي رسول الله ﷺ
٣٤٥	الجيش الإسلامي يغادر مر الظهران إلى مكة
٣٤٦	قريش تباغت زحف الجيش الإسلامي
٣٤٧	الجيش الإسلامي بذى طوى
٣٤٧	الجيش الإسلامي يدخل مكة
٣٤٧	الرسول ﷺ يدخل المسجد الحرام ويطهره من الأصنام

- ٣٤٨ الرسول ﷺ يصلى فى الكعبة ثم يخطب أمام قريش
- ٣٤٨ لا تثريب عليكم اليوم
- ٣٤٨ مفتاح البيت إلى أهله
- ٣٤٩ بلال يؤذن على الكعبة
- ٣٤٩ صلاة الفتح أو صلاة الشكر
- ٣٤٩ إهدار دماء رجال من أكابر المجرمين
- ٣٥٠ إسلام صفوان بن أمية وفضالة بن عمير
- ٣٥٠ خطبة الرسول ﷺ فى اليوم الثانى من الفتح
- ٣٥١ تخوف الأنصار من بقاء رسول الله ﷺ فى مكة
- ٣٥١ أخذ البيعة
- ٣٥٢ إقامته ﷺ بمكة وعمله فيها
- ٣٥٢ السرايا والبعوث
- ٣٥٥ المرحلة الثالثة
- ٣٥٦ غزوة حنين
- ٣٥٦ مسير العدو ونزوله بأوطاس
- ٣٥٦ مجرب الحروب يغلط رأى القائد
- ٣٥٧ سلاح استكشاف العدو
- ٣٥٧ سلاح استكشاف رسول الله ﷺ
- ٣٥٧ الرسول ﷺ يغادر مكة إلى حنين
- ٣٥٧ الجيش الإسلامى يباغت بالرماة المهاجمين
- ٣٥٨ رجوع المسلمين واحتدام المعركة
- ٣٥٩ انكسار حدة العدو وهزيمته الساحقة
- ٣٥٩ حركة المطاردة
- ٣٥٩ الغنائم
- ٣٥٩ غزوة الطائف
- ٣٦١ قسمة الغنائم بالجعرانة
- ٣٦١ الأنصار تجدد على رسول الله ﷺ
- ٣٦٢ قدوم وفد هوازن
- ٣٦٣ العمرة والانصراف إلى المدينة
- ٣٦٤ البعث والسرايا بعد الرجوع من غزوة الفتح
- ٣٦٤ المصدقون
- ٣٦٥ السرايا
- ٣٦٨ غزوة تبوك
- ٣٦٨ سبب الغزوة

٤٣٩	فهرس الموضوعات
٣٦٨	الأخبار العامة عن استعداد الرومان وغسان
٣٦٩	الأخبار الخاصة عن استعداد الرومان وغسان
٣٦٩	زيادة خطورة الموقف
٣٧٠	الرسول ﷺ يقرر القيام بإقدام حاسم
٣٧٠	الإعلان بالتهيؤ لقتال الرومان
٣٧٠	المسلمون يتسابقون إلى التجهز للغزو
٣٧١	الجيش الإسلامي إلى تبوك
٣٧٢	الجيش الإسلامي بتبوك
٣٧٣	الرجوع إلى المدينة
٣٧٣	المخلفون
٣٧٤	أثر الغزوة
٣٧٥	نزول القرآن حول موضوع الغزوة
٣٧٦	بعض الوقائع المهمة فى هذه السنة
٣٧٧	حج أبى بكر
٣٧٨	نظرة على الغزوات
٣٨٠	الناس يدخلون فى دين الله أفواجا
٣٨٠	الوفود
٣٨٩	نجاح الدعوة وأثرها
٣٩١	حجة الوداع
٣٩٤	آخر البعوث

آخر باب من الحياة الطيبة

٣٩٩	إلى الرفيق الأعلى
٣٩٩	طلائع التوديع
٣٩٩	بداية المرض
٣٩٩	الأسبوع الأخير
٤٠٠	قبل الوفاة بخمسة أيام
٤٠١	قبل أربعة أيام
٤٠١	قبل ثلاثة أيام
٤٠٢	قبل يوم أو يومين
٤٠٢	قبل يوم
٤٠٢	آخر يوم من الحياة
٤٠٣	الاحتضار
٤٠٣	تفارق الأحزان على الصحابة

٤٤٠ الرحيق المختوم

٤٠٤ موقف عمر

٤٠٤ موقف أبي بكر

٤٠٥ التجهيز وتوديع الجسد الشريف إلى الأرض

٤٠٦ البيت النبوي

٤١٢ الصفات والأخلاق

٤١٢ جمال الخلق

٤١٥ كمال النفس ومكارم الأخلاق

٤١٩ ثبت المصادر والمراجع

٤٢٧ الفهرس

رقم الإيداع : ١٠٨٧٤ / ١٩٩٩ م

I. S. B. N : 977 - 15 - 0269 - 7